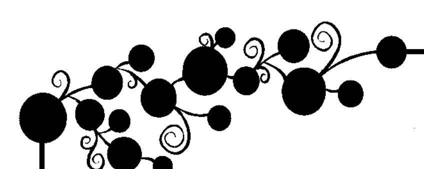


موسوعة محاسن الإسلام

ورد شبهات اللئام

تأليف

أحمد بن سليمان أيوب

ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف

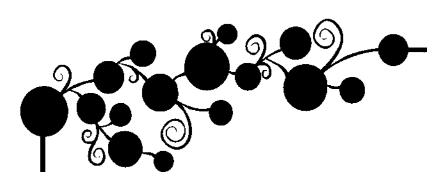
د. سليمان الدريع

المجلد الأول

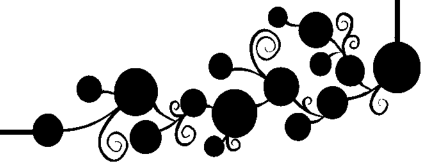
المقدمة وبطلان ألوهية المسيح

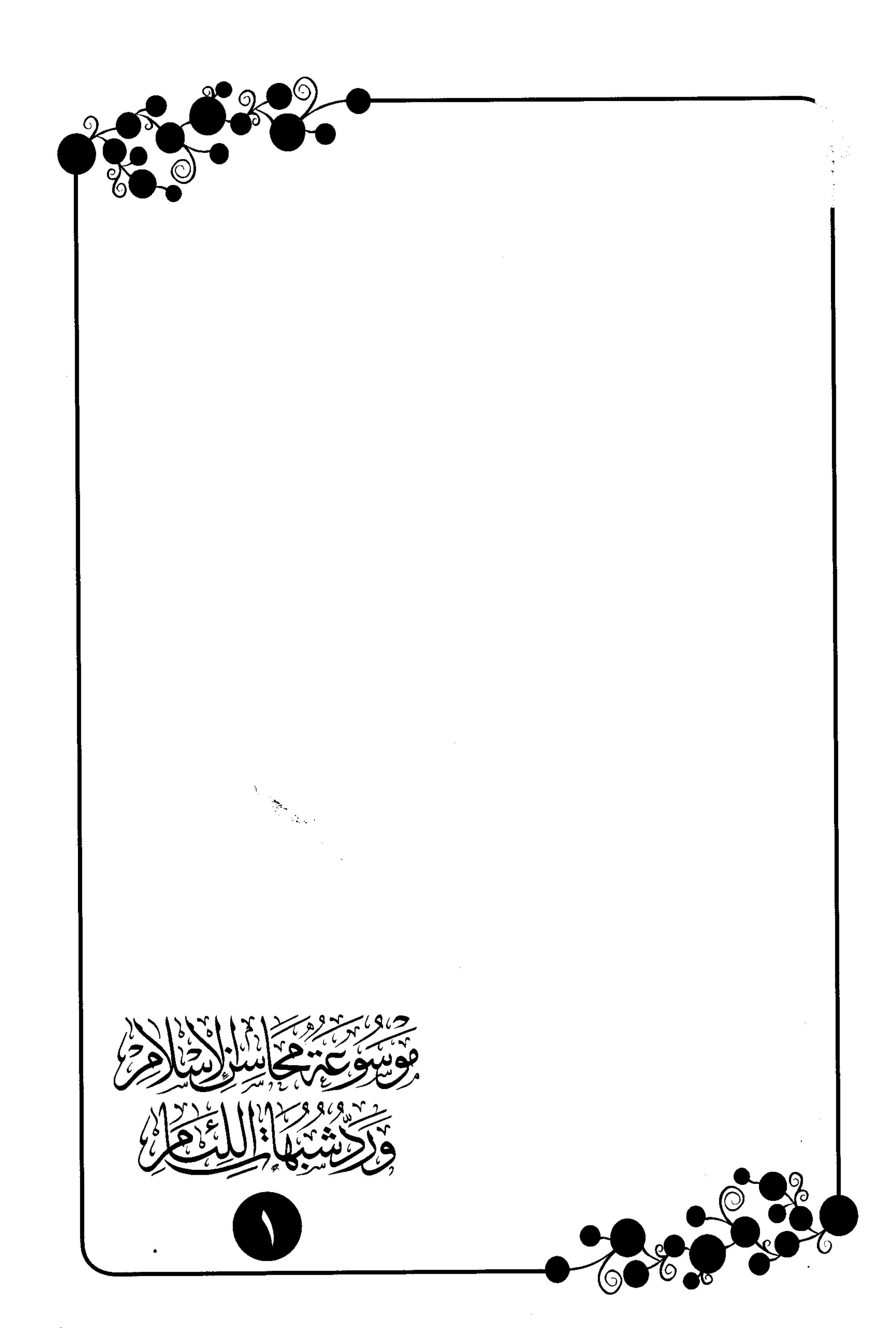
دار إيلاف الدولية

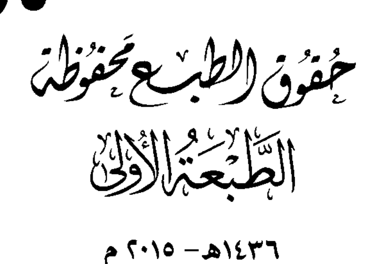
للنشر والتوزيع




بسم الله الرحمن الرحيم




موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام
١



١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع
(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال – هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ – ٩٦٩٩٩١٨٢- الكويت.

الفرع الأول: الجهراء – مجمع الخير – الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي – شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:



للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠



فريق العمل
أحمد بن سليمان أيوب
ونخبة من الباحثين

أبو محمد صالح حسون
محمود عبد الحكيم
سيد سيد عبد العال
إيهاب عبد الواحد
عبد الرحمن إسماعيل
محمد عوض صالح
أبو حسام الطرفاوي
سليمان دويدار
أحمد ناجي
عبد الله الغندور
مصطفى أبو الغيط
محمد غنيم
محمد عبد العزيز
مدحت عبد العظيم
أحمد بنداري
وليد دويدار

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد

فقد عرف أعداء الإسلام أن مصدر عزة هذا الدين وعزة أهله، وسر تجدده في نفوس المسلمين هو تمسكهم بهذا القرآن العظيم وسنة نبيهم الأمين، هذا القرآن الذي لا يخلق من كثرة الترداد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يمله القارئ والسامع ولا يزداد به المؤمن إلا يقينا بدينه وتعلقا به، وهو المعجزة الخالدة، والآية الباقية ما بقي الليل والنهار، وهو المحفوظ بوعد الله كما قال: {**إنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**} [الحجر:٩] .

وقد اجتهد أعداء الدين في الطعن في هذا القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة؛ حتى يسلخوا المسلمين عن دينهم، فيصبحوا صيدًا سهلًا وغنيمة باردة.

وحرب أعداء الدين هذه شاملة لكل أساسيات هذا الدين وقواعده؛ فلم يتركوا بابًا يشوهون فيه صورة الإسلام إلا اتبعوه ولا سبيلًا إلا سلكوه، فهم يعلمون أن المسلمين لو تعرفوا على دينهم الصحيح بنقائه لدعاهم ذلك إلى العزة بهذا الدين ونبذ كل منهج وطريق يخالف شريعة سيد المرسلين

أسباب جمع هذه الموسوعة المباركة

زادت الحاجة لإخراج عمل موسوعي يتناول كل ما يثار حول الإسلام من تشكيك وتلبيس وكذب وافتراء على الملة الغراء، ولقلة الحياء وذهاب المروءة عن أهل الضلال استباحوا أن يكذبوا على المسلمين ويدسوا على المساكين ما يروج من المشكلات والضغن المبين، فكان لزامًا على أهل العلم والغيورين أن يثوروا على هؤلاء الآثمين بدحض شبهاتهم وكشف زيغهم وبهتانهم وفضح مخططاهم {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ} [الأنفال: ٤٢]

وأجمل الاسباب الداعية لهذا العمل أيضا في التالي:

١- كثرة المطاعن في هذا الزمن على الإسلام، واتهامه بالتناقض، سواء من

المستشرقين، أو من أعداء الدين، أو ممن ينتسبون للإسلام.

٢- تأثر بعض المسلمين بهذه الشبه التي تثار، فكان لزاما على طلبة العلم وأهله كشف هذه الشبه، وبيان فسادها للناس أجمعين.

٣- إثبات إعجاز القرآن، وأنه من عند الله، وأن الله تكفل بحفظه حقا. وإثبات أن السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام محفوظة أيضا من الزيف والافتراء وهذا يدل على حفظ الله ورعايته للوحيين الكريمين

٤- كشف شبه الطاعنين وأكاذيبهم، وبيان أنها ترديد لما أورده الطاعنون السابقون.

٥- كشف المنافقين المندسين بين المسلمين للطعن في هذا الدين.

٦- جهاد أعداء الله بالكلمة وهو أحد أنواع الجهاد، وقد كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بالدفاع عنه وهجاء المشركين ففي صحيح مسلم (٢٤٩٠) عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «اهْجُوا قُرَيْشًا، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ» فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ: «اهْجُهُمْ» فَهَجَاهُمْ فَلَمْ يُرْضِ، فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ، قَالَ حَسَّانُ: قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَى هَذَا الْأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ، ثُمَّ أَدْلَعَ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِي فَرْيَ الْأَدِيمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَعْجَلْ، فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا، وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَبًا، حَتَّى يُلَخِّصَ لَكَ نَسَبِي» فَأَتَاهُ حَسَّانُ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ لَخَّصَ لِي نَسَبَكَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ لِحَسَّانَ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ، مَا نَافَحْتَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ»، وَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى»

قَالَ حَسَّانُ:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا بَرًّا حَنِيفًا ... رَسُولَ اللهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

ثَكِلْتُ بُنَيَّتِي إِنْ لَمْ تَروْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَنَفَيْ كَدَاءِ

يُبَارِينَ الْأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ ... عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسَلُ الظِّمَاءُ

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ .... تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

فَإِنْ أَعْرَضْتُمُو عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ

وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِضِرَابِ يَوْمٍ .... يُعِزُّ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ

وَقَالَ اللهُ: قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا ... يَقُولُ الْحَقَّ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ

وَقَالَ اللهُ: قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا ... هُمُ الْأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ .... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ

وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللهِ فِينَا ... وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

قال ابن القيم: الْجِهَادُ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ: جِهَادُ النَّفْسِ، وَجِهَادُ الشَّيْطَانِ، وَجِهَادُ الْكُفَّارِ، وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ.

فَجِهَادُ النَّفْسِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ أَيْضًا:

إِحْدَاهَا: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي لَا فَلَاحَ لَهَا وَلَا سَعَادَةَ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَّا بِهِ، وَمَتَى فَاتَهَا عِلْمُهُ شَقِيَتْ فِي الدَّارَيْنِ.

الثَّانِيَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ الْعِلْمِ بِلَا عَمَلٍ إِنْ لَمْ يَضُرَّهَا لَمْ يَنْفَعْهَا.

الثَّالِثَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ، وَإِلَّا كَانَ مِنَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ، وَلَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

الرَّابِعَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ وَأَذَى الْخَلْقِ، وَيَتَحَمَّلُ ذَلِكَ كُلَّهُ لِلَّهِ.

وَأَمَّا جِهَادُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فَأَرْبَعُ مَرَاتِبَ: بِالْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْمَالِ، وَالنَّفْسِ، وَجِهَادُ

الْكُفَّارِ أَخَصُّ بِالْيَدِ، وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَخَصُّ بِاللِّسَانِ. (١)

٧ – أن هذا الباب لم يُخدم بما يستحقه مع اشتداد الحاجة إليه فلم يخرج عمل موسوعي شامل يدحض شبهات القوم ويبين للمسلمين نقاء الدين ونفي التبديل عنه والتحريف.

٨– خطورة الطعن في القرآن والسنة ؛ حيث إنه من نواقض العهد مع أهل الذمة، بل من نواقض الإسلام.

ولما كان الأمر على ما ذكرت فقد دفعني ذلك إلى المساهمة بجهد في إخراج موسوعة علمية فيها رد على أهم ما يثار حول الإسلام من شبهات والرد عليها بطريقة علمية بعيدة عن المهاترات والأغاليط وبذاءة الألفاظ لتكون مثالاً على سمو الإسلام وحسن أخلاق أتباعه في المناظرة والرد على المخالف مهما تطاولوا علينا ، فكان أن تم التعاقد مع الأخ الشيخ / **أحمد بن سليمان** على التعاون في إخراج هذا العمل في مقر عمله بمكتبه في مصر ورأيت أننا اشتركنا في نفس الأهداف والغايات لخروج مثل هذا العمل العظيم للمسلمين ليعم النفع به.

وبدأت مسيرة العمل في مصر وكانوا يرسلون لي العمل تباعا وكانت لي ملاحظات استشرت فيها بعض أهل العلم وأرسلتها لهم ودارت بيننا مناقشات حول بعض القضايا حتى انتهى العمل بعد قرابة خمس سنوات من العمل الدؤب وكان الإخوة في مصر يبدون كل الاستعداد لتعديل أي ملاحظة أو تغيير أي كلمة ليخرج العمل سالما من الخلل والخطأ بقدر الإمكان، والكمال عزيز ولكن التسديد والإتقان لا بد منه ، وكانت المحصلة كتابة ثمانية عشر مجلدا تضمنت شبهات عن الكتاب والسنة النبوية وما يتعلق بهما من فقه وعقيدة وحديث والكلام حول الصحابة وما أثير حولهم وغير ذلك مما هو مدون بتفاصيله في الموسوعة.

وقد ألمح لي بعض أهل العلم أن الكتاب لو اختصر قليلا وضم بعضه إلى بعض بحذف ما يتكرر واختصار ما يمكن اختصاره ليقل حجم الكتاب، فطلبت ذلك من الشيخ أحمد حفظه الله وما كان منه إلا أن وافق على هذه الرغبة حرصًا على عموم نفع

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٩)

الكتاب وتيسير اقتنائه، فتمت مراجعة الكتاب بكامله والنظر في المواضع التي يمكن اختصارها أو تلخيص ما يمكن تلخيصه من غير إخلال أو سقوط ما لابد منه فخرج الكتاب في صورته الأخيرة في اثني عشر مجلدًا بفهارسه الموضوعية وهو بهذا يسد ثغرة في التراث الإسلامي ويساعد على التعرف على الإسلام تعرفًا صحيحًا خاليًا من الزيف والتحريف ومدافعًا عن ما أثير حول هذا الدين بأسلوب عصري سهل متين

والحمد لله على توفيقه وتسديده لنا وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

كتبه
د/ سليمان بن دريع العازمي

مقدمة العمل

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ (النساء: ١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ (الأحزاب ٧١: ٧٠)

أما بعد، فإن الإسلام أضخم حقيقة وأصلب عودًا وأعمق جذورًا من أن يجتثه الأعداء من على وجه الأرض.

ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨﴾ (الصف: ٨).

ظهر في ذاته كدين، فما يثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته، فأما الديانات الوثنية فليست في شيء من هذا.

وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمها والناسخ لها والمهمين عليها.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ (الصف: ٩)

ولقد أدرك الغربيون هذه الحقيقة فبعد أن فشلت حملاتهم الصليبية ركَّزوا جهودهم على الغزو الفكري.

يقول المستشرق جاردنر: إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا.

ويقول أحد المبشرين: إن القوة الكامنة في الإسلام هي التي وقفت سدًا منيعًا في وجه انتشار المسيحية.

وإن أعظم ما يواجه المسلمون اليوم هو الغزو الفكري الرهيب الذي استولى على عقول بعض النفوس فأفسدها حتى التبس عليهم الحق بالباطل، والخطأ بالصواب وراجت عليهم الأباطيل والمنكرات. وقد رأينا هجمة علمية وغارة فكرية من بعض القساوسة ورهبان الكنائس على الإسلام وذلك في مواعظهم وكتاباتهم وقنواتهم الإعلامية، وتطاولوا فيها على الإسلام وثوابته ورموزه ونبيه ﷺ، وهذا أمر مستعجب إذ أنهم يعلمون أن ما في أيديهم من الدين محرف والتناقض فيه مخوف وأسفاره فيها عبارات وضعها كل مزيف، وليتهم يسكتون حتى لا نفضحهم ولكنهم يعلنون الحرب على الدين الإسلامي وأهله، مع أن البون بيننا وبينهم شاسع والحق واضح وتميزنا عليهم أمر ظاهر باهر عند من له مسكة من عقل زاجر.

"كَيْفَ لَا يُمَيِّزُ مَنْ لَهُ أَدْنَى عَقْلٍ يَرْجِعُ إِلَيْهِ بَيْنَ دِينٍ قَامَ أَسَاسُهُ وَارْتَفَعَ بِنَاؤُهُ عَلَى عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ، وَالْعَمَلِ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مَعَ الْإِخْلَاصِ فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ، وَمُعَامَلَةِ خَلْقِهِ بِمَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، مَعَ إِيثَارِ طَاعَتِهِ عَلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، وَبَيْنَ دِينٍ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِصَاحِبِهِ فِي النَّارِ، أُسِّسَ عَلَى عِبَادَةِ النِّيرَانِ، وَعَقْدِ الشَّرِكَةِ بَيْنَ الرَّحْمَنِ وَالشَّيْطَانِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَوْثَانِ، أَوْ دِينٍ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى عِبَادَةِ الصُّلْبَانِ وَالصُّوَرِ الْمَدْهُونَةِ فِي السُّقُوفِ وَالْحِيطَانِ، وَأَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ عَنْ كُرْسِيِّ عَظَمَتِهِ فَالْتَحَمَ بِبَطْنِ أُنْثَى، وَأَقَامَ هُنَاكَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ، بَيْنَ دَمِ الطَّمْثِ فِي ظُلُمَاتِ الْأَحْشَاءِ تَحْتَ مُلْتَقَى الْأَعْكَانِ، ثُمَّ خَرَجَ صَبِيًّا رَضِيعًا شَبَّ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَبْكِي وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَبُولُ وَيَنَامُ وَيَتَقَلَّبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، ثُمَّ أُودِعَ فِي الْمُكْتَبِ بَيْنَ صِبْيَانِ الْيَهُودِ يَتَعَلَّمُ مَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ، هَذَا وَقَدْ قُطِعَتْ مِنْهُ الْقُلْفَةُ حِينَ الْخِتَانِ. ثُمَّ جَعَلَ الْيَهُودُ يَطْرُدُونَهُ وَيُشَرِّدُونَهُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، ثُمَّ قَبَضُوا عَلَيْهِ وَأَحَلُّوهُ أَصْنَافَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، فَعَقَدُوا عَلَى رَأْسِهِ مِنَ الشَّوْكِ تَاجًا مِنْ أَقْبَحِ التِّيجَانِ، وَأَرْكَبُوهُ قَصَبَةً لَيْسَ لَهَا لِجَامٌ وَلَا عِنَانٌ، ثُمَّ سَاقُوهُ إِلَى خَشَبَةِ الصَّلْبِ مَصْفُوعًا مَبْصُوقًا عَلَى وَجْهِهِ، وَهُمْ خَلْفَهُ وَأَمَامَهُ وَعَنْ شَمَائِلِهِ وَعَنِ الْأَيْمَانِ. ثُمَّ أَرْكَبُوهُ ذَلِكَ الْمَرْكَبَ الَّذِي تَقْشَعِرُّ

مِنْهُ الْقُلُوبُ مَعَ الْأَبْدَانِ، ثُمَّ شُدَّتْ بِالْحِبَالِ يَدَاهُ وَالرِّجْلَانِ، ثُمَّ خَالَطَهَا تِلْكَ الْمَسَامِيرُ الَّتِي تَكْسِرُ الْعِظَامَ وَتُمَزِّقُ اللُّحْمَانَ، وَهُوَ يَسْتَغِيثُ: يَا قَوْمِ ارْحَمُونِي! فَلَا يَرْحَمُهُ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ.

هَذَا وَهُوَ مُدَبِّرُ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ الَّذِي يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ. ثُمَّ مَاتَ وَدُفِنَ فِي التُّرَابِ تَحْتَ صُمِّ الْجَنَادِلِ وَالصَّوَّانِ، ثُمَّ قَامَ مِنَ الْقَبْرِ وَصَعِدَ إِلَى عَرْشِهِ وَمُلْكِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا كَانَ.

فَمَا ظَنُّكَ بِفُرُوعِ هَذَا أَصْلُهَا الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ الْبُنْيَانُ، أَوْ دِينٍ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى عِبَادَةِ الْإِلَهِ الْمَنْحُوتِ بِالْأَيْدِي بَعْدَ نَحْتِ الْأَفْكَارِ مِنْ سَائِرِ الْأَجْنَاسِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ وَالْأَلْوَانِ، وَالْخُضُوعِ لَهُ وَالتَّذَلُّلِ وَالْخُرُورِ سُجُودًا عَلَى الْأَذْقَانِ، لَا يُؤْمِنُ مَنْ يَدِينُ بِهِ بِاللهِ وَلَا مَلَائِكَتِهِ وَلَا كُتُبِهِ وَلَا رُسُلِهِ وَلَا لِقَائِهِ يَوْمَ يَجْزِي الْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ وَالْمُحْسِنَ بِالْإِحْسَانِ. أَوْ دِينِ الْأُمَّةِ الْغَضَبِيَّةِ الَّذِينَ انْسَلَخُوا مِنْ رِضْوَانِ اللهِ كَانْسِلَاخِ الْحَيَّةِ مِنْ قِشْرِهَا، وَبَاءُوا بِالْغَضَبِ وَالْخِزْيِ وَالْهَوَانِ، وَفَارَقُوا أَحْكَامَ التَّوْرَاةِ وَنَبَذُوهَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَاشْتَرَوْا بِهَا الْقَلِيلَ مِنَ الْإِيمَانِ، فَتَرَحَّلَ عَنْهُمُ التَّوْفِيقُ وَقَارَنَهُمُ الْخِذْلَانُ، وَاسْتَبْدَلُوا بِوِلَايَةِ اللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وِلَايَةَ الشَّيْطَانِ[1].

أما وقد تمادوا في غيِّهم وضلالهم فليندموا على ما قدموا وليحزنوا على ما اقترفوا وشككوا؛ لأن الله تعالى قد حفظ هذا الدين وسد على الزائغين طرق التشكيك والتلبيس على المسلمين، ونصب في كل فترة من ينبري لصد عدوان الصائلين، وقد أمرنا نبينا أن نرد على الحاقدين والمارقين.

لما قال أبو سفيان يوم أحد: أفيكم محمد؟ أفيكم أبو بكر، أفيكم ابن الخطاب؟ قال لأصحابه: «لا تجيبوه». تهاونًا به وتحقيرًا لشأنه، فلما قال: أُعل هبل، قال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا: الله أعلى وأجل». ولما قال: لنا العزى ولا عزى لكم، قال لهم: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

---

(١) هداية الحيارى لابن القيم ١/ ٢١٨-٢٢٠.

وليت من تكلم الهذيان تنكب عن ميدان الفرسان، ليسلم من أسنة ألسنتهم عرضه، وينطوي من بساط المشاجرة طوله وعرضه، ولم يسمع ما يضيق به صدره، ولم ينتهك بين أفاضل الأمة ستره، وإذا أبى إلا المهارشة والمناقشة، والمواحشة والمفاحشة، فليصبر على حزّ الحلاقم، ونكز الأراقم، ونهش الضراغم، والبلاء المتراكم المتلاطم، ومتون الصوارم.

فوالذي نفسي بيده؛ ما بارز أهل الحق قط قرن إلا كسروا قرنه، فقرع من ندم سنه، ولا ناحرهم خصم إلا بشّروه بسوء منقلبه، وسدّوا عليه طريق مذهبه لمهربه، ولا فاصحهم أحد -ولو كان مثل خطباء إياد- إلا فصحوه وفضحوه، ولا كافحهم مقاتل -ولو كان من بقية قوم عاد- إلا كبُّوه على وجهه وبطحوه، هذا فعلهم مع الكماة الذين وردوا المنايا تبرعًا، وشربوا كؤوسها تطوعًا، وسعوا إلى الموت الزؤام سعيًا، وحسبوا طعم الحمام أريًا، والكفاة الذين استحقروا الأقران فلم يهلهم أمر مخوف، وجالوا في ميادين المناضلة واخترقوا الصفوف، وتجالدوا لدى المجادلة بقواطع السيوف [1].

فكان لزامًا على كل منابر الدعوة إلى الله أن تتصدى لهذه الحملات التي تسعى بكل طاقاتها إلى إطفاء نور الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ (الصف: ٨).

وها نحن ومن هذا المنطلق قد انبرينا وشمَّرنا وجاهدنا للصد عن حياض هذا الدين العظيم. ليحيا من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، فوحَّدنا الجهود والطاقات، وضننَّا بالأنفاس واللحظات؛ لجمع موسوعة هي بحق منتهى الغايات، جمعت بين دفتيها أقوى ما يدعيه المخالفون من المتشابهات والمتناقضات والأغلوطات فيما أعلم، والرد عليها من كل الوجوه التي وقفنا عليها بشتى المسكتات: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ (الأنعام: ٤٥).

والله تعالى من حكمته يقيض في كل حقبة من الزمان حراسا لشريعته يذبون عنها كل باطل ودخيل،فلم يخل زمن من المجرمين ويسلط الله عليهم المؤمنين، فلما قام المبتدعة

---

(١) انظر: ما كتبه العلامة محمود شكري الآلوسي في مقدمة كتابه غاية الأماني في الرد على النبهاني.

وكذبوا على الناس في حديث رسول الله ﷺ قام علماء الحديث فبينوا كذبهم وافتراءهم.

عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، قَالَ: لَمْ يَكُونُوا يَسْأَلُونَ عَنِ الْإِسْنَادِ، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ، قَالُوا: سَمُّوا لَنَا رِجَالَكُمْ، فَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ فَيُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ، وَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ الْبِدَعِ فَلَا يُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ(١).

وقِيلَ لِابْنِ الْمُبَارَكِ: هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الْمَصْنُوعَةُ؟ قَالَ: «يَعِيشُ لَهَا الْجَهَابِذَةُ»(٢)

منشأ الشبهات:

لقد حاول أعداء الإسلام إلصاق التهم به، وإشاعة التناقض فيه، وإظهار محاسنه في صورة تشمئز منها النفوس ،ولو تتبعنا ما يقولونه فإنه لا يخرج عن عدة نقاط.

١) أنهم اعتمدوا على أقوال الحاقدين على الإسلام من المستشرقين والمنافقين والكُتَّاب العرب المعاندين للدين.

٢) المرويات الضعيفة والمكذوبة؛ فقد أتوا بها ليعارضوا بها الصحيح ولم يبينوا أن الضعيف لا حجة فيه.

٣) وبعضهم نقل أقوالًا مبتورة ليتغير المعنى على حسب ما يريد ثم ذاع الكلام المبتور على أنه تمام لا بتر فيه.

٤) وبعضهم أتى بأقوال شاذة أو مرجوحة ذكرها العلماء في مصنفاتهم وردوا عليها، فأتى هؤلاء وعرضوا على الناس هذه الأقوال على أنها معتمدة عند قائلها ليروجوا تلبيساتهم على عوام المسلمين.

٥) سوء الفهم لنصوص الكتاب والسنة، فهو لا يرجع إلى شروح العلماء الراسخين؛ وإنما يفسر النص على قدر فهمه وغالبهم جهلة بلسان العرب فأنَّى لمثل هؤلاء أن يفهموا أفصح الكلام الذي هو كلام الله عز وجل.

٦) الاستعانة بشبهات وأقوال الفرق الضالة والتي خالفت منهج أهل السنة والجماعة كشبهات الرافضة، والخوارج، والجهمية، وغلاة الصوفية وغيرهم.

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة.

(٢) الكفاية للخطيب (١/ ٣٦).

منهج الرد على الشبهات

لا شك أن الأعمال الموسوعية تحتاج إلى نفس طويل، وصبر من حديد، وقد استغرق العمل في هذه الموسوعة حوالي خمس سنوات.

ولقد سار العمل في هذه الفترة على مراحل:

المرحلة الأولى: الجمع: لقد تتبعنا الشبهات المثارة حول الإسلام من مصادرها؛ من خلال المؤلفات والمجلات العلمية، والمراجع المعنية بهذا الأمر، ثم تتبعنا ذلك على مواقع الإنترنت.

ثم قمنا بعد ذلك بصياغتها بأسلوب فصيح مؤدب، إذ من عادة القوم السب والشتم بما لا يليق ذكره. وحاولنا جاهدين الاستقصاء في جمع كل ما تفوهوا به؛ غير أنا وجدنا بعض هذه الشبه لا تستحق الذكر فما هي إلا نوع من السباب والشتم ونحن ننزه موسوعتنا عن ذكرها، كذلك بعضهم لا يجيد قراءة العربية فقرأ النص خطأ ثم بنى الشبهة عليه فلا فائدة من الرد عليه فأمره ظاهر مكشوف.

ثم قمنا بتقسيمها تقسيمًا موضوعيًا على الأبواب ليسهل عرضها وتناولها.

المرحلة الثانية: الرد: في كل شبهة مثارة كنا نجمع فريق العمل لنتشاور في محاور الرد وبيان الوجوه المعتمدة في بيان زيف الشبهة، وكنا نجد عونًا من الله، وفتحا مبينًا للرد عليهم بمنطقهم فغايتنا بيان الحق ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فكان العمل على هذا النحو:

أولًا: تم الرد على الشبهات على صورة وجوه- في الغالب- الوجه الواحد هو رد دامغ في نفسه لكننا لم نكتف بالوجه الواحد فأردنا الاستقصاء في الرد من كل الوجوه النقلية والعقلية والعلمية.

ثانيًا: تضمن الرد- في أكثر الشبهات- وجهًا هامًّا وهو الرد على المخالفين من مصنفاتهم التي يعتمدون عليها. غالبها من كتابهم المقدس بعهديه القديم والجديد.

ثالثًا: توجد بعض الشبهات ربما ألقى بها رجل يُحسب على الإسلام إلا أنه من دعاة

الضلالة وهذا لا يحتج به علينا. أو يلزمنا بحديث ضعيفٍ أو مكذوبٍ ولا حجة في هذا، أو بقول شاذ خلاف قول الجماهير. فأردنا أن نعلن ما نعتقده وندين به ونلتزم ونُلزِم به المخالفين وما سواه فلا حجة علينا به.

رابعًا: قد تحتوي الشبهة الواحدة الأساسية على عدة شبهات فرعية فنقوم بالرد على كل هذه الشبهات. لذا ننصح القارئ بالصبر والمثابرة عند قراءته للرد خاصة في الشبهات التي تم الاستطراد في الرد عليها.

خامسًا: حاولنا في ردنا أن نُعَلِّم القارئ المعنى الصحيح من الآية أو الحديث لتتم الفائدة، ونحن نعتقد أن هذا من أولى الأولويات، فالجاهل إن طالع كتابنا سيتعلم ولابد، أما المعاند والجاحد – فنسأل الله له الهداية – فلن يصح في ذهنه شيء منها إلا أن يشاء الله، فنهار الشريعة بادٍ لكل ذي عين ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢].

سادسًا: استفدنا من جهود السابقين لنا في هذا المضمار؛ فحاولنا أن نؤلف بين وجوه الرد ونختار منها ما وافق الحق، وندع ما تكلف فيه صاحبه في وجوه الرد.

سابعًا: عزونا الآيات والأحاديث والأقوال إلى مصادرها إبراءً للذمة، وتحقيقًا للقول، ومنفعة لمن أراد المزيد.

ثامنًا: إن كان أصل الشبهة يدور على آية من القرآن استقصينا في بيان تفسيرها ووجوه الرد من أقوال المفسرين.

وإن كان مدارها على حديث فإن كان ضعيفًا اجتهدنا قدر الطاقة في بيان ضعفه، وإن كان في الصحيحين اكتفينا بالعزو لهما في بيان اللفظ الصحيح، وإن كان في غيره توسعنا في تخريجه بقدر الحاجة والمصلحة.

تاسعًا: استفدنا من بعض مواقع (الإنترنت) في معرفة بعض الشبهات والرد عليها وقد عزونا لهذه المواقع.

عاشرًا: تضمنت بعض الردود ردودًا عامة، وردودًا خاصة؛ فنبدأ ببيان الرد العام

والذي يبين منهج الإسلام أو اعتقاد المسلمين في المسألة، ثم تفصيل الرد بعد ذلك حسب الشبهة الملقاة.

الحادي عشر: جعلنا آخر الردود الرد على النصارى من مصنفاتهم التي يعتمدون عليها لبيان ما عندهم من التناقض والتحريف والتبديل بما لا يخفى على أدنى منصف من العقلاء، فهم معنا كمن قال: رمتني بدائها وانسلت.

فهم يرموننا بما هو فيهم، ولو كان هناك حياء ما اجترؤوا على ما قدموا ولكن عزاؤنا في ذلك قول النبي ﷺ:

« **إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ، إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ** » [(١)].

وربما سأل سائل لم الحمل على أهل الكتاب خاصة ؟ والجواب: أنهم الطائفة التي يعود أصلها إلى كتاب سماوي حق، ولكن وقع عليه قلم التحريف، أما الطوائف الأخرى كالعلمانية والملاحدة ومن سار على دربهم فهم ليسوا بشيء ولا على شيء ، ثم إن الجميع يتناقلون نفس الاعتراضات والترهات فما يقوله النصراني من شبهة يلوكها العلماني والملحد والليبرالي وغيرهم .

الثاني عشر: قسمنا الموسوعة إلى عدة أقسام:

١-قسم شبهات العقيدة.

٢- القرآن وعلومه القرآن، ورتبناه على ترتيب المصحف.

٣- السنة وعلومها.

٤-الأنبياء والنبي

٥- زوجات النبي ﷺ.

٦- الصحابة.

٧- الفقه.

(١) صحيح البخاري (٣٤٨٤).

٨- المرأة.

٩- اللغة.

١٠- وأخيرًا: شبهات الإعجاز العلمي.

الثالث عشر: وقبل أن نشرع في هذه الردود فقد قدمنا بمقدمة لابد منها تناولنا فيها: الصراع بين الحق والباطل، والمناظرة وآدابها، وعن حال العالم قبل الإسلام، ثم التعريف بالإسلام، وخصائصه، وسماحته، وعن وسطيته، وعن الحقوق الإسلامية، وماذا قال الغرب عن الإسلام، وأيضًا التعريف بنبي الإسلام ﷺ؛ فضائله، وأخلاقه، وشمائله، وعن صحابته، وماذا قالوا عنه ﷺ؟.

المرحلة الثالثة: المراجعة: وفي هذه المرحلة كان التركيز على الضبط العام للكتاب من قواعد الإملاء، واللغة، ثم نظرة أخيرة عامة على وجوه الرد؛ فربما زدنا وجها غاب عنا، أو حذفنا آخرًا ليس في بابه.

جهود العلماء في الرد على الشبهات: لم يُقصر علماء المسلمين في القيام بواجبهم في الرد على هذه الشبهات والتي أثارها النصارى على الخصوص وتلوكها الألسنة من كل المشارب على العموم ، فقاموا رحمهم الله كلٌ بطريقته الخاصة تولى الرد عليهم بما يدحض شبهتهم ويخيب رجاءهم، من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح». وتلميذه ابن القيم في كتابه «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى». والقرطبي في «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام». والقرافي في « الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة في الرد على الملة الكافرة» والآلوسي- ابن المفسر- في «الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح» وابن حزم في «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ومن المعاصرين الشيخ رحمت الله بن خليل الرحمن الهندي « إظهار الحق» والزرقاني في «مناهل العرفان في علوم القرآن» والدكتور محمد أبو شهبة في « الدفاع عن السنة» والشيخ أحمد ديدات في كتبه ومناظراته الشهيرة. والدكتور

عمر بن إبراهيم رضوان في «آراء المستشرقين حول القرآن الكريم». والدكتور إبراهيم عوض في كتبه. واللواء أحمد عبد الوهاب في كتبه... وغيرهم كثير لكنها ردود فردية فكان عملنا هذا تجميع ردود هؤلاء السابقين تحت منهج واحد بخطة شاملة والله المستعان.

فريق العمل: إن هذا الجهد المبارك كان نتاج جهود متضافرة من طلاب نابهين غيورين على دينهم فدفعهم حماسهم، وحميتهم إلى جمع الهمم على هذا العمل المبارك، وكان اشتراطنا في العمل أن لا يقتحم فيه إلا من شعر بأهمية هذا العمل العظيم ليستشعر أنه على ثغر لابد من المجاهدة عليه، وكان يجمعنا مجمع التوحيد الإسلامي بمحلة بلبيس شرقية من جمهورية مصر العربية فنلتقي في مجالس راتبة، نجمع الشبهات، ونتداول الردود، ونجمع المصنفات، ونناقش الوجوه، ولكل دوره المناط به،

ولابد في مثل هذه الأعمال إعطاء كل ذي حق حقه، فحقهم علينا أن نذكر كل من شارك معنا في هذه الموسوعة المباركة.

وها هو بيان بأسماء المشاركين في العمل:

١ - **أبو محمد صالح حسون**: وقد قام بجهد كبير في العمل، وكان مسئولًا عن توزيع الأعمال على الباحثين، ومتابعتهم، وقد شارك أيضًا بجهده في مقدمة الكتاب مع شبهات القرآن، والفقه، وغير ذلك. ثم كان هو القائم على الضبط الفني للكتاب والمراجعة الأخيرة له فجزاه الله خيرًا.

٢- **أبو عبد الرحمن محمود عبد الحكيم**: وشارك معنا في المقدمة، وفي إثبات تحريف التوراة والإنجيل، وبعض شبهات القرآن، وغيرها.

٣- **أبو عمر سيد سيد عبد العال**: وشارك في ملفات العقيدة، والصحابة، والمرأة، وغيرها.

٤ - **إيهاب عبد الواحد**: شارك معنا في ملفات علوم القرآن، والإعجاز العلمي.

٥ - **عبد الرحمن إسماعيل**: شارك في علوم القرآن، وملفات القرآن، والسنة.

٦ - **محمد عوض**: شارك في المقدمة، وملفات علوم القرآن، والقرآن، والأنبياء.

٧- **أبو حسام الطرفاوي**: شارك في ملفات العقيدة.

٨- **سليمان دويدار**: شارك في شبهات الحدود.

٩، ١٠ - **عبد الله الغندور وأحمد ناجي**: شاركا في الشبهات اللغوية.

١١ - **مصطفى أبو الغيط**: شارك في ملفات شبهات المرأة، وانتشار الإسلام بالسيف.

١٢ - **محمد غنيم**: شارك في شبهة الفداء والصلب.

١٣ - **محمد عبد العزيز السيد**: شارك في ملفات علوم السنة، ومراجعة شبهات الفقه.

١٤ - **مدحت عبد العظيم**: شارك في ملفات علوم القرآن.

١٥ - **أحمد بنداري**: شارك في ملفات القرآن، والسنة.

١٦ـ **وليد دويدار** وهو الذي قام بجمع الشبهات في بادئ العمل وكذلك جمع المصادر المتعلقة بالردود ثم انقطع عن الإتمام نظرا لظروف خاصة به.

هذا؛ وقد جمع العبد الفقير إلى الله/ **أحمد بن سليمان** طلبة العلم والباحثين، ووضعت الخطة لهم وحددت عناصر الرد على كل شبهة بما يقتضيه المقام من توسع في موضع وبذل الجهد في تتبع المسألة لقطع اللجاج فيها واختصار في آخر بحسب المقام والحال في الشبهة، وناقشتهم في وجوه الرد، ثم راجعت العمل كاملًا أربع مرات، فزدت بعض الوجوه، وحذفت ما لا يصلح في الرد، أو كان فيه تعسف، أو مخالفة للمنهج الصائب عند السلف في الرد كما بينا سابقًا.

وقد كان د/ سليمان بن دريع العازمي صاحب فكرة الموسوعة والمشرف العام عليه فجزاه الله خيرا ،وكانت له ملاحظات أخذناها بعين الجد والاجتهاد وأثبتنا منها ما كان في الإمكان، وكان آخر ذلك أن العمل خرج بعد سنوات عدة في ثمانية عشر مجلدًا فأشار علي جزاه الله خيرًا باختصار العمل وضم ما يمكن ضمه وحذف مالا يخل بنظمه فوافق ذلك رغبة عندي فراجعنا العمل مرة أخرى على منهج يختصر العمل قليلًا ولا يخل بأصله ومحتواه فكانت المحصلة أن خرج في اثني عشر مجلدًا ولعل هذا أيسر للقارئ.

وقد أرسلت نسخة من العمل لأخي الشيخ أبي حسين خالد الرباط للنظر فيها من الناحية الفنية وذلك بمكتبه في دار الفلاح بالفيوم فجزاه الله خيرًا على ما قدم.

فها هو بين يديك سفرٌ نفيس، وجمع سهلٌ محقق لطيف، جمعنا فيه المتفرقات، واستوعبنا في الرد الوجوه المتآلفات حسب ما وصل إليه علمنا، فأثمر ردًّا على ما يربو على ستمائة شبهة أساسية وفي ثناياها شبهات فرعية فوفقنا الله لدحضها.

فنسأل الله أن يتقبله عنده، وأن يكتب لنا به الأجر يوم الدين، ونسأل الله أن يجعل عملنا خالصًا لوجهه، وأن يجعله زادًا لحسن المصير إليه وعتادًا ليوم القدوم عليه إنه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل. وما كان من توفيق فمن الله وحده وما كان من زلل أو نسيان فمنا ومن الشيطان والله ورسوله منه براء.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

كتبه

أبو عبد الرحمن/ أحمد بن سليمان أيوب

في الثاني عشر من شعبان لعام ١٤٣٥هـ

بمنزله الكائن بمدينة بلبيس

جمهورية مصر العربية

المقدمة

وتشتمل هذه المقدمة على ما يلي:

الفصل الأول.

الصراع بين الحق والباطل.

الفصل الثاني.

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: حالة العالم قبل الإسلام.

المبحث الثاني: المناظرة وآدابها.

ويشتمل هذا المبحث على المطالب الآتية:

المطلب الأول: تمهيد.

المطلب الثاني: المحاور التي يتم على أساسها تقييم أي حضارة سابقة أو لاحقة.

المبحث الثاني: الإسلام وبيان معناه.

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: معنى الإسلام.

المطلب الثاني: الإسلام هو دين الفطرة.

المطلب الثالث: التوحيد وأقسامه.

المبحث الثالث: مراتب الدين.

ويشتمل هذا المبحث على المطالب الآتية:

المطلب الأول: أركان الإسلام.

المطلب الثاني: أركان الإيمان.

المطلب الثالث: الإحسان.

المبحث الرابع: بيان بعض مزايا الشريعة الإسلامية.

المبحث الخامس: الإسلام بين الوسطية والغلو.

المبحث السادس: الحقوق الإسلامية.

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: مقدمة عامة عن الحقوق ومزايا هذا الدين الإسلامي.

المطلب الثاني: ذكر بعض هذه الحقوق بشيء من التفصيل.

المبحث السابع: قالوا عن الإسلام.

الفصل الثالث: **رسول البشرية محمد** ﷺ.

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: التعريف بالنبي ﷺ.

المبحث الثاني: بعض فضائل النبي ﷺ.

المبحث الثالث: أخلاق النبي ﷺ.

المبحث الرابع: صحابة النبي ﷺ.

المبحث الخامس: قالوا عن النبي ﷺ.

* * *

الفصل الأول

المبحث الأول: الصراع بين الحق والباطل

إن الصراع بين الحق والباطل سنة ربانية جارية كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ (الفرقان: ٣١).

فالأنبياء وهم أكرم الخلق وأعدل الخلق وُجدَ لهم أعداء ومضادون، يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق.

وقد أمر الله المؤمنين بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله، وتضعف شوكة الباطل وتنكسر، وحتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ (النساء: ٧٦). ففي هذه الآية وآية سورة الفرقان التي ذكرناها قبل إشارة إلى ضعف الباطل وأهله إذا قام أهل الحق بواجبهم في مدافعتهم وقتالهم، لأن الله مع الذين اتقوا. فقوله في الآية الأولى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ وفي الآية الثانية: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ إشارة إلى ضعف كيد الشيطان الذي يتولاه الكفار والمشركون، فإذا كان وليهم ضعيفًا فهم أضعف وأذل، وهذا يعطي المؤمن قوة على العمل بما أوجبه الله عليه من مدافعة الباطل وأهله، كما يعطيه ثقة في نصر الله له، ومن ثم يعتز بدينه ويتمسك به، وهذا هو الذي قام به الصحابة ﷺ في العهد المكي، فقد وقع عليهم الاضطهاد الشديد من المشركين في مكة، ولم يكن بمقدورهم المواجهة العسكرية ولم يؤمروا بالجهاد بعد، وإنما أمروا بالصبر والتحمل، فصبروا ﷺ وتحملوا تلك المرحلة، ولكن مع الصبر والتحمل كانوا يسعون لإزالة هذا الواقع وعدم استمراره، فجاءت الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم ذهابه ﷺ إلى الطائف، ثم العرض على القبائل في المواسم، كلها بحث عن مخرج من ذلك الواقع حتى قيض الله طائفة من الأوس والخزرج لقبول دعوة الحق، ثم المبايعة على النصرة ليلة العقبة، وأعقب ذلك الهجرة إلى

المدينة، فخرج المسلمون من الاضطهاد ونصرهم الله بإخوانهم في المدينة عندما قاموا بالأسباب الموجبة لذلك. والملاحظ أن الصحابة تحملوا مرحلة الاضطهاد وواجهوها بالصبر ولكن مع عدم الاستكانة والرضى بالواقع، فأخذوا يعملون لإزالة ذلك الواقع حتى تمكنوا من رفعه [١].

فيعلم كل مسلم أن أهل الكفر والضلال ضد أهل الإسلام في كل زمان ومكان وذكر الله في أول سورة البقرة الناس وقسمهم إلى ثلاثة أقسام: مؤمنون وكفار ومنافقون فلا بد من العداوة بين أهل الإسلام وبين أعداء الله وإن لم تحصل العداوة فالأمر خطير.

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٨).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة: ٢١٧).

وقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ (البقرة: ١٠٩). ولا شك أن عداوة الكفار للمسلمين ليست لأجل دنيا بل هي لأجل الدين قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠).

فالصراع بين الحق والباطل قائم إلي يوم القيامة؛ ولكن مآل الباطل الزهوق والذهاب، والحق مآله الانتصار والغلبة إن شاء الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾ (الإسراء: ٨١).

وقال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)﴾ (الأنبياء: ١٨).

---

(١) مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها. مسائل في منهج دراسة السيرة النبوية د/ محمد بن صامل السلمي العدد ٢٤. ربيع الأول ١٤٢٣هـ/ مايو (آيار) ٢٠٠٢م.

وهذه السنة أيضًا من أهم السنن الربانية التي يجب الوقوف عندها، وعدم نسيانها أو الغفلة عنها؛ لأن الصراع والمدافعة بين الحق والباطل وُجِدا منذ أن أهبط آدم عليه الصلاة والسلام على هذه الأرض ومعه إبليس - الملعون - أعاذنا الله منه. واقتضت حكمة الله ﷻ أن يستمر هذا الصراع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بين حزب الله ﷻ وحزب الشيطان. وليس بالضرورة أن تكون المدافعة أو أن يكون الصراع بالقتال والسلاح. بل إنه يكون بغير ذلك، وما القتال إلا مرحلة من مراحل هذا الصراع؛ فإقامة الحجة على الباطل وأهله مدافعة، وإزالة الشبه عن الحق وأهله مدافعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مدافعة، والصبر على ابتلاء الأعداء من الكفرة والظلمة والثبات على الدين مدافعة وصراع. ويأتي الجهاد والقتال في سبيل الله ﷻ على رأس وذروة هذه المدافعة والصراع، فيقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. وما دام هناك حق وباطل فالصراع موجود والمدافعة حتمية. وهذا الصراع لصالح البشرية وخيرها، ولو كان فيه من العناء والشدة والمكاره؛ فإن هذه المشقات كلها تهون وتصغر عند المفاسد العظيمة التي تنشأ فيما لو لم يكن هناك دفع للفساد وصراع مع الباطل. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وهذا يفرض على أهل الحق السير على هذه السنة، وبذل الجهد الجهيد في مدافعة الباطل وأهله، وإحقاق الحق وتمكين أهله، ورد البشرية الشاردة إلى عبودية الله ﷻ وتوحيده، وإنقاذها من الشرك ومفاسده؛ فإن الصراع بين الحق والباطل قديم، فيحاول أهل الباطل اتهام أهل الحق، وتشكيكهم به، حتى يتركوه قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ (البقرة: ٢١٧)، وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر؛ وعلى فتنة المسلمين عن دينهم؛ بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم. وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل. إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته

غيظ ورعب لأعداء هذا الدين؛ ولأعداء الجماعة المسلمة في كل حين إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم. فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل، ويرهبه كل باغ، ويكرهه كل مفسد. إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج، ومن منهج قويم، ومن نظام سليم. إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد. ومن ثم لا يطيقه المبطلون البغاة المفسدون. ومن ثم يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه، ويردوهم كفارًا في صورة من صور الكفر الكثيرة.

ذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم، وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين، وتتبع هذا المنهج، وتعيش بهذا النظام.

وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته، ولكن الهدف يظل ثابتًا، على أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا. وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحًا غيره، وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها. والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام، وينبهها إلى الخطر؛ ويدعوها إلى الصبر على الكيد، والصبر على الحرب، وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة؛ والعذاب الذي لا يدفعه عذر ولا مبرر: قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ (البقرة: ٢١٧)

ومن يرتدد عن الإسلام وقد ذاقه وعرفه؛ تحت مطارق الأذى والفتنة - مهما بلغت - هذا مصيره الذي قرره الله له حبوط العمل في الدنيا والآخرة. ثم ملازمة العذاب في النار خلودًا [(١)].

وعندما ظهر الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، لم يتوقف سيل الشبهات التي يثيرها المشككون من خصوم هذا الدين، تشكيكًا في مصادره، أو في نبيه، أو في مبادئه وتعاليمه. ولا تزال الشبهات القديمة تظهر حتى اليوم في أثواب جديدة يحاول مروجوها أن يضيفوا عليها طابعًا علميًا زائفًا.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٢٢٧-٢٢٨.

ومن المفارقات الغريبة في هذا الصدد، أن يكون الإسلام - قد اختص من بين كل الديانات التي عرفها الإنسان سماوية كانت أم أرضية بأكبر قدر من الهجوم وإثارة الشبهات حوله.

ووجه الغرابة في ذلك يتمثل في أن الإسلام في الوقت الذي جاء فيه يعلن للناس الكلمة الأخيرة لدين الله لم ينكر أيًّا من أنبياء الله السابقين ولا ما أنزل عليهم من كتب سماوية، ولم يجبر أحدًا من أتباع الديانات السماوية السابقة على اعتناق الإسلام. ولم يقتصر الأمر على عدم الإنكار، وإنما جعل الإسلام الإيمان بأنبياء الله جميعًا وما أنزل عليهم من كتب عنصرًا أساسيًا من عقيدة كل مسلم، بحيث لا تصح هذه العقيدة بدونه.

ومن شأن هذا الموقف المتسامح للإسلام إزاء الديانات السابقة أن يقابل بتسامح مماثل؛ وأن يقلل من عدد المناهضين للإسلام، ولكن الذي حدث كان على العكس من ذلك تمامًا. فقد وجدنا الإسلام - على مدى تاريخه - يتعرض لحملات ضارية من كل اتجاه. وليس هناك في عالم اليوم دين من الأديان يتعرض لمثل ما يتعرض له الإسلام في الإعلام الدولي من ظلم فادح وافتراءات كاذبة.

وهذا يبين لنا أن هناك جهلًا فاضحًا بالإسلام، وسوء فهم لتعاليمه، سواء كان ذلك بوعي أو بغير وعي، وأن هناك خلطًا واضحًا بين الإسلام كدين وبعض التصرفات الحمقاء التي تصدر من بعض أبناء المسلمين باسم الدين وهو منها براء[(١)].

إن أعداء الجماعة المسلمة لم يكونوا يحاربونها في الميدان بالسيف والرمح فحسب؛ ولم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب؛ إنما كانوا يحاربونها أولًا في عقيدتها. كانوا يحاربونها بالدس والتشكيك، ونشر الشبهات وتدبير المناورات!

كانوا يعمدون أولًا إلى عقيدتها الإيمانية التي منها انبثق كيانها، ومنها قام وجودها، فيعملون فيها معاول الهدم والتوهين. ذلك أنهم كانوا يدركون كما يدركون اليوم تمامًا - أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل، ولا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها، ولا تهزم إلا إذا

---

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين صـ ٥-٦.

هزمت روحها، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئًا وهي ممسكة بعروة الإيمان، مرتكنة إلى ركنه، سائرة على نهجه، حاملة لرايته، ممثلة لحزبه، منتسبة إليه، معتزة بهذا النسب وحده، ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذي يلهيها عن عقيدتها الإيمانية، ويحيد بها عن منهج الله وطريقه، ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة.

إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة. وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات، فإنهم يحاولون أولا أن يغلبوها على العقيدة، لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئًا والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها، ملتزمة بمنهجها، مدركة لكيد أعدائها. ومواجهة ذلك تكون ببذل جهود علمية مضاعفة من أجل توضيح الصورة الحقيقة للإسلام، ونشر ذلك على أوسع نطاق.

المبحث الثاني: المناظرة وآدابها.

وقبل أن نشرع في مادة هذه الموسوعة نذكر طرفا مختصر جامعًا للمناظرة وآدابها

ينشأ الاختلاف الفكري من اختلاف الطبائع والعقول البشرية[١].

وحيث كان كل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابًا ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابًا وأحكامًا يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول[٢].

والحديث عن ذلك من خلال هذه النقاط:

أولًا: تعريف المناظرة والجدال.

المناظرة لغة: من النظير، أو من النظر بالبصيرة[٣].

المناظرة اصطلاحًا: أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معًا كيف تأتيانه. [١]

---

(١) فقه الائتلاف لمحمود الخزندار (صـ٢١).

(٢) المقدمة لابن خلدون (صـ٣٢١).

(٣) التعريفات للجرجاني (صـ٢٩٨).

وهي: المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين يقصد كل واحد منها تصحيح قوله وإبطال قول الآخر؛ مع رغبة كل منهما في ظهور الحق[٢].

الجدل لغة: مقابلة الحجة بالحجة والمجادلة المناظرة والمخاصمة[٣].

الجدل اصطلاحًا: مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها[٤].

الجدال لا يبعد أن يقال أن علم الجدل هو علم المناظرة[٥].

ثانيًا: مشروعية المناظرة. [٦]

والأصل في مشروعيتها:

قوله تعالى: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).وقوله: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦).وقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الفرقان: ٣٣).

فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه؛ ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين[٧].

ومن حق الله على عبده رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه ومجاهدتهم بالحجة والبيان، والسيف والسنان، والقلب والجنان وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان. اهـ[٨].

---

(١) لسان العرب لابن منظور (٥/ ٢١٧).

(٢) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي صـ٣من القسم الثاني.

(٣) لسان العرب لابن منظور (١١/ ١٠٥).

(٤) التعريفات للجرجاني (صـ١٠١).

(٥) كشف الظنون لحاجي خليفة (١/ ٥٧٩).

(٦) انظر بالتفصيل كتاب درء تعارض العقل مع النقل لابن تيمية (٣/ ٣٧٧-٣٨٧).

(٧) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٠/ ١٦٤-١٦٥).

(٨) هداية الحيارى لابن القيم ١/ ١٠.

ثالثا: أنواع المناظرة.

المجادلة [المناظرة] نوعان:

الأولى: مجادلة المماراة، يماري بذلك السفهاء ويجادل الفقهاء ويريد أن ينتصر قوله فهذه مذمومة.

وهي الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام، وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة، واستمالة وجوه الناس، وهذه منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله.

وهي يتنزل عليها كلام السلف في ذم الجدل والمجادلة.

الثانية: لإثبات الحق وإن كان عليه فهي محمودة مأمور بها. (١)

رابعًا: آداب المناظرة.

للمناظرة آداب يجب مراعاتها وهي:

أولًا: آداب خاصة بالمناظرين.

١) إخلاص النية لله ﷻ(٢).

٢) تقديم تقوى الله عند المناظرة(٣).

٣) يرغب المناظر إلى الله ﷻ لتوفيقه لطلب الحق(٤).

٤) التحلي بالأخلاق الإسلامية(٥).

٥) عدم إعجاب المناظر بكلام نفسه لأنه مدعاة للتعصب وضياع الحق(١).

---

(١) انظر: الرد على المخالف من أصول الإسلام لبكر أبو زيد (صـ٧٠)، شرح حلية طلب العلم لابن عثيمين (١٨١)، الإحياء للغزالي (١/ ٧٧)، فتاوى ابن تيمية (٢٤/ ١٧١-١٧٦).

(٢) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٤٨)، فتاوى ابن تيمية (٢٨/ ٢٣٥).

(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٤٧).

(٤) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٥١).

(٥) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٥١)، تفسير ابن كثير (طه: ٤٤)، أصول الدعوة لبدير محمد بدير (٤٧٨)، ووسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٩).

٦) الإنصاف وترك التعصب وقبول الحق من أي شخص كان[٢].

٧) المواظبة على مطالعة الكتب والتمرس على المناظرة والحوار وقت فراغه[٣].

٨) الإصلاح من اللغة وتجنب اللحن في الكلام[٤].

٩) ألا يتصدر للمناظرة قبل أوانه أو ما يسمى: الأهلية للمناظرة[٥].

١٠) تجنب المناظرة مع من هو من أهل المهابة العظمية والاحترام العظيم كيلا يدهشه جلالة خصمه عن القيام بحجته كما ينبغي[٦].

١١) الامتناع عن مناظرة من يريد الجدال فقط وليس إظهار الحق[٧].

١٢) الامتناع عن مناظرة الجهال وكل لجوج[٨].

ثانيًا: آداب خاصة بقواعد المناظرة.

١) أن يكون هدف المناظرة النصيحة والإفادة وإظهار الحق لا الجدال والمراء[٩].

٢) تحديد موضوع الجدال أو المناظرة والأطراف المشتركة فيه[١٠].

٣) تحديد المنهج والضوابط التي يرجع إليها عند الاختلاف[١١].

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٥٧).

(٢) فقه الائتلاف لمحمود الخزندار (٤٩، ٥١، ٧٥، ٩٨).

(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٥٦).

(٤) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٥٤).

(٥) درء تعارض العقل مع النقل لابن تيمية (٣/ ٣٨١)، أصول الرد على المخالف لبكر أبو زيد (٧٧)، فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٣٢١)، معالم السنن للخطابي (٤/ ١٤٩).

(٦) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي (٢/ ٩١)، وسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٢).

(٧) أخلاق العلماء للآجري (٩٣٤) بتصرف.

(٨) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٤٦).

(٩) فتاوى ابن تيمية (٢٤/ ١٧٣)، الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٤٩)، أخلاق العلماء للآجري (٩٣٣)، الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٢٠٣)، أدب الدنيا والدين للماوردي (١٠٨).

(١٠) وسائل الدعوة، عبد الرحيم المغذوي (٩٣).

(١١) وسائل الدعوة، عبد الرحيم المغذوي (٩٣).

٤) مراعاة الظروف المحيطة بالمناظرة كالأشخاص والموضوع والزمان والمكان[1].

ثالثًا: آداب الحديث بين المتناظرين.

١) الجلوس في وقار وسكينة[2].

٢) ينظر كل طرف للآخر مع حسن الاستماع[3].

٣) اختيار أحسن الألفاظ وألطفها في مخاطبة الطرف الآخر[4].

٤) تجنب غريب الألفاظ ومجملها ومناسبة الكلام لموضوع المناظرة[5].

٥) إعطاء المناظر فرصة لذكر أدلته دون مداخلة أو إظهار التعجب من كلامه[6].

٦) عدم سخرية أحدهما من الآخر[7].

٧) يتجنب المناظر رفع صوته في الكلام بما يؤذي ولا يخفض بما لا يسمع[8].

٨) ستر عيوب المناظر والعفو عن سوء خلقه أثناء المناظرة وعدم تصيد أخطاؤه[9].

٩) التركيز أثناء المناظرة على نقاط الالتقاء ومواضع الاتفاق[10].

١٠) لا يتحدث إذا كان في مكان المناظرة من يشهد للخصم بالزور والباطل[11].

١١) لا يجيب عن الأسئلة الموجهة لغيره[1].

---

(١) وسائل الدعوة، عبد الرحيم المغذوي (٩٩).

(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥١).

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٢)، آداب البحث للشنقيطي (٢/ ٩١).

(٤) الفقيه والمتفقه (٢/ ٧٠)، أصول الدعوة لبدير محمد بدير (١٥٦-١٥٧).

(٥) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي (٢/ ٩١).

(٦) الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٧)، الإحياء للغزالي (١/ ٧٦)، آداب البحث والمناظرة للشنقيطي (٢/ ٩١).

(٧) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي (٢/ ٩١).

(٨) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٤).

(٩) فتاوى ابن تيمية (٢٧/ ٣٠١)، الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٨، ٥٢)، فقه الائتلاف لمحمود الخزندار (١٠٣).

(١٠) أصول الدعوة لبدير محمد بدير (١٥١-١٥٣).

(١١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٣).

رابعًا: آداب طرح الأسئلة أثناء المناظرة.

١) الإيجاز في السؤال وتوضيح معاني الكلام[٢].

٢) الإنصات عند طرح الأسئلة ولعل فيها ما يرد حجة المناظر[٣].

خامسًا: آداب الرد على أسئلة المناظر الآخر.

١) ألا يتعجل في إصدار الأحكام على كلام الخصم حتى يفهم مراده تمامًا[٤].

٢) الإجابة على قدر السؤال[٥].

٣) الإقناع بالدليل وتجنب القول بالهوى والعصبية[٦].

٤) تقديم النقل ونصوصه على العقل وظنونه في الاحتجاج على الخصم[٧].

٥) تقديم الأقوى والأهم من الأدلة[٨].

٦) مراعاة عدم التعارض بين الأدلة[٩].

٧) توثيق الأدلة المستمدة من كتب المخالفين[١٠].

٨) إذا هم برد فتبين له خطؤه فلم يذكره، فليحمد الله ﷻ الذي عصمه من الخطأ[١١].

سادسًا: آداب إنهاء المناظرة.

---

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٧).

(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٣، ٦٣)، آداب البحث والمناظرة (٢/ ٩١)، وسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٩).

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٢).

(٤) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٤٨)، الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٩).

(٥) الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٥).

(٦) أصول الرد على المخالف، بكر أبو زيد (٩٠)، فقه الائتلاف لمحمود الخزندار (١٤٩).

(٧) وسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٩).

(٨) أصول الرد على المخالف لبكر أبو زيد (٩٠)، وسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٩).

(٩) وسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٩).

(١٠) أصول الرد على المخالف لبكر أبو زيد (٨٠).

(١١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٦٨).

١) إعلان التسليم بالقضايا المتفق عليها وقبول نتائج المناظرة[١].

٢) التوقف عن المناظرة إذا تبين الحق وأصر المناظر على باطله[٢].

٣) التوقف عن المجادلة أو المناظرة إذا كانت تؤدي إلى مفسدة تلحق بالدعوة[٣].

خامسًا: نماذج للمناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن.

١) مجادلة إبراهيم عليه السلام للنمرود حينما ادعى الربوبية على قومه ودارت بينهما مناظرة ومجادلة انتهت بنصر إبراهيم عليه السلام وبهت عدوه. يقول تعالى في ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ (البقرة: ٢٥٨).[٤]

٢) مجادلة إبراهيم عليه السلام لقومه ولأبيه في إثبات عقيدة التوحيد والملة الحنفية السمحة، وإظهار بطلان ما يعبد من دون الله وأنها لا تنفع ولا تضر وكل ذلك بالأسلوب المقنع والمنطق المهذب الاستنتاج السليم والحجة الظاهرة. يقول الله تعالى في ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا

---

(١) وسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٩).

(٢) أصول الرد على المخالف لبكر أبو زيد (٤٧٨).

(٣) وسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٩).

(٤) وسائل الدعوة د/ عبد الرحيم المغذوي (١٠٠-١٠١)، ودرء تعارض النقل لابن تيمية (٣/ ٣٨٢).

تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ (الأنعام: ٧٤-٨٣).

* * *

الفصل الثاني

المبحث الأول: حالة العالم قبل الإسلام

ويشتمل هذا المبحث على المطالب الآتية:

المطلب الأول: تمهيد.

المطلب الثاني: المحاور التي يتم على أساسها تقييم أي حضارة سابقة أو لاحقة.

المطلب الأول: تمهيد.

كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح عليه السلام من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي، فقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها، وكأنَّ الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم أو بقيت، ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب فضلًا عن البيوت فضلًا عن البلاد، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا إلى الأديرة والكنائس والخلوات، فرارًا بدينهم من الفتن وضنًّا بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والسكون، وفرارًا من تكاليف الحياة وجدها، أو فشلًا في كفاح الدين والسياسة والروح والمادة، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا، وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل. . . على حساب الضعفاء والمحكومين. ومن ناحية الأديان فقد أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة المحرفين والمنافقين، حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها، وأصبحت مهود الحضارة الثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام، وعسف الحكام، وشغلت بنفسها، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة، وأفلست في معنوياتها، ونضب معين حياتها، لا تملك مشرعًا

صافيًا من الدين السماوي، ولا نظامًا ثابتًا من الحكم البشري. (١)

المطلب الثاني: المحاور التي يتم على أساسها تقييم أي حضارة سابقة أو لاحقة

وسنحاول أن نستعرض واقع العالم المعروف في هذا الوقت، سواء كان محليًّا -في الجزيرة العربية- أو عالميًّا، في العالم المتحضر المعروف آنذاك. ونحن نتكلم عن العصر بعد حوالي ستمائة سنة من مولد السيد المسيح عليه السلام. كيف كان واقع العالم في ذلك الوقت؟ وكيف تغير ذلك الواقع؟ وهل يمكن للتاريخ أن يعيد نفسه؟ وهل هناك وجه تشابه بين الواقع الحالي وهذا الواقع قبل ألف وأربعمائة سنة؟

هذه أسئلة نعتقد أن الإجابة عليها سوف تعني الكثير للبشرية الحائرة التي تتخبط بين ماديات عصرية طاغية، وأحلام إنسانية لحياة أفضل، حياة مثالية تحمل الخير والعدل والرحمة للناس أجمعين.

وفي الواقع ما أشبه اليوم بالأمس، فعندما نستعرض ما كان عليه الحال قبل ألف وأربعمائة سنة قبل الرسالة؛ ستجد كثيرًا من التشابه مع ما تعيشه الإنسانية الآن سواء محليًا حيث مهد الرسالة، أو عالميًا من خلال العالم الذي يدعي التحضر اليوم. وسنقوم باستعراض سريع لواقع العالم في ذلك الزمان وفي تلك الأماكن التي كانت معروفة في ذلك الوقت، وسنعرض لمحة سريعة على التغيير الذي حدث في تلك العوالم؛ أي التأثير الذي أحدثه محمد ﷺ في زمانه ومكانه والأزمنة التي تلته والأماكن الأخرى من العالم وذلك من خلال محورين رئيسيين هما:

١- الوضع السياسي.

٢- الوضع الأخلاقي الديني والاجتماعي.

ونرى أن هذه المحاور هي أسس تقييم أي حضارة سابقة أو لاحقة.

المحور الأول: الوضع السياسي.

كان العصر الجاهلي مسرحًا للحكم المستبد، فقد كانت السياسة في هذا العصر ملكية

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين صـ ٤٠ - ٤١.

مطلقة، قد تقوم على تقديس البيوتات الخاصة، كما كان في فارس، فقد كان آل ساسان يعتقدون أن حقهم في الملك مستمد من الله، وقد عملوا كل ما في استطاعتهم للتأثير في رعاياهم حتى أذعنوا لهذا الحق الملكي المقدس وصارت لهم عقيدة يدينون بها. وقد تقوم على تقديس الملوك مطلقًا، فكان الصينيون يسمون ملكهم الإمبراطور ابن السماء، ويعتقدون أن السماء ذكر، والأرض أنثى، وقد ولدا الكائنات، وكان الإمبراطور ختا الأول هو بكر هذين الزوجين، وكان الإمبراطور يعتبر كالأب الوحيد للأمة، له أن يفعل ما يشاء، وكانوا يقولون له: أنت أبو الأمة وأمها، ولما مات الإمبراطور "لي يان" أو "تاي تسونغ" لبست الصين ثوب الحداد، وحزنت الأمة حزنًا شديدًا، فمنها من أثخن وجهه بالإبر، ومن قطع شعره، ومن ضرب أذنيه بجانب النعش.

وقد تقوم على تقديس بعض الشعوب والأوطان كما كان في المملكة الرومية، فكان المبدأ الأساسي هو تقديس الوطن الرومي، والشعب الرومي. ولم تكن الأمم والبلاد إلا خادمة لمصلحتها وعروقًا يجري منها الدم إلى مركزها، فكانت الدولة تستهين في ذلك بكل حق ومبدأ، وتدوس كل شرف وكرامة، وتستحل كل ظلم وشنيعة، ولا يمنع بلادًا من هذا الحيف والظلم اشتراك في دين وعقيدة ولا إخلاص ووفاء للملكة، ولا يعترف لها في زمن من الأزمان بحق حكمها نفسها بنفسها والتمتع بحقوقها في أرضها إنما هي ناقة ركوب في بعض الأحيان، حلوب في بعضها، لا يقدم لها العلف إلا ما يقيم صلبها ويدر ضرعها. وهذه بعض الأمثلة:

الدولة الرومانية. وعن حال الحكم الروماني في مصر والشام. فيقول الدكتور الفرد. ج. بتلر عن الحكم الروماني في مصر: إن حكومة مصر الرومية لم يكن لها إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم في الحياة أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا

يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم. [١]

ويقول مؤرخ عربي شامي عن الحكم الروماني في الشام: كانت معاملة الرومان للشاميين بادئ ذي بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم في داخليتها من المشاغب والمتاعب. ولما شاخت دولتهم انقلبت إلى أتعس ما كانت عليه من الرق والعبودية، ولم تضف رُومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين، ولا أرضهم أرضًا رومانية، بل ظلوا غرباء ورعايا، وكثيرًا ما كانوا يبيعون أبناءهم ليوفوا ما عليهم من الأموال، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق، وبهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام. [٢]

الدولة الفارسية: ولم يكن النظام المالي والسياسة المالية في إيران عادلة مستقرة بل كانت جائرة مضطربة في كثير من الأحوال، تابعة لأخلاق الجباة العاملين وأهوائهم والأحوال السياسية والحربية.

يقول مؤلف إيران في عهد الساسانيين: كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجباية الأموال، ولما كانت الضرائب تختلف كل سنة وتزيد وتنقص لم يكن دخل الدولة وخرجها مقدرين مضبوطين، وقد كانت الحرب تنشب في بعض الأحيان وليست عند الدولة أموال تنفقها على الحرب، فكان يلجئها ذلك إلى ضرائب جديدة، وكانت المقاطعات الغربية الغنية- وخاصة بابل- هدف هذه الضرائب دائمًا. [٣]

الجزيرة العربية: وأما في الجزيرة العربية لم تكن هناك دولة مركزية، ولكن قبائل متفرقة يغير بعضها على بعض، والبقاء للأقوى. وكانت الحروب والسلب والنهب متفشية بين هذه القبائل، لا أمان ولا عهود ولا مواثيق تحكم علاقة هذه القبائل بعضها ببعض، ولكن منطق القوة والغلبة؛ مما تولد عنه واقع العبودية وانتشارها وكثرة العبيد الذين هم أسرى هذه الحروب أو نتاج هذه المعاملة اللاإنسانية للضعفاء من البشر في هذا الزمان.

---

(١) فتح العرب لمصر للدكتور / ألفرد. ج. بتلر، تعريب: محمد فريد أبو حديد.

(٢) ماذا خسر العالم لأبي الحسن علي الحسني الندوي (ص ٩٨ – ٩٩).

(٣) إيران في عهد الساسانيين (ص ١٦١).

ولك أن تقارن هذا الواقع قبل الرسالة وبعد ثلاثة وعشرين سنة بعد الرسالة كانت هذه الجزيرة أمة واحدة تحت لواء حاكم واحد وهو خليفة رسول الله ﷺ. وأصبحت هذه القبائل المتناحرة المتقاتلة من أجل المصالح الشخصية هي نفسها التي تحارب لنشر عدل ورحمة الإسلام في بقاع الأرض واختفت هذه الحروب القبلية البغيضة وحل محلها الجهاد في سبيل الله لإخراج الشعوب المضطهدة من ظلم الواقع إلى عدالة الإسلام ومن العبادة للعباد إلى عبادة رب العباد.

المحور الثاني: الوضع الديني والأخلاقي والاجتماعي.

كما سبق وأن ذكرنا في التمهيد أن الأديان أصبحت فريسة للعابثين والمتلاعبين، ولعبة للمحرفين والمنافقين، حتى فقدت روحها وشكلها، وسنحاول في هذا المحور أن نلقي نظرة على حالة بعض الملل قديمًا.

أولًا: اليهودية: وكانت في أوربا وآسيا وإفريقيا أمة هي أغنى أمم الأرض مادة في الدين، وأقربها فهمًا لمصطلحاته ومعانيه، أولئك هم اليهود، ولكن لم يكونوا عاملًا من عوامل الحضارة والسياسة أو الدين يؤثر في غيرهم، بل قُضي عليهم من قرون طويلة أن يتحكم فيهم غيرهم، وأن يكونوا عرضة للاضطهاد والاستبداد، والنفي والجلاء، والعذاب والبلاء، وقد أورثهم تاريخهم الخاص وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبودية الطويلة والاضطهاد الفظيع، والإذلال، والجشع وشهوة المال وتعاطي الربا، أورثهم كل ذلك نفسية غريبة لم توجد في أمة وانفردوا بخصائص خلقية كانت لهم شعارًا على تعاقب الأعصار والأجيال، منها الخنوع عند الضعف، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة، والختل والنفاق في عامة الأحوال، والقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله. وقد وصفهم القرآن الكريم وصفًا دقيقًا عميقًا يصور ما كانوا عليه في القرنين السادس والسابع من تدهور خلقي، وانحطاط نفسي، وفساد اجتماعي، عزلوا بذلك عن إمامة الأمم وقيادة العالم.

ثانيًا: المسيحية: لم تكن المسيحية في يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ومعالجة مسائل الإنسان بحيث تقوم عليه حضارة، أو تسير في ضوئه دولة، ولكن كان فيها أثارة من تعليم المسيح، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط، فجاء بولس فطمس نورها، وطعّمها

بخرافات الجاهلية التي انتقل منها، والوثنية التي نشأ عليها، وقضى قسطنطين على البقية الباقية، حتى أصبحت النصرانية مزيجًا من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية والرهبانية، اضمحلت في جنبها تعليم المسيح البسيطة كما تتلاشى القطرة من اليم، وعادت نسيجًا خشبيًا من معتقدات وتقاليد لا تغذي الروح، ولا تمد العقل ولا تشعل العاطفة، ولا تحل معضلات الحياة، ولا تنير السبيل، بل أصبحت بزيادات المحرفين، وتأويل الجاهلين، تحول بين الإنسان والعلم والفكر، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية، يقول (Sale) مترجم القرآن إلى الانكليزية عن نصارى القرن السادس الميلادي: وأسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية حتى فاقوا في ذلك الكاثوليك في هذا العصر، وثارت حول الديانة في هذه الفترة حرب أهلية بين رعايا النصرانية، وانقسموا إلى فريقين الملكانية والمنوفيسية؛ أو نصارى الشام والدولة الرومية وبين نصارى مصر، فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح، وكان المنوفيسيون يعتقدون أن المسيح له طبيعة واحدة، وهي الإلهية التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية، كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له، وقد اشتد الخلاف بين الفريقين، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى، كل طائفة تقول للأخرى: إنها ليست على شيء [1].

وأما الحال الاجتماعي والاقتصادي فقد بلغ الانحلال الاجتماعي غايته في الدولة الرومية والشرقية، وعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الإتاوات، وتضاعفت الضرائب. حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومات. ويمقتونها مقتًا شديدًا، ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية. وذابت أسس الفضيلة، وانهارت دعائم الأخلاق، حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم في حرية. وكان العدل كما يقول (سيل) يباع ويساوم مثل السلع. وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع.

يقول جيبون: وفي آخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر

---

(١) ماذا خسر العالم (ص ٤٢ – ٤٣) بتصرف.

نقطة، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف، ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولًا.

ويقول مؤلفو تاريخ العالم للمؤرخين: إن المدن العظيمة التي أسرع إليها الخراب ولم تسترد مجدها وزهرتها أبدًا، تشهد بها أصيبت به الدولة البيزنطية في هذا العهد من الانحطاط الهائل الذي كانت نتيجته المغالاة في المكوس والضرائب والانحطاط في التجارة، وإهمال الزراعة، وتناقص العمران في البلدان. (1)

ثالثًا: حالة الفرس: أما فارس فكانت تقاسم مملكة الروم حكم العالم المتمدن، ولكن كانت الحالة الأخلاقية متدهورة إلى حد بعيد، وقد انتشرت عندهم عادة نكاح المحارم وغيرها من الفعال القبيحة.

يقول البروفسور أرتهر كرستن سين أستاذ الألسنة الشرقية في جامعة كوبنهاجن بالدنهارك المتخصص في تاريخ إيران في كتابه إيران في عهد الساسانيين: إن المؤرخين المعاصرين للعهد الساساني مثل جاتهياس وغيره، يصدقون بوجود عادة زواج الإيرانيين بالمحرمات، ويوجد في تاريخ العهد الساساني أمثلة لهذا الزواج، فقد تزوج بهرام جوبين وتزوج جشتسب قبل أن يتنصر بالمحرمات(2)، ولم يكن يعد هذا الزواج معصية عند الإيرانيين، بل كان عملًا صالحًا يتقربون به إلى الله، ولعل الرحالة الصيني هوئن سوئنج أشار إلى هذا الزواج بقوله: إن الإيرانيين يتزوجون من غير استثناء. (3)

وظهر " ماني " في القرن الثالث المسيحي، ودعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الشر والفساد من العالم؛ فحرم النكاح استعجالًا للفناء وانتصارًا للنور على الظلمة بقطع النسل.

ثم ثارت روح الطبيعة الفارسية على تعاليم ماني المجحفة، وتقمصت دعوة مزدك الذي ولد ٤٨٧م فأعلن أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم، فينبغوا أن يعيشوا سواء لا فرق بينهم.

---

(١) نقلا عن: ماذا خسر العالم (ص ٤٦).

(٢) إيران في عهد الساسانيين: ترجمة الدكتور محمد إقبال (ص ٤٣٩).

(٣) المصدر السابق (ص ٤٣٠).

قال الشهرستاني: كان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال، أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ. (١)

وكان عندهم تقديس الأكاسرة، ملوك فارس حيث كانوا يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئا علويا مقدسا فكانوا يكفرون لهم، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويرونهم فوق القانون وفوق الاعتقاد وفوق البشر، لا يجري اسمهم على لسانهم؛ ولا يجلس أحد في مجلسهم، ويعتقدون أن لهم حقًا على كل إنسان، وليس لإنسان حق عليهم وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق، وليس للناس قِبلهم إلا السمع والطاعة، وخصصوا بيتًا معينًا - وهو البيت الكياني فكانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ويجبوا الخراج، وهذا الحق ينتقل فيهم كابرًا عن كابر وأبًا عن جد لا ينازعهم ذلك إلا ظالم ولا ينافسهم إلا دعي نذل، فكانوا يدينون بالملك والوراثة في البيت المالك لا يبغون به بدلًا ولا يريدون عنه محيصًا، فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيرًا ملكوا عليهم طفلًا، وإذا لم يجدوا رجلًا ملكوا عليهم امرأة فقد ملكوا بعد شيرويه ولده أزدشير وهو ابن سبع سنين وملك فرُّخ زاد خسروا ابن كسرى أبرويز وهو طفل، وملكوا بوران بنت كسرى، وملكت كذلك ابنة كسرى ثانية يقال لها أزرمي دخت ولم يخطر ببالهم أن يملكوا عليهم قائدًا كبيرًا أو رئيسًا من رؤسائهم مثل رستم وجابان وغيرهما لأنهم ليسوا من البيت الملكي. (٢)

رابعًا: الصين: وكانت تسود الصين في هذا القرن ثلاث ديانات؛ ديانة لا وتسو، وديانة كونفوشيوس، والبوذية.

أما الأولى: ففضلًا عن أنها تحولت وثنية في عهد قريب فهي تُعني بالنظريات أكثر منها

---

(١) الملل والنحل (١/ ٢٤٨).

(٢) ما ذا خسر العالم (ص ٥٨ - ٥٩).

بالعمليات، وكان أتباعها متقشفين زاهدين، لا يتزوجون ولا ينظرون إلى المرأة ولا يتصلون بها اتصالًا، فلم يكن لها أن تكون أُسًّا لحياة سديدة أو حكومة رشيدة، حتى التجأ الذين جاءوا بعد مؤسسها إلى مخالفته والعدول عنه إلى غيره.

أما كونفوشيوس فقد كان يعني بالعمليات أكثر من النظريات، ولكن انحصرت تعاليمه في شؤون هذه الدنيا وتدبير الأمور المادية والسياسية والإدارية، وقد كان أتباعه لا يعتقدون - في بعض الأزمنة - بعبادة إله معين، فيعبدون ما يشاءون من الأشجار والأنهار، وليس فيها نور من يقين ولا باعث من إيمان ولا شرع سماوي، وإنما هو حكمة حكيم وتجارب خبير، يستفيد بها الإنسان إذا شاء ويرفضها إذا شاء.

أما البوذية فقد فقدت بساطتها وحماستها، وابتلعتها البرهمية الثائرة الموتورة فتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت. وتبني الهياكل. وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت. وقد غمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التي ظهرت في عهد ازدهار البوذية.

يقول الأستاذ إيشوراتوبا أستاذ تاريخ الحضارة الهندية في إحدى جامعات الهند: لقد قامت في ظل البوذية دولة تعني بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل وتغير محيطا لرابطات الأخوية البوذية، وظهرت فيها البدع.

ولاحظ ذلك أيضًا أحد الكتاب العصريين وكبار السياسيين في الهند فقال: جعلت البرهمية بوذا مظهرًا للآلهة، وقلدتها في ذلك البوذية نفسها، وأصبحت الرابطة الأخوية البوذية تملك ثروة هائلة، وأصبحت مركزًا لمصالح جماعات خاصة، وفقدت النظام وتسرب إلى مناهج العبادة السحر والأوهام، وبدأت الديانة تتقهقر وتنحط بعدما سادت في الهند وازدهرت ألف سنة.[1]

خامسًا: أمم آسيا الوسطى: أما الأمم الأخرى في آسيا الوسطى وفي الشرق، كالمغول والترك واليابانيين، فقد كانت بين بوذية فاسدة، ووثنية همجية، لا تملك ثروة علمية، ولا

---

(١) ماذا خسر العالم (ص ٦٦).

نظامًا سياسيًا راقيًا، إنما كانت في طور الانتقال من عهد الهمجية إلى عهد الحضارة، ومنها شعوب لا تزال في طور البداوة والطفولة العقلية.

سادسًا: الهند: أما الهند فقد اتفقت كلمة المؤلفين في تاريخها على أن أَحَط أدوارها ديانة وخلقًا واجتماعًا ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي، قد ساهمت الهند جاراتها وشقيقاتها في التدهور الخلقي والاجتماعي، الذي شمل الكرة الأرضية في هذه الحقبة من الزمن وأخذت نصيبًا غير منقوص من هذا الظلام الذي مد رواقه على المعمورة، وامتازت عنها في ظواهر وخلال، يمكن أن نلخصها في ثلاث:

(١) كثرة المعبودات والآلهة كثرة فاحشة.

(٢) الشهوة الجنسية الجامحة.

(٣) التفاوت الطبقي المجحف والامتياز الاجتماعي الجائر.

أولًا: كثرة المعبودات والآلهة كثرة فاحشة - الوثنية المتطرفة -: قد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس، فقد كان عدد الآلهة في "ويد" ثلاثة وثلاثين، وقد أصبحت في هذا القرن ٣٣٠ مليون، وقد أصبح كل شيء رائع وكل شيء جذاب وكل مرفق من مرافق الحياة إلهًا يعبد، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلاهات الحصر وأربت على العد، فمنها أشخاص تاريخية، وأبطال تمثل فيهم الله-زعموا- في عهود وحوادث معروفة، ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله، ومنها نهر الكنج الذي خرج من رأس "مهاديو" الإله، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلكية وغير ذلك، وأصبحت الديانة نسيجًا من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان.

ثانيًا: الشهوة الجنسية الجامحة: وأما الشهوة فقد امتازت بها ديانة الهند ومجتمعها منذ العهد القديم، فلعل المواد الجنسية والمهيجات الشهوية لم تدخل في صميم ديانة بلاد مثل ما دخلت

في صميم الديانة الهندية، وقد تناقلت الكتب الهندية وتحدثت الأوساط الدينية عن ظهور صفات الإله وعن وقوع الحوادث العظيمة وعن تعليل الأكوان روايات وأقاصيص عن اختلاط الجنسين من الآلهة وغارة بعضها على البيوت الشريفة تستك منها المسامع، ويتندى لها الجبين حياء، وتأثير هذه الحكايات في عقول المتدينين المخلصين المرددين لهذه الحكايات في إيمان وحماسة دينية وفعلها في عواطفهم وأعصابهم واضح، زد إلى ذلك عبادتهم لآلة التناسل لإلههم الأكبر"مهاديو "، وتصويرها في صورة بشعة، واجتماع أهل البلاد عليها من رجال ونساء وأطفال وبنات، زد إليه كذلك ما يحدث به بعض المؤرخين أن رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات والنساء يعبدن الرجال العراة، وكان كهنة المعابد من كبار الخونة والفساق الذين كانوا يرزءون الراهبات والزائرات في أعز ما عندهن، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصد فيها الفاسق لطلبته، وينال فيها الفاجر بغيته، وإذا كان هذا شأن البيوت التي رفعت للعبادة والدين فما ظن القارئ ببلاط الملوك وقصور الأغنياء؟! فقد تنافس فيها رجالها في إتيان كل منكر وركوب كل فاحشة، وكان فيها مجالس مختلطة من سادة وسيدات، فإذا لعبت الخمر برؤوسهم خلعوا جلباب الحياء والشرف وطرحوا الحشمة فتوارى الأدب وتبرقع الحياء. . . هكذا أخذت البلاد موجة طاغية من الشهوات الجنسية والخلاعة، وأسفّت أخلاق الجنسين إسفافًا كبيرًا.

ثالثا: التفاوت الطبقي المجحف والامتياز الاجتماعي الجائر: ووضع لهم " منو " أيضا نظام الطبقات الجائر حيث يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات ممتازة وهي:

(١) البراهمة، طبقة الكهنة ورجال الدين.

(٢) شتري رجال الحرب.

(٣) ويش رجال الزراعة والتجارة.

(٤) شودر رجال الخدمة.

ويقول منو مؤلف هذا القانون:

إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه، وشتري من سواعده، وويش من أفخاذه، والشودر من أرجله، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم. فعلى البراهمة تعليم ويد أو تقديم النذور للآلهة وتعاطي الصدقات، وعلى الشتري حراسة الناس والتصدق وتقديم النذور ودراسة ويد والعزوف عن الشهوات، وعلى ويش رعي السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة ويد والتجارة والزراعة، وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث. [1]

وأما المرأة في المجتمع الهندي فقد نزلت في هذا المجتمع منزلة الإماء، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج، فإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، وكانت أمة بيت زوجها المتوفى وخادم الأحماء وقد تحرق نفسها على إثر وفاة زوجها تفاديًا من عذاب الحياة وشقاء الدنيا. وهكذا صارت هذه البلاد المخصبة أرضًا وعقولًا، وهذه الأمة- التي وصفها بعض مؤرخي العرب بكونها معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة وأهل الأحلام الراجحة والآراء الفاضلة؛ لبعد عهدها عن الدين الصحيح وضياع مصادره وتحريف رجال الدين وإمعان الناس في القياس والتخمين واتباع هوى النفوس ونزعات الشهوات. أصبحت هذه البلاد مسرحًا للجهل الفاضح والوثنية الوضيعة والقسوة الهمجية والجور الاجتماعي الذي ليس له مثيل في الأمم ولا نظير في التاريخ. [2]

سابعًا: العرب: أما العرب فقد امتازوا بين أمم العالم وشعوبه في العصر الجاهلي بأخلاق ومواهب تفردوا بها أو فازوا فيها بالقِدْح المعلَّى، كالفصاحة، وقوة البيان، وحب الحرية والأنفة والفروسية والشجاعة والحماسة في سبيل العقيدة، والصراحة في القول، وجودة الحفظ، وقوة الذاكرة، وحب المساواة، وقوة الإرادة، والوفاء والأمانة. ولكن ابتلوا في العصر

---

(١) ماذا خسر العالم صـ ٧٢ – ٧٣.

(٢) ماذا خسر العالم (٧٥ – ٧٦).

الأخير- لبعد عهدهم من النبوة والأنبياء وانحصارهم في شبه جزيرتهم وشدة تمسكهم بدين الآباء وتقاليد أمتهم- بانحطاط ديني شديد ووثنية سخيفة قلما يوجد لها نظير في الأمم المعاصرة، وأدواء خلقية واجتماعية جعلت منهم أمة منحطة الأخلاق، فاسدة المجتمع متضعضعة الكيان حاوية لأسوأ خصائص الحياة الجاهلية وبعيدة عن محاسن الأديان.

كان الشرك هو دين العرب العام والعقيدة السائدة، كانوا يعتقدون في الله أنه إله أعظم خالق الأكوان ومدبر السماوات والأرض، بيده ملكوت كل شيء فلئن سئلوا: من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ولكن ما كانت حوصلة فكرهم الجاهلي تسع توحيد الأنبياء في خلوصه وصفائه وسموه، وما كانت أذهانهم البعيدة العهد بالرسالة والنبوة والمفاهيم الدينية تسيغ أن دعاء أحد من البشر يتطرق إلى السموات العلى ويحظي عند الله بالقبول مباشرة بغير واسطة وشفاعة، قياسًا على هذا العالم القاصر وعاداته، وأوضاع الملوكية الفاسدة، ومجاري الأمور فيها، فبحثوا لهم عن وسطاء توسلوا بهم إلى الله وأشركوهم في الدعاء، وقاموا نحوهم ببعض العبادات ورسخت في أذهانهم فكرة الشفاعة حتى تحولت إلى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر. ثم ترقوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة، واعتقدوا أن لهم مماثلة ومشاركة في تدبير الكون، وقدرة ذاتية على النفع والضرر والخير والشر والإعطاء والمنع، فإذا كانوا الأولون يعترفون لله بالألوهية والربوبية الكبرى، ويكتفون بالشفعاء والأولياء كان الآخرون يشركون آلهتهم مع الله ويعتقدون فيهم قدرة ذاتية على الخير والشر والنفع والضر والإيجاد والإفناء مع معنى غير واضح عن الله كإله أعظم ورب الأرباب. [١] وانتشر في جزيرة العرب عبادة الأصنام بأبشع أشكالها، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص، بل كان لكل بيت صنم خصوصي.

قال الكلبي: كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم

---

(١) بيئة النبي ﷺ من القرآن، للأستاذ محمد عزت دروزة.

السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضًا. [١]

واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتًا، ومنهم من اتخذ صنمًا، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرًا أمام الحرم، وأمام غيره، مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب.

وكان في جوف الكعبة- البيت الذي بني لعبادة الله وحده- وفي فنائها ثلاث مائة وستون صنمًا، وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة جنس الحجارة، فعن أبي رجاء العطاردي قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا، جمعنا حثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به[٢]. وقال الكلبي: كان الرجل إذا سافر فنزل منزلًا أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًا، وجعل ثلاث أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه[٣].

وانتشرت اليهودية والنصرانية في بلاد العرب، ولم تستفد منها العرب كثيرًا من المعاني الدينية، وكانتا نسختين من اليهودية في الشام، والنصرانية في بلاد الروم والشام قد طرأ عليها من التحريف والزيغ والوهن ما شرحناه من قبل.

الأدواء الخلقية والاجتماعية عند العرب: أما من جهة الأخلاق، فكانت فيهم أدواء وأمراض متأصلة، وأسبابها فاشية، فكان شرب الخمر واسع الشيوع شديد الرسوخ فيهم تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها الشعراء، وشغلت جانبًا كبيرًا من شعرهم وتاريخهم وأدبهم، وكثرت أسمائها وصفاتها في لغتهم، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب[٤]، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائمًا، يرفرف عليها علم يسمى

---

(١) كتاب الأصنام لهشام بن محمد الكلبي صـ٦.

(٢) البخاري (٤١١٧).

(٣) الأصنام لابن الكلبي (صـ٣٣).

(٤) انظر: المخصص لابن سيده (١١/ ٨٢ – ١٠١).

غاية، وكان أهل الحجاز، العرب واليهود، يتعاطون الربا، وكان فاشيًا فيهم، وكانوا يجحفون فيه ويبلغون إلى حد الغلو والقسوة.

ولم يكن الزنى نادرًا وكان غير مستنكر استنكارًا شديدًا، فكان من العادات أن يتخذ الرجل خليلات ويتخذ النساء أخلاء بدون عقد، وكانوا قد يُكرهون بعض النساء على الزنى.

عن عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِي ﷺ قالت: النِّكَاح في الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ، فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا، وَنِكَاحٌ آخَرُ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا أرسلي إِلَى فُلاَنٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ. وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا، وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الذي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً في نَجَابَةِ الْوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ، وَنِكَاحٌ آخَرُ يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا. فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا ليالي بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا تَقُولُ لَهُمْ قَدْ عَرَفْتُمُ الذي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ. تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ، فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ. وَنِكَاحُ الرَّابِعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا وَهُنَّ الْبَغَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمُ الْقَافَةَ ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بالذي يَرَوْنَ فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ، إِلاَّ نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ.[1]

المرأة في المجتمع الجاهلي: وكانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحيف، وتؤكل حقوقها وتُبتز أموالها وتُحرم إرثها وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجًا ترضاه، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة. وقال السُّدّي: إن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه فإذا مات وترك امرأته فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه فهو أحق

---

(١) البخاري (٥١٢٧).

بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو يُنكحها فيأخذ مهرها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهي أحق بنفسها، وكانت المرأة في الجاهلية يطفف معها الكيل، فيتمتع الرجل بحقوقه ولا تتمتع هي بحقوقها، يؤخذ مما تؤتي من مهر وتمسك ضرارًا للاعتداء، وتلاقي من بعلها نشوزًا أو إعراضًا وتترك في بعض الأحيان كالمعلقة، ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث، وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد.

وكانوا يقتلون البنات ويئدونهن بقسوة نادرة في بعض الأحيان، فقد يتأخر وأد الموءودة لسفر الوالد وشغله فلا يئدها إلا وقد كبرت وصارت تعقل، وقد حكوا في ذلك عن أنفسهم مبكيات، وقد كان بعضهم يلقي الأنثى من شاهق.

العصبية القبلية والدموية في العرب: كانت العصبية القبلية والدموية شديدة جامحة. وكانت في المجتمع العربي طبقات وبيوت ترى لنفسها فضلًا على غيرها، وامتيازًا، فتترفع على الناس ولا تشاركهم في عادات كثيرة حتى في بعض مناسك الحج، فلا تقف بعرفات وتتقدم على الناس في الإفاضة والإجازة، وتنسأ الأشهر الحرم، وكان النفوذ والمناصب العليا والنسيء متوارثًا، يتوارثه الأبناء عن الآباء، وكانت طبقات مسخرة وطبقات سُوقة وعوام، فكان التفاوت الطبقي من مسلمات المجتمع العربي.

وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء، وكان النور الضعيف الذي يتراءى في هذا الظلام المطبق من بعض الأديرة والكنائس أشبه بالحباحب الذي يضيء في ليلة شديدة الظلام فلا يخترق الظلام، ولا ينير السبيل، وكان الذي يخرج في ارتياد العلم الصحيح، وانتجاع الدين الحق يهيم على وجهه في البلاد، ترفعه أرض وتخفضه أخرى، حتى يأوي إلى رجال شواذ في الأمم والبلاد، فيلجأ إليهم كما يلجأ الغريق إلى ألواح سفينة مكسرة، هشمها الطوفان، يدل على ندرتهم خبر سلمان الفارسي أكبر الرواد الدينيين في

القرن السادس الذي شرق وغرب في الفحص عنهم، ولم يزل يتنقل من الشام إلى الموصل، ومن الموصل إلى نُصيبين، ومن نصيبين إلى عمورية، ويوصي به بعضهم إلى بعض، حتى أتى على آخرهم فلم يجد لهم خامسًا، وأدركه الإسلام في هذا الظلام.

قال سلمان ﷺ: قدمت الشام، فلما قدمتها، قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، قال: فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل فدخلت معه، قال: فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء، اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، قال: وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئا، قالوا: وما علمك بذلك؟ قال: قلت أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا، قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدا فصلبوه، ثم رجموه بالحجارة.

ثم جاءوا برجل آخر، فجعلوه بمكانه، قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلا لا يصلي الخمس، أرى أنه أفضل منه، أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلا ونهارا منه، قال: فأحببته حبا لم أحبه من قبله، فأقمت معه زمانا، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إني كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه من قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟، قال: أي بني والله ما أعلم أحدا اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلا بالموصل، وهو فلان، فهو على ما كنت عليه، فالحق به.

قال: فلما مات وغيب، لحقت بصاحب الموصل فقلت له: يا فلان، إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، قال: فقال لي: أقم عندي فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا

فلان، إن فلانا أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا بنصيبين، وهو فلان، فالحق به، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فجئته فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبي، قال: فأقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فو الله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر، قلت له: يا فلان، إن فلانا كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما نعلم أحدا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، قال: فإنه على أمرنا.

قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، قال: ثم نزل به أمر الله، فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان، فأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجرا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. . . . . . . ". (١)

---

(١) حسن. أخرجه أحمد (٥/ ٤٤١). وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٩٤)، وانظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص ٧٦ – ٩٢).

المبحث الثاني: الإسلام وبيان معناه.

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: معنى الإسلام.

لقد عُرف الإسلام بتعريفات عديدة ووصف بأوصاف كثيرة.

فمن مُعرِّف ببيان أركانه وذكر ما يحتويه. ومن معرف للإسلام بذكر صفة المسلم الذي ينطبق عليه صفات الإسلام، وغير ذلك من التعريفات.

ومن أشهرها تعريف النبي ﷺ لما سأله جبريل عليه السلام ما الإسلام قال ﷺ: **"الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا"**[١]. وعرف أيضًا الإسلام بأنه هو: الإيمان والطاعة[٢].

وقيل: الإسلام: هو الاستسلام لله وحده وهو أصل عبادته وحده وذلك يجمع معرفته ومحبته والخضوع له.

وهذا المعنى الذي خلق الله له الخلق هو أمر وجودي من باب المأمور به[٣].

فالإسلام: هو استسلام وطاعة؛ استسلام لله وللمنهج الذي وصفه وارتضاه للناس كافة، وطاعة لله ولرسوله؛ طاعة لله بالاستسلام لأوامر، وطاعة لرسوله باتباعه وعدم مخالفته.

والإسلام: مصدر أسلم وهو يأتي بمعنى خضع واستسلم، وبمعنى أدى؛ يقال أسلمت الشيء إلى فلان إذ أديته إليه، وبمعنى دخل في السلم وهو بالفتح والكسر بمعنى الصلح والسلامة وبالتحريك الخالص من الشيء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران: ١٩). فهو دين الحق.

فالمسلم الحقيقي ما كان خالصًا من شوائب الشرك بالرحمن، مخلصًا في أعماله مع الإيمان.

ذلك لأن الله شرع الدين لأمرين أصليين:

---

(١) مسلم (٨).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٤٦).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٠/ ١١٦).

أحدهما: تصفية الأرواح، وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بالسلطة الغيبية للمخلوقات وقدرتها على التصرف في الكائنات لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هم من أمثالها أو لما هو دونها في استعدادها وكمالها.

وثانيهما: إصلاح القلوب بحسن القصد في جميع الأعمال، وإخلاص النية لله وللناس. فمتى حصل الأمران انطلقت الفطرة من قيودها العائقة لها عن بلوغ كمالها في أفرادها وجمعياتها.

وهذان الأمران هما روح المراد من كلمة الإسلام. أما أعمال العبادات:

فإنما شرعت لتربية هذا الروح الأمري في الروح الخلقي، ولذلك شرط فيها النية والإخلاص، ومتى تربى سهل على صاحبه القيام بسائر التكاليف الأدبية والمدنية التي يصل بها إلى المدينة الفاضلة وتحقيق أمنية الحكماء(١).

وقيل الإسلام: هو علم بالغلبة على مجموع الذي جاء به محمد ﷺ كما أطلق على ذلك الإيمان أيضًا(٢).

فمضمون الإسلام هو توحيد الله والإخلاص له والإيمان برسوله محمد ﷺ والإيمان بجميع المرسلين مع الإيمان بوجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج والإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره والإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله.

المطلب الثاني: الإسلام هو دين الفطرة.

قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم: ٣٠).

أي: إذا تبين لك أحوال المعرضين عن دلائل الحق فأقم وجهك للدين. وإقامة الوجه تقويمه وتعديله باتجاهه قبالة نظره غير ملتفت يمينًا ولا شمالًا. فأقم وجهك لدين الإسلام حنيفًا وهو الميل عن الباطل أي العدول عنه بالتوجه إلى الحق فطرة الله، والفطرة

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٢٥٧) بتصرف.

(٢) تفسير ابن عاشور (٣/ ١٩٠).

أصلها اسم هيئة وهو الخَلْق مثل الخلقة كما بينه قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: من الآية٣٠). والمعنى: فطر الناس على الدين الحنيف أن الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين، وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم؛ غير مجافية لها غير نائين عنه، ولا منكرين له، مثل إثبات الوحدانية لله لأن التوحيد هو الذي يسوق العقل والنظر الصحيح، حتى لو ترك الإنسان تفكيره ولم يلقن اعتقادًا ضالًا؛ لاهتدى إلى التوحيد بفطرته. فالفطرة هي الخلقة والهيئة التي في نفس الإنسان التي هي معدّة ومهيَّئة لأن يميز بها مصنوعات الله ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه.

فالله ﷻ خلق الناس سالمة عقولهم مما ينافي الفطرة من الأديان الباطلة والعادات الذميمة، وأن ما يدخل عليهم من الضلالات ما هو إلا من جراء التلقي والتعود وقد قال النبي ﷺ: **"مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ"**[(١)].

قال النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: **"وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا. . .**[(٢)]

فوصف الإسلام بأنه فطرة الله معناه أن أصل الاعتقاد فيه جاء على مقتضى الفطرة العقلية.

وأما تشريعاته وتفاريعه فهي إما أمور فطرية أيضًا أي: جارية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به، وإما أن تكون لصلاحه مما لا ينافي فطرته، وقوانين المعاملات هي راجعة إلى ما تشهد به الفطرة لأن طلب المصالح من الفطرة.

واعلم أن شواهد الفطرة قد تكون واضحة بينة وقد تكون خفية، فالفطرة وهي الإسلام تسمى أيضًا بالضرورات العقلية وهي التي لا يستغني عنها أحد ولا يحاول في

---

(١) البخاري (١٣٥٨)، مسلم (٢٦٥٨).

(٢) مسلم (٢٨٦٥).

التصديق بها والتحاكم إليها إلا من فقد عقله، وطمست بصيرته، ومسخت فطرته، وارتضى لنفسه طريق العناد والاستكبار[١].

لذا فإن الإسلام دين كل الأنبياء؛ فالإسلام ليس اسمًا لدين خاص؛ وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩).

فدين الله الذي بعث به أنبياءه من أولهم إلى آخرهم دين واحد هو دين الإسلام.

فلا يجوز التفريق بين رسل الله قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١٥٠: ١٥٢) فهذا نوح عليه السلام يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٧٢). وهذا إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣١). وهذا يعقوب يوصي بنيه فيقول: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٢: ١٣٣). ويوسف عليه السلام يقول: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١).

وعن الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام قالوا: ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة: ١١١)

وقال محمد ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الزمر: ١٢). فالإسلام هو ما بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين من لدن نوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[٢].

---

(١) راجع: الفصل لابن حزم (١/ ٤٣)، وتفسير ابن عاشور (٢١/ ٨٧)، وشرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٤).

(٢) راجع: فتاوى ابن تيمية (١٩/ ٩٥)، وتفسير القرطبي (١٥/ ٢٣٢)، وتفسير ابن عاشور (٦/ ٩)،

وقد خص الله تعالى محمدًا ﷺ بخصائص ميزه الله بها على جميع الأنبياء والمرسلين وجعل له شِرْعةً ومنهاجًا أفضل شرعة وأكمل منهاج مبين[(١)].

المطلب الثالث: التوحيد وأقسامه.

التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (الأعراف: ٥٩). وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (الأعراف: ٦٥). وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (الأعراف: ٧٣). وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (الأعراف: ٨٥). وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦). وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥). وقال ﷺ: **"أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله"**[(٢)]. ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله[(٣)].

فالتوحيد أول ما يدخل في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي ﷺ: **"مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله دَخَلَ الْجَنَّةَ"**[(٤)]. فالتوحيد أول الأمر وآخره.

والتوحيد لا يخرج عن أقسام ثلاثة هي محصل ما ورد في الكتاب والسنة.

أحدها: توحيد الربوبية، وبيان أن الله وحده خالق كل شيء.

والثاني: توحيد الإلهية، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له.

وشرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٢١).

(١) راجع: الجواب الصحيح (١/ ٥)، وتفسير المنار (٦/ ٤١٨).

(٢) البخاري (٢٥)، مسلم (٢٢).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية صـ ١٦.

(٤) أخرجه أبو داود (٣١٠٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٥١)، وحسنه الألباني في الإرواء (٦٨٧).

والثالث: الكلام في الصفات.[١]

ولنشرع الآن في بيان أنواع التوحيد وهذا التقسيم مستفاد من نصوص الوجهين وفصله العلماء بهذا التفصيل تيسيرا على المسلمين لدراسة عقيدتهم.

أولًا: توحيد الربوبية.

وهو الإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية. وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠)[٢]. ولا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكل ما سواه إذا قدر سببًا فلا بد له من شريك معاون وضد معوق، فإذا طلب مما سواه إحداث أمر من الأمور طلب منه ما لا يستقل به ولا يقدر وحده عليه، حتى ما يطلب من العبد من الأفعال الاختيارية لا يفعلها إلا بإعانة الله له[٣].

ومن خصائص الربوبية أنه مالك خلقه، وأنشأهم لا عن حاجة إلى ما خلق ولا معنىً دعاه إلى أن خلقهم، لكنه فعال لما يشاء ويحكم كما يريد، لا يسأل عما يفعل، والخلق مسؤلون عما يفعلون[٤].

فمشيئة الله وحده مستلزمة لكل ما يريده، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وما سواه لا تستلزم إرادته شيئا؛ بل ما أراده لا يكون إلا بأمور خارجة عن مقدوره إن لم يعنه الرب بها لم يحصل مراده، ونفس إرادته لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى. كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن

---

(١) شرح الطحاوية صـ١٦.

(٢) المصدر السابق صـ١٧.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٣٣١).

(٤) اعتقاد أئمة الحديث لأبي بكر الإسماعيلي (صـ٥١).

يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٨، ٢٩). وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الإنسان ٢٩: ٣١)[١].

وبالجملة يمكن تلخيص معنى هذا التوحيد بأنه الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت النافع الضار المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر[٢]. وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام بل لابد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الأُلوهية، لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله تعالى وحده.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ (يونس: ٣١). وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧). وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (النمل: ٦٢).

فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده ولم يكونوا بذلك مسلمين، بل قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ (يوسف: ١٠٦). قال مجاهد في الآية: إيمانهم بالله قولهم: إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره...

فتبين أن الكفار يعرفون الله ويعرفون ربوبيته، وملكه وقهره وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصون له أنواعًا من العبادات كالحج والصدقة والذبح والنذر والدعاء وقت الاضطرار ونحو ذلك[٣].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ (صـ١٧).

(٣) تيسير العزيز الحميد صـ١٧، ١٨.

ثانيًا: توحيد الألوهية (توحيد العبادة).

هو عبادة الله وحده لا شريك له. وأن لا نعبده إلا بما أحبه وما رضيه. وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله - صلوات الله عليهم - فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، وأن يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما، فهذا التوحيد - توحيد الألوهية - يتضمن فعل المأمور وترك المحظور. ومن ذلك: الصبر على المقدور، وهذا التوحيد: هو الفارق بين الموحدين والمشركين، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة. فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين في النار. فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[1]. ومن معانيه أيضًا تجريد محبته والإخلاصِ له، وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرضى به ربًا وإلهًا ووليًا، وأن لا يجعل له عِدلًا في شيء من الأشياء. وسورة (الكافرون) فيها إيجاب عبادته وحده لا شريك له، والتبري من عبادة كل ما سواه[2].

وهذا التوحيد هو الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ (مريم: ٦٥). وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ (هود: ٨٨)، وقوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ (الحجر: ٩٩)[3]. وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل وآخرها، وهو معنى قول: لا إله إلا الله، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة، والخشية والإجلال والتعظيم، وجميع أنواع العبادة، ولأجل هذا التوحيد خُلِقتْ الخليقة، وأُرسلت الرسل وأُنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة، وأشقياء أهل النار، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ (البقرة: ٢١). فهذا أول أمر في القرآن، وقال تعالى:

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤/ ٣٧٨-٣٨٠).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم (٣٥، ٣٦).

(٣) تيسير العزيز الحميد (صـ٢٠).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (المؤمنون: ٢٣). فهذه دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك، وقال كل من هود وصالح، وشعيب لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ وهكذا جميع الأنبياء، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ (الذاريات: ٥٦). وقال هرقل لأبي سفيان لما سأله عن النبي ﷺ ما يقول لكم؟ قال: يقول: اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم[١]. وقال النبي ﷺ لمعاذ: "**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ**. وفي رواية: "**أَنْ يُوَحِّدُوا الله**". [٢]. [٣] واعلم أن توحيد الإلهية يتضمن توحيد الربوبية. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾ (الروم: ٣٠-٣٦)، وقال ﷺ: "**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**". [٤]

ولم يقل: ويسلمانه، وفي رواية: "يولد على الملة"[٥] وفي أخرى: "على هذه الملة"[٦].

وهذا الذي أخبر به ﷺ هو الذي تشهد الأدلة العقلية بصدقه، فلو أقر رجل بتوحيد الربوبية، وهو مع ذلك لم يعبد الله وحده ويتبرأ من عبادة ما سواه - كان مشركًا من جنس أمثاله من المشركين، والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له، ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية، ويبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله، فيجعل الأول دليلًا على الثاني. [٧]

---

(١) البخاري (٧).

(٢) البخاري (١٤٥٨)، والراوية الأخرى في البخاري (٧٣٧٢).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٠: ٢١)، شرح الطحاوية (١٦) بتصرف.

(٤) البخاري (١٣٨٥)، مسلم (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة.

(٥) الترمذي (٢١٣٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٦٠).

(٦) مسلم (٢٦٥٨).

(٧) شرح الطحاوية (١٦-١٩) بتصرف. وانظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١/ ٢٢، ٢٣)، (٣/ ١٠٥-١٠٦).

وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحدٍ سواه، كما قال النبي: "**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاة، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**"[١]، فأخبر أن دين الإسلام مبني على هذه الأركان الخمسة وهي الأعمال، فدل على أن الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له، بفعل المأمور، وترك المحظور، والإخلاص في ذلك لله.

وقد تضمن جميع أنواع العبادة، فيجب إخلاصها لله تعالى[٢]؛ فهو الذي يستحق أن يستعان به ويتوكل عليه ويستعاذ به ويلتجئ العباد إليه؛ فإنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد، كما قال تعالى في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ (الفاتحة: ٥). وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (هود: ١٢٣). وقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝﴾ (الرعد: ٣٠).[٣]

فلا يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والتوكل على غير الله فيما يقدر عليه شرك أصغر[٤].

فهذه المعاني كلها صحيحة وهي من صريح التوحيد وبها جاء القرآن، فالعباد لا ينبغي لهم أن يخافوا إلا الله كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ (المائدة: ٤٤) وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝﴾ (آل عمران: ١٧٣ : ١٧٥)[٥].

---

(١) البخاري (٨)، مسلم (١٦)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٣).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ٤٨٨).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٤).

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ٤٨٨).

ولا يخاف خوف السر إلا من الله؛ ومعنى خوف السر، هو أن يخاف العبد من غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته وإن لم يباشره فهذا شرك أكبر، لأنه اعتقاد للنفع والضر في غير الله والله تعالى يقول: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ (النحل: ٥١)، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ (يونس: ١٠٧).

وكذلك لا ينبغي أن يرجى إلا الله، قال تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (فاطر: ٢)، فلا يدعى الأموات أو غيرهم رجاء حصول مطلوب من جهتهم فهذا شرك أكبر، قال تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ (فاطر: ١٤) ولا يدعو إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ (الجن: ١٨)، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٣)، سواء أكان دعاء عبادة أو دعاء مسألة[1]، كذلك المحبة فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في المحبة التي لا تصلح إلا لله فهو مشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٥: ١٦٧).

وكذلك الصلاة والركوع والسجود، قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ (الكوثر: ٢).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ (الحج: ٧٧).

وكذلك الذبح، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣)، وكذلك الطواف؛ فلا يطاف إلا ببيت الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٩)، وكذلك التوبة، فلا يتاب إلا إلى

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ٤٨٩).

الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ١٣٥)، وكذلك الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ (الأنفال: ٩)، فمن أشرك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص بالخالق تعالى من هذه العبادات أو غيرها فهو مشرك، وكل نوع من أنواع العبادة، من صرفه لغير الله، أو شرك بين الله تعالى وبين غيره فيه فهو مشرك، قال الله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ (النساء: ٣٦). وهذا الشرك في العبادة هو الذي كَفَّرَ الله به المشركين وأباح به دماءهم وأموالهم ونساءهم، وإلا فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق المدبر ليس له شريك في ملكه، وإنما كانوا يشركون به في هذه العبادات ونحوها[1].

ثالثًا: توحيد الأسماء والصفات.

أهمية العلم بأسماء الله وصفاته: العلم بأسماء الله وصفاته منزلته في الدين عالية وأهميته عظيمة ولا يمكن لأحد أن يعبد الله على الوجه الأكمل حتى يكون على علمٍ بأسماء الله وصفاته ليعبده على بصيرة.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ﴾ (الأعراف: ١٨٠).

ونشرع الآن في بيان الثمرات والمنافع التي تعود على العباد من وراء علمهم بأسماء الله وصفاته.

أولًا: العلم بأسماء الله وصفاته هو الطريق إلى معرفة الله: فإذا شاء العبدُ أن يعرف ربه ويزداد به علمًا؛ فليس أمامه طريق إلا النصوص الواصفة له والمصرحة بأفعاله وأسمائه، لأن الله غيبٌ لا يرى في الحياة الدنيا.

ثانيًا: تزكية النفوس وإقامتها على منهج العبودية للواحد الأحد.

ثالثًا: العلم بأسماء الله وصفاته أشرف العلوم: فشرف العلم بشرف المعلوم، والباري أشرف المعلومات، فالعلم بأسمائه أشرف العلوم.[2]

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٦).

(٢) أسماء الله وصفاته (٢٣).

رابعًا: العلم بها أصل للعلم بكل ما سواه: فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقًا له أو أمرًا، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة بهم، والإحسان إليهم، فأمره كله مصلحة وحكمة ورحمة وإحسان، إذ مصدره أسماؤه الحسنى وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة، إذ مصدره أسماؤه الحسنى فلا تفاوت في خلقه ولا عبث ولم يخلق خلقه سدى ولا عبثًا، وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده، فوجود من سواه تابع لوجوده تبع المخلوق لخالقه، فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواه، فالعلم بأسمائه أصل لسائر العلوم، فمن أحصاها كما ينبغي أحصى جميع العلوم إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم[1].

خامسًا: العلم بها سبب زيادة الإيمان: العلم بأسماء الله وصفاته والفقه لمعناها والعمل بمقتضاها وسؤال الله بها؛ يُوجِد في قلوب العابدين تعظيم الباري، وتقديسه ومحبته، ورجاءه وخوفه، والتوكل عليه، والإنابة إليه بحيث يصبح الباري في قلوبهم المثل الأعلى الذي لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته[2].

سادسًا: عظم ثواب من أحصى أسماء الله: حيث ينال الحافظ لأسماء الله -تبارك وتعالى- العارف بمعناها العمل بمقتضاها من الأجر مالا يعلمه إلا الله؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **"إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ"**. [3]

وإحصاء الأسماء على ثلاث مراتب وهذا هو قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح:

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦٣).

(٢) أسماء الله وصفاته (٢٦).

(٣) البخاري (٢٧٣٦)، مسلم (٢٦٧٧)، عن أبي هريرة.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠)[١].

سابعًا: تعظيم الله وتمجيده ودعاؤه بأسمائه وصفاته؛ فأسماء الله وصفاته تدل على عظمته تبارك وتعالى، ومن هنا كثرت أسماؤه وصفاته، كما قيل: العظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال[٢].

وقد أمرنا الحق بدعائه بأسمائه الحسنى فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠). وهذا يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

فدعاء المسألة: أن تقدم بين يدي مطلوبك من أسماء الله تعالى ما يكون مناسبًا مثل أن تقول: يا غفور اغفر لي، ويا رحيم ارحمني، ويا حفيظ احفظني ونحو ذلك.

ودعاء العبادة: أن تتعبد الله تعالى بمقتضى هذه الأسماء فتقوم بالتوبة إليه لأنه التواب، وتذكره بلسانك لأنه السميع، وتتعبد له بجوارحك لأنه البصير، وتخشاه في السر لأنه اللطيف الخبير وهكذا. [٣]

ثامنًا: العلم بالله وفق المنهج القرآني النبوي سبب للتمكين في الأرض والضلال عنه سبب للهزيمة والخذلان.

عقيدة أهل الحق في أسماء الله وصفاته: تقوم عقيدة سلفنا الصالح على عدة أسس وأصول كلها دلَّ عليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وهي:

الأساس الأول: إثبات ما أثبته الله ورسوله ﷺ: فمذهب السلف -رحمهم الله- الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه التي وصف بها نفسه في آياته وتنزيله أو على لسان رسوله ﷺ من غير زيادة عليها ولا نقص منها، ولا تجاوز لها ولا تفسير ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها، ولا تشبيه بصفات المخلوقين ولا سمات المحدثين، بل أمرُّوها كما جاءت وردوا

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦٤).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٦١).

(٣) القواعد المثلى صـ٧.

علمها إلى قائلها ومعناها إلى المتكلم به[1].

الأساس الثاني: أن أسماء الله كلها حسنى وصفاته كلها كاملة عليا: فأهل السنة والجماعة الذين ساروا على منهج الصحابة والتابعين يعتقدون جازمين بأن الصفات التي وصف الله بها نفسه، والأسماء التي سمى بها نفسه لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وهي أحسن الأسماء وأكمل الصفات. قال الله تبارك وتعالى -مقررًا هذه الحقيقة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠). فهو موصوف من الصفات بأكملها وله من الكمال أكمله، وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي معناها[2]، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ولا يوصف بما فيه نقص أو عيب فإنه عز وجل تعالى عن ذلك[3].

الأساس الثالث: تنزيه الباري- تبارك وتعالى- عن التشبيه والتمثيل وكل صفات النقص.

وهذا الأمر قد نصت عليه نصوص كثيرة من كتاب الله تعالى كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى: ١١). وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص: ٤).

وقد قرر أهل السنة والجماعة بناء على ما فقهوه من بيان الله تعالى أن الله لا يشبه شيئًا من خلقه، لا في ذاته ولا في صفاته، فنؤمن بما وصف الله به نفسه من غير تحريف في كتابه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾، فلا ينفون

---

(١) ذم التأويل لابن قدامة صـ١١، عقيدة أصحاب الحديث للصابوني (١٣-١٥)، الشريعة للآجري (صـ٢٦٨)، اعتقاد أئمة الحديث للإسماعيلي (صـ٥١).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٦٨).

(٣) اعتقاد أئمة الحديث للإسماعيلي (صـ٥١).

عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه[(١)].

تنبيه: لا يكفي في التنزيه مجرد نفي التشبيه. فهناك أصلان متلازمان:

الأول: وصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ.

الثاني: نفي مشابهة صفات الله لصفات خلقه، ولا يكفي المثبتين مجرد نفي التشبيه، إذ لو كفى في إثباته مجرد النفي -أي نفي التشبيه- لجاز أن يوصف سبحانه من الأعضاء والأفعال، بما لا يكاد يحصى مما هو ممتنع عليه مع نفي التشبيه، وأن يوصف بالنقائص التي لا تجوز عليه مع نفي التشبيه. . .[(٢)].

الأساس الرابع: الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات: فإن الرسل صلوات الله عليهم جاءوا بنفي مجمل وإثبات مفصل؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ (الصافات: ١٨٠-١٨٢). فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، وطريقة الرسل هي ما جاء بها القرآن، والله تعالى في القرآن يثبت الصفات على وجه التفصيل وينفي عنه - على طريق الإجمال - التشبيه والتمثيل. فهو في القرآن يخبر أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، وأنه عزيز حكيم، غفور رحيم، وأنه سميع بصير، وأنه غفور ودود، وأنه تعالى - على عظم ذاته - يحب المؤمنين ويرضى عنهم، ويغضب على الكفار ويسخط عليهم، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وأنه كلم موسى تكليما، وأنه تجلى للجبل فجعله دكا، وأمثال ذلك. ويقول في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١). ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ (مريم: ٦٥). ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ (النحل: ٧٤). فيثبت الصفات

(١) العقيدة الواسطية، لابن تيمية (١٦-٢١) بشرح خليل هراس.

(٢) فتاوى ابن تيمية (٣/ ٨٢)، وانظر أسماء الله وصفاته للأشقر.

وينفي مماثلة المخلوقات[1].

الأساس الخامس: إجراء الصفات على ظاهرها: فالواجب في نصوص القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف؛ لاسيما نصوص الصفات حيث لا مجال للرأي فيها:

ودليل ذلك السمع والعقل: أما السمع: فقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥) وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢). وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف: ٣).

وهذا يدلُّ على وجوب فهمه على ما يقتضيه ظاهره باللسان العربي إلا أن يمنع منه دليلٌ شرعي.

وأما العقل: فلأن المتكلم بهذه النصوص أعلم بمراده من غيره وقد خاطبنا باللسان العربي فوجب قبوله على ظاهره وإلا لاختلفت الآراء وتفرقت الأمة[2].

تنبيه: ليس معنى إجراء النصوص على ظاهرها أنها غير مفهومة المعنى، بل هي معلومة لنا باعتبار ومجهولة لنا باعتبار آخر.

فباعتبار المعنى هي معلومة، وباعتبار الكيفية التي هي عليها مجهولة. وقد دلَّ على ذلك السمع والعقل.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩)، والتدبرُ لا يكون إلا فيما يمكن الوصول إلى فهمه ليتذكر الإنسان بما فهمه منه.

وكون القرآن عربيًا ليعقله من يفهم العربية، يدلُّ على أن معناه معلوم وإلا لما كان فرقٌ بين أن يكون باللغة العربية أو غيرها، وبيان النبي ﷺ القرآن للناس شامل لبيان لفظه وبيان معناه.

وأما العقل: فلأن من المحال أن يُنزِّلَ الله تعالى كتابًا، أو يتكلم رسوله ﷺ بكلام، يقصد بهذا الكتاب وهذا الكلام أن يكون هداية للخلق؛ ويبقى في أعظم الأمور وأشدها

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٦/ ٣٧).

(٢) القواعد المثلى (٤٢).

ضرورة مجهول المعنى. لأن ذلك تأباه حكمة الله تعالى، وقد قال تعالى عن كتابه: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

هذه دلالة السمع والعقل عن علمنا بمعاني نصوص الصفات[1]، وما أحسن كلمة الإمام مالك لما سئل عن كيفية الاستواء فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

الأساس السادس: ترك البحث في حقيقة الذات الإلهية والصفات التي تستحقها.

إنَّ ذات الله تبارك وتعالى ليس كمثلها شيء، وكذلك صفاته تبارك وتعالى، فالكلامُ في الصفات فرع عن الكلام في الذات، وإذا كانت الذات لا يعلم كنهها وحقيقتها، فكذلك الصفات لا يعلم كنهها وحقيقتها، ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ (الشورى: ١١).

ومن هنا منع الذين فقهوا المنهج القرآني السؤال عن الله وصفاته بكيف، لأن حقيقة الذات والصفات لا يمكن أن تعلم، فلا يقال كيف الله؟ ولا كيف استوى؟ ولا كيف علمه وسمعه وبصره؟ وهذا لا يعني نفي الصفة وقد أشار الحق إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ (طه: ١١٠)، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾ (البقرة: ٢٥٥). فرؤية الله في الآخرة ممكنة، ولكن الإحاطة بالله منفية، وإدراك معنى العلم ممكن، ولكن الإحاطة بعلم الله غير ممكنة.

وقد نهى الرسول ﷺ عن التفكر في ذات الله، وأمر بالتفكر في خلق الله، ففي الحديث: "**لا تفكروا في الله وتفكروا في خلق الله**"[2].

وفي الحديث الآخر: "**تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله**"[3].

---

(١) القواعد المثلى (٤٣).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٦٧)، وقال الألباني: حسن. صحيح الجامع (٢٩٧٦).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٢٠)، والطبراني في الأوسط (٦٣١٩)، وأبو الشيخ في العظمة (١)، والهروي في دلائل التوحيد (١/ ٩٠/ ٣٨)، وقال الألباني: وهذا إسناده حسن في الشواهد الصحيحة (١٧٨٨).

وقال الإمام الطحاوي: لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا يشبه الأنام[١]. [٢].

الأساس السابع: عدم الإلحاد في أسماء الله وصفاته: الابتعاد عن الإلحاد في أسماء الله وصفاته معلم بارز من معالم أهل السنة والجماعة في هذا الباب، واتباع هذا السبيل هو تحقيق لما حذر الله منه في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ (الأعراف: ١٨٠).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ (فصلت: ٤٠)، والإلحاد في أسماء الله تعالى هو الميل بها عما يجب فيها وهو أنواع. [٣]: **الأول**: أن ينكر شيئًا منها أو مما دلت عليه الصفات والأحكام[٤].

وذلك كتكذيب المشركين باسم الرحمن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ (الفرقان: ٦٠)، وأيضًا إلحاد الجهمية والمعطلة الذين نفوا عن الله أسمائه وصفاته أو عطلوها عن معانيها[٥]، وإنما كان ذلك إلحادًا لوجوب الإيمان بها، وبما دلت عليه من الأحكام والصفات اللائقة بالله، فإنكار شيء من ذلك ميلٌ بها عما يجب فيها[٦].

الثاني: أن يجعلها دالَّةً على صفاتٍ تشبه صفات المخلوقين كما فعل أهل التشبيه، وذلك لأن التشبيه معنى باطل لا يمكن أن تدلَّ عليه النصوص، بل هي دالةٌ على بطلانه فجعْلها

وقال المناويُّ: تفكروا في آلا الله أي نعمه التي أنعم بها عليكم.

وقال القاضي: والتفكر فيها أفضل العبادات، ولا تفكروا في الله فإن العقول تحار فيه.

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١١٧).

(٢) أسماء الله وصفاته، للأشقر (١٣٦، ١٣٧).

(٣) قال صاحب القاموس (١/ ٤٥٨/ مادة لحد: ألحد: مال وعدل وماري وجادل).

(٤) القواعد المثلى (٢٦).

(٥) أسماء الله وصفاته، للأشقر (١٣٨) بتصرف.

(٦) القواعد المثلى (٢٦).

دالة عليه ميلٌ بها عما يجب فيها.

الثالث: أن يسمِّي الله تعالى بما لم يسم به نفسه كتسمية النصارى له: الأب، وتسمية الفلاسفة إياه العلة الفاعلة، وذلك لأن أسماء الله تعالى توقيفية، فتسمية الله تعالى بما لم يسم به نفسه ميلٌ بها عما يجب فيها، كما أن هذه الأسماء التي سموه بها نفسها باطلة يُنَزَّهُ الله تعالى عنها.

الرابع: أن يشتق من أسمائه أسماء للأصنام كما فعل المشركون في اشتقاق العُزَّى من العزيز، واشتقاق اللات من الإله على أحد القولين فسَمُّوا بها أصنامهم[1]، ومن ذلك أيضًا دعوى الألوهية والربوبية، كقول فرعون طاغية مصر لقومه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ (القصص: ٣٨)، ودعواه بأنه ربهم الأعلى في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ (النازعات: ٢٤).

الأساس الثامن: الوقف في أسماء الله وصفاته.

قال الإمام أحمد: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه؛ أو وصفه به رسوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث.

وعلى هذا فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة فلا يزاد فيها ولا ينقص، لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه تعالى من الأسماء فوجب الوقوف في ذلك على النص لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء: ٣٦).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف: ٣٣).

لأن تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه أو إنكار ما سمى به نفسه جناية في حقه تعالى فوجب سلوك الأدب في ذلك والاقتصار على ما جاء به النص[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) القواعد المثلى (١٦).

وكل ما ذكرته هنا من أنه يجب أن يتوقف في أسماء الله وصفاته عائدٌ لأمور:

الأول: أن مخالفة هذا المنهج قولٌ على الله بغير علم، ورجم بالغيب، وقد حَرَّم الله هذا، وعده من الجرائم العظام، وإذا كان البشر لا يرضون أن يسموا بغير أسمائهم، فكيف يجوز هذا في حق خالق البشر.

الثاني: أن مخالفة هذا النهج تقديم بين يدي الله ورسوله ﷺ، وقد نهينا عن التقديم بين يدي الله ورسوله، وكيف يجيب العبد إذا حاسبه ربه يوم القيامة عن وصفه تبارك وتعالى بما لم يصف به نفسه.

الثالث: أن أسماء الله تبارك وتعالى حسنى، ومهما اجتهد العبد فإنه قد لا يوفَّق للتعرف على الاسم الأحسن الذي يستحقه الرب تبارك وتعالى[١].

وهذا الأساس أعنى الوقف في أسماء الله وصفاته، وأنه لا يجوز لأحد أن يشتق من الأفعال الثابتة لله أسماء، إلا إذا ورد نص إما في الكتاب أو السنة قد اتفق عليه العلماء المحققون.

فقال الفخر: المشهور عن أصحابنا أنها توقيفية.

وقال أبو القاسم القشيري: الأسماء تؤخذ توقيفًا من الكتاب والسنة والإجماع، فكل اسم ورد فيها وجب إطلاقه في وصفه، وما لم يرد لا يجوز ولو صح معناه.

وقال أبو إسحاق الزجاج: لا يجوز لأحد أن يدعو الله بما لم يصف به نفسه[٢].

---

(١) أسماء الله وصفاته للأشقر (١٢٨).

(٢) فتح الباري (١١/ ٢٢٦).

المبحث الثالث: مراتب الدين.

ويشتمل هذا المبحث على المطالب الآتية:

المطلب الأول: أركان الإسلام. (١)

الركن الأول: الشهادتان.

ومعنى لا إله إلا الله: أي لا معبود بحق في الأرض ولا في السماء إلا الله وحده، فهو الإله الحق، وكل إله غيره باطل، وتقتضي إخلاص العبادة لله وحده، ونفيها عما سواه.

ولا تنفع قائلها حتى يتحقق فيه أمران:

الأول: قول لا إله إلا الله عن اعتقاد وعلم ويقين وتصديق ومحبة.

الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله.

فمن قال هذه الشهادة ولم يكفر بما يعبد من دون الله لم ينفعه هذا القول.

شروط لا إله إلا الله

أحدها: العلم المنافي للجهل.

الثاني: اليقين المنافي للشك.

الثالث: القبول المنافي للرد.

الرابع: الانقياد المنافي للترك

الخامس: الإخلاص المنافي للشرك.

السادس: الصدق المنافي للنفاق.

السابع: المحبة المنافية لضدها.

وقد قال حافظ حكمي:

وبشروط سبعة قد قيدت وفي نصوص الوحي حقا وردت

فإنه لم ينتفع قائلها بالنطق إلا حيث يستكملها

---

(١) وهذا المطلب اختصرناه فالأصل فيه مخاطبة من ليس مسلمًا، أو مسلم يجهل أصول دينه، وإلا فإن هذا المطلب مفصل في أسفار عظام ولكنها إشارات هامة.

العلم واليقين والقبول والانقياد فادر ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبة وفقك الله لما أحبه

ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وأن تعلم وتعتقد بأن محمدًا رسول الله إلى الناس جميعا، وأنه عبد لا يُعبد، ورسول لا يكذب، بل يطاع ويتبع، من أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، وأن تعلم وتعتقد بأن تلقي التشريع سواء في العقيدة، أم في شعائر العبادات التي أمر الله بها، أم في نظام الحكم والتشريع، أم في مجال الأخلاق، أو في مجال بناء الأسرة، أو في مجال التحليل والتحريم. لا يكون إلا عن طريق هذا الرسول الكريم محمد ﷺ لأنه رسول الله المبلغ عنه شريعته.

وقد سبق التفصيل في ذلك عند الحديث عن التوحيد وأقسامه.

الركن الثاني: الصلاة.

الصلاة لغة: الدعاء، قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ (التوبة: ١٠٣). أي ادع لهم.

وقال ﷺ: "**إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ فَلْيُجِبْ فَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُصَلِّ**". [١]

والصلاة عند أهل الاصطلاح: عبارة عن التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم مع النية بشرائط مخصوصة.

وقد ثبت فرضية الصلاة بالقرآن والسنة والإجماع، قال سبحانه ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وقال ﷺ: " **بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**"[٢].

وهي خمس صلوات كما جاء في حديث الأعرابي: أخبرني ما فرض الله علي من الصلوات؟ فقال: " **خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: لَا إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ**". [٣]

---

(١) مسلم (١٤٣١).

(٢) البخاري (٨)، مسلم (١٦) من حديث ابن عمر.

(٣) البخاري (٤٦)، مسلم (١١).

قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن صلاة الظهر أربع ركعات يخافت فيها بالقراءة، ويجلس فيها جلستين في كل مثنى جلسة للتشهد، وأن عدد صلاة العصر أربعًا كصلاة الظهر لا يجهر فيها بالقراءة، ويجلس فيها جلستين في كل مثنى جلسة للتشهد، وأن عدد صلاة المغرب ثلاثًا؛ يجهر في الركعتين الأوليتين منها بالقراءة ويخافت في الثالثة، ويجلس في الركعتين الأوليتين جلسة للتشهد وفي الآخرة جلسة، وأن عدد صلاة العشاء أربعًا، يجهر في الركعتين الأوليتين منها بالقراءة، ويخافت في الأخريين ويجلس فيها جلستين كل مثنى جلسة للتشهد، وأن عدد صلاة الصبح ركعتان يجهر فيهما بالقراءة ويجلس فيها جلسة واحدة للتشهد هذا فرض المقيم، فأما المسافر ففرضه ركعتين إلا صلاة المغرب فإن فرض المسافر في صلاة المغرب كفرض المقيم[١].

الركن الثالث: إيتاء الزكاة.

إن التفاوت بين الناس في الأرزاق والمواهب وتحصيل المكاسب أمر واقع طارئ يحتاج في شرع الله إلى علاج، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ﴾ (النحل: ٧١).

وأوجب على الغني أن يعطي الفقير حقًا واجبًا مفروضًا لا تطوعًا ولا منةً قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ (المعارج: ٢٤-٢٥).

وفريضة الزكاة أولى الوسائل لعلاج ذلك التفاوت، وتحقيق التكافل أو الضمان الاجتماعي في الإسلام.[٢]

الزكاة لغة: النماء والزيادة.[٣]

اصطلاحًا: فإنها حق مخصوص في مال مخصوص على وجه مخصوص في وقت مخصوص. ويعتبر في وجوبه الحول والنصاب.

الزكاة من أركان الإسلام الخمسة، وفرض من فروضه، وفرضت في المدينة في شوال

---

(١) الأوسط لابن المنذر (٢/ ٣١٨).

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته وهبه الزحيلي (٢/ ٧٣١-٧٣٢).

(٣) لسان العرب (٣/ ١٨٤٩).

السنة الثانية من الهجرة بعد فرض زكاة الفطر، وقرنت بالصلاة في اثنين وثمانين موضعًا مما يدل على كمال الاتصال بينهما. [١]

وقد دل على وجوبها الكتاب والسنة والإجماع:

أما الكتاب؛ فقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ (النور: ٥٦)، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ (التوبة: ١١). وغيرها كثير.

وأما السنة؛ فقوله ﷺ: "بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ. . . "منها "وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ". [٢]

ولما بعث النبي ﷺ: معاذًا إلى اليمن فقال: " **فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ**". [٣]

وقال ﷺ: "**مَنْ آتَاهُ الله مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ- ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ**". [٤]

وأما الإجماع: فقد أجمع المسلمون في جميع الأعصار على وجوبها من حيث الجملة، واتفق الصحابة رضي الله عنهم على قتال مانعيها[٥].

الحكمة من تشريع الزكاة.

١) تصون المال وتحصنه من تطلع الأعين وامتداد أيدي الآثمين والمجرمين.

٢) تطهر النفس من داء الشح والبخل فالزكاة التي يؤديها المسلم امتثالًا لأمر الله وابتغاء مرضاته، إنما هي تطهير له من أرجاس الذنوب بعامة، ومن رجس الشح بخاصة، وذلك الشح الذميم الذي أحضرته الأنفس وابتلي به الإنسان، قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَٰنُ

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ٧٣٣.

(٢) البخاري (٨)، ومسلم (٢١).

(٣) البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (٢٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) البخاري (٤٥٦٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) المغني ٢/ ٤٣٣.

قَتُورًا﴾ (الإسراء: ١٠٠)، وقال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ (النساء: ١٢٨)[١].

٣) تدرب المسلم على الإنفاق والبذل والجود والسخاء والكرم الذي يحبه كل بر وفاجر وتبعده عن الشح الذي هو مذموم عند كل أحد وتطهر القلب عن حب الدنيا ببذل اليسير[٢].

٤) عون للفقراء والمحتاجين، تأخذ بأيديهم لاستئناف العمل والنشاط إن كانوا قادرين، وتساعدهم على ظروف العيش الكريم إن كانوا عاجزين فتحمي المجتمع من مرض الفقر، والدولة من الإرهاق والضعف[٣].

٥) وجبت شكرا لنعمة المال، فالزكاة توقظ في نفس معطيها معنى الشكر لله تعالى والاعتراف بفضله عليه وإحسانه إليه[٤].

٦) علاج القلب من حب الدنيا، فهي علاج للقلب من الاستغراق في حب الدنيا، وحب المال فإن الاستغراق في حبه -كما قال الرازي يذهل النفس عن حب الله وعن التأهب للآخرة[٥].

٧) الزكاة منمية لشخصية الغني وكيانه المعنوي فالإنسان الذي يبذل الخير ويصنع المعروف ويبذل من ذات نفسه ويده لينهض بإخوانه في الدين والإنسانية وليقوم بحق الله عليه يشعر بامتداد في نفسه وانشراح واتساع في صدره، ويحس به من انتصر في معركة[٦].

٨) والزكاة تربط بين الغني ومجتمعه برباط متين سداه المحبة ولحمته الإخاء والتعاون، فإن الناس إذا علموا في الإنسان رغبته في نفعهم، وسعيه في جلب الخير لهم، ورفع الضر عنهم، أحبوه بالطبع ومالت نفوسهم إليه لا محالة.

---

(١) فقه الزكاة يوسف القرضاوي (٢/ ٨٥٧).

(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز المحمد السلمان (١/ ٢٦١-٢٦٢)

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته (٢/ ٧٣٢).

(٤) فقه الزكاة (٢/ ٨٦٣).

(٥) المصدر السابق (٢/ ٨٦٤).

(٦) المصدر السابق (٢/ ٨٦٦).

الركن الرابع: الصيام.

الصيام في اللغة: هو الإمساك والكف عن كل شيء، يقال لمن سكت ولم يتكلم صائم.

قال الله تعالى في قصة مريم ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ (مريم: ٢٦)

وأما الصيام في الشرع: إمساك مخصوص، عن شيء مخصوص، في زمن مخصوص، من شخص مخصوص، بنية مخصوصة، أي: الإمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات؛ من طلوع الشمس إلي غروب الشمس مع نية التعبد لله تعالي.

والصيام ركن من أركان الإسلام دَلَّ علي وجوبه الكتاب والسنة والإجماع.

أما من الكتاب: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣).

أما من السنة: حديث عبد الله بن عمر ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ": **بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**"[١].

وأما الإجماع: فقد أجمع المسلمون على أن الصوم ركن من أركان الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة بحيث يكفر منكره وأنه لا يسقط علي المكلف إلا بعذر من الأعذار الشرعية المعتبرة[٢].

ويجب الصوم على المسلم البالغ العاقل القادر على الصوم ولا يجب على كافر ولا مجنون ولا صبي.[٣]

الركن الخامس: الحج.

الحج في لسان العرب فيه قولان:

أحدهما: أنه القصد ولهذا سمي الطريق محجة لأنه يوصل إلى المقصد.

الثاني: أنه العود مرة بعد أخرى.

---

(١) البخاري (٨)، مسلم (١٦).

(٢) المغني (٣/ ٣)، المجموع (٦/ ٢٥٢).

(٣) المغني (٣/ ١٣).

الحج شرعًا: قصد مكة لعمل مخصوص في زمن مخصوص[(١)].

والحج فرض عين علي كل مكلف مستطيع في العمر مرة. وهو ركن من أركان الإسلام وقد ثبت فرضيته بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب: فقد قال تعالي: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾ (آل عمران: ٩٧)

وأما من السنة: فقد وردت أحاديث كثيرة جدًا بلغت حد التواتر تفيد اليقين والعلم القطعي الجازم بثبوت هذه الفريضة. ومن ذلك حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: "**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**"[(٢)]

وأما الإجماع: فقد أجمعت الأمة علي وجوب الحج (على المستطيع) مرة واحدة في العمر وهو المعلوم بالدين بالضرورة يكفر جاحده[(٣)]

والحج له مواقيت زمانية ومكانية: والزمانية في قوله ﷻ ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ (البقرة: ١٩٧).

أي: لا يصح شيء من أعمال الحج إلا فيها.

والمكانية: فهي كما في حديث ابن عباس قال: "وقت رسول الله ﷺ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ذَا الْحُلَيْفَةِ وَلِأَهْلِ الشَّامِ الْجُحْفَةَ وَلِأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ وَلِأَهْلِ الْيَمَنِ يَلَمْلَمَ. . ."[(٤)]

وفي حديث عائشة رضي الله عنها "أن رسول الله ﷺ وقت لأهل العراق ذات عرق"[(٥)].

هذا؛ وللحج أركان لا يصح إلا بها، وهي عند الجمهور أربعة: الإحرام، الوقوف بعرفة، طواف الإفاضة، والسعي بين الصفا والمروة، ويجب الحج بخمسة شروط هي

---

(١) معونة أولي النهى (٣/ ١٥٤).

(٢) البخاري (٨)، مسلم (١٦).

(٣) المغني (٣/ ١٥٩)، المجموع (٧/ ٧).

(٤) البخاري (١٥٦٢)، مسلم (١١٨١).

(٥) أبو داود (١٧٣٩)، النسائي (٥/ ١٢٣)، صححه الألباني في الإرواء (٩٩٩).

الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والاستطاعة. (١)

المطلب الثاني: أركان الإيمان.

الركن الأول: الإيمان بالله.

فلفظ الجلالة الله: علم على الرب تبارك وتعالى وقيل أنه أعرف المعارف. وأصله: الإله وهو مشتق.

إن الإيمان بالله تعالى هو الركن الركين والركن الأساسي، فهو العمدة ويبنى عليه باقي أركان الإيمان، وهو بمثابة القاعدة الصلبة لأركان الإيمان.

فالإيمان بالله تعالى: إثباته والاعتراف بوجوده، والإيمان له تعالى: القبول عنه والطاعة له. (٢)

معرفة الله ﷻ هي أسمى المعارف وأجلّها وهي الأساس الذي تقوم عليه الحياة الروحية كلها.

فمنها تفرعت المعرفة بالأنبياء والرسل وما يتصل بهم من حيث عصمتهم ووظيفتهم وصفاتهم والحاجة إلى رسالاتهم، وما يلحق بذلك من المعجزة والولاية والكرامة والكتب السماوية.

وعنها تشعبت المعرفة بعالم ما وراء الطبيعة من الملائكة والجن والروح.

وعنها انبثقت المعرفة بمصير هذه الحياة وما تنتهي إليه من الحياة البرزخية والحياة الأخروية من البعث والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار.

الإيمان بوجود الله تعالى: دلت عليه الفطرة، والعقل، وإجماع الأمم، والآيات الكونية.

أما دلالة الفطرة: فإن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها، لقول النبي ﷺ: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ"(٣).

فما يغرسه الآباء في نفوس الأبناء، وما يلقيه الكتّاب والمعلمون والباحثون في أفكار

---

(١) المغني (٣/ ١٦١).

(٢) تيسير العزيز الحميد صـ١٥.

(٣) البخاري (١٣٨٥)، مسلم (٢٦٥٨).

الناشئة؛ يبدل هذه الفطرة ويكدرها ويلقي عليها غشاوة فلا تتجه إلى الحقيقة.

وشياطين الإنس والجن يقومون بدور كبير في إفساد الفطرة وتدنيسها.

وعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: **"أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا "**[1].

إذًا فالإقرار بوجود الله تعالى أمر فطري، فالعلم الإلهي فطري ضروري وأنه أشد رسوخًا في النفوس من مبدأ العلم الرياضي كقولنا: إن الواحد نصف الاثنين ومبدأ العلم الطبيعي كقولنا: إن الجسم لا يكون في مكانين، لأن هذه المعارف أسماء قد تعرض عنها أكثر الفطر، وأما العلم الإلهي: فما يتصور أن تعرض عنه فطرة[2].

فالقلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقًا به ودينًا له، لكن يعرض لها ما يفسدها، ومعرفة الحق تقتضي محبته، ومعرفة الباطل تقتضي بغضه؛ لما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل، لكن قد يعرض لها ما يفسدها إما من الشبهات التي تصدها عن التصديق بالحق، وإما من الشهوات التي تصدها عن اتباعه.

ولهذا أمرنا الله أن نقول في الصلاة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝ ﴾ (الفاتحة٦: ٧). وقال النبي ﷺ: **"اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون"** لأن اليهود يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم؛ ولا يتبعونه لما فيهم من الكبر والحسد الذي يوجب بغض الحق ومعاداته. والنصارى لهم عبادة وفي قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها لكن بلا علم فهم ضُلَّال. هؤلاء لهم معرفة بلا قصد صحيح وهؤلاء لهم قصد في الخير بلا معرفة له وينضم إلى ذلك الظن واتباع الهوى؛

---

(١) مسلم (٢٨٦٥).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ١٥).

فلا يبقى في الحقيقة معرفة نافعة؛ ولا قصد نافع بل يكون كما قال تعالى عن مشركي أهل الكتاب: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ (الملك: ١٠).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩)[١].

فإن قيل: إذا كانت معرفته والإقرار به ثابتًا في كل فطرة فكيف ينكر ذلك كثير من النظار -نظار المسلمين- وغيرهم وهم يدعون أنهم الذين يقيمون الأدلة العقلية على المطالب الإلهية؟!

فيقال أولًا: أول من عرف في الإسلام بإنكار هذه المعرفة هم أهل الكلام الذين اتفق السلف على ذمهم؛ من الجهمية والقدرية، وهم عند سلف الأمة من أضل الطوائف وأجهلهم. ولكن انتشر كثير من أصولهم في المتأخرين الذين يوافقون السلف على كثير مما خالفهم فيه سلفهم الجهمية.

فصار بعض الناس يظن أن هذا قول صدر في الأصل عن علماء المسلمين؛ وليس كذلك إنما صدر أولًا عمن ذمه أئمة الدين وعلماء المسلمين.

الثاني: أن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم والإرادات وغيرها من الصفات ما لا يعلم أنه قائم بنفسه فإن قيام الصفة بالنفس غير شعور صاحبها بأنها قامت به. فوجود الشيء في الإنسان وغيره غير علم الإنسان به[٢].

فمعرفة الخالق سبحانه فطرية، وإنما تكون نظرية عند من فسدت فطرته فاحتاج إلى النظرة والبرهان.

ومن المعلوم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أنه لم يوجب هذا النظر على الأمة، ولا أمرهم به، بل ولا سلكه هو ولا أحد من سلف الأمة في تحصيل هذه المعرفة، ولو كان

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٧/ ٥٢٨)، فتح الباري (٣/ ٢٤٨)، درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣٧٥).

(٢) فتاوى ابن تيمية (١٦/ ٢٣٠-٣٤٨)، درء تعارض العقل والنقل (١/ ٣٩-٤١).

النظر واجبًا لكان أول ما يجب على الرسل دعوة قومهم إليه، وهذا مما علم فساده من دين الإسلام، فالفطرة تعرف الخالق بدون الآيات والأدلة العقلية، لأن معرفة الدليل تستلزم تصور المدلول عليه قبل ذلك.

كما أن معرفة الاسم تقتضي تصور المسمى من قبل حتى تمكن المطابقة وتتم المعرفة، والقلوب مفطورة على الإقرار به سبحانه أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات؛ كما قالت الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠)[1]، ولذلك قال كثير من العلماء والعقلاء: إن العلم بالخالق ضروري لا يحتاج إلى نظر، وإنما إلى تذكر يوقظ من سنة الغفلة كالموت الذي يغفل عنه كثير من الناس وهو ضروري، وقد قال تعالى في مخاطبة العقلاء به: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الزمر: ٣٠)؛ فالألسنة تنطلق بذكره تعالى عند الكوارث، والنفوس تلجأ إليه عند دفع المضار، ولو قيِّد لسان المضطر لنطق جنانه وأفصحت إشاراته وأركانه، ووجد حرارة تدفعه إلى بارئه وتضطره إلى مُنْشِئه وهذا الشعور لا صنع فيه للبشر ولا كسب لهم فيه لا بتقليد ولا نظر بل هو لازم من لوازم الإنسانية وصفة من صفاتها الذاتية: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم: ٣٠)[2]. فما أصبحت مسالة توحيد الربوبية من النظريات التي يقام عليه برهان فإن الفطرة السليمة الإنسانية تشهد بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها على صانع حكيم عالم قدير، ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع، وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشرك.

دلالة العقل على وجود الله تعالى: يجب أن يعلم: أن العالَمَ مُحدَث؛ وهو عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى، والدليل على حدوثه: تغيره من حال إلى حال، ومن صفة إلى صفة، وما كان هذا سبيله ووصفه كان مُحْدَثًا، وقد بيّن نبينُا ﷺ هذا بأحسن بيان يتضمن

---

(١) فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٣٣٠، درء تعارض العقل والنقل ١/ ٣٧-٤١، مناهج الأدلة لابن رشد صـ٤٣.

(٢) دلائل التوحيد للقاسمي صـ١٢-١٤.

أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة، لما قالوا له: يا رسول الله: أخبرنا عن بدء هذا الأمر؟ فقال: نعم. كان الله تعالى ولم يكن شيء، ثم خلق الله الأشياء.

فأثبت أن كل موجود سواه محدث مخلوق. وكذلك الخليل ﷺ، إنما استدل على حدوث الموجودات بتغيرها وانتقالها من حالة إلى حالة؛ لأنه لما رأى الكوكب قال: هذا ربي، إلى آخر الآيات فعلم أن هذه لما تغيرت وانتقلت من حال إلى حال دلت على أنها محدثة مفطورة مخلوقة، وأن لها خالقًا، فقال عند ذلك ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (الأنعام: ٧٩)

وإذا صح حدوث العالم؛ فلا بد له من محدث أحدثه، ومصور صوره، والدليل على ذلك: أن الكتابة لا بد لها من كاتب كتبها، والصورة لا بد لها من مصور صورها، والبناء لا بد له من بان بناه. فإنا لا نشك في جهل من أخبرنا بكتابة حصلت بنفسها لا من كاتب، وصناعة لا من صانع، وحياكة لا من ناسج. وإذا صح هذا وجب أن تكون صور العالم وحركات الفلك متعلقة بصانع صنعها، ومحدث أحدثها، إذ كانت ألطف وأعجب صنعًا من سائر ما يتعذر وجوده إلا من صانع.

دليل ثان: ويدل على ذلك أيضًا: علمنا بتقدم الحوادث بعضها على بعض، وتأخر بعضها عن بعض، مع علمنا بتجانسها وتشاكلها، فلا يجوز أن يكون المتقدم منها متقدمًا لنفسه؛ لأنه لو تقدم لنفسه لوجب تقديم كل ما هو من جنسه معه، وكذلك المتأخر منها، لو تأخر لنفسه وجنسه لم يكن المتقدم منها بالتقدم أولى منه بالتأخر، وفي علمنا بأن المتقدم من المتماثلات بالتقدم أولى منه بالتأخر، دليل على أن له مقدمًا قدمه، وعاجلًا عجله في الوجود، مقصورًا على مشيئته.

ويدل على صحة ما ذكرناه: أن الموجودات لا يجوز أن تكون فاعلة لنفسها، أنا وجدنا منها الموات والأعراض، أعني الجمادات التي لا حياة فيها، لا يجوز أن تكون فاعلة لنفسها ولا لغيرها، لأن من شرط الفاعل أن يكون حيًا قادرًا، فبطل كونها محدثة لنفسها بل لها مُحدِثٌ أحدثها.

ويدل على صحة ذلك أيضًا: أنا وجدنا أنفس الموجودات في العالم، الحي القادر العاقل

المحصل، وهو الآدمي، أكمل ما تكون. تعلم وتحقق أنه كان في ابتداء أمره نطفة ميتة، لا حياة فيها ولا قدرة، ثم نقل إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم من حال إلى حال، ثم بعد خروجه حيًا من الأحشاء إلى الدنيا. تعلم وتحقق أنه كان في تلك الحالة جاهلًا بنفسه وتكييفه، وتركيبه، ثم بعد كمال عقله وتصوره وحذقه وفهمه لا يقدر في حال كماله أن يحدث في بدنه شعرة ولا شيئًا، ولا عرقًا فكيف يكون محدثًا لنفسه ومنقلًا لها في حال نقصه من صورة إلى صورة ومن حالة إلى حالة وإذا بطل ذلك منه في حال كماله كان أولى أن يبطل ذلك منه في حال نقصه، ولم يبق إلا أن له محدثًا أحدثه، ومصورًا صوره ومنقلًا نقله؛ وهو الله سبحانه وتعالى[1].

وتقوم هذه الأدلة على أسس عقلية لا يخالفنا فيها أحد.

١) فالعدم لا يفعل شيئًا: فمن المستحيل أن يوجد فعل بدون فاعل، ومن المستحيل أن يفعل العدم شيئًا لأنه لا وجود للعدم.

٢) والفعل مرآة لبعض قدرة فاعله وبعض صفاته:

فإن بين الفعل والفاعل علاقة قوية فالفاعل هو المقدمة والفعل هو النتيجة ولا يكون شيء في الفعل ليس للفاعل قدرة على فعله.

٣) وفاقد الشيء لا يعطيه: فنحن إذا شاهدنا مقتولًا في الشارع فإن أحدًا منا لا يدعوا إلى إلقاء القبض على حجرة بجوار القتيل بتهمة القتل لأنها لا تملك القدرة على الفعل كما أن الواحد منا لا يزعم بأن حيوانًا لا يعقل قد أطلق قمرًا صناعيًا يدور حول الأرض لأن الحيوان لا يملك القدرة على إطلاق ذلك القمر وهكذا يحكم العقل حكمًا جازمًا بأن ليس الفاعل من لا يملك القدرة على الفعل وفاقد الشيء لا يعطيه[2].

٤) مبدأ السببية؛ فالواقع والعقول السليمة تشهد أن الإنسان منذ فتح عينيه لم يشاهد أن حادثًا حدث من غير سبب أو أن شيئًا وجد من غير موجد حتى أصبح هذا المعنى

---

(١) انظر في ذلك الفصل في الملل والنحل (١/ ٦٦)، ودرء تعارض العقل والنقل (٣/ ١١٣)، وأضواء البيان (٤/ ٣٦٨).

(٢) توحيد الخالق (٢٩-٣٠)، والرياض النضرة (صـ٢٥٨)، ودرء تعارض العقل مع النقل (٣/ ١٢١).

بحكم الواقع لا يتصور العقل خلافه ولا يأبى الإقرار به إلا كصاحب عقل مفقود أو مريض كشأن المعتوهين.

دلالة إجماع الأمم على وجود الله سبحانه وتعالى:

من المعلوم أنه لا يوجد أحدً من الخلق لم يزعم أن الأنبياء والأحبار والرهبان والمسيح ابن مريم شاركوا الله في خلق السموات والأرض بل ولا زعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان في الصفات والأفعال بل ولا أثبت أحد من بني آدم إلهًا مساويًا لله في جميع صفاته.

بل عامة المشركين بالله: مقرون بأنه ليس شريكه مثله بل عامتهم يقرون أن الشريك مملوك له سواء كان ملكًا أو نبيًا أو كوكبًا أو صنمًا.

كما كان مشركو العرب يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك.

فأهلَّ رسول الله ﷺ بالتوحيد وقال: " لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك".

وقد أخبر سبحانه عن المشركين من إقرارهم بأن الله خالق المخلوقات فقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الزمر: ٣٨).

فقد تبين أن ليس في العالم من ينازع في هذا الأصل؛ ولكن غاية ما يقال: إن من الناس من جعل بعض الموجودات خلقا لغير الله كالقدرية وغيرهم؛ لكن هؤلاء يقرون بأن الله خالق العباد وخالق قدرتهم، وإن قالوا إنهم خلقوا أفعالهم وكذلك أهل الفلسفة والطبع والنجوم الذين يجعلون أن بعض المخلوقات مبدعة لبعض الأمور هم مع الإقرار بالصانع يجعلون هذه الفاعلات مصنوعة مخلوقة لا يقولون إنها غنية عن الخالق مشاركة له في الخلق[1].

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٣/ ٩٧-٩٩)، (٤/ ١٤-١٥)، (٥/ ٥٥٠).

الاستدلال بالآيات الكونية وغيرها على وجود الله سبحانه وتعالى.

وهذا من أعظم الأدلة فائدةً، وأسهلها طريقةً، وأسرعها نتيجةً، وأسلمها وأبعدها عن الخطأ.

ولذلك لما سئل بعض الأعراب عن وجود الرب تبارك وتعالى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

وقال أبو نواس وقد سئل عن ذلك:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لُجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك.

وقال آخر:

سل الواحة الخضراء والماء جاريا ... وهذي الصحاري والجبال الرواسيا

سل الروض مزدانًا سل الزهر والندى ... سل الليل والإصباح والطير شاديا

وسل هذه الآنام والأرض والسما ... وسل كل شيء تسمع الحمد ساريا

فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا ... فمن غير ربي يرجع الصبح ثانيا

وأول سورة نزلت في القرآن ذكرت هذا حيث يقول سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢)﴾ (العلق: ١-٢). فذكر الخلق مطلقًا ومقيدًا؛ ليذكر أن هذا الخلق لابد له من خالق، وهذا ما يسميه دليل الخلق والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ (٦)﴾ (الطارق: ٥-٦).

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ (١٧) وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ (١٨) وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ (١٩) وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ (٢٠)﴾ (الغاشية ١٧: ٢٠)

وقال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ (٣٥)﴾ (الطور: ٣٥).

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (النمل: ٦٤)[١].

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة.

الإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد، لا يتم الإيمان إلا به، والملائكة عالم من عوالم الغيب التي امتدح الله بها المؤمنين تصديقًا لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ.

وهي أجسام لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة ومسكنها السموات، وخلقهم الله من النور فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "**خُلِقَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُور.**"[٢].

ولهم أجنحة كما قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ (فاطر: ١).

ولا يأكلون ولا يشربون. ويدل على هذا قصة الملائكة مع إبراهيم عليه السلام لما جاؤوا إليه في صورة بشر، فقدَّم لهم الطعام، فلم تمتد أيديهم إليه، فأوجس منهم خيفة قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (الذاريات: ٢٤-٢٨).

ولا يملون ولا يتعبون من عبادة الله. لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٠).

فهم دائبون في العمل ليلًا ونهارًا، مطيعون قصدًا وعملًا، قادرون عليه[٣].

وأعدادهم كثيرة لا يعلمه إلا الله. لقوله ﷺ: "**أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ**

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٩)، وعقيدة المسلمين للبليهي (١/ ١٢٥)، وتلبس إبليس (١/ ١٧٤)، والملل والنحل (٣/ ٧٩)، والإيمان لعبد المجيد الزنداني (صـ٢٢)، ودرء تعارض العقل مع النقل (٧/ ٣٠٥).

(٢) مسلم (٢٩٩٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٩/ ٣٩٦).

أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ"[1].

وحديث النبي ﷺ في وصف البيت المعمور "**هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ**".[2]

ولهم أعمال موكلون بها. وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله، ولهم علاقة طيبة بالصالحين من بني آدم. وأما مع غيرهم فهي علاقة بغض وشدة.

وإليك بعض هذه الصور الطيبة للعلاقة الصالحة:

١ - استغفارهم للصالحين: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (غافر: ٧)، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (الشورى: ٥)، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "**صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً. . . . .**"، وفيه"**وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ يَقُولُونَ اللهمَّ ارْحَمْهُ اللهمَّ اغْفِرْ لَهُ اللهمَّ تُبْ عليهِ مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيه**"[3].

٢ -شفاعتهم للموحدين عند الله: قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ (النجم: ٢٦)، وفي حديث أبي سعيد الخدري

---

(١) أحمد (٥/ ١٧٣)، الترمذي (٢٣١٢)، وغيرهما. وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٢٢).

(٢) البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (١٦٢).

(٣) البخاري (٤٧٧)، مسلم (٦٤٩) واللفظ له.

عن النبي ﷺ وهو حديث الرؤية الطويل وفيه"... فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون"[١].

٣-محبتهم للمؤمنين: كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **"إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ"**[٢].

٤- وهم يصلون على النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

٥-التأمين على دعاء المؤمنين: وبهذا يكون الدعاء أقرب إلي الله تعالى. لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم. ففي حديث أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: **"مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ"**[٣].

وهذا قليل من كثير من أعمال الملائكة وخصوصًا مع المؤمنين وإلا فالأعمال كثيرة. ولذا فإن واجب المؤمن تجاه الملائكة هو عدم إيذاء الملائكة والبعد عن كل ما يؤذي الملائكة من الذنوب والمعاصي وموالاة الملائكة كلهم.

الركن الثالث: الإيمان بالكتب.

وهذا هو الركن الثالث من أركان الإيمان ومعناه: أن تؤمن بما سمى الله من كتبه في كتابه، من التوراة، والإنجيل، والزبور، وتؤمن بأن لله سوى ذلك كتبا أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الذي أنزلها، وتؤمن بالفرقان.[٤] قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة: ١٣٦).

ومن الإيمان بالكتب الإيمان بأنها كلام الله عز وجل لا كلام غيره وأن الله تعالى تكلم بها حقيقة

---

(١) البخاري (٧٤٣٩)، مسلم (١٨٣).

(٢) البخاري (٣٢٠٩)، مسلم (٢٦٣٧).

(٣) مسلم (٢٧٣٣، ٢٧٣٢).

(٤) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٩٣)، شرح الطحاوية (٣١٢).

كما شاء وعلى الوجه الذي أراد، فمنها المسموع منه من وراء حجاب بدون واسطة، ومنها ما يسمعه الرسولُ الملكي ويأمره بتبليغه منه إلى الرسول البشري، ومنها ما خطه الله بيده ﷻ.

ومن الإيمان بالكتب الإيمان بأن جميعها يصدق بعضها بعضًا لا يكذبه.

ومن الإيمان بالكتب الإيمان بأن نسخ الكتب الأولى بعضها ببعض حق كما نسخ بعض شرائع التوارة بالإنجيل، وكما نسخ كثير من شرائع التوراة والإنجيل بالقرآن.

ونؤمنُ بأن القرآن لا يأتي كتاب بعده ولا مغير ولا مبدِّل لشيء من شرائعه بعده، وأنه ليس لأحدٍ الخروج عن شيء من أحكامه، وأن من كذب بشيء منه من الأمم الأولى فقد كذب بكتابه، كما أن من كذب بما أخبر عنه القرآن من الكتب فقد كذب به، وأن من اتبع غير سبيله ولم يقتف أثره ضل.

وأخيرًا نقول: إن الإيمان بكتب الله عز وجل يجب إجمالًا فيما أجمل وتفصيلًا فيما فصل كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

فقد سمى الله تعالى من كتبه التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود والقرآن على محمد ﷺ، وذكر صحف إبراهيم وموسى، وقد أخبر تعالى عن التنزيل على رسله مجملًا في قوله: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾ (النساء: ١٣٦).(١)

الركن الرابع: الإيمان بالرسل

إن الإيمان بالرسل أصل من أصول الإيمان، ومن لم يؤمن بالرسل ضلَّ ضلالًا بعيدًا، قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (آل عمران: ٨٤).

---

(١) معارج القبول (٢/ ٦٧٣-٦٧٥) باختصار.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١٣٦)، ومن شعب الإيمان: الإيمان برسل الله ﷻ صلى الله عليهم أجمعين وسلم لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ولذا قال النبي ﷺ في سؤال جبريل عليه السلام له عن الإيمان: **"الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ"**.[1]

ويجب الإيمان بجميع الرسل، والكفر برسول واحد هو كفرٌ بجميع الرسل، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٠٥). وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٢٣). وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٤١). وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٦٠).

ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال بل أعظم ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي.

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلَّقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح

---

(١) مسلم (٨).

نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[١].

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر.

إن الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان وعمود من أعمدة هذا الإيمان. وهو الاعتقاد الجازم الذي لا يدخله شكٌ ولا ريب بكل ما أخبر به الله ﷻ في كتابه العزيز، أو جاء على لسان نبينا محمد ﷺ عن ذلك اليوم، وما يحدث فيه بما في ذلك من الساعة وعلاماتها، والقبر ونعيمه وعذابه، والصراط ومحنته، والصحف وتطايرها، والميزان وانتصابه، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها.

ومعناه التصديق بأن لأيام الدنيا آخرًا أي أن هذه الدنيا منقضية، وهذا العالم منقض.

وفي الاعتراف بانقضائه اعتراف بابتدائه لأن القديم لا يفنى ولا يتغير، وفي اعتقاده وانشراح الصدر به ما يبعث على فضل الرهبة من الله ﷻ، وقلة الركون إلى الدينا والتهاون بأحزانها ومصائبها، والصبر عليها وعلى مضض الشهوات احتسابًا وثقةً بما عند الله ﷻ عنها من حسن الجزاء والثواب[٢].

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ (البقرة: ١٧٧)، وقال ﷺ في تعريف الإيمان: **"أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ"** والإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بأشراط الساعة وهي علاماتها الدالة عليها والمقدمة إليها، والإيمان بالموت وما يعقبه من غيبيات. حتى يصل فريق إلى الجنة وفريق إلى السعير[٣].

الركن السادس: الإيمان بالقدر.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٦٩).

(٢) فتاوى ابن تيمية (٧/ ٣١٣)، وشعب الإيمان للبيهقي (١/ ٢٣٥).

(٣) الاعتقاد للبيهقي (صـ٢٦٩).

الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان التي لا يتم الإيمان إلا بها، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ (القمر: ٤٩). والآيات في ذلك كثيرة وقد قال النبي ﷺ لما سأله جبريل عن الإيمان: **"أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ"**[(١)]، فمن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقبلها ولم يؤمن بها لم يكن من أهلها. الإيمان بالقدر خيره وشره والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها لا يقال كيف ولا لم؛ إنما هو التصديق والإيمان بها، ومن لم يعرف تفسير الحديث ولم يبلغه عقله فقد كفى ذلك وأحكم له، فعليه الإيمان به والتسليم[(٢)]. ويقول أهل السنة والجماعة إن الخير والشر والحلو والمر، بقضاء من الله ﷻ، أمضاه وقدره، لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعا إلا ما شاء الله، وإنهم فقراء إلى الله ﷻ، لا غنى لهم عنه في كل وقت[(٣)]. عَنْ طَاوُسٍ أَنَّهُ قَالَ أَدْرَكْتُ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ يَقُولُونَ كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، قَالَ: وَسَمِعْتُ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ أَوْ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ"**[(٤)]. واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ومعناه: أن الله - تبارك وتعالى - قدر الأشياء في القدم، وعلم الله أنها ستقع في أوقات معلومة عنده - وتعالى - وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى[(٥)].

ومراتب القضاء أربعة من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر:

المرتبة الأولى: علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها.

المرتبة الثانية: كتابته له قبل كونها.

---

(١) مسلم (٨).

(٢) أصول السنة للإمام أحمد (١٧).

(٣) اعتقاد أئمة الحديث للإسماعيلي (٦١). وانظر: أيضًا مجموع فتاوى ابن تيمية (٧/ ٣١٣)، ومختصر شعب الإيمان (٢٤).

(٤) مسلم (٢٦٥٥).

(٥) شرح مسلم للنووي (١/ ١٩٠).

المرتبة الثالثة: مشيئته لها.

المرتبة الرابعة: خلقه لها.

المطلب الثالث: الإحسان.

أولًا: تعريفه: وهو: كما عرفه النبي ﷺ " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". [1]

والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨)

هذه المرتبة هي الثالثة من مراتب الدين المفصلة في حديث جبريل المتقدم وهي أعلى مراتب الدين وأعظمها خطرًا، وأهلها هم المستكملون لها السابقون بالخيرات، المقربون في علو الدرجات، وقد جاء الإحسان في القرآن في مواضع كثيرة تارة مقترنا بالإيمان، وتارة بالتقوى، وتارة بهما معا، وتارة بالجهاد، وتارة بالإسلام، وتارة بالعمل الصالح مطلقًا، وتارة بالإنفاق في سبيل الله. [2]

فيعبد الإنسان ربه على هذه الصفة، وهي استحضار قربه، وأنه بين يديه، وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب النصح في أداء العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها.

فالعبد يراقب ربه في أداء العبادة، ويستحضر قربه منه حتى كأنه يراه، فإن شق عليه ذلك فليستعن على تحقيقه بإيمانه بأن الله يراه ويطلع على سره وعلانيته، وباطنه وظاهره، ولا يخفى عليه شيء من أمره. [3]

فالعبد الذي بلغ هذه المنزلة يعبد ربه مخلصا، لا يلتفت إلى أحد سواه، فلا ينتظر ثناء الناس، ولا يخشى ذمهم، إذ حسبه أن يرضى عنه ربه، ويحمده مولاه.

فهو إنسان تساوت علانيته وسره، فهو عابد لربه في الخلوة والجلوة، موقن - تمام اليقين - أن الله مطلع على ما يكنه قلبه وتوسوس به نفسه، هيمن الإيمان على قلبه، واستشعر رقابة ربه عليه، فاستسلمت جوارحه لبارئها، فلا يعمل بها من العمل إلا ما يحبه

---

(١) مسلم (٨) من حديث عمر ﷺ.

(٢) معارج القبول ٣/ ٩٩٨.

(٣) جامع العلوم والحكم ص: ١٢٨.

الله ويرضاه، مستسلم لربه.

وحيث تعلق قلبه بربه فلا يستعين بمخلوق، لاستغنائه بالله، ولا يشتكي لإنسان، لأنه أنزل حاجته بالله سبحانه وكفى به معينا، ولا يستوحش في مكان، ولا يخاف من أحد، لأنه يعلم أن الله معه في كل أحواله، وهو حسبه ونعم النصير، ولا يترك أمرا أمره الله به، ولا يقترف معصية لله، لأنه يستحيي من الله، ويكره أن يفقده حيث أمره، أو يجده حيث نهاه، ولا يعتدي أو يظلم مخلوقا أو يأخذ حقه، لأنه يعلم أن الله مطلع عليه، وأنه سبحانه سيحاسبه على أفعاله.

ولا يفسد في الأرض، لأنه يعلم أن ما فيها من خيرات ملك لله تعالى، سخرها لخلقه فهو يأخذ منها على قدر حاجته، ويشكر ربه أن يسرها له. (١)

ثانيًا: مراتب الإحسان: فسره النبي ﷺ في حديث سؤال جبريل لما قال له: " فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " فبين ﷺ أن الإحسان على مرتبتين متفاوتتين.

أعلاهما: مقام الإخلاص (المراقبة)، وهو أنْ يعملَ العبدُ على استحضارِ مُشاهدةِ الله إياه، واطِّلاعه عليه، وقُربه منه، فإذا استحضرَ العبدُ هذا في عمله، وعَمِلَ عليه، فهو مخلصٌ لله؛ لأنَّ استحضارَهُ ذلك في عمله يمنعُهُ من الالتفاتِ إلى غيرِ الله وإرادته بالعمل.

الثاني: مقام المشاهدة، وهو أنْ يعملَ العبدُ على مقتضى مشاهدته لله تعالى بقلبه، وهو أنْ يتنوَّرَ القلبُ بالإيمانِ، وتنفُذ البصيرةُ في العِرفان، حتّى يصيرَ الغيبُ كالعيانِ. وهذا هو حقيقةُ مقامِ الإحسّان المشار إليه في حديث جبريلَ - عليه السلام -، ويتفاوت أهلُ هذا المقام فيه بحسب قوّة نفوذ البصائرِ. (٢)

---

(١) الإسلام أصوله ومبادئه ١/ ٢٠٣.

(٢) جامع العلوم والحكم ٤/ ٥٣.

المبحث الرابع: بيان بعض مزايا الشريعة الإسلامية.

أولًا: إن الإسلام جاء دينًا صالحًا لجميع الأمم في جميع العصور ولسائر البشر وهذا شيء لم يسبق إليه دين قبله قط قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (سبأ: ٢٨)

ثانيًا: جاء الإسلام لإصلاح العقيدة، بحمل الذهن على اعتقاد لا يشوبه تردد، ولا تمويه ولا أوهام ولا خرافات، فيُكوِّن عقيدة مبنية على الخضوع لواحد عظيم، وعلى الاعتراف باتصاف هذا الواحد بصفات الكمال التامة التي تجعل الخضوع إليه اختياريًا، ثم لتصير تلك الكلمات مطمع أنظار المعتقد في التخلق بها ثم بحمل جميع الناس على تطهير عقائدهم حتى يتحد مبدأ التخلق فيهم: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وكان إصلاح الاعتقاد أهم ما ابتدأ به الإسلام؛ وأكثر ما تعرض له، وذلك لأن إصلاح الفكرة هو مبدأ كل إصلاح ولأنه لا يرجى صلاح لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالة وخسئت نفوسهم بآثار تلك العقائد المثيرة: خوفًا من لا شيء وطمعًا في غير شيء وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه.

ثم نشأ عن هذا الاعتقاد الإسلامي وأصالة الرأي وحرية العقل ومساواة الناس فيما عدا الفضائل.

وقد أكثر الإسلام شرح العقائد إكثارًا لا يشبهه فيه دين آخر؛ بل إنك تنظر إلى كثير من الأديان الصحيحة فلا ترى فيها من شرح صفات الخالق إلا قليلًا.

ثالثًا: كون الإسلام دين الفطرة فليس فيه شيء غير معقول كالتثليث، ولا غير ممكن طبعًا كحب الأعداء، وأساسه تجريد التوحيد الذي يعتق البشر من رق الخرافات والأوهام.

رابعًا: جمع الإسلام بين إصلاح النفوس بالتزكية؛ وبين إصلاح نظام الحياة بالتشريع، في حين كان معظم الأديان لا يتطرق إلى نظام الحياة بشيء، وبعضها وإن تطرق إليه إلا أنه لم يوفه

حقه، بل كان معظم اهتمامها منصرفًا إلى المواعظ والعبادات، وقد قرن القرآن في غيرما آية بين الدين وارتباطه بصلاح الدنيا قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧).

خامسًا: أن حكومة الإسلام مقيدة بالنصوص وبالشورى؛ ورئيسها مقيد باختيار أهل الحل والعقد الذين يمثلون الأمة، فلا يكون سلطانًا لها إلا باختيارهم إياه للخلافة، ومبايعتهم له، ولا يطاع في معصية الله تعالى وإنما الطاعة في المعروف.

سادسًا: استقلال الفكر في فهم الدين والعلم وجميع شئون الحياة، فليس في الإسلام سلطة دينية روحانية تلزم المسلمين اتباع مذهب لمجتهد وآرائه في العقائد والعبادات الدينية والحلال والحرام، وإنما هناك نصوص قطيعة وأصول وفروع إجماعية يشترك جميع المسلمين في التزامها ولا يعد أحد متبعًا لأحد غير الرسول وجماعة الأمة فيها، ويقرب من الإجماع ما جرى عليه جمهور سلف الأمة الصالح من أمر الدين، ولم يشذ عنهم إلا أفراد لا يعتد بهم، وما عدا ذلك من المسائل فهو اجتهادي، ويجب على كل مسلم أن يعلم باجتهاد نفسه فإن عجز فله أن يأخذ بعلم من يثق بعلمه ودينه.

والراجح المختار في العبادات أنه لا اجتهاد في التشريع فيها بل في التنفيذ.

والأحكام الدينية منوطة بنصوص الكتاب والسنة والقضائية يعتبر فيها مراعاة المصالح وعليها مدارها.

سابعًا: المساواة بين المسلمين في جميع أحكام الشرع.

ثامنًا: تقييد المسلمين بعقائد وأحكام وآداب وفضائل دينية بالوازع النفسي لا تتغير ولا تنقض وهي تؤمنهم من فوضى الحرية المسرفة التي أوقعت شعوب أوربا في أسر النظام المالي وسلطان أهله من جهة وفي المفاسد الأدبية التي هتكت الأعراض وأضاعت الأنساب وبددت الأموال من جهة ثالثة.

تاسعًا: اختصاصه بإقامة الحجة ومجادلة المخاطبين، بصنوف المجادلات، وتعليل

أحكامه بالترغيب وبالترهيب، وقد راعى مراتب نفوس المخاطبين فمنهم العالم الحكيم الذي لا يقنع إلا بالحجة والدليل، ومنهم المكابر الذي لا يرعوي إلا بالجدل والخطابة، ومنهم المترهب الذي اعتاد الرغبة فيما عند الله، ومنهم المكابر المعاند الذي لا يقلعه عن شغبه إلا القوارع والزواجر.

عاشرًا: الإقلال من التفريع في الأحكام بل تأتي بأصولها ويترك التفريع لاستنباط المجتهدين لتكون الأحكام صالحة لكل زمان.

حادي عشر: أنَّ المقصود من وصايا الأديان إمكان العمل بها، وفي أصول الأخلاق أن التربية الصحيحة هي التي تأتي إلى النفوس بالحيلولة بينها وبين خواطر الشرور، لأن الشرور إذا تسربت إلى النفوس تعذر أو عسر اقتلاعها منها، وكانت الشرائع تحمل الناس على متابعة وصاياها بالمباشرة فجاء الإسلام يحمل الناس على الخير بطريقتين:

طريقة مباشرة وطريقة سد الذرائع الموصلة إلى الفساد وغالب أحكام الإسلام من هذا القبيل، وأحسنها أنها من جملة ما أريد بالمشتبهات في حديث "**الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ**"[(١)].

الثاني عشر: الرأفة بالناس حتى في حملهم على مصالحهم؛ وذلك في إبراز ذلك التشريع في صورة لينة وفي القرآن: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥). وفي الحديث "**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**"[(٢)].

الثالث عشر: امتزاج الشريعة والحكومة وذلك من خصائصها إذ لا معنى للتشريع إلا تأسيس قانون للأمة وما قيمة قانون لا تحميه القوة والحكومة وبامتزاج الحكومة مع الشريعة أمكن تعميم الشريعة واتحاد الأمة في العمل والنظام.

الرابع عشر: صراحة أصوله بحيث يتكرر في القرآن ما تستقري منه قواطع الشريعة

---

(١) البخاري (٥٢)، مسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

(٢) البخاري (٣٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

معصومة من التأويلات الباطلة والتحريفات التي طرأت على أهل الكتاب السابقة.

الخامس عشر: قام الإسلام ببناء الأحكام السياسية والمدنية على أساس درء المفاسد وحفظ المصالح، والأحكام القضائية على العدل المطلق والمساواة، ووجوب حفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض، ولازمه النسب من الاعتداء عليهن.

السادس عشر: مساواة النساء للرجال في جميع الحقوق إلا ما جاء الدليل بالتفرقة.

السابع عشر: قام الإسلام ببناء ضرورات الاجتماع السابقة كالحرب والرق، والضرورات الفردية على قاعدة التوقيت فيها وتقديرها بقدرها وتخفيف شرها والسعي الممكن لإزالتها والاستغناء عنها.

الثامن عشر: فرض الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي الفريضة التي تحفظ على الأمة فضائلها وآدابها ما أقامتها وذلك بضوابطه الشرعية.

التاسع عشر: بيان تكافل المسلمين وتضامنهم حكومةً وأفرادًا؛ وذلك من خلال فريضة الزكاة، والترغيب في الصدقات، والواجب من الكفارات، فتكون جماعة المسلمين دائمًا في كفاية قلما تنال الضرورة إلا من بعض الأفراد المجهولين منهم، وبذلك يقل التحاسد والعدوان بينهم.

العشرون: ختم الرسالة والنبوة المقتضي أن لا يوجد بعد محمد صلوات الله وسلامه عليه نبي يبلغ الناس شيئًا عن وحي الله، أو يشرع لهم شيئًا من الدين، وهذا من إتمام عتق البشر من الأدعياء الذين يتحكمون في أفكار الناس وإراداتهم، يدعون أنهم نواب فيهم عن ربهم أو أنهم آلهة بالفعل كما يدعي البهائيون في زعيمهم أو أنبياء كما يدعى الأحمدية القاديانيون في مسيحيهم الدجال.

الواحد والعشرون: أن شريعة الإسلام فيها من الهدى ودين الحق أكمل مما في الشريعتين المتقدمتين، ويسَّر الله من اتباع الخلق له واهتدائهم به ما لم يتيسر مثله لمن قبله، فحصل فضيلة شريعته من جهة فضلها في نفسها ومن جهة كثرة من قبلها وكمال قبولهم لها، ففي شريعة

الإسلام تحليل الطيبات وتحريم الخبائث، وشريعة التوراة فيها تحريم كثير من الطيبات عليهم، وفي شريعة الإسلام من قبول الدية في الدماء ما لم يشرع في التوراة، وفيها من وضع الآصار والأغلال التي في التوراة ما يظهر به أن نعمة الله على أهل القرآن أكمل.

وما امتاز به الإنجيل عن التوراة بمكارم الأخلاق المستحسنة والزهد المستحب وتحليل بعض المحرمات وهذا كله في القرآن وهو في القرآن أكمل، فليس في التوارة والإنجيل ما هو من العلوم النافعة والأعمال الصالحة إلا وهو في القرآن والإسلام أو ما هو أفضل مما في التوراة والإنجيل.

ففي الإسلام والقرآن من العلوم النافعة والأعمال الصالحة من الهدى ودين الحق ما ليس في الكتابين[1].

الثاني والعشرون: ومن خصائص الإسلام الأمر بالاجتماع والنهى عن التفرق.

وقد استفاضت الأدلة في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة لتقرير هذا الأصل.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣). فهذه الوصية هي خاتمة وصاياه العشر، التي هي جوامع الشرائع التي تضاهي الكلمات التي أنزلها الله على موسى في التوراة، وإن كانت الكلمات التي أنزلت علينا أكمل وأبلغ وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٩).

فنهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، وأخبر رسوله أن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء، وذكر أنه جعله على شريعة من الأمر، وأمره أن يتَّبِعها ولا يتبع سبيل الذين لا يعلمون[2]. وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا

---

(١) راجع: الجواب الصحيح (٣/ ٢٣٥)، وتفسير ابن عاشور (٣/ ١٩٤)، ومجلة المنار عام (١٩٢٦)، (صـ٤٩٧-٤٩٩).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٥/ ١٢٧-١٢٧).

﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

وحبل الله كتابه كما فسره النبي ﷺ، إلى غير ذلك من نصوص الكتاب.

ومن عناية الرسول ﷺ بالدعوة إلى اجتماع كلمة المسلمين وتحذيرهم عن التفرق أحاديث كثيرة، منها على سبيل المثال: عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ: "هَذَا سَبِيلُ الله، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ قَالَ يَزِيدُ مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[1].

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **"أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ"**[2].

وقد أوصى الرسول ﷺ حذيفة عند ظهور الخلاف والافتراق في الدين بقوله: **"تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ"** قال حذيفة: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قال: **"فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ"**[3].

ونختم بهذا الكلام القيم الذي ذكره الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي يبين فيه فضل هذا الدين قال:

١- لا يوجد دين من الأديان يؤاخي العقل والعلم في كل ميدان إلا الإسلام.

٢- ولا يوجد دين روحي مادي إلا الإسلام.

---

(١) حسن. أحمد (١/ ٤٣٥)، الدارمي (٢٠٢)، الطيالسي (٢٤٤)، وابن حبان في صحيحه (٦)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (١٦٦).

(٢) حسن. أبو داود (٤٥٩٩)، والترمذي (٢٦٧٦)، وأحمد (٤/ ١٢٦).

(٣) البخاري (٣٦٠٦)، مسلم (١٨٤٧).

٣- ولا يوجد دين يدعو إلى الحضارة والعمران إلا الإسلام.

٤- ولا يوجد دين شهد له فلاسفة العالم المتحضر إلا الإسلام.

٥- ولا يوجد دين يسهل إثباته بالتجربة إلا الإسلام.

٦- ولا يوجد دين من أصوله الإيمان بجميع الرسل والأنبياء والكتب الإلهية إلا الإسلام.

٧- ولا يوجد دين جامع لجميع ما يحتاجه البشر إلا الإسلام.

٨- ولا يوجد دين فيه من المرونة واليسر الشيء الكثير إلا الإسلام.

٩- ولا يوجد دين تشهد له الاكتشافات العلمية إلا الإسلام.

١٠- ولا يوجد دين صالح لكل الأم والأزمان إلا الإسلام.

١١- ولا يوجد دين يسهل العمل به في كل حال إلا الإسلام.

١٢- ولا يوجد دين لا إفراط فيه ولا تفريط إلا الإسلام.

١٣- ولا يوجد دين حفظ كتابه المقدس إلا الإسلام.

١٤- ولا يوجد دين صرح كتابه المنزل بأنه عام لكل الناس إلا الإسلام.

١٥- ولا يوجد دين يأمر بجميع العلوم النافعة إلا الإسلام.

١٦- الحضارة الحاضرة قبس من الإسلام.

١٧- هذه الحضارة مريضة ولا علاج لها إلا الإسلام.

١٨- ما شهد التاريخ حضارة جمعت بين الروح والمادة إلا حضارة الإسلام.

١٩- السلام العالمي لا يتم إلا بالإسلام.

٢٠- لا يوجد دين يسهل إثباته بالتحليل العلمي إلا الإسلام.

٢١- لا يوجد دين وحد قانون المعاملات بين البشر إلا الإسلام.

٢٢- لا يوجد دين أزال امتياز الطبقات إلا الإسلام.

٢٣- لا يوجد دين حقق العدالة الاجتماعية إلا الإسلام.

٢٤- لا يوجد دين لا يشذ عن الفطرة في شيء إلا الإسلام.

٢٥- لا يوجد دين منع استبداد الحكام وأمر بالشورى إلا الإسلام.

٢٦- لا يوجد دين أمر بالعدالة مع الأعداء إلا الإسلام.

٢٧- لا يوجد دين بشرت به الكتب السماوية إلا الإسلام.

٢٨- لا يوجد دين أنقذ المرأة في أدوارها: أما وزوجة وبنتا إلا الإسلام.

٢٩- لا يوجد دين ساوى بين الأبيض والأسود والأصفر والأحمر إلا الإسلام.

٣٥- لا يوجد دين أمر بالتعليم وحرّم كتمان العلم النافع إلا الإسلام.

٣١- لا يوجد دين قرر الحقوق الدولية إلا الإسلام.

٣٢- لا يوجد دين توافق أوامره ما اكتشفه الطب الحديث إلا الإسلام.

٣٣- لا يوجد دين أنقذ الرقيق من المعاملات الوحشية وأمر بمساواته لسادته وحض على إعتاقه إلا الإسلام.

٣٤- لا يوجد دين قرر سيادة العقل والخضوع لحكمه إلا الإسلام.

٣٥- لا يوجد دين ينقذ الفقّراء والأغنياء بفرض جزء من مال الأغنياء يعطى للفقراء إلا الإسلام.

٣٦- لا يوجد دين قرر من الأخلاق مقتضى الفطرة والحكمة الإلهية، فللشدة موقف وللرحمة موقف إلا الإسلام.

٣٧- لا يوجد دين أمر بالإحسان والرفق بجميع الخلق إلا الإسلام.

٣٨- لا يوجد دين قرر أصول الحقوق المدنية على قواعد فطرية إلا الإسلام.

٣٩- لا يوجد دين اعتنى بصحة الإنسان وثروته إلا الإسلام.

٤٠- لا يوجد دين أثر في النفوس والأخلاق والعقول كالإسلام[1]

---

(١) نقلًا من كمال الدين الإسلامي/ المؤلف: عبد الله بن جارالله بن إبراهيم آل جارالله.

المبحث الخامس: الإسلام بين الوسطية والغلو

ومن محاسن الإسلام نفي الغلو عن أحكامه وتشريعاته الإسلام بين الغلو والتوسط

تعريف الوسطية

أولًا: لغة: وسطُ الشيء: ما بين طرفيه. . . ، واعلم أن الوسط قد يأتي صفة، وإن كان أصله أن يكون اسمًا من جهة أن أوسط الشيء أفضله وخياره كوسط المرعى خير من طرفيه[1]. **الوسطُ**: من كلِ شيءٍ أَعْدَلُهُ.[2]

ثانيًا: اصطلاحًا: قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

أي كما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد ﷺ، وبما جاءكم به من عند الله، فخصصناكم بالتوفيق لقبلة إبراهيم وملته، وفضلناكم بذلك على من سواكم من أهل الملل، كذلك خصصناكم ففضلناكم على غيركم من أهل الأديان بأن جعلناكم أمة وسطًا.

وأما الوسط فإنه في كلام العرب الخيار، يقال منه: فلان وسط الحسب في قومه: أي متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه. وهذا معنى من معاني الوسط المذكور في الآية الكريمة، ولعل هناك معنى آخر لا يعارض المعنى الأول وهو:

أن الوسط في هذا الموضع المقصود به الجزءُ، الذي هو بين الطرفين، مثل وسَط الدار، وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسَط، لتوسطهم في الدين، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه، غلوَّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه - ولا هُم أهلُ تقصير فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها.[3]

وفي سنة النبي ﷺ ورد ما يقررُ هذا المعنى ويوضحه فمن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فَيَقُولُ الله تَعَالَى هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ**

(١) لسان العرب (٦/ ٤٨٣١، ٤٨٣٢) مادة وسط.

(٢) مختار الصحاح صـ٧٤٠.

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٦).

نَعَمْ أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ فَيَقُولُ لِنُوحٍ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ"[1].

الإسلام بين الملل الأخرى:

الإسلام دين الوسط بين المادية الملحدة وبين الرهبانية المبتدعة، فاليهودية والنصرانية زاغت عن العدل والاعتدال فيما يخص حقوق الروح وحقوق الجسد.

فبالنسبة لليهودية كانت وما تزال ترى أن المال هو الغاية، وأن المادة هي الهدف الأسمى، ولذا أقدمت على تقديسها وتأليهها لدرجة أنها حريصة على الحياة المادية أكثر من كل شيء حتى إن عيسى عليه السلام كان يخاطبهم قائلًا: "لا تعبدوا ربين: الله والمال". ويقول ول ديورانت: إن اليهود قلما كانوا يبشرون إلى حياة أخرى.

ولم يرد في دينهم شيء من الخلود، ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (البقرة: ٩٤). يقول سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٩٦). ويقول تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٦١).

ومن هنا نرى أن اليهود حرفت وشوهت وبالغت في هذا الجانب المادي على حساب الجانب الروحي.

أما النصرانية فقد اتخذت منحىً معاكسًا للفكر اليهودي حيث بالغت في الجانب الروحي بدعوة الزهد والترهبن قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (الحديد: ٢٧).

---

(١) البخاري (٣٣٣٩).

وقال رسول الله ﷺ: "لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ "[1].

صور الوسطية في الإسلام: وسطية الإسلام من أبرز خصائصه، وهي بالتبع من أبرز خصائص أمة الاستجابة[2].

فالأمة الإسلامية وسط في كل جوانب الدين[3].

١) في جانب العقيدة: فهم ممتثلون لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ (المائدة: ٧٧).

فهم وسط في أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين؛ لم يغلوا فيهم كما غلت النصارى فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون، ولا جفوا عنهم كما جفت اليهود؛ فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقا وقتلوا فريقا.

بل المؤمنون آمنوا برسل الله وعزروهم ونصروهم ووقروهم وأحبوهم وأطاعوهم، ولم يعبدوهم ولم يتخذوهم أربابا كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (آل عمران: ٧٩: ٨٠).

ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا في المسيح فلم يقولوا هو الله ولا ابن الله ولا ثالث ثلاثة

---

(١) أبو داود (٥/ ٣١٥/ ٤٨٦٨)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٤٦٨).

(٢) الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة (٢٦).

(٣) انظر: الغلو في الدين لجلال عارف (٢٠).

كما تقوله النصارى، ولا كفروا به وقالوا على مريم بهتانا عظيما حتى جعلوه ولد بغية كما زعمت اليهود، بل قالوا هذا عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.[١]

وكذلك في صفات الله تعالى: فإن اليهود وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق الناقصة؛ فقالوا: هو ﴿فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾. وقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾. وقالوا: إنه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت. إلى غير ذلك.

والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به فقالوا: إنه يخلق ويرزق؛ ويغفر ويرحم ويتوب على الخلق ويثيب ويعاقب.

والمؤمنون آمنوا بالله سبحانه وتعالى ليس له سميٌّ ولا ندٌّ ولم يكن له كفوا أحد وليس كمثله شيء. فإنه رب العالمين وخالق كل شيء وكل ما سواه عباد له فقراء إليه ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ (مريم: ٩٣-٩٥).[٢]

٢) في جانب التشريع وكذلك هم وسط في شرائع دين الله فلم يحرموا على الله أن ينسخ ما شاء ويمحو ما شاء. ويثبت كما قالته اليهود كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله: ﴿۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ (البقرة: ١٤٢).

وبقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة: ٩١)..

ولا جوزوا لأكابر علمائهم أن يغيروا دين الله فيأمروا بما شاءوا وينهوا عما شاءوا كما يفعله النصارى كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١).

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٣/ ٣٧٠).

(٢) فتاوى ابن تيمية (٣/ ٣٧١-٣٧٢).

قال عدي بن حاتم ﷺقلت: يا رسول الله ما عبدوهم؟ قال: ما عبدوهم؛ ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم[١].

والمؤمنون قالوا: لله الخلق والأمر فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره. وقالوا: سمعنا وأطعنا؛ فأطاعوا كل ما أمر الله به. وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾. وأما المخلوق فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالى ولو كان عظيما[٢].

وفي السنة مثال على هذا الأمر وهو حديث الثلاثة نفر؛ فعن أنس بن مالك ﷺقال: "جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ: أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ: آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ وَقَالَ: آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: **"أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَالله إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"**"[٣].

٣) في جانب الحلال والحرام: وهم وسطٌ أيضًا في هذا الباب، فإن اليهود كما قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ (النساء: ١٦٠).

فلا يأكلون ذوات الظفر؛ مثل الإبل والبط. ولا شحم الثرب[٤] والكليتين؛ ولا الجدي في لبن أمه. إلى غير ذلك مما حرم عليهم من الطعام واللباس وغيرهما؛ حتى قيل: إن المحرمات عليهم ثلاثمائة وستون نوعا. والواجب عليهم مئتان وثمانية وأربعون أمرًا وكذلك شدد عليهم في النجاسات حتى لا يؤاكلوا الحائض ولا يجامعوها في البيوت. وأما النصارى فاستحلوا الخبائث وباشروا جميع النجاسات وإنما قال لهم المسيح ﴿وَلِأُحِلَّ

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني، غاية المرام (٦)

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ٣٧١).

(٣) البخاري (٥٠٦٣)، وانظر: أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان (صـ٧٢).

(٤) الثرب: شحم رقيق يغشى الكَرِش والأمعاء، اللسان، مادة: ثرب.

لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (التوبة: ٢٩).

وأما المؤمنون فكما نعتهم الله به في قوله: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الأعراف ١٥٧)). [1]

٤) **في جانب الدعوة:** من فضل الله على الأمة الإسلامية، أن الرسالة الخاتمة جاءت شاملة لكل ما يحتاجه المسلمون في حياتهم الدينية والدنيوية، موجهة لكل الثقلين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ذلك أن الهدف هو هداية الله للإنسان، دون قصر الدعوة على جنس بذاته، أو مكان معين؛ إذ إن دعوة الرسول ﷺ موجهة إلى الناس كافة، قال الله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (الأعراف: ١٥٨). وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء الآية ١٠٧). وعلى ذلك إجماع المسلمين في كل العصور.

وقد وَضُحَ في القرآن الكريم، والسنة النبوية، كيف يؤدي المسلمون واجبهم في الدعوة إلى الله.

ويُقصد بوسطية الدعوة، أن منهاج الدعوة إلى الله، هو أوسط المناهج وأعدلها وأقومها، وهو الجدير وحده بالاتباع في كل زمان ومكان، وأن هذا المنهاج جانب من التشريع الإلهي، يجب أن يلتزم به المسلم إزاء الآخرين، سواء أكانوا مسلمين يحتاجون إلى

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ٣٧٢-٣٧٣).

تنمية المعارف، أو تزكية النفوس، حتى يكون اتباعهم للشريعة صحيحًا، أم كانوا غير مسلمين تطلب لهم الهداية.

ويمكن أن نحدد بعض الملامح المهمة في منهاج الدعوة والتي منها يتبين أن الإسلام هو دين الوسطية حتى في الدعوة إليه.

أ) هداية الناس بيد الله: قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (القصص: ٥٦). وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (فاطر: ٨).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **"إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اللهمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ"**[1].

ب) مهمة الدعاة التبليغ والبيان: قال تعالى: وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشورى الآية ٤٨). فإذا بذل الدعاة جهدهم في ذلك، فقد قاموا بالواجب، وأدوا الأمانة:

ج) لا إكراه في الدين: قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٥). وقال سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

د) وسائل الدعوة ثلاث: وهي الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، كما قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

فالحكمة: وهي ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والسنة، تجذب أصحاب العقول والفطر السوية.

والموعظة الحسنة: أي ما في الكتاب والسنة من الزواجر والوقائع بالناس، يذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، والداعية بهذه الوسيلة يستميل أولئك الذين يستمعون القول

---

(١) مسلم (٢٦٥٤).

فيتبعون أحسنه، والذين تلين قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق.

أما من يحتاج فهمه إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

وهذه الأساليب الثلاثة، أهم أساليب الدعوة التي لا يخرج عن نطاقها والتأثر بها من المدعوين إلا من قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ (الأعراف: ١٤٦).

هـ) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو من أوصاف الأمة الإسلامية التي استحقت بها الخيرية على الأمم، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ١١٠﴾.

وقد استحق بنو إسرائيل اللعن بتركهم لهذه الشريعة، قال الله تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ (المائدة: ٧٨- ٧٩).

ومنهاج الإسلام فيه منهاج الوسط والاعتدال، ، ومراعاة الاستطاعة والقدرة. ولقد كانت حياة النبي ﷺ هي المنهاج العملي للوسطية في الدعوة إلى الله، وعلى سيرته سار الخلفاء الراشدون، والتابعون لهم بإحسان.

والأمثلة على ذلك كثيرة، فمنها حديث المسيء صلاته لما صلى الرجل عدة مرات، والنبي يقول له في كل مرة "ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ" ثم علمه النبي ﷺ كيفية الصلاة[١].

وأيضًا حديث معاوية بن الحكم السلمي لما تكلم في الصلاة وعلَّمه النبيُّ ﷺ "**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ ما يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ**"[٢].

---

(١) البخاري (٧٥٧)، مسلم (٣٩٧).

(٢) مسلم (٥٣٧).

وفي هذه الفترة القليلة من الزمن في حياة الأمم، دخل الناس في دين الله أفواجًا وتكوَّن المجتمع المسلم الواحد في عقيدته وشريعته وسلوكه الاجتماعي.

وكانت الدعوة إلى الله وفق منهاج الوسطية القرآنية، هي السبيل الأول لانتشار الإسلام ودعوته[1].

٥) **في جانب حقوق الإنسان**: الإسلام يحترم حقوق الإنسان ويلزمه بأداء الواجب إذ أنهما وجهان لعملة واحدة فكل حق يقابله واجب، ويعطيه مكانته وكامل حقوقه المشروعة شريطة ألا تكون هذه الحقوق على حساب الجماعة، وهكذا نرى أنه من الحقوق التي منحها الإسلام للفرد حق حرية الرأي والتعبير والمشاركة في المجتمع وحق التملك وحق الكرامة وحرية التدين.

فالحرية التي يرفع شعارها اليوم الكثير من الدول في العالم بلا ضوابط ولا قيود مما أدى للفوضى والتناقض والاضطراب في فهمها وتطبيقها؛ فحرية كل فرد تكون اعتداء على حريات الآخرين، وفي الوقت نفسه فإن الحجر عليها كبت لا يرضى، فجاء الإسلام ليعلن الحرية في حمى الدين المقيدة بضوابط شرع رب العالمين، تلك التي تمنع الإنسان من فعل الشر، وتدفعه لجلب الخير.

فالحرية في الإسلام لا تعني التفلت من المسؤولية، وحرية القول لا تعني حرية السب والشتم، وحرية الفكر لا تعني حرية الكفر والإلحاد والهدم، وحرية الانتقال لا تعني حرية الاستيلاء والاحتلال.

وأما بالنسبة لحق التملك فقد أباح الإسلام للإنسان الملكية الفردية مع مراعاة حقوق الآخرين في هذه الملكية من زكاة وصدقات ووجوه البر والخير والإحسان، وكذلك الإرث والوصايا وغيرها، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ (الذاريات: ١٩)،

---

(١) الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله، تأليف الدكتور/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، تحت فصل بعنوان، ((الوسطية في الدعوة)) بتصرف يسير.

وقال سبحانه: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ (الحديد: ٧).

لقد أباح الإسلام التملك الفردي احترامًا لحق الإنسان وحثًا له على العمل والإنتاج تلقائيًا ولكن مع مراعاة مصلحة الجماعة من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية والتخفيف من الفوارق الطبقية هذه هي الوسطية الإسلامية الحقيقية التي لا نجدها في الأنظمة الاقتصادية الحديثة.

أما بالنسبة لكرامة الإنسان فإن الفرد في الإسلام مكرم عند الله بغض النظر عن الجنس أو العرق أو اللون، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ (الحجرات: ١٣). وقال رسول الله ﷺ: "أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ"[1].

فالإسلام ينبذ العنصرية بكل أشكالها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾ (الإسراء، آية: ٧٠).

وتظهر وسيطة الإسلام هنا من إعطاء الحق والعدل والاعتدال في الكرامة للجميع[2].

٦) **في جانب إنفاق المال:** يعد المال في الإسلام عصب الحياة وقوام الأعمال إلا أنه في الوقت نفسه يحذرنا المولى ﷻ من طغيانه، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ (العلق: ٦).

وقال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ (الكهف: ٤٦). وقال تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ (القصص: ٧٧).

---

(١) أبو داود (٥٠٧٥)، والترمذي (٣٢٧٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣١٠١).

(٢) وسطية الإسلام وسماحته ودعوته للحوار، تحت فصل بعنوان (الوسطية في الحقوق).

لقد أمرنا الله ﷻ بالاعتدال في الإنفاق فلا إسراف ولا تقتير، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (سورة الإسراء: ٢٩)، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١). ويقول ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

ولما مرض سعد بن أبي وقاص وأتاه النبي ﷺ يعوده، قال له: إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنْ الْوَجَعِ وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي قَالَ: "لَا" فَقُلْتُ: بِالشَّطْرِ فَقَالَ: "لَا" ثُمَّ قَالَ: **"الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَبِيرٌ أَوْ كَثِيرٌ إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ"**[1]. ومن هنا فإن المال في الإسلام هو نعمة ينبغي للإنسان أن يشكر الله عليها فيبذل قصارى جهده في حسن التصرف والبذل للمستحقين دون إسراف أو تقتير.

وحذر الإسلام أيضًا من الترف الفاحش الذي يؤدي إلى الفسق وارتكاب المعاصي فيستوجب غضب الرب كما يستوجب الدمار والهلاك والخراب، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ (الإسراء: ١٦)[2].

٧) **في جانب المعاملة مع النفس:** حذر الإسلام من طغيان النفس وأهوائها وتحكمها في سلوك الإنسان، إلا أنه في الوقت نفسه نهانا عن إرهاق النفس بما لا تطيق، كما نهانا الإسلام عن تحريم ما أحله الله من الطيبات. وهذا يعني أن الإنسان عليه أن يتخذ من نفسه موقفًا وسطًا؛ بحيث لا تتحكم فيه كما تشاء ولا يكلفها ما لا تطيق من أمور العبادات والعمل ولا يمنعها حقها من التمتع بالطيبات.

---

(١) البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) وسطية الإسلام وسماحته ودعوته للحوار، لـمحمد بن أحمد الصالح، تحت فصل بعنوان (وسطية الإسلام في إنفاق المال) بتصرف. وانظر أيضًا: أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان صـ٧٣.

وانظر إلى قول الله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ (الطلاق: ٧). ولما دخل سلمان الفارسي رضي الله عنه على أبي الدرداء رضي الله عنه وصنع أبو الدرداء لَهُ طَعَامًا قَالَ له سلمان: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ فقَالَ سلمان: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ فَأَكَلَ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ قَالَ له سلمان: نَمْ فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ قُمْ الْآنَ: فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: "إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ"فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "صَدَقَ سَلْمَانُ"(١).

وأمر الإسلام الإنسان أيضًا أن يسلك مسلك الحلم والتعقل والرزانة بحيث لا يكون لينًا فيعصر ولا يابسًا فيكسر، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ (آل عمران: ١٣٤). وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (الشورى: ٣٧). وقال ﷺ: "لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ"(٢). لذا لا بد من الوسطية هنا واستعمال الحكمة، فالغضب عواقبه وخيمة كما أنه دليل على الضعف وتحكم النفس والشيطان. وحتى في مشي الإنسان في الطريق أمر الإسلام المسلم بالتوسط فيه، فلا اختيال ولا تكبر ولا مسكنة ولا ذلة. فقال تعالى آمرًا رسوله ﷺ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ (الشعراء: ٢١٥). وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ (لقمان، الآيات: ١٨-١٩)، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا

---

(١) البخاري (٦١٣٩).

(٢) البخاري (٦١١٤)، مسلم (٢٦٠٩).

﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ (الإسراء: ٣٧-٣٨)..

وقال ﷺ: "إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ"[١].

٨) **في جانب الشهادة والحكم:** سبق أن أوضحنا أن من معاني كلمة "وسطًا" التي وردت في الآية الكريمة معنى العدل وهو ما فسره النبي ﷺ كما ورد في صحيح البخاري[٢].

وقد جاءت آيات كثيرة تبيّن وجوب العدل في الشهادة، وكذلك في الحكم - أيضًا - والشهادة هي إحدى مقدّمات الحكم في كثير من الأحكام. . . . ، وإذا كان العدل يعني الوسط، كما تقرّر، فإن أمر الله بالعدل في الشهادة والحكم هو أمر وإقرار لمنهج الوسطيّة، ويتّضح ذلك - من الآتي:

١) قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ (النساء: ١٣٥). **ومعنى الآية الكريمة:** يا أيها الذين آمنوا ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام بالقسط، يعني العدل وشهداء الله جمع شهيد ونصبت الشهداء على القطع مما في قوله: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ من ذكر الذين آمنوا. معناه: قوموا بالقسط لله عند شهادتكم، أو حين شهادتكم ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ (النساء: ١٣٥). أي ولو كانت شهادتكم على أنفسكم، أو على والديكم أو أقربيكم، فقوموا فيها بالقسط والعدل، وأقيموا على صحتها بأن تقولوا فيها الحق، ولا تميلوا فيها لغني لغناه على فقير، ولا لفقير لفقره على غني فتجوروا.

٢) قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨). يعني جلّ ثناؤه: يا أيها

---

(١) مسلم (٢٨٦٥).

(٢) انظر: تفسير الوسطية في أول الفصل.

الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله، شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم، فتجاوزوا ما حدّدت لكم في أعدائكم لعداوتهم لكم، ولا تقصّروا فيما حدّدت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدّي، واعملوا فيه بأمري[1].

٣) تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

ومعنى الآية الكريمة: وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم، فقولوا الحق بينهم، واعدلوا، وأنصفوا، ولا تجوروا، ولو كان الذي يتوجه الحق عليه والحكم ذا قرابة لكم، ولا تحملنّكم قرابة قريب، أو صداقة صديق، حكمتم بينه وبين غيره، أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليه فيه.[2]

٤) وردت آيات كثيرة تأمر بالعدل، وتنهى عن الهوى، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨). وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠)، يقول تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ (الأعراف: ٢٩). ويقول تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (صٓ: ٢٦).

ويقول تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ (الإسراء: ٣٣)[3].

توسط أهل السنة والجماعة بين الفرق الإسلامية
فأهل السنة والجماعة وسط بين الفرق كلها.

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٩٥).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٢٥٢).

(٣) انظر: الوسيطة في القرآن الكريم، لناصر العمر، تحت فصل بعنوان (منهج الوسطية في الشهادة والحكم).

فهم في باب أسماء الله وآياته وصفاته وسطٌ بين أهل التعطيل، الذين يلحدون في أسماء الله وآياته ويعطلون حقائق ما نعت الله به نفسه؛ حتى يشبهوه بالعدم والموات وبين أهل التمثيل الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات.

فيؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف الله به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف وتمثيل.

وهم في باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدرة الله؛ الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة ومشيئته الشاملة وخلقه لكل شيء؛ وبين المفسدين لدين الله الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولا قدرة ولا عمل. فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب فيصيرون بمنزلة المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ١٤٨).

فيؤمن أهل السنة بأن الله على كل شيء قدير. فيقدر أن يهدي العباد ويقلب قلوبهم وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في ملكه ما لا يريد ولا يعجز عن إنفاذ مراده وأنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات.

ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل وأنه مختار ولا يسمونه مجبورا؛ إذ المجبور من أكره على اختلاف اختياره والله سبحانه جعل العبد مختارًا لما يفعله فهو مختار مريد والله خالقه وخالق اختياره وهذا ليس له نظير. فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

وهم في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد وسط بين الوعيدية؛ الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين في النار ويخرجونهم من الإيمان بالكلية ويكذبون بشفاعة النبي ﷺ. وبين المرجئة الذين يقولون: إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان. ويكذبون بالوعيد والعقاب بالكلية.

فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذي يستوجبون به الجنة وأنهم لا يخلدون في النار. بل يخرج

منها من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال خردلة من إيمان وأن النبي ﷺ ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته.

وهم أيضًا في أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم وسط بين الغالية. الذين يغالون في علي ﷺ فيفضلونه على أبي بكر وعمر ﷺ ويعتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما وأن الصحابة ظلموا وفسقوا، وكفروا الأمة بعدهم كذلك وربما جعلوه نبيا أو إلها وبين الجافية الذين يعتقدون كفره وكفر عثمان ﷺ ويستحلون دماءهما ودماء من تولاهما. ويستحبون سب علي وعثمان ونحوهما ويقدحون في خلافة علي ﷺوإمامته[1].

وهم وسط بين المعتزلة المعظمين للعقل إلى درجة أنهم يردون المتواتر من الأحاديث ويلوون أعناق الآيات بتأويلاتهم الفاسدة لزعمهم أنها تخالف العقل، وبين أهل الجمود والظاهر ممن يلغون دور العقل في الفهم والاستنباط والفقه ولا يثبتون للنص معنى.

وهم وسط بين من يقول: نقرأ القرآن والسنة للبركة، وأما العلم والفقه فهو مدون في المتون والمختصرات والمطولات وأقوال الرجال، ويحفظون الأقوال والمسائل دون اهتمام بالدليل، وبين من يقول: "الكتاب والسنة"، بمعنى إهدار جهود السابقين من الأئمة الأعلام ومصابيح الظلام الذين أصَّلُوا الأصول وفرّعوا الفروع ونفعوا الأمة وخدموا الكتاب والسنة، فالمتأخرون من بحر علومهم يغرفون، ولكن هذا لا يعني أنهم معصومون ولا يخطئون، فأهل السنة والجماعة يحبونهم ويحترمونهم وينتفعون بعلومهم ويستعينون بأقوالهم لفهم الكتاب والسنة واتباع الصحيح من الأقوال.

وهم وسط بين من يقول بأن كل مجتهد مصيب وبين من يسفه آراء العلماء ويتطاول على أئمة الإسلام، وقولهم في المسألة كل مجتهد مأجور وإن أخطأ، لقول النبي ﷺ: **"إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ واحد"**[2].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ٣٧٣-٣٧٥).

(٢) البخاري (٧٣٥٢)، مسلم (١٧١٦).

وهم وسط بين المتفلتين المتبعين لرخص العلماء بزعم التيسير والتخفيف على العباد وبين المتشددين المحرمين لكل شيء.

وهم وسط في مسألة التقليد بين من يحرم الاجتهاد ويوجب التقليد على كل أحدٍ وبين من يحرم التقليد على إطلاقه دون تفصيل[١].

وكذلك في سائر "أبواب السنة " هم وسط. لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان[٢].

الإسلام بين الغلو واليسر: تعريفُ اليُسرِ: لغة: نقيض العسر. وهو السهولة. [٣]

اصطلاحًا: هو تطبيق الأحكام الشرعية بصورة معتدلة كما جاءت في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، من غير تشدد يحرم الحلال ولا تميع يحلل الحرام، ويدخل تحت هذا المصطلح: السعة، ورفع الحرج، وغيرها من المصطلحات التي تحمل المدلول نفسه[٤].

الدين الإسلامي قائم على اليسر ورفع الحرج: إن الدين الإسلامي قائم بمجمله على اليسر ورفع الحرج ابتداءً من العقيدة وانتهاءً بأصغر أمور الأحكام والعبادات بشكل يتوافق مع الفطرة الإنسانية وتتقبله النفس البشرية من غير تكلف أو تعنت، "فإن الشارع لم يقصد إلى التكليف بالمشاق الإعنات فيه والدليل على ذلك أمور"[٥]:

أولًا: الآيات الكثيرة التي تثبت التيسير وتنفي العسر والحرج والمشقة عن الدين الإسلامي منها: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨).

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٥٨). وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ (النساء: ٢٨).

---

(١) الغلو في الدين، لجلال بن بعد الرحمن عارف صـ٢١، ٢٢.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ٣٧٣).

(٣) الصحاح للجوهري (٢/ ٧٣٠)، القاموس المحيط (١/ ٦٩١).

(٤) اليسر والسماحة في الإسلام. تأليف/ فالح بن محمد الصغير تحت فصل بعنوان (مفهوم اليسر).

(٥) انظر: الموافقات للشاطبي (٢/ ٨١)، اليسر والسماحة في الإسلام.

وكذلك الأحاديث الكثيرة التي تحمل معاني اليسر في أمور الدين وعدم التنطع والتشدد في العبادات والطاعات، فقد أشار عليه الصلاة والسلام إلى أن أهم ما تميزت به رسالة الإسلام عن غيرها من الرسالات السماوية السابقة هي اليسر ورفع الحرج والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر ولكن نكتفي منها بالإشارة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **"إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ"**[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **"أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى الله الْحُنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ"**[٢].

والمتمعن في السيرة النبوية يجد أن سلوك النبي ﷺ وتعامله مع صحابته مبنى على منهج التيسير والسماحة، والشواهدُ أكثر من أن تعد أو تحصى، ولكن نكتفي بسرد حادثة وقعت لأحد الصحابة وجاء إلى الرسول ﷺ، يريدُ مخرجًا لها وهو صحابي فقير لا يملك قوت يومه.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله هَلَكْتُ قَالَ: **"مَا لَكَ"** قَالَ وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا"**قَالَ: لَا قَالَ: **"فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ"**قَالَ: لَا فَقَالَ: **"فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا"**قَالَ: لَا قَالَ: فَمَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ قَالَ: **"أَيْنَ السَّائِلُ"**فَقَالَ: أَنَا قَالَ: **"خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ"**فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ الله، فَوَالله مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا- يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ- أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ ثُمَّ قَالَ: **"أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ"**[٣].

ثانيًا: اعتماد الشريعة الإسلامية على عدة أسس في التيسير.

---

(١) البخاري (٣٩).

(٢) ذكره البخاري في صحيحه معلقًا (١/ ١١٦)، ووصله في الأدب المفرد (٢٨٧)، ورواه أحمد (١/ ٢٣٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٨١).

(٣) البخاري (١٩٣٦)، مسلم (١١١١).

فإن الشريعة الإسلامية -كما سبق- اعتمادها الأساسي على التيسير ورفع الحرج وللتحقيق فقد اعتمدت على عدة أسس أو مرتكزات مثل:

١) **الرُخْصَةْ: ومعناها لغة:** ترخيصُ الله للعبد فيها يخففه عليه، والتسهيلُ(١).

واصطلاحًا: ما ثبت على خلاف دليلٍ شرعي لمعارض راجح(٢).

والرخصة قاعدة عظيمة من قواعد هذا الدين حيث تشمل جميع أمور الدين وجوانبه في العقيدة والعبادة والمعاملة والعقوبات وغيرها، وهي منحة وصدقة من الله تعالى لعباده، كما قال عليه الصلاة والسلام "**صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ الله بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ**"(٣).

والرخصة من أهم معالم اليسر في هذا الدين، وأن الله -تعالى- إنما أجازها ليخفف عن عباده وطأة بعض التكاليف، ويعذرهم عما لا يطيقونه لذلك يستحب إتيان هذه المنحة والعمل بها في مواضع الجواز، يقول ﷺ: "**إِنَّ الله يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ**"(٤).

ونسوق بعض الأمثلة التي توضح تيسير الشرع الحنيف في هذا الجانب وهو الرخص.

أ) **الرخصة في السفر:** وذلك بقصر الصلاة الرباعية المفروضة وصلاتها ركعتين، والجمع بين صلاتي الظهر والعصر وكذا المغرب والعشاء جمع تقديم أو تأخير.

وكذلك الإفطار للصائم لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: ١٨٤). وقال ﷺ: "لَيْسَ مِنْ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ"(٥).

ب) التيمم بالتراب عند عدم وجود الماء أو عند تعذر استعماله لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ

---

(١) القاموس المحيط (١/ ٨٤٣).

(٢) شرح الكوكب المنير (١/ ٤٧٨)، روضة الناظر (١/ ١٩٠).

(٣) مسلم (٦٨٦).

(٤) أحمد (٢/ ١٠٨)، وابن خزيمة في صحيحة (٢٠٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٠٥٩).

(٥) البخاري (١٩٤٦)، مسلم (١١١٥).

حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة: ٦).

جـ) الرخصة في الحيض والنفاس، وهما عذران للصلاة والصيام والطواف بالنسبة للمرأة[١].

٢) الأصل في الأشياء الإباحة: وهذا من أهم المرتكزات والأسس التي قام عليها منهج التيسير في الإسلام وهو أن الأصل في الأشياء حلها وإباحتها، وليس منعها وحرمتها، فكل ما خلق في هذا الكون مسخرٌ للإنسان ومهيأ للاستمتاع به، ما لم يكن فيه نهى صريحٌ، فقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية: ١٣). وبما أن الشارع قد بين ذلك فلا يحق لأحد أن يحرم هذا المباح، فإنه بذلك يدخل في نطاق التنطع والتعنت المنهي عنه، ومن أجل ذلك جاء التحذير الرباني بالنهي عن تحريم الأمور المباحة أو تحليل المحرم، فقد كان هذا السؤال سببًا لإخراج الناس من الدين الحق، وإحلال غضب الله عليهم، كما حدث لبعض الأمم السابقة، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ١٠١، ١٠٢).

ويقول ﷺ: **"إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ"**[٢].

٣) عدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان والإكراه: وفي هذا الأمر تظهر سماحة الإسلام ويسره في توافقه مع الفطرة الإنسانية السليمة التي خلقها الله في نفس الإنسان، ومن هذه الفطرة الخطأ الذي يقع فيه الإنسان في معظم أحواله من غير قصد، وكذلك ما يعتريه من نسيان -وهو ما ذكره الله تعالى- على لسان المؤمنين الذين قالوا: ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ "قَالَ قَدْ فَعَلْتُ"[٣].

وما كان يجيب به ﷺ في حجة الوداع على من أخطأ أو نسي فقدم أو أخر فكان الجواب دائمًا"

---

(١) انظر: المنثور في القواعد للإمام الزركشي تحت فصل بعنوان (الرخص).

(٢) البخاري (٧٢٨٩)، مسلم (٢٣٥٨).

(٣) مسلم (١٢٦).

افْعَلْ وَلَا حَرَجَ"[١].

فما كان هذا الجواب إلا سماحة الإسلام وتيسيره ورفعه الحرج على أتباعه.

وأما الاستكراه فهو أمرٌ خارجٌ عن إرادة الإنسان، لا يستطيع كل إنسان أن يتحمل ما قد يتعرض له من أذى أو ضرر أو تهديد بالقتل أو قطع عضو وغيره، فحينها رخص له الشارع أن يتنازل عن بعض مفاهيمه الدينية تخلصًا من الحال التي يعاينها والعذاب الواقع عليه كما حصل لعمار بن ياسر رضي الله عنهما حينما ذكر آلهة قريش بخير ونال من رسول الله ﷺ تحت وطأة التعذيب، وقتل أبواه أمام عينه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال له الرسول ﷺ: **"كيف تجد قلبك؟ "** قال: مطمئنًا بالإيمان، قال النبي ﷺ: **"إن عادوا فعد"**[٢].

وما ذلك إلا رحمة وتيسيرًا لهم، لأن الخطأ والنسيان من الأمور الفطرية التي لا يسلم منها أحد، وأما الإكراه فلأن قوة التحمل تختلف من إنسانٍ لآخر، من أجل ذلك جاء هذا التشريع الرباني بهذه الصورة الميسرة التي تناسب أطباع الناس وفطرهم[٣].

٤) **التوبة**: والتوبة من الأسس المتينة التي يرتكز عليها منهج التيسير في الإسلام وهي سبب من أسباب ثبات المؤمن وبقائه على دين الله تعالى، حيث تزيل عن كاهله هموم المعاصي وأثقال المخالفات، وتدفعه للعمل دومًا نحو الأفضل، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ (الزمر: ٥٣).

والتوبة سبب لمحبة الله تعالى للإنسان عندما ينيب إليه بعد أن عصاه ويندم على فعله:

---

(١) البخاري (٨٣)، مسلم (١٣٠٦).

(٢) المستدرك (٢/ ٣٥٧)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ورواه البيهقي في الكبرى (٨/ ٢٠٨/ ١٦٦٧٣). وقال الحافظ في الفتح (١٢/ ٣٢٧): وهو مرسل ورجاله ثقات، وذكر مراسيل أخرى في المعنى نفسه ثم قال: وهذه المراسيل تقوى بعضها بعضًا.

(٣) اليسر والسماحة في الإسلام: تأليف/ فالح بن محمد الصغير تحت فصل بعنوان: مرتكزات منهج التيسير. وانظر أيضًا: المنثور في القواعد للزركشي عنوان ((الخطأ يرفع الإثم)).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ (البقرة: ٢٢٢).

وأيضًا قول النبي ﷺ: **"للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا"**[١].

ومن يسر هذا الدين وسعته ورحمته، أن الله تعالى جعل الأعمال الصالحة مكفرات لخطايا بني آدم لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ (الفرقان: ٧٠).

ومن أمثلة هذه الأعمال التي تكفر السيئات:

أ) الوضوء: فإنه يكفر الذنوب والخطايا ما اجتنبت الكبائر لقوله ﷺ: **"مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ"**[٢].

ب) الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة وكذا صوم رمضان فإنها جميعًا تكفر الخطايا لقوله ﷺ: **"الصَّلَوَاتُ الْخُمْسُ وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ"**[٣].

ج) أن كل ابتلاء ومصيبة يبتلى بها المسلم فهي كفارة له لقوله ﷺ: **"مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ"**[٤].

مجالات التيسير في الإسلام:

أولًا: في العبادات: يظهر مبدأ اليسر والمسامحة جليًا في العبادات أكثر من غيرها من أمور الدين، حيث إنها سلوك ظاهر، فجميع العبادات قائمة على هذا المبدأ الذي خص الله تعالى به هذه الأمة من غيرها من الأمم المفروضة منها والنوافل، يقول عليه ﷺ: **"عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ**

(١) مسلم (٢٦٧٥).

(٢) مسلم (٢٤٥).

(٣) مسلم (٢٣٣).

(٤) البخاري (٥٦٤١)، وانظر: الموافقات للشاطبي (٢/ ٨٢).

فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا"[١]. ويمكن أن نشير إلى بعض هذه المظاهر في العبادات الآتية:

أ) **في الطهارة**: يظهر مبدأ اليسر في الطهارة واضحًا لأنها المدخل إلى العبادات، واليسر فيها أمر ضروري، لأن المسلم يتوضأ في اليوم والليلة خمس مرات، ويغتسل من الجنابة كذلك، ويتعرض لبعض النجاسات هنا وهناك، فإن الشدة في الطهارة توقعه في الضيق والحرج ويجعل نفسه تمل من العبادة نفسها فضلًا عن الطهارة.

ومن الأمثلة الواضحة على هذا التيسير قول النبي ﷺ لما سئل عن ماء البحر قال: "**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**"[٢]. ويتبين هذا اليسر أيضًا من قصة الأعرابي الذي بال في المسجد فقام الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: "**دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**"[٣].

ومن اليسر في الطهارة أيضًا أنه إذا تعلقت القذارة بالنعلين فإن مسحهما بالأرض يطهرهما لقوله عليه الصلاة والسلام: "**إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلْيَنْظُرْ فَإِنْ رَأَى فِي نَعْلَيْهِ قَذَرًا أَوْ أَذًى فَلْيَمْسَحْهُ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا**"[٤].

ومن يسر هذا الدين أيضًا في الطهارة أن النجاسة الواقعة على الثوب تزال بالماء وهذا فيه يسر كبير إذا قورن بما كانت عليه بنو إسرائيل من قبل حيث كانوا يكلفون بقص ما أصيب بالنجاسة من الثوب.

ب) **التيمم**: ومن اليسر في هذا الدين أن المسلم إذا لم يجد الماء ليتوضأ به أو كان به مرض أو جرح لا يستطيع أن يتوضأ بالماء، فله أن يتيمم بالتراب، فضلًا من الله تعالى وتسهيلًا عليه، لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ

---

(١) البخاري (٤٣).

(٢) رواه مالك في الموطأ (٤١)، وأبو داود (٨٤)، والترمذي (٦٩)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٩).

(٣) البخاري (٢٢٠).

(٤) رواه أبو داود (١/ ٤٥٣/ ٦٥٠)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٨٤).

لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (المائدة: ٦).

بخلاف ما كانت عليه الشرائع السابقة، حيث لا تقبل صلاة من غير تطهر بالماء.

وجاء تأكيد هذا الأمر في السنة النبوية في قوله ﷺ: **"أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً"**[1].

ج) **الصلاة**: ويمكن بيان بعض صور التيسير في الصلاة من خلال النقاط الآتية:

١) أنها فرضت في بداية الأمر في رحلة المعراج خمسين صلاة ثم خففت إلى خمس في العمل وخمسين في الأجر.

٢) مشروعية الجمع والقصر في الصلاة أثناء السفر أو المطر أو المرض وذلك للظروف التي يمر بها الإنسان في هذه الحالات من قلة في الماء أو البرد أو خوف من الطريق أو زيادة في المرض.

لذلك جعل الإسلام فيه الصلاة بشكل آخر يتناسب مع هذه الظروف فأجاز له الجمع والقصر، حيث قصرت الصلوات الرباعية إلى ركعتين فقط.

ويتغير وضع الصلاة وكيفيتها كذلك في حالة الخوف في الحرب أو هجوم سبع أو سيل ونحوه، ويسهل أمرها وتقصر، لما في ذلك من مصلحة على المسلمين وحماية لهم من عدوهم الذين قد يغدرون بهم أثناء الصلاة، وتسمى هذه الصلاة بصلاة الخوف، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١٠١) ثم ذكرت في الآية الآتية كيفية أداء هذه الصلاة على دفعتين.

٣) جواز الصلاة في أي مكان من الأرض، حيث لم تكن جائزة عند الأمم السابقة إلا

---

(١) البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١).

في المعابد والصوامع، يقول عليه الصلاة والسلام: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ. . . . . "[١] الحديث.

٤) تخفيف الصلاة وعدم الإطالة فيها، لأن صلاة الجماعة تجمع بين الصغير والكبير والمريض، فينبغي مراعاة ذلك، وهذا ما كان الرسول ﷺ يحذر أصحابه معه، يقول جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ: أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحَيْنِ وَقَدْ جَنَحَ اللَّيْلُ، فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي فَتَرَكَ نَاضِحَهُ وَأَقْبَلَ إِلَى مُعَاذٍ فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ أَوْ النِّسَاءِ فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا نَالَ مِنْهُ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَشَكَا إِلَيْهِ مُعَاذًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ، أَوْ أَفَاتِنٌ ثَلَاثَ مِرَارٍ فَلَوْلَا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ"**[٢].

ويقول ﷺ: **"إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ"**[٣].

٥) رفعت الصلاة عن الحائض والنفساء، ولا تقضي بعد الطهر، وهذا يسر ولطف على المرأة، حيث تعاني في فترة الحيض والنفاس آلامًا ودماء، يصعب معها الصلاة، وقد تطول هذه المدة فيشق القضاء، فجاءت الرحمة الربانية على المرأة بهذا التيسير، ولم يطلب منها قضاء تلك الصلوات الفائتة عنها بعد ذلك[٤].

٦) مشروعية سجود السهو لجبر الخلل الذي يحصل في الصلاة، ولم تطلب إعادتها.

كل هذا اليسر وهذه السماحة جاءت في الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين

---

(١) متفق عليه، وقد سبق.

(٢) البخاري (٧٠٥).

(٣) البخاري (٨٦٨).

(٤) البخاري (٣٢١)، مسلم (٣٣٥)، عن عائشة ﵂ أنها سُئلت: أتجزى إحدانا صلاتها إذا طهرت؟ فقالت: كنا نحيض مع النبي ﷺ فلا يأمرنا به أو قالت فلا نفعله.

وهو الصلاة التي هي أعظم الأعمال العملية.

د) **الزكاة**: وتتبين مظاهر اليسر والتسهيل في أداء فريضة الزكاة من خلال الأمور الآتية:

١) أنها لم تأت على جميع الممتلكات والعقارات والأموال وإنما اقتصرت على بعض الأصناف.

٢) ثم إنها يشترط في الأصناف التي تجب فيها الزكاة أن تبلغ النصاب.

٣) ومن يسر الإسلام أيضًا في أداء هذه الفريضة أنه لم يجعل دفع الزكاة إلا مرة واحدة في السنة، وذلك بعد أن يحول عليها الحول.

٤) ومن ذلك أيضًا أن مقدار المال الواجب دفعه للزكاة قليل جدًا بالنسبة للمال الذي يوجب فيه الزكاة بحيث لا يؤثر فيه كثيرًا ولا يتأثر بذلك صاحبه.

هذا فضلًا عن كيفية تعامل الإسلام مع زكاة الزروع، حيث أوجب العشر في التي تسقى بماء المطر، ونصف العشر بالتي تسقى بالنضح والآبار، لقوله ﷺ: **"فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ وَالْعُيُونُ أَوْ كَانَ عَثَرِيًّا الْعُشْرُ وَمَا سُقِيَ بِالنَّضْحِ نِصْفُ الْعُشْرِ"**(١).

وهكذا نلاحظ يسر الإسلام وتسهيله في هذا الجانب مما يجعل صاحب المال يسارع إلى إخراج زكاة ماله عن طيب نفس، دون ضجر أو ملل أو ثقل.

هـ) **الصيام**: ونستطيع أن نلاحظ تيسير الإسلام أيضًا في هذه الفريضة من خلال النقاط الآتية:

١) أن الصيام لم يفرض إلا في شهر واحد في السنة وهو شهر رمضان قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة: ١٨٤)، وهذا فيه سعة وتيسير على المسلم.

٢) أن وقت الصيام من الفجر إلى غروب الشمس، ولا يجوز الزيادة في هذا الوقت، من أجل ذلك نهى عن صوم الوصال وهو وصل صيام يومين أو ثلاثة متواليات، لما في ذلك من مشقة وعنت على النفس يقول ﷺ: **"لَا تُوَاصِلُوا قَالُوا إِنَّكَ تُوَاصِلُ قَالَ لَسْتُ**

---

(١) البخاري (١٤٨٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

كَأَحَدٍ مِنْكُمْ إِنِّي أُطْعَمُ وَأُسْقَى أَوْ إِنِّي أَبِيتُ أُطْعَمُ وَأُسْقَى"[١].

٣) ومن أفطر خطأ أو نسيانًا فإنه يكمل صومه، ولا حرج عليه، فإنما أطعمه الله وسقاه، يقول ﷺ: "**مَنْ أَكَلَ نَاسِيًا وَهُوَ صَائِمٌ فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ**"[٢].

٤) جواز الإفطار عند السفر أو المرض، لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

و) الحج: ويتضح يسر الإسلام في هذا الركن أيضًا من خلال النقاط الآتية:

١) الاستطاعة في الزاد والراحلة، وأن لا يكون عليه دين أو التزام مالي آخر من حقوق الآخرين، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧).

٢) وجوبه في العمر مرة واحدة، لأن فيه المشقة والعناء، فيصعب على المؤمن أن يؤديه كل عام.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: "**أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا**" فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ "فَسَكَتَ" حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ ثُمَّ قَالَ ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ**"[٣].

٣) التخيير بين المناسك الثلاثة: التمتع والقرآن والإفراد[٤].

٤) التخيير في الترتيب بين بالأعمال الثلاثة يوم العيد، الرمي والحلق والطواف، وهذا فيه تيسيرٌ على الحاج الذي يعاني من زحمة الناس والمواصلات والأسفار، يقول ابن عباس

---

(١) البخاري (١٩٦١).

(٢) البخاري (٦٦٦٩) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) مسلم (١٣٣٧).

(٤) ولهذه تفصيلات يطول المقام بذكرها وتراجع مصادر الفقه في ذلك.

رضي الله عنهما: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ زُرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ قَالَ: "لَا حَرَجَ" قَالَ حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ قَالَ: "لَا حَرَجَ" قَالَ ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ قَالَ: "لَا حَرَجَ"(١).

وفي رواية مسلم قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: فما رأيته ﷺ سئل يومئذ عن شيءٍ إلا قال: "افْعَلْ وَلَا حَرَجَ"(٢).

٥) أن الله تعالى جعله سببًا لمغفرة الذنوب والخطايا، وقد وعد الرسول ﷺ الحاج بالجنة وأنه يرجع كيوم ولدته أمه فقال ﷺ: "مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ"(٣).

ويقول أيضًا: "وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ"(٤).

وهكذا لاحظنا يسر الإسلام أيضًا في هذا الركن.

ثانيًا: في المعاملات: لم يقتصر التيسير في الإسلام على العقيدة والعبادة بل تعداه إلى المعاملات التي تأخذ مساحة واسعة من حياة الإنسان العملية، فالتجارة والصناعة والزراعة والتعليم ونحوها يدخل جميعها تحت مظلة المعاملات، والناس في المعاملات أكثر عرضة للمعاصي والآثام، لأن المحرك هو المال، ومعلوم مدى تأثير المال على نفس الإنسان وطباعه وسلوكه، ولذلك كانت النصوص القرآنية والنبوية تترى في اتباع التيسير والمسامحة في المعاملات، يقول ﷺ: "رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى"(٥).

ونبين بعض صور التيسير في المعاملات: أ) ففي البيع أجاز الإسلام للمتبايعين الخيار في عدد من المواضع كما إذا كانا في مجلس البيع، رفعًا للحرج الذي يقع فيه أحدهما، لأنه ربما يحصل ضرر كبير إذا تم هذا العقد يقول ﷺ: "إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلَانِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ

---

(١) البخاري (١٧٢٢).

(٢) مسلم (١٣٠٦).

(٣) البخاري (١٨٢٠)، مسلم (١٣٥٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) البخاري (١٧٧٣)، مسلم (١٣٤٩)، عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) البخاري (٢٠٧٦)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا وَكَانَا جَمِيعًا أَوْ يُخَيِّرُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ فَتَبَايَعَا عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ وَجَبَ الْبَيْعُ وَإِنْ تَفَرَّقَا بَعْدَ أَنْ يَتَبَايَعَا وَلَمْ يَتْرُكْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا الْبَيْعَ فَقَدْ وَجَبَ الْبَيْعُ"[1].

ب) وحرم الإسلامُ الربا الذي فيه ظلم الناس، وهو سبب في إفشاء الفقر والغنى الفاحشين، وسبب لزرع الأحقاد والضغائن بين أبناء المجتمع الواحد، فحرم الله الربا وأباح القرض الحسن، يقول الله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ (البقرة: ٢٧٦). وقال تعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (المزمل: ٢٠).

ج) كما حرم هذا الدين احتكار الطعام والسلع واحتجازها في وقت تشتد حاجة الناس إليها، يقول عليه الصلاة والسلام: **"مَنْ احْتَكَرَ فَهُوَ خَاطِئٌ"**[2].

د) التيسير على المدين المعسر، وهو مبدأ عظيم جاء به الإسلام رحمة بحاله وتقديرًا لظروفه القاسية، وهو عنصر قوى من عناصر التكافل الاجتماعي بين أبناء الأمة، حيث يجعل من المجتمع وحدة متينة، قائمة على الحب والوئام، والتعاون والتراحم، وهو تطبيق عملي لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ (البقرة: ٢٨٠).

وأوصى به النبي ﷺ فقال: **"مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ الله مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ"**[3].

ويقول ﷺ عن رجل كان يتجاوز عن المعسر: **"كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ تَجَاوَزُوا عَنْهُ لَعَلَّ الله أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا فَتَجَاوَزَ الله عَنْهُ"**[4].

ثالثا: في العقوبات: لقد تميزت الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع، والقوانين

---

(١) البخاري (٢١١٢)، مسلم (١٥٣١)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) مسلم (١٦٠٥).

(٣) مسلم (١٥٦٣)، عن أبي قتادة ﷺ.

(٤) البخاري (٢٠٧٨)، عن أبي هريرة ﷺ.

في التشريع الجنائي ووضع العقوبات المناسبة لأفعال الناس التي تضر بالأنفس والأموال والأعراض وغيرها حيث أضفت الشريعة على هذه العقوبات ألوانًا من السماحة واليسر بحيث تتقبلها النفس الإنسانية في كل أحوالها.

ويمكن أن نبين هذه السماحة والسعة من خلال بيان عقوبتين فقط وهما:

أ) **عقوبة قتل النفس**: إن قتل النفس بغير حق يعد من أكبر الجرائم وأعظمها عند الله تعالى، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ (الأنعام: ١٥١).

وقد جعل الله تعالى قتل النفس الواحدة بمثابة قتل الناس جميعًا وإحياء نفس بمثابة إحياء الناس جميعًا، يقول الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢).

ويقول ﷺ: **"لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ"**[(١)].

فقتل النفس فعلٌ شنيعٌ وجريمة عظمى، وكان حكم الله في القتل أن يقتل القاتل قصاصًا. قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ (المائدة: ٤٥).

ونستطيع أن نظهر يسر الإسلام وسماحته في تطبيق العقوبة على القاتل من خلال الآتي:

١) لا يؤخذ أحد بجريرة أحد، أي أنه لا يعاقب إلا القاتل نفسه، وليس لأهله وذريته وقبيلته شأن في فعله وتطبيق العقوبة عليه، بدون تعسف أو تعد، بخلاف ما كانت عليه الجاهلية، حيث كان يقتل بالرجل الواحد أكثر من رجل، فنجد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ (الإسراء: ٣٣).

٢) ولكن من يسر الإسلام وسماحته أن جعل المجال مفتوحًا أمام ولي أمر المقتول

---

(١) الترمذي (١٣٩٥)، النسائي (٧/ ٨٢)، عن ابن عمر رضي الله عنهما. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٧٧).

وخيره بين إحدى ثلاث:

القصاص أو الدية أو العفو، لقوله ﷺ: "مَنْ أُصِيبَ بِدَمٍ أَوْ خَبْلٍ "الْخَبْلُ الْجِرَاحُ" فَهُوَ بِالْخِيَارِ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ إِمَّا أَنْ يَقْتَصَّ أَوْ يَأْخُذَ الْعَقْلَ أَوْ يَعْفُوَ فَإِنْ أَرَادَ رَابِعَةً فَخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ فَإِنْ فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ عَدَا بَعْدُ فَقَتَلَ فَلَهُ النَّارُ خَالِدًا فِيهَا مُخَلَّدًا"(١).

٣) ومن يسر الإسلام وسماحته قبل تطبيق هذه العقوبة أنه يغري أهل المقتول بما عند الله تعالى، إذا تجاوزوا عن القاتل وعفوا عنه، لقوله ﷺ: **"مَا عَفَا رَجُلٌ إِلَّا زَادَهُ الله بِهِ عِزًّا وَلَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَلَا عَفَا رَجُلٌ قَطُّ إِلَّا زَادَهُ الله عِزًّا"**(٢).

٤) ومن سماحة الإسلام ويسره أنه اشترط في جواز تطبيق القصاص اتفاق أولياء الدم جميعًا على هذا القصاص، فإذا وجد من بينهم من عفا عن القاتل وإن كانت امرأة فإن الحكم يسقط، ويمنع القصاص. وكذلك إذا كان من بين أولياء الدم من لم يبلغ سن التمييز أو كان غائبًا، فإنه ينتظر بلوغه أو عودته من غيبته لأخذ رأيه، فإن عفا عن الجاني فإن الحكم يسقط، وقد يأخذ ذلك سنينًا وأعوامًا، وفي ذلك حكمة فربما ينسى هؤلاء الأولياء حنقهم على دمهم وتتخفف الوطأة عليهم، فيكون العفو حينها أقرب إلى القصاص.

ب) عقوبة الزنا: وجريمة الزنا من الجرائم الأخلاقية التي تفسد الأسر والمجتمعات وتضيع الأنساب وتفشي الضغائن والأحقاد، لذلك كانت هذه الجريمة من الكبائر التي توعد الله فاعلها بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: ١٩).

وعقوبة الزاني الرجم للمحصن والجلد لغير المحصن، وفي هذا يسر وسماحة، وذلك بتناسب العقوبة مع طبيعة الزاني نفسه، فالزاني الثيب أعظم جرمًا من الزاني غير المحصن، لذلك جاءت عقوبته أقسى وأشد وهي الرجم.

---

(١) أحمد (٤/ ٣١)، وابن ماجه (٢٦٢٣)، وغيرهما، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٤٣٣).

(٢) أحمد (٢/ ٤٣٨)، من طريق العلاء عن أبيه عن أبي هريرة وهذا إسناد على شرط مسلم.

ومن يسر الإسلام وسماحته في إنفاذ العقوبة على الزاني أنه طلب شهادة أربعة أشخاص على الفاحشة، وهذا من باب التحدي الزائد، وتجنبًا لتطبيق العقوبة، وحتى لا يقع الناس في أعراض غيرهم، وليس هذا فحسب وإنما حدد عقوبة للذي يقذف الآخرين ويتهمهم بالزنا من غير أن يحضروا أربعة أشخاص فحينها ينال عقوبة القذف يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ (النور: ٤).

ومن أجل إقرار هذا المبدأ لدى الأمة كان الرسولُ ﷺ يحاول تجنب تطبيق حد الزاني، أو يوجد للمعترف بالزنا أعذارًا لعله يتراجع عن اعترافه كما ثبت في حديث ماعز بن مالك.

وقد عمل الإسلام على تخفيف وقوع الزنا ومحاولة الستر على مرتكبها وأن تتم التوبة بينه وبين الله تعالى فالأمر يرجع إلى الله تعالى يوم القيامة إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه.

القواعد الشرعية المستنبطة من النصوص الواردة في اليسر:

استنبط علماء الأصول من النصوص الواردة في سماحة الإسلام ويسره بعض القواعد وجعلوها معالم لعلم الأصول، ونذكر منها قاعدتين أساسيتين.

الأولى: المشقة تجلب التيسير. وهذه قاعدة عظيمة تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدرها وبيان منزلتها في الفقه الإسلامي وأجمعت عليها كتب القواعد الفقهية وهي من الدعائم والأسس التي يقوم عليها صرح الفقه الإسلامي وأصوله(١).

معنى القاعدة: لغة: أن الصعوبة والعناء تصبح سببًا للتسهيل.

اصطلاحًا: أن الأحكام التي ينشأ عن تطبيقها حرج على المكلف ومشقة في نفسه أو ماله فالشريعة تخففها بما يقع تحت قدرة المكلف دون عسر أو إحراج(٢).

الأدلة الشرعية على هذه القاعدة.

---

(١) القواعد الفقهية الكبرى، تأليف/ صالح بن غانم السدلان (٢١٦).

(٢) المصدر السابق (٢١٩-٢٢٠).

دل على هذه القاعدة أدلة كثيرة من القرآن والسنة نشير إلى شيء منها على سبيل المثال لا الحصر.

فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥). وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٦). وقد تضمن ذلك أن جميع ما كلفهم به أمرا ونهيا فهم مطيقون له قادرون عليه وأنه لم يكلفهم ما لا يطيقون وفي ذلك رد صريح على من زعم خلاف ذلك. والله تعالى أمرهم بعبادته وضمن أرزاقهم فكلفهم من الأعمال ما يسعونه وأعطاهم من الرزق ما يسعهم فتكليفهم يسعونه وأرزاقهم تسعهم فهم في الوسع في رزقه وأمره: وسعوا أمره ووسعهم رزقه ففرق بين ما يسع العبد وما يسعه العبد. وتأمل قوله عز وجل: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ كيف تجد تحته أنهم في سعة ومنحة من تكاليفه؛ لا في ضيق وحرج ومشقة؛ فإن الوسع يقتضي ذلك فاقتضت الآية أن ما كلفهم به مقدور لهم من غير عسر لهم ولا ضيق ولا حرج[١].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨)، وغيرها من الآيات الكثير.

ومن أدلة هذه القاعدة في السنة النبوية:

١) قال النبي ﷺ: **"إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ"**[٢].

أي: دين الإسلام ذو يسر، أو سمى الدين يسرا مبالغة بالنسبة إلى الأديان قبله؛ لأن الله رفع عن هذه الأمة الإصر الذي كان على من قبلهم. ومن أوضح الأمثلة له أن توبتهم

---

(١) فتاوى ابن تيمية (١٤/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) البخاري (٣٩).

كانت بقتل أنفسهم، وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم[(١)].

٢) قال النبي ﷺ: **"يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا"**[(٢)].

وغيرها كثير من الأحاديث النبوية الشريفة.

الثانية: الضرورات تبيح المحظورات. إن من مسلمات المبادئ لدى جمهور المسلمين أن الشريعة الإسلامية قد التزمت في أحكامها مبدأ رعاية مصالح الناس دنيويًا وأخرويًا، فأحكامها مبنية على رعاية المصالح ودرء المفاسد، والمتأمل في نصوصها يجد ذلك واضحًا في جميع ما قررته من أحكام، وفي كل ميدان تناولته من ميادين الحياة، ومن هنا حصل تقسيم الأقوال والأفعال والعقود والتصرفات إلى مأمور بها لما فيها من المصالح، ومنهي عنها لما فيها من مفاسد على المتصف بها أو غيره. . . غير أن الإسلام يحسب حساب الضرورات فيبيح فيها المحظورات، ويحل فيها المحرمات بقدر ما تنتفي هذه الضرورات بغير تجاوز لها ولا تعد لحدودها وهذا ما يعرف عند جمهور العلماء بقاعدة "الضرورات تبيح المحظورات"[(٣)].

والتعريف الاصطلاحي لهذه القاعدة هو: أن تطرأ على الإنسان حالة من الخطر أو المشقة الشديدة بحيث يخاف حدوث ضرر أو أذى بالنفس أو بالعضو أو بالعرض أو بالعقل أو بالمال، ويتعين أو يباح عندئذ ارتكاب الحرام أو ترك الواجب أو تأخيره عن وقته دفعًا للضرر عنه في غالب ظنه ضمن قيود الشرع.

٢) الأدلة الشرعية على هذه القاعدة:

من القرآن الكريم: أ) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣).

ب) قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ

---

(١) فتح الباري (١/ ١١٦).

(٢) البخاري (٦٩)، مسلم (١٧٣٤)، عن أنس ﷺ.

(٣) انظر: القواعد الفقهية الكبرى وما تفرع منها (٢٤٧-٢٥٠).

دَمًا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (الأنعام: ١٤٥). ففي هذه الآيات أباح الله تعالى الأكل من المحرمات في حال الاضطرار وكذلك أبيح الفعل المحرم حال الضرورة مثل التلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه عليه بالقتل أو بقطع عضو من الأعضاء مع اطمئنان القلب بالإيمان بدليل قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ (النحل: ١٠٦)[١].

وأيضًا ذكر الله تعالى الضرورة في هذه الآيات، وأطلق الإباحة في بعضها بوجود الضرورة من غير شرط ولا صفة، وهو قوله: ﴿ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِ ﴾ فاقتضى ذلك وجود الإباحة وبوجود الضرورة في كل حال وجدت الضرورة فيها[٢].

من السنة النبوية: أ) فعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا بِأَرْضٍ تُصِيبُنَا بِهَا مَخْمَصَةٌ فَمَا يَحِلُّ لَنَا مِنْ الْمَيْتَةِ قَالَ: **"إِذَا لَمْ تَصْطَبِحُوا وَلَمْ تَغْتَبِقُوا وَلَمْ تَحْتَفِئُوا بَقْلًا فَشَأْنُكُمْ بِهَا"**[٣].

ومعنى الحديث: إذا لم تجدوا ألبنة -تشربونها أول النهار- أو شرابًا تغتبقونه -أي تشربونه آخر النهار- ولم تجدوا بعد ذلك بقلة تأكلونها حلَّت لكم الميتة[٤].

ب) عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ أَنَّ أَهْلَ بَيْتٍ كَانُوا بِالْحَرَّةِ مُحْتَاجِينَ قَالَ فَمَاتَتْ عِنْدَهُمْ نَاقَةٌ لَهُمْ أَوْ بعير لهم فَرَخَّصَ لَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَكْلِهَا قَالَ: **"فَعَصَمَتْهُمْ بَقِيَّةَ شِتَائِهِمْ أَوْ سَنَتِهِمْ"**[٥].

ومن الأحاديث التي تثبت هذه القاعدة أيضًا الأحاديث المروية في الدفاع عن النفس أو

---

(١) القواعد الفقيهة الكبرى (٢٥٧).

(٢) أحكام القرآن للجصاص (١/ ١٢٦).

(٣) أحمد (٥/ ٢١٨)، والدارمي (٢/ ١٢٠/ ١٩٩٦)، وقال ابن كثير: وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين (تفسير ابن كثيرسورة المائدة/ آية ٣).

(٤) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (١٧/ ٨٣)، نقلًا عن أبي عبيد.

(٥) أحمد (٥/ ٨٨). وفي إسناده شريك بن عبد الله القاضي وهو سيء الحفظ وكذا فيه سماك بن حرب وقد تغير بأخرة فكان ربما يلقن كما قال الحافظ في التقريب فالحديث (إسناده ضعيف).

المال أو العرض، ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي قَالَ: **"فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ"** قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي قَالَ: **"قَاتِلْهُ"** قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي قَالَ: **"فَأَنْتَ شَهِيدٌ"** قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ قَالَ: **"هُوَ فِي النَّارِ"**[(١)].

حالات الضرورة التي يباح فيها المحظور: ضرورة الغذاء (الجوع والعطش)، والدواء، والإكراه، والنسيان، والجهل والعسر أو الحرج وعموم البلوى، والسفر والمرض، والنقص الطبيعي[(٢)].

ويلحق بهذه القاعدة قاعدة أخرى هي بمثابة ضابط لها وهي: (الضرورات تبيح المحظورات) أي أن المباح من فعل المحظورات يكون قدر حاجة الإنسان بحيث ينتفي الضرر الذي يهدده، فلا يتجاوز هذا القدر، وإلا وقع في المعصية، كالمقبل على الهلاك من العطش فلا يجوز له أن يشرب الخمر فوق ما يكسر عطشه ويخلصه من الموت، فإن فعل ذلك فإنه آثم ويتحمل وزر شرب الخمر[(٣)].

صور السماحة في الإسلام

أولًا: سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين:

إن الله بعث نبيه ﷺ رحمة للعالمين، وهو ﷺ مثال للكمال البشري في حياته كلها، مثال للكمال في علاقته بربه وفي علاقته بالناس كلهم بمختلف أجناسهم وأعمارهم وألوانهم، مسلمين وغير مسلمين، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: "وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ رَجُلًا سَهْلًا"[(٤)].

أي سهل الخلق كريم الشمائل لطيفًا ميسرًا في الخلق[(٥)].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: "مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عنه وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ الله ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ

---

(١) مسلم (١٤٠).

(٢) القواعد الفقهية الكبرى (٢٦٠).

(٣) اليسر والسماحة في الإسلام تحت فصل بعنوان ((القواعد الشرعية المستنبطة من النصوص الواردة في اليسر)).

(٤) مسلم (١٢١٣).

(٥) شرح النووي (٤/ ٤٢٢).

حُرْمَةُ الله فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا"[١].

بمثل هذه القيم كانت دعوة النبي ﷺ يسر في كل شيء وذود عن حرمات الله لا عن عَرَضِ الدنيا أو أهواء النفوس. وتعدد صور السماحة في هدي النبي ﷺ مع غير المسلمين وشواهد ذلك من سيرته لا تحصر منها ما يلي:

١) **رحمته ﷺ بالخلق عامة.** وذلك تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء: ١٠٧). وقال ﷺ: **"لَا يَرْحَمُ الله مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ"**[٢].

فكلمة: "العالمين" وكلمة "الناس" عامة تشمل كل العالمين وكل الناس، فدين الإسلام دين السماحة والرحمة يسع الناس كلهم ويغمرهم بالرحمة والإحسان.

٢) **تجاوزه عن مخالفيه ممن ناصبوا له العداء.** وهذا له من الأمثلة ما يصعب حصرها وتعدادها فمنها: لما فتح مكة فكان موقفه فيها غاية ما يمكن أن يصل إليه صفح البشر وعفوهم فكان موقفه ممن كانوا حربًا على الدعوة ولم يضعوا سيوفهم بعد عن حربها أن قال لهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"[٣].

ومنها سماحته ﷺ مع لَبِيد بن الأعصم الذي سحره في مشط ومشاطة وحف طلع نخل ذكر في بئر زروان، وحينما أخبر عائشة بذلك قالت له: أَفَلَا اسْتَخْرَجْتَهُ قَالَ: "قَدْ عَافَانِي الله فَكَرِهْتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ"[٤].

ومنها سماحته مع زعيم المنافقين عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول الذي تحمل قصة الإفك ومع ذلك فقد عفا عنه ﷺ، وحينما مات عبد الله بن أُبَيٍّ غطاه النبيُّ ﷺ بقميصه واستغفر له حتى نزل قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠)[٥].

---

(١) البخاري (٣٥٦٠)، مسلم (٢٣٢٧).

(٢) البخاري (٧٣٧٦).

(٣) السيرة النبوية لابن كثير نقلًا عن ابن إسحاق (٣/ ٥٧٠).

(٤) البخاري (٥٧٦٣)، مسلم (٢١٨٩).

(٥) البخاري (١٢٦٩)، ومسلم (٢٤٠٠).

ومنها سماحته مع مشركي قريش في صلح الحديبية حيث تنازل عن كتابة صفته في كتاب المصالحة كما ترجحت عنده المصلحة في ذلك لما جاءه سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"** قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هِيَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللهمَّ"** ثُمَّ قَالَ: **"هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ"** فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنْ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ"**[١].

٣) **دعاؤه ﷺ لمخالفيه من غير المسلمين.** ومثال ذلك، لما قَدِمَ طُفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وَأَصْحَابُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللهَ عَلَيْهَا فَقِيلَ هَلَكَتْ دَوْسٌ قَالَ: **"اللهمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ"**[٢]. وكذلك دعاؤه ﷺ لأم أبي هريرة قبل إسلامها فعن أبي هريرة ﷺ: "كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْبَى عَلَيَّ فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ فَادْعُ اللهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"اللهمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ"** فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللهِ ﷺ فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ فَقَالَتْ مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ قَالَ: فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا فَفَتَحَتْ الْبَابَ ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. . ."[٣] الحديث.

ومن صور الدعاء أيضًا ما كَانَ من الْيَهُودُ حديث كانوا يَتَعَاطَسُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ

---

(١) البخاري (٢٧٣١).

(٢) البخاري (٦٣٩٧)، مسلم (٢٥٢٤).

(٣) مسلم (٢٤٩١).

رجاء أَنْ يَقُولَ لَهُمْ يَرْحَمُكُمْ الله فَيَقُولُ: "يَهْدِيكُمُ الله وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ"[١].

٤) **وكان ﷺ يقبل هدايا مخالفيه من غير المسلمين.** فقبل هدية زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم في خيبر حيث أهدت له شاة مشوية قد وضعت فيها السم[٢].

٥) **وكان ﷺ يغشى مخالفيه في دورهم.** فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَا بَيْتَ الْمِدْرَاسِ فَقَامَ رسول الله ﷺ فَنَادَاهُمْ: "**يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا**" فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ لهم رسول الله: ذَلِكَ أُرِيدُ، ثُمَّ قَالَهَا الثَّانِيَةَ، فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: "**اعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ للهِ وَرَسُولِهِ وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِيَكُمْ فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا الْأَرْضُ للهِ وَرَسُولِهِ**"[٣].

٦) وكان ﷺ يأمر بصلة القريب وإن كان غير مسلم فقال لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: "صِلِي أُمَّكِ"[٤]. ولما تأسس المجتمع الإسلامي الأول وعاش في كنفه اليهود بعهد مع المسلمين وكان ﷺ غاية في الحلم معهم والسماحة في معاملتهم حتى نقضوا العهد وخانوا رسول الله ﷺ، أما من يعيشون بين المسلمين يحترمون قيمهم ومجتمعهم وحذر رسول الله ﷺ من ظلم المعاهدين أو انتقاصهم فقال ﷺ: "**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"[٥].

وشدد الوعيد على من هتك حرمة دمائهم فقال ﷺ: "**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ**

---

(١) الترمذي (٢٧٣٩)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٢٧٧).

(٢) البخاري (٢٦١٧).

(٣) البخاري (٦٩٤٤)، مسلم (١٧٦٥) بنحوه.

(٤) البخاري (٢٦٢٠)، مسلم (١٠٠٣).

(٥) أخرجه أبو داود (٣/ ٤٩٧/ ٣٠٤٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٠٥/ ١٨١١)، عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء الصحابة عن آبائهم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٥٥).

الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"[١]. وقال ﷺ لأصحابه: "إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا"[٢].

صور من سماحة الصحابة والتابعين في معاملة غير المسلمين: تاريخ الإسلام شاهد على أن المسلمين لم يكرهوا أحدا في أي فترة من فترات التاريخ على ترك دينه، فالإسلام دين العقل والفطرة ولا يقبل من أحد أن يدخله مكرها، تحدى الأولين والآخرين بمعجزته الخالدة، ولم يعرف في تاريخ المسلمين الطويل أنهم ضيقوا على اليهود والنصارى أو غيرهم أو أنهم أجبروا أحدا من أي طائفة من الطوائف اليهودية أو النصرانية على اعتناق الإسلام. يقول توماس آرنولد: "لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي"[٣].

ولقد كان عهد الخلفاء الراشدين امتدادا لعهد النبي ﷺ وشهد صورا من سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين من إعانتهم بالمال أو النفس عند الحاجة، ومن كفالة العاجز منهم عن العمل أو كبير السن، وغير ذلك. وهذا هو عين ما سار عليه الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم في صدر الإسلام في معاملتهم لأهل الذمة، وأسوق هنا بعض الشواهد والأمثلة التي تبين سماحة الصحابة رضي الله عنهم في معاملة غير المسلمين.

١) في خلافة أبي بكر رضي الله عنه كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه في عقد الذمة لأهل الحيرة بالعراق- وكانوا من النصارى -: "وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه؛ طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله"[٤].

---

(١) البخاري (٣١٦٦)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٦١/ ١١١)، وعبد الرزاق في مصنفه (١٩٣٧٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٣)، وصححه، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٧٤).

(٣) سماحة الإسلام نقلًا عن كتاب ((الدعوة إلى الإسلام)) لـ توماس آرنولد.

(٤) انظر: سماحة الإسلام.

إن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا يرضى أن يذل رجل من أهل الذمة وهو يحيا في كنف الإسلام فيعيش على الصدقة يتكفف الناس ولكن الإسلام يحميه ويكرمه ويوجب على الدولة أن تعوله وتعول عياله.

٢) وكان أبو بكر ﷺ يوصي الجيوش الإسلامية بقوله: "وستمرون على قوم في الصوامع رهبانا يزعمون أنهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم "[(١)].

٣) وأوصى عمر ﷺالخليفة من بعده بأهل الذمة أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم[(٢)].

٤) ومر عمر بن الخطاب ﷺ بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ[(٣)] له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه[(٤)].

٥) ومن السماحة أن يراعى في معاملتهم كل مصلحة وقصد صحيح فعن عبد الله بن قيس قال: كنت فيمن تلقى عمر بن الخطاب مع أبي عبيدة مقدمه من الشام فبينما عمر يسير إذ لقيه (المُقَلِّسون)[(٥)] من أهل أذرعات بالسيوف والريحان فقال عمر ﷺ: مه ردوهم وامنعوهم فقال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين هذه سنة العجم أو كلمة نحوها وإنك إن تمنعهم

---

(١) فتوح الشام للواقدي (١/ ٨)، باب: وصية أبي بكر.

(٢) البخاري (١٣٩٢).

(٣) معنى رضخ: أعطاه عطاءً غير كثير القاموس المحيط (١/ ٣٧٤/ مادة رضخ).

(٤) كتاب الخراج لأبي يوسف (صـ١٢٦).

(٥) هم الذين يلعبون بين يدي الأمير إذا وصل البلد انظر ((النهاية)) (٤/ ١٠٠).

منها يروا أن في نفسك نقضا لعهدهم فقال: دعوهم، عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة[١].

٦) وعن مجاهد قال: كنت عند عبد الله بن عمرو ﷺوغلامه يسلخ شاة فقال: "يا غلام، إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي، فقال رجل من القوم اليهودي: أصلحك الله؟ قال: سمعت النبي ﷺ يوصي بالجار حتى خشينا أو رؤينا أنه سيورثه "[٢].

٧) وفي خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتب إلى عدي بن أرطأة: وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه[٣].

٨) وعندما أمر عمر بن عبد العزيز مناديه ينادى: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، قام إليه رجل ذمي من أهل حمص فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي. والعباس جالس، فقال له عمر: يا عباس ما تقول؟ قال: نعم أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلا، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى، فقال عمر: نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد قم فاردد عليه ضيعته فردها عليه ثم تتابع الناس في رفع المظالم إليه[٤].

٩) وفي عهد الرشيد كانت وصية القاضي أبي يوسف له بأن يرفق بأهل الذمة حيث يخاطبه بقوله: "ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ من أموالهم إلا بحق يجب عليهم"[٥].

---

(١) كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام (صـ١٦٦)، وهذه الجملة الأخيرة تواضع من عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين للحق الذي قاله أمير الجيوش أبو عبيدة بن الجراح، فلله درهم من رجال!

(٢) الأدب المفرد (٦٢/ رقم ١٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم (٩٥).

(٣) الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام صـ٥٠.

(٤) البداية والنهاية (٩/ ٢٣٩).

(٥) الخراج، أبو يوسف صـ١٢٥.

بمثل هذه المعاملة ساد المسلمون الأوائل وكانت معاملتهم محط إعجاب مخالفيهم فشهدوا لهم بالسمو في أخلاقهم والتسامح في معاملتهم.

سماحة الإسلام في المعاملة في كتابات غير المسلمين:

منذ فجر الدعوة الإسلامية كانت شهادة الخصوم ظاهرة بيِّنة إذ رأوا من سماحة هذا الدين وتيسيره ما بهر عقولهم وأخذ بألبابهم ورأوا من سلوك أهله ما دعاهم إليه، فاستجابت نفوس الكثيرين إليه وإلى أهله وإن لم يؤمنوا به، فدون التاريخ شهاداتهم له ولأهله بحسن المعاملة والسماحة العظيمة، فمن ذلك:

١) ما كتبه نصارى الشام في صدر الإسلام حيث كتب النصارى في الشام سنة ١٣هـ إلى أبي عبيدة بن الجراح ﷺ يقولون: "يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا"(١).

واستمر هذا النهج في معاملة غير المسلمين عبر تاريخ الإسلام.

٢) ففي الوقت الحاضر يعيش طوائف عديدة من النصارى في بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب العربي وهي شاهد على سماحة الإسلام جعلت المستشرق الإنجليزي توماس آرنولد يقول: "إن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح"(٢).

ويقول أيضا: "لما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني تمتعوا وخاصة في المدن بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة".

٣) وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: "العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها سمح لهم جميعًا دون أي عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم وترك

---

(١) انظر: سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين فقد نقل هذا النص عن فتوح البلدان للبلاذري.

(٢) انظر: المصدر السابق فقد نقل هذه النصوص عن قائلها من كتابه ((الدعوة إلى الإسلام)).

المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى، أوليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟ ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ وبعد فظائع الأسبان واضطهاد اليهود. إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا أنفسهم في شئون تلك الشعوب الداخلية. فبطريرك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريرك القسطنطينية عن العرب: إنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة وهم لا يستخدمون معنا أي عنف"(١).

٤- **ويقول المستشرق ديورانت:** "لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية في هذه الأيام". (٢)

ثانيًا: السماحة في التجارة وقضاء الحق: وهذا أيضًا من سمات الدين الإسلامي حيث حث ﷺ على السماحة في البيع والشراء فقال: "رَحِمَ الله رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى"(٣).

وهذا النص يشمل التعامل مع المسلم وغير المسلم، وفي هذا الحديث الحض على السماحة في المعاملة واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحة، والحث على ترك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم(٤).

كما رغب وحث ﷺ على السماحة في القرض وإنظار المعسر فقال: "تَلَقَّتْ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَقَالُوا: أَعَمِلْتَ مِنْ الْخَيْرِ شَيْئًا؟ قَالَ: آمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا

---

(١) سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين. عبد الله بن إبراهيم اللحيدان. نقلًا عن كتاب: ((شمس العرب تسطع على الغرب)).

(٢) انظر: كتاب (سماحة الإسلام))، نقلًا عن (قصة الحضارة)، تأليف/ ول ديورانت.

(٣) البخاري (٢٠٧٦).

(٤) فتح الباري (٤/ ٣٥٩).

المُعْسِرَ وَيَتَجَوَّزُوا عَنْ المُوسِرِ، قَالَ: فَتَجَاوَزُوا عَنْهُ"[١].

وهذا دليل على أن السماحة اشتملت أمورًا كثيرة منها المجال الاقتصادي في البيع والشراء وهو أمر يتجدد يوميًا، مما يفصح أن التسامح ليس من الأمور النادرة بل يتجدد كل حينٍ.

ثالثًا: السماحة في درء الحدود: ينعق المعادون للإسلام بأن الحدود في الإسلام فيها شدة وهدر للدماء وتخلّف في تنمية الموارد البشرية، فليعلم هؤلاء أن إقامة الحدود الشرعية لا تنفذ إلا في نطاق محدود، فقد يظن بعض الناس أن إقامة الحدود في الإسلام كإقامة الصلاة في كثرتها، والحق أن أحكام الشريعة الإسلامية تعد بالمئات لكن عدد الحدود التي تقام هي سبعة: الحرابة (قطع الطريق)، والردة، والبغي، والزنا، والقذف، والسرقة، وشرب الخمر، وإذا نفذت فإنه لا يمكن ذلك إلا بعد مراحل وشروط[٢].

وهذا من تمام حكمة الله تعالى ورحمته أنه لم يأخذ الجناة بغير حجة، كما لم يعذبهم في الآخرة إلا بعد إقامة الحجة عليهم، وجعل الحجة التي يأخذهم بها، إما منهم وهي الإقرار، أو ما يقوم مقامه من إقرار الحال وهو أبلغ وأصدق من إقرار اللسان. . . وإما أن تكون الحجة من خارج عنهم، وهي البينة، واشترط فيها العدالة، وعدم التهمة، فلا أحسن في العقول والفطر من ذلك، ولو طلب منا الاقتراح لم تقترح أحسن من ذلك، ولا أوفق منه للمصلحة[٣].

وها هي أمثلة تبين هذا الأمر وتوضحه، فعلى قلة تنفيذ الحد لهذه الجريمة فإنه منذ أن نزل حد الزنا لم نسمع في تاريخ أمة الإسلام أن أُقيم حد الزنا بتوافر أربعة شهود، وكذلك لم تحد امرأة حتى لو تمت عليها الشهادة كما في الملاعنة إذا لم تقر بهذه الجريمة فقد ثبت أن النبي ﷺ لم يقم الحد على المرأة في قصة الملاعنة وذلك: أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ؟ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: **الْبَيِّنَةَ أو حَدٌّ**

---

(١) البخاري (٢٠٧٧)، مسلم (١٥٦٠).

(٢) سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين/ تأليف: حكمت بن بشير بن ياسين.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (٢/ ١٠٣).

فِي ظَهْرِكَ؟ فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ فَلَيُنْزِلَنَّ الله مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَجَاءَ هِلَالٌ فَشَهِدَ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ الله يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ، ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ، فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَقَّفُوهَا وَقَالُوا إِنَّهَا مُوجِبَةٌ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَلَكَّأَتْ وَنَكَصَتْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ فَمَضَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَبْصِرُوهَا؛ فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ سَابِغَ الْأَلْيَتَيْنِ خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ فَهُوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ الله لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ"**[(١)].

وحتى لو ثبتت جريمة الزنا بالاعتراف وأقيم حد الرجم فإن هذا الزاني الذي يرجم لو طلب منهم التوقف عن ذلك لإدلاء ما عنده ما يدفع عنه فينبغي أن يوقف الرجم ويُسمع منه هل ما يقوله يعتد به أم لا؟

وقد صح أن ماعز بن مالك فرّ حين وجد مسّ الحجارة ومسّ الموت فقال رسول الله ﷺ: **"هَلَّا تَرَكْتُمُوهُ لَعَلَّهُ أَنْ يَتُوبَ فَيَتُوبَ الله عَلَيْهِ"**[(٢)]؟. وفي رواية: "فلما وَجَدَ مَسَّ الْحِجَارَةِ صَرَخَ بِنَا يَا قَوْمُ رُدُّونِي إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَإِنَّ قَوْمِي قَتَلُونِي وَغَرُّونِي مِنْ نَفْسِي وَأَخْبَرُونِي أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ غَيْرُ قَاتِلِي فَلَمْ نَنْزِعْ عَنْهُ حَتَّى قَتَلْنَاهُ فَلَمَّا رَجَعْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَأَخْبَرْنَاهُ قَالَ: **"فَهَلَّا تَرَكْتُمُوهُ وَجِئْتُمُونِي بِهِ لِيَسْتَثْبِتَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْهُ"**[(٣)].

وإذا وُجد أن أحد المسلمين له رغبة في الوقوع في هذه الجريمة أو ينوي فعلها فإنه ينصح ولا يؤخذ بنيته ولا يعاقب عليها.

ولقد استخدم النبي ﷺ منهاجًا فريدًا في نصح الشاب الذي رغب في الزنا فأراد أن

---

(١) البخاري (٤٧٤٧).

(٢) أبو داود (٤٤١٨)، وقال الألباني: إسناده حسن على شرط مسلم، الإرواء ٧/ ٣٥٧.

(٣) أبو داود (٤٤١٩)، وقال الألباني: إسناده جيد، الإرواء ٧/ ٣٥٤.

يستأذن النبي ﷺ فقال له: "**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ**، قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: **وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**، قَالَ: **أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ**؟ قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: **وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**، قَالَ: **أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ**؟ قَالَ: لَا، وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: **وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**، قَالَ: **أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ**؟ قَالَ: لَا، وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: **وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ** قَالَ: **أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ** قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: **وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: **اللهمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ**"[١].

وفي هذا الحديث تتجلى السماحة النبوية حيث لم تعاقب ذلك الشاب ولم تعنفه. مع أن الصحابة أرادوا أن يزجروه وينهروه عن ذلك لكن تلك السؤالات التي ألقاها المصطفى ﷺ على ذلك الشاب كانت درسًا عظيمًا له ولمن سمع تلك السؤالات.

وكذلك حينما يقع الشخص في بعض المحرمات، فإن الأصل قبل الحد الستر عليه، وذلك عند شرب الخمر أو عندما يرى الزنى. فالقاعدة حديث رسول الله ﷺ: "**مَنْ سَتَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"[٢].

وكذلك أيضًا تدرء الحدود بالشبهات، وهي قاعدة فقهية مشهورة، وفي ذلك أثر صحيح عن ابن مسعود موقوفًا: "ادرءوا الجلد والقتل عن المسلمين ما استطعتم"[٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَنَادَاهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي زَنَيْتُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حَتَّى رَدَّدَ عَلَيْهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ دَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: "**أَبِكَ جُنُونٌ**" قَالَ: لَا قَالَ: "**فَهَلْ أَحْصَنْتَ**" قَالَ نَعَمْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**اذْهَبُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ**"[٤].

و لما أتاه ماعز بن مالك يعترف له بالزنا قال له: "**لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ أَوْ غَمَزْتَ أَوْ نَظَرْتَ**"

---

(١) أحمد (٥/ ٢٥٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٧٥).

(٢) أحمد (٢/ ٥٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٧).

(٣) سنن البيهقي الكبرى (٨/ ٢٣٨). وقال: هذا موصول. وحسن إسناده الألباني في الإرواء٨/ ٢٩.

(٤) البخاري (٦٨١٥)، مسلم (١٦٩١) عن أبي هريرة.

قَالَ: لَا يَا رَسُولَ الله قَالَ: "**أَنِكْتَهَا**" لَا يَكْنِي قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ بِرَجْمِهِ[١].

وفي رواية مسلم قال: جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، طَهِّرْنِي فَقَالَ: "**وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرْ الله وَتُبْ إِلَيْهِ**" قَالَ فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله طَهِّرْنِي فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "**وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرْ الله وَتُبْ إِلَيْهِ**" قَالَ فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله طَهِّرْنِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ الرَّابِعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ الله: "**فِيمَ أُطَهِّرُكَ**" فَقَالَ مِنْ الزِّنَى فَسَأَلَ رَسُولُ الله ﷺ: "**أَبِهِ جُنُونٌ؟**" فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ فَقَالَ: "**أَشَرِبَ خَمْرًا؟**" فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "**أَزَنَيْتَ**" فَقَالَ: نَعَمْ "**فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ**. . . "[٢].

ويستفاد من الحديث أنه لا يمكن إقامة الحد إلا بعد الاعتراف أربع مرات تعادل أربعة شهود، وأن الإمام يتأكد من سلامة عقل المعترف، وفيه أيضًا السماحة بقوله: ارجع فاستغفر الله وتب إليه.

---

(١) البخاري (٦٨٢٤). سيأتي هذا الحديث في الشبهات فلتراجع.

(٢) مسلم (١٦٩٥).

المبحث السادس: الحقوق الإسلامية

المطلب الأول: مقدمة عامة عن الحقوق ومزايا هذا الدين الإسلامي.

إن قضية "الحقوق "، أشغلت العالم اليوم بجميع أممه ودوله ولا تزال، وهي قضية كبرى، جديرة بالبحث والدراسة، من وجهة النظر الشرعية الإسلامية، ذلك أن تسلط العالم الغربي، وفرض هيمنته الفكرية والإعلامية على كثير من دول العالم، وبخاصة العالم العربي والإسلامي، أدى إلى ضياع المفهوم الإسلامي لهذه القضية وغيرها، وأوجد انطباعًا لدى الناس بأنه لا طريق لنيل الحقوق إلا من خلال التبعية المقيتة لذلك العالم الغربي، والدخول طوعًا أوكرهًا ضمن أحلافه ومنظوماته، وتحمّل أصناف المهانة، من أجل الحصول على هذه الحقوق.

لقد أصل الدين الإسلامي قضية الحقوق تأصيلًا شرعيًا متكاملًا، يتبين من خلال هذا الأمر أن مفهوم "الحقوق" يتضمن أربعة أمور أساسية هي: **النص الشرعي، والقواعد أو المبادئ، وتنظيم العلاقات، والوجوب أو الإلزام**، وبتطبيق هذه الأسس على ما جاء من آيات الحقوق في القرآن الكريم، نجد أن مفهوم "الحقوق " في القرآن، يشتمل على هذه الأمور نفسها، ولنأخذ مثالًا لذلك، آيات الحقوق في آخر سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام ١٥١: ١٥٣).

وتطبيق الأسس الأربعة على النحو الآتي:

١) **النص الشرعي**: وهو هذه الآيات القرآنية الجامعة.

٢) القواعد والمبادئ التي تتضمنها النصوص: فالآيات تتضمن حقوقًا كثيرة منها: حق الله، حق الوالدين، حق الحياة، حق اليتيم، حق الذمي وغير ذلك مما بينته الآيات.

٣) تنظيم علاقات الناس: فهذه القواعد جاءت لضبط حياة الناس في علاقة بعضهم ببعض، فهي تنظم علاقة الفرد بوالديه وأولاده وسائر فئات المجتمع، بل حتى مع المخالف في الدين، فله حق الوفاء بالعهد ونحوه.

٤) الوجوب والإلزام في تطبيق هذه المبادئ: فهذه المطالب جاءت بصيغة الأمر من الله تعالى، وهو في الأصل يقتضي الوجوب كما قرره أهل العلم، إضافة إلى أن الآيات الثلاث تضمنت في خاتمة كل واحدة منها؛ تأكيد الوجوب بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾: أي أمركم به وأوجبه عليكم.

قال ابن كثير: يقول تعالى: هذا أوصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه. [(١)]

كما أن هذه الحقوق هي واجبات شرعية ملزمة، فهي عبادات يؤجر على فعلها، ويحاسب على تضييعها، وهي تنظم في مجموعها علاقات الناس ومعاملاتهم وحياتهم الاجتماعية، فأصحاب هذه الحقوق هم فئات مختلفة من المجتمع مثل: الآباء والأمهات، الأيتام، الجيران، الأبناء، المرأة، وهكذا.

ومن جهة أخرى: ترتبط هذه الحقوق بالضرورات، التي جاءت الشرائع بحفظها، ذلك أن مصالح الناس الدنيوية والأخروية، إنما تكون بحفظ مقاصد الشريعة ومنها هذه الضرورات، فهي من الدين المشترك بين الأنبياء، ويدل على هذا قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ (المائدة: ٤٥)، وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٠-١٦١)

---

(١) تفسير ابن كثير٦/ ٢١٥.

وفي هذا دلالة واضحة على أن كافة الشرائع، جاءت بحفظ تلك الضرورات، وهي قاعدة عظيمة لحفظ حقوق الأفراد والمجتمعات العامة والخاصة، ففي حفظ الدين مثلًا، إعطاء لحق التدين والعبادة، وفي حفظ النفس منح لحق الإنسان في الحياة، وفي حفظ النسل، تأكيد لحق الإنسان في التزوج، وحفظ المال يتضمن حق الإنسان في التملك والسعي في الأرض وممارسة أنواع المعاملات كالبيع والشراء والشراكة والتجارة، ونحوها، وحفظ العقل فيه حق الحرية في التفكير والتدبر، وهكذا. ومما يؤصل مسألة "الحقوق " في القرآن والسنة، كثرة الفئات التي راعى القرآن والسنة حقوقها، إضافة إلى تعدد أنواع الحقوق، كما سنبين بالتفصيل.

من خلال ما سبق بيانه في مفهوم "الحقوق " وتأصيله في القرآن الكريم، يمكن أن نستشف معالم مهمة، وخصائص مميزة، لمبادئ "الحقوق في الدين الإسلامي" فمن ذلك:

١) أن مصدرها الوحي المتمثل في القرآن والسنة النبوية، فهي منحة ربانية، أوجبها الله للإنسان، فهي ليست من مخلوق لبشر مثله، يمنّ بها عليه متى شاء، أو يمنعها إذا شاء، كلاّ، بل هي فرض لازم وحق واجب، من الخالق سبحانه لبني الإنسان. وقد أشارت الآيات إلى هذا في عدة مواضع كما تقدم في مثل قوله تعالى: (ذلكم وصاكم به) وقوله: (فريضة من الله) وقوله: (وقضى ربك) وغيرها.

٢) أنها تنبع من التكريم الإلهي للإنسان، الذي أكدته النصوص القرآنية الصريحة الواضحة، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠) وغيرها. ولذا فإن القيام بهذه الحقوق، هو جزء من دين المسلم وعبوديته لله تعالى، وأمر مستقر في فطرة الإنسان التي فطره الله عليها.

٣) أنها شاملة لجميع أنواع الحقوق: الاجتماعية، والمالية، والسياسية، والشخصية، وغيرها، كما أنها عامة لكل أصناف المجتمع، ولجميع أفراده، حتى المخالفين منهم، كما تقدم ذكره آنفًا.

٤) أنها ثابتة لا تقبل الإلغاء ولا التبديل ولا التغيير، لأنها جزء من الدين، ولأنها فرض من رب العالمين، الذي حفظ دينه عامة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ

لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ فهو باقٍ إلى قيام الساعة، وهو صالح لكل زمانٍ ومكان، بينما وثائق البشر عرضة للنقض والتعديل في كل وقت وحين.

٥) أنه يترتب على أدائها الجزاء والثواب، وعلى التقصير فيها: الحساب والعقاب، ذلك أنها واجبة ملزمة، يؤكد ذلك بجلاء قول النبي: "لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء "(١).

٦) أنها أحيطت بضمانات لحمايتها من الانتهاك، تتلخص في: أ) إقامة الحدود الشرعية، التي من مقاصدها: المحافظة على حقوق الأفراد، وحفظ الضرورات الخمس.

ب) تحقيق العدالة المطلقة التي أوجبها الله على عباده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾. إلى غير ذلك من الخصائص التي تميز منهج "الحقوق في الدين الإسلامي"، وتؤكد تفرده بالصلاحية المطلقة: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٨). (٢)

المطلب الثاني: ذكر بعض هذه الحقوق بشيء من التفصيل، وهي كما يلي:

١- حق الله تعالى على العباد.

٢- حق النبي ﷺ على أمته

٣- حق الأنبياء والمرسلين.

٤- حق القرآن.

٥- حقوق آل البيت.

٦- حق العلماء.

٧- حق الحاكم.

٨- حق الحياة.

---

(١) مسلم (٢٥٨٢).

(٢) انظر: المنهج الأخلاقي وحقوق الإنسان في القرآن الكريم د/ يحيى بن محمد حسن زمزمي.

٩- حقوق الوالدين.

١٠- حقوق الزوج.

١١- حق المرأة.

١٢-حق الطفل.

١٣- حق الميت على أهله.

١٤- حق الأخوة.

١٥- حق الجنين.

١٦-حق الجسد.

١٧- حق المريض.

١٨- حق اللسان.

١٩- حق اليتيم.

٢٠- حق الضيف.

٢١- حق الجوار.

٢٢ - حق الخادم والمملوك.

٢٣- حق الدواب

٢٤ - حقوق الطريق.

٢٥- حق اللجوء.

٢٦- حقوق الذميين.

واليك تفصيلها.

١ـ حق الله تعالى على العباد

وهذا الحق هو أعظم الحقوق على الإطلاق، وأجلها قدرًا، وهو يدور على أصلين:

الأول: توحيده ﷻ. الثاني: عبادته سبحانه لا شريك له. فعَنْ مُعَاذٍ ﷺقَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، ، فَقَالَ: **يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ الله عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟** قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى الْعِبَادِ؛ أَنْ يَعْبُدُوهُ؛ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى الله أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: **لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**"[(١)].

قال ابن حجر: قَوْله (أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا): الْمُرَاد بِالْعِبَادَةِ عَمَلُ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابُ الْمَعَاصِي وَعَطَفَ عَلَيْهَا عَدَمَ الشِّرْكِ لِأَنَّهُ تَمَامُ التَّوْحِيدِ، وَالْحِكْمَةُ فِي عَطْفِهِ عَلَى الْعِبَادَة أَنَّ بَعْضَ الْكَفَرَةِ كَانُوا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الله وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَةً أُخْرَى فَاشْتَرَطَ نَفْي ذَلِكَ، والمراد من حق الله على عباده، ما يستحقه الله على عباده مما جعله عليهم، وقال القرطبي: وحق الله على العباد هو ما وعدهم به من الثواب وألزمهم إياه بخطابه[(٢)].

أولًا: توحيد الله سبحانه وتعالى: أعلى وأغلى الحقوق على الإطلاق، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، هذا مع قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، وبذلك يكون معنى (لا إله إلا الله) أي: لا معبود بحق إلا الله.

قال الإمام البقاعي: (لا إله إلا الله) أي: انتفى انتفاءً عظيمًا أن يكون معبودًا بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علمًا إذا كان نافعًا، وإنما يكون نافعًا إذا كان الإذعان والعمل بما تقتضيه، إلا فهو جهل

---

(١) البخاري (٢٨٥٦)، مسلم (٣٠).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٤٧)، وانظر: شرح النووي (١/ ٢٦٧: ٢٦٦).

صرف، وقد دل كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ على أن العقيدة الصحيحة تتلخص في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، فهذه الأمور الستة هي أصول العقيدة الصحيحة[1].

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (البقرة: ١٧٧)، وفي حديث جبريل: **(الْإِيمَانِ أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)**[2]. وهذه الأصول الستة يتفرع عنها جميع ما يجب على المسلم اعتقاده في حق الله سبحانه، وفي أمر المعاد وغير ذلك من أمور الغيب.

والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور:

١ـ الإيمان بوجود الله: فوجود الله سبحانه وتعالى من البداهات التي يدركها الإنسان بفطرته ويهتدي إليها بطبيعته، وليس من مسائل العلوم المعقدة، ولا من حقائق التفكير العويصة، ولولا أن شدة الظهور قد تلد الخفاء، ولقتراب المسافة جدًا قد يعطل الرؤية ما اختلف على ذلك مؤمن ولا ملحد﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠).

٢ـ الإيمان بربوبيته: ومعنى الرب: أي: الخالق والمالك والمدبر، فهذا معنى ربوبية الله ﷻ، ولا يغني واحد من هذه الثلاثة عن الآخر، فهو الخالق الذي أوجد الأشياء من عدم﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (البقرة: ١١٧)، والمالك أي: خالق الخلق وانفرد بملكه له، كما انفرد بخلقه له، كذلك أيضًا منفرد بالتدبير، فهو المدبر لجميع الأمور، وهذا بإقرار المشركين فإنهم إذا سئلوا من يدبر الأمور؟ فسيقولون: الله، فهو المنفرد بالتدبير﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ (السجدة: ٥).

(١) الحقوق الإسلامية (٢٩).

(٢) البخاري (٤٤٣١)، مسلم (٨).

٣ـ الإيمان بألوهيته: الإيمان بأنه سبحانه هو الإله الحق، وأنه لا يشاركه أحد في هذا الحق لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولهذا كانت دعوة الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم هي الدعوة إلى قول (لا إله إلا الله)، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل٣٦)، ولو أن أحدًا آمن بوجود الله وآمن بربوبيته، ولكنه يعبد مع الله غيره فلا يكون مؤمنًا حتى يفرده سبحانه بالألوهية.

٤ـ الإيمان بأسمائه وصفاته: الواردة في كتابه العزيز والثابتة عن الرسول الأمين ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل يجب أن تمر كما جاءت بلا كيف مع الإيمان بما دلت عليه هذه المعاني العظيمة التي هي أوصاف الله ﷻ، يجب وصفه بها على الوجه اللائق به من غير أن يشابه خلقه في شئ من صفاته، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى١١)، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ (النحل٧٤).

الأمر الثاني: **من حقوق الله علينا**: **عبادته سبحانه لا شريك له**: والعبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار، والمنافقين، والإحسان إلي الجار، واليتيم والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله.

ذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له التي خلق الخلق لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات٥٦)، وبها أرسل جميع الرسل، وذم

المستكبرين عن عبادته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ (غافر٦٠)، والدين كله داخل في العبادة، وقد ثبت في الصحيح، أن جبريل لما جاء إلي النبي ﷺ في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام قال: **"الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا"**، وفي قوله: "قال ما الإحسان؟ قال: **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** "، ثم قال في حديث آخر (**هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم**)[1]. فجعل هذا كله من الدين، والدين يتضمن معنى الخضوع، والذل، يقال: دنته فدان، أي: أذللته فذل، يقال يدين الله ويدين لله أي: يعبد الله ويطيعه ويخضع له.

فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له وتتضمن العبادة معنى الذل والحب بغاية المحبة له[2].

٢- حق النبي ﷺ على أمته

١ـ الإيمان به ﷺ: فالإيمان به من أركان الإيمان التي يجب على المسلم الإيمان بها، ومن هذه الأركان الإيمان بالرسل، وهو رسول من أولئك الرسل عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم، قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ (التغابن: ٨)، وقد أخبر بوجوب الإيمان به فقال: **" أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"**[3].

ومن الإيمان به التصديق الجازم الذي لاشك فيه بأن رسالته ونبوته هي حق من عند الله تعالى، والعمل بمقتضى ذلك، والتصديق بأن كل ما جاء به من الدين وما أخبر به عن الله تعالى حق صحيح، ولابد من تصديق ذلك بالقلب واللسان، فلا يكفي الإيمان به باللسان، والقلب مُنْكِر لذلك، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (النساء: ١٣٦).

٢ـ محبته ﷺ: وهذا حق من حقوقه على أمته، وواجب عليهم أيضًا، فينتفي الإيمان

---

(١) البخاري (٤٧٧٧)، مسلم (٨).

(٢) وقد فصلنا الكلام على هذا الحق في مقدمة هذه الموسوعة تحت المبحث الثاني (الإسلام وبيان معناه).

(٣) البخاري (٢٥)، مسلم (٢٠).

بعدم محبة النبي ﷺ، فقد أوجب الله محبة نبيه في كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤). وقال ﷺ: "**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**"[(١)]. وقال ﷺ: "**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**"[(٢)].

٣ـ **طاعته ﷺ وامتثال أمره**: طاعته ﷺ واجبة بكتاب الله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ (محمد: ٣٣)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (الأنفال: ٢٠).

قال ابن كثير: يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به والمعاندين له، وأن لا يتركوا طاعته ﷺ، بل امتثلوا أمره، واتركوا زواجره بعدما علمتم ما دعاكم إليه من الحق، قال ﷺ: " كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قيل: يا رسول الله، ومن يأبى، قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى "[(٣)].

وقال ﷺ: " ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته ويقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه"[(٤)].

ومما يدل على عظم شأن طاعته أن الله تعالى قرن طاعته سبحانه بطاعة نبيه فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠). وقال ﷺ: " **من أطاعني فقد أطاع الله**

---

(١) البخاري (١٥).

(٢) البخاري (١٦).

(٣) البخاري (٧٢٨٠).

(٤) أحمد ٤/ ١٣٠، وأبو داود (٤٦٠٤) بسند صحيح، وصححه الألباني في الجامع الصغير (٤٤٠٨).

ومن عصاني فقد عصى الله "[١].

ولابد من الحذر كل الحذر من مخالفة أمره وأن ذلك مما يحبط الأعمال ويوجب النيران، فقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ (الجن: ٢٣)، فمن طاعته التمسك بسنته وما أمر به واجتناب ما نهى عنه والابتعاد عنه والاهتداء بهديه، والالتزام بنظافة الثوب والبدن، وتحري الصدق في الأقوال والأفعال، وطلب الحلال في المأكل، والمشرب، والملبس، والنكاح، واجتناب الحرام في ذلك.

وغير ذلك من الأمور التي ينبغي على المسلم متابعتها والعمل بها مما أمر بها النبي، واجتناب ما نهى عنه من أعمال وأفعال قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧)، وقال: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فانتهوا "[٢].

٤ـ اتباعه ﷺ: ومما يجب على المؤمن اتباع نبيه، واتباعه ﷺ يكون في الاعتقاد والقول، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)، فلا بد للمسلم من اتباع هدي نبيه، واقتفاء آثره والعمل بما جاء به من قول وفعل.

وقال ابن رجب الحنبلي: وقوله: " **فإنه من يعش منكم بعدي، فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ** "[٣]، هذا إخبار منه بما سيقع في أمته بعده من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه وفي الأعمال والأقوال والاعتقادات، ويجب على المسلم رد كل قول لقوله، وترك كل تشريع لشرعه والإعراض عن كل ما خالف هديه في القول والعمل والاعتقاد، والأخذ بكل ما صح عنه وثبت نسبته إليه فهو ﷺ أعلم الناس بربه تعالى وأخشاهم وأتقاهم له فيجب التمسك بما جاء به واتباع ذلك بلا تردد ولا شك لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى وإنما يعلمه ربه عز وجل،

---

(١) البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٢) مسلم (١٣٣٧).

(٣) أبو داود (٤٦٠٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٧).

فالواجب على المؤمن اتباع النبي ﷺ في العقيدة والعبادة والسلوك فهذا هو طريق النجاة يوم القيامة بإذن الله تبارك وتعالى ومن خالف ذلك فسيلقي به إلى النار والعياذ بالله[1].

٥ـ الاقتداء به ﷺ: قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ (الأنعام: ٩٠)، فلقد أمر الله جل وعلا نبيه بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء والرسل. وأمرنا نحن باتباع النبي والاقتداء به فقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ (الأحزاب: ٢١)، أي أن لكم فيه قدوة صالحة في أفعاله وأقواله فاقتدوا به، فمن اقتدى به وتأس به سلك الطريق الموصل إلى كرامة الله وهو الصراط المستقيم، فهو ﷺ الأسوة الحسنة التي يوفق للاقتداء بها من كان يرجو الله واليوم الآخر، لما معه من الإيجار والخوف من الجبار سبحانه، ولما يرجو من ثواب ربه، وما يخشاه من عقابه وعذابه، فكل ذلك حافز، ودافع للاقتداء به في أقواله وأفعاله وأحواله.

٦ـ توقيره ﷺ **وتعظيم شأنه**: توقيره من آكد حقوقه على أمته قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾ (الفتح: ٨ – ٩) فيجب توقيره ﷺ وإجلاله وتعظيمه، كما ينبغي له ذلك على ألا يُرفع إلى مقام العبودية فإن ذلك محرم لا يجوز ولا ينبغي إلا لله ﷻ. ومن توقيره ﷺ تعظيم شأنه احترامًا، وإكبارًا لكل ما يتعلق به من اسمه وحديثه، وسنته وشريعته، وآل بيته، وصحابته – رضوان الله عليهم– وكل ما اتصل به ﷺ من قريب أو بعيد. فيُرفع من قدره حتى لا يساويه ولا يدانيه أحد من الناس. فمن توقيره ﷺ عدم التقدم بين يديه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (الحجرات: ١) أي لا تقولوا قبل قوله وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا، فلا يحل لأحد أن يسبقه بالقول ولا برأي ولا بقضاء بل يتعين عليهم أن يكونوا تابعين له ﷺ. وقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) جامع العلوم والحكم الحديث (٢٨) ص٤٥٩.

ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ (الحجرات: ٢)، فهذا نهي من الله ﷻ بعدم رفع الصوت عند مخاطبة النبي، ولا يجهر المخاطب له بالقول بل يخفض الصوت ويخاطبه بالأدب ولين الجانب ويخاطبه بالتعظيم والتكريم والإجلال والإعظام.

٧ـ وجوب النصح له ﷺ: قال ابن رجب[1]: وأما النصيحة للرسول في حياته فبذل المجهود في طاعته ونصرته ومعاونته وبذل المال إذا أراده والمسارعة إلى محبته، وأما بعد موته، فالعناية بطلب سنته والبحث عن أخلاقه وآدابه وتعظيم أمره ولزوم القيام به وشدة الغضب والإعراض عمن يدين بخلاف سنته والغضب على من صنعها لأثرة دنيا وإن كان متدينًا بها، وحب من كان منه بسبيل من قرابة، أو صهر، أو هجرة، أو نصرة، أو صحبة ساعة من ليل أو نهار على الإسلام والتشبه به في زيه ولباسه، والإيمان به وبما جاء به، ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه. . . . . ونحو ذلك.

ومن النصيحة له ﷺ الذب عن شريعته وحمايتها بألا يزيد فيها أحد ما ليس فيها، أو أن ينتقصها أحد، فيحارب أهل البدع القولية والفعلية والعقدية، كل حسب بدعته، وكذلك احترام أصحابه وتعظيمهم ومحبتهم، لأنهم خير القرون فلا يجتمع حب رسول الله والنصح له وبغض أصحابه أو أحد منهم، فمن سب الصحابة فقد قدح في الدين، لأنهم هم الذين بلغوا دين الله ﷻبعد وفاة نبيه وفي ذلك قدح لله ﷻوسب له، وتشكيك في حكمته تعالى، فالله جل وعلا قد اختار لنبيه ولحمل دينه من هم أهل لذلك لأن الله تعالى تكفل بحفظ دينه، وهيئ له من العلماء من يبلغوه إلى الناس، فالأمة لا تجتمع على ضلالة. فمن النصح له محبة أصحابه لأنهم هم الذين بلغوا عنه هذا الدين، فرضي الله عنهم أجمعين. فاللهم صلي وسلم وزد وبارك على نبينا محمد ما غرد طير وصاح، وصلي على محمد ما أظلم ليل وأشرق صباح.

---

(١) جامع العلوم والحكم الحديث السابع.

٨ـ محبة أهل بيته وصحابته ﷺ: إن محبة أهل بيت رسول الله، ومحبة أصحابه ﷺ، كل ذلك من محبته، وهي محبة واجبة فمن أبغض أحدًا من أهل بيت النبي أو أحدًا من صحابته الكرام ﷺ، فقد أبغض النبي ﷺ، لأن محبته مقرونة بمحبتهم. قال ﷺ: **"أذكركم الله في أهل بيتي"**[(١)]. وقال ﷺ لأم سلمة: **" لا تؤذيني في عائشة "**[(٢)].

وقوله في صحابته: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ "[(٣)].

وقوله: **" لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل جبل أحد ذهبًا ما بلغ من أحدهم ولا نصيفه "**[(٤)].

٩ـ الصلاة عليه ﷺ: ومن حقه على أمته أن يصلوا عليه كلما ذكر ﷺ، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦)

قال ابن كثير: أي أن الله تعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلي عليه ثم أمر أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع عليه الثناء عليه من أهل العالَمِين: العلوي والسفلي جميعًا[(٥)].

فالصلاة والسلام عليه واجبة على كل مؤمن ومؤمنة لما في ذلك من الأجر العظيم من الله ﷻ ولما في ذلك أيضًا من طاعة لله تعالى عندما أمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه.

قال النووي: إذا صلي على النبي فليجمع بين الصلاة والتسليم - أي ليقل عليه الصلاة والسلام - مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

وعن ابن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها

---

(١) مسلم (٢٤٠٨).

(٢) البخاري (٢٥٨١).

(٣) الترمذي ٢٦٧٦، أبو داود (٤٦٠٧)، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة (٩٣٧).

(٤) البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٦٨).

عشرًا "[١].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصلي عليّ[٢].

٣ـ حق الأنبياء والمرسلين

١-الإيمان بهم: فالإيمان بالأنبياء والمرسلين أصل من أصول الإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٨٤).

والكفر بهم كفر بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ (النساء: ١٣٦)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ (النساء١٥٠: ١٥١).

٢ـالإيمان بمعجزاتهم: المعجزة: هي الأمر الخارق للعادة، يظهره الله تعالى على يد من يشاء من عباده مقرونةً بالتحدي عند دعوى النبوة، هذا وقد أيد الله تعالى كل رسول منهم بمعجزات خارقة للعادة، كناقة صالح ونار إبراهيم، وعصا موسى ويده البيضاء، وفلق البحر وتفجير الماء من الحجر، وكإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى، وكانشقاق القمر لسيدنا محمد ﷺ، ونبع الماء من يده الشريفة، وتكثير الطعام والشراب، وتكليم الجمادات له صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٣ـالاعتقاد بعصمتهم: حياة الأنبياء تحلق في مستوى من الكمال لا تهبط عنه أبدًا، والمؤمن من عامة الناس تتذبذب حرارته في مدارج الارتقاء، ويعتبر الحد الأسمى الذي يقف عنده هو مقام الإحسان وهو (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، بيد أن مقام الإحسان

---

(١) مسلم (٣٨٤).

(٢) الترمذي (٣٥٤٥)، صحيح الترمذي (٢٨١٠).

وهو آخر ما يصل إليه الناس بعد الجهد والمران، هو المرتبة الدنيا للأفق الذي يعيش فيه الأنبياء، إذ يستحيل في حقهم أن يسقطوا دونه، وقد قرر علماء المسلمين أن العصمة واجبة لرسل الله كافةً، فلا يليق أن تصدر عن أحدهم كبيرة لا قبل البعثة ولا بعدها(١).

٤ـ **الشهادة لهم بأنهم قد بلغوا أممهم**: قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

قال القرطبي: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطًا، أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: " يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ فَيَقُولُ هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ فَيُقَالُ لأُمَّتِهِ هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ فَيَقُولُ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وأُمَّتُهُ فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٢).

٥ـ **الإيمان بالكتب المنزلة عليهم**: إن معنى الإيمان بالكتب الإلهية الذي هو جزء من عقيدة المؤمن: التصديق الجازم بما أوحى الله تعالى من كلامه الخاص إلى من اصطفى من رسله عليهم السلام، فجمع ودون فكان صحفًا مطهرةً، وكتبًا قيمةً، فما عرف منها آمن به المؤمن تفضيلًا، وما لم يعرف آمن به إجمالًا، والمصدر الوحيد الذي يرجع إليه في معرفة الكتب الإلهية بالتفضيل هو القرآن الكريم وحده، إذ هو الكتاب المحفوظ حفظًا، لا يتطرق إليه معه الزيادة والنقص ولا التحريف ولا التغيير أو التبديل بحال من الأحوال.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر٩)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾

---

(١) عقيدة المسلم (٢٠٧).

(٢) البخاري (٣٣٣٩).

(الحديد: ٢٥)، وقال ﷻ: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ (البقرة: ٢١٣).

٦ـ**محبتهم، وإزالة الشبهات التي افتريت عليهم**: من علامات المحبة لأنبياء الله ورسله: إماطة اللثام عما دار حولهم من مفتريات وأوهام، فلقد تعرض الأنبياء على مر العصور والدهور لحملات غاشمة ظالمة، وألصقت بهم التهم، ودارت حولهم مفتريات في محاولة شيطانية صهيونية للنيل من مكانهم، والحط من شأنهم، ولم يسلم نبي من ذلك حتى رسولنا الأمين ﷺ ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ (فصلت: ٤٣).

٤ـ حق القرآن

أولًا: **فضل تلاوة القرآن وحملته**: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (فاطر: ٢٩-٣٠). وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**". [١]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "**مثل الذي يقرأ القرآن؛ وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ وهو عليه شديد فله أجران**". [٢]

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر**". [٣]

ثانيًا: **حقوق القرآن الكريم**: ولهذا الكتاب حقوق علينا ينبغي أن نعلمها ونراعيها مع القرآن الكريم

---

(١) البخاري (٥٠٢٧).

(٢) البخاري (٤٩٣٧)، مسلم (٧٩٨).

(٣) البخاري (٥٠٥٩)، مسلم (٧٩٧).

١ـ الإيمان به: فالإيمان بالكتب المنزلة أصل من أصول الإيمان، فمن كفر بكتاب منزل كفر كفرًا يخرجه من الملة والعياذ بالله. قال ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥). وقال ﷻ ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٥٣)

ونؤمن بأن القرآن الكريم كلام الله منه بدأ وإليه يعود بلا كيفية قولًا، وأنزله على رسوله وحيًا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقًا وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر حيث قال ﷻ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥﴾ (المدثر: ٢٥). علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه بقول البشر. [١]

٢ـ مراعاة آداب تلاوته:

ولتلاوة القرآن آداب ظاهرة وباطنة، فمن الآداب الظاهرة للتلاوة:

الأول: في حال القارئ: وهو أن يكون على الوضوء واقعًا على هيئة الأدب والسكون إما قائمًا وإما جالسًا مستقبل القبلة مطرقًا رأسه ولا متكئ ولا جالس على هيئة التكبر.

الثاني: في مقدار القراءة: وللقراءة عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار فمنهم من يختم القرآن في اليوم والليلة مرة وبعضهم مرتين وانتهى بعضهم إلى ثلاث ومنهم من يختم في الشهر مرة. . . . ، والتفصيل في مقدار القراءة أنه إن كان من العابدين السالكين طريق العمل فلا ينبغي أن ينقص عن ختمتين في الأسبوع، وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أومن المشتغلين بنشر العلم فلا بأس أن يقتصر في الأسبوع على مرة، وإن كان نافذ الفكر في معاني القرآن فقد يكتفي في الشهر بمرة لكثرة حاجته إلى كثرة الترديد والتأمل.

الثالث: في كتابة القرآن: يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه.

الرابع: الترتيل: هو المستحب في هيئة القرآن؛ لأن المقصود من القراءة التفكر والترتيل

(١) انظر: شرح الطحاوية (ص- ١٦٨).

مُعِينٌ عليه، وقال ابن عباس ﷺ: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرًا، واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضًا الترتيل والتؤدة لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرًا في القلب من الهذرمة والاستعجال.(١)

الخامس: **البكاء**: وهو مستحب مع القراءة، وقد ثبت ذلك عن النبي ﷺ لما قرأ عليه عبد الله بن مسعود ﷺ من أول سورة النساء حتى وصل إلى قوله ﷻ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ (النساء: ٤١). وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فمن الحزن ينشأ البكاء،. . . . ، ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب.

السادس: **أن يراعي حق الآيات**: فإذا مر بآية سجدة سجد، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالي، ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة.

السابع: **في الجهر بالقراءة**: ولا شك في أنه لا بد أن يجهر به إلى حد يسمع نفسه، إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف،. . . . ، والإسرار أبعد عن الرياء والتصنع فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته أيضًا تتعلق بغيره فالخير المتعدي أفضل من اللازم، ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه، ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله.(٢)

الثامن: **أن يقول**: **أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**: لقوله ﷻ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٢) المصدر السابق (١/ ٤٢٩-٤٣١).

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾، وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر. . . ، قال حذيفة: صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، وإذا مر بآية فيها تسبيح سبح وإذا مر بسؤال سأل. [(١)]

التاسع: تحسين القراءة وترتيلها: بترديد الصوت بلا تمطيط مفرط يغير النظم لقوله ﷺ: **" ليس منا من لم يتغن بالقرآن"**[(٢)]، واستمع ﷺ مرة إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه فقال: **لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير داود.** [(٣)]

ومن الآداب الباطنة: الأول: فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه حيث أوصل إليهم معاني كلامه بكل يسر وسهولة.

الثاني: التعظيم للمتكلم، فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه، عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف غشيَ عليه ويقول: هو كلام ربي هو كلام ربي.

الثالث: حضور القلب وترك حديث النفس. . . . ، قيل لبعضهم: إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشيء؟ فقال: أو شيء أحب إليّ من القرآن حتى أحدث به نفسي؟.

الرابع: التدبر: وهو وراء حضور القلب؛ قال علي رضي الله عنه: لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي قوله تعالى ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨). [(٤)]

الحق الثالث: العمل به وتطبيق أحكامه: فلقد أنزل الله الكتاب بالحق والميزان ليقوم الناس بالقسط. . . وليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. . . وفرض على المسلمين ما فيه

---

(١) مسلم (٧٧٢).

(٢) البخاري (٧٥٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٥٠٤٨)، مسلم (٧٩٣).

(٤) ابن ماجه (١٣٥٠) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١١٠).

من أحكام، قال ﷻ: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (المائدة: ٤٩).

٥ـ حقوق آل البيت عليهم السلام

اختلف أهل العلم في تعريف من هم آل البيت وأصح ما قيل في ذلك قولان الأول: من تحرم عليهم الصدقة وهو منصوص الشافعي وأحمد وجمهور أصحابها.

والقول الثاني: أن آل النبي ﷺ هم ذريته وأزواجه خاصة[1].

لآل البيت عند أهل السنة والجماعة حقوق وواجبات:

١- منها: حق الموالاة والمحبة، فتجب محبتهم لإيمانهم، وتجب محبتهم لقرابتهم من رسول الله ﷺ؛ حيث قال النبي ﷺ: **"أذكركم الله في أهل بيتي"**[2]، ولقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ٢٣﴾ (الشورى: ٢٣).

وهذه الآية لها معنيان: أحدهما السابق، والآخر: أن تحبوني لقرابتي فيكم؛ فإنه لا يخلو بطن في قريش إلا وله صلة قرابة به ﷺ.

٢- ومنها: حق الدفاع عنهم، وتبرئة ساحتهم مما ينسب إليهم كذبًا وزورًا، والدفاع عنهم لا يعني مجرد الرد على من يسبهم، بل يشمل ذلك، ويشمل الرد على من غلا فيهم، وأنزلهم فوق منزلتهم؛ فإن ذلك يؤذيهم.

٣-ومنها: مشروعية الصلاة عليهم، وذلك في عقب الأذان، وفي التشهد آخر الصلاة، وعند الصلاة على النبي ﷺ فقد جاء في هذا عدة نصوص؛ كما جاء في الحديث لما سئل النبي عن كيفية الصلاة عليه في الصلاة؟ قال: (قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم في العالمين إنك حميدٌ مجيد، والسلام كما قد علمتم)[3].

---

(١) انظر: جلاء الأفهام (ص ٣٢٥).

(٢) مسلم (٢٤٠٨).

(٣) البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٥).

فالصلاة على آله من تمام الصلاة عليه وتوابعها؛ لأن ذلك مما تقرُّ به عينه، ويزيده الله به شرفًا وعلوًا.

٤- ومن حقوق آل البيت عند أهل السنة، حقهم من الخُمس، كما قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)﴾ (الأنفال: ٤١) وقوله تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)﴾ (الحشر: ٧)، لكنّ أهل السنة -بخلاف الشيعة- يقولون: إنهم يعطون من خمس الغنائم، وليس من خمس الأموال، فليس في الإرث خمس، وكذا في المسكن والسيارة وغيرها؛ لأن الله يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ (الأنفال: ٤١) فقال: مِنْ شَيْءٍ ولم يقل: من أموالكم. ففي الخمس سهم خاص بذي القربى، وهو ثابت لهم بعد وفاة رسول الله ﷺ، وهو قول جمهور العلماء، وهو الصحيح.

قال ابن تيمية: "فآل بيت النبي لهم من الحقوق ما يجب رعايتها؛ فإن الله جعل لهم حقًا في الخمس والفيء، وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله"[(١)].

٥- ومنها: اليقين الجازم بأن نسب رسول الله وذريته هو أشرف أنساب العرب قاطبة؛ فإن النبي ﷺ يقول: "إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"[(٢)].

٦- ومن هذه الحقوق: تحريم الزكاة والصدقة عليهم؛ وذلك لكرامتهم وتنزيههم عن الأوساخ؛ فقد قال رسول الله: "إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس، وإنها لا تحل

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٠٧).

(٢) مسلم (٢٢٧٦).

لمحمد ولا لآل محمد"[١].

قال ابن تيمية: "وأما تحريم الصدقة فحرمها عليه وعلى أهل بيته تكميلًا لتطهيرهم، ودفعًا للتهمة عنه؛ كما لم يورث، فلا يأخذ ورثته درهمًا ولا دينارًا"[٢].

٦ـ حق العلماء

إن مكانة العلماء في الإسلام مكانة عالية وغالية، فلقد رفع الإسلام شأنهم، وأعلى قدرهم، وصان حقهم، نطقت بذلك آيات القرآن والأحاديث والآثار.

فمن الآيات: قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (آل عمران: ١٨)، وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

ومن الأحاديث: ١-عن معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: **"من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين"**.[٣]

٢-وعن أبي الدرداء ﷺ: قال رسول الله ﷺ: **" فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"**.[٤]

ومن الآثار: سئل ابن المبارك: من الناس؟ فقال: العلماء، قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قال: فمن السفلة؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: العلماء أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهو يحفظونهم من نار الآخرة.[٥]

---

(١) مسلم (١٠٧٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ٣٠).

(٣) البخاري (٧١)، مسلم (١٠٣٧).

(٤) الترمذي (٢٦٨٢)، ابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٢).

(٥) موسوعة الحقوق الإسلامية (٦٤٤-٦٤٥).

وعليه فحقوق العلماء علينا كثيرة نذكر منها الآتي:

الحق الأول: أن نحفظ مكانتهم، ونتأدب معهم: فالتأدب مع العلماء من تعظيم العلماء تعظيم لشعائر الله وقد قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢)، والشعيرة: هي كل ما اشعر الله بتعظيمه من أعلام الدين وتوقير حملته وحماته فهذا من توقير الله ﷻ، وقد قال ﷻ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (نوح: ١٣)، قال سعيد بن جبير: "ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته". [١]

وهذه جملة من الآداب التي ينبغي أن نتحلى بها مع العلماء: ليكن شيخك محلَّ إجلال منك وإكرام وتقدير وتلطف، فخذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه، والتحدث إليه، وحسن السؤال والاستماع وحسن الأدب في تصفح الكتاب أمامه ومع الكتاب، وترك التطاول والمماراة أمامه، وعدم التقدم عليه بكلام أو مسير أو إكثار الكلام عنده، أو مداخلته في حديثه ودرسه بكلام منك، أو الإلحاح عليه في جواب، متجنبا الإكثار من السؤال، لاسيما مع شهود الملأ، فإن هذا يوجب لك الغرور وله الملل.

ولا تناده باسمه مجردًا، أو مع لقبه كقولك: يا شيخ فلان! بل قل: يا شيخي أو شيخنا! فلا تسمه، فإنه أرفع في الأدب ولا تخاطبه بتاء الخطاب، أو تناديه من بعد من اضطرار، وانظر ما ذكره الله تعالى من الدلالة على الأدب مع معلم الناس الخير ﷺ في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ (النور: ٦٣) والتزم توقير المجلس، وإظهار السرور من الدرس والإفادة به، وإذا بدا لك خطأ من الشيخ، أو وهم فلا يسقطه ذلك من عينك، فإنه سبب لحرمانك من علمه، ومن ذا الذي ينجو من الخطأ سالمًا؟). [٢]

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: " إن من حق العالم ألا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته في الجواب وأن لا تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ولا نفشين له سرًا ولا

(١) حرمة أهل العلم (١٩٧) تأليف (محمد إسماعيل المقدم).

(٢) المجموعة العلمية، تأليف / بكر أبو زيد صـ ١٦٢.

تغتابن عنده أحدًا ولا تطلبن عثرته وإن زل قبلت معذرته وعليك أن توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله وإن كان له حاجه سبقت القوم إلى خدمته". [١]

ولقد ضرب السلف الصالح أروع الأمثلة في تحقيق هذا الحق والأدب، منها قول الشافعي ﷺ: " كنت أتصفح الورقة بين يدي مالك رحمه الله صفحًا رقيقًا هيبة له لئلا يسمع وقعها ". وقبل ذلك ما كان يفعله الصحابة ﷺ مع بعضهم البعض.

الحق الثاني: كف ألسنتنا عن الوقوع فيهم: الجناية على العلماء خرق في الدين، فمن ثم قال الطحاوي في عقيدته: (وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين – أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر – لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء، فهو على غير السبيل). قال ابن المبارك: (من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته). وقال أبوسنان الأسدي: إذا كان طالب العلم قبل أن يتعلم مسألة في الدين يتعلم الوقيعة في الناس، متى يفلح؟!. ، وقال الإمام أحمد بن الأذرعي: الوقيعة في أهل العلم ولا سيما أكابرهم من كبائر الذنوب. [٢]

وقال ابن عساكر: اعلم يا أخي وفقني الله وإياك لمرضاته، وجعلني وإياك ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته: أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب، بلاه الله قبل موته بموت القلب ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ (النور: ٦٣). والطاعنون في العلماء لا يضرون إلا أنفسهم، وهم يستجلبون لها بفعلتهم الشنيعة أخبث الأوصاف ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾. وهم مفسدون في الأرض، وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (يونس: ٨١). وهم عرضة لحرب الله تعالى،

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٢٩).

(٢) انظر: حرمة أهل العلم لمحمد بن إسماعيل المقدم (ص- ٣١٩).

القائل في الحديث القدسي: " **من عادى لي وليًا، فقد آذنته بالحرب** "[١]. وذكر المفسرون في قوله ﷻ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (التوبة ٦٥: ٦٦). فعن ابن عمر رضي الله عنه أن رجلًا من المنافقين قال في غزوة تبوك: ما رأيت مثل هؤلاء القوم أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عن اللقاء يعني رسول الله ﷺ والمؤمنين! فقال واحد من الصحابة: كذبت ولأنت منافق. ثم ذهب ليخبر رسول الله ﷺ فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وكان قد ركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به الطريق، وكان يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ولا يلتفت إليه وما يزيده عليه.[٢]

٧ـ حق الحاكم

إن الله ﷻ قد جعل للحاكم حقوق واجبة تجاه الرعية من هذه الحقوق:

وجوب طاعته في المعروف: قال الله ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء: ٥٩). وأولي الأمر الذين أمرنا بطاعتهم هم الأمراء والولاة وقيل هم العلماء أي أهل العلم والفقه إذ يشترط للأمير أن يكون على علم أو يستعين بالعلماء.[٣]

وقال ﷺ: " **من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني** ".[٤]

وقال ﷺ: " **عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثره**

---

(١) البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر حرمة أهل العلم ص-٣٢٠.

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٣٣٣).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ١٤٧)، وفتح الباري (١٣/ ١١٩).

(٤) أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

عليك ولو استعمل عليكم عبد حبشيًا يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا ". [١]

وهذه الأحاديث في الحث على السمع والطاعة في جميع الأحوال وسببها اجتماع كلمة المسلمين فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم، لذا أجمع العلماء على وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وعلى تحريمها في المعصية لقوله ﷺ " **عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثره عليك** " معناه تجب طاعة ولاة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصية فإن كانت لمعصية فلا سمع ولا طاعة، وقوله ﷺ " **وأثره عليكم** " الأثرة بفتح الهمزة والثاء ويقال: بضم الهمزة وإسكان الثاء وبكسر الهمزة وإسكان الثاء ثلاث لغات وهي الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا عليكم أي اسمعوا وأطيعوا وإن اختص الأمراء بالدنيا ولم يوصلكم حقكم مما عندهم، قال أبو ذر (إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبدًا مجدع الأطراف)[٢] يعني مقطوعها والمراد: أخس العبيد أي أسمع وأطيع للأمير وإن كان دنيء النسب حتى لو كان عبدًا أسود مقطوع الأطراف فطاعته واجبه.

وتجوز إمارة العبد إذا ولاه بعض الأئمة أو إذا تغلب على البلاد بشوكته وأتباعه ولا يجوز ابتداء عقد الولاية له مع الاختيار بل شرطها الحرية. [٣]

وقال ﷺ " أنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها، قالوا: يا رسول الله، كيف تأمر من أدرك ذلك منا؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم ". [٤]

وعن سعيد بن حضير أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، استعملت فلانًا ولم تستعملني، قال: " **إنكم سترون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني على الحوض** ". [٥]

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٨)، وأبو داود (١٨٣٤).

(٢) مسلم (١٨٣٧)، وابن ماجه (٢٨٦٣).

(٣) شرح مسلم للنووي (٦/ ٤٦٥-٤٦٩).

(٤) البخاري (٣٦٠٣)، ومسلم (١٨٤٣).

(٥) البخاري (٣١٦٣)، ومسلم (١٠٥٩).

ومن الحقوق الواجبة على الراعي أن يعلم المقصود من الولاية: إن المقصود الواجب بالولايات إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسرانا مبينا ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا وإصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم وهو نوعان: قسم المال بين مستحقيه، وعقوبات المعتدين فمن لم يعتد أصلح له دينه ودنياه ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول " إنما بعثت عمالي إليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ويقيموا بينكم دينكم " فلما تغيرت الرعية من وجه والرعاة من وجه تناقضت الأمور، فإذا اجتهد الراعي في إصلاح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان كان من أفضل أهل زمانه وكان من أفضل المجاهدين في سبيل الله، فالمقصود أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الله اسم جامع لكلماته التي تضمنها كتابه وهكذا قال الله ﷻ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥).

فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله وحقوق خلقه ثم قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ (الحديد: ٢٥)، فمن عدل عن الكتاب قوم بالحديد ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف.(١)

ومتى اهتم الولاة بإصلاح دين الناس صلح للطائفتين دينهم ودنياهم وإلا اضطربت الأمور عليهم وملاك ذلك كله حسن النية للرعية وإخلاص الدين كله لله والتوكل عليه فإن الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة كما أمرنا أن نقول في صلاتنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ فإن هاتين الكلمتين قد قيل إنهما يجمعان معاني الكتب المنزلة من السماء وقد روي أن النبي ﷺ كان مرة في بعض مغازيه فقال: "يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين " فجعلت الرءوس تندر عن كواهلها، وقد ذكر ذلك في غير موضع

---

(١) السياسة الشرعية (٢٩-٣١).

من كتابه كقوله "فاعبده وتوكل عليه " وقوله تعالى ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ وكان النبي ﷺ إذا ذبح أضحيته يقول " **اللهم منك ولك**".

وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة، ثلاثة أمور: أحدهما: الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن.

الثاني: الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة.

الثالث: الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ولهذا جمع الله بين الصلاة والصبر في كتابه في آيات منها ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (البقرة: ٤٥). وقوله ﷻ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ (هود: ١١٤-١١٥). فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة.

ومن حق الحاكم على رعيته: إكرامه وتعظيمه وتقديره: قال ﷺ: **" إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط".** (١)

وعن زياد بن كسيب العدوي قال: كنت مع أبي بكرة تحت منبر ابن عامر وهو يخطب وعليه ثياب رقاق فقال أبو بلال: انظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفساق فقال أبو بكرة: اسكت سمعت رسول الله ﷺ يقول**"من أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة ومن أهان سلطان الله في الدنيا أهانه الله يوم القيامة ".** (٢)

فمن أكرم سلطان الله أي بالطاعة له فيما أمر الله تعالى فيه بطاعته والإضافة في سلطان الله أضافه تشريف كبيت الله وناقة الله ومن أهان سلطان الله في الأرض أهانه من أهان من

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٣)، وراجع صحيح الجامع (٢١٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢)، والترمذي (٢٢٢٤)، وقال: حسن غريب، صحيح الجامع (٣٣٥٢).

أعزه الله وألبسه خلعة السلطنة أهانه الله. (١)

ومن حقه أن لا تخرج عليه الرعية وأن لا ينازعوا الأمر أهله: فعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثره علينا وعلى أن لا ننازع الأمر أهله قال: إلا أن تروا كفرا بواحًا عندكم من الله فيه برهان. (٢)

ففي قوله ﷺ: "وأن لا ننازع الأمر أهله " دليل على حرمة منازعة الأئمة والسلاطين والخروج عليهم إلا أن نرى منهم كفرًا بواحًا، فلا يحل منازعة ولاة الأمور في ولايتهم ولا يعترض عليهم إلا أن نرى منهم منكرًا محققًا نعلمه من قواعد الإسلام فإذا وجد ذلك صح الإنكار عليهم، وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقه ظالمين. (٣)

ومن حقه على الرعية: عدم عزله إلا لأمر شرعي: فالإمام صالح للولاية ولا يعزل من ولايته ولا يسعى في عزله لذا أجمع العلماء أنه لا ينعزل السلطان ولو بالفسق، وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه.

لذا أجمع جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: أنه لا ينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق ولا يخلع ولا يجوز الخروج عليه بذلك بل يجب وعظه وتخويفه. (٤)

ومن حق الحاكم على رعيته (النصح له): قال ﷺ: **"الدين النصيحة "** قلنا لمن قال: **"لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم "**. (٥)

والنصيحة كلمة جامعه معناها حيازة الحظ للمنصوح له، ويقال هو من وجيز الأسماء ومختصر الكلام وليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفي بها العبارة عن معنى هذه الكلمة

---

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ٣٩٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٠٩).

(٣) شرح مسلم للنووي (٦/ ٤٧٠).

(٤) شرح مسلم للنووي (٦/ ٤٧٠).

(٥) أخرجه مسلم (٩٥).

كما قالوا في الفلاح: ليس في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منه وقيل: النصيحة مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا أخاطه فشبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسده من خلل الثوب وقيل إنها مأخوذة من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع ومعنى الحديث: عماد الدين وقوامه النصيحة كقوله ﷺ " **الحج عرفه** " أي عماده ومعظمه عرفه، والنصيحة لأئمة المسلمين معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين وترك الخروج عليهم وتألف قلوب الناس لطاعتهم، ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم والجهاد معهم وأداء الصدقات إليهم وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة وأن لا يغزوا بالثناء الكاذب عليهم وأن يدعي لهم بالصلاح وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات.[(١)]

من الحقوق الواجبة على الولاة أن يقسموا الأموال كما أمر الله ورسوله:

فليس لولاة الأموال أن يقسموها بحسب أهوائهم كما يقسم المالك ملكه فإنما هم أمناء ونواب ووكلاء ليسوا ملاكا كما قال رسول الله ﷺ: "**إني والله لا أعطي أحدًا ولا أمنع أحدًا وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت** ".[(٢)]

فهذا رسول رب العالمين قد أخبر أنه ليس المنع والعطاء بإرادته واختياره كما يفعل ذلك المالك الذي أبيح له التصرف في ماله وكما يفعل ذلك الملوك الذين يعطون من أحبوا وإنما هو عبد الله يقسم المال بأمره فيضعه حيث أمره الله تعالى، وهكذا قال رجل لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين لو وسعت على نفسك في النفقة من مال الله تعالى فقال له عمر: أتدري ما مثلي ومثل هؤلاء كمثل قوم كانوا في سفر فجمعوا منهم ما لا وسلموه إلى واحد ينفقه عليهم فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم من أموالهم، وحمل مرة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه مال عظيم من الخمس فقال: إن قومًا أدوا الأمانة في هذا لأمناء فقال بعض

(١) شرح مسلم للنووي (٦/ ٣١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٩).

الحاضرين إنك أديت الأمانة إلى الله تعالى فأدوا إليك الأمانة ولو رتعت رتعوا، وينبغي أن يعرف أن أولي الأمر كالسوق ما نفق فيه جلب إليه هكذا قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: فإن نفق فيه الصدق والبر والعدل والأمانة جلب إليه ذلك وإن نفق فيه الكذب والفجور والجور والخيانة جلب إليه ذلك، والذي على ولي الأمر أن يأخذ المال من حله ويضعه في حقه ولا يمنعه من مستحقه وكان علي بن أبي طالب ﷺ إذا بلغه أن بعض نوابه ظلم يقول: اللهم إني لم آمرهم أن يظلموا خلقك أو يتركوا حقك. (١)

ومن حق الحاكم جواز أخذ ما يكفيه من بيت المال لقيامه بمصالح المسلمين: فعن عبد الله بن السعدي أنه قدم على عمر في خلافته فقال له عمر ألم أحدث أنك تلي من أعمال الناس أعمالًا فإذا أعطيت العمالة كرهتها فقلت بلى فقال عمر: ما تريد إلى ذلك قلت إن لي أفراسًا وأعبدًا وأنا بخير وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين قال عمر لا تفعل فإني كنت أردت الذي أردت فكان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه أفقر إليه مني حتى أعطاني مرة مالًا فقلت أعطه أفقر إليه مني فقال النبي ﷺ: **"خذه فتموله وتصدق به فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه وإلا فلا تتبعه نفسك".** (٢)

وقال الله ﷻ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ (التوبة: ٦٠)، وفي هذه الآية والحديث الدليل الواضح على أن من اشتغل بشيء من أعمال المسلمين أخذ الرزق على عمله ذلك كالولاة والقضاة وجباة الغني وعمال الصدقة وشبههم لإعطاء رسول الله ﷺ عمر العمالة على عمله، وكان شريح القاضي يأخذ على القضاء أجرًا، وقال عمر: إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة مال اليتيم إن استغنيت منه استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف. (٣)

وعن عائشة ﵂ قالت: " لما استخلف أبو بكر الصديق قال: لقد علم قومي أن

---

(١) السياسة الشرعية صـ ٣٥-٣٧.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٦٣).

(٣) مصنف ابن أبي شيبه (٦/ ٤٦٠)، وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ١٦١).

حرفتي لم تكن تعجز عن مؤونة أهلي وشغلت بأمر المسلمين فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال وأحترف للمسلمين فيه "[١].

وفي كل هذا دليل على أنه للحاكم الحق في أخذ ما يكفيه وأهله من بيت المال ولكن بالمعروف. [٢]

ومن الحقوق الواجبة على الراعي تجاه الرعية: (**استعمال الأصلح**): إن النبي ﷺ لما فتح مكة وتسلم مفاتيح الكعبة من بني شيبة طلبها منه العباس ليجمع له بين سقاية الحاج وسدانة البيت، فيجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل قال النبي ﷺ: **" من ولي من أمر المسلمين شيئًا فولي رجال وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله "** وفي رواية **" من قلد رجلًا عملًا على عصابة وهو يجد في تلك العصابة أرضى منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين"**. [٣]

وروي بعضهم أنه من قول عمر لابن عمر روى ذلك عنه وقال عمر بن الخطاب ﷺ " من تولى من أمر المسلمين شيئًا فولى رجلًا لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين " وهذا واجب عليه فيجب عليه البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار من الأمراء الذين هم نواب ذي السلطان والقضاة من أمراء الأجناد ومقدمي العساكر الصغار والكبار وولاة الأموال من الوزراء والكتاب والسعاة على الخراج والصدقات وغير ذلك من الأموال التي للمسلمين، وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب، ويستعمل أصلح من يجده، وينتهي ذلك إلى أئمة الصلاة، والمؤذنين، والمقرئين، والمعلمين، وأمير الحاج، والبرد، والعيون، الذين هم القصاد، وخزان الأموال، وحراس الحصون، والحدادين الذين هم البوابون على الحصون، والمدائن، ونقباء العساكر الكبار، والصغار، وعرفاء القبائل، والأسواق، ورؤساء القرى الذين هم الدهاقين، فيجب على كل من ولى شيئا من أمر المسلمين من هؤلاء وغيرهم

---

(١) البخاري (٢٠٧٠).

(٢) فتح الباري (١٣/ ١٥٩-١٦٣).

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ١٠٤)، وقال: صحيح الإسناد.

أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو سبق في الطلب بل ذلك سبب المنع فإن في الصحيحين عن النبي ﷺ **" أن قومًا دخلوا عليه فسألوه ولاية فقال: إنا لا نولي أمرنا هذا من طلبه "**. (١) وقال ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: **" يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها"**. (٢)

فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لأجل قرابة بينهما أو ولاء عتاقة أو صداقه أو غير ذلك من الأسباب أو لضغن في قلبه على الأحق أو عداوة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهي عنه في قولهﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾، ثم قال: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الأنفال: ٢٧-٢٨)، فإن الرجل لحبه لولده أو لعتيقه قد يؤثره في بعض الولايات أو يعطيه ما لا يستحقه فيكون قد خان أمانته كذلك قد يؤثره زيادة في ماله أو حفظه بأخذ ما لا يستحقه أو محاباة من يداهنه في بعض الولايات فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته. (٣)

ومن الحقوق الواجبة على الراعي تجاه الرعية (اختيار الأمثل فالأمثل): إذا كان في غير وجود الحاكم من هو صالح لتلك الولاية فيختار الأمثل فالأمثل في كل منصب بحسبه وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام وأخذه للولاية بحقها فقد أدى الأمانة وقام بالواجب في هذا وصار في هذا الموضع من أئمة العدل والمقسطين عند الله وإن إختل بعض الأمور بسبب من غيره إذا لم يكن إلا ذلك فإن الله يقول ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ (التغابن: ١٦). ويقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقال في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٣٠)، ومسلم (١٧٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٢٨)، ومسلم (١٦٥٢).

(٣) السياسة الشرعية صـ١٣-١٤.

الجهاد ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (النساء: ٨٤)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ (المائدة: ١٠٥).

فمن أدى الواجب المقدور عليه فقد اهتدى وقال النبي ﷺ: **"إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم"**.[1]

لكن إن كان منه عجز ولا حاجة إليه أو خيانة عوقب على ذلك وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب فإن الولاية لها ركنان: القوة، حو الأمانة كما قال تعالى ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ (القصص: ٢٦)

وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾، وقال تعالى في صفة جبريل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾ (التكوير: ١٩-٢١)، والقوة في كل ولاية بحسبها والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام، والأمانة ترجع إلى خشية الله وألا يشتري بآياته ثمنًا قليلًا وترك خشية الناس وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله على كل حكم على الناس في قوله تعالى ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).

من حقوق الرعية على الراعي (مشاورتهم): من المعلوم أنه لا غنى لولي الأمر عن المشاورة فإن الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ فقال تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ (آل عمران: ١٥٩). وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: " لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ "، وقد قيل: أن الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه وليقتدي به من بعده وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحروب والأمور الجزئية وغير ذلك فغيره ﷺ أولى

(١) مسلم (١٣٣٧).

بالمشورة، وقد أثنى الله على المؤمنين بذلك في قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (الشورى: ٣٦ - ٣٨).

وإذا استشارهم فإن بين له بعضهم ما يجب إتباعه من كتاب الله أو سنة رسوله أو إجماع المسلمين فعليه اتباع ذلك ولا طاعة لأحد في خلاف ذلك وإن كان عظيمًا في الدين والدنيا قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾. وإن كان أمرًا قد تنازع فيه المسلمون فينبغي أن يستخرج من كل منهم رأيه ووجه رأيه فأي الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله عمل به كما قال ﷻ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

وأولي الأمر صنفان الأمراء والعلماء وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس فعلى كل منهما أن يتحرى ما يقوله ويفعله طاعة الله ورسوله وإتباع كتاب الله.[١]

من الحقوق التي تجب على الرعية (وجوب اتخاذ إمام): فيجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين إلا بها فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي ﷺ: "**إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم**".[٢]

وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: "**لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم**"[٣] فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهًا بذلك على سائر أنواع الاجتماع ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف، والنهي عن

---

(١) السياسة الشرعية (ص١٦٥-١٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٠٨)، وابن حبان (٥/ ٥٠٤)، وراجع صحيح الجامع (٥٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٤٥): رواه أحمد، والطبراني (٩/ ١٨٥)، وفيه ابن لهيعه حديثه حسن، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.

المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجُمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة ولهذا روي " **أن السلطان ظل الله في الأرض** " ويقال: " ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان"، والتجربة لما ذكر جور الولاة فقال: " **أدوا إليهم الذي لهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم** " وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " **كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وأنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء ويكثرون قالوا فما تأمرنا فقال أوفوا ببيعة الأول فالأول ثم أعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم**"[(١)].

وفيهما عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ " **إنكم سترون بعدي أثرة وأمور تنكرونها** قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله قال: "**أدوا إليهم حقهم واسألوا الله حقكم**"[(٢)] [(٣)] ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض، وأحمد بن حنبل، وغيرهما يقولون " لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان "، وقال النبي ﷺ: " **إن الله يرضى لكم ثلاثة: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم** ". [(٤)]

وقال ﷺ: " **ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم** ". [(٥)]

فالواجب اتخاذ الإمارة دينا وقربة يتقرب بها إلى الله فإن التقرب غليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربان. [(٦)]

٨ـ حق الحياة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (١٨٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٤٤)، ومسلم (١٧٠٩).

(٣) السياسة الشرعية صـ ٣٤-٣٥.

(٤) أخرجه مسلم (١٧١٥)، وأحمد (٢/ ٣٢٧).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٣)، وابن ماجه (٢٣٠)، وصححه الألباني في المشكاة (٣١/ ٣٢).

(٦) السياسة الشرعية ص- ١٦٩-١٧١.

تعريف الحياة لغة: الحياة والحيوان والحيُّ مصادر والحيوان اسم يقع على كل شيءٍ حيٍّ.[١]

تحريم قتل الإنسان: قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ (سورة الأنعام: ١٥١).

وعن عبد الله قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: **"والذي لا إله غيره، لا يحل دم رجل مسلم"**[٢]

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد وهو المستأمن من أهل الحرب.[٣]

وعن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: **" من قتل نفسًا معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما"**.[٤]

قتل المؤمن متعمدًا: قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾ (سورة النساء: ٩٣). فهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطي هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله حيث يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾. (سورة الفرقان: (٦٨)، والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًّا.[٥] وعن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: **" لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق"**.[٦]

غلظ تحريم الانتحار: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن شرب**

---

(١) لسان العرب (١٤/ ٢١٤).

(٢) البخاري (٦٨٧٨)، مسلم (١٦٧٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٢١٤).

(٤) البخاري (٦٩١٤).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٩).

(٦) ابن ماجه (٢٦١٩)، والترمذي (١٣٩٥)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجه (٢١٢١).

سما فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدا فيها أبدا، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ". [١]

تحريم المبارزة لإثبات حق: عن الأحنف بن قيس قال: " ذهبت لأنصر هذا الرجل فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد؟ قلت: أنصر هذا الرجل، قال: ارجع فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار، فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال إنه كان حريصا على قتل صاحبه**". [٢]

تحريم قتل الجنين: في حديث المرأة الغامدية التي جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله طهرني، فقال: " **ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه** "، فقالت: أراك تريد أن ترددني كما رددت ماعز بن مالك، قال: " **وما ذاك**؟ قالت: إنها حبلى من الزنى، فقال: (**آنت**؟) قالت: نعم، فقال لها: " **حتى تضعي ما في بطنك**". [٣]

٩ـ حقوق الوالدين

من حق الوالدين على الولد أمور لا حصر لها من بينها: قول الله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ (الإسراء ٢٣: ٢٥). لقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهما وهو البر والشفقة والعطف والتودد وإيثار رضاهما ونهي عن أن يقال لهما أف إذ هو كناية عن الإيذاء بأي نوع كان حتى بأقل أنواعه، ثم أمر بأن يقال لهما القول الكريم أي اللين اللطيف المشتمل على العطف والاستمالة وموافقة مرادهما وميلهما ومطلوبهما ما أمكن لاسيما عند الكبر فإن الكبير يصير كحال الطفل وأرذل ثم أمر تعالى بعد القول الكريم بأن يخفض لهما جناح الذل من

(١) البخاري (٥٧٧٨)، مسلم (١٠٩).

(٢) البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٣) مسلم (١٦٩٥).

القول بأن لا يكلمهما إلا مع الاستكانة والذل والخضوع وإظهار ذلك لهما واحتمال ما يصدر منهما ويريهما أنه في غاية التقصير في حقهما وبرهما وأنه من أجل ذلك حقير ذليل ولا يزال على نحو ذلك إلى أن يتثلج خاطرهما ويبرد قلبهما عليه بالرضا والدعاء ومن ثم طلب منه بعد ذلك أن يدعوا لهما لأن ما سبق يقتضي دعائهما له كما تقرر فليكافئهما إن فرصت مساواة وإلا فشتان ما بين المرتبتين وكيف توهم المساواة وقد كانا يحملان أذاك وكلك وعظيم المشقة في تربيتك وغاية الإحسان إليك راجيين حياتك مؤملين سعادتك وأنت إن حملت شيئا من أذاهما رجوت موتهما وسئمت من مصاحبتهما ولكون الأم أحمل لذلك وأصبر عليه مع أن عنائها أكثر وشفقتها أعظم بما قاسته من حمل وطلق وولادة ورضاع وسهر ليل وتلطخ بالقذر والنجس وتجنب للنظافة والترفه لذا حض النبي ﷺ على برها ثلاث مرات وعلى بر الأب مرة واحدة كما في الحديث " **أن رجلا جاء النبي ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك، ثم من؟ قال أمك، ثم من؟ قال أبوك ثم الأقرب فالأقرب**". [١]

وجاء رجل إلى أبي الدرداء فقال يا أبا الدرداء إن لي امرأة وإن أمي تأمرني بطلاقها فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**الوالدة أوسط أبواب الجنة فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه** "[٢]

فبرهما يزيد في العمر: قال ﷺ: "**لا يزيد في العمر إلا البر ولا يرد القضاء إلا الدعاء وإن الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها**". [٣]

وبرهما شكر لله ولهما:

قال الله ﷻ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ (لقمان: ١٤). فانظر - وفقني الله وإياك -

---

(١) أخرجه الترمذي (١٨٩٧) وقال: حديث حسن، وأبوداود (٥١٣٩)، وصححه الألباني في: صحيح أبي داود (١٦/ ٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٠٠)، وابن ماجه (٣٦٦٣)، وانظر السلسلة الصحيحة (٩١٠).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧)، والترمذي (٢١٣٩)، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٧/ ٧٦).

كيف قرن شكرهما بشكره.

برهما أفضل من الجهاد مع النبي ﷺ:

جاء رجل يستأذن النبي ﷺ في الجهاد معه فقال له: " **أحي والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد** ". [١] فانظر كيف فضل بر الوالدين وخدمتهما على الجهاد معه. [٢]

فمن حقهما على الأولاد عدم عقوقهم:

قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء: ٢٣)

وقال ﷺ: " **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين**". [٣]

وهذه جملة حقوق للآباء على الأبناء:

١- إذا احتاج أحدهما إلى الطعام أطعمه.

٢- إذا احتاج على الكسوة كساه إن قدر عليه.

٣- إذا احتاج أحدهما إلى الخدمة خدمه.

٤- إذا دعاه أجابه وحضره.

٥- إذا أمره أطاعه ما لم يأمر بالمعصية والغيبة.

٦- أن يتكلم معه باللين ولا يتكلم معه بالكلام الغليظ.

٧- أن لا يدعوه باسمه.

٨- أن يمشي خلفه.

٩- أن يرضي له ما يرضي لنفسه ويكره ما يكره لنفسه.

١٠- أن يدعوا له بالمغفرة كلما يدعوا لنفسه قال الله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ (نوح: ٢٨)، وهكذا عن إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ (إبراهيم: ٤١)، وقال تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (١٩٧٥).

(٢) الزواجر (٢/ ١٤٥-١٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥١١)، ومسلم (١٤٣).

﴿رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ (الإسراء: ٢٤)[١].

ومن حقهما أن يستأذنهما عند الخروج ولو إلى الجهاد: وروى أبوسعيد الخدري ﷺأن رجلًا من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد هاجرت فقال رسول الله ﷺ: " **هل لك أحد باليمن**؟ " قال: أبواي "**قال أذنا لك**؟ " قال: لا "**قال فارجع إليهما فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما**". [٢]

وذلك ما لوكان الوالد كافرا فإنه لا يحتاج الولد إلى إذنه في الجهاد ونحوه. [٣]

ومن حقهما أن يبر أهليهما بعد موتهما: فعن أبي أسد الساعدي قال: "بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمه، فقال: **يا** رسول الله **هل** بقى من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: "**نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما** ". [٤] "**والصلاة عليهما**" أي الدعاء ومنه صلاة الجنازة والمراد به الترحم. "**والاستغفار لهما**" أي طلب المغفرة لهما وهو تخصيص بعد تعميم، "**وإنفاذ عهدهما**" أي إمضاء وصيتهما، " **وصلة الرحم**" أي إحسان للأقارب التي لا توصل إلا من قبلهما. [٥]

فكل هذه حقوق تجب على الأولاد تجاه آبائهم:

* أن يستغفر لهما.
* وأن يدعوا لهما.
* وأن يمضي وصيتهما.

---

(١) تنبيه الغافلين (٨٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٣٠)، وراجع صحيح أبي داود (٢٢٠٧).

(٣) الزواجر (٢/ ١٥٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤)، والحاكم (٤/ ١٧١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح.

(٥) عون المعبود (٧/ ٣٦).

* وأن يصل ما كانوا يصلونه.

وعن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه إذا مل ركوب الراحلة وعمامة يشد بها رأسه فبينا هو يوما على ذلك الحمار إذا مر به أعرابي، فقال: ألست ابن فلان بن فلان قال بلى فأعطاه الحمار وقال: اركب هذا والعمامة، قال: اشدد بها رأسك، فقال له: بعض أصحابه غفر الله لك أعطيت هذا الأعرابي حمارا كنت تروح عليه وعمامة كنت تشد بها رأسك، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى " وإن أباه كان صديقا لعمر".** (١)

وفي هذا فضل صلة أصدقاء الأب والإحسان إليهم وإكرامهم وهو متضمن لبر الأب، وإكرامه لكونه بسببه وتلتحق به أصدقاء الأم والأجداد والمشايخ والزوج والزوجة. (٢)

١٠ـ حقوق الزوج

من حق الزوج على زوجته: حسن طاعته في المعروف:

قال ﷺ: **"إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحصنت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت"**(٣).

وقال ﷺ: **"لو كنت آمرًا أحد أن يسجد لغير الله لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها كله حتى لو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه "**(٤).

وعن حصين بن محصن أن عمة له أتت النبي ﷺ فقال لها: **" أذات زوج أنت؟ "** قالت: نعم، قال: **فأين أنت منه؟** قالت: ما آلوه إلا ما عجزت عنه، قال: **"فكيف أنت له**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٢).

(٢) شرح مسلم للنووي (٨/ ٣٥٢).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٩١)، وابن حبان (٤١٦٣)، وراجع: صحيح الترغيب (٣٢٥٤).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٨١)، وابن ماجه في سننه (١٨٥٣)، والترمذي في سننه (١١٩٩)، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٩٥).

" **فإنه جنتك نارك**". (١)

وقال ﷺ: "**أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضي دخلت الجنة**"(٢).

وقال ﷺ: " **لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق إنما الطاعة في المعروف**"(٣).

وقال ﷺ: " **لو كنت آمر أحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**"(٤).

أي: لكثرة حقوقه عليها وعجزها عن القيام بشكرها، وفي هذا غاية المبالغة لوجوب إطاعة المرأة في حق زوجها فإن السجدة لا تحل لغير الله. (٥)

ومن حق الزوج أيضًا: قرار زوجته في بيته وعدم خروجها إلا بأذنه:

قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

﴿وَقَرْنَ﴾: قرأ الجمهور "وقرن " بكسر القاف وقرأ عاصم ونافع بفتحها فأما القراءة الأولى فتحتمل وجهين أحدهما: أن يكون من الوقار: تقول "وقر يقر وقارًا أي سكن والأمر قر وللنساء قرن.

والثاني: وهو من القرار تقول قررت بالمكان (بفتح الراء أقر والأصل أقررن بكسر الراء فحذفت الراء الأولى تخفيفًا ونقلوا حركتها إلى القاف واستغني عن ألف الوصل لتحرك القاف" وأما قراءة أهل المدينة وعاصم فعلى لغة العرب قررت في المكان إذا أقمت فيه بكسر الراء أقرا بفتح القاف.

ومعنى هذه الآية: الأمر بلزوم البيت وإن كان الخطاب لنساء النبي ﷺ فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، هذا لولم يرد دليل يخص جميع النساء كيف والشريعة طافحه بلزوم

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤١)، والحاكم (٢/ ١٨٩)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح خلا حصين وهو ثقة (مجمع الزوائد٤/ ٣٠٩)، وراجع: صحيح الترغيب والترهيب (١٩٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي (١١٧١)، وقال: حسن غريب.

(٣) البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠)، وأحمد (١/ ٩٤).

(٤) مسند أحمد (٣/ ١٥٨)، والترمذي (١١٥٩)، وقال: حسن غريب، صحيح الجامع (٥٢٩٥).

(٥) تحفة الأحوذي (٤/ ٢٧١).

النساء بيوتهن والاعتكاف عن الخروج منها إلا لضرورة[1]، فقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ﴾ يقال قر فلان في منزله يقر وقورا إذا هدأ فيه واطمأن به وفيه الدلالة على أن النساء مأمورات بلزوم البيوت منهيات عن الخروج.[2]، ويجوز للزوج منعها من الخروج من منزله إلى مالها منه بد سواء أرادت زيارة والديها أو عيادتهما أو حضور جنازة أحدهما.

قال أحمد في امرأة لها زوج وأم مريضة قال: طاعة زوجها أوجب عليها من أمها إلا أن يأذن لها، ولأن طاعة الزوج واجبة والعيادة غير واجبة فلا يجوز ترك الواجب بما ليس بواجب ولا يجوز لها الخروج إلا بإذنه، ولكن لا ينبغي للزوج منعها من عيادة والديها وزيارتهما لأن في ذلك قطيعة رحم وحملا لزوجته على مخالفته وقد أمر الله تعالى بالمعاشرة بالمعروف وليس هذا من المعاشرة بالمعروف.[3]

ومن حق الزوج عدم تبرج زوجته وإيجاب تحجبها:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (الأحزاب: من الآية٣٣)، وقال تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ (النور: ٦٠). والتبرج: التكشف والظهور للعيون أي لا حائل لها ينزها.

قال ﷺ: **"صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها على الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا".**

إنما جعلهن كاسيات لأن الثياب عليهن وإنما وصفهن بأنهن عاريات لأن الثوب إذا رق يصفهن ويبدي محاسنهن وذلك حرام.[4] وقيل: أنهن كاسيات من الثياب عاريات من لباس التقوى الذي قال الله تعالى فيه ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (لأعراف: ٢٦)[5]،

---

(١) أحكام القرآن القرطبي (١٤/ ١٧٣/ ١٧٤).

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٣/ ٣٦٠).

(٣) المغني (٨/ ١٣٠).

(٤) مسلم (٢١٢٨).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٤٠١).

وهو اللائق بهن في هذه الأزمان وخاصة الشباب فإنهن يتزين ويخرجن متبرجات فهي كاسيات بالثياب عاريات من التقوى حقيقة ظاهرًا وباطنًا حيث تبدي زينتها ولا تبالي بمن ينظر إليها بل ذلك مقصودهن وذلك مشاهد في الوجود منهن فلو كان عندهن شيء من التقوى لما فعلن ذلك ولم يعلم أحد ما هنا لك. [١]

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٣)، في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض أو مسألة يستفتين فيها، ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى وبما تضمنه أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة، فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة، كالشهادة عليها أو داء يكون ببدنها أو سؤالها عما يعرض وتعين عندها. [٢]

ومن حق الزوج على زوجته أن تحفظ ماله: قال ﷺ: **"كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والأمير راع والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"**. [٣]

وقال ﷺ **"لا تنفق امرأة شيء من بيت زوجها إلا بإذن زوجها، قيل: يا رسول الله والطعام قال: ذاك أفضل أموالنا"**. [٤]

فعامة العلماء على أنه لا يجوز لها التصدق من مال زوجها بغير إذنه.

وعن سعد رضي الله عنه قال: "لما بايع الرسول ﷺ النساء، قامت امرأة جليله فقالت: "يا رسول إنا كل على آبائنا وأبنائنا وأزواجنا فما يحل لناس أموالهم قال: **"الرطب تأكلنه وتهدينه"**. [٥]

وقال ﷺ: **"خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه**

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ٣٠٨).

(٢) القرطبي (١٤/ ٢١٨).

(٣) البخاري (٥٢٠٠)، ومسلم (١٩٢٩).

(٤) الترمذي (٦٧٠) وقال: حديث حسن.

(٥) أبوداود (١٦٨٦).

على زوج في ذات يده"[١]

وقوله (وأرعاه على زوج) أي أن النساء من قريش خير نساء لأنهن أحفظ لماله بالأمانة فيه والصيانة له وترك التبذير في الإنفاق في مال الزوج وفي هذا دلالة على وجوب حفظ مال الزوج وحسن التدبير فيه. [٢]

وعن عبد الله بن يحيى الأنصاري رجل من ولد كعب بن مالك عن أبيه عن جده أن جدته خيرة امرأة كعب بن مالك أتت رسول الله ﷺ بحلي لها فقالت " **أني تصدقت بهذا** "فقال لها رسول الله ﷺ "**لا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها فهل استأذنت كعبًا** قالت نعم فبعث رسول الله ﷺ إلى كعب بن مالك فقال"**هل أذنت لخيرة أن تتصدق بحليها فقال: نعم فقبله رسول الله ﷺ منها** ".

وقال ﷺ: "**إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب وللخازن مثل ذلك لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئا**"[٣] وفي رواية ومن طعام زوجها – وفي رواية "**من العبد إذا أنفق من مال مواليه قال الأجر بينكما نصفان**". فأعلم أنه لا بد للعامل وهو الخازن وللزوجة والمملوك من إذن المالك فإن لم يكن أذن أصلا فلا أجر لأحد من هؤلاء الثلاثة بل عليهم وزر بتصرفهم في مال غيرهم بغير إذنه

والإذن ضربان: أحدهما الإذن الصريح في النفقة والصدقة.

والثاني: الإذن المفهوم من اطراد العرف والعادة كإعطاء السائل كسرة ونحوها مما جرت العادة به واطراد العرف فيه وعلم بالعرف رضاء الزوج والمالك به فإذنه في ذلك حاصل وإن لم يتكلم وهذا إذا علم رضاه لاطراد العرف وعلم أن نفسه كنفوس غالب الناس في السماحة بذلك والرضا به، فإن أضطرب العرف وشك في رضاه أو كان شخص يشح بذلك وعلم من حاله ذلك أوشك فيه لم يجز للمرأة وغيرها التصدق من ماله إلا

(١) البخاري (٥٠٨٢)، ومسلم (٢٥٢٧).

(٢) فتح الباري (٩/ ٢٨).

(٣) البخاري (١٤٤١)، ومسلم (١٠٢٤).

بصريح إذنه. وأما قوله ﷺ: **"وما أنفقت من كسبه من غير أمره فإن نصف أجره له"** فمعناه من غير أمره الصريح في ذلك القدر المعين ويكون معها إذن عام سابق متناول لهذا القدر وغيره وذلك الإذن الذي قد أولناه سابقًا أما بالصريح وإما بالعرف ولابد من هذا التأويل؛ لأنه ﷺ جعل الأجر مناصفة وفي رواية فلها نصف أجره ومعلوم أنها إذا أنفقت من غير إذن صريح ولا معروف من العرف فلا أجر لها بل عليها وزر فتعين تأويله.

واعلم أن هذا كله مفروض من قدر يسير يعلم رضا المالك به في العادة فإن زاد على المتعارف به لم يجز، وهذا معنى قوله ﷺ: **"إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة"**. فأشار ﷺ إلى أنه قدر يعلم رضا الزوج به من العادة ونبه بالطعام أيضا على ذلك لأنه يسمح به في العادة بخلاف الدراهم والدنانير في حق أكثر الناس وفي كثير من الأحوال. واعلم أن المراد بنفقه المرأة والعبد والخازن النفقة على عيال صاحب المال وغلمانه ومصالحه وقاصديه من ضيف وابن سبيل ونحوهما وكذلك صدقتهم المأذون فيها بالصريح أو العرف والله أعلم. [١]

ومن حقه أن لا تصوم زوجته نفلًا إلا بإذنه: قال ﷺ: **"لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه"**. [٢]

وفي لفظ **"لا تصم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه"**. [٣]

وقوله ﷺ: **" لا تصم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه"** هذا محمول على صوم التطوع والمندوب الذي ليس له زمن معين وهذا النهي للتحريم صرح به أصحابنا وسببه أن الزوج له الحق الاستمتاع بها في كل الأيام وحقه فيه واجب على الفور فلا يفوته بتطوع ولا بواجب على التراخي فإن قيل: فينبغي أن يجوز لها الصوم بغير إذنه فإن أراد الاستمتاع بها كان له ذلك ويفسد صومها، فالجواب: أن صومها يمنعه من الاستمتاع في العادة لأنه يهاب انتهاك الصوم بالإفساد، وقوله ﷺ **"وزوجها شاهد "** أي: مقيم في البلد إذا كان

(١) شرح النووي (٤/ ١٢٢-١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٩٥)، وأحمد (٢/ ٢٤٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٠٢٦).

مسافرا فلها الصوم لأنه لا يتأتى منه الاستمتاع إذا لم تكن معه. (١)

عن أبي سعيد قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، ونحن عنده، فقالت: يا رسول الله، إن زوجي صفوان بن المعطل، يضربني إذا صليت، ويفطرني إذا صمت، ولا يصلي صلاة الفجر حتى تطلع الشمس، قال وصفوان عنده، قال: فسأله عما قالت، فقال: يا رسول الله، أما قولها يضربني إذا صليت، فإنها تقرأ بسورتين وقد نهيتها، قال: فقال: " **لو كانت سورة واحدة لكفت الناس** "، وأما قولها: يفطرني، فإنها تنطلق فتصوم، وأنا رجل شاب، فلا أصبر، فقال رسول الله ﷺ يومئذ: " **لا تصوم امرأة إلا بإذن زوجها** "، وأما قولها: إني لا أصلي حتى تطلع الشمس، فإنا أهل بيت قد عرف لنا ذاك، لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس، قال: " **فإذا استيقظت فصل** ". (٢)

وفي هذا الحديث من الفقه: أن منافع المتعة والعشرة من الزوجة مملوكة للزوج في عامة الأحوال وأن حقها في نفسها محصور في وقت دون وقت. (٣)

ومن حقه أن لا تأذن لأحد في بيته إلا بإذنه: فلا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا بإذنه قال ﷺ: "**ولا تأذن في بيته إلا بإذنه**"(٤)، وفي لفظ "**ولا تأذن في بيته وهو شاهد إلا بإذنه**"(٥). وقوله " **وهو شاهد**": قيد لا مفهوم له بل خرج مخرج الغالب وإلا فغيبة الزوج لا تقتضي الإباحة للمرأة أن تأذن لمن يدخل بيته بل يتأكد حينئذ عليها المنع لثبوت الأحاديث الواردة في النهي عن الدخول على المغيبات أي من غاب عنها زوجها ويحتمل أن يكون له مفهوم وذلك أنه إذا حضر تيسر استئذانه وإذا غاب تعذر فلو دعت الضرورة إلى الدخول عليها لم تفتقر إلى استئذانه لتعذره، ثم هذا كله فيما يتعلق بالدخول عليها أما

---

(١) شرح النووي (٤/ ١٢٤).

(٢) أبو داود (٢٤٥٩)، وابن حبان (٩٥٦)، والحاكم (١/ ٤٣٦)، السلسلة الصحيحة (٣٩٥).

(٣) معالم السنن (٢/ ١١٦).

(٤) أخرجه البخاري (٥١٩١).

(٥) أخرجه مسلم (١٠٢٦).

مطلق دخول البيت بأن تأذن لشخص في دخول موضع من حقوق الدار التي هي فيها أو إلى دار منفردة عن سكنها فالذي يظهر أنه ملتحق بالأول[١].

وقوله ﷺ: **"ولا تأذن في بيته وهو شاهد إلا بإذنه "** فيه إشارة إلى أنه لا يفتات على الزوج وغيره من مالكي البيوت وغيرها بالإذن في أملاكهم إلا بإذنهم وهذا محمول على مالا يعلم رضا الزوج ونحوه به، فإذا علمت المرأة ونحوها رضاه جاز كما سبق في النفقة[٢]، وحاصله أنه لابد من اعتبار إذنه تفصيلا أو إجمالا. [٣]

ومن حقه أن تشكره زوجته على ما يقدمه لها، وأن لا تطالبه بأكثر: قال ﷺ: "لا ينظر الله ﷻ إلى امرأة لا تعرف حق زوجها ولا شكره وهي لا تستغني عنه". [٤] وقال ﷺ: **"لا يشكر الله من لا يشكر الناس "**[٥]

فمن كان من طبعه وعادته كفران نعمة الله تعالى وترك الشكر له فمن كان من طبعه وعادته كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله تعالى وترك الشكر له.

وأن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس ويكفر معروفهم لاتصال أحد الأمرين بالآخر. [٦] وقال ﷺ: **"حق الزوج على زوجته لو كانت به قرحة فلحستها أو انتثر منخراه صديدا أو دما ثم ابتلعته ما أدت حقه "**. [٧]

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٩٥).

(٢) النووي شرح مسلم (٤/ ١٢٤-١٢٥).

(٣) فتح الباري (٩/ ٢٠٧).

(٤) أخرجه النسائي في عشرة النساء (٢٥٠)، والحاكم (٢/ ١٩٠)، والبيهقي (٧/ ٢٩٤).

(٥) أبوداود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) وقال: صحيح، صحيح الجامع (٧٧١٩).

(٦) عون المعبود (٧/ ١١٤).

(٧) أخرجه ابن حبان (٤١٦٤)، والبزار (١٤٦٥)، وقال الهيثمي، والبزار: رجاله رجال الصحيح، صحيح الجامع (٣١٤٨).

وكذلك لا تكلف الزوجة زوجها أكثر من طاقته قال الله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦). وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٧).

ومن حق الزوج على زوجته إذا دعاها لحاجته تجيبه على أي حالة كانت إذ كانت طاهرة:

قال ﷺ: **"إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح "** وفي رواية **"والذي نفسي بيده ما من رجل يدعوا امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخط عليها حتى يرضى عنها"**[١]، وقال ﷺ: **"إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع "**.[٢]

ومن حق الزوج على زوجته أن يأخذ حقه من مالها إذ توفيت: وحق الزوج النصف مع عدم الولد أو ولد الولد والربع مع وجوده، قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ (النساء: ١٢)، ولهذا أجمع العلماء على أن للزوج النصف مع عدم الولد أو ولد الولد وله مع وجوده الربع.[٣]

فالقول الجامع في حق الزوج على زوجته أن تكون قاعدة في قعر بيتها، ولا يكثر صعودها واطلاعها، قليلة الكلام مع جيرانها، لا تدخل عليهم إلا في حال يوجب الدخول تحفظ بعلها في غيبته، وتطلب مسرته في جميع أمورها، ولا تخونه في نفسه وماله، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه فإن خرجت بإذنه فمختفية في هيئة رثة تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها لا تتعرف إلى صديق بعلها في حاجاتها بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها مهتمة بتدبير بيتها

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٥)، ومسلم (١٤٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٩٨)، ومسلم (١٤٣٦).

(٣) تفسير القرطبي (٥/ ٨٠).

مقبلة على صلاتها وصيامها وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب وليس البعل حاضرا لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام غيرة على نفسها وبعلها، وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها منظفة في نفسها مستعدة في الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء مشفقة على أولادها حافظة للستر عليهم قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج وأن لا تتفاخر على الزوج بجمالها ولا تزدري زوجها لقبحه، ويجب على المرأة ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب، والانبساط، وأسباب اللذة في حضور زوجها ولا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال، روي عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا"(١).

ولا تحد عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر وتتجنب الطيب والزينة في هذه المدة قالت زينب بنت أبي سلمه دخل على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب فدعت بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره فدهنت به جارية ثم مست بعارضيها ثم قالت والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا"**. (٢)

وتلزم مسكن النكاح إلى آخر العدة وليس الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا لضرورة.

وتقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها فقد روي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق – رضي الله عنهما- أنها قالت: تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه وأدق النوى على رأس من ثلثي فرسخ حتى أرسل إلى أبى بكر بجارية فكفتني سياسة الفرس فكأنما أعتقني، ولقيني رسول الله ﷺ يوما ومعه أصحابه فقال ﷺ: **"أخ أخ"** لينيخ ناقته ويحملني خلفه فاستحييت أن أسير مع الرجال وذكرت

---

(١) أخرجه الترمذي (١١٧٤)، وابن ماجه (٢٠١٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٠)، ومسلم (١٤٩١).

الزبير وغيرته وكان أغير الناس فعرف رسول الله ﷺ أنني قد استحييت فجئت الزبير فحكيت له ما جرى، فقال: والله لحملك النوى على رأسك أشد علي من ركوبك معه". [١]

١١ـ حق المرأة

لقد أعطى الإسلام حقوقًا للمرأة على مدار حياتها، ليحفظها، وليبين كرامتها، ومن هذه الحقوق:

١ـحق المرأة كجنين وكطفل: حقوق المرأة وهي في بطن أمها كثيرةٌ، مراعاة لها في وقت لا تملك لنفسها فيه شيئًا؛ فعلى أبيها أن يختار أمًا ذات دين؛ حتى تقومها وتربيها على منهج الله وسنة رسوله ﷺ، وعلى من يعيشون حول أمها أن يهيئوا لها الاستقرار النفسي؛ لأن مرحلة الحمل والولادة شاقة وعسيرة، قال تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ (لقمان: ١٤)، وقال ﷺ: **"خيركم خيركم للنساء"**[٢]، ومن حقها وضع الصوم عن أمها، ووضع الحد حال الحمل، وحال الرضاع، وأن يصلى عليها الجنازة، ويستحسن أن تخرج الزكاة عنها، وإذا استهلت فلها الميراث، ولا بد من الحفاظ على حياتها، ولها أن يهيئ لها أبوان صالحان، وأن يحسن اسمها، وأن تختتن ولها حق الحضانة على أبويها، ولها حق الرضاعة على أمها.

وهكذا اعتنى الإسلام بالمرأة؛ حتى وهي لم تخرج للحياة بعد[٣].

٢ـ حق البنت: ولها حقوق منها:

١ـحق التعليم: قال أهل العلم: ويدخل في فضل العلم للأبناء (الأولاد والبنات سويًا) عموم الأحاديث في فضل ذلك، ولنا أن نتصور الفتاة حين تبني أسرة من زوج وأبناء وهي لا تقرأ ولا تكتب، يعني أنها لن تقرأ القرآن ولا السنة ولا شيئًا مطلقًا من علوم الدين أو الدنيا، والواقع خير شاهد على الفرق بين الأم القارئة المثقفة، وبين غيرها في بناء عقول الأولاد، فهي تعين على المذاكرة، ويشعر الأبناء بالعلاقة القريبة منها،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٦)، ومسلم (٢١٨٢). وانظر: إحياء علوم الدين (٢/ ٩٣-٩٥).

(٢) المستدرك (٤/ ١٩١)، الجامع الصغير (٥٦٢٧).

(٣) للتفصيل انظر: بحث حق الجنين، وحق الطفل.

بخلاف الأخرى التي تشعرهم بغربة تزداد مع الوقت، وقد تصل إلى الاحتقار لعدم قدرتها على المشاركة معهم ولو بالقراءة. والمتأمل في حياة السيدة عائشة يرى عجبًا في علمها واستدراكها على الصحابة وقوة حفظها واستنباطها، فعن عائشة بنت طلحة قالت: قلت لعائشة - وأنا في حجرها - وكان الناس يأتونها من كل مصر، فكان الشيوخ ينتابوني لمكاني منها، وكان الشباب يتأخوني فيهدون إلي، ويكتبون إلي من الأمصار، فأقول لعائشة: يا خالة، هذا كتاب فلان وهديته، فتقول لي عائشة: أي بنية، فأجيبيه وأثيبيه، فإن لم يكن عندك ثواب أعطيتك، فقالت: فتعطيني.[١][٢]

٢ـحق الزواج: جعل الله للإنسان من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له، وهداه في معيشته وطعامه وشرابه وضحكه وتقلبه وتصرفه، فكان بها قدره الله تعالى لهذا الإنسان ودبره له، قضاء الشهوة بالطريقة المثلى الصحيحة، التي تحافظ على استمرار الحياة دون خلل يدمر الأخلاق والعائلة.

وتأمل بدء الخلق، وكيف جعل الله تبارك وتعالى لأبينا آدم زوجه حواء تؤنسه، فقال ربنا تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، والنفس الواحدة: هي آدم عليه السلام، والزوج: حواء، ففي هذا الخلق العجيب عبرة، فإن أصله واحد، ويخرج هو مختلف الشكل والخصائص، وفيه المنة على الرجال بخلق النساء، وعلى النساء بخلق الرجال.[٣] وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

٣ـ الحق في اختيار الزوج دون إكراه: عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **"لَا تُنْكَحُ**

---

(١) الأدب المفرد (١١١٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٥١). راجع: شبهة تعليم المرأة في هذه الموسوعة.

(٢) انظر: حق الإنسان في ضوء الكتاب والسنة.

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٢١٦).

الْأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، وَلَا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ إِذْنُهَا؟ قَالَ: أَنْ تَسْكُتَ"[١].

قال ابن القيم: فهذا خبر في معنى الأمر على إحدى الطريقتين، أو خبر محض، ويكون خبرًا من حكم الشرع، لا خبرًا عن الواقع، وهي طريقة المحققين. فقوله (حتى تستأمر)، أصل الاستئمار طلب الأمر، فالمعنى لا يعقد عليها حتى يطلب الأمر منها، ويؤخذ من قوله تستأمر أنه لا يعقد إلا بعد أن تأمر بذلك، وليس فيه دلالة على عدم اشتراط الولي في حقها، بل فيه إشعار باشتراطه. وقوله (ولا تنكح البكر حتى تستأذن) هنا للتفرقة بين الثيب والبكر، فعبر للثيب بالاستئمار وللبكر بالاستئذان، فيؤخذ منه فرق بينهما من جهة أن الاستئمار يدل على تأكيد المشاورة وجعل الأمر إلى المستأمرة، ولهذا يحتاج الولي إلى صريح إذنها في العقد، فإذا صرحت بمنعه امتنع اتفاقا والبكر بخلاف ذلك، والإذن دائر بين القول والسكوت بخلاف الأمر فإنه صريح في القول وإنما جعل السكوت إذنا في حق البكر لأنها قد تستحي أن تفصح[٢].

ومما يؤكد أن للمرأة الحق في اختيار زوجها، ما رواه البخاري: عن خنساء بنت خذام الأنصارية: أن أباها زوجها وهي ثيب، فكرهت ذلك، فأتت النبي ﷺ فرد نكاحها[٣].

٤ـ العدل: العدل بين الأبناء ذكورًا وإناثًا من إقامة شرع الله ﷻ في أرضه، وإقامة سنة نبيه ﷺ، وخاصة العدل للنساء؛ لأن حقهن عادة مهضوم، ويظلمن غالبًا من قبل الآباء وخاصة في الميراث[٤]، وقد قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ (النساء١١)، وقال تعالى في آخر السورة: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ

(١) البخاري (٥١٣٦).
(٢) فتح الباري (٩/ ٩٩).
(٣) البخاري (٦٩٤٥).
(٤) انظر: بحث ميراث المرأة

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (النساء١٧٦) فما هضم الله ﷻ حق المرأة في كتابه، وقال ﷺ: "**اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**"(١).

٣ـ حق المرأة كزوجة، ويتضمن أمورًا

١ـ إعطائها المهر: قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةً﴾ (النساء: ٤).

الصدقات جمع، الواحدة صدقة. قال الأخفش: وبنو تميم يقولون صدقة والجمع صدقات، وإن شئت فتحت وإن شئت أسكنت. قال المازني: يقال صداق المرأة بالكسر ولا يقال بالفتح. وحكي يعقوب وأحمد بن يحيى بالفتح عن النحاس. والخطاب في هذه الآية للأزواج؛ أمرهم الله تعالى بأن يتبرعوا بإعطاء المهور نحلة منهم لأزواجهم. فهذه الآية تدل على وجوب الصداق للمرأة، وهو مجمع عليه لا خلاف فيه.

وأجمع العلماء أيضا: أنه لا حد لكثيره، واختلفوا في قليله؛ فلذلك أبقى النبي ﷺ وجوب المهر كما كان ولم يضبطه بحد إذ العادات في إظهار الاهتمام مختلفة والرغبات لها مراتب شتى(٢). وروي أنس بن مالك ﷺأن عبد الرحمن بن عوف ﷺقال لرسول الله ﷺ: "تزوجت امرأة "فقال: ما أصدقتها؟ " قال: " وزن نواة من ذهب " فقال: بارك الله لك؛ أولم ولو بشاة "(٣). وقال ﷺ: " خير النكاح أيسره "، وفي رواية " خير الصداق أيسره "(٤)، فكانوا لا ينكحون إلا بصداق، لأمور بعثتهم على ذلك وكان فيه مصالح منها: أن النكاح لا تتم فائدته إلا بأن يوطن كل واحد نفسه على المعاونة الدائمة، ويتحقق ذلك من جانب المرأة بزوال أمرها من يدها، ولا جائز أن يشرع زوال أمره أيضًا من يده، وإلا أنسد باب الطلاق، وكان أسيرًا في يدها كما أنها عانية بيده، وكان الأصل أن يكونوا قوامين على النساء، ولا جائز أن يجعل أمرهما إلى القضاة؛ فإن مراجعة القضية إليهم فيها حرج، وهم

---

(١) البخاري (٢٥٨٧).

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٢٧)، حجة الله البالغة (٢/ ٢٣٣).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٤٨)، ومسلم (١٣٦٥).

(٤) أبو داود (٢١١٧)، وابن حبان (١٢٥٧)، والحاكم (٢/ ١٨٢)، صحيح الجامع (٣٣٠٠).

لا يعرفون ما يعرف هو من خاصة أمره؛ فتعين أن يكون بين عينيه خسارة مال، إن أراد فك النظم؛ لئلا يجترِيءَ على ذلك إلا عند حاجه لا يجد منها بدًا، فكان هذا نوعا من التوطين، وأيضا فلا يظهر الاهتمام بالنكاح؛ إلا بمال يكون عوض البضع؛ فإن الناس لما تشاحوا بالأموال شحا لم يتشاحوا به في غيرها، كان الاهتمام لا يتم ببذلها، وبالاهتمام تقر أعين الأولياء، حين يتملك هو فلذة أكبادهم، وبه يتحقق التمييز بين النكاح السفاح، وهو قوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ (النساء: ٢٤)[١].

٢ـ الكفاءة: قال ﷺ: " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه؛ فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير "قالوا يا رسول الله: وإن كان فيه فقال: " **إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه** ثلاث مرات"[٢]. وقال النبي ﷺ لبني بياضة: "**أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه**، وكان حجامًا"[٣].

وتزوج بلال بن رباح رضي الله عنه بأخت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾. فالذي يقتضيه حكمه ﷺ: اعتبار الدين في الكفاءة أصلًا وكمالًا؛ فلا تزوج مسلمة بكافر، ولا عفيفة بفاجر، ولم يعتبر القرآن والسنة في الكفاءة أمرًا وراء ذلك، فإنه حرم على المسلمة نكاح الزاني الخبيث ولم يعتبر نسبًا ولا صناعة ولا غنى ولا حرية، فجوّز للعبد القن، نكاح الحرة النسيبة الغنية؛ إذا كان عفيفا مسلما، وجوز لغير القرشيين نكاح القرشيات، ولغير الهاشميين نكاح الهاشميات، وللفقراء نكاح الموسرات[٤].

٣ـ حرية المرأة في اختيار الزوج: فلا ينكح الأب وغيره، البكر والثيب إلا برضاهما

(١) حجة الله البالغة (٢/ ٢٣٤).

(٢) الترمذي (١٠٨٥) وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٦٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٨٥) وقال حسن غريب، وراجع السلسلة الصحيحة (٢٤٤٦).

(٤) زاد المعاد (٥/ ١٥٩-١٦٠)، وراجع فتاوى ابن تيمية (٣٢/ ٥٧)، وفتح الباري (٩/ ٣٤-٤٠).

لحديث: " **لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن**". قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: أن تسكت "، وحديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله: إن البكر تستحي، قال: " **رضاها صمتها** "[١].

ـ **البكر البالغة**: لا نعلم خلافًا في استحباب استئذانها، فإن النبي ﷺ قد أمر به، ونهي عن النكاح بدونه، وأقل أحواله ذلك الاستحباب، ولأن فيه تطييب قلبها وخروجًا من الخلاف، وقالت عائشة: سألت رسول الله ﷺ عن الجارية ينكحها أهلها، أتستأمر أم لا؟ فقال لها رسول الله: ﷺ" نعم تستأمر "، وقال: "**استأمروا النساء في أبضاعهن، فإن البكر تستحي فتسكت فهو إذنها** "[٢].

ـ **أما الثيب فإذنها الكلام**: أما الثيب: فلا نعلم بين أهل العلم خلافًا في أن إذنها الكلام: للخبر، ولأن اللسان هو المعبر عما في القلب، وهو المعتبر في كل موضع يعتبر فيه الإذن غير أشياء يسيرة أقيم فيها الصمت مقامه لعارض[٣]. وقد ثبت أن خنساء بنت خذام زوجها أبوها، وهي كارهة، وكانت ثيبًا؛ فأتت رسول الله ﷺفردَّ نكاحها[٤].

وفي السنن من حديث ابن عباس: أن جارية بكرًا أتت النبي ﷺفذكرت له أن أباها زوجها وهي كارهة فخيرها النبي ﷺ[٥]، وهذه غير خنساء فهما قضيتان قضي في إحداهما بتخبير الثيب وقضي في الأخرى بتخيير البكر.

وموجب هذا الحكم: أنه لا تجبر البكر البالغ على النكاح، ولا تزوج إلا برضاها. وهذا هو قول جمهور السلف، وهو القول الذي ندين الله به، ولا نعتقد سواه، وهو الموافق لحكم

---

(١) البخاري (٥١٣٧: ٥١٣٦).

(٢) مسند أحمد (٦/ ٤٥، ٢٠٣)، سنن النسائي (٦/ ٣٩٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٩٨). وانظر: المغني مع الشرح الكبير (٧/ ٣٨٤).

(٣) المغني مع الشرح الكبير (٧/ ٣٨٦).

(٤) أخرجه البخاري (٥١٣٧).

(٥) أبو داود (٢٠٩٦)، وابن ماجه (١٨٧٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٩٦).

رسول الله ﷺ وأمره ونهيه وقواعد شريعته ومصالح أمته. [١]

٤- **النفقة**: ومن حقوق الزوجة على زوجها: الإنفاق عليها، وأن يوفر لها ما تحتاجه، قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ (النساء: ٣٤)، وقال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ (الطلاق: ٧)، والإنفاق كفاية مؤونة الحياة؛ من طعام ولباس وغير ذلك مما يحتاج إليه. ولم يختلف العلماء في أن النفقات لا تتحدد بمقادير معينة؛ لاختلاف أحوال الناس والأزمان والبلاد. وإنما اختلفوا في التوسع في الإنفاق في مال الموسر، هل يقضى عليه بالتوسعة على من ينفق هو عليه؟ ولا أحسب الخلاف في ذلك إلا اختلافًا في أحوال الناس وعوائدهم، ولا بد من اعتبار حال المنفق عليه ومعتاده، كالزوجة العالية القدر. وفي عجز الزوج عن إنفاق زوجه؛ إذا طلبت الفراق لعدم النفقة خلاف. فمنهم من رأى ذلك موجبًا للتفرقة بينهما بعد أجل؛ رجاء يسر الزوج، وقُدّر بشهرين، وهو قول مالك. ومنهم من لم ير التفريق بين الزوجين بذلك، وهو قول أبي حنيفة، أي وتنفق من بيت مال المسلمين[٢].

قال النبي ﷺ: " **إذا أنفق المسلم نفقة على أهله، وهو يحتسبها كانت له صدقة**"[٣]، فالإنفاق على الأهل واجب، والذي يعطيه يؤجر عليه على ذلك بحسب قصده. ولا منافاة بين كونها واجبة، وبين تسميتها صدقه؛ بل هي أفضل من صدقة التطوع. فالنفقة على الأهل واجبة بالإجماع، وإنما سماها الشارع صدقة؛ خشية أن يظنوا أن قيامهم بالواجب لا أجر لهم فيه، وقد عرفوا ما في الصدقة من الأجر؛ فعرفهم أنها لهم صدقه؛ حتى لا يخرجوها إلى غير الأهل؛ إلا بعد أن يكفوهم؛ ترغيبًا لهم في تقديم الصدقة الواجبة قبل صدقة التطوع، وتسمية

---

(١) زاد المعاد ٥/ ٩٥.

(٢) تفسير ابن عاشور (٢٨/ ٣٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٥٢).

النفقة صدقة من جنس تسمية الصداق نِحْلَة، فلما كان احتياج المرأة إلى رجل كاحتياجه إليها في اللذة والتأنيس والتحصين وطلب الولد؛ كان الأصل أن لا يجب لها عليه شيء؛ إلا أن الله خص الرجل بالفضل على المرأة بالقيام عليها، ورفعه عليها بذلك درجة؛ فمن ثم جاز إطلاق النحلة على الصداق، والصدقة على النفقة، وقال ﷺ: " قال الله: **أنفق يا ابن آدم؛ أُنفق عليك.** "(١)، وقال ﷺ: " **الساعي على الأرملة والمسكين؛ كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار**"(٢). وقال ﷺ: " **أفضل الصدقة ما ترك غني، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول**" تقول المرأة: إما أن تطعمني وإما أن تطلقني، ويقول العبد: أطعمني واستعملني، ويقول الابن: أطعمني إلى من تدعني"(٣).

وقال ﷺ: " **اتقوا الله في النساء؛ فإنهن عوانٍ عندكم، أخذتموهن بأمانه الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**"(٤)

وقال ﷺ: " **كفى بالمرء إثّما أن يحبس عمن يملك قوته**"(٥)، وفي رواية: "**كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت** "(٦).

وقال ﷺ: " **إن الله سائل كل راع عما استرعاه، أحفظ ذلك أم ضيع؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته**"(٧).

ـ **ومن النفقة توفير السكن**: قال الله تعالى ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ (الطلاق: ٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٥٣).

(٣) البخاري (٥٣٥٥).

(٤) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٥) مسلم (٢٤٥).

(٦) أبوداود (١٦٩٢)، وأحمد (٢/ ١٦٠)، صحيح الجامع (٤٤٨١).

(٧) ابن حبان (١٥٦٢)، وصححه الحافظ في الفتح (١٣/ ١١٣).

٥- **وقايتها من النار بتعليمها وتأديبها**: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ (التحريم: ٦)، ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾: أي بالانتهاء عما نهاكم الله تعالى عنه، وقال مقاتل: أن يؤدب المسلم نفسه وأهله؛ فيأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر، (قوا أنفسكم) بترك المعاصي وفعل الطاعات، (وأهليكم) بأن تؤاخذوهم بما تؤاخذون به أنفسكم[1]. ففي هذه الآية الأمر بوقاية الإنسان نفسه وأهله النار. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوا أنفسكم، وأمروا أهليكم بالذكر والدعاء؛ حتى يقيهم الله بكم. وقال علي رضي الله عنه وقتادة ومجاهد: قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيتكم. فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة، ويصلح أهله إصلاح الراعي لرعيته. ففي صحيح الحديث أن النبي ﷺ قال: " **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته؛ فالإمام الذي على الناس راع، وهو مسئول عنهم، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم** "[2].

وكذلك يخبر أهله بوقت الصلاة، ووجوب الصيام، ووجوب الفطر، إذا وجب؛ مستندًا في ذلك إلى رؤية الهلال. وقد روي مسلم أن النبي ﷺ كان إذا أوتر يقول: "**قومي فأوتري يا عائشة**"[3]، وقوله ﷺ: " **أيقظوا صواحب الحجر** "[4]، ويدخل هذا في عموم قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ (المائدة: ٢). فعلينا تعليم أولادنا وأهلينا الدين والخير، ومالا يستغنى عنه من الأدب. وهو قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ (طه: ١٣٢) ونحو قوله تعالى للنبي ﷺ ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[5].

---

(١) التفسير الكبير (٤٦/ ٣٠).

(٢) البخاري (٥١٨٨).

(٣) مسلم (٧٤٤).

(٤) البخاري (١١٥).

(٥) تفسير القرطبي (١٨/ ١٨٧).

٦ـ الاعتدال في الغَيْرة: وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن، فقد نهى رسول الله ﷺ أن تتبع عورات النساء. ولما قدم رسول الله ﷺ من سفره قال قبل دخول المدينة: " **لا تطرقوا النساء ليلا**" فخالفه رجلان فسبقا فرأى كل واحد في منزله ما يكره"[١]، وفي الخبر المشهور: "**المرأة كالضلع إن قومته كسرته فدعه تستمتع به على عوج**"[٢].

وهذا في تهذيب أخلاقها وقال ﷺ: " **إن من الغيرة غيرة يبغضها الله ﷻ وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة**"[٣]، لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه، فإن بعض الظن إثم. وقال علي ﷺ: لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك. وأما الغيرة في محلها؛ فلا بد منها وهي محمودة. وقال رسول الله ﷺ: " **إن الله تعالى يغار، والمؤمن يغار، وغيرة الله تعالى؛ أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه**"[٤].

وقال ﷺ: " **أتعجبون من غيرة سعد! أنا والله أغير منه، والله أغير مني**"[٥].

ولأجل غيرة الله تعالى حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله؛ ولذلك بعث المنذرين والمبشرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله؛ ولأجل ذلك وعد الجنة، وكان الحسن البصري يقول: أتدعون نساءكم ليزاحمن العلوج في الأسواق قبح الله من لا يغار، والطريق المغني عن الغيرة: أن لا يدخل عليها الرجال، وهي لا تخرج إلى الأسواق[٦].

٧ـ المعاشرة بالمعروف: قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠٤)، والبزار (١٤٨٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٠٨٥)

(٢) البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨).

(٣) أبوداود (٢٦٥٩)، والنسائي (٥/ ٧٨)، وأحمد (٥/ ٤٤٥، ٤٤٦)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٩٩٩).

(٤) البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١).

(٥) البخاري (٦٤٥٤)، ومسلم (١٤٩٩).

(٦) إحياء علوم الدين (٢/ ٧٥).

﴿تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ (النساء: ١٩)، وعاشروهن بالمعروف على ما أمر الله به من حسن المعاشرة، والخطاب للجميع إذ لكل أحد عِشرة؛ زوجًا كان أووليًا، ولكن المراد بهذا الأمر في الأغلب الأزواج وهو مثل قوله تعالى (فإمساك بمعروف) وذلك توفية حقها من المهر والنفقه، وألا يعبس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون منطلقًا في القول، لا فظًا ولا غليظًا ولا مظهرًا ميلًا إلى غيرها.

والعشرة: المخالطة والممازجة. فأمر الله سبحانه بحسن صحبة النساء إذا عقدوا عليهن لتكون أدمة ما بينهم، وصحبتهم على الكمال؛ فإنه أهدأ للنفس وأهنأ للعيش. وهذا واجب على الزوج ولا يلزمه في القضاء، وقال بعضهم: أن يتصنع لها كما تتصنع له. (فإن كرهتموهن) أي: لدمامة أو سوء خلق من غير ارتكاب فاحشة أو نشوز، فهذا يندب فيه إلى الاحتمال؛ فعسى أن يؤل الأمر إلى أن يرزق الله منها أولادًا صالحين. ومن هذا المعنى ماورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **" لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر"**[(١)]، أي: لا يبغضها بغضا كليا يحمله على فراقها. أي لا ينبغي له ذلك بل يغفر سيئتها لحسنتها، ويتغاضى عما يكره لما يحب[(٢)]، قال النبي ﷺ **"لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم"**[(٣)]، فلا يعدل إلى الضرب؛ لما في وقوع ذلك من النفرة المضادة لحسن المعاشرة المطلوبة في الزوجية؛ إلا إذا كان في أمر يتعلق بمعصية الله[(٤)]. فحسن الخلق معهن، واحتمال الأذى منهن؛ ترحما عليهن لقصور عقلهن، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقال في تعظيم حقهن: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وقال: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ قيل: هي المرأة. واعلم أنه ليس حسن

---

(١) مسلم (١٤٦٩).

(٢) القرطبي (٥/ ١٠٤).

(٣) البخاري (٥٢٠٤).

(٤) فتح الباري (٩/ ٢١٥).

الخلق معها كف الأذى عنها؛ بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله ﷺ، فقد كانت أزواجه تراجعنه في الكلام، وتهجره الواحدة منهن يومًا إلى الليل[١]، وقال ﷺ لجابر بن عبد الله حين تزوج ثيبا: " فهلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك"[٢].

ومن حسن المعاشرة: التحدث مع الزوجة، فعن عائشة رضي الله عنها: " أن النبي ﷺ كان إذا صلى سنة الفجر؛ فإن كنت مستيقظة حدثني، وإلا اضطجع حتى يؤذن بالصلاة، وقوله تعالى ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ يؤخذ منه: أن لا يتركها على الاعوجاج إذا تعدت ما طبعت عليه من النقص إلى تعاطي المعصية بمباشرتها، أوترك الواجب، وإنما المراد أن يتركها على اعوجاجها في الأمور المباحة[٣].

ومن حسن المعاشرة: عدم ترجيح إحدى الزوجات على الأخرى ظلما وعدوانا: قال الله تعالى ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (النساء: ١٢٩).

وقال ﷺ: "من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما؛ جاء يوم القيامة وشقه ساقط"[٤]، وفي رواية: "من كانت له امرأتان فمال إلى أحدهما؛ جاء يوم القيامة وشقه مائل"، وفي رواية: "من كانت له امرأتان يميل إلى أحدهما على الأخرى؛ جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل"[٥].

والمراد بقوله: "فمال" وقوله: " يميل" الميل بظاهره؛ بأن يرجح إحداهما في الأمور الظاهرة التي حرم الشارع الترجيح فيها، لا الميل القلبي، وروى مسلم وغيره: " إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٦٨).

(٢) البخاري (٥٣٦٧)، ومسلم (٧١٥).

(٣) الفتح (٩/ ١٦٣).

(٤) الترمذي (١١٤١)وابن ماجه (١٩٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٥).

(٥) ابن ماجه (١٩٦٩)، وابن حبان (٤٢٠٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٩٤٩).

وأهليهم وما ولوا". فينبغي أن يعدل بينهن ولا يميل إلى بعضهن؛ فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن، كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ. فإن ظلم المرأة بليلتها قضي لها، فإن القضاء واجب عليه، وإنما عليه العدل في العطاء والمبيت، وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار. قال الله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (النساء: ١٢٩)، أي: أن تعدلوا في شهوة القلب وميل النفس، ويتبع ذلك التفاوت، وكان رسول الله ﷺ يعدل بينهن في العطاء والبيتوتة في الليالي[١].

قال تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ أخبر تعالى بنفي الاستطاعة في العدل بين النساء، وذلك في ميل الطبع بالمحبة والجماع والحظ من القلب. فوصف الله تعالى حالة البشر، وأنهم بحكم الخلقة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعض دون بعض، ولهذا كان ﷺ يقول: "**اللهم إن هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**"[٢] ثم نهى فقال (فلا تميلوا كل الميل) أي: لا تتعمدوا الإساءة؛ بل الزموا التسوية في القسمة والنفقة؛ لأن هذا مما يستطاع.

- **ومن حسن المعاشرة**: أن لا يتبسط في الدعابة وحسن الخلق، والموافقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها، ويسقط بالكلية هيبته عندها؛ بل يراعي الاعتدال فيه، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكرًا، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة؛ بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعض، فإن الله ملكه المرأة، فمن ملكها نفسه فقد عكس الأمر وقلب القضية وأطاع الشيطان لما قال: وَلَأٓمُرَنَّهُمْ ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١١٩).[٣]

٨ـ عدم إيلائها أكثر من أربعة أشهر: قال الله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٢٦-٢٢٧)

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٧٥). مسلم (١٨٢٧).

(٢) الترمذي (١١٤٠)، والمصنف (١٧٥٤٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (١٩٣).

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٧١).

والإيلاء: هو أن يحلف الرجل أن لا يطأ زوجته إما مدة هي أكثر من أربعة أشهر أو أربعة أشهر[١].

وهو لغة: الامتناع باليمين. وخص في عرف الشرع: بالامتناع من وطء الزوجة ولهذا عدى فعله بأداة "من" تضمينا له معنى "يمتنعون" من نسائهم، وهو أحسن من إقامة "من" مقام "على". وجعل سبحانه للأزواج مدة أربعة أشهر يمتنعون فيها من وطء نسائهم بالإيلاء؛ فإذا مضت، فإما أن يفيء، وإما أن يطلق. وقد دلت الآية على أحكام منها: أن من حلف على ترك الوطء أقل من أربعة أشهر لم يكن مؤليا، وهذا قول الجمهور. ومنها: أنه لا يثبت له حكم الإيلاء حتى يحلف على أكثر من أربعة أشهر، وبعد انقضائها إما أن يطلقوا وإما أن يفيئوا وهذا قول الجمهور، والجمهور يجعلون المدة أجلًا لاستحقاق المطالبة، وعند الجمهور لا يستحق المطالبة حتى تمضي الأربعة أشهر فحينئذ يقال: إما أن تفيء وإما أن تطلق، وإن لم يفيء أخذ بإيقاع الطلاق، إما بالحاكم وإما بحبسه حتى يطلق[٢].

ومن حسن العشرة: عدم هجر فراش الزوجة إلا لأمر شرعي:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ (النساء٣٤)، أي: النساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن. والنشوز: هو الارتفاع، فالمرأة الناشز: هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المعرضة عنه، المبغضة له، والهجران في المضاجع معناه: لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره، وهذا الهجر غايته عند العلماء شهر، كما فعل النبي ﷺ حين أسر إلى حفصة، فأفشته إلى عائشة، وتظاهرتا عليه، ولا يبلغ به الأربعة الأشهر التي ضرب الله أجلا عذرا للمولى[٣].

---

(١) بداية المجتهد (٣/ ١٨٧).

(٢) زاد المعاد (٥/ ٣١٠)

(٣) تفسير القرطبي (٥/ ١٧٨)، وابن كثير (٢/ ٢٥٧).

وفي ضمن الهجر: امتناعه من كلامها: ولا يزيد في هجرة الكلام على ثلاث[١].

ولا يهجرها إلا بعد عدم تأثير الوعظ؛ فإن أثر الوعظ لم ينتقل إلى الهجر، وإن كفاه الهجر، لم ينتقل إلى الضرب، فكلا من الهجر والضرب مقيد بعلم النشوز ولا يجوز بمجرد الظن[٢].

ولك أن تقول: إن عبارة في المضاجع تدل بمفهومها على منع ما جعله بعضهم معنى لها، فهو يقول: "﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ ولا يتحقق هذا بهجر المضجع نفسه، وهو الفراش، ولا يهجر الحجرة التي يكون فيها الاضطجاع؛ وإنما يتحقق بهجر في الفراش نفسه، وتعمد هجر الفراش أو الحجرة زيادة في العقوبة، لم يأذن بها الله تعالى، وربما يكون سببًا لزيادة الجفوة، ومن الهجر في المضجع نفسه معنى لا يتحقق بهجر المضجع أو البيت الذي هو فيه؛ لأن الاجتماع في المضجع يهيج شعور الزوجية، فتسكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر، ويزول اضطرابهما الذي أثارته الحوادث قبل ذلك، فإذا هجر الرجل المرأة وأعرض عنها في هذه الحالة، رجي أن يدعوها ذلك الشعور والسكون النفسي إلى سؤاله عن السبب، ويهبط بها من نشز المخالفة إلى الموافقة[٣].

٩ـ عدم طلاقها في الحيض، أو طهر مسها فيه: قال الله: ﷻ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ (الطلاق: ١)، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: طلقت امرأتي وهي حائض، فذكر ذلك عمر للنبي ﷺ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: "**مره فليراجعها حتى تحيض حيضة أخرى مستقبلة سوى حيضتها التي طلقها فيها؛ فإن بدا له أن يطلقها؛ فليطلقها طاهرًا من حيضتها قبل أن يمسها، فذلك الطلاق للعدة كما أمر الله**"[٤].

أجمع العلماء على أن المطلق للسنة في المدخول بها: هو الذي يطلق امرأته في طهر لم يمسها

(١) نظم الدرر (٢/ ٢٥٢).

(٢) فتح البيان في مقاصد القران (٣/ ١٠٧).

(٣) تفسير المنار (٥/ ٧٣).

(٤) البخاري (٥٢٥١)، ومسلم (١٤٧١).

فيه طلقه واحدة، وأن المطلق في الحيض أو الطهر الذي مسها فيه غير مطلق للسنة"[١].

عن عبد الله في قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال: الطهر من غير جماع. وعن ابن عباس قال: لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن تتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة، ولا يطلقها وقد طاف عليها، ولا يدري حبلى هي أم لا؟ ومن ها هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق، وقسموه إلى طلاق سنه وطلاق بدعة، فطلاق السنة: أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، أو حاملًا قد استبان حملها، والبدعي: هو أن يطلقها في حال الحيض، أوفي طهر قد جامعها فيه ولا يدري أحملت أم لا؟ [٢]

وكذلك فالنفساء حكمها حكم الحائض، قال الثوري: النفساء مثل الحائض لا تعتد بنفاسها في عدتها[٣].

١٠ـ عدم إخراجها من البيت ولو بعد الطلاق إلا لأمر شرعي: قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ يقول: وخافوا الله واحذروا معصيته أن تتعدوا حده، فلا تخرجوا من طلقتم من نسائكم لعدتهن من بيوتهن التي كنتم أسكنتموهن فيها قبل الطلاق؛ حتى تنقضي عدتهن[٤].

لما أمر بالتقوى، وناط بعضها بصفة الإحسان، فسره بقوله: (لا تخرجوهن) أي: أيها الرجال في حال العدة (من بيوتهن) أي: المساكن التي وقع فيها سكنهن، وكأنه عبر بذلك إشارة إلى أن استحقاقها لإيفاء العدة به في العظمة كاستحقاق المالك، ولأنها كانت في حال العصمة كأنها مالكة له؛ فليس من المروءة إظهار الجفاء بمنعها منه، ولأنها إن روجعت كانت حاصلة في الحوزة ولم يفحش الزوج في المقاطعة، وإن لم يحصل ذلك فظهر

(١) بداية المجتهد (٣/ ١٢٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١٤/ ٢٨).

(٣) عبد الرزاق (٦/ ٣١٢).

(٤) الطبري (١٤/ ١٣٢).

أنها حامل لم تحصل شبهة في الحمل[١] وأضيفت إليهن البيوت لاختصاصها بهن من حيث السكنى، ومعنى الجمع بين إخراجهم أو خروجهن قلت: معنى الإخراج: أن لا يخرجهن البعولة غضبًا عليهن وكراهة لمساكنتهن، أو لحاجة لهم إلى المساكن وأن لا يأذنوا لهن في الخروج إذا طلبن ذلك إيذانًا بأن إذنهم لا أثر له في رفع الحظر[٢]. فإذا أذن لها أن تعتد في غير بيته، فتعتد في بيت أهلها، فقد شاركها إذا في الإثم، ثم تلا: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ . . . .﴾[٣].

جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود ﷺفقال: إني طلقت امرأتي ثلاثًا وإنها أبت أن تعتد في بيتها، قال: لا تدعها قال: إنها أبت إلا أن تخرج قال تقيدها قال إن لها إخوة غليظة رقابهم قال استعد عليهم السلطان[٤].

١١ـ عدم العضل: قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ (البقرة: ٢٣٢)

(عضل) العضلة والعضلية: كل عصبة معها لحم غليظ. وعضل المرأة عن الزوج: حبسها[٥].

إن الله ﷻ أنزلها دلالة على تحريمه على أولياء النساء مضارة من كانوا له أولياء من النساء، بعضلهن عمن أردن نكاحه من أزواج كانوا لهن، فبن منهن بما تبين به المرأة من زوجها، من طلاق أو فسخ نكاح، ويعني بقوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ لا تضيقوا عليهن بمنعكم إياهن أيها الأولياء من مراجعة أزواجهن بنكاح جديد؛ تبتغون بذلك مضارتهن.

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٥).

(٢) تفسير الرازي (١٥/ ٣٧٤).

(٣) الطبري (١٤/ ١٣٣).

(٤) السنن لسعيد بن منصور (١/ ٣٢٣).

(٥) لسان العرب (٤/ ٢٩٨٩).

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ يعني تعالى ذكره بقوله ذلك، ما ذكر في هذه الآية: من نهي أولياء المرأة عن عضلها عن النكاح، يقول: فهذا الذي نهيتكم عنه من عضلهن عن النكاح، عظة مني لمن كان منكم أيها الناس يؤمن بالله واليوم الآخر، يقول: ومن يؤمن باليوم الآخر، فيصدق بالبعث للجزاء والثواب والعقاب، ليتق الله في نفسه، فلا يظلمها بضرار وليته ومنعها من نكاح من رضيته لنفسها، ممن أذنت لها في نكاحه، (ذلكم) أي: نكاح أزواجهن لهن، ومراجعة أزواجهن إياهن، بما أباح لهن من نكاح ومهر جديد؛ أزكى لكم أيها الأولياء والأزواج والزوجات. ويعني بقوله: (أزكى) أفضل وخير عند الله من فراقهن أزواجهن، وأما قوله: (وأطهر) فإنه يعني بذلك: أطهر لقلوبكم وقلوبهن وقلوب أزواجهن من الريبة. وذلك أنهما إذا كان في نفس كل واحد منهما -أعني الزوج والمرأة- علاقة حب، لم يؤمن أن يتجاوزا ذلك إلى غير ما أحله الله لهما، ولم يؤمن من أوليائهما أن يسبق إلى قلوبهم منهما ما لعلهما أن يكونا منه بريئين. فأمر الله تعالى ذكره الأولياء إذا أراد الأزواج التراجع بعد البينونة، بنكاح مستأنف، في الحال التي أذن الله لهما بالتراجع أن لا يعضل وليته عما أرادت من ذلك، وأن يزوجها؛ لأن ذلك أفضل لجميعهم، وأطهر لقلوبهم مما يخاف سبقه إليها من المعاني المكروهة. ثم أخبر تعالى ذكره عباده أنه يعلم من سرائرهم وخفيات أمورهم ما لا يعلمه بعضهم من بعض، ودلهم بقوله لهم ذلك في هذا الموضع، أنه إنما أمر أولياء النساء بإنكاح من كانوا أولياءه من النساء، إذا تراضت المرأة والزوج الخاطب بينهم بالمعروف، ونهاهم عن عضلهن عن ذلك؛ لما علم مما قلب الخاطب والمخطوبة من غلبة الهوى والميل من كل واحد منهما إلى صاحبه بالمودة والمحبة، فقال لهم تعالى ذكره: افعلوا ما أمرتكم به، إن كنتم تؤمنون بي، وبثوابي وبعقابي من معادكم في الآخرة، فإني أعلم من قلب الخاطب والمخطوبة مالا تعلمون من الهوى والمحبة. وفعلكم ذلك أفضل لكم عند الله ولهم، وأزكى وأطهر

لقلوبكم وقلوبهن في العاجل(١).

١٢ـ الخلع: والخلع لغة: الانتزاع على مهلة، ومنه خلع الثوب: نزعه. وسوى بعضهم بين الخلع والنزع، يقال: خلع امرأته وخالعها، إذا افتدت منه بمالها فطلقها وأبانها من نفسه، وسمي ذلك الفراق خلعا؛ لأن الله تعالى جعل النساء لباسًا للرجال والرجال لباسًا لهن فقال: " هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ " وهي ضجيعه وضجيعته، فإذا افتدت المرأة بمال تعطيه لزوجها ليبينها منه فأجابها إلى ذلك؛ فقد بانت منه، وخلع كل واحد منهما لباس صاحبه، والاسم من كل ذلك: الخلع(٢).

إذًا فالخلع في الشرع: هو بذل المرأة العوض على طلاقها، إلا أن اسم الخلع يختص ببذلها له جميع ما أعطاها، والصلح ببعضه، والفدية بأكثره، والمبارأة بإسقاطها عنه حقًا لها عليه(٣).

والأصل في إباحة الخلع: قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

فقوله تعالى: (ولا يحل لكم) أي: أيها المطلقون ﴿أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ من المهر وغيره، ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: فيما يلزمها من حقوق الزوجية "فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به " أي: نفسها عن ضرره، أي: لا إثم على الزوج في ما أخذ ما افتدت به ولا عليها في إعطائه وهذه الآية أصل في الخلع(٤).

والدليل من السنة على جواز الخلع: أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين؛ ولكني أكره الكفر في الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: " أتردين عليه حديقته"؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: **اقبل**

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٨٧-٤٨٩).

(٢) لسان العرب (٨/ ٧٦).

(٣) بداية المجتهد (٣/ ١٢٩).

(٤) محاسن التأويل (٣/ ٢٤٨).

الحديقة، وطلقها تطليقة"[١].

فالإسلام أباح للمرأة عند وقوع الضرر الغير محتمل أن تطلب الفراق، فلا تجبر على زواج لا تستقيم به حياتها، ولا يحفظ لها دينها، وهذا من أسمى درجات العدل في الإسلام.

١٣ـ ومن حق الزوجة حضانة ولدها: والحضانة هي: حفظ صغير ومعتوه -وهو المختل العقل- ومجنون عما يضرهم، وتربيتهم بعمل مصالحهم من غسل بدنهم وثيابهم ودهنهم ونحو ذلك، وأم المحضون أولى بحضانته من جميع أقاربه؛ لما روى عبد الله بن عمر وبن العاص: "أن امرأة قالت: يا رسول الله: إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحجري له حواء، وإن أباه طلقني، وأراد أن ينزعه مني. فقال رسول الله ﷺ: " أنت أحق به مالم تنكحي"[٢]، ولأنها أشفق عليه وأقرب، ولا يشاركها في القرب إلا الأب، وليس له مثل شفقتها، ولا يتولى الحضانة بنفسه وإنما يدفعه إليها، فتقدم على غيرها، ولو بالأجرة مثلها كرضاع[٣].

١٤ـ الإرث: قال الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ (النساء: ١٢). ، يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ أي: ولأزواجكم أيها الناس، ربع ما تركتم بعد وفاتكم، من مال وميراث، إن حدث بأحدكم حدث الوفاة، ولا ولد له ذكر ولا أنثى﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ يقول: فإن حدث بأحدكم حدث الموت وله ولد ذكر أو أنثى، واحدًا كان الولد أو جماعه ﴿فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ يقول: فلأزواجكم حينئذ من أموالكم وتركتكم التي تخلفونها بعد وفاتكم، الثمن من بعد قضاء ديونكم التي حدث بكم

---

(١) البخاري (٥٢٧٣).

(٢) أبوداود (٢٢٧٦)، والحاكم (٢/ ٢٠٧)، وصححه.

(٣) معونة أولي النهي (٨/ ١٠٧-١٠٨).

حدث الوفاة وهي عليكم، ومن بعد إنفاذ وصاياكم الجائزة التي توصون بها[(١)].

فهذه فريضة الميراث الذي سببه العصمة، وقد أعطاها الله حقها المهجور عند الجاهلية، إذ كانوا لا يورثون الزوجين، فكانت المرأة لا ترث زوجها؛ بل كانت تعد موروثة عنه يتصرف فيها ورثته. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ فنوه الله في هذه الآيات بصلة العصمة، وهي التي وصفها بالميثاق الغليظ في قوله: " وأخذن منكم ميثاقا غليظا"[(٢)].

١٥ـ حفظ الزوجة وصيانتها: من حقوق المرأة حفظها من كل ما يسئ إليها بالقول أو الفعل ويخدش حياءها وكرامتها، فمن ذلك ألا يسبها أو يلعنها أو يؤذيها بسيء الأقوال، وكذلك ألا يهجرها إلا بالحق، وألا يضربها إلا برفق، ضربًا غير مبرح، ولو اتبع الزوج نصيحة القرآن الكريم في إصلاح الأسرة؛ لاستغنى عن كثير من الأمور التي عاقبتها الطلاق، أو الحياة المضطربة المتوترة التي تخلو من المودة والرحمة والسكن، ولذلك كان من حقها أن يجنبها أسباب الفتن ومواضع الشبهات، فيقول ﷺ: **"ذبوا بأموالكم عن أعراضكم**، قالوا: يا رسول الله كيف نذب بأموالنا عن أعراضنا؟ قال: **يعط الشاعر ومن تخافون لسانه"**[(٣)]. فمن حق الزوجة على زوجها؛ أن يحمي عرضها ويجنبها مجالس السوء، ويعالج الأحقاد والدسائس بحكمة، ويحذر إشاعة أسرارها وأحوالها الخاصة، ويحمي عرضه بماله ونفسه (فمن مات دون عرضه فهو شهيد) وهذا يحتاط منه نساء العلماء والدعاة بخاصة، حيث يتربص أهل الأحقاد والفجور، فيعملون على تشويه صورة أهل العلم، ومن تدبر قصة الإفك لاستخرج منها عبرًا وعظات دالة على تربص المنافقين وأهل

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٢٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٦٣).

(٣) صححه الألباني في الصحيحة (١٤٦١)، وهو في كنز العمال (٨٧٥٥).

الريب بالمؤمنين[١]. وكذلك حديث زيارة السيدة صفية أم المؤمنين للنبي ﷺ في معتكف فخرج معها إلى بَابِ أُمِّ سَلَمَة، مَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَار، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: **عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**، فَقَالَا: سُبْحَانَ الله يَا رَسُولَ الله وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا**"[٢]. وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: "**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء** "[٣]، والديوث هو الذي يرى المنكر بأهله فلا يغيره، فمن رأى في أهله عوجًا أو سوء خلق، فلا يسكت؛ بل يسارع بالإصلاح، وإلا كان من أهل السوء، ويستوجب غضب الله تعالى، ولهذا كانت الغيرة المحمودة، التي تحافظ على العرض، وتصون حمى المرأة من كل سوء، بل هذا من أوجب الأمور على الرجل، فمن حقها أن يسكنها بين صالحين مشهور عنهم الأدب، لا الفجور وفعل المنكرات، ولا يجبرها على صحبة أهل السوء، ولا يرضى لها ذلك.

١٦ـحق المرأة في النسب: قال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ (الأحزاب: ٥)، فليس لأحد أن يغير نسبه، وكما هو للرجل، فهو كذلك للمرأة تُدعى لأبيها، وهذا ما عليه الفطرة والشرع فليس لها ولزوجها أن يدعوها بغير أبيها، كما يفعل المتشبهون بالغرب، فينسبون المرأة لزوجها بعد الزواج، ثم بعد ذلك يدعون الدفاع عن المرأة، وهم سالبون لأهم ركن في حريتها ويقول تعالى: (ومريم ابنت عمران) فنسبها لأبيها.

١٧ـحق المرأة في التصرف في مالها: يقول تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ (النساء٣٢)، للرجل نصيبه من الثواب والعقاب، وللنساء كذلك، فللمرأة الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها كما للرجل،

---

(١) القرطبي (٤/ ٤٥٧٨).

(٢) البخاري (٢٠٣٥).

(٣) النسائي (٢٥١٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٠٩٩).

والاكتساب يعني الإصابة للذكر مثل حظ الأنثيين[١].

ويدخل في ذلك أن الرجال يختصون بما كسبوا، والنساء يتخصصن بما اكتسبن من الأموال، ومن هنا كان للمرأة الحق في التصرف في مالها في حدود مرضاة الله تعالى، فلها التصرف في البيع والشراء والهبة والوصية والإيجار وغير ذلك، وليس للزوج حق التدخل في تصرفات المرأة في مالها إلا في حالة الضرر والتعسف في استخدام الحق، ولا يجوز أخذ الزوج أو غيره شيئًا من مهرها قل أو كثر[٢].

١٨ـحق المرأة في التعبير عن حقها بالمعروف: يقول تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١). فعن خولة بنت ثعلبة قالت: وَالله فِيَّ وَفِي أَوْسِ بْنِ صَامِتٍ أَنْزَلَ الله ﷻصَدْرَ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ. قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَهُ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ سَاءَ خُلُقُهُ وَضَجِرَ، قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا فَرَاجَعْتُهُ بِشَيْءٍ فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ فَجَلَسَ فِي نَادِي قَوْمِهِ سَاعَةً ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ، فَإِذَا هو يُرِيدُنِي عَلَى نَفْسِي، قَالَتْ: فَقُلْتُ: كَلَّا، وَالَّذِي نَفْسُ خُوَيْلَةَ بِيَدِهِ، لَا تَخْلُصُ إِلَيَّ وَقَدْ قُلْتَ مَا قُلْتَ حَتَّى يَحْكُمَ الله وَرَسُولُهُ فِينَا بِحُكْمِهِ. قَالَتْ: فَوَاثَبَنِي وَامْتَنَعْتُ مِنْهُ، فَغَلَبْتُهُ بِمَا تَغْلِبُ بِهِ الْمَرْأَةُ الشَّيْخَ الضَّعِيفَ، فَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى بَعْضِ جَارَاتِي فَاسْتَعَرْتُ مِنْهَا ثِيَابَهَا، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْه، فَذَكَرْتُ لَهُ مَا لَقِيتُ مِنْهُ، فَجَعَلْتُ أَشْكُو إِلَيْهِ ﷺ مَا أَلْقَى مِنْ سوءِ خُلُقِهِ، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُول: **يَا خُوَيْلَةُ، ابْنُ عَمِّكِ شَيْخٌ كَبِيرٌ فَاتَّقِي الله فِيهِ**، قَالَتْ: فَوَ الله مَا بَرِحْتُ حَتَّى نَزَلَ فِيَّ الْقُرْآنُ، فَتَغَشَّى رَسُولُ الله ﷺ مَا كَانَ يَتَغَشَّاهُ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَقَالَ لِي: يَا خُوَيْلَةُ، قَدْ أَنْزَلَ الله فِيكِ وَفِي صَاحِبِكِ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيَّ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ **إِلَى قَوْلِهِ** ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فَقَالَ

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ١٧٣٤).

(٢) المحلى (٩/ ٥٠٧).

لِي رَسُولُ الله ﷺ: **مُرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً**، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَالله يَا رَسُولَ الله مَا عِنْدَهُ مَا يُعْتِقُ، قَالَ: **فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ**، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَالله يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَا بِهِ مِنْ صِيَامٍ، قَالَ: **فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ**، قَالَتْ: قُلْتُ: وَالله يَا رَسُولَ الله، مَا ذَاكَ عِنْدَهُ قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **فَإِنَّا سَنُعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ**، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَأَنَا يَا رَسُولَ الله سَأُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخَرَ، قَالَ: **قَدْ أَصَبْتِ وَأَحْسَنْتِ، فَاذْهَبِي فَتَصَدَّقِي عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكِ خَيْرًا**، قَالَتْ: فَفَعَلْتُ، قَالَ سَعْدٌ: الْعَرَقُ الصَّنُّ[1].

فها هي خولة تجادل وترفع شكواها إلى رسول الله ﷺ، فسمعها رب العالمين وأنصفها من زوجها الذي تعجل في أمره، فالإسلام يسمح للمرأة أن ترفع شكواها لوليها أو القاضي أو الحاكم، ولها أن تتحدث بما يليق، ولا يحق لأحد هضم حقها، ورسول الله ﷺ يصبر على أحوال بعض نسائه، ويستمع إليهن بما يثير أحيانًا أبا بكر، وتارة يثار عمر كذلك على ابنته حفصة كما جاء في صدر سورة التحريم.

١٩ـ حق الزوجة الكتابية: قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (المائدة: ٥).

قال ابن قدامة: ليس بين أهل العلم بحمد الله اختلاف في حل حرائر نساء أهل الكتاب، بإجماع الصحابة، وهذا في الكتابيات دون الوثنيات أو المحاربات، وحيث كون الكتابيات، وبخاصة اللاتي يعشن في بلاد المسلمين، يوجد في دينها التقاء مع الإسلام في أمر التوحيد؛ حيث أن أصل الدين واحد، أما التحريف فطارئ عليه بأيديهم وتأويلهم، وهذا بخلاف الوثنيات.

وقال العلماء: وإذا تزوج المسلم الكتابية، فيكون عليها كل الحقوق التي على المسلمة، وكذلك لها حقوق المسلمة؛ إلا في التوارث؛ لأن شرط التوارث اتحاد الدين، مع الأخذ في

(١) مسند أحمد (٢٦٧٧٤)، أبوداود (٢٢١٤). وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٠٨٧).

الاعتبار، أن يكون جميع الأولاد مسلمين بلا فرق بين الذكر والأنثى، وله أن يدعوها إلى الإسلام، ويحببها في أحكامه، بما تراه من محافظة منه على دينه، وعدم تعاطيه المحرمات، مع المحافظة على الطاعات واستعمال العدل والإنصاف معها.

رابعًا: حق المرأة كمعتدة:

١ـ تحريم الخطبة: لا يجوز للأجنبي خطبة المعتدة صراحةً، سواء أكانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها، لأن المطلقة طلاقًا رجعيًا في حكم الزوجة، فلا يجوز خطبتها لبقاء بعض آثار الزواج في المطلقة ثلاثًا أوبائنًا أو متوفى عنها زوجها، ولا يجوز أيضًا التعريض بالخطبة في عدة الطلاق، ويجوز في عدة الوفاة: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ (البقرة٢٣٥).

قال أبو جعفر الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: ولا جناح عليكم، أيها الرجال، فيما عرضتم به من خطبة النساء، للنساء المعتدات من وفاة أزواجهن في عددهن، ولم تصرحوا بعقد نكاح[1]. وكذلك يحرم الزواج، لقوله تعالى: (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) ولا يجوز الخروج من البيت، لقوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ (الطلاق: ١).

٢ـ حقها في السكنى في بيت الزوجية، والنفقة: هذا حق للمرأة واجب على الزوج، أما سكنى المعتدة- أي معتدة- في بيت الزوجية فواجبة، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ (الطلاق: ١).

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٩٥).

قال الطبري: يقول: وخافوا الله أيها الناس ربكم فاحذروا معصيته أن تتعدّوا حده، لا تخرجوا من طلقتم من نسائكم لعدتهنّ من بيوتهنّ التي كنتم أسكنتموهنّ فيها قبل الطلاق حتى تنقضي عدتهنّ[١].

وعن القاسم بن محمد وسليمان بن يسار أن يَحْيَى بْنَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، طَلَّقَ بِنْتَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ، فَانْتَقَلَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ؛ فَأَرْسَلَتْ عَائِشَةُ (أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ) إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ وَهُو أَمِيرُ الْمَدِينَةِ: اتَّقِ الله وَارْدُدْهَا إِلَى بَيْتِهَا. قَالَ مَرْوَانُ- فِي حَدِيثِ سلَيْمَانَ-: إِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَكَمِ غَلَبَنِي[٢].

وعن عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ عَبْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ: أَنَّ أَبَا عَمْرِو بْنَ حَفْصِ بْنِ الْمُغِيرَةِ خَرَجَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ إِلَى الْيَمَنِ، فَأَرْسَلَ إِلَى امْرَأَتِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ بِتَطْلِيقَةٍ كَانَتْ بَقِيَتْ مِنْ طَلَاقِهَا، وَأَمَرَ لَهَا الْحَارِثَ ابْنَ هِشَامٍ وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ بِنَفَقَةٍ، فَقَالَا لَهَا: وَالله مَا لَكِ نَفَقَةٌ إِلَّا أَنْ تَكُونِي حَامِلًا، فَأَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَتْ لَهُ قَوْلَهُمَا فَقَالَ: لَا نَفَقَةَ لَكِ، فَاسْتَأْذَنَتْهُ فِي الِانْتِقَالِ، فَأَذِنَ لَهَ، ا فَقَالَتْ: أَيْنَ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ: إِلَى ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، -وَكَانَ أَعْمَى تَضَعُ ثِيَابَهَا عِنْدَهُ وَلَا يَرَاهَا- فَلَمَّا مَضَتْ عِدَّتُهَا أَنْكَحَهَا النَّبِيُّ ﷺ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا مَرْوَانُ قَبِيصَةَ بْنَ ذُؤَيْبٍ يَسْأَلُهَا عَنْ الْحَدِيثِ فَحَدَّثَتْهُ بِهِ، فَقَالَ مَرْوَانُ: لَمْ نَسْمَعْ هَذَا الْحَدِيثَ إِلَّا مِنْ امْرَأَةٍ سَنَأْخُذُ بِالْعِصْمَةِ الَّتِي وَجَدْنَا النَّاسَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ حِينَ بَلَغَهَا قَوْلُ مَرْوَانَ: فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الْقُرْآنُ، قَالَ الله ﷻ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ قَالَتْ: هَذَا لِمَنْ كَانَتْ لَهُ مُرَاجَعَةٌ، فَأَيُّ أَمْرٍ يَحْدُثُ بَعْدَ الثَّلَاثِ؟ فَكَيْفَ تَقُولُونَ لَا نَفَقَةَ لَهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ حَامِلًا؟ فَعَلَامَ تَحْبِسُونَهَا؟ [٣].

وعن عائشة أنها قالت: ما لفاطمة ألا تتقي الله (يعني في قولها: لاسكنى ولا نفقة)[٤].

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ١٢١).

(٢) البخاري (٥٣٢٢، ٥٣٢١).

(٣) مسلم (١٤٨٠).

(٤) البخاري (٥٣٢٤، ٥٣٢٣).

وعن عروة بن الزبير أنه قال لعائشة: أَلَمْ تَرَيْ إِلَى فُلَانَةَ بِنْتِ الْحَكَمِ، طَلَّقَهَا زَوْجُهَا الْبَتَّةَ، فَخَرَجَتْ، فَقَالَتْ: بِئْسَ مَا صَنَعَتْ، قَالَ: أَلَمْ تَسْمَعِي فِي قَوْلِ فَاطِمَةَ، قَالَتْ: أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ لَهَا خَيْرٌ فِي ذِكْرِ هَذَا الْحَدِيثِ، وفي رواية (عَابَتْ عَائِشَةُ أَشَدَّ الْعَيْبِ وَقَالَتْ: إِنَّ فَاطِمَةَ كَانَتْ فِي مَكَانٍ وَحْشٍ فَخِيفَ عَلَى نَاحِيَتِهَا، فَلِذَلِكَ أَرْخَصَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ)[1].

٣ـ ثبوت نسب الولد المولود في فترة العدة: يثبت نسب ولد المطلقة والمتوفى عنها زوجها إذا جاءت به في وقت تحتمله أقصى مدة للحمل على اختلاف في تفاصيلها بين الفقهاء والقانونيين والأطباء الرجعية[2].

٤ـ ثبوت الإرث في العدة: إذا مات أحد الزوجين قبل انقضاء عدة المطلقة طلاقًا رجعيًا؛ ورثه الآخر بلا خلاف، سواء أكان الطلاق في حال المرض أم في حال الصحة، لبقاء الزوجية حكمًا، فتكون سببًا لاستحقاق الإرث من الجانبين. فإن كان الطلاق بائنًا أو ثلاثًا في حال الصحة، فمات أحد الزوجين في العدة لم يرثه الآخر وإن كان الطلاق بائنًا ثلاثًا في حال المرض، فإن كان برضاها لا ترث بالإجماع، وإن كان بغير رضاها فإنها ترث من زوجها عند الجمهور[3]

خامسًا: حق الأم.

أولًا: بر الأم: قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (لقمان١٤). والوهن: هو الضعف وقلة الطاقة على تحمل شيء، وقال الطبري: ضعفا على ضعف وشدة على شدة[4]. فإنّ حَمْل المرأة يقارنه التعب من ثقل الجنين في البطن، والضعف من كون الجنين يتغذى من أمه، ويتزايد ضعفها بامتداد زمن الحمل، فلا جرم أنه وهن على وهن، فهذا باعث على الوصية بالوالدين خاصة الأم. ويقول تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ

---

(١) البخاري (٥٣٢٦، ٥٣٢٥).

(٢) حقوق الإنسان في ضوء الكتاب السنة.

(٣) حقوق الإنسان في ضوء الكتاب والسنة (٣٢٦).

(٤) تفسير الطبري (٢١/ ٦٩).

ﱡﭐ أَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﱠ (الإسراء: ٢٤)، فالأب أيضًا مشترك في التعب والوهن، ولهذا جمع الله بينهما في تعب التربية في تلك الآية، فلزم بر كليهما حيث يتوليان حفظه وإكمال نشأته، ولهذا إذا تعارض حقها دون القدرة على الجمع بينهما حيث جمعها الله تعالى في الوصية ثم خصص الأم بذكر درجة الحمل ودرجة الرضاعة، ودرجة الولادة قبل ذلك، فتحصل للأم ثلاث مراتب، وللأب واحدة، ولهذا قال رسول الله ﷺ حين سأله رجل درجة أحق الناس بحسن صحبته قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك)[١]. وفيه تأكيد للبر بالأم خشية التفريط فيه؛ إذ قد يقع التفريط في الوفاء الواجب للأم من الابن، اعتمادا على ما يلاقيه من اللين منها؛ بخلاف جانب الأب فإنه قوي ولأبنائه خوف من شدته[٢]. وقال ﷺ: " **إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات**"[٣]. وهو من تخصيص الشيء بالذكر إظهارًا لعظيم موقعه[٤].

وذهب العلماء إلى أن عقوق الوالدين مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أن برهما موافقتهما على أغراضهما، وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله، وكذلك إذا كان من قبيل المندوب، وقد ذهب بعض الناس إلى أن أمرهما بالمباح يصير في حق الولد مندوبا إليه، وأمرهما بالمندوب يزيده تأكيدا في ندبيته[٥].

وكل هذا بشرط ألا يكون المأمور به معصية[٦]. ومن البر بهما عدم تعرضهما لأي أذى وخاصة الأم، لقوله ﷺ: "**إن مِنْ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ قَالُوا يَا رَسُولَ الله: وَهَلْ**

---

(١) البخاري (٥٩٧١)، مسلم (٢٥٤٨).

(٢) تفسير ابن عطية (١٠/ ٢٧٦)، التحرير التنوير (٢١/ ١٥٨).

(٣) البخاري (٥٩٧٥).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٤٥٧).

(٥) القرطبي (٥/ ٣٨٥٤).

(٦) حقوق الإنسان ليسري السيد محمد (٢٤١: ٢٤٠).

يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ"[١].

الإحسان إلى الأم: ومن الإحسان إليها أن لا يخرج للجهاد بدون إذنها وإذن أبيه، وهذا مستفاد من قوله ﷺ لرجل جاءه فقال: "جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبواي يبكيان، فقال ﷺ: ارجع اليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما"[٢]. قال الخطابي: إن كان الخارج فيه متطوعًا؛ فإن ذلك لا يجوز إلا بإذن الوالدين، فأما إذا تعين عليه فرض الجهاد فلا حاجة إلى إذنهما، هذا إن كانا مسلمين، فإن كانا كافرين، يخرج بدون إذنهما فرضا كان الجهاد أو تطوعًا[٣]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: أحي والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد)[٤].

واستدل به على تحريم السفر بغير إذن؛ لأن الجهاد إذا منع مع فضيلته فالسفر المباح أولى[٥].

حقها في النفقة: قال رسول الله ﷺ: "إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم"[٦].

وقال ﷺ: "أنت ومالك لأبيك"[٧]. ولما كان الأب هو سبب وجود هذا الرجل، فكان من أهنأ وأحل الطعام من مال هذا الرجل، ولأن الرجل بعضه، وحكم بعضه حكم نفسه، ثم بين في الحديث الثاني: أن وجودك سبب وجود مالك، فصار له بذلك حق كان به أولى منك بنفسك، فإذا احتاج فله أن يأخذ منه قدر الحاج، فليس المراد إباحة ماله له حتى يستأصله بلا حاجة، ولوجوب نفقة الأصل على فرعه[٨].

---

(١) مسلم (٩٠).

(٢) أبو داود (٢٥٢٨٩)، النسائي (٤١٦٣)، وابن ماجه (٢٧٨٢) وهو في صحيح أبي داود (٢٢٠٥).

(٣) عون المعبود (٥/ ٤٢٤).

(٤) البخاري (٣٠٠٤)، مسلم (٢٥٤٩)

(٥) فتح الباري (٦/ ١٥٩)

(٦) الترمذي (١٣٥٨)، ابن ماجه (٢٢٩٠)، وهو في صحيح ابن ماجه (١٨٥٤).

(٧) ابن ماجه (٢٢٩١)، مسند أحمد (٢/ ٢٠٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٥٥).

(٨) فيض القدير (٣/ ٥٢: ٥١).

قال ابن القيم: قال حرب: سمعت الإمام أحمد بن حنبل يقول: يأخذ الرجل من مال ولده ما شاء، وإن كان غنيًا[١]. فتكون الأم من باب أولى بالنفقة، لأن حقها أعظم من حق الأب كما بينا.

حقها بعد موتها: لا يتوقف حق الوالدين على حياتهما؛ بل يظل إلى ما بعد موتهما قال ﷺ: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له)[٢]، ويشمل هذا الدعاء عند صلاة الجنازة: الاستغفار لهما وسؤال الله تعالى الرحمة لهما، والوفاء بوصيتهما بما يوافق شرع الله، والإحسان لأقاربهما وأصدقائهما[٣].

سادسًا: حق المرأة في عبادة الله: يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ (النحل٩٧)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات١٣)، وقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٥)، جعل الله المرأة نصف الحياة، ولذا لم يكن قبل الإسلام ذكر للمرأة ومنزلتها، ففي الوقت الذي كانت أوروبا غارقة في الظلمات، وتبحث هل المرأة جسد وروح أم جسد فقط؟ وهل هي إنسان أم شيطان؟ فجاء الإسلام ليزيح عنها تراب الجاهلية، وجبال الضلال والشرك، وبدد الإسلام ستائر الظلمات التي أحاطت بأخلاق المرأة ووضعها، وتحقير الإنسان حينئذ لها، فلهذا كان من اللازم أن يحمي الإسلام حق المرأة في عبادة الله، دون إكراه، أو تضييق، فلها الحق في توحيد الله دون إكراه لها على الشرك والضلالات، قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ٣٤). ويقول تعالى في بيان صفة المرأة المسلمة الصادقة: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ

(١) جامع الفقه (٤/ ٦٢٦).

(٢) مسلم (١٦٣١).

(٣) حقوق الإنسان في ضوء الكتاب والسنة.

وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ (الأحزاب: ٣٥). وجاء في أسباب النزول: أن النساء سألن النبي ﷺ ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال فأنزل الله تعالى الآية[1]. والمقصود من أصحاب هذه الأوصاف المذكورة: النساء، وأما ذكر الرجال، فللإشارة إلى أن الصنفين في هذه الشرائع سواء، ليعلموا أن الشريعة لا تختص بالرجال، لا كما كان معظم شريعة التوراة خاصا بالرجال، إلا الأحكام التي لا تتصور في غير النساء.

مما سبق يتضح: أن الله قد حفظ المرأة، وهي خلق من خلقه تعالى، ولهذا نبه على أن المرأة تقيم أولًا حق الله تعالى؛ حتى تشعر هي بمدي حفظ الله لها، والقرآن الكريم قد أكد المساواة في الجزاء، وعدم أفضلية الرجل على المرأة في أداء الصلاة مثلًا، إنما العبرة بالإخلاص والصدق: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (النساء١٢٤)، وقال تعالى ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات﴾ ثم المساواة في التكاليف إلا خص به الرجل، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ (النور٣١: ٣٠). وقال ﷺ: **"إن النساء شقائق الرجال"**[2].

وقال ابن الأثير: أي نظائرهم وأمثالهم في الأخلاق والطباع، كأنهن شققن منهم، ولأن حواء خلقت من آدم[3].

ثم المساواة في العقوبات، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ (المائدة:

(١) الترمذي (٣٠٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٦٥).

(٢) أبو داود (٢٢٧)، الترمذي (١١٣)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٦).

(٣) النهاية (٢/ ٤٩٢).

٣٨)، وقال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖ﴾ (النور: ٢).

١٢ـ حق الطفل

أولًا ـ إثبات نسبه وتحسين اسمه: قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ (الأحزاب: ٥).

هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبني وهو من نسخ السنة بالقرآن فأمر أن يدعوا من دعوا إلى أبيه فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى ولائه فإن لم يكن له ولاء معروف قال له يا أخي يعني في الدين قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٞ﴾ (الحجرات: ١٠)[(١)]. أما ما يستحب من الأسماء فقد قال النبي ﷺ: **" إن أحب أسمائكم إلى الله ﷻ عبد الله وعبد الرحمن "**[(٢)].

قال النووي: فيه التسمية بهذين الاسمين، وتفضيلهما على سائر ما يسمى به[(٣)]، وكذلك يستحب تسمية الطفلة بما يدل الصدق ورفعة الشأن والهمة، وعن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ غير اسم (عاصية) وقال: (أنت جميلة)[(٤)]. وقال ﷺ **"لا تسمين غلامك يسارًا ولا رباحًا ولا نجاحًا ولا أفلح فإنك تقول: أثم هو فلا يكون، فيقول: لا "**[(٥)].

قال ابن القيم: تغيير الاسم يكون لقبحه وكراهته فقد يكون لمصلحة أخرى مع حسنه كما غير اسم برة بزينب كراهة التزكية وأن يقال خرج من عند برة أو يقال كنت عند برة فيقول لا، ويجوز التسمية بأكثر من اسم، وكذلك الجمع بين الاسم والكنية واللقب[(٦)].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت جويرية اسمها برة فحول رسول الله ﷺ اسمها

---

(١) إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٣٠٣).

(٢) مسلم (٢١٣٢).

(٣) شرح النووي (٧/ ٣٦٩).

(٤) مسلم (٢١٣٩)، الترمذي (٢٨٣٨) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٥) مسلم (٢١٣٧).

(٦) تحفة المودود (١/ ١٣٣).

جويرية وكان يكره أن يقال: خرج من عند برة(١).

قال النووي: معنى هذه الأحاديث تغيير الاسم القبيح أو المكروه إلى حسن وقد ثبتت أحاديث بتغيير أسماء جماعة كثيرين من الصحابة، وقد بين ﷺ العلة في النوعين وما في معناهما وهى التزكية أو خوف التطير(٢).

ثانيًا: **العقيقة**: قال ﷺ: " كل غلام رهينة بعقيقه تذبح عنه يوم سابعه ويسمى فيه ويحلق رأسه"(٣).

ثالثا: **حق الطفل في الاختتان**: الختان: اسم لفعل الخاتن، وهو مصدر كالنزال والقتال، ويسمى به كذلك موضع الختن، وهو قطع الجلدة التي تغطي الحشفة من الذكر، وقطع جزء من الجلدة التي في أعلى الأنثى(٤).

فعن أبي هريرةؓ قال: قال رسول الله ﷺ: خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، وقص الشارب(٥). وينبغي أن يقوم بذلك طبيب خبير، ولعل من المفيد من استشارة الطبيب والطبيبة المسلمة الثقة الخبيرة في أمر ختان البنات، فلهن مقدرة على معرفة احتياجهن من عدمه، وينبغي مراعاة الرفق وعدم العنف خاصةً مع المرأة.

رابعًا: **رضاعه**: فبعد خروج هذا المخلوق الصغير العجيب، تتداركه رحمة ربه بإنشاء هذا المصنع العجيب لإفراز الغذاء الطيب (اللبن من صدر أمه)، فها هو سبحانه وتعالى يطعمه من جوع ويؤمنه من الخوف لأنه بين يدي أمه التي جعل الله تعالى فيها من الحنان مالا يتخيل مثله، ولا يقاس حنان على حنانها ولا شفقة على شفقتها، وإذا كان الرجل

---

(١) مسلم (٢١٤٠).

(٢) شرح النووي (٧/ ٣٧٤).

(٣) أبو داود (٢٨٣٨)، والترمذي (١٥٢٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وراجع صحيح الجامع (٤٥٤١).

(٤) لسان العرب (٢/ ١١٠٢).

(٥) البخاري (٥٨٨٩)، مسلم (٢٥٧).

يؤجر للقمة يطعمها زوجته، فما ظننا بما تصنعه الأم مع ولدها في هذه المرحلة الخطيرة من عمر الإنسان، فالأب وعليه النفقة، وفيها إطعام الأم فيجب عليه الاعتناء بها، لأنها بدورها تقوم على مخلوق آخر غيرها وهو طفلها، فيحرم على الأب التقصير تجاه الأم، لأنه بالتالي يؤدي إلى التقصير تجاه المولود، ويقول ﷺ: **"كفى بالمرء إثمًا أن يضيع ما يعول"**[(١)].

وتأمل رحمة الأم بوليدها كما يصوره الحديث الشريف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: **"أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ**، قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ! فَقَالَ: **للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا"**[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

قال ابن القيم: دلت الآية على عدة أحكام:

أحدها: أن تمام الرضاع حولين وذلك حق للولد إذا احتاج إليه ولم يستغن عنه وأكدهما بكاملين لئلا يحمل اللفظ على حول وأكثر، وثانيها: أن الأبوين إذا أرادا فطامه قبل ذلك بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل فلهما ذلك. وثالثها: أن الأب إذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك وإن كرهت الأم إلا أن يكون مضارا بها أو بولدها فلا يجاب إلى ذلك ويجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى

---

(١) سنن النسائي الكبرى (٩١٧٦)، المستدرك (٨٥٢٦)، وصححه الألباني في الإرواء بلفظ (من يقوت) (٣/ ٤٠٦)، وهذا اللفظ عند أبي داود (١٦٩٢)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٨٤).

(٢) البخاري (٥٩٩٩)، مسلم (٢٧٥٤).

نصف الثالث أو أكثر[١].

خامسًا: فطامه: قال الله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ (البقرة: ٢٣٣).

دلت الآية على عدة أحكام:

أحدها: أن إتمام الرضاع حولين وذلك حق للولد إذا احتاج إليه ولم يستغن عنه وأكدهما (بكاملين) لئلا يحمل اللفظ على حول وأكثر الثاني.

وثانيهما: أن الأبوين إذا أرادا إفطامه قبل ذلك بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل فلهما ذلك.

وثالثهما: أن الأب إذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك وإن كرهت الأم ألا يكون مضارا بها أو بولدها فلا يجاب إلى ذلك.

سادسًا: الإنفاق على الولد: قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ (الطلاق: ٧).

وروى أبو هريرة ﷺأن رجلًا أتى النبي ﷺ " فقال: يا رسول الله، عندي دينار، فقال: **أنفقه على نفسك**، قال: عندي آخر، قال: **أنفقه على ولدك** "[٢]. وقال ﷺ: **"كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت"**[٣].

---

(١) تحفة المودود (٢٠٥).

(٢) أحمد (٢/ ٢٥١)، وأبو داود (١٦٩١)، والنسائي (٢٥٣٥)، وابن حبان (٣٣٣٧)، صحيح الترغيب والترهيب (٩٨٥).

(٣) مسلم (٩٩٦).

وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٢٣). وقال ﷺ: **"وابدأ بمن تعول"**[١].

قال النووي: فيه تقديم نفقة نفسه وعياله، لأنها منحصرة فيه، بخلاف نفقة غيرهم[٢].

سابعًا: حق الحضانة: يثبت على الطفل منذ ولادته ثلاث ولايات:

الولاية الأولى: ولاية التربية.

الولاية الثانية: الولاية على النفس.

الولاية الثالثة: على ماله إن كان له مال.

أما الأولى هي ولاية التربية، فهذه وظيفة النساء، وهوما يسمى بالحضانة، فالحضانة هي تربية الولد في المدة التي لا يستغنى فيها عن النساء ممن لها الحق في تربيته شرعًا، وهي حق للأم ثم لمحارم المولود من النساء، والأصل في الباب حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ ابْنِي هَذَا كَانَ بَطْنِي لَهُ وِعَاءً وَثَدْيِي لَهُ سِقَاءً وَحِجْرِي لَهُ حِوَاءً، وَإِنَّ أَبَاهُ طَلَّقَنِي وَأَرَادَ أَنْ يَنْتَزِعَهُ مِنِّي، فَقَالَ لَهَا رَسولُ الله ﷺ: **"أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ مَا لَمْ تَنْكِحِي"**[٣].

قال في عون المعبود: (كَانَ بَطْنِي لَهُ وِعَاء) أَيْ: ظَرْفًا حَال حَمْله، (وَثَدْيِي لَهُ سِقَاء) أَيْ: حَال رَضَاعه، (وحجري له حواء) أي: مَكَانًا يَحْوِيه وَيَحْفَظهُ وَيَحْرُسهُ، وَمُرَاد الأمّ بِذَلِكَ أَنَّهَا أَحَقّ بِهِ لِاخْتِصَاصِهَا بِهَذِهِ الْأَوْصَاف دُون الْأَب. قال في النيل: في الحديث دليل على أن الأم أولى بالولد من الأب ما لم يحصل مانع من ذلك كالنكاح، لتقييده ﷺ للأحقية بقوله (مالم تنكحي). وَبِهِ قَالَ مَالِك وَالشَّافِعِيَّة وَالْحَنَفِيَّة[٤].

والحضانة واجبة، وهي من حقوق الطفل، حتى يحفظ مما يضره ويهلكه، من تجهيزه

---

(١) البخاري (٥٣٥٥)، مسلم (١٠٣٤).

(٢) شرح النووي (٤/ ١٣٦).

(٣) أبو داود (٢٢٧٦)، مسند أحمد (٢/ ١٨٢)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٦٨)، وفي صحيح أبي داود (١٩٩١).

(٤) عون المعبود (٥/ ١٤٩).

لملابسه وتنظيفه وتنظيف أدواته[١].

ثامنًا: تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ (التحريم: ٦)، قال علي ﷺ: علموهم وأدبوهم، وقال الحسن: مروهم بطاعة الله وعلموهم الخير، وقال ﷺ: **"مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع"**[٢].

وقال: ﷺ **"اعدلوا بين أبنائكم اعدلوا بين أبنائكم أعدلوا بين أبنائكم"**[٣]، فمن أهمل في تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى فقد أساء إليه غاية الإساءة وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه فأضاعوهم صغارًا فلم ينتفعوا بأنفسهم ولم ينفعوا آباءهم كبارًا[٤].

١٣ـ حقوق الميت على أهله

تلقينه الشهادة عند حضور الأجل: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **" لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله"**. [٥]

أن يؤمر بقول الشهادة: عن أنس: أن النبي ﷺ دخل على رجل من بني النجار يعوده، فقال له رسول الله ﷺ: **" يا خال، قل: لا إله إلا الله**، فقال: أو خال أنا، أو عم؟ فقال النبي ﷺ: لا، بل خال، فقال له: **قل: لا إله إلا هو**، قال: خيرٌ لي؟ قال: نعم". [٦]

---

(١) حقوق الإنسان ليسري سيد محمد (٢١٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٨١)، وأبو داود (٤٩٥)، ، والترمذي (٤٠٧) وقال: حسن صحيح. وانظر: صحيح الجامع (٤٠٢٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٥)، وأبو داود (٣٥٤٤)، والنسائي، وراجع صحيح الجامع (١٢١)

(٤) تحفة المودود صـ(٢٧٥-٢٨٥).

(٥) أخرجه مسلم (٩١٧).

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٢)، وأبو يعلي (٣٤٩٩)، وقال عنه الشيخ الألباني: إسناده صحيح على شرط مسلم. انظر أحكام الجنائز (ص٢٠).

الدعاء له ولا يقال في حضوره إلا خيرًا:

عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: **" إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرا، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون ".** (١)

نعي الجنائز: يجوز إعلان الوفاة إذا لم يقترن به ما يشبه نعي الجاهلية. (٢)

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ: " نعي النجاشي في اليوم الذي مات فيه ". (٣)

إغماض العين والدعاء له: عن أم سلمة قالت: " دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة، وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: **إن الروح إذا قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله، فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون، ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره ونور له فيه**"(٤)

تغطيته بثوب يستر جميع بدنه: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف "أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته: أن رسول الله ﷺ حين توفي سُجِّي ببردٍ حَبِرة "(٥)

(سُجِّيَ) أي غطي جميع بدنه.

(الحِبَرة) هي ضرب من برود اليمن، وفيه استحباب تسجية الميت، وهو مجمع عليه، وحكمته: صيانه من الانكشاف وستر عورته المتغيرة عن الأعين. (٦)

وهذا في غير من مات محرمًا فأما المحرم فإنه لا يغطى رأسه ووجهه. (٧)

عن ابن عباس رضي الله عنهما": أن رجلًا وقصه بعيره، ونحن مع النبي ﷺ وهو محرم فقال

---

(١) أخرجه مسلم (٩١٩).

(٢) أحكام الجنائز للشيخ الألباني (ص٤٥).

(٣) البخاري (١٢٤٥)، ومسلم (٩٥١).

(٤) مسلم (٩٢٠).

(٥) البخاري (٥٨١٤)، ومسلم (٩٤٢).

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ١٣).

(٧) أحكام الجنائز وبدعها للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (٢٢).

النبي ﷺ " اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبين ولا تمسوه طيبًا ولا تخمروا رأسه فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيًا". [١]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: " أسرعوا بالجنازة"[٢][٣]

غسله، وتكفينه: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: " للرجل الذي وقصته ناقته اغسلوه بماءٍ وسدر، وكفنوه في ثوبين". [٤]

حرمة جسد الميت: قال النبي ﷺ: ((إن كسر عظم المؤمن ميتا، مثل كسره حيًّا))[٥].

قال الألباني: والحديث دليل على تحريم كسر عظم الميت المؤمن ولهذا جاء في كتب الحنابلة (ويحرم قطع شيء من أطراف الميت وإتلاف ذاته وإحراقه ولو أوصى به)[٦]. إن جبر عظمه بعظم فجبر ثم مات فإن كان طاهرًا لم ينزع وإن كان نجسًا وأمكن إزالته من غير مثلة أزيل لأنه نجاسة مقدوره على إزالتها من غير ضرر وإن أفضى إلى المثلة لم يقلع، وإن كان في حكم الباطن كالحي، وإن كان عليه جبيرة يفضى نزعها إلى مثله مسح عليها كحال الحياة وإلا نزعها وغسل ما تحتها. [٧]

الصبر والرضا بالقدر: قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٦٧)، ومسلم (١٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٥)، ومسلم (٩٤٤).

(٣) قال ابن حجر في الفتح " بالجنازة أي بحملها إلى قبرها، وقيل المعنى بتجهيزها، فهو أعم من الأول، قال القرطبي: والأول أظهر، وقال النووي: الثاني باطل مردود بقوله في الحديث " تضعونه على رقابكم "، وتعقبه الفاكهي بأن الحمل على الرقاب قد يعبر به عن المعاني كما تقول حمل فلان على رقبته ذنوبا، فيكون المعنى استريحوا من نظر من لا خير فيه، قال: ويؤيده أن الكل لا يحملونه (فتح الباري (٣/ ٢١٩).

(٤) البخاري (١٢٦٥)، ومسلم (١٢٠٦).

(٥) أخرجه البخاري في تاريخه (١/ ١٥٠) وابن حبان في صحيحه (٧٧٦) موارد وصححه الألباني في أحكام الجنائز.

(٦) أحكام الجنائز (٢٩٦).

(٧) الشرح الكبير بهوامش المغني (٢/ ٣٢٦).

ﭐلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (البقرة)

وعن أنس بن مالك، ﷺقال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: **اتقي الله واصبري**، قالت: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ؛ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: **إنما الصبر عند الصدمة الأولى**. [1]

الاسترجاع: عن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " **ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله، إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرا منها**"، قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ. [2]

عدم النياحة عليه: عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: " **أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**". [3]

عن ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: " **الميت يعذب في قبره بما نيح عليه** ". [4]

أن لا يلطم خد ولا يشق جيب: عن عبد اله ﷺ أن النبي ﷺ قال: " **ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية** ". [5]

عدم حلق الشعر عند المصيبة: حدث أبو بردة بن أبي موسى ﷺ قال: "وجع أبو موسى وجعا فغشي عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله فلم يستطع أن يرد عليها شيئا، فلما

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٦٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (٩١٨).

(٣) أخرجه مسلم (٩٣٤).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٩٢٧).

(٥) أخرجه البخاري (١٢٩٧)، ومسلم (١٠٣).

أفاق، قال: أنا بريء ممن برئ منه رسول الله ﷺ إن رسول الله ﷺ بريء من الصالقة والحالقة والشاقة "[١]. الصالقة: التي ترفع صوتها بالبكاء. [٢]

أن لا يُنشر شعرًا: حدث أسيد بن أبي أسيد، عن امرأة من المبايعات، قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف الذي أخذ علينا أن لا نعصيه فيه وأن لا تخمش وجها، ولا ندعوا ويلا، ولا نشق جيبا، وأن لا ننشر شعرا "[٣] (أن لا تخمش) أي لا تخدش، (ولا ندعو ويلًا) والويل أن يقول عند المصيبة وا ويلاه، (ولا نشق جيبًا) الجيب هوما يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس وهو الطوق في لغة العامة، (ولا ننشر شعرا) يقال نشر الراعي غنمه أي بثها بعد أن آواها. [٤]

المبادرة بقضاء دينه من ماله: عن جابر رضي الله عنه قال: "توفى رجل فغسلناه، وحنطناه، وكفناه، ثم أتينا به رسول الله ﷺ يصلي عليه، فقلنا: نصلي عليه فخطا خطى، ثم قال: **أعليه دين؟** قلنا: ديناران، فانصرف، فتحملهما أبو قتادة، فأتيناه، فقال أبو قتادة، الديناران علي، فقال رسول الله ﷺ: **أحق الغريم، وبرئ منهما الميت**، قال: نعم، فصلى عليه، ثم قال بعد ذلك بيوم: **ما فعل الديناران؟** فقال: إنما مات أمس، قال: فعاد إليه من الغد، فقال قد قضيتهما، فقال رسول الله ﷺ: **الآن بردت عليه جلده**، فقال معاوية بن عمرو في هذا الحديث: فغسلناه وقال: فقلنا نصلي عليه". [٥]

البكاء عليه ثلاثة أيام فقط: عن عبد الله بن جعفر أن النبي ﷺ أمهل آل جعفر ثلاثا أن يأتيهم، ثم أتاهم فقال " **لا تبكوا على أخي بعد اليوم** ". [٦]

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣/ ١٩٨).

(٣) أخرجه أبوداود (٣١٣١)، والطبراني في الكبير (٢٥/ ١٨٤)، وانظر: صحيح الترغيب (٣٥٣٥).

(٤) عون المعبود (٨/ ٢٨١).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٨) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٨١٢).

(٦) أخرجه أبو داود (٤١٩٢)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٠٥)، وأحمد (١/ ٢٠٤)، وصححه الألباني في

دفنه في البلد الذي مات فيه ولا ينقل إلى بلد آخر: عن جابر ﷺقال: كنا حملنا القتلى يوم أحد لندفنهم فجاء منادي النبي ﷺ فقال: إن رسول الله ﷺ "يأمركم أن تدفنوا القتلى في مضاجعهم فرددناهم". (١)

وعن منصور بن صفية عن أمه، قالت: مات أخ لعائشة- رضي الله عنها- بوادي الحبشة فحمل من مكانه فأتيناها نعزيها، فقالت: ما أجد في نفسي، أو يحزنني في نفسي إلا أني وددت أنه دفن في مكانه ". (٢)

وإذا أوصى بأن ينقل إلى بلد آخر لا تنفذ وصيته، فإن النقل حرام على المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون وصرح به المحققون، وقيل مكروه. (٣)

حمل الجنازة واتباعها: ويجب حمل الجنائز، واتباعها وذلك من حق الميت المسلم على المسلمين. (٤)

قال رسول الله ﷺ: **" حق المسلم على المسلم خمس: (ذكر منها) واتباع الجنائز"**. (٥)

الصلاة على الميت: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **" إن أخا لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه "**. (٦)

دفن الميت: ويجب دفن الميت ولو كان كافرًا. (٧) عن علي ﷺ قال: لما مات أبو طالب أتيت النبي ﷺ فقلت له إن عمك الشيخ الضال قد مات قال: " اذهب فواره أنت إنه

المشكاة (٤٤٦٣).

(١) أخرجه أبو داود (٣١٥٧) واللفظ له، وأحمد (٣/ ٢٩٧)، والترمذي (١٧١٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٧١٠).

(٢) البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٥٧)، وقال الشيخ الألباني: سنده صحيح. أحكام الجنائز صـ٢٥.

(٣) الأذكار للنووي صـ ١٦٧.

(٤) أحكام الجنائز للألباني صـ ٨٦.

(٥) البخاري (١٢٤٠)، مسلم (٢١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) مسلم (٩٥٢).

(٧) أحكام الجنائز الألباني صـ ١٦٧.

مات مشركًا، قال: اذهب فواره ولا تحدث شيئًا حتى تأتيني، ثم أتيته فقلت قد واريته فأمرني فاغتسلت". (١)

قضاء الصوم عن الميت: عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: **" من مات وعليه صيام صام عنه وليه "**. (٢)

١٤ـ حق الأخوة

الأخ لغة: الأخ للواحد والاثنان أخوان والجميع إخوان وإخوة، " الأخوة "في النسب. ويقال للأصدقاء وغير الأصدقاء. إخوة وإخوان، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: من الآية١٠)، ولم يعني النسب"، وقال: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ (النور: ٦١)، وهذا في النسب. (٣)

حقيقة الأخوة: قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: أي في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل إخوة الدين أثبت من إخوة النسب، فإن إخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب، وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ **"لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانا"**(٤).

وفي رواية **"لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم**

---

(١) النسائي (١٩٥)، وأحمد (١/ ٩٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦١).

(٢) البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (٧/ ٦٢٣)، وانظر: (لسان العرب مادة (أخا)، والقاموس المحيط (للفيروز آبادي) مادة (أخ).

(٤) البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٥٩).

على المسلم حرام دمه وماله وعرضه"[١]

وقال الله ﷻ: ﴿فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، أي: صرتم بنعمة الإسلام إخوانا في الدين، والإخوان جمع أخ، وسمي أخا لأنه يتوخى مذهب أخيه، أي يقصده. [٢] وقيل: فأصبحتم بتأليف الله ﷻ بينكم بالإسلام وكلمة الحق والتعاون على نصرة أهل الإيمان والتآزر على من خالفكم من أهل الكفر، إخوانا متصادقين لا ضغائن بينكم، ولا تحاسد. [٣]

الحب في الله والبغض في الله: عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار".** [٤] قوله: (وأن يحب المرء) قال يحيى بن معاذ: حقيقة الحب في الله أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء. [٥]

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **"سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله "ذكر منهم "ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه".** [٦] قوله "تحابا " بتشديد الباء وأصله أي اشتركا في جنس المحبة وأحب كل منهما الآخر حقيقة لا إظهار فقط، وقوله: "اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه" والمراد أنهما على المحبة الدينية ولم يقطعاها بعارض دنيوي سواء اجتمعا حقيقة أم لا حتى فرق بينهما الموت". [٧]

وعن أبي هريرة ﷺقال: قال رسول الله ﷺ: **"إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون**

---

(١) مسلم (٢٥٦٤). وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٣٠٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ١٧٢).

(٣) جامع البيان الطبري (٤/ ٣٦).

(٤) البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٥) فتح الباري لابن حجر (١/ ٧٩).

(٦) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٧) الفتح (٢/ ١٧٠).

بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا ظلي". [(١)]

مسامحتهم ولو كانوا قد بالغوا في الإساءة وقبول عذرهم إذا اعتذروا: قال الله ﷻ:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾ (يوسف: ١٠٠). قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يقل من الجب استعمالا للكرم، لئلا يذكر إخوته صنيعهم بعد عفوه عنهم قوله: "لا تثريب عليكم " لأن ذكر الجفا في وقت الصفا جفا، وهو قول صحيح دل عليه الكتاب. [(٢)]

تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره وحرمة دمه وعرضه وماله: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **"لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات: بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه".** [(٣)]

تحريم الظن والتحاسد والتباغض والتدابر: عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **"لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث"**[(٤)]

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: ١٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **"إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا**

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٦).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٧٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٤) البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩).

تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا". [١]

تحريم الظلم: عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما روى عن الله ﷻ أنه قال: **"يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا"**. [٢] وعن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: **"المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه"**. [٣]

نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا: عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"انصر أخاك ظالما أو مظلوما،** قالوا: يا رسول الله: هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ قال: **تأخذ فوق يده"**. [٤]

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: **"أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع ذكر منها "ونصر المظلوم"**. [٥]

التراحم والتعاطف والتعاضد: عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: **"مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "**. [٦]

وعن النعمان بن بشير قال، قال رسول الله ﷺ: **"المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله"**. [٧]

تحريم غيبته: قال الله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢). وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **"أتدرون ما**

---

(١) البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٤) رواه البخاري (٢٤٤٤)، ورواه مسلم (٢٥٨٤) ولفظه "فلا بأس ولينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما إن كان ظالما، فلينهه فإنه له نصر. وإن كان مظلوما فلينصره".

(٥) أخرجه البخاري (٢٥٨٦).

(٦) أخرجه البخاري (٦٠١١)، وأخرجه مسلم (٢٥٨٦).

(٧) أخرجه مسلم (٢٥٨٦).

الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **ذكرك أخاك بما يكره**، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: "**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته**". [١]

الإشارة بالسلاح إلى أي مسلم: عن ابن سيرين سمعت أبا هريرة يقول: قال أبو القاسم ﷺ "**من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمه**". [٢]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "**لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده، فيقع في حفرة من النار**". [٣]

الاحترام والتقدير: قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)﴾ (الحجرات: ١١).

الإعانة على قضاء حوائج الدنيا على قدر الاستطاعة: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**". [٤]

التناصح والتراحم: عن تميم الداري أن النبي ﷺ قال "**الدين النصيحة**"قلنا: لمن؟ قال: **لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**". [٥]وقال الله عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

الستر والتغافر: عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: "**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله**

---

(١) مسلم (٢٥٨٩).

(٢) مسلم (٢٦١٦).

(٣) البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧).

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٦٩٩).

(٥) البخاري (٤٢)، ومسلم (٥٥).

عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته".[١]

١٥ـ حق الجنين

الجنين هو: الولد ما دام في بطن أمه لاستتاره فيه وجمعه أجنه وأجنن بإظهار التضعيف فسمي جنينا لاستتاره فأجنته المرأة جنينا أي حملته.

وجمع الجنين: أجنه وأجنن وقد جن الجنين في الرحم يجن جنا وأجنته الحامل سترته ومنه الجنون لاستتار عقله والجان لاستتاره عن أنظار الناس[٢].

١ـ: حق الجنين في أبوين صالحين: بين القرآن الكريم، وكذا سنة رسوله الأمين ﷺ في ضرورة الاهتمام والتدقيق عند اختيار الزوج وكذا الزوجة، وبين الله تعالى أن الأسرة الصالحة تنشأ بين أبوين صالحين يتقيان الله تعالى بإقامة أوامره والانتهاء عن نواهيه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ (الكهف: ٨٢)، فجعل العلة صلاح الأب الذي هو عليه الكسب غالبًا، فعليه أن يطعم زوجته التي تحمل ولده حلالًا طيبًا، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (المائدة: ١٠٠). فالخبيث الحرام، والطيب الحلال، والخبيث إن كثر لا يفلح ولا ينجب ولا تحسن له عاقبة، والطيب وإن قل نافع مفيد جميل العاقبة.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ (البقرة١٦٨)، وقال رسول الله ﷺ: **"إِذَا أتاكم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ قَالُوا يَا رَسُولَ الله وَإِنْ كَانَ فِيهِ قَالَ إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ. . ."**[٣].

فقد جعل لقبول الرجل زوجًا للمرأة شرطين (الدين والخلق)، والدين يشمل إقامة

---

(١) أبوداود في الأدب (٤/ ٤٨٨٠)، والإمام أحمد في مسنده (٤١/ ٤٢٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٥٦)، وصححه الألباني في الترغيب والترهيب (٢٣٤٠).

(٢) لسان العرب (١٣/ ٩٢-٩٣).

(٣) الترمذي (١٠٨٥، ١٠٨٤)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٨٦٨).

الصلاة والصوم وأداء الزكاة للقادر، والحج للمستطيع، ويدخل فيه جميع أنواع العبادات التي هي إمارات على قوة وحسن دين فاعلها، كالذهاب لصلاة الجماعة والالتزام بالهدي النبوي الشريف، والأخلاق تجمع كل خصال الخير من بر الوالدين والإحسان للجار، وحسن أسلوب الكلام وأداء الأمانة، وحفظ العهد والصدق والعفة والصبر والحكمة.

٢ـ وضع الصوم عن أمه: قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤). فقد ذهب أكثر أهل العلم إلى أن الحبلى والمرضع إذا خافتا على أولادهما أفطرتا وأطعمتا[١].

٣ـ وضع إقامة الحد عن أمه حال حمله وإرضاعه للحفاظ على حياته:

جاءت امرأة من غامد من الأزد، فقالت: يا رسول الله، طهرني، فقال: **ويحك! ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه**، فقالت: أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك، قال: وما ذاك؟ قالت: إنها حبلى من الزنى، فقال: آنت؟ قالت: نعم، فقال لها: **حتى تضعي ما في بطنك**، قال: فكلفها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال: فأتى النبي ﷺ، فقال: وضعت الغامديه، فقال: "**إذا لا نرجمها، ولا ندع ولدها صغيرًا ليس له من يرضعه** "، فقام رجل من الأنصار، فقال: إلي رضاعه يا نبي الله، فرجمها"[٢].

٤ـ تحريم قتل الجنين وجعل دية لقتله: عن أبي هريرة ﷺأن امرأتين من هذيل رمت إحداهما الأخرى فطرحت جنينها، فقضى فيه النبي ﷺ بغرة عبد أو أمة "[٣].

٥ـ يصلي عليه الجنازة: قال ﷺ: الراكب خلف الجنازة والماشي حيث شاء منها والطفل يصلى عليه[٤].

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٩١).

(٢) مسلم (١٦٩٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٥٨)، ومسلم (١٦٨١).

(٤) أخرجه الترمذي (١٠٣١)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٢٣).

فيصلى على الطفل وإن لم يستهل بعد أن يعلم أنه خلق[١].

٦ـحق الجنين في الاستقرار النفسي لأمه: قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (لقمان: ١٤)، تصف الآية الكريمة حالة الأم أثناء حملها مما يصيبها من أثر هذا الحمل من آثار تظهر على وجهها وصحتها وسائر أحوالها، فيصيبها ضعف في البدن نتيجة هذا الحمل، مع كونها لا تترك عمل بيتها وخدمة زوجها، فكان حقًا لهذه الأم من وافر البر والرعاية خاصةً من زوجها، ولهذا يقول الرسول ﷺ: **"خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي"**[٢].

وهذه الخيرية تعم الزوجة والأولاد والأقارب، ويقول الرسول ﷺ: "خيركم خيركم للنساء"[٣]. فتبين اختصاص الزوجة بخيرية خاصة تعم جميع أحوالها منذ بدء الزواج إلى ما شاء الله تعالى، وفي هدي رسول الله ﷺ خير بيان، حيث كان يلاطفهن قولًا وفعلًا، فيدخل نساء الأنصار للعب مع عائشة ويتتبع مكان شرابها إذا شربت، وكان يسابقها في السفر، وكان يريها وهي متكئة على فكيه لعب الحبشة في المسجد[٤].

ولهذا كان للحامل مزيد عناية واهتمام من زوجها، الاهتمام النفسي بحسن العبارة وجمال الأسلوب، والاهتمام بطعامها وغذائها بما ينبه عليه الأطباء. وفي حديث رسول الله ﷺ: "وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك"[٥]، دليل على وجوب الإنفاق على الأهل مع الثواب، وذلك بالاحتساب لوجه الله تعالى، وصدق نيته، ودفع مظنة عدم الأجر على الواجب[٦].

---

(١) سنن الترمذي (٣/ ٣٤١).

(٢) الترمذي (٣٨٩٥)، أبو داود (٤٢٥٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٥).

(٣) المستدرك (٤/ ١٩١)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (٥٦٢٧).

(٤) فيض القدير (٣/ ٤٩٥).

(٥) البخاري (٢٧٤٣)، مسلم (١٦٢٨).

(٦) فتح الباري (٥/ ٤٣٢).

٧ـ **إخراج الزكاة عن الجنين**: ذهب كثير من أهل العلم إلى استحسان إخراج الزكاة عن الجنين، فقد كان عُثْمَانَ كَانَ يُخْرِجُهَا عَنْهُ، وَلِأَنَّهَا صَدَقَةٌ عَمَّنْ لَا تَجِبُ عَلَيْهِ، فَكَانَتْ مُسْتَحَبَّةً كَسَائِرِ صَدَقَاتِ التَّطَوُّعِ[1].

٨ـ **حق الجنين في الدية**: قال الخرقي: وَدِيَةُ الْجَنِينِ إذَا سَقَطَ مِنْ الضَّرْبَةِ مَيِّتًا، وَكَانَ مِنْ حُرَّةٍ مُسْلِمَةٍ، غُرَّةٌ عَبْدٌ أَوأَمَةٌ[2]. وفي الحديث عن أبي هريرةﷺ، أن رسول الله ﷺ "قَضَى فِي امْرَأَتَيْنِ مِنْ هُذَيْلٍ اقْتَتَلَتَا؛ فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى بِحَجَرٍ؛ فَأَصَابَ بَطْنَهَا وَهِيَ حَامِلٌ؛ فَقَتَلَتْ وَلَدَهَا الَّذِي فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَضَى أَنَّ دِيَةَ مَا فِي بَطْنِهَا غُرَّةٌ عَبْدٌ أَو أَمَةٌ، فَقَالَ وَلِيُّ الْمَرْأَةِ الَّتِي غَرِمَتْ: كَيْفَ أَغْرَمُ يَا رَسُولَ الله مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَّ فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلُّ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ**"[3].

وفيه من الفوائد: وجوب الدية في الجنين [4]. وأطلق على الآدمي غرة لأنه أشرف الكائنات، فإن محل الغرة الوجه، والوجه أشرف الأعضاء[5]. والغرة في الأصل البياض يكون في جبهة الفرس، وقد استعمل للآدمي في حديث الوضوء، وتطلق الغرة على الشيء النفيس آدميًا كان أو غيره، ذكرًا كان أو أنثى، ويقصد بها هنا: تحرير عبد أو أمة، كفارةً لإسقاطه، ومن هذا يؤخذ منزلة حق الجنين عند من كان كل شئ عنده بمقدار.

٩ـ **حق الجنين في الميراث**: وهذا مثال آخر لحفاظ الإسلام على حق الجنين، وهنا نرى حفظ حقه في الميراث، فيحفظ حقه في التركة على فرض كونه ذكرًا ثم على فرض كونه أنثى، ثم بعد وضع الأم جنينها بأخذ حقه من الميراث إذا كان ذكرًا، وكذلك إذا كانتا أنثيين، وفي حالة كونه أنثى ترد على الوراثة نصف ما كان قد اقتطع له، وفي حالة كون الحمل ذكرين، استرد حقه من

---

(١) المغني لابن قدامة (٤/ ٣١٦).

(٢) المغني (١٢/ ٥٩).

(٣) البخاري (٥٧٥٨)، مسلم (١٦٨١).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٢٤٦).

(٥) فتح الباري (١٢/ ٢٦٠).

أنصبة ما أخذ باقي الورثة، ولهذا حرصت الشريعة على حفظ حق الجنين باعتبار أحسن الحالين، وفي حق من معه من الورثة أسوؤهما حتى لا ينفرط حقه ويتعثر.

وقال العلماء في الرجل يتوفى ووارثه حمل في البطن: يوقف له الميراث فيرث له حالة خروجه حيًا، وإن خرج ميتًا لا يرث، بل هو لباقي الورثة الأول، وفي حالة خروجه حيًا ثم مات يورث منه سواء استهل أم لم يستهل بعد أن وجد فيه أمارات الحياة من عطاس أو تنفس أو حركة دالة على الحياة سوى اختلاج الخارج من الضيق، وهذا قول الثوري والأوزاعي والشافعي وأصحاب الرأي[1]. وذهب آخرون إلى أنه لا يورث منه ما لم يستهل وهو قول محمد بن سيرين وغيره، وبه قال الزهري ومالك، قال الزهري: أرى العطاس استهلالًا، واحتجوا بما روي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إذا استهل المولود ورث)[2]. والاستهلال هو رفع الصوت، والمراد عند الآخرين وجود أمارة الحياة، وعبر عنها بالاستهلال، لأنه يستهل حالة الانفصال في الأغلب، وبه تعرف حياته، وانظر كلام الفقهاء في هذه المسألة، لأن المقصود هنا هو الإشارة فقط.

١٠- **حق الجنين في الحفاظ على حياته**: جاء دين الله تعالى وعموم البشرية في ظلمات فكرية وخلقية، فكان لزامًا أن يصحح دين الله تعالى ويصلح ما خربه الجاهليون، لفهمهم الضال عن الذرية وسلوكهم المشين تجاه أولادهم من قتل ووأد وحز شديد لإنجاب البنات، قال تعالى: ﴿ **قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾** ﴾ (الأنعام١٤٠).

قال ابن كثير: يقول تعالى: قد خسر الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم، كما

---

(١) مستفاد من شرح السنة للبغوي (٨/ ٣٦٨).

(٢) أبو داود (٢٩٢٠)، ابن ماجه (١٥٠٨)، صححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٠٥٠).

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾[(١)]. ويقول جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام١٣٧)، وتشير الآيات الكريمات إلى نظامهم الفاسد الباطل من وأد البنات، هذه الصفة السيئة التي اشتهرت غالبًا في قبيلتي ربيعة ومضر، وهما جمهرة العرب، وليس كلّ الآباء من هاتين القبيلتين يفعله[(٢)]. قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ (التكوير: ٨، ٩)، فجعل الله هذه الخصلة السيئة إحدى حوادث وأهوال يوم القيامة، والوأد: دفن الطفلة، وقيل: كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة؛ فإذا ولدت بنتًا رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابنًا حبسته[(٣)]. فحرم الإسلام هذا الفعل الخبيث، وصحح المعتقدات حفاظًا على حياة المرأة والبنت.

١٦ـحق الجسد

إن الإسلام في حاجة إلى كيان سليم قوي، وإن رسالته هي رسالة القوة في الحق، والقوة في البناء، والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء، قال ﷻ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠). وفي الحديث الصحيح " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف"[(٤)]، ولهذا اهتم الإسلام بحقوق البدن فحث على ما ينفعه ونهى عما يضره عن عبد الله بن عمرو بن العاص: **" قم ونم، وصم وأفطر، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا وإن لزوجك عليك حقًا"**[(٥)]. [(٦)]

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٤٥).

(٣) الكشاف (٤/ ١٨٨).

(٤) مسلم (٢٦٦٤).

(٥) البخاري (٦١٣٤).

(٦) موسوعة الحقوق الإسلامية تأليف / سعد يوسف أبو عزيز صـ ٢٨٤.

ونبين حرص الإسلام على هذا الحق من خلال النقاط الآتية:

١ـ الاستنجاء وآداب قضاء الحاجة: فلقد أوجب الإسلام الاستنجاء لكل خارج من السبيلين (القُبل والدُبر) إلا من الريح. فعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ يدخل الخلاء فأحمل أنا وغلام نحوي إداوة من ماء وعنزة، فيستنجي بالماء. [١] وإذا استنجى المسلم فإنه لا يستنجى بيمينه، لحديث أبي قتادة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يمسكن أحدكم ذكره بيمينه وهو يبول، ولا يتمسح من الخلاء بيمينه، ولا يتنفس في الإناء". [٢] وعن سلمان ﷺ قال: قال لي رجل: إن صاحبكم ليعلمكم حتى الخراءة قال: أجل، نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، وأن نستنجي بأيماننا، أو نكتفي بأقل من ثلاثة أحجار". [٣] ومن آداب الاستنجاء أيضًا أن ينظف يده بعد الاستنجاء إما أن يغسلها بالصابون أو أن يدلكها بالأرض إن لم يجد فعن أبي هريرة ﷺ قال: " كان النبي ﷺ إذا أتى الخلاء أتيته بماء في تور أو ركوة، فاستنجى ثم مسح يده على الأرض". [٤]

وهذا الأمر فيه كثير من الفوائد الصحية والوقائية. [٥]

٢ـ السواك: لقد عني الإسلام عناية كبيرة بالسواك وجاء الحض على استعماله في أحاديث كثيرة منها: عن زيد بن خالد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة "**[٦].

ولقد أثبتت الأبحاث العلمية في جامعة رستوك بألمانيا الشرقية أن بعض المواد المضادة للميكروبات، وخاصة التي تحتمي في المواد الدهنية، موجودة في السواك وقد أثبت الطب

---

(١) البخاري (١٥٢)، مسلم (٢٧١).

(٢) مسلم (٢٦٧).

(٣) مسلم (٢٦٢).

(٤) أبو داود (٤٥)، أحمد (٣/ ٣١١)، وحسنه الألباني في صحيح أبو داود (٣٥).

(٥) موسوعة الحقوق (٢٨٦).

(٦) مسلم (٢٥٢).

الحديث أن السواك يحتوي على مادة قاتلة للميكروبات تفوق البنسلين في مفعولها. [١]

٣ـ الوضوء: والأحاديث في فضله كثيرة ومتنوعة فمنها ما ورد في حديث أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"الطُّهُور شطر الإيمان. . ."**[٢]، والوضوء إلى جانب تطهيره للذنوب والسيئات فهو أيضًا يقي الإنسان المسلم المتوضئ من الأمراض (فالوضوء بالماء الجاري على بساطته خمس مرات في اليوم كفيل بتطهير الجسم، وإزالة ما علق به من ميكروبات، وقد أثبتت التقارير الطبية لمنظمة الصحة العالمية في بنجلاديش عام ١٩٧٤م أن الاغتسال بالماء الجاري في حالات الوباء يزيل ٩٠٪ من الميكروبات العالقة بالجسم). [٣]

٤ ـ النظافة العامة في الثوب والبدن والمكان: إن الدين الإسلامي يحض المسلم على النظافة العامة في كل أمور حياته فمنها نظافة الشعر فعن جابر بن عبد الله ﷺقال: أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلًا شعثًا قد تفرق شعره فقال: "أما كان يجد هذا ما يسكن به شعره؟ " ورأى رجلًا آخر وعليه ثياب وسخه فقال: "أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه"[٤]، وكذلك يأمر النبي ﷺ بجانب ما تقدم بقص الشارب، وقص الأظافر، وغسل البراجم، ونتف الإبط. . . ، فيقول ﷺ " عشر من الفطرة: قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء "قال مصعب ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة[٥]، ففي قص الأظافر عناية بالصحة البدنية فهي مكان تجمع الأوساخ واليد هي التي يأكل بها الإنسان فماذا عساه يكون حاله إذ أكل بيد أظافرها تجمعت بها الأوساخ، وكذا قص الشارب فإنه

---

(١) موسوعة الحقوق (٢٨٧) نقلًا عن مجلة الدعوة.

(٢) مسلم (٢٢٣).

(٣) موسوعة الحقوق (٢٨٨) وقد نقل هذا التقرير عن جريدة الأهرام القاهرية العدد ٣٣١٣٨ في ٢/ ٩/ ١٩٧٧م.

(٤) أبو داود (٤٠٦٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٣).

(٥) مسلم (٢٦١).

تتجمع فيه بقايا الطعام وتتكون فيه الميكروبات، وفي حلق العانة حكمة عظيمة فتركها يسبب حكة في الجلد. . . مما يولد بعض الأمراض الجلدية.

وفي إعفاء اللحية حكمة عظيمة أيضًا. . . فهي بالإضافة إلى أنها تورث المسلم جلالًا ووقارًا وهيبة وجمالًا إلا أن لها فوائد أخرى منها:

١-أن إمرار آلة الحلق على الذقن والخدين يضر بالبصر.

٢-أن اللحية تمنع الجراثيم الضارة، وتمنعها من الوصول إلى ظاهر الحلق والصدر.

٣-تحمي لثة الإنسان من العوارض الطبيعية فهي لها وقاء منها.

٤-أن هذا الشعر تجري فيه مفرزات دهنية من الجسد يلين بها الجلد ويبقى نضرًا فيه حيوية الحياة وطراوتها.

٥-إن اللحية والمادة المنوية، بينهما ارتباط باطني، فالرجولية تقوى بإعفاء اللحية، قال بعض الأطباء: لو اعتاد الناس حلق اللحية نسلًا بعد نسل ينتج من ذلك أن يولد الرجال في النسل الثامن من غير لحية، فالرجولية تقل شيئًا فشيئًا، ويظهر أثر ذلك بعد هذه المدة. . .[1].

٥-الأمر بالفرار من المجذوم: ولقد أمر الإسلام بالتحرز والوقاية من الأمراض المعدية. . . ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: " قال رسول الله ﷺ: **"لا يوردن ممرضٌ على مصحٍ"**[2]، وأيضًا ورد عن عمرو بن الشريد عن أبيه ﷺ قال: كان في وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبي ﷺ " **إنا قد بايعناك فارجع** "[3]، وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: **"لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد** "[4]، وكل هذا الذي أرشدنا إليه النبي ﷺ هو ما يسمى في لغة العصر الحديث (بالحجر الصحي)، ويقوم مفهوم الحجر الصحي وماهيته، على منع انتقال الداء من المريض

---

(١) موسوعة الحقوق الإسلامية صـ٢٩٠، ٢٩١.

(٢) البخاري (٥٧٧١).

(٣) مسلم (٢٢٣١).

(٤) البخاري (٥٧٠٧).

إلى السليم، أو بمعنى آخر، حصر المرض المراد عدم انتقاله في منطقة معينة حتى يسهل القضاء عليه، قبل انتشاره إلى المناطق المجاورة للبيئة الموبوءة. . . . ، والنبي ﷺ لم ينكر انتقال المرض عن طريق العدوى إلى الإنسان السليم، بل نصح عليه الصلاة والسلام أمته بأن تتجنب المناطق التي تتفشى فيها الأمراض المعدية، ولم يكتف ﷺ بذلك، بل فرض على مثل هذه المناطق حظر انتقال أفرادها إلى جهات أخرى منعًا من انتشار وتفشي الوباء، وهذا ما يشير إليه الحديث النبوي، وهو قوله ﷺ **"إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها"**[(١)، (٢)]

٦ـ الأمر بغسل نجاسة الكلب سبع مرات إحداهن بالتراب: وثبت هذا الأمر عن النبي ﷺ بقوله "**إذا ولغ الكلب في الإناء فاغسلوه سبع مرات وعفروه الثامنة في التراب** "[(٣)]، والمراد اغسلوه سبعًا واحدة منهن بالتراب مع الماء، فكأن التراب قائم مقام غسله فسميت ثامنة لهذا. والله أعلم.

ولقد أثبت العلم الحديث أن الآنية التي يردها الكلاب تنقل مرض الكَلِب (الريبس) الخطير وعدة أمراض طفيلية أخرى، والحكمة في الغسل سبع مرات أولاها بالتراب أن فيروس الكلب دقيق متناه في الصغر، وكلما صغر حجم الميكروب كلما ازدادت فعالية سطحه للتعلق بجدار الإناء والتصاقه به، ولعاب الكلب المحتوي على الفيروس يكون على هيئة شريط لعابي سائل، ودور التراب هو امتزاز الميكروب منه على سطح دقائقه. [(٤)]

٧ـ غسل اليدين قبل الطعام: فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن ينام وهو جنب توضأ، وإذا أراد أن يأكل غسل يده. [(٥)]

---

(١) البخاري (٥٧٢٨).

(٢) الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة، تأليف / حسن ياسين عبد القادر صـ٨٥.

(٣) مسلم (٢٨٠).

(٤) كشاف الإعجاز العلمي في القرآن والسنة صـ ٥٦ جمع / نبيل عبد السلام هارون.

(٥) أحمد (٦/ ١٩)، والنسائي (١/ ١٣٩)، وصححه الألباني في الصحيحة ٣٩٠.

٨ـ **غسل اليدين والمضمضة بعد الطعام**: ويستحب غسل اليد بعد الطعام لا سيما قبل النوم اتقاءً للضرر وحفاظًا على الصحة. فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " **من نام وفي يده غمر ولم يغسله فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه**". [١]

٩ـ **تقليل الطعام والشراب**: قال ﷻ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١)، وعن المقدام بن معدي كرب ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " **ما ملأ آدمي شرًا من بطن بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لنفسه** ". [٢]

قال عمر بن الخطاب ﷺ: إياكم والبطنة من الطعام والشراب فإنها مفسدة للجسم، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد في الطعام والشراب، فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السرف، وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه. وقال طبيب نصراني لعلي بن الحسين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان فقال له: إن الله قد جمع الطب كله في نصف آية. قال: وما هي؟ قال: قوله ﷻ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

١٠ – النهي عن الشرب من فيِّ السقاء، ومن ثلمة القدح والشرب ثلاثًا وعدم التنفس في الإناء:

وعن أبي سعيد ﷺ قال: "نهى رسول الله ﷺ عن الشرب من ثلمة القدح، وأن ينفخ في الشراب ". [٣]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "نهى رسول الله ﷺ أن يتنفس في الإناء، أو ينفخ فيه "[٤]، وفي هذا النهي من الحكم الكثيرة. . . فقد يكون الشارب مريضًا بمرض معدي فتنتقل العدوة إلى غيره، وكذا كان من سنته ﷺ أنه يتنفس في الشراب ثلاثًا ويقول: إنه أروى وأبر

---

(١) أحمد (٢/ ٢٦٣)، أبو داود (٣٨٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٦٤).

(٢) الترمذي (٢٣٨٠) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني، صحيح الجامع (٥٦٧٤).

(٣) أحمد (٣/ ٨٠)، وأبو داود (٣٧٢٢)، وقال الألباني صحيح (صحيح الجامع ٦٨٨٨).

(٤) أحمد (١/ ٢٢٠)، وأبو داود (٣٧٢٨)، الترمذي (١٨٨٨)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٩٧٧).

أو أمرأ، قال أنس: فأنا أتنفس في الشراب ثلاثًا. ". [١]

١١ـ النهي عن وطء الحائض: قال الله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ (البقرة: ٢٢٢). وسئل النبي ﷺ عن حكم الحيض فقال: "**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**". [٢]

وإنما كان القوم سألوا رسول الله ﷺ فيما ذكر لنا عن الحيض، لأنهم كانوا قبل بيان الله لهم ما يتبينون من أمره، لا يساكنون حائضًا في بيت، ولا يؤاكلونهن في إناء، ولا يشاربونهن، فعرفهم الله بهذه الآية أن الذي عليهم في أيام حيض نساءهم أن يجتنبوا جماعهن فقط دون ما عدا ذلك من مضاجعتهن، ومواكلتهن ومشاربتهن. [٣]

ولقد أثبت الطب الحديث بعد المئات من السنين الآفات والأمراض التي تحصل بسبب الاتصال بالمرأة الحائض، فمنها ما يلي:

١- التهاب الأعضاء التناسلية للمرأة كالمهبل والرحم، وما يصعب ذلك من ارتفاع درجة الحرارة، وترشحات مرضية ذات رائحة كريهة.

٢- تحرش المهبل والإصابة بالرضوض والسحجات.

٣- وصول الالتهاب في بعض الحالات إلى ملحقات الرحم.

٤- آلام في منطقة الثديين، وعدم حصول الانسجام عند المداعبة.

٥- ردود فعل عصبية تؤدي إلى انقطاع شديد للمحيض مع آلام شديدة.

٦- اضطراب حالة المرأة النفسية يؤدي إلى تصرفات غير طبيعية في البيت والمجتمع.

٧- زيادة كمية النزف الدموي المرافق للحيض يصحبه ضعف عام لدى المرأة.

---

(١) مسلم (٢٠٢٨).

(٢) مسلم (٣٠٢).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٣٩٢).

٨- التهاب الأعضاء التناسلية في الرجل يشمل لشدته المثانة والمجاري البولية والبروستاتا.[١]

١٢ـ تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير: وقد جمع الله تعالى تحريم ذلك كله في قوله ﷻ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ (البقرة: ١٧٣). ومعنى الميتة هو الحيوان الذي يموت حتف أنفه وقبل تذكيته، والمراد بالدم الدم المسفوح ولحم الخنزير سواء ذكى أو مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه.[٢] ويأتي الطب الحديث ليكشف لنا عما أوضحه القرآن الكريم فنجد أن الخنزير يصاب بأنواع من الديدان منها: دودة التنيا، والدودة الشريطية، وهذه الدودة الشريطية لا يقتصر وجودها على أمعاء الإنسان بل تكمل دورتها في جسم نفس الشخص المريض وفي جسم أي إنسان آخر، إذ تخرج الأجنة اليرقات من البيض، وتخترق جدار الأمعاء إلى الدورة الدموية، وتتوزع على الأجهزة الحيوية للجسم حيث تتحوصل اليرقة في غلاف سميك الجدار، وقد تصل إلى حجم حبة الفول (٢سم تقريبًا) مما يزيد خطورتها أنها تفصل التحوصل في الجهاز العصبي.[٣]

وقد يعترض المدافعون عن أكل لحم الخنزير بقولهم: إن وسائل الطهو الحديثة والجيدة التي تمتاز بالحرارة المرتفعة، قادرة على قتل الدودة الشريطية، وحينئذ فلا وجه للتحريم، ولكن الطب الحديث الذي يقدسونه، يرد عليهم بالحجج والقواطع العلمية والطبية التالية:

١-الوقاية المضمونة من الإصابة لهذه الدودة هي في عدم أكل لحم الخنزير.

٢-أن الأمراض العضوية التي تنتج عن أكل لحم الخنزير هي كالآتي:

أ-الدودة الشريطية تسبب اضطرابات مختلفة في الجهاز الهضمي مع ضعف عام

---

(١) الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة. حسن ياسين عبد القادر (٧٨-٧٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٨).

(٣) الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة ص٥٥، نقلًا عن كتاب الطب الوقائي في الإسلام تأليف/ أحمد شوقي الفنجري.

ونحول واصفرار الوجه.[١]

ب -يحتوي لحم الخنزير على ٢٨. ١ ٪ من الدهون في حين أن لحم البقر يحتوي على ٤. ٥ ٪ من الدهون، لذلك يكون لحم الخنزير أعسر هضمًا ويؤثر على الأمعاء.

ج-يحتوي لحم الخنزير على كمية كبيرة من حامض البوليك، خلافًا لسائر الحيوانات، فكل الحيوانات تستطيع أن تفرز ٩٠ ٪ من هذه المادة بمساعدة الكليتين، إلا أن الخنزير لا يتمكن من إفراز أكثر من ٢ ٪.

د-يسبب أكل لحم الخنزير، التهاب السحايا، والمخ نتيجة الإصابة بالميكروب السبحي الكثير الشيوع في لحم الخنزير.

هـ -يسبب أكل لحم الخنزير العديد من الأمراض النفسية منها: موت النخوة، وعدم الغيرة على أهله، ولما كان الخنزير من الحيوانات آكلات اللحوم، فهو أكثر عنفًا، وشراسة من الغنم والبقر وتنتقل هذه الصفات إلى أكل لحم الخنزير.[٢]

١٣- تحريم شرب الخمر والمخدرات: قال ﷻ ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠). وقال ﷺ: **"كل مسكر خمر، وكل خمر حرام"**.[٣]

ولقد أعلن الإسلام الحرب على شاربي الخمر ومن عاونهم: فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **"لعن الله الخمر وشاربها وساقيها، وبايعها، ومبتاعها وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه"**.[٤]

ومما قاله الطب الحديث بشأن الخمر وخطورتها على صحة الإنسان أن التجارب أثبتت

---

(١) المصدر السابق (٥٦).

(٢) لمعرفة المزيد حول هذا الموضوع راجع كتاب "انعكاسات لحم الخنزير على الصحة "لمؤلفه / هايتس هاينرش ركفاق، ومجلة الإعجاز العلمي العدد الثالث. راجع: تفصيل ذلك في شبهة تحريم لحم الخنزير

(٣) مسلم (٢٠٠٣).

(٤) أبوداود (٣٦٧٤)، وأحمد (٢/ ٢٥)، وغيرهما، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٣٩).

أن أكثر خلايا الجسم تأثرًا بالكحول هي بالدرجة الأولى الملايين العديدة من الخلايا العصبية في قشرة الدماغ وجذعه وبالدرجة الثانية الخلايا العصبية في النخاع الشوكي.(١)

وكما حرم الإسلام الخمر وحرم التداوي بها. . . فقد حرم كل المخدرات والمفترات، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: " نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر "(٢)

ويدخل في المخدرات الحشيش والأفيون والماريجوانا والقات وغير ذلك من سائر المخدرات، وعلة التحريم هو مشاركتها الخمر في الإضرار بالجسم وإن اختلف التأثير، ويدخل التدخين في التحريم لثبوت ضرره على النفس والمال. . . فالتدخين من وسائل الإدمان، لأن شركات التبغ العالمية تربي المدخنين قبل سن العشرين، بحيث يصعب عليهم الإقلاع عن التدخين، كما تقوم بزيادة نسبة النيكوتين المخدر في السجائر مما يدفع إلى إدمانها.(٣)

١٤ـ الأمر بإطفاء النار أثناء النوم: وهذا أيضًا من حرص الإسلام على حياة الإنسان وصحته.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **"خمروا الآنية وأجيفوا الأبواب، وأطفئوا المصابيح فإن الفويسقة ربما جرت الفتيلة فأحرقت أهل البيت "**.(٤)

١٥ـ تحريم الزنا: لقد حرم الله الزنا وسد الذرائع المؤدية إليه بالدعوة إلى الاحتشام ومنع الفتنة بالتزين المفرط أو بالتعطر، فقال تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الإسراء: ٣٢). وقال تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام: ١٥١)، وأثنى الله تعالى على الحافظين فروجهم والحافظات فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ (المؤمنون ٥: ٧). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

---

(١) الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة (٦١) نقلًا عن مصدر وسيط.

(٢) أحمد (٦/ ٣٠٩)، وأبو داود (٣٦٨٦)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٧٣٢).

(٣) موسوعة الحقوق الإسلامية (٣٠٨-٣١٠)، راجع: شبهة تحريم الخمر.

(٤) البخاري (٦٢٩٥).

رسول الله ﷺ: " **ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**". [١] وفي حديث سمرة بن جندب ﷺ في حديث الرؤيا الطويل أن النبي ﷺ قال: "فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، قال: أحسب أنه يقول: فإذا فيه لغط وأصوات قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا قال: قلت لهما ما هؤلاء،. . . . ، ثم قالا له: وأما الرجال والنساء العراة الذي في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني ". [٢]

هذا وقد كشف العلم الحديث عن بعض أضرار الزنا الصحية فمنها:

١ـ السيلان: وسببه الميكروبات البنية اللون التي يصاب بها الإنسان، نتيجة العلاقات الجنسية، غير الشرعية واتصاله بالنساء المريضات والعكس.

٢ـ السفلس: وهو من الأمراض الزهرية الخطرة يسببه ميكروب اللولبية الشاحبة ويصاب به الإنسان أثناء العلاقات الجنسية السرية مع الفاحشات أو عند اللواط. [٣]

١٦ـ الحث على التداوي: كان من هدي النبي ﷺ " فعل التداوي في نفسه، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه، فعن أسامة بن شريك، قال: شهدت الأعراب يسألون النبي ﷺ أعلينا حرج في كذا؟ أعلينا حرج في كذا؟ فقال لهم عباد الله، وضع الله الحرج، إلا من اقترض من عرض أخيه شيئًا فذاك الذي حرج. فقالوا: يا رسول الله هل علينا جناح أن لا نتداوى؟ قال: تداووا عباد الله فإن الله سبحانه لم يضع داءً إلا وضع معه شفاءً، إلا الهرم. قالوا: يا رسول: ما خير ما أعطى العبد؟ قال: خلق حسن. [٤]

(والأمر بالتداوي لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه رفع داء الجوع، والعطش، والحر، والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها

---

(١) مسلم (١٧٢).

(٢) البخاري (٧٠٤٧).

(٣) الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة، تأليف / حسن ياسين عبد القادر صـ ٧٤.

(٤) ابن ماجه في السنن (٣٤٣٦)، البخاري في الأدب المفرد (٢٩١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٣٣).

قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة).[١]

ولكن ينبغي أن يعلم أيضًا أن التداوي نوعان: تداوي مادي وتداوي روحي وهو التداوي بالقرآن والأدعية المأثورة عن النبي ﷺ. قال ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢). وكان النبي ﷺ يدعو للمريض فيقول: **"أذهب البأس، رب الناس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقمًا "**.[٢]

١٧ـ حق المريض

١ـ حقه في التداوي: عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ بن عبد الله ﷺعَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **"لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ الله ﷻ"**[٣]، فهذا يوضح ثبوت الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها.

والْأَمْرُ بِالتَّدَاوِي لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ كَمَا لَا يُنَافِيهِ دَفْعُ دَاءِ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ بِأَضْدَادِهَا بَلْ لَا تَتِمّ حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ إلّا بِمُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ الّتِي نَصَبَهَا الله مُقْتَضَيَاتٍ لِمُسَبّبَاتِهَا قَدَرًا وَشَرْعًا وَأَنّ تَعْطِيلَهَا يَقْدَحُ فِي نَفْسِ التّوَكّلِ كَمَا يَقْدَحُ فِي الْأَمْرِ وَالْحِكْمَةِ[٤]. وله الحق في التداوي، ولو بشيء محرم اضطرارًا، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي لُبْسِ الْحَرِيرِ لِحِكَّةٍ كانت بِهِمَا[٥].

٢ـ حقه في العيادة: قال البراء: أ مَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ بِاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ وَعِيَادَةِ الْمَرِيضِ[٦].

وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: **حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ الله فَسَمِّتْهُ وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ وَإِذَا**

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٢).

(٢) البخاري (٥٦٧٥)، مسلم (٤٨).

(٣) مسلم (٢٢٠٤).

(٤) زاد المعاد (٤/ ١٦: ١٣).

(٥) البخاري (٢٧٦٤)، مسلم (٢٠٧٦).

(٦) البخاري (١١٨٢)، مسلم (٢٠٦٦).

مَاتَ فَاتَّبِعْهُ[(١)].

وعن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدْوَةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ**[(٢)].

٣ـحقه في المجاملة: يسأل العائد عن حال المريض، وينفس له في الأجل يعطيه الأمل في أنه سيشفى ويطول عمره بما يطيب نفسه إدخالًا للسرور عليه، ويرغبه في التوبة والوصية لحديث: **"مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ"**[(٣)]

ولا يطيل العائد الجلوس خوفًا من الضجر، وتكره العيادة وسط النهار، ويعاد بكرةً وعشيًا[(٤)]، ويرقيه ويدعو له بالصلاح، فعن عائشة قالت: كان النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ أَهْلِهِ يَمْسَحُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى وَيَقُولُ: **اللهمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبْ الْبَاسَ اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**[(٥)].

٤ـ حقه في تخفيف بعض العبادات حسب مرضه: حقه في تخفيف أحكام الطهارة، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ (النساء: ٤٣)، وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه لما خاف أن يهلك من شدة البرد تيمم، ولم يأمره ﷺ بغسل ولا إعادة[(٦)]. وحقه في تخفيف الصلاة إذا عجز المريض عن القيام سقط عنه وصلى قاعدًا، وإذا تيسر له يركع ويسجد إن استطاع، فإن لم يستطع الركوع والسجود أو السجود فقط أومأ إيماءً برأسه، وجعل إيمائه للسجود أخفض من ركوعه تفرقةً بينهما. وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ

(١) مسلم (٢١٦٢).

(٢) الترمذي (٩٦٩)، أبو داود (٣٠٩٨)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (١٠٧٠٦).

(٣) البخاري (٢٥٨٧)، مسلم (١٦٢٧).

(٤) الفقه الإسلامي (٢/ ٤٥٠).

(٥) البخاري (٥٧٥٠)، مسلم (٢١٩١).

(٦) أبو داود (٣٣٤)، المستدرك (١/ ٢٨٥)، سنن الدار قطني (١٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٢٣).

عَادَ مَرِيضًا، فَرَآهُ يُصَلِّي عَلَى وِسَادَةٍ، فَأَخَذَهَا فَرَمَى بِهَا، فَأَخَذَ عُودًا لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَأَخَذَهُ فَرَمَى بِهِ وَقَالَ: " **صَلِّ عَلَى الأَرْضِ إِنِ اسْتَطَعْتَ، وَإِلاَّ فَأَوْمِئْ إِيمَاءً، وَاجْعَلْ سُجُودَكَ أَخْفَضَ مِنْ رُكُوعِكَ** "(١). فإن لم يستطع القعود استلقى على ظهره وجعل رجليه إلى القبلة وأومأ بالركوع والسجود، وإن استلقى على جنبه ووجهه إلى القبلة وأومأ جاز، والكيفية أو الهيئة الأولى أولى، فإن لم يستطع الإيماء برأسه أخر الصلاة، ولا يومئ بعينه ولا بقلبه ولا بحاجبيه، لأنه لا عبرة له، ولا تسقط عنه الصلاة ويجب عليه القضاء. (٢)

٥ـحقه في تخفيف الصوم: قال تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: ١٨٤)، قوله تعالى: " مريضا " للمريض حالتان: إحداهما: ألا يطيق الصوم بحال، فعليه الفطر واجبا. الثانية: أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة، فهذا يستحب له الفطر ولا يصوم إلا جاهل(٣). فإن تمادى به المرض فلم يصح حتى جاء رمضان آخر، فيطعم مكان كل يوم مسكينا مدًا من حنطة، ثم ليس عليه قضاء، وإذا أفطر في رمضان لعلة فمات من علته فلا شئ عليه(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (البقرة: ١٩٦)، أجمع أهل العلم على أن المحرم ممنوع من حلق شعره وجزه وإتلافه بحلق أو نورة أو غير ذلك إلا في حالة العلة كما نص على ذلك القرآن. وأجمعوا على وجوب الفدية على من حلق وهو محرم بغير علة(٥).

٦ـحقه في رفع الجهاد: قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى

---

(١) سنن البيهقي الكبرى (٣٤٨٤)، (٣٤٨٥)، وصححه الألباني في تمام المنة ١/ ٣١٤.

(٢) الفقه الإسلامي (١/ ٦٣٩، ٦٣٨).

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ٦٨٤٧).

(٤) تفسير القرطبي (١/ ٦٥٣).

(٥) تفسير القرطبي (١/ ٧٠٨).

ﭐﻟۡﻤَﺮِﻳﺾِ ﺣَﺮَﺝٞۗ﴾ (الفتح١٧)، أي: لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد لعماهم وزمانتهم وضعفهم[١]. وله الحق أن يضع السلاح أثناء الحرب، قال تعالى: ﴿أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٠٢﴾ (النساء١٠٢)، رخص في المطر وضع السلاح لمشقة حمله ورخص في وضعه في المرض[٢].

١٨ـ حق اللسان

اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير حجمه، عظيم طاعته وجرمه فمن أطلق للسانه العنان، سلك به الشيطان في كل ميدان. . . ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع. [٣]

وفيما يلي نبين بإذن الله تعالى بعض حقوق اللسان:

أولًا: عظم خطر اللسان، وفضيلة الصمت: قال ﷺ: **" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت "**[٤]، وقال ﷺ لعقبة بن عامر لما سأله عن النجاة فقال: **" أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك "**. [٥]

ثانيًا: آفات اللسان: للسان آفات وأمراض وعلل كثيرة وكلها تودي بالإنسان في المهالك فمنها:

١ـ الكلام فيما لا يعنيك: قال ﷺ **" من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه "**. [٦]

فعلى العاقل أن يستغل وقته فيما يعنيه ولا ينفقه ويضيعه فيما لا يعنيه، فكم من كلمة يبنى بها قصرٌ في الجنة.

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٦٠٩٣).

(٢) القرطبي (٣/ ١٩٤٣).

(٣) موسوعة الحقوق الإسلامية (٣٩٥).

(٤) البخاري (٦٠١٨)، مسلم (٧٤).

(٥) الترمذي (٢٤٠٦) عن عقبة بن عامر، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٢٧٤١): صحيح لغيره.

(٦) الترمذي (٢٣١٧)، ابن ماجه (٣٩٧٦)، وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني (الجامع الصغير وزيادته ١٠٨٥٤).

٢ـ فضول الكلام: قال ﷻ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾. (النساء: ١١٤).

وقال عطاء بن أبي رباح: إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد منها، أتذكرون أن عليكم حافظين كرامًا كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه.

٣ـ المراء والجدال: قال النبي ﷺ: **"أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا. ."**.[١]

والمراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه إما في اللفظ، وإما في المعنى.

والجدال هو: قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه.

٤ـ الخصومة: قال رسول الله ﷺ **"إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم "**.[٢]

فاللسان هو سبب الخصومة، والخصومة توغر الصدر، وتهيج الغضب وتورث العداوة، وتشوش الخاطر، ومنها ينشأ الحقد والغل والحسد وهي مبدأ كل شر. . . فهي سبب الغيبة والنميمة، وتلمس العثرات. . . وقطع الأرحام، وسفك الدماء.

٥ـ التشدق في الكلام، وتكلف الفصاحة: قال ﷺ: **" إن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون، والمتشدقون والمتفيهقون،** قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون، والمتشدقون؛ فما المتفيهقون؟ قال: **المتكبرون "**.[٣] فهذا من التصنع المذموم.

---

(١) أبوداود (٤٨٠٠) عن أبي أمامه ﷺ، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٧٣).

(٢) البخاري (٢٤٥٧)، مسلم (٥) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) الترمذي (٢٠١٨) عن جابر، وحسنه الألباني (الجامع الصغير وزيادته ٣٩٦٤).

٦ـ **الفحش، والسب، وبذاءة اللسان**: والفحش: هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة.

ولم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا. (١)

وقال: " **سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**".(٢)

ومن أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه قالوا: يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: "**يسب الرجل فيسب أباه** ". (٣)

٧ـ **اللعن**: إما لعن الحيوان أو الجماد أو الإنسان وكل ذلك مذموم، قال النبي ﷺ "**لعن المؤمن كقتله** "(٤).

وقال ﷺ " **إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة** ". (٥)

٨ـ **المزاح**: منه مباح ومنه مذموم فأما المباح فهو ما كان يسيرًا ولم يتعد قدر الحاجة، وأما المذموم فهو الذي يتجاوز به العبد الحد، وكان النبي ﷺ "**يمزح ولا يقول إلا حقًا**".

٩ـ **السخرية والاستهزاء**: قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: حكيت إنسانًا فقال لي النبي ﷺ: "**والله ما أحبُ أني حاكيت إنسانًا ولي كذا وكذا** ". (٦)

١٠ـ **إفشاء السر**: وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء، والتهاون بحق المعارف والأصدقاء قال ﷺ: "**إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه**

---

(١) البخاري (٦٠٣٥)، مسلم (٦٨) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) البخاري (٦٠٤٤)، مسلم (١١٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٥٩٧٣)، مسلم (١٤٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أحمد (٤/ ٣٣)، الدارمي (٢/ ٢٥٢-٢٣٦١)، وصححه الألباني (صحيح الجامع ٥٤٠٤).

(٥) مسلم (٨٦).

(٦) أبو داود (٤٨٧٥)، البيهقي في الشعب (٥/ ٣٠١)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (١٠٤٥٢).

ثم ينشر سرها ". [١]

١١ـ الوعد الكاذب: الوعد الكاذب من أمارات النفاق. قال ﷺ: " **أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر** ". [٢]

١٢ـ الغيبة: قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢). قال النبي ﷺ: " **أتدرون ما الغيبة؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **ذكرك أخاه بما يكره**، قال: فإن كان فيه ما أقول، قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته. [٣]

١٩ـ حقوق اليتيم

اليتيم لغة: قال الليث: اليتيم الذي مات أبوه فهو يتيم حتى يبلغ، فإذا بلغ زال عنه اسم اليتيم، واليتيم من قبل الأب في بني آدم وقد يتم يتيم يتما وقد أيتمه الله. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾. (النساء: ٢). سماهم يتامى بعد بلوغهم وإيناس رشدهم للزوم اليتم إياهم. وقال المفضّل أصل اليتم: الغفلة قال: وبه يسمى اليتيم يتيما، لأنه يتغافل عن بره. وقال أبو عمرو: اليتيم، الإبطاء، ومنه أخذ اليتيم لأن البر يبطئ عنه. وقال الأصمعي: اليتم في البهائم من قبل الأم وفي الناس من قبل الأب. [٤]

مكانة اليتيم في القرآن: قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ (النساء: ٣٦).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى

---

(١) مسلم (١٢٣).

(٢) البخاري (٣٤)، مسلم (١٠٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٣) مسلم (٢٥٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) تهذيب اللغة للأزهري مادة يتم (١٤/ ٣٣٩)، وانظر: الصحاح للجوهري (٥/ ١٦٦٧)، ولسان العرب لابن منظور (١٢/ ٦٤٥).

﴿ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ (البقرة: ٨٣).

دفع المال لليتيم بعد بلوغه ورشده: قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾. (النساء: ٦). يعني تعالى ذكره بقوله " وابتلوا اليتامى" واختبروا عقول يتاماكم في إفهامهم، وصلاحهم في أديانهم، وإصلاحهم أموالهم، "حتى إذا بلغوا النكاح " فإنه يعني إذا بلغوا الحلم.

وقوله "فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم" في حالهم والإصلاح في أموالهم يعني بذلك تعالى ذكره: ولاة أموالهم، يقول الله لهم فإذا بلغ أيتامكم الحلم، فآنستم منهم عقلا وإصلاحا لأموالهم، فادفعوا إليهم أموالهم ولا تحبسوها عنهم "[١]

تزويج اليتيمة: قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (النساء: من الآية٣). أي: إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى سواها من النساء، فإنهن كثير، ولم يضيق الله عليه. [٢] وعن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ فقالت يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ وقول الله تعالى في آية أخرى ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال، قالت: فنهوا أن ينكحوا عن من رغبوا في ماله وجماله في يتامى النساء إلا

---

(١) جامع البيان للطبري (٣/ ٢٥١).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٣٣٩).

بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال. [(١)]

حق اليتيم في السنة: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **"إني أحرج[(٢)] حق الضعيفين اليتيم والمرأة"**. [(٣)]

وعن أبي هريرة ﷺ أن رجلًا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قله فقال له: **"إذا أردت أن تلين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم"**. [(٤)]

ما للوصي أن يعمل في مال اليتيم وما يأكل منه بقدر عمالته:

عن ابن عمر ﷺ " أن عمر تصدق بمال له على عهد رسول الله ﷺ وكان يقال له ثمغ، وكان نخلا - فقال عمر: يا رسول الله إني استفدت مالا وهو عندي نفيس فأردت أن أتصدق به، فقال النبي ﷺ: **تصدق بأصله لا يباع ولا يوهب ولا يورث ولكن ينفق ثمرة**، فتصدق به عمر، فصدقته تلك في سبيل الله وفي الرقاب والمساكين والضيف وابن السبيل ولذي القربى، ولا جناح على من وليه أن يأكل منه بالمعروف أو يوكل صديقه غير متمول"[(٥)]، وعن عائشة رضي الله عنها ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ٦)، قالت: أنزلت في والي اليتيم أن يصيب من ماله إذا كان محتاجا بقدر ماله بالمعروف ". [(٦)]

وقوله تعالى: " ومن كان غنيًا" من ولاة أموال اليتامى على أموالهم " فليستعفف بماله عن أكلها بغير الإسراف والبدار أن يكبروا بما أباح الله له أكلها به، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف أي: ومن كان فقير منهم إليها محتاجا فليأكل بالمعروف"[(٧)].

---

(١) البخاري (٤٥٧٤)، ومسلم (٣٠١٨).

(٢) أحرج: أي أضيقه وأحرمه على من ظلمها. انظر لسان العرب مادة (حرج) (٢/ ٢٣٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٦٧٨) والنسائي (٩١٤٩)، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٣٩). وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠١٥).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢٦٣)، والبيهقي في الشعب (١١٠٣٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٨٥٤).

(٥) أخرجه البخاري (٢٧٦٤).

(٦) أخرجه البخاري (٢٧٦٥)، ومسلم (٣٠١٩).

(٧) انظر جامع البيان لابن جرير (٤/ ٢٥٤).

وعن عبد الله بن عمرو، أن رجلًا أتى النبي ﷺ، فقال: إني فقير ليس لي شيء ولي يتيم، " قال: كل من مال يتيمك غير مسرف، ولا مباذر، ولا متأثل "[١]، وعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (الأنعام: ١٥٢)، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ (النساء: ١٠) فشق ذلك على المسلمين، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ (البقرة: ٢٢٠) إلى قوله "لأعنتكم "[٢] وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ قال: كان يكون في حجر الرجل اليتيم، فيعزل له طعامه وشرابه وآنيته، فشق ذلك على المسلمين، فأنزل الله ﷻ ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ **فأحل لهم خلطتهم**".[٣]

اجتناب التعدي على ماله: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ (النساء: ١٠). أي: إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب، فإنما يأكلون نارا تتأجج في بطونهم يوم القيامة ".[٤] وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ وذكر منها: " **أكل مال اليتيم** ".[٥]

كفالته: لقوله ﷺ " **أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**. وقال بإصبعيه السبابة والوسطى ".[٦]

الشفقة والبر: قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ (الإنسان: ٨). أي: هؤلاء الأبرار يطعمون الطعام على حبهم إياه وشهوتهم له وقوله

---

(١) أخرجه النسائي (٦/ ٢٥٦)، وابن ماجه (٢٧١٨)، وأبو داود (٢٨٧٢)، وقال الألباني: حسن صحيح في صحيح النسائي (٣٤٢٩).

(٢) أخرجه النسائي٦/ ٢٥٦، وأبو داود (٢٨٧١)، وحسنه الألباني في صحيح النسائي (٣٤٣٠).

(٣) أخرجه النسائي في كتاب الوصايا (٦/ ٢٥٦)، وحسنه الألباني في صحيح النسائي (٣٤٣١).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٣٦٥).

(٥) البخاري (٢٧٦٦) ومسلم (٨٩).

(٦) أخرجه البخاري (٦٠٠٥)، ومسلم بنحوه (٢٩٨٣) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

مسكينا يعني جل ثناؤه بقوله "مسكينًا " ذوي الحاجة الذين قد أذلهم الحاجة "يتيما وهو الطفل الذي قد مات أبوه ولا شيء له". [١]

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ (الفجر: ١٧)، يقول الله تعالى: إنما أهنت من أهنت من أجل أنه لا يكرم اليتيم، فأخرج الكلام على الخطاب، فقال: بل لستم تكرمون اليتيم، فلذلك أهنتكم. [٢]

وحديث أبي هريرة ﷺ أن رجلًا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: "إن أردت أن يلين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم". [٣] وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ (الضحى: ٩). أي: كما كنت يتيمًا فآواك الله فلا تقهر اليتيم، أي: لا تذله وتنهر وتهنه، ولكن أحسن إليه، وتلطف به ". [٤]

٢٠ـ حقوق الضيف

الضيف لغة: ضفت الرجل ضيفًا، وضيافة، وتضيفته: نزلت به ضيفًا وملت إليه، وقيل: نزلت به وصرت له ضيفا وضفته وتضيفته: طلبت منه الضيافة. [٥]

حق الضيف في القرآن: قال الله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ (الحجر: ٥١).

يقول ﷻ وخبرهم يا محمد عن قصة ضيف إبراهيم والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر. [٦]

وقال ﷻ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (الذريات ٢٤: ٢٧).

---

(١) جامع البيان لابن جرير (٢٩/ ٢٠٩).

(٢) جامع البيان لابن جرير (٣٠/ ١٨٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تفسير ابن كثير (١٤/ ٣٨٥).

(٥) لسان العرب لابن منظور (٩/ ٢٠٩).

(٦) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٦٧).

وقوله" هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ "أي: الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل، وقوله: "فراغ إلى أهله "أي: انسل خفية في سرعة، "فجاء بعجل حنيذ"أي: من خيار ماله وفي الآية الأخرى "﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ (هود: ٦٩) أي: مشوي [١] "فقربه إليهم " أي: أدناه منهم، "قال ألا تأكلون"؟: تلطف في العبارة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة، فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال "نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتى ثمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال"ألا تأكلون "؟ علي سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل. [٢]

حق الضيف في السنة: عن أبي شريح الكعبي أن رسول الله ﷺ قال: " **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام فما بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه** ". [٣]

قال ابن بطال: سئل عنه مالك فقال: يكرمه ويتحفه يوما وليلة وثلاثة أيام ضيافة، قلت: واختلفوا هل الثلاث غير الأول أو بعد منها؟ فقال أبو عبيد: يتكلف له في اليوم الأول بالبر والألطاف، وفي الثاني والثالث يقدم له ما حضره ولا يزيده على عادته، ثم يعطيه ما يجوز به مسافة يوم وليلة وتسمى الجيزة، وهي قدر ما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل. [٤] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ " **إن لزورك عليك حقا**". [٥] وعن

---

(١) الرصف: حجارة مرصوف بعضها إلى بعض (لسان العرب لابن منظور ٩/ ١٢٠).

(٢) تفسير ابن كثير (١٣/ ٢١٧).

(٣) البخاري (٦١٣٦)، ومسلم (١٣٥٢).

(٤) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٥٤٩).

(٥) البخاري (١٩٧٤).

أبي جحيفة عن أبيه قال " آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال: كُل فإني صائم، فقال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل. . . الخ الحديث وفيه من الفوائد: صنع الطعام للضيف وتقديمه له.

يكره الغضب والجزع وعنده الضيف: عن أبي عثمان عن عبد الرحمن ابن أبي بكر رضي الله عنهما أن أبا بكر تضيف رهطا فقال لعبد الرحمن: دونك أضيافي فإني منطلق إلى النبي ﷺ، فافرُغْ من قراهم قبل أن أجئ، فأنطلق عبد الرحمن فأتاهم بما عنده فقال: اطعموا فقالوا أين رب منزلنا؟ قال: اطعموا قالوا ما نحن بآكلين حتى يجيء رب منزلنا قال: اقبلوا عنا قراكم فإنه إن جاء ولم تطعموا لنلقينَّ منه فأبوا فعرفت أنه يجد علي فلما جاء تنحيت عنه، فقال ما صنعتم فأخبروه، فقال يا عبد الرحمن فسكتُّ ثم قال يا عبد الرحمن فسكت فقال: يا غنثر، أقسمت عليك إن كنت تسمع صوتي لما جئت فخرجت فقلت: سل أضايفك. فقالوا صدق أتانا به قال: فإنما انتظرتموني والله لا أطعمه الليلة فقال الآخرون والله لا نطعمه حتى تطعمه قال لم أر في الشر كالليلة ويلكم ما أنتم؟ لم لا تقبلون عنا قراكم؟ هات طعامك فجاءه فوضع يده فقال: باسم الله فأكل وأكلوا"[1]

إيثاره على النفس: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فقال "من يضيف هذا الليلة رحمه الله فقام رجل من الأنصار فقال أنا يا رسول الله فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني، قال: فعلليهم بشيء فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه، قال فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٤٠)، ومسلم (٢٠٥٧).

"قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة". (١)

وفي رواية البخاري "فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾. (الحشر: من الآية٩).

ما يفعل الضيف إذا تبعه غير من دعاه صاحب الطعام واستحباب إذن صاحب الطعام للتابع:

عن أبي مسعود الأنصاري قال: كان رجل من الأنصار يقال له أبو شعيب وكان له غلام لحام فرأى رسول الله ﷺ فعرف في وجهه الجوع فقال لغلامه: ويحك اصنع لنا طعاما لخمسة نفر فإني أريد أن أدعو النبي ﷺ خامس خمسة. قال: فصنع ثم أتى النبي ﷺ فدعاه خامس خمسة، وأتبعهم رجل. فلما بلغ الباب قال النبي ﷺ "إن هذا اتبعنا فإن شئت أن تأذن له وإن شئت رجع " قال لا بل آذن له يا رسول الله". (٢)

٢١ـ حقوق الجوار

معنى الجوار في اللغة: الجوار: المجاورة والجار الذي يجاورك، وجارك: الذي يجاورك. (٣)

١ـحق الجار في القرآن: قال الله ﷻ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦). قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: والجار ذي القربى، يعني الذي بينك وبينه قرابة، والجار الجنب الذي ليس بينك وبينه قرابة، وقال أبو إسحاق عن نوف البكالي، في قوله والجار ذي القربى: يعني الجار المسلم، والجار الجنب يعني اليهودي والنصراني(٤).

أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاة برعي ذمته في كتابه وعلى لسان نبيه. ألا تراه سبحانه أكد ذكره بعد الوالدين والأقربين فقال تعالى: "والجار ذي القربى" أي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٦)، وأخرجه مسلم (٢٠٣٦).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٤/ ١٥٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣).

القريب، " والجار الجنب" أي الغريب، قاله ابن عباس وكذلك هو في اللغة، قلت: وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلمًا كان أو كافرًا، وهو الصحيح. (١)

٢ـحقوق الجوار في السنة: "عن رجل من الأنصار قال: خرجت مع أهلي أريد النبي ﷺ وإذا أنا به قائم، وإذا رجل مقبل عليه، فظننت أن لهما حاجة فجلست فو الله لقد قام رسول الله ﷺ حتى جعلت أرثي له من طول القيام، ثم انصرف، فقمت إليه فقلت: يا رسول الله، لقد قام بك هذا الرجل حتى جعلت أرثى لك من طول القيام، قال أتدري من هذا؟ " قلت: لا قال: **ذاك جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه، أما إنك لو كنت سلمت عليه لرد عليك السلام**". (٢)

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: "**مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**". (٣)

أن يحب لجاره ما يحبه لنفسه: عن انس بن مالك عن النبي ﷺ قال: "**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه أو لجاره ما يحبه لنفسه**". (٤)

إكرام الجار ولو بالقليل: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **يا نساء المسلمات! لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة**"(٥) "فرسن شاة": هو حافر الشاة. (٦)

وهذا النهي عن الاحتقار نهي للمعطية المهدية، ومعناه: لا تمتنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها لاستقلالها واحتقار ما الموجود عندها، **بل** تجود بها تيسر وإن كان قليلا كفرسن شاة، وهو خير من العدم. (٧)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٨٧).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٦٥)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ٤٢٧)، والخرائطي (٣٥/ ٣٦) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٧٢).

(٣) رواه البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٥).

(٤) مسلم (٤٥)، والبخاري (١٣) بنحوه.

(٥) مسلم (١٠٣٠)، والبخاري (٦٠١٧).

(٦) الفتح (١٠/ ٤٥٩).

(٧) صحيح مسلم بشرح النووي (٤/ ١٢٩).

وعن عمرو بن معاذ الأشهلي، عن جدته أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **"يا نساء المسلمات، لاتحتقرن امرأة منكن لجارتها ولو كراع شاة محرق"**. [١] الكراع: من الإنسان ومن الدواب وسائر المواشي: مادون الكعب.

وفي هذا الحديث الحض على الصلة والهدية بقليل الشيء وكثيره، وفي ذلك دليل على بر الجار وحفظه، لأن من ندب إلى أن تهدي إليه وتصله، فقد منعت من أذاه وأمرت ببره. [٢]

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن خليلي ﷺ أوصاني: **"إذا طبخت مرقًا فأكثر ماءه ثم انظر أهل بيت من جيرانك، فأصبهم منها بمعروف"**. [٣]

عدم أذيته: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره"**. [٤]

وعن جحيفة قال: جاء رجل إلي رسول الله ﷺ يشكو جاره فقال: **"اطرح متاعك على الطريق فطرحه**، فجعل الناس يمرون عليه ويلعنونه، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما لقيت من الناس، قال: وما لقيت منهم؟ قال: يلعنوني قال "قد لعنك الله قبل الناس، قال فإني لا أعود فجاء الذي شكاه إلى النبي ﷺ فقال له: **"ارفع متاعك فقد كفيت"**[٥] وعن أبي عامر الحمصي قال: كان ثوبان يقول: "وما من جار يظلم جاره ويقهره، حتى يحمله ذلك على أن يخرج من منزله فقد هلك ". [٦]

لا يمنعه من غرز الخشبة في جداره: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " لا

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٢٢) والموطأ صـ ٧٠٩، والإمام أحمد (٤/ ٦٤)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الأدب (٩٠).

(٢) التمهيد لابن عبد البر (٤/ ٢٩٥).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٥).

(٤) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٣٤)، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ١٦٥) وبنحوه في الأدب المفرد (١٢٥) قال عنه الشيخ الألباني: صحيح لغيره. انظر: صحيح الترغيب (٢٥٥٨).

(٦) الأدب المفرد (١٢٧)، وصحح إسناده الألباني في صحيح الأدب المفرد (٩٤).

يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبة في جداره". قال: ثم يقول أبوهريرة: مالي أراكم عنها معرضين؟ والله! لأرمين بها بين أكتافكم.[١]

عدم إغلاق الباب على الجار ومنع المعروف: "عن ابن عمر قال: لقد أتى علينا زمان، أو قال حين، وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم. ثم الآن الدنيا والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم سمعت النبي ﷺ يقول: **"كم من جار متعلق بجاره يوم القيامة يقول: يا رب! هذا أغلق بابه دوني، فمنع معروفه "**.[٢]

دعاء النبي على جار السوء: عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ كان يقول: **"اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول "**.[٣]

أذية الجار سبب في دخول النار: عن أبي هريرة ﷺقال: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها، وصيامها، وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها! قال: **هي في النار**"قال: يا رسول الله، إن فلانة يذكر من قلة صيامها، وصدقتها، وصلاتها، وإنها تصدق بالأثوار[٤] من الأقط[٥]ولا تؤذي جيرانها بلسانها! قال: **هي في الجنة"**.[٦]

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال **"لا يدخل الجنة من لا يؤمن جاره بوائقه"**.[٧]

لا يشبع دون جاره: عن عبد الله بن المساور قال: سمعت ابن عباس يخبر ابن الزبير

---

(١) مسلم (١٦٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١١)، قال عنه الألباني: حسن لغيره، انظر: صحيح الأدب (٨١).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٧)، وابن حبان برقم (١٠١٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٣٢)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب (٨٦).

(٤) الثور القطعة العظيمة من الأقط والجمع أثوار. (لسان العرب لابن منظور ٤/ ١١١).

(٥) الأقط: شيء يتخذ من اللبن المحيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل لسان العرب (٧/ ٢٥٧).

(٦) رواه أحمد (٢/ ٤٤٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٦٦)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٩)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الأدب (٨٨).

(٧) مسلم (٧٣).

يقول: سمعت النبي ﷺ يقول "ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع". [١] عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ " **ما آمن بي من بات شبعانا وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به**". [٢]

إثم من لا يأمن جاره بوائقه: عن أبي شريح أن النبي ﷺ: "قال: **والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه** ". [٣] وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة حتى يأمن جاره بوائقه** "[٤]

الجار الصالح والجار السيئ: عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: "**أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربع من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق والمركب السوء**"[٥]

الإحسان إلى الجار يؤدي إلى زيادة الإيمان: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من يأخذ مني خمس خصال فيعمل بهن، أو يعلمهن من يعمل بهن؟ قال: قلت: أنا يا رسول الله، قال: فأخذ بيدي، فعدهن فيها، ثم قال: **اتق المحارم؛ تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك؛ تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك؛ تكن مؤمنًا، وأحب للناس ما تحب لنفسك؛ تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب**". [٦]

---

(١) البخاري في الأدب المفرد (١١٢)، وأبو يعلي في مسنده (٢٦٩١)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الأدب (٨٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٢٥٩)، صحيح لغيره. انظر: صحيح الترغيب (٢٥٦١).

(٣) البخاري (٦٠١٦)، ومسلم (٤٧).

(٤) رواه الإمام أحمد (٣/ ١٩٨)، والبيهقي في الشعب (٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٨٨٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٥٤).

(٥) ابن حبان (٤٠٣٢)، وأحمد بنحوه (١/ ١٦٨)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٨٢).

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٠)، والترمذي (٢٣٠٥)، والبيهقي في الشعب (٩٥٤٤)، (حسن لغيره) انظر صحيح الترغيب (٢٥٦٧).

المحسن لجاره يكتب عند الله من الخيرين: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **"خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره"**. (١)

الأدنى فالأدنى من الجيران: عن الوليد بن دينار عن الحسن، أنه سُئل عن الجار؟ "فقال: أربعين دارًا أمامه، وأربعين خلفه، وأربعين عن يمينه، وأربعين عن يساره ". (٢)

حرمة عرض الجار: عن محمد بن سعد قال: سمعت أبا ظبية الكلاعي قال: سمعت المقداد بن الأسود يقول: سأل رسول الله ﷺ أصحابه عن الزنى؟ قالوا: حرام، حرمه الله ورسوله فقال: "لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره، وسألهم عن السرقة؟ قالوا: حرام، حرمه الله ﷻ ورسوله، فقال: لأن يسرق من عشرة أهل أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره". (٣)

إكرام الجار اليهودي: عن عبد الله بن عمرو أنه ذبحت له شاه فجعل يقول لغلامه: أهديت لجارنا اليهودي، أهديت لجارنا اليهودي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"**. (٤)

يهدي إلى أقربهم بابًا: عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: **"إلى أقربهم منك بابا"**. (٥)

٢٢ـ حق الخادم والمملوك

إن ملك اليمين في الإسلام يقتضي حقوقًا في المعاشرة لا بد من مراعاتها، فقد كان من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ. فعن علي ؓ قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ " **الصلاة**

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٤٤)، والإمام أحمد (٢/ ١٦٨)، وابن خزيمة (٢٥٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٩)، وحسن إسناده الألباني في صحيح الأدب (٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٣)، وأحمد (٦/ ٨)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الأدب (٧٦).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٥)، و أبوداود (٥١٥٢)، والترمذي (١٩٤٣)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الأدب (٧٨).

(٥) البخاري (٦٠٢٠).

الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم "[١] يريد الإحسان إلى الرقيق والتخفيف عنهم[٢]، والأظهر أنه أراد بما ملكت أيمانكم المماليك وإنما قرنه بالصلاة ليعلم أن القيام بمقدار حاجتهم من الكسوة والطعام واجب على من ملكهم وجوب الصلاة التي لا سعة في تركها[٣].

وفيما يلي ذكر لبعض حقوق الخادم والمملوك في الإسلام:

أولًا حقه في العبادة: لا شك أن للخادم أو المملوك حقه في العبادة في الإسلام، ولذلك قال الفقهاء: والأجير يشهد الأعياد والجمعة ولا يشترط ذلك، وإنما أباح له ذلك لأن أوقات الصلاة مستثناةً من الخدمة، وقال ابن مبارك: لا بأس أن يصلي الأجير ركعات السنة.[٤]

ثانيًا: حقه في النفقة: عن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر الغفاري ﷺ وعليه حلة وعلى غلامه حلةُ، فسألناه عن ذلك فقال: إني سابت رجلًا فشكاني إلى النبي ﷺ، فقال لي النبي ﷺ: **" أعيرته بأمه؟ ثم قال: إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس"**[٥]،

والشاهد من الحديث قوله ﷺ **" فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس"**، وقال ﷺ " للمملوك طعامه وكسوته "[٦]، واللام للملك أي طعام المملوك وكسوته بقدر ما تنفع ضرورته مستحق له على سيده.[٧]

ثالثًا: حقه في الرفق به في العمل: ويؤكد هذا الحق قوله ﷺ في الحديث "ولا

---

(١) أحمد (١/ ٧٨)، أبوداود (٥١٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦١٦).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٤/ ٧٨٩).

(٣) عون المعبود (١٤/ ٤٤).

(٤) المغني (٦/ ٤١).

(٥) البخاري (٢٥٤٥).

(٦) مسلم (١٦٦٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٧) فيض القدير للمناوي (٥/ ٢٩٢).

تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم"[١]، وقوله ﷺ " **ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق** " والمراد أنه لا يكلفه إلا جنس ما يقدر عليه وفيه الحث على الإحسان إلى المماليك والرفق بهم وألحق بهم من في معناهم من أجير ونحوه.[٢]

رابعًا: حقه في عدم سبه أو شتمه: ويبين ذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه لما سبَّ غلامه فشكاه إلى النبي ﷺ فقال: أعيرته بأمه؟ ثم قال: **إخوانكم خولكم جعهلم الله تحت أيديكم** " ففي الحديث النهي عن سب الرقيق وتعييرهم بمن ولدهم.[٣]

خامسًا: ألا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء:

لقد بوب البخاري في صحيحه بابًا بعنوان (كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي أوأمتي) وذكر تحته قوله تعالى: (والصالحين من عبادكم وإمائكم) وغيرها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "**لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك، وليقل: سيدي مولاي ولا يقل أحدكم: عبدي، أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي** ". ففي كل هذا كراهية التطاول عليهم والترفع عليهم.[٤]

سادسًا: وإذا ضربه فليجتنب الوجه: فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " **إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه**"[٥]

٢٣ـ حقوق الدواب

لقد خلق الله سبحانه وتعالى العالم كله وجعل لكل شيء ما يناسبه ويلائمه وجعل لكل شيء حق يخصه حتى الدواب فلقد جعل لكل شيء حق يخصه حتى الدواب فلقد جعل الله عز وجل لها حق يخصها فمن هذه الحقوق:

١ـ الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة:

---

(١) البخاري (٢٥٤٥).

(٢) فيض القدير (٥/ ٢٩٢).

(٣) فتح الباري (٥/ ٢٠٧).

(٤) فتح الباري (٥/ ٢١٠، ٢١١).

(٥) البخاري (٢٥٥٩).

قال ﷺ "**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**"[(١)] فالله ﷻ كتب الإحسان على كل شيء وعلى بمعنى (في) أي أمركم بالإحسان في كل شيء وعلى كل حاله أمر بالإحسان في الذبح وأمر بالإحسان في القتل.

والإحسان في القتل هو اختيار أسهل الطرق وأقلها إيلامًا.

وإذ ذبح فلا بد من الإحسان فلا يصرعها بعنف ولا يجرها للذبح بعنف ولا يذبحها بحضرة أخرى ويجب عليه أي على الذابح أن يحد شفرته أي سكينه أي ليجعلها حادة ويستحب أن لا يحدها بحضرة الذبيحة وأن يجعل السكين في إمرارها فيجب إراحة الذبيحة وإراحتها يكون بفعل كل ما سبق[(٢)].

٢ – ومن حقوق الدواب أيضا حرمة صبرها لورود النهي عن صبر البهائم واتخاذها غرضا:

قال أنس رضي الله عنه: نهى رسول الله ﷺ أن تصبرا البهائم. [(٣)] وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: نهى رسول الله ﷺ أن يقتل شيء من الدواب صبرًا. [(٤)] وعن سعيد بن جبير قال: مر ابن عمر بنفر أو بفتيان من قريش قد نصبوا دجاجه يترامونها وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: "من فعل هذا لعن الله من فعل هذا وأن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا"، وصبر البهائم هو حبسها وهي حية لتقتل بالرمي ونحوه وهو معنى لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضا أي لا تتخذوا الحيوان الحي غرضا ترمون إليه كالغرض من الجلود وغيرها وهذا النهي للتحريم ولهذا قال ﷺ في رواية ابن عمر "لعن الله من فعل هذا " ولأنه تعذيب للحيوان وإتلاف لنفسه وتضييع لماليته وتفويت لذكاته إن كان مذكي ولنفعته إن لم يكن مذكي.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥)، وأبو داود (٢٨١١).

(٢) شرح مسلم للنووي (٧/ ١١٨)، وعون المعبود (٤/ ٢).

(٣) البخاري (٥٥١٣)، ومسلم (١٩٥٦).

(٤) مسلم (١٩٥٩).

٣ـ ومن حق الدواب أيضا تحريم تعذيبها بالعطش والجوع وفضل سقيها الماء:

فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما " أن النبي ﷺ صلى صلاة الكسوف، فقال: **دنت مني النار حتى قلت: أي رب وأنا معهم؟ فإذا امرأة حسبت أنه قال تخدشها هره قال: ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعا"**. (١)

وقال ﷺ: " **دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض** "(٢)

وفي الحديث دليل على تحريم تعذيب الحيوان فانظر هذه كيف دخلت النار بسبب تعذيبها لهذا الحيوان ومنع الماء والطعام عنها حتى ماتت فكل من لديه شيء وجب أن يحسن إليه ويرعاه كما يرعى كل صاحب روح. (٣)

بل إن الله ﷻ جعل الفضل الكبير لمن سقاها وأطعمها. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال "**بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر فملا خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له** "، **قالوا: يا رسول الله وان لنا في هذه البهائم لأجرا، فقال:** " **في كل كبد رطبة أجر** "(٤) وفي هذا بيان معنى الإحسان إلى كل حيوان حتى نسقيه ففيه أجر وسمي الحي ذا كبد رطبة لأن الميت يجف جسمه وكبده وفي هذا الحث على الإحسان إلى الحيوان المحترم وهو ما لا يؤمر بقتله، فأما المأمور بقتله فيمثل أمر الشرع في قتله والمأمور بقتله كالكافر الحربي والمرتد والكلب العقور والفواسق الخمس المذكورات في الحديث وما في معناهن وأما المحترم فيحصل الثواب بسقيه الإحسان إليه أيضا بإطعامه

---

(١) البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٢) البخاري (٣٣١٨).

(٣) شرح النووي (٧/ ٥٠١)، وفتح الباري (٦/ ٤٠٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤).

وغيره سواء كان مملوكا أو مباحا وسواء كان مملوكا له أو لغيره والله أعلم. (١)

٤ـ ومن حق الدواب أيضًا أن لا تتخذ كراسي: قال ﷺ: " **اركبوا هذه الدواب سالمة وابتدعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي** "(٢)

وفي هذا دليل على حرمة إجهاد الدواب وتحميلها أكثر من طاقتها لقوله ﷺ ابتدعوها أي اتركوها ورفهوا عنها إذا لم تحتاجوا إلى ركوبها. (٣)

٥ـ ومن حق الدواب أيضا عدم ضربها في وجهها ووسمها فيه: فعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه. (٤) وعنه أن النبي ﷺ مر عليه حمار قد وسم في وجهه فقال: "**لعن الله الذي وسمه**". (٥) وفي رواية ابن عباس رضي الله عنه، فأنكر ذلك، قال: فو الله لا أسمه إلا أقصى شيء من الوجه فأمر بحمار له فكوى في جاعرتيه فهو أول من كوى الجاعرتين"(٦)

قال النووي: فالوسم في الوجه منهي عنه بالإجماع للحديث فأما الآدمي فوسمه حرام لكرامته ولأنه لا حاجة إليه فلا يجوز تعذيبه وأما غير الآدمي فقال جماعة من أصحابنا يكره، وقال البغوي من أصحابنا لا يجوز فأشار إلى تحريمه وهو الأظهر لأن النبي ﷺ **لعن** فاعله واللعن يقتضي التحريم وأما وسم غير الوجه من غير الآدمي فجائز بلا خلاف عندنا لكن يستحب من نعم الزكاة والجزية ولا يستحب في غيرها ولا ينهى عنه. (٧)

٢٤ـ حقوق الطريق

---

(١) شرح مسلم للنووي (٧/ ٥٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٠)، وابن حبان (٥٦١٩)، والحاكم (١/ ٤٤٤)، وصححه، ووافقه الذهبي. ووافقهما الألباني كما في الصحيحة (٢١).

(٣) النهاية لابن الأثير (٥/ ٣٦٥).

(٤) مسلم (٢١١٦).

(٥) مسلم (٢١١٧).

(٦) مسلم (٢١١٨).

(٧) شرح النووي على مسلم (٧/ ٣٤٩).

الطريق لغة: السبيل، تذكر، وتؤنث، والطريق مابين السكتين من النخل.(١)

حق الطريق في القرآن: قال الله ﷻ ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الإسراء: ٣٧). يقول ﷻ ناهيًا عباده عن التجبر والتبختر في المشية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: متبخترًا متمايلًا مشي الجبارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن تقطع الأرض بمشيتك ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: لن تقطع بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك بل قد يجازي فاعل ذلك بنقيض قصده.(٢)

أو أن معناه لن تجعل فيها خرقًا بدوسك لها وشدة وطئك عليها، ويدل لهذا المعنى قوله بعده (ولن تبلغ الجبال طولًا) أي أنت أيها المتكبر المختال: ضعيف حقير عاجز محصور بين جامدين! أنت عاجز عن التأثير فيهما، فالأرض التي تحتك لا تقدر أن تؤثر فيها فتخرقها بشدة وطئك عليها، فاعرف قدرك، ولا تمش في الأرض مرحًا.(٣)

وأيضًا قوله ﷻ: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ (لقمان: ١٩)، "واقصد في مشيك" أي: امشي مشيا مقتصدًا ليس بالبطيء المتثبط ولا بالسريع المفرط، بل عدلًا وسطًا بَيْنَ بَيْن.(٤)

حقوق الطريق في السنة: عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " لقد رأيت رجلًا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس ".(٥) وعن أبي الوازع قال حدثني أبو برزة، قال: قلت: يا نبي الله علمني شيئا أنتفع به قال: "اعزل الأذى عن

---

(١) لسان العرب لابن منظور (١٠/ ٢٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٩/ ١١)، تفسير الطبري (٩/ ٨٨).

(٣) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٥٣٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١١/ ٥٨).

(٥) مسلم (١٩١٤).

طريق المسلمين".[١]

غض البصر: قال الله ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (النور: ٣٠). هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم.[٢]

وقال ﷻ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (النور: ٣١).

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغيرة منه لأزاجهن عباده المؤمنين، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات.[٣]

عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: " **إياكم والجلوس على الطرقات،** فقالوا: ما لنا بدٌ؛ إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: **فإذا أتيتم إلى المجالس فأعطوا الطريق حقها، قالوا وما حق الطريق؟ قال: غض البصر**".[٤]

كف الأذى: قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ (الأحزاب: ٥٨)، أي: ينسبون إليهم ما هم بُراء منه لم يعلموه ولم يفعلوه، فقد احتملوا بهتانًا وإثما مبينا، وهذا هوا البهت البين أن يحكي أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم.[٥]

عن أبي هريرة ﷺ: " أن رسول الله ﷺ قال أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم

---

(١) مسلم (٢٦١٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١٠/ ٢١٢).

(٣) تفسير ابن كثير (١٠/ ٢١٦).

(٤) البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).

(٥) تفسير ابن كثير (١١/ ٢٤١).

قال ذكرك أخاك بما يكره قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته ". [١]

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " **الإيمان بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان** ". [٢]

رد السلام: قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ (النساء: ٨٦).

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**". [٣]، وفي الحديث كما سبق ذكره عن النبي ﷺ قال "... ورد السلام... ". [٤]

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال الله ﷻ ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وقال الله ﷻ ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ (التوبة: ٧١).

وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**"[٥]، وفي الحديث كما سبق ذكره عن النبي ﷺ قال ".... **وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر**... ". [٦]

---

(١) مسلم (٢٥٨٩).

(٢) مسلم (٥٨).

(٣) مسلم (٩٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).

(٥) رواه مسلم (٧٨).

(٦) أخرجه البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).

عدم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه:

قال الله ﷻ ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ (الإسراء: ٣٧).

عن أبي هريرة ﷺعن النبي ﷺ قال: " **بينما رجل يمشي قد أعجبته جمته وبراده إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل في الأرض حتى تقوم الساعة** ". [١]

وعن أبي هريرة ﷺأن رسول الله ﷺ قال: "**بينما رجل يتبختر، يمشي في برديه قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**". [٢]

عدم قضاء الحاجة في الطريق وفي الظل وفي الماء:

عن أبي هريرة ﷺأن رسول الله ﷺ قال: "**اتقوا اللَّعَّانين" قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟ قال "الذي يتخلى في طريق الناس أوفي ظلهم**"[٣].

قال الخطابي: المراد باللعانين الأمرين الجالبين للعن الحاملين الناس عليه والداعيين إليه، وذلك أن من فعلهما شتم ولعن، يعني عادة الناس لعنه، فلما صار سببا لذلك أضيف اللعن إليهما. [٤]

وعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: " اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل". [٥]

٢٥ـ حق اللجوء

يتفرع عن حرية الإنسان بالتنقل حق اللجوء إلى بلد آخر، وهو المعروف اليوم "باللجوء السياسي " أي حق الانتقال إلى بلد لا يحمل جنسيته، وذلك لأهداف سياسية ينادي بها، ويضطهد من أجلها أو يلاقي العنت، والمشقة والمضايقة بسببها.

---

(١) البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

(٢) البخاري (٥٧٩٠)، مسلم (٢٠٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ١٦٤).

(٥) أخرجه أبو داود (٢٦)، وابن ماجه (٣٢٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٦٧)، وحسنه الشيخ الألباني في الإرواء (٦٢).

وحق اللجوء هو المعروف شرعًا بالهجرة، والتي كانت سنة الأنبياء مع أقوامهم وأممهم، فما منهم إلا وقد أوذي وأخرج من وطنه وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة في المرة الأولى، والثانية أول إقرار شرعي لحق المدينة، لشدة ما لاقوه من إيذاء المشركين بمكة وأملًا في إقامة الدولة الإسلامية، والمجتمع الإسلامي في المدينة. (١)

وجوب الهجرة:

ويوجب القرآن على المؤمنين الخروج من دار يضطهدون فيها ولا يستطيعون إظهار شعائرهم إلى دار يأمنون فيها على دينهم وأنفسهم وأموالهم، ويعد القعود عن ذلك تقصير إذ يترتب عليه كفر بعد إيمان مما يكون سببا للنار في الآخرة فيكون الإنسان بذلك خاسرًا للدنيا والآخرة، خسر الدنيا بركونه إلى الذل والضعة وخسر الآخرة بعدم هجرته إلى أرض يستطيع فيها القيام بشعائر دينه قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء: ٩٧-٩٩). (٢)

وقد أثنى الله ﷻ على المهاجرين فقال ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ (الحشر: ٨).

ثم أثنى الله ﷻ على الأنصار الذين استقبلوا المهاجرين وأحسنوا وفادتهم وإقامتهم فقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحشر: ٩).

وبقي وجوب الهجرة حتى فتح الله مكة المكرمة، وقال رسول الله ﷺ: **"لا هجرة بعد**

---

(١) حقوق الإنسان في الإسلام، تأليف: محمد الزحيلي (ص٣٣٣).

(٢) حقوق الإنسان بين هدي الرحمن واجتهاد الإنسان، محمد أحمد محمد فرج عطية ص ١٠٨.

الفتح "[١]، والغالب أنه لا هجرة من مكة إلى المدينة بعد الفتح، أما حكم الهجرة عامة إذا تحققت أسبابها فتبقى واجبة.[٢]

ثواب الهجرة في سبيل الله من أرض الوطن:

ولما كانت الهجرة من الوطن وأرض الآباء والأجداد ومنابت الصبا صعبة وشاقة على النفوس، وفيها احتمال كبير بفقد الأموال، وتركها في يد الكفار، وكذا فقد الأقارب والأحبة، وقطع مورد الرزق، لذلك رغب الشارع الحكيم بها فقالﷻ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (النساء: ١٠٠).

ويثبت للمهاجر هذا الأجر والسعة والثواب بمجرد خروجه، وإن مات في الطريق، ولم يصل إلى دار الإسلام لقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾. (النساء: ١٠٠).

وهكذا يبشر القرآن المهاجر لله ورسوله بالسعة في الرزق، بدلًا عما تركه وفقده كما يبشره بالأجر العظيم عند الله تعالى، سواء حصل وحقق الهدف، أم أدركه الموت أثناء الطريق بعد خروجه من بلده مهاجرًا، ولا بد في الأمرين من إخلاص النية لله تعالى، لتكون الهجرة لله وللرسول، وهوما بينه رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح المشهور عن عمر بن الخطاب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **" الأعمال بالنية ولكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه "**[٣].[٤]

حق الاستجارة والأمان:

---

(١) البخاري (٢٧٨٣)، مسلم (١٣٥٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) حقوق الإنسان محمد الزحيلي صـ ٣٣٤، وانظر: شرح كتاب السير الكبير للسرخسي تحت فصل بعنوان (باب هجرة الأعراب).

(٣) البخاري (٥٤)، مسلم (١٩٠٧).

(٤) حقوق الإنسان في الإسلام (٣٣٥).

ومن صور حق اللجوء التي قررها الإسلام:

أن يعزم غير المسلم الفرار من بلده إلى دار الإسلام، ليتعرف أحكام الإسلام، سواء أكان مشركًا أم كتابيًا، وسواء قدم اختيارًا أم اضطرارًا، فيجب على المسلمين استقباله، واستضافته، وإعطاؤه حق الاستجارة، الوارد في قوله تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٦).

فإن سمع الإسلام وأسلم، فبها ونعمت، وهو فضل من الله تعالى وإن طلب البقاء الدائم في دار الإسلام، فيعقد معه (عهد الذمة) ويصبح من رعايا الدولة الإسلامية، وإن أراد أن يبقى فترة مؤقتة فيعطي حق الأمان ويسمى (مستأمنًا) كما جاء في الآية الكريمة وأكده رسول الله ﷺ بإقراره الأمان الذي أعطته أم هانئ لأحد المشركين وقال ﷺ: " قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ "، ومن حقه على الدولة الإسلامية عامة، وعلى كل مسلم خاصة: التمتع بالأمن والأمان والطمأنينة، ثم يبلغ إلى بلده ومأمنه، كما جاء في القرآن الكريم ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ (التوبة: ٦). [١]

٢٦ـ حقوق الذميين

١ـ التزام تقريرهم في بلادنا إلا الحرم المكي:

لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ (التوبة٢٨).

٢ـ وجوب الكف عنهم وحمايتهم:

بسبب عصمة أنفسهم وأموالهم بالعقد، وإنهاء الحرب معهم ومسالمتهم، لحديث بريدة (فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم)[٢]. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: **"وأوصِيهِ بِذِمَّةِ الله وَذِمَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ وَلَا يُكَلَّفُوا**

(١) حقوق الإنسان في الإسلام، تأليف: محمد الزحيلي (ص ٣٣٦-٣٣٧).

(٢) مسلم (١٧٣١).

إِلَّا طَاقَتَهُمْ"[١].

٣ـعدم التعرض لكنائسهم ولا لخمورهم وخنازيرهم، ما لم يظهروها: فإن أظهروا الخمر أراقها عليهم، وإن لم يظهروها وأراقها مسلم ضمنها في رأي المالكية والحنفية، ولا يضمنها في رأي الشافعية والحنابلة، ويؤدب منهم من أظهر الخنزير[٢].

٤ـ عدم إكراههم على الإسلام: قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

قال ابن كثير: أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورًا[٣].

٥ـالإحسان إليهم وبرهم: وهناك فرق بين الولاء والبراء والمعاملة بالحسنى، فالولاء شيء والمعاملة بالحسنى شيء آخر، فالولاء لا يجوز لغير المسلمين، قال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨).

قال ابن جرير: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، من جميع أصناف الملل والأديان أن تبرُّوهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم، إن الله ﷻ عمّ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾، فلم يخصصْ به بعضًا دون بعض[٤]. وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ

---

(١) مسلم (١٧٣١).

(٢) حقوق الإنسان في ضوء الكتاب والسنة (٥٤٩، ٥٤٨).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٢).

(٤) تفسير الطبري (٢٨/ ٦٦).

قُلْتُ: إن أمي قدمت علي، وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أمِّي؟ قَالَ: **نَعَمْ صِلِي أمَّكِ**(١).

قال الخطابي: فِيهِ أَنَّ اَلرَّحِمَ اَلْكَافِرَةَ تُوصَلُ مِنْ اَلْمَالِ وَنَحْوِهِ كَمَا تُوصَلُ اَلْمُسْلِمَة وَيُسْتَنْبَطُ مِنْهُ وُجُوب نَفَقَة اَلْأَب اَلْكَافِر وَالْأُمّ اَلْكَافِرَة وَإِنْ كَانَ اَلْوَلَد مُسْلِمًا(٢). فالْبِرُّ وَالصِّلَة وَالْإِحْسَان لَا يَسْتَلْزِمُ التَّحَابُبَ وَالتَّوَادُدَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (المجادلة٢٢) فَإِنَّهَا عَامَّةٌ فِي حَقِّ مَنْ قَاتَلَ وَمَنْ لَمْ يُقَاتِلْ(٣).

٦ـ **عدم ظلمهم**: حذر الإسلام من ظلم أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)، وأوجب الإسلام المحافظة على دمائهم وأعراضهم ومعابدهم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"**(٤).

المبحث السادس: قالوا عن الإسلام.

برناردشو: إن العالم أحوج ما يكون إلى رجلٍ في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال؛ فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، خالدًا خلود الأبد، وإني أرى كثيرًا من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في هذه القارة (يعني أوروبا). إنّ رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجةً للجهل أو التعصّب، قد رسموا لدين محمدٍ صورةً قاتمة، لقد كانوا يعتبرونه عدوًّا للمسيحية، لكنّني اطّلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصلت إلى أنّه لم يكن عدوًّا للمسيحية، بل يجب أنْ يسمّى منقذ البشرية، وفي رأيي أنّه لو تولّى أمر العالم

---

(١) البخاري (٢٦٢٠)، مسلم (١٠٠٣).

(٢) فتح الباري (٥/ ٢٦٣).

(٣) فتح الباري (٥/ ٢٦١).

(٤) البخاري (٣١٦٦).

اليوم لوفق في حلّ مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها.

الفيلسوف (توماس كارليل): لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث هذا العصر أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خدّاع مزوِّر. وإن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة؛ فإن الرسالة التي أدَّاها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لنحو مائتي مليون من الناس، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟!

يان ساموليسون في كتابه: "الإسلام في السويد": إن الإسلام أشدّ حضارية ممّا يظنّه الكثير من المسيحيين و يذهب إلى القول أيضا بأنّ الإسلام هو مدرسة قائمة في حدّ ذاتها وليس الإسلام صورة منسوخة عن المسيحية كما يعتقد كثير من المسيحيين في الغرب.

المستشرق الألماني د. ج كامبفماير: " إن الاعتداء على الإسلام لا ترجى منه فائدة، ولن يردّ المسلمين عن دينهم، ولن يعوق النهضة الإسلامية بل سيقويها "[(١)].

المستشرق لويس يونغ: "إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية منها نظرة العرب المتسامحة". [(٢)]

أرنولد توينبي: " أن الإسلام بوسعه تلبية كافة حاجات الإنسان في العصر الحاضر، فليس هناك أي دين كالإسلام يستطيع أن يقدم أنجح الحلول للمشكلات والقضايا المعاصرة [(٣)]

يقول الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا: "إن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش في العالم، الأمر الذي فقدته المسيحية، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة"[(٤)]

---

(١) وجهة الإسلام ص ١٠٣.

(٢) العرب وأوربا ص ١٠ نقلًا عن قالوا عن الإسلام ص ٣٢٧.

(٣) الإسلام والغرب والمستقبل، ص ٧٣٩.

(٤) الإسلام والغرب محاضرة الأمير تشارلز في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية عام ١٩٩٣.

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: "لا إكراه في الدين، هذا ما أمر به القرآن الكريم، فلم يفرض العرب على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فبدون أي إجبار على انتحال الدين الجديد اختفى معتنقو المسيحية اختفاء الجليد، إذ تشرق الشمس عليه بدفئها! وكما تميل الزهرة إلى النور ابتغاء المزيد من الحياة، هكذا انعطف الناس حتى من بقي على دينه، إلى السادة الفاتحين". (١)

* **ويقول توماس أرنولد في كتابه الدعوة الإسلامية:** "لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح ". (٢)

* * *

---

(١) (شمس الله تسطع على الغرب) زيغريد هونكه ٣٦٤-٣٦٨ ط/ دار الآفاق الجديدة بيروت.

(٢) الدعوة الإسلامية لتوماس أرنولد نقلا عن كتاب رد افتراءات المبشرين محمد جمعة عبد الله ص٢٤٢.

الفصل الثالث

رسول البشرية محمد ﷺ

ويشتمل على المباحث الآتية:

تمهيد: أهمية معرفة شمائله ﷺ.

المبحث الأول: التعريف بالنبي ﷺ.

المبحث الثاني: بعض فضائل النبي ﷺ.

المبحث الثالث: أخلاق النبي ﷺ.

المبحث الرابع: صحابة النبي ﷺ.

المبحث الخامس: قالوا عن النبي ﷺ.

وإليك التفصيل

تمهيد: أهمية معرفة شمائله ﷺ.

أيها الأحبة هذا الحبيب يحلو لكل مسلم محب أن يتذكره، وأن يتصوره ويتخيله، وأن يعيش بقلبه مع هذا الحبيب ليعرف كيف كانت حياته؟ كيف كانت معاملاته؟ كيف كانت أخلاقه؟

وقد أمرنا الله ﷻ أن نقتفي أثره، وأن نسير على دربه، وأن نقلده في كل شيء، قال ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١). فنحن مأمورون أن نسير على دربه، وأن نقتفي أثره وأن نتبع سنته.

إن رسول الله ﷺ بشر ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾ (الكهف: ١١٠)، ولكنه لم يكن بشرًا عاديًا.

فمبلغ العلم فيه أنه بشر	وأنه خير خلق الله كلهم
أغر عليه للنبوة خاتم	من نور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه	إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله	فذو العرش محمود وهذا أحمد

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠). وهذه هي التي رفعت قدره وأعلت شأنه، ورفعت مكانته عند الله ﷻ وعند الخلق، ولن ننال رفقته في الجنة وشفاعته يوم القيامة إلا إن اتبعنا سنته، وسرنا على طريقته واقتفينا أثره ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ (آل عمران: ٣١) رسول الله لم يكن بشرًا عاديًا، لأنه مشرف بالوحي الذي أنزله الله عليه.

ومع هذه القطوف العطرة من سيرة النبي وأخلاقه ﷺ

المبحث الأول: التعريف بالنبي ﷺ

اسمه ﷺ: **مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ ابْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعبِ بْنِ لؤَيِّ بْنِ غالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ.** [١]

إلى هنا معلوم الصحة ومتفق عليه بين النسَّابين، ولا خلاف أن عدنان من وَلَدِ إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام.

وله ﷺ **أسماء أخري.** فعن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " **إِنَّ لِي أَسْمَاءً أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، الَّذِي يَمْحُو الله بِيَ الْكُفْر، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ**"[٢]. والعاقب: من لا نبي بعده. لقد اهتم أهل العلم بجمع أسماء النبي ﷺ ومنهم من أفرد في ذلك مصنفات بجمع الأحاديث المروية في أسمائه ﷺ. [٣]

نسبه ﷺ: نبينا محمد ﷺ خير أهل الأرض نسبًا على الإطلاق، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيلته.

عن وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " **إِنَّ الله اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ** ". [٤]

---

(١) البخاري كتاب مناقب الأنصار باب ٢٨.

(٢) البخاري (٤٨٩٦)، مسلم (٢٣٥٥).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٨٣: ٨٤، دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٥١: ١٦١.

(٤) مسلم (٢٢٧٦).

ميلاده ﷺ: وُلِدَ رسول الله ﷺ يوم الاثنين، من شهر ربيع الأول، عام الفيل، الموافق سنة خمس مئة وإحدى وسبعين من الميلاد. (١)

ولما ولدته أمه آمنة بنت وهب أرسلت إلي جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشرًا ودخل الكعبة، ودعا الله ﷺ وشكره، واختار للمولد اسم محمد وهذا الاسم لم يكن معروفًا عند العرب. (٢)

قابلته ﷺ: هي الشفاء بنت عوف بن عبد الحارث بن زهرة، وهي والدة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه. (٣)

مرضعاته ﷺ: ثُويبة مولاة أبي لهب، ثم حليمة السعدية. (٤)

حواضنه ﷺ: أمه آمنة بنت وهب، وثُويبة مولاة أبي لهب، وحليمة السعدية، والشيماء بنت حليمة السعدية، وأم أيمن بركة الحبشية. (٥)

إخوته وأخواته ﷺ من الرضاعة: حمزة بن عبد المطلب «عم النبي ﷺ»، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وعبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وجُدامة بنت الحارث «وهي الشيماء»، وهؤلاء الثلاثة الأخيرون هم أولاد حليمة السعدية، مرضعة النبي ﷺ. (٦)

أعمامه ﷺ: أعمام النبي ﷺ أحد عشر رجلًا وهم: العباس، والزبير، وأبو طالب «اسمه عبد مناف»، وعبد الكعبة، وحمزة، والمُقَوِّم، وحَجْلٌ «اسمه المغيرة»، وضرار وقُثَم، وأبو لهب «واسمه: عبد العُزى» والغَيْداق «اسمه مصعب»، لم يُسْلم منهم إلا

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٤٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٢٤٦: ٢٤٧

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٢٤٦.

(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي ١/ ٥٦: ٥٧.

(٥) زاد المعاد لابن القيم ١/ ٨٣.

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٨٧: ٨٩.

حمزة والعباس رضي الله عنهما.[1]

عمات النبي ﷺ: عمات النبي ﷺ ست وهن: أميمة، وأم حكيم، وبَرَّة، وعاتكة، وصفية، وأروى.[2]

زوجاته ﷺ: لقد تزوج نبينا ﷺ إحدى عشر امرأة دخل بهن وهن بالترتيب كما يلي:

١- خديجة بنت خويلد ٢- سودة بنت زمعة ٣- عائشة بنت أبي بكر الصديق ٤- حفصة بنت عمر بن الخطاب ٥- زينب بنت خزيمة ٦- أم سلمة: هند بنت أمية المخزومية ٧- زينب بنت جحش ٨- جويرة بنت الحارث المصطلقية ٩- أم حبيبة: رَمْلة بنت أبي سفيان بن حرب ١٠- صفية بنت حُيي بن أخطب ١١ -ميمونة بنت الحارث الهلالية.

مات في حياة النبي ﷺ زوجتان هما: خديجة بنت خويلد، وزينب بنت خزيمة رضي الله عنهن جميعًا.[3]

أولاده ﷺ: كان للنبي ﷺ من الأبناء سبعة، ثلاثة من الذكور وهم: القاسم، وعبد الله (يُلقب بالطيب، والطاهر)، وإبراهيم. وأما بناته فهن: زينب، ورقية، وأم كلثوم وفاطمة. وكل الأولاد والبنات من خديجة رضي الله عنها ما عدا إبراهيم فمن مارية بنت شَمعون المصرية وكانت من مِلْكِ يمين للنبي ﷺ، وكل أولاد النبي ﷺ، ماتوا في حياته إلا فاطمة، رضي الله عنها، ماتت بعد النبي ﷺ بستة أشهر.[4]

كنيته ﷺ: أبو القاسم، وهو أكبر أولاده.

أحفاد النبي ﷺ: أحفاده ﷺ ستة وهم: أُمامة بنت أبي العاص بن الربيع وأمها زينب بنت النبي ﷺ، وعبد الله بن عثمان بن عفان وأمه رقية بنت النبي ﷺ، والحسن والحسين،

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١٠٤.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ١٦٩

(٣) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١٠٥: ١١٤.

(٤) زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٠٣.

وزينب، وأم كلثوم، وهم جميعًا أبناء علي بن أبي طالب وأمهم فاطمة بنت النبي ﷺ. (١)

حرَاسه ﷺ: سعد بن معاذ، ومحمد بن مسلمة، والزبير بن العوام، وعباد بن بشر، وآخرون. فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧) خرج النبي ﷺ فأخبرهم بها وصرف الحرس. (٢)

حُدَاته ﷺ: (٣) وحُداة النبي ﷺ هم: عبدالله بن رواحة، وعامر بن الأكوع، وسلمة بن الأكوع، وأنجشة الحبشي رضي الله عنهم. (٤)

كُتَابه ﷺ: كُتَّاب النبي ﷺ الذين كانوا يكتبون القرآن الكريم ورسائله ﷺ: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وعامر بن فُهيرة، وعمرو بن العاص، وأُبي بن كعب، وعبد الله بن الأرقم، وثابت بن قيس ابن شماس، وحنظلة بن الربيع، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم. (٥)

خاتمه ﷺ: كان خاتم النبي ﷺ من الفضة، وكان مكتوبًا عليه: محمد رسول الله: محمدٌ سطرٌ، ورسولُ سطرٌ، والله سطرٌ. (٦)

شُعراؤه ﷺ: كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت. (٧)

خُدَامه ﷺ: أنس بن مالك وكان على حوائجه، وعبد الله بن مسعود صاحب نَعْله وسواكه، وعقبة بن عامر الجهني صاحب بغلته يقود به في الأسفار، وأُسْلع بن شريك

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ١/ ٣٣١، صفة الصفوة لابن الجوزي ١/ ٢٩٤: ٣٠٩.

(٢) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١٢٧.

(٣) الحادي: هو الذي يسوق الإبل ويغني لها بدون معازف.

(٤) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١٢٨.

(٥) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١١٧.

(٦) البخاري (٥٨٧٥، ٥٨٧٨).

(٧) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١٢٨.

وكان صاحب راحلته، وبلال بن رباح، وسعد، مَوْليا أبي بكر الصديق، وأبو ذر الغفاري، وأيمن بن عُبيد، وكان على مَطهرته وحاجته. [١]

حجه وعمرته ﷺ: حج النبي ﷺ مرة واحدة وهي حجة الوداع وكانت في العام العاشر من الهجرة، واعتمر أربع عُمر كلهن في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجته: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، وعمرة مع حجته وعمرة من الجعرانة. [٢]

مؤذنوه ﷺ: كانوا أربعة: بلال بن رباح، وعبد الله بن أم مكتوم بالمدينة، سعد القرظ بقباء، وأبو محذورة بمكة. [٣]

آخر صلاة للنبي ﷺ إمامًا للصحابة: هي صلاة المغرب وصلى فيها بسورة المرسلات. [٤]

آخر صلاة للنبي ﷺ في حياته: هي صلاة فجر يوم الاثنين الذي مات فيه. [٥]

آخر كلام النبي ﷺ: عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ وَهُوَ صَحِيحٌ: لَنْ يُقْبَضَ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخَيَّرُ، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي غُشِيَ عَلَيْهِ سَاعَةً ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى السَّقْفِ ثُمَّ قَالَ: **اللهمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى**، قُلْتُ: إِذًا لَا يَخْتَارُنَا، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ، قَالَتْ: فَكَانَتْ تِلْكَ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا اللهمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى. [٦]

وفاته ﷺ: تُوفي رسول الله ﷺ ضحى الاثنين من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة، ودُفن ليلة الأربعاء، في حجرة عائشة رضي الله عنها.

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١١٦: ١١٧.

(٢) البخاري (١٧٧٨)، مسلم (١٢٥٣).

(٣) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١٢٤.

(٤) البخاري (٤٤٢٩)، مسلم (٤٦٢).

(٥) دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٩٢: ١٩٣.

(٦) البخاري (٤٤٦٣).

المبحث: الثاني: بعض فضائل النبي ﷺ

أكرم الله نبيه ﷺ بفضائل جمّة، وصفات عدة، فأحسن خلْقَه وأتم خُلُقه، حتى وصفه تعالى بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)، ومنحه ﷻ فضائل عديدة، وخصائص كثيرة، تميز بها ﷺ عن غيره، فضلًا عن مكانة النبوة التي هي أشرف المراتب.

ونتناول في الأسطر التالية شيئًا يسيرًا من فضائله ﷺ.

أنه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم: قال تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٦).

قال الشوكاني: فإذا دعاهم النبي ﷺ لشيء ودعتهم أنفسهم إلى غيره، وجب عليهم أن يقدموا ما دعاهم إليه، ويؤخروا ما دعتهم أنفسهم إليه، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم، وتطلبه خواطرهم. [١]

أنه ﷺ سيد ولد آدم: عن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " **أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ** ". [٢]

أنه ﷺ أمان لأمته: وعن أبي موسى الشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال " **النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لأصحابي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أصحابي مَا يُوعَدُونَ وأصحابي أَمَنَةٌ لأمتي فَإِذَا ذَهَبَ أصحابي أَتَى أمتي مَا يُوعَدُونَ** ". [٣]

أنه ﷺ خاتم الأنبياء: قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٠)، وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " **إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قبلي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ**

---

(١) فتح القدير ٦/ ١٨.

(٢) مسلم (٢٢٧٨)

(٣) مسلم (٢٥٣١).

اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ ". [١]

أن رسالته ﷺ عامة للناس جميعًا: عن جابر بن عبد الله ﷺ أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: " **أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قبلي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أمتي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قبلي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النبي يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**". [٢]

أخذ الله له ﷺ العهد على جميع الأنبياء: من الأمور التي تدل على عظيم قدره ﷺ عند ربه ما أخذه الله من العهد له ﷺ على جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام على أنه لو بعث ﷺ وهم أحياء أو أحد منهم فإنه يجب عليهم أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصروه. قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

قرنه ﷺ خير قرون بني آدم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " **بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بني آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الذي كُنْتُ فِيهِ** ". [٣] وعَنْ عَبْدِ الله ﷺعَنِ النبي ﷺ قَالَ: " **خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**". [٤]

أنه ﷺ خليل الرحمن: عَنْ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " **أَلاَ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خِلٍّ مِنْ خِلِّهِ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا إِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الله** ". [٥]

وهذه الفضيلة لم تثبت لأحد غير نبينا وإبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام.

أن الله رفع له ذكره ﷺ: قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح: ٤) فلا يذكر

---

(١) البخاري (٣٥٣٥)، مسلم (٢٢٨٦).

(٢) البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١).

(٣) البخاري (٣٥٥٧).

(٤) البخاري (٢٦٥٢)، مسلم (٢٥٣٣).

(٥) مسلم (٢٣٨٣).

سبحانه إلا ذكر معه، ولا تصح للأمة خطبة ولا تشهد حتى يشهدوا أنه عبده ورسوله، وأوجب ذكره في كل خطبة، وفي الشهادتين اللتين هما أساس الإسلام وفي الأذان الذي هو شعار الإسلام وفي الصلاة التي هي عماد الدين إلى غير ذلك من المواضع.

أن الله أقسم بحياته ﷺ: فقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢) والإقسام بحياة المقسم بحياته يدل على شرف حياته وعزتها عند المقسم بها، وأن حياته ﷺ لجديرة أن يقسم بها لما فيها من البركة العامة والخاصة ولم يثبت هذا لغيره ﷺ.

أن الله وقره في ندائه، فناداه بأحب أسمائه وأوصافه ﷺ: فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ وهذه الخصيصة لم تثبت لغيره، بل ثبت أن كلا منهم نودي باسمه فقال تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ﴾ ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ﴾ ولا يخفي على أحد أن السيد إذا دعي أحد عبيده بأفضل ما وجد فيه من الأوصاف العلية والأخلاق السنية، ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام التي لا تشعر بوصف من الأوصاف ولا بخلق من الأخلاق، دل ذلك على أن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم. وهذا معلوم بالعرف أن من دعي بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه.

النهي عن مناداته باسمه ﷺ: فقال الله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ (النور: ٦٣)

لا يرفع صوت فوق صوته ﷺ: إن الله نهي الأمة أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته ﷺ ولا يجهروا له بالقول - كما هو الحال بين الناس- حتى لا تحبط أعمالهم فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ (الحجرات: ٢). هذه بعض بفضائل النبي ﷺ.

المبحث الثالث: أخلاق النبي ﷺ.

أولًا: رسول الله رائد حياة الأخلاق:

فهذه إشارات سريعة إلى أخلاق سيد المتخلقين بمكارم الأخلاق صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وإننا مهما تكلمنا ومهما كتبنا في هذا الموضوع لا نستطيع أن نوفي قدر النبي ﷺ، فهو رائد حياة الأخلاق الكريمة، وهو الذي عَلَّم الدنيا محاسن الأخلاق، فلولاه بعد الله تخبط الناس في الجهل والغفلة والعمى، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

وقد زَكَّى الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ في كل شيء. ومن زكاه ربه فلا يجوز لأحد من أهل الأرض قاطبة أن يظن أنه يأتي في يوم من الأيام ليزكيه، بل إن أي أحد وقف ليزكي رسول الله ﷺ وليصف رسول الله ﷺ وليتكلم عن قدر رسول الله ﷺ، فإنما يرفع من قدر نفسه، ومن قدر السامعين بحديثه عن الحبيب المصطفى ﷺ. ولنعلم أنه لا يعرف أحد قدر النبي ﷺ إلا الرب العلي ﷻ ولذا:

زَكَّاه ربه في عقله فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ (النجم: ٢).

وزَكَّاه في بصره فقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (النجم: ١٧).

وزكاه في صدره فقال: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ (الشرح: ١).

وزكاه في ذكره فقال: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ (الشرح: ٤).

وزكاه في طُهره فقال: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ (الشرح: ٢).

وزكاه في صدقه فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ (النجم: ٣).

وزكاه في علمه فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ (النجم: ٥).

وزكاه في حلمه فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

وزكاه في خلقه كله فقال جل وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) ﷺ.

ومما زادني فخرًا وتيها وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن سيرت أحمد لي نبيا.

قال القاضي عياض: اعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم ﷺ الباحث عن تفاصيل جمل قدره العظيم أن خصال الجمال والكمال في البشر نوعان: ضروري دنيوي اقتضته الجبلة وضرورة الحياة الدنيا، ومكتسب ديني وهو ما يحمد فاعله ويقرب إلى الله تعالى زلفى.

فأما الضروري المحض فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب، مثل ما كان في جلبته من كمال خلقته، وجمال صورته، وقوة عقله، وصحة فهمه، وفصاحة لسانه، وقوة حواسه وأعضائه، واعتدال حركاته، وشرف نسبه، وعزة قومه، وكرم أرضه، ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه، من غذائه ونومه، وملبسه ومسكنه، ومنكحه، وماله وجاهه. وقد تلحق هذه الخصال الآخرة بالأخروية إذا قصد بها التقوى ومعونة البدن على سلوك طريقها، وكانت على حدود الضرورة وقواعد الشريعة.

وأما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العلية، والآداب الشرعية: من الدين، والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن الأدب، والمعاشرة، وأخواتها، وهي التي جماعها: حسن الخلق.[1]

ثانيًا: **بيان أصول أخلاق المصطفى وتحقق وصفه بها** ﷺ. أما أصل فروعها وعنصر ينابيعها، ونقطة دائرتها: فالعقل الذي منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتضرع عن هذا ثقوب الرأي، وجودة الفطنة والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب ومصالح النفس، ومجاهدة الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل، وتجنب الرذائل. وقد بلغ النبي ﷺ من

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٧٦.

ذلك الغاية التي لم يبلغها بشر سواه. من تتبع مجارى أحواله، واطراد سيره، وطالع جوامع كلامه، وحسن شمائله وبدائع سيره، وحكم حديثه، وعلمه بما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحكم الحكماء وسير الأمم الخالية، وأيامها وضرب الأمثال، وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب النفيسة، والشيم الحميدة، إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه ﷺ فيها قدوة، وإشاراته حجة، كالعبارة، والطب، والحساب، والفرائض، والنسب، وغير ذلك، دون تعليم ولا مدارسة، ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم؛ بل نبي أمي لم يعرف بشيء من ذلك، حتى شرح الله صدره، وأبان أمره، وعلمه، وأقرأه، لاستيقن بالبرهان القاطع على نبوته، وبحسب عقله كانت معارفه ﷺ إلى سائر ما علمه الله تعالى، وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان، وعجاب قدرته وعظيم ملكوته، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٣). [١]

قال القاضي عياض: [٢] وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها فضلا عما فوقه وأثنى الشرع على جميعها وأمر بها ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة وهى المسماة بحسن الخلق وهو الاعتدال في قوى النفس وأوصافها والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها، فجميعها قد كانت خلق نبينا ﷺ على الانتهاء في كمالها والاعتدال إلى غايتها حتى أثنى الله عليه بذلك فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (القلم: ٤). قال ﷺ: **"بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ"**. [٣]،

قال أنس ﷺ: "كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا". [٤]

---

(١) من كتاب الشفا بتصرف ١/ ١١٨: ١١٧.

(٢) انظر الشفا ١/ ١١٢.

(٣) صحيح. رواه أحمد ٢/ ٣٨١، والبزار (٢٤٧٠)، والطحاوي في شرح المشكل (٤٤٣٢)، والبيهقي في السنن (١٩٢، ١٩١: ١٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥).

(٤) البخاري (٦٢٠٣)، مسلم (٢١٥٠).

وإليك الآن باقة متوجة من أخلاق النبي ﷺ أرجو أن ينفع الله بها المحبين، وأن يدحض بها الحاسدين الحاقدين. إنه حسبنا ونعم الوكيل.

حلمه وعفوه واحتماله وصبره ﷺ.

حلمه وعفوه واحتماله وصبره ﷺ، كلها معانٍ متقاربة، وهذا كله مما أدب الله به نبيه ﷺ فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩). وقال عبد الله بن الزبير: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ قال: "مَا أَنْزَلَ الله إِلَّا فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ"[(١)]. وقال أيضا: أَمَرَ الله نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاس.[(٢)]

وقال تعالى لنبيه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ (لقمان: ١٧).

ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله، وأن كل حليم قد عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة وهو ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرًا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا.[(٣)]

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: "مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا؛ فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ الله ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا".[(٤)]

قال ابن حجر في قوله " مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ": أي خاصة. فلا يرد أمره بقتل عقبة بن أبي معيط وعبد الله بن خطل[(٥)] وغيرهما ممن كان يؤذيه لأنهم كانوا مع ذلك ينتهكون حرمات الله. وقيل: أنه لا ينتقم إذا أوذي في غير السبب الذي يخرج إلى الكفر، كما عفا عن الأعرابي الذي جفا في رفع صوته عليه، وعن الآخر الذي جبذ بردائه حتى أثر في كتفه.[(٦)] [(١)].

---

(١) البخاري (٤٦٤٣).

(٢) البخاري (٤٦٤٤).

(٣) انظر الشفا ١/ ١١٨ بتصرف.

(٤) البخاري (٣٥٦٠)، مسلم (٢٣٢٧).

(٥) انظر: حديث سعد بن أبي وقاص عند النسائي ٧/ ١٠٥ وغيره، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٢٣).

(٦) البخاري (٥٤٧٢)، مسلم (١٠٥٧).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: " **إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**". [٢]

وَعَنْ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: "كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: **اللهمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**". [٣]

قال القاضي عياض: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم فقال: اغفر أو اهد، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: "لِقَوْمِي"، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال: "فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ". [٤]

والحديث في بيان حلمه ﷺ كثير. فَعَنْ جَابِرٍ أخبر أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ الله ﷺ قَفَلَ مَعَهُ فَأَدْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ وَنِمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ يَدْعُونَا وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ: الله ثَلَاثًا وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ. [٥]

وعَنْ أنس قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ. [٦]

---

(١) فتح الباري ٦/ ٦٤٨.

(٢) مسلم (٢٥٩٩).

(٣) البخاري (٣٤٧٧).

(٤) انظر الشفا ١/ ١٢٠.

(٥) البخاري (٢٩١٠)، مسلم (٨٤٣).

(٦) البخاري (٥٨٠٩)، مسلم (١٠٥٧).

والحديث عن حلمه عليه الصلاة والسلام، وصبره، وعفوه عند القدرة؛ أكثر من أن تأتي عليه وحسبك ما ذكرناه مما في الصحيح وغيره إلى ما بلغ متواترا مبلغ اليقين: من صبره على مقاساة قريش وأذى الجاهلية ومصابرته الشدائد الصعبة معهم إلى أن أظهره الله عليهم وحكمه فيهم وهم لا يشكون في استئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم فما زاد على أن عفا وصفح، صلوات ربي وسلامه عليه. (١)

جوده وكرمه وسخائه وسماحته ﷺ:

كان ﷺ لا يوازَى في هذه الأخلاق الكريمة ولا يبارى بهذا وصفه كل من عرفه. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: مَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ فَقَالَ لَا. (٢)

وعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ وَهُوَ يَقُولُ: لَنْ تُرَاعُوا لَنْ تُرَاعُوا وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ، فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ. (٣)

قال النووي: في هذا كله بيان عظيم سخائه وغزارة جوده ﷺ. (٤)

حتى قبل أن يبعث ﷺ فقد قال له ورقة بن نوفل: إِنَّكَ تَحْمِلُ الْكَلَّ، تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ. (٥)

وفي غزوة حنين يقول ابن القيم: وكان السَّبيُ ستةَ آلاف رأس، والإبلُ أربعةً وعشرين ألفًا، والغنم أكثرَ من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أُوقية فضة، فاستأنى بهم رسول الله ﷺ أن يقدَموا عليه مسلمين بِضْعَ عشرة ليلة ثم بدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلَّفةَ قلوبُهم أوَّلَ الناسِ، فأعطى أبا سفيان بنَ حرب أربعين أُوقية، ومائةً من الإبل، فقال: ابني يزيد؟ فقال:

---

(١) انظر الشفا ١/ ١٢٣ بتصرف.

(٢) البخاري (٦٠٣٤).

(٣) البخاري (٦٠٣٣)، مسلم (٢٣٠٧).

(٤) شرح النووي على مسلم ٨/ ٨١.

(٥) البخاري (٣)، مسلم (١٦٠).

"أَعْطُوهُ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً وَمِائَةً مِنَ الإِبِلِ"، فقال: ابني معاوية؟ قال: "أَعْطُوهُ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، وَمِائَةً من الإبل"، وأعطى حكيم بن حِزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أُخرى فأعطاه، وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين، وذكر أصحاب المائة وأصحاب الخمسين وأعطى العباسَ بن مرداس أربعين. . . . . الخ. (١)

شجاعته ونجدته ﷺ: فالشجاعة فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل، والنجدة ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يحمد فعلها دون خوف، وكان ﷺ منهما بالمكان الذي لا يجهل، قد حضر المواقف الصعبة وفر الأبطال عن غير مرة وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر، ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه. (٢)

عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ. قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ: يَا أَبَا عُمَارَةَ أَفَرَرْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ: لاَ وَالله مَا وَلَّى رَسُولُ الله ﷺ، وَلَكِنَّهُ خَرَجَ شُبَّانُ أَصْحَابِهِ وَأَخِفَّاؤُهُمْ حُسَّرًا لَيْسَ عَلَيْهِمْ سِلاَحٌ، أَوْ كَثِيرُ سِلاَحٍ، فَلَقُوا قَوْمًا رُمَاةً لاَ يَكَادُ يَسْقُطُ لَهُمْ سَهْمٌ. جَمْعُ هَوَازِنَ وَبَنِي نَضْرٍ. فَرَشَقُوهُمْ رَشْقًا مَا يَكَادُونَ يُخْطِئُونَ، فَأَقْبَلُوا هُنَاكَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَرَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَقُودُ بِهِ. فَنَزَلَ فَاسْتَنْصَرَ وَقَالَ: أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ، ثُمَّ صَفَّهُمْ. (٣)

عَنْ عَلِيٍّ ﷺقَالَ: كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ الله ﷺ فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْهُ. (٤)

قَالَ الْبَرَاءُ بنُ عَازِب: كُنَّا وَالله إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ

---

(١) بتصرف من زاد المعاد ٣/ ٤٧٣، وأصل القصة في البخاري (٣١٥٠).

(٢) الشفا ١/ ١٢٦.

(٣) مسلم (١٧٧٦).

(٤) رواه أحمد في المسند ١/ ١٥٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ١٥٥، وأبو يعلى في مسنده (٣٠٢) (١/ ٢٥٨) وغيرهم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.

يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ.(١)

وَعَن العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ قال: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ الله ﷺ فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَرَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ، فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ فَطَفِقَ رَسُولُ الله ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ، قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ الله ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَيْ عَبَّاسُ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، فَقَالَ عَبَّاسٌ: وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا فَقُلْتُ: بِأَعْلَى صَوْتِي أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قَالَ: فَوَ الله لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ، قَالَ: فَاقْتَتَلُوا، وَالْكُفَّارَ وَالدَّعْوَةُ فِي الْأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: ثُمَّ قُصِرَتْ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَنَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ، قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ ثُمَّ قَالَ: انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى قَالَ: فَوَ الله مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا.(٢)

قال النووي: قال العلماء: ركوبه ﷺ البغلة في موطن الحرب وعند اشتداد الناس هو النهاية في الشجاعة والثبات ولأنه أيضا يكون معتمدًا يرجع المسلمون إليه وتطمئن قلوبهم به وبمكانه.(٣)

وعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ وَهُوَ يَقُولُ: لَنْ تُرَاعُوا، لَنْ تُرَاعُوا وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ

---

(١) مسلم (١٧٧٦).

(٢) مسلم (١٧٧٥).

(٣) شرح النووي على مسلم ٦/ ٣٦٠.

عُرْيٍ مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ، فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ. [١]

قال النووي: وفيه فوائد منها بيان شجاعته ﷺ من شدة عجلته في الخروج إلى العدو قبل الناس كلهم بحيث كشف الحال ورجع قبل وصول الناس. [٢]

حيائه وعدم مواجهة الناس بالعتاب ﷺ: وكان النبي ﷺ أشد الناس حياءً وأكثرهم عن العورات إغضاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (الأحزاب: ٥٣). [٣]

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ. [٤] ومحل وجود الحياء منه ﷺ في غير حدود الله. [٥]

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ: لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا. [٦]

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: " كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا بَلَغَهُ عَنْ الرَّجُلِ الشَّيْءُ لَمْ يَقُلْ: مَا بَالُ فُلَانٍ يَقُولُ، وَلَكِنْ يَقُولُ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا". [٧]

حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه مع أصناف الخلق ﷺ: قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩). وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٦). وقَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: " خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ

---

(١) البخاري (٦٠٣٣)، مسلم (٢٣٠٧).

(٢) شرح النووي على مسلم ٨/ ٧٥.

(٣) الشفا ١/ ١٢٩.

(٤) البخاري (٦١٠٢)، مسلم (٢٣٢٠) واللفظ له.

(٥) فتح الباري ٦/ ٦٥٠.

(٦) البخاري (٣٥٥٩)، مسلم (٢٣٢١).

(٧) صحيح. رواه أبو داود في سننه (٤٧٨٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٦٤).

تَرَكْتُهُ لِمَ تَرَكْتَهُ؟ وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا". [١]

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي، وَلَقَدْ شَكَوْتُ إِلَيْهِ أَنِّي لَا أَثْبُتُ عَلَى الْخَيْلِ فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي وَقَالَ: **اللهمَّ ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا.** [٢]

وكان ﷺ يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجرة، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر. [٣]

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ رَجُلًا الْتَقَمَ أُذُنَ رَسُولِ الله ﷺ فَيُنَحِّي رَأْسَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يُنَحِّي رَأْسَهُ وَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَخَذَ بِيَدِهِ فَتَرَكَ يَدَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَدَعُ يَدَهُ. [٤]

وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة لم ير قط مادًا رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد، يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بنهي أو قيام. [٥]

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ. [٦]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: إِنْ كَانَتْ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ الله

---

(١) صحيح. رواه أبو داود في سننه (٤٧٧٤)، والترمذي في سننه (٢٠١٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند ٣/ ١٩٧، واللفظ للترمذي، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٩٦).

(٢) البخاري (٢٨٧٨)، مسلم (٢٤٧٥).

(٣) انظر الشفا ١/ ١٣٤.

(٤) أبو داود (٤٧٩٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٨٥).

(٥) انظر الشفا ١٣٥.

(٦) صحيح. الترمذي (٣٦٤١)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وأحمد في المسند ٤/ ١٩٠، والبيهقي في الشعب ٦/ ٢٥١، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٨٠).

ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ.[١]

قال ابن حجر: والمقصود من الأخذ باليد لازمه وهو الرفق والانقياد، وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمم بلفظ الإماء أي أمة كانت وبقوله: (حَيْثُ شَاءَتْ) أي من الأمكنة.[٢]

شفقته ورأفته ورحمته ﷺ: قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ جَبْذَةً حَتَّى رَأَيْتُ صَفْحَ أَوْ صَفْحَةَ عُنُقِ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَعْطِنِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ.[٣]

ومن شفقته على أمته ﷺ تخفيفه وتسهيله عليهم. وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم كقوله عليه الصلاة والسلام: "**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ**"[٤]

ونهيهم عن الوصال. ورغبته لربه أن يجعل سبه ولعنه لهم رحمة بهم، وأنه كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته.[٥]

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "**إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا فَأَسْمَعُ**

---

(١) البخاري (٦٠٧٢).

(٢) فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٥٥٢.

(٣) البخاري (٥٨٠٩)، مسلم (١٠٥٧).

(٤) أحمد في مسنده ٢/ ٤٦٠، وابن خزيمة في صحيحه ١/ ٧٣ وغيرهما، وصححه الألباني في الجامع الصغير (٩٤٤٨)، وكذلك أورده البخاري في صحيحه بلفظ: "لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ".

(٥) انظر الشفا ١/ ١٣٨، ١٣٧.

بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ". (١)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "**اللهمَّ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ قُرْبَةً إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**". (٢)

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا. (٣)

ولما حصل له ما حصل في الطائف وكذبه قومه وسال دمه الشريف جاءه جبريل فقال: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**". (٤)

وفائه وحسن عهده وصلة رحمه ﷺ.

وأما عن وفائه ﷺ فحدث، فهو الذي علم الدنيا الوفاء وحسن العهد.

فَعَنْ أنسٍ ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا أُتِيَ بالشَّيء يقول: اذْهَبُوا بِهِ إلى فُلانَةٍ فَإِنَّهَا كَانَت صَدِيقَةَ خَدِيْجَةَ. اذْهَبُوا بِهِ إلى فُلانَةٍ فَإِنَّهَا كانت تُحِبُّ خَدِيْجَةَ. (٥)

صلوات ربي وسلامه عليه حتى بعد موت خديجة ما زال وفيًا لها فيكرم خلائلها إكرامًا لها.

فَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ هَلَكَتْ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ فَيُهْدِي فِي خَلَائِلِهَا مِنْهَا مَا يَسَعُهُنَّ. (٦)

---

(١) البخاري (٧٠٧)، مسلم (٤٧٠).

(٢) البخاري (٦٣٦١) واللفظ له، مسلم (٢٦٠١).

(٣) البخاري (٦٨)، مسلم (٢٨٢١).

(٤) البخاري (٣٢٣١)، مسلم (١٧٩٥).

(٥) صحيح. أخرجه الحاكم في مستدركه وصححه (٧٣٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٢)، والطبراني في الكبير (٢٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨١٨).

(٦) البخاري (٣٨١٦)، مسلم (٢٤٣٥).

وعنها أيضا قالت: اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ فَارْتَاعَ لِذَلِكَ فَقَالَ: اللهمَّ هَالَةَ، قَالَتْ: فَغِرْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ قَدْ أَبْدَلَكَ الله خَيْرًا مِنْهَا. (١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ دَعَا رَسُولُ الله ﷺ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ: يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ الله شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا. (٢)

فالشاهد من الحديث قوله: "غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا" ومعناه: أي سأصلها شبهت قطيعة الرحم بالحرارة ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة، ومنه (بلوا أرحامكم) أي: صلوها. (٣)

وانظر إلى حاله مع الأطفال ﷺ، فَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ الله ﷺ وَلِأَبِي الْعَاصِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا، وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا. (٤)

وفي حديث خَدِيجَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: وَالله مَا يُخْزِيكَ الله أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. (٥)

تواضعه ﷺ: وأما عن تواضعه ﷺ فعلى علو منصبه ورفعة رتبته فكان أشد الناس تواضعا وحسبك أنه خير بين أن يكون نبيا ملكا أو أن يكون نبيا عبدا فاختار أن يكون

---

(١) البخاري (٣٨٢١)، مسلم (٢٤٣٧).

(٢) مسلم (٢٠٤).

(٣) انظر شرح النووي ٢/ ٨٤.

(٤) البخاري (٥١٦)، مسلم (٥٤٣).

(٥) البخاري (٣)، مسلم (١٦٠).

عبدا نبيا. فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ: لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا. (١)

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ.** (٢)

والإطراء هو المدح بالباطل تقول: أطريت فلانا مدحته فأفرطت في مدحه. (٣)

وكان ﷺ يركب الحمار ويردف خلفه ويعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس. (٤)

كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك ويعطى كل جلسائه بنصيبه لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه من جالسه. (٥)

ففي هذه الأحاديث بيان بروزه ﷺ للناس، وقربه منهم ليصل أهل الحقوق إلى حقوقهم، ويرشد مسترشدهم ليشاهدوا أفعاله وحركاته فيقتدي بها، وهكذا ينبغي لولاة الأمور. (٦)

عَنْ أَنَسٍ قال جاء رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ** عليه السلام. (٧)

قال النووي: قال العلماء: إنما قال ﷺ هذا تواضعا واحتراما لإبراهيم ﷺ لخلته وأبوته

---

(١) ضعيف. أخرجه أبو داود (٥٢٣٠)، وأحمد في المسند ٥/ ٢٥٣، قال الألباني: لكن النهي عن فعل فارس والروم في مسلم (٤١٣) قال فيه: " **إِنْ كِدْتُمْ آنِفًا لَتَفْعَلُونَ فِعْلَ فَارِسَ وَالرُّومِ يَقُومُونَ عَلَى مُلُوكِهِمْ وَهُمْ قُعُودٌ فَلَا تَفْعَلُوا**".

(٢) البخاري (٣٤٤٥).

(٣) فتح الباري ٦/ ٥٥١.

(٤) انظر الشفا ١/ ١٤٤.

(٥) **صحيح**. الطبراني في المعجم الكبير (٤١٤)، وانظر: مختصر الشمائل للألباني ١/ ٢٣.

(٦) شرح النووي ٨/ ٩١.

(٧) مسلم (٢٣٦٩).

وإلا فنبينا ﷺ أفضل. [١]

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ ﷺ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ. [٢]

عَنْ عَمْرَةَ قَالَتْ: قِيلَ لِعَائِشَةَ: مَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ، قَالَتْ: كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ، يَفْلِي ثَوْبَهُ، يَحْلِبُ شَاتَهُ، وَيَخْدِمُ نَفْسَهُ. [٣] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: إِنْ كَانَتْ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ الله ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ. [٤]

قال ابن حجر: وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل والأمة دون الحرة وحيث عمم بلفظ الإماء أي أمة كانت وبقوله (حيث شاءت) أي: من الأمكنة. [٥]

عدله وأمانته وعفته وصدق لهجته ﷺ: فكان ﷺ آمن الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، وأصدقهم لهجة، وقد اعترف له بذلك محادوه وعداه، وكان يسمى قبل نبوته: الأمين، قال ابن اسحاق: كان يسمى الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة. [٦]

ولما اختلفت قريش وتحاربت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر حكموا أول داخل عليهم فإذا بالنبي ﷺ داخل وذلك قبل نبوته فقالوا: هذا محمد؟ هذا الأمين قد رضينا به. [٧]

ونبينا ﷺ أصدق الناس، وسأل هرقل أبا سفيان فقال: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قال: لا. [٨]

خوفه من ربه، وطاعته له وشدة عبادته ﷺ: وأما خوفه ربه وطاعته له وشدة عبادته

---

(١) شرح النووي ٨/ ١٣٥.

(٢) البخاري (٦٧٦).

(٣) **صحيح**. الشمائل للترمذي ص ٢٨٣، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٧١).

(٤) البخاري (٦٠٧٢).

(٥) فتح الباري ١٠/ ٥٥٢.

(٦) الشفا ١/ ١٤٨.

(٧) الشفا ١/ ١٤٨.

(٨) البخاري (٧)، مسلم (١٧٧٣).

فعلى قدر علمه بربه، ولذلك قال في حديث أبي هريرة: " **لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**". (١)

وفي حديث الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ. (٢) وكان يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: **أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!** (٣)

قَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ عَمَلُه ﷺ دِيمَةً، وَأَيُّكُمْ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُطِيقُ! (٤) وَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ لَا يَصُومُ. (٥) وَكَانَ لَا تَشَاءُ أَنْ تَرَاهُ مِنْ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلَّا رَأَيْتَهُ، وَلَا نَائِمًا إِلَّا رَأَيْتَهُ نَائِمًا. (٦) قال عوف بن مالك: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة فاستاك، ثم توضأ، ثم قام يصلي فقمت معه، فبدأ فاستفتح البقرة فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث راكعا بقدر قيامه ويقول في ركوعه سبحان ذي الجبروت، والملكوت والكبرياء، والعظمة، ثم سجد بقدر ركوعه ويقول في سجوده سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء، والعظمة، ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك. (٧) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الشِّخِّيرِ، رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنْ الْبُكَاءِ ﷺ. (٨)

---

(١) البخاري (٦٤٨٥)، وانظر الشفا ١/ ١٥٨.

(٢) مسلم (٢٨١٩).

(٣) البخاري (٦٤٧١)، مسلم (٢٨١٩).

(٤) البخاري (١٩٨٧)، مسلم (٧٨٣).

(٥) مسلم (١١٥٦).

(٦) البخاري (١٩٧٢) من قول أنس ﷺ.

(٧) حسن. رواه أبو داود (٧٨٣)، والترمذي في الشمائل (٣١٤) واللفظ له، والنسائي ٢/ ١٩١، وأحمد ٦/ ٢٤ وغيرهم، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧٧٦).

(٨) أبو داود (٩٠٤)، والترمذي في الشمائل (٣٢٣)، والنسائي ٣/ ١٣، وأحمد في المسند ٤/ ٢٥، ٢٦،

وقال ﷺ في حديث الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ: " إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ". [١]

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة. [٢]

وفي الصحيح عنه ﷺ قال: "وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ! "[٣]

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ. [٤]

فمع كونه ﷺ يأخذ بالأيسر إلا أنه يحتاط دائما أن يكون إثما، فإذا كان الأيسر إثما لم يأخذ به، وهذا من أمانته ﷺ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِي الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا وَأَهْلُهُ لَا يَجِدُونَ عَشَاءً. [٥]

وفي حديث عمر الطويل: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ قَدْ أَثَّرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ. [٦]

ولا يؤخذ من هذه الأحاديث أنه كان فقيرا ﷺ بل كان غنيا، ويكفيه ما كان يحصل عليه من غنائم الحروب، ولكنه كان لا يبقي شيئا في يده، فقد ركل الدنيا برجله فلا يريد منها إلا أن تبلغه إلى نعيم الآخرة.

زهده في الدنيا ﷺ: وأما زهده في الدنيا فحسبك من تقلله منها وإعراضه عن زهرتها وقد

وغيرهم، وصححه الألباني في المشكاة (١٠٠٠).

(١) مسلم (٢٧٠٢).

(٢) حسن. رواه الترمذي (٤٤٨)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٣٣).

(٣) البخاري (٣١٣٨)، مسلم (١٦٠٤) واللفظ له.

(٤) البخاري (٣٥٦٠)، مسلم (٢٣٢٧).

(٥) صحيح. رواه الترمذي في السنن (٢٣٦٠)، وفي الشمائل (١٤٦)، وابن ماجة (٣٣٧٤)، وأحمد ١/ ٢٥٥، من طريق هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس به، وإسناده صحيح، وهلال بن خباب ثقة تغير بآخره، وحسنه الألباني في الصحيحة ٢١١٩.

(٦) البخاري (٥١٩١)، مسلم (١٤٦٩).

سيقت إليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها إلى أن توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي. [١]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **اللهمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا.** [٢]

قال النووي: قال أهل اللغة العربية: القوت ما يسد الرمق وفيه فضيلة التقلل من الدنيا والاقتصار على القوت منها والدعاء بذلك. [٣]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ طَعَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى قُبِضَ. [٤]

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: نَامَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ: " **مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**". [٥]

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: " **هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**".

المبحث الرابع: صحابة النبي ﷺ.

لما كان الصحابة هم أول الناقلين لهذا الدين عن نبيهم وجب أن نبين منزلتهم من غير إفراط أو تفريط.

أولًا: تعريف الصحابي: الصحابي هو كل من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على الإسلام[٦].

ذكر بعض فضائلهم: قال الله تبارك وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ

(١) البخاري (٢٧٨٠)، وانظر الشفا ١/ ١٥٤.

(٢) مسلم (١٠٥٥).

(٣) شرح النووي ٤/ ١٥٧.

(٤) البخاري (٥٠٥٩)، مسلم (٢٩٧٦).

(٥) صحيح. رواه الترمذي (٢٣٧٧)، وأحمد ١/ ٣٠١، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٣٩).

(٦) الإصابة (١/ ٦)، وفتح المغيث (٣/ ٧٩).

سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ (الفتح: ٢٩).

فأثنى عليهم ربهم وأحسن الثناء عليهم ورفع ذكرهم في التوراة والإنجيل والقرآن ثم وعدهم المغفرة والأجر العظيم. وأخبر في آية أخرى برضاه عنهم ورضاهم عنه فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٠).

ثم بشرهم بما أعد لهم فقال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٠). وأمر رسول الله ﷺ بالعفو عنهم والاستغفار لهم فقال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وأمره بمشاورتهم تطييبًا لقلوبهم وتنبيهًا لمن بعده من الحكام على المشاورة في الأحكام فقال: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩). وندب من جاء بعدهم إلى الاستغفار لهم، وأن لا يجعل في قلوبهم غلًا للذين آمنوا فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (الحشر: ١٠).

وأثنى رسول الله ﷺ عليهم وشبههم بالنجوم ونبه بذلك أمته على الاقتداء بهم في أمور دينهم كما يهتدون بالنجوم في ظلمات البر والبحر في مصالحهم.

عن أَبِي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه قال: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ انْتَظَرْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ قَالَ: ففعلنا فَخَرَجَ إِلَيْنَا فَقَالَ: مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا فقُلْنَا: نَعَم يَا رَسُولَ الله، قُلْنَا: نُصَلِّي مَعَكَ الْعِشَاءَ قَالَ: أَصَبْتُمْ أَحْسَنْتُمْ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: **النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى أهل السَّمَاءَ**

مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَنا أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَتْ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ(١).

ثم إنه ﷺ شهد لهم بكونهم خير أمته فقال: **خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**(٢).

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: " **لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ الله مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا** ". (٣)

عن أنس بن مالك أنس رسول الله ﷺ قال: " **آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ**". (٤)

فيجب على كل مسلم حب أصحاب النبي ﷺ لأن حبهم دين وإيمان وإحسان لأنه امتثال لأمر الله. وبغض الصحابة كفر ونفاق وطغيان.

فلقد نهى النبي ﷺ عن سبهم، وأخبر أمته بأن أحدًا منهم لا يدرك محلهم ولا يبلغ درجتهم، وأن الله تعالى قد غفر لهم. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري ﷺقَالَ: قَالَ النبي ﷺ: "**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ** ". (٥)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " **لاَ يُبْغِضُ الأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ". (٦)

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة وجوب السكوت وعدم الخوض في الفتن التي جرت بين الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا، وذلك بعد مقتل عثمان بن عفان، ونعتقد أن فتنة الجمل قد تمت من غير اختيار من علي بن أبي طالب، ولا من طلحة بن عبيد الله، ولا من الزبير بن العوام ﷺ، وأن عائشة ﵂ خرجت للإصلاح بين المسلمين، مع العلم بأنهم

---

(١) مسلم (٢٥٣١).

(٢) البخاري (٢٦٥٢)، مسلم (٢٥٣٣) من حديث عبد الله.

(٣) مسلم (٢٤٩٦).

(٤) البخاري (٣٧٨٤).

(٥) البخاري (٣٦٧٣)، مسلم (٢٥٤١).

(٦) مسلم (٧٧).

جميعًا من الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة التوقف عما شجر بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن سفيان رضي الله عنهما مع اعتقادنا أن الحق كان مع علي بن أبي طالب وأصحابه، وأن معاوية كان متأولًا في قتاله لعلي بن أبي طالب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن عقيدة أهل السنة والجماعة في أصحاب الرسول:

إن أهل السنة والجماعة لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة. ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنهم يُغفر لهم من السيئات مالا يغفر لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون، وأن الـمُد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبًا، ثم إذا كان قد صدر عن أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتي بحسنة تمحوه، أو غُفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ وهم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كُفر به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة، فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور، ثم القدر الذي يُنكر من فعل بعضهم قليل، نذر مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة، والعلم النافع والعمل الصالح، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله عليهم به من الفضائل، علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، إنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها. اهـ. [١]

قال الإمام الطحاوي: ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان. [٢]

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيميه (٣/ ١٥٥: ١٥٦).

(٢) العقيدة الطحاوية ١/ ٥٧.

قال أبو زرعة: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا، ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة. (١)

قال ابن تيمية: أن القدح في خير القرون الذين صحبوا الرسول ﷺ قدح في الرسول علية السلام، كما قال مالك وغيره من أئمة العلم: هؤلاء طعنوا في أصحاب رسول الله ﷺ ليقول قائل: رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلًا صالحًا لكان أصحابه صالحين. وأيضًا فهؤلاء الذين نقلوا القرآن والإسلام وشرائع النبي ﷺ هم الذين نقلوا فضائل علي وغيره، فالقدح فيهم يوجب أن لا يوثق بما نقلوه من الدين وحينئذ فلا تثبت فضيلة لا لعلي ولا لغيره. (٢)

قال الذهبي: يَعرف فضائل الصحابة ﷺ من تدبر أحوالهم وسيرهم وآثارهم في حياة رسول الله ﷺ وبعد موته من المسابقة إلى الإيمان والمجاهدة للكفار ونشر الدين وإظهار شعائر الإسلام وإعلاء كلمة الله ورسوله، وتعليم فرائضه وسننه، ولولاهم ما وصل إلينا من الدين أصل ولا فرع، ولا علمنا من الفرائض والسنن سنة ولا فرضًا، ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئًا، فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خرج من الدين ومرق من ملة المسلمين، لأن الطعن لا يكون إلا من اعتقاد مساويهم و إضمار الحقد فيهم وإنكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من ثنائه عليهم، وبيان فضائلهم ومناقبهم وحبهم، ولأنهم أرضى الوسائل من المأثور والوسائط من المنقول، والطعن في الوسائط طعن في الأصل والازدراء بالناقل، ازدراء بالمنقول وهذا ظاهر لمن تدبره وسلم من الزندقة والإلحاد في عقيدته. (٣)

معتقد أهل السنة والجماعة في الخلافة.

---

(١) الكفاية في علم الرواية صـ ٤٩.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٤٢٩.

(٣) الكبائر للذهبي صـ٢٩٤: ٢٩٣.

ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق ﷺ تفضيلًا له وتقديمًا على جميع الأمة. والدليل على إثبات الخلافة لأبي بكر ما رواه جُبَيْر بْن مُطْعِم عَنْ أَبِيهِ قال: أَتَتْ امْرَأَةٌ رَسُولَ الله ﷺ فَكَلَّمَتْهُ فِي شَيْءٍ، فَأَمَرَهَا أن ترجع إليه، فَقَالَتْ: أَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ الله، إِنْ لَمْ أَجِدْكَ كَأَنَّهَا تَعْنِي الْمَوْتَ، فقَالَ: **إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ**(١).

قال عبد الله بن جعفر الطيار: ولينا أبو بكر ﷺ فخير خليفة أرحمه بنا وأحناه علينا(٢).

ولما لا يكون الخليفة الأول بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وهو أول من صدق رسول الله، وأسلم وصحبه وأحسن الصحبة، وأنفق عليه ماله، وصاحبه في الغار، والمنزَّل عليه السكينة، وعاتب الله ﷻ الخلق كلهم في النبي ﷺ إلا أبا بكر فإنه أخرجه من المعاتبة فقال ﷻ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ (التوبة: ٤٠). الصابر معه بمكة في كل شدة ورفيقه في الهجرة ولما مرض النبي ﷺ فلم يستطع الخروج إلى الصلاة فأمر أن يتقدم أبو بكر فيصلي بالناس ولا يتقدم غيره. وقال ﷺ لعائشة وهو على فراش موته: **"ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ وَأَخَاكِ حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا فَإِنِي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ وَيَقُولَ قَائِلٌ أَنَا أَوْلَى. وَيَأْبَى الله وَالْمُؤْمِنُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ "**. (٣)

وقال ﷺ: **"إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ بنفسه وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ"**. (٤)

فاجتمع المسلمون على بيعة أبي بكر الصديق وانقيادهم لإمامته لما اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلاما أعجبني فخشيت أن لا يبلغه أبو بكر فتكلم وأبلغ، وقال في

---

(١) البخاري (٣٦٥٩)، ومسلم (٢٣٨٦).

(٢) أخرجه: أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٣٩)، واللالكائي (٧/ ٢٩٩).

(٣) مسلم (٢٣٨٧).

(٤) البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، قال الحباب بن المنذر: لا والله لا نفعل أبدا منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء - يعني المهاجرين هم أوسط العرب دارا وأعزهم أحسابا - فبايعوا عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح، فقال عمر: بل نبايعك أنت خيرنا وسيدنا وأحب إلى رسول الله ﷺ، وأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس.(١). (٢)

ونثبت الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه **لعمر** رضي الله عنه: أي ونعتقد إثبات الخلافة لعمر بعد أبي بكر رضي الله عنهما وذلك بتفويض أبي بكر الخلافة إليه واتفاق الأمة بعده عليه وفضائله رضي الله عنه أشهر من أن تنكر وأكثر من أن تذكر.

عن مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ قُلْتُ لِأَبِي: من خير النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ، قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ، قَالَ: مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ". (٣)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي فالتفت إليه فإذا هو عليٌ فترَّحم على عمر وقال: ما خلَّفت أحدًا أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذلك أني كنت كثيرا ما اسمع رسول الله ﷺ يقول: جئت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر فإن كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما. (٤)

ونثبت الخلافة بعد عمر لعثمان رضي الله عنهما.

فلما قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه قالوا له: أوص يا أمير المؤمنين استخلف قال ما أجد أحدا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فسمَّى

---

(١) البخاري (١٢٤١)، ومسلم (٩٤٢).

(٢) الاعتقاد للبيهقي (صـ٤٧٠)، وشرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٦٩٨)، والشريعة للآجري (٤/ ١٧٩١).

(٣) أخرجه: البخاري (٣٦٧١)، وأبو داود (٤٦٢٩).

(٤) راجع: العقيدة الطحاوية (٢/ ٧٠٩)، والاعتقاد للبيهقي صـ٥٠٦، والشريعة (٤/ ١٧٩١).

عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمن بن عوف وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء فإن أصابت الإمرة سعدا فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة وقال: أُوصي الخليفة من بعدي نذكر وصيته بالمهاجرين الأولين، ثم بالأنصار خيرًا ثم بأهل الأمصار، ثم بالأعراب ثم بأهل الذمة، ثم ذكر دفنه فلما فرغوا من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم.

فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي وقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه وليحرصن على صلاح الأمة فأسكت الشيخان.

فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إليَّ والله علي أن لا آل عن أفضلكم، فقالا نعم. قال: فأخذ بيد أحدهما فقال لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان فبايعه فبايع له علي وولج أهل الدار فبايعوه[١]. فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ثم قال: أما بعد. يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان فلا تجعلن على نفسك سبيلًا.

قال: وأخذ بيد عثمان وقال: أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده.

فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون وهذا بعد أن شاور عبد الرحمن الناس ثلاثة أيام لا يخلو به رجل ذو رأي فيعدل بعثمان[٢]. قال ابن عمر كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بعد النبي ﷺ أحدًا بأبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم.[٣]. [٤]

---

(١) أخرجه: البخاري (٣٧٠٠).

(٢) البخاري (٧٢٠٧).

(٣) البخاري (٣٦٥٥).

(٤) الاعتقاد للبيهقي (صـ٥١٥)، وشرح العقيدة الطحاوي (٢/ ٧١٧).

فلما قتل عثمان وبايع الناس عليًا صار إمامًا حقًا واجب الطاعة وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة.

فالخلافة ثبتت لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ بعد عثمان ﷺ بمبايعة الصحابة.

ومن فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ما ورد عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِعَلِيٍّ: **"أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي"**. (١)

ونعتقد أن العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله ﷺ وقوله الحق قال ﷺ: **"عَشْرَةٌ فِي الْجَنَّةِ النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ فِي الْجَنَّةِ وسعيد بن زيد فِي الْجَنَّةِ"**. (٢)، (٣)

ونثبت خلافة معاوية ﷺ. معاوية ﷺ كاتب رسول الله ﷺ على وحي الله ﷻ وهو القرآن بأمر الله ﷻ وصاحب رسول الله ﷺ ومن دعا له النبي ﷺ أن يقيه العذاب ودعا له أن يعلمه الله الكتاب ويمكّن له في البلاد وأن يجعله هاديًا مهديًا.

وصاهره النبي ﷺ بأن تزوج أم حبيبة أخت معاوية ﷺ، فصارت أم المؤمنين، وصار هو خال المؤمنين. وهو ممن قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ (التحريم: ٨)

فقد ضمن الله الكريم له أن لا يخزيه لأنه ممن آمن برسول الله ﷺ (٤).

قال عبد الملك بن عبد الحميد الميموني قال: قالت: لأحمد بن حنبل: أليس قال النبي ﷺ: "كل صهر ونسب ينقطع إلا صهري ونسبي"؟ قال: بلى، قلت: وهذه لمعاوية؟ قال: نعم، له صهر ونسب.

قال: وسمعت ابن حنبل يقول: ما لهم ولمعاوية، نسأل الله العافية(٥). فمن قال إن

---

(١) أخرجه: البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٤٨)، وابن ماجه (١٣٤)، وأحمد (١/ ١٨٧).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٧٣١).

(٤) الشريعة (٥/ ٣٤٣١).

(٥) أبو بكر الخلال في السنة (صـ٤٣٢).

معاوية لم يكن كاتب الوحي ولا خال المؤمنين. فنقول له: هذا قول سوء رديء ويجب أن نتجنب هؤلاء القوم ولا نجالسهم ونبيِّن أمرهم للناس[١].

فمن قال هل معاوية أفضل من عمر بن عبد العزيز فنقول: إن معاوية أفضل من ستمائة مثل عمر بن عبد العزيز[٢].

فمعاوية ﷺ عمل بسيرة عمر بن الخطاب سنين لا يخرم منها شيئًا[٣].

إن معاوية ﷺ ثبت بالتواتر أنه أمره النبي ﷺ كما أمر غيره وجاهد معه وكان أمينًا عنده يكتب له الوحي، وما اتهمه النبي ﷺ في كتابة الوحي وولاه عمر بن الخطاب الذي كان من أخبر الناس بالرجال وقد ضرب الله الحق على لسانه وقلبه ولم يتهمه في ولايته. وقد ولَّي رسولُ الله ﷺ أباه أبا سفيان إلى أن مات النبي ﷺ وهو على ولايته.

فمعاوية خير من أبيه وأحسن إسلامًا من أبيه باتفاق المسلمين وإذا كان النبي ﷺ ولي أباه فلأن تجوز ولايته بطريق الأولى والأحرى ولم يكن من أهل الردة قط ولا نسبه أحد من أهل العلم إلى الردة. ولقد اتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك كان ملكه ملكًا ورحمة.

وكان في ملكه من الرحمة والحلم ونفع المسلمين ما يعلم أنه كان خيرًا من ملك غيره[٤].

ونعتقد كذلك في أزواجه. ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣). وابتداء الآية في نساء النبي ﷺ وتخييرهن فلما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة كان لهن ما أعد الله لهن من الأجر العظيم ثم ميزهن عن نساء العالمين في العذاب والأجر، ثم أبانهن

---

(١) السنة لأبي بكر بن الخلال (صـ٤٣٤).

(٢) السنة لأبي بكر بن الخلال (٤٣٧).

(٣) السنة لأبي بكر بن الخلال (٤٤٤).

(٤) فتاوى ابن تيمية (٤/ ٤٧٣-٤٧٩).

منهن فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وإنما ورد بلفظ الذكور لإدخال غيرهن معهن في ذلك ثم أضاف البيوت إليهن بقوله: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٤).

وجعلهن أمهات المؤمنين فقال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب: ٦).

وحرم نكاحهن بعد وفاة نبيه ﷺ فقال: وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾ (الأحزاب: ٥٣). [1].

المبحث الخامس: قالوا عن النبي ﷺ.

قال ول ديورانت: لقد كان محمد من أسرة كريمة ممتازة، ولكنه لم يرث منها إلا ثروة متواضعة، فقد ترك له عبد الله خمسة من الإبل، وقطيعًا من المعز، وبيتًا، وأمه عنيت بتربيته في طفولته. ولفظ محمد مشتق من الحمد وهو مبالغة فيه، كأنه حمد مرة بعد مرة، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات في التوراة تبشر قصة الحضارة، تحت عنوان محمد في مكة.

يقول سنرستن الآسوجي أستاذ اللغات السامية، في كتابه "تاريخ حياة محمد": إننا لم ننصف محمدًا إذا أنكرنا ما هو عليه من عظيم الصفات وحميد المزايا؛ فلقد خاض محمد معركة الحياة الصحيحة في وجه الجهل والهمجية، مصرًا على مبدئه، وما زال يحارب الطغاة حتى انتهى به المطاف إلى النصر المبين، فأصبحت شريعته أكمل الشرائع، وهو فوق عظماء التاريخ.

مايكل هارت في كتابه مائة رجل في التاريخ: إن اختياري محمدًا، ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ قد يدهش القراء، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين: الديني والدنيوي. فهناك رُسل وأنبياء وحكماء بدأوا

[1] الشريعة (٥/ ٢٤٨٥-٢٤٩٣).

رسالات عظيمة، ولكنهم ماتوا دون إتمامها، كالمسيح في المسيحية، أو شاركهم فيها غيرهم أو سبقهم إليهم سواهم، كموسى في اليهودية، ولكن محمدًا هو الوحيد الذي أتم رسالته الدينية، وتحددت أحكامها، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته. ولأنه أقام جانب الدين دولة جديدة، فإنه في هذا المجال الدنيوي أيضًا وحّد القبائل في شعب، والشعوب في أمة، ووضع لها كل أسس حياتها، ورسم أمور دنياها، ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم. أيضًا في حياته، فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية، وأتمها".

برناردشو في كتابه "محمد" -والذي أحرقته السلطة البريطانية-:

إن العالم أحوج ما يكون إلى رجلٍ في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال؛ فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، خالدًا خلود الأبد، وإني أرى كثيرًا من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في هذه القارة (يعني أوروبا).

إنّ رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجةً للجهل أو التعصّب، قد رسموا لدين محمدٍ صورةً قاتمة، لقد كانوا يعتبرونه عدوًّا للمسيحية، لكنّني اطّلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصلت إلى أنّه لم يكن عدوًّا للمسيحية، بل يجب أنْ يسمَّى منقذ البشرية، وفي رأيي أنّه لو تولّى أمر العالم اليوم لوفق في حلّ مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها.

الدكتور (شبرك) النمساوي: إنّ البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها؛ إذ إنّه رغم أُمّيته، استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع، سنكونُ نحنُ الأوروبيين أسعد ما نكون، إذا توصلنا إلى قمته.

مايكل هارت العظماء مائة أولهم محمد (الرسول الأعظم): نشر في أمريكا في الزمن الحاضر كتاب بعنوان "المائة" أو "الخالدون مائة" أو "القمم المائة" أو "أعظم مائة في التاريخ".

وقد ألف هذا الكتاب الجديد من نوعه عالم الفلك والرياضيات والمؤرخ "مايكل

هارت"، لقد قام بالبحث في التاريخ عن الرجال الذين كان لهم أعظم تأثير على البشر وقد ذكر لنا في هذا الكتاب أكثر مائة رجل تأثيرًا على البشرية منهم آزوس، أرسطو، بوذا، كونفوشيوس، هتلر، أفلاطون، ذرادشت. وهو لا يعطينا علامات محددة عن المائة من ناحية تأثيرهم على الناس ولكنه يقوم بتقييم درجة هذا التأثير ويصفهم بترتيب تفوقهم في هذا التأثير من رقم واحد وحتى رقم مائة، وهو يوضح لنا أسبابه في ترتيب مرشحيه.

ونحن غير مطالبين بالموافقة على كلامه ولكننا لا يسعنا إلا أن نعجب بأمانة هذا الرجل ودقته في البحث.

وأكثر شيء يدعو للدهشة في تصنيفه المنتقى أنه وضع نبينا الكريم الرسول محمد ﷺ كرقم واحد أول المائة العظماء، وهو بذلك يؤكد ـ بدون علم أو قصد ـ شهادة الله تعالى في آخر تنزيل له للعالم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١).

ايفلين كوبولد:

١ -". . . هذه هي مدينة الرسول ﷺ تعيد إلى نفسي ذكرى جهوده في سبيل لا إله إلا الله، وتلقي في روعي صبره على المكاره واحتماله للأذى في سبيل الوحدانية الإلهية".

٢ -كان العرب قبل محمد ﷺ أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعتها، فلما جاء محمد ﷺ بعث هذه الأمة بعثًا جديدًا يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات فغلبت العالم وحكمت فيه آجالًا وآجالًا.

٣- لعمري، ليجدن المرء في نفسه، ما تقدم إلى قبر الرسول ﷺ روعة ما يستطيع لها تفسيرًا، وهي روعة تملأ النفس اضطرابًا وذهولًا ورجاءً وخوفًا وأملًا، ذلك أنه أمام نبي مرسل وعبقري عظيم لم تلد مثله البطون حتى اليوم. . إن العظمة والعبقرية يهزان القلوب ويثيران الأفئدة فما بالك بالعظمة إذا انتظمت مع النبوة، وما بالك بها وقد راحت تضحي بكل شيء في الحياة في سبيل الإنسانية وخير البشرية.

٤ -لقد استطاع النبي ﷺ القيام بالمعجزات والعجائب، لمّا تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام وقبول الوحدانية الإلهية، لقد وفّق إلى خلق

العرب خلقًا جديدًا ونقلهم من الظلمات إلى النور.

٥-مع أن محمدًا ﷺ كان سيد الجزيرة العربية، فإنه لم يفكر في الألقاب، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظل على حاله مكتفيًا بأنه رسول الله، وأنه خادم المسلمين، ينظف بيته بنفسه ويصلح حذاءه بيده، كريمًا بارًا كأنه الريح السارية، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضل عليه بما لديه، وما لديه كان في أكثر الأحايين قليلًا لا يكاد يكفيه.

جوتة الأديب الألماني: إننا أهل أوربا بجميع مفاهيمنا، لم نصل بعد إلى ما وصل إليه "محمد"، وسوف لا يتقدم عليه أحد، ولقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النبي "محمد"..وهكذا وجب أن يظهر الحق ويعلو، كما نجح "محمد" الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد.

دُرّاني(١):

١-أستطيع أن أقول بكل قوة أنه لا يوجد مسلم جديد واحد لا يحمل في نفسه العرفان بالجميل لسيدنا محمد ﷺ؛ لما غمره به من حب وعون وهداية وإلهام؛ فهو القدوة الطيبة التي أرسلها الله رحمة لنا وحبًا بنا حتى نقتفي أثره. (٢)

٢-. وأخيرًا أخذت أدرس حياة النبي محمد ﷺ فأيقنت أن من أعظم الآثام أن نتنكر لذلك الرجل الرباني الذي أقام مملكة لله بين أقوام كانوا من قبل متحاربين لا يحكمهم قانون، يعبدون الوثن، ويقترفون كل الأفعال المشينة، فغير طرق تفكيرهم، لا بل بدل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت راية واحدة وقانون واحد ودين واحد وثقافة واحدة وحضارة واحدة وحكومة واحدة، وأصبحت تلك الأمة ـ التي لم تنجب رجلًا عظيمًا

---

(١) الدكتور م.ج. دُرّاني Dr. M. H. Durrani: سليل أسرة مسلمة منذ القدم، أصبح نصرانيًا في فترة مبكرة من حياته وتحت تأثير إحدى المدارس التبشيرية المسيحية، وقضى ردحًا من حياته في كنيسة إنكلترا، حيث عمل قسيسًا منذ عام ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٦٣ حيث جاءه الإسلام "كما يأتي فصل الربيع"، فعاد إلى دين آبائه وأجداده.

(٢) رجال ونساء أسلموا (٤/ ٢٧ – ٢٨).

واحدًا يستحق الذكر منذ عدة قرون ـ أصبحت تحت تأثيره وهديه تنجب ألوفًا من النفوس الكريمة التي انطلقت إلى أقصى أرجاء المعمورة تدعو إلى مبادئ الإسلام وأخلاقه ونظام الحياة الإسلامية وتعلم الناس أمور الدين الجديد. (١)

٣-. تحمل ﷺ ثلاثة عشر عامًا كاملةً من المتاعب ـ في مكة ـ دون انقطاع، وثمانية سنوات ـ في المدينة ـ دون توقف، فتحمل ذلك كله، فلم يتزحزح شعرة عن موقفه، وكان صامدًا، رابط الجأش، صلبًا في أهدافه وموقفه. عرضت عليه أمته أن تنصبه ملكًا عليها وأن تضع عند قدميه كل ثروات البلاد إذا كف عن الدعوة إلى دينه ونشر رسالته. فرفض هذه الإغراءات كلها فاختار بدلًا من ذلك أن يعاني من أجل دعوته. لماذا؟ لماذا لم يكترث أبدًا للثروات والجاه والملك والمجد والراحة والدعة والرخاء؟ لابدّ أن يفكر المرء في ذلك بعمق شديد إذا أراد أن يصل إلى جواب عليه. (٢)

٤-هل بوسع المرء أن يتصور مثالًا للتضحية بالنفس وحب الغير والرأفة بالآخرين أسمى من هذا المثال حيث نجد رجلًا يقضي على سعادته الشخصية لصالح الآخرين، بينما يقوم هؤلاء القوم أنفسهم الذين يعمل على تحسين أحوالهم ويبذل أقصى جهده في سبيل ذلك، يقومون برميه بالحجارة والإساءة إليه ونفيه وعدم إتاحة الفرصة له للحياة الهادئة حتى في منفاه، وأنه رغم كل ذلك يرفض أن يكف عن السعي لخيرهم؟ هل يمكن لأحد أن يتحمل كل هذا العناء والألم من أجل دعوة السعي لخيرهم؟ هل يمكن لأحد أن يتحمل كل هذا العناء والألم من أجل دعوة مزيفة؟ هل يستطيع أي مدخول غير مخلص أن يبدي هذا الثبات والتصميم على مبدئه والتمسك به حتى آخر رمق دون أدنى وجل أو تعثر أمام الأخطار وصنوف التعذيب التي يمكن تصورها وقد قامت عليه البلاد بأكملها وحملت السلاح ضده؟. (٣)

(١) المرجع السابق (٤/ ٢٨: ٢٩).

(٢) نفسه (٤/ ٢٩: ٣٠).

(٣) رجال ونساء أسلموا (٤/ ٣٠).

إن هذا الإيمان وهذا السعي الحثيث وهذا التصميم والعزم الذي قاد به محمد ﷺ حركته حتى النصر النهائي، إنما هو برهان بليغ على صدقه المطلق في دعوته؛ إذ لو كانت في نفسه أدنى لمسة من شك أو اضطراب لما استطاع أبدًا أن يصمد أمام العاصفة التي استمرّ أوارها أكثر من عشرين عامًا كاملة. هل بعد هذا من برهان على صدق كامل في الهدف واستقامة في الخلق وسموّ في النفس كل هذه العوامل تؤدي لا محالة إلى الاستنتاج الذي لا مفر منه وهو أن هذا الرجل هو رسول الله حقًا. هذا هو نبينا محمد ﷺ إذ كان آية في صفاته النادرة ونموذجًا كاملًا للفضيلة والخير، ورمزًا للصدق والإخلاص. إن حياته وأفكاره وصدقه واستقامته، وتقواه وجوده، وعقيدته ومنجزاته، كل أولئك براهين فريدة على نبوته؛ فأي إنسان يدرس دون تحيّز حياته ورسالته سوف يشهد أنه حقًا رسول من عند الله، وأن القرآن الذي جاء به للناس هو كتاب الله حقًا. وكل مفكر منصف جاد يبحث عن الحقيقة لابدّ أن يصل إلى هذا الحكم". [1]

غاندي: يقول "مهاتما غاندي" في حديث لجريدة "ينج إنديا": "أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر، لقد أصبحت مقتنعًا كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته؛ بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول، مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته. هذه الصفات هي التي مهدت الطريق، وتخطت المصاعب وليس السيف. بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول وجدت نفسي أسِفًا لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر على حياته العظيمة.

غوستاف لوبون: ١-جمع محمد ﷺ قبل وفاته كلمة العرب، وبنى منهم أمة واحدة خاضعة لدين واحد مطيعة لزعيم واحد، فكانت في ذلك آيته الكبرى. ومما لا ريب فيه أن محمدًا ﷺ أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل

---

(١) المرجع السابق (٤/ ٣٠ - ٣١).

الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية ولذلك كان فضله على العرب عظيمًا. . ". [١]

٢-إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد ﷺ من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدًا ﷺ مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله. [٢]

٣-استطاع محمد ﷺ أن يبدع مثلًا عاليًا قويًا للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد ﷺ على الخصوص ولم يتردد أتباعه في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثل الأعلى. [٣]

٤- لا شيء أصوب من جمع محمد ﷺ لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة أيام كانت جزيرة العرب مجزأة ما استطعنا أن نقدر قيمة ذلك بنتائجه، فقد فتح العرب العالم في قرن واحد بعد أن كانوا قبائل من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور محمد ﷺ. [٤]

نظمي لوقا[٥]:

١- ما كان محمد ﷺ كآحاد الناس في خلاله ومزاياه، وهو الذي اجتمعت له آلاء الرسل ، وهمة البطل، فكان حقًا على المنصف أن يكرم فيه المثل، ويحيّي فيه الرجل. [٦]

٢-لا تأليه ولا شبهة تأليه في معنى النبوة الإسلامية، وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد، فكان الرسل أيضًا معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين

---

(١) دين الإسلام (ص١٦).

(٢) حضارة العرب (ص١١٥).

(٣) المرجع السابق (ص١١٦).

(٤) المرجع السابق (٣٩٣، ٣٩٤).

(٥) د. نظمي لوقا: نصراني من مصر، يتميز بنظرته الموضوعية وإخلاصه العميق للحق. ورغم إلحاح أبويه على تنشئته على المسيحية منذ كان صبيًا، فإنه كثيرًا ما كان يحضر مجالس شيوخ المسلمين ويستمع بشغف إلى كتاب الله وسيرة الرسول ﷺ، بل إنه حفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز العاشرة من عمره، ألف عددًا من الكتب أبرزها "محمد الرسالة والرسول"، و"محمد في حياته الخاصة".

(٦) محمد الرسالة والرسول (ص ٢٨).

الألوهية بسبب من الأسباب، فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا في الرسول أو النبي أنه ليس بشرًا كسائر البشر وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء. ولذا نجد توكيد هذا التنبيه متواترًا مكررًا في آيات القرآن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠)، وفي تخير كلمة (مثلكم) معنى مقصود به التسوية المطلقة، والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال. بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ (الشورى: ٤٨) وظاهر في هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه ﷺ إلى حقيقة مهمته، وحدود رسالته التي كلف بها، وليس له أن يعدوها، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها. (١)

٣-رجل فرد هو لسان السماء، فوقه الله لا سواه، ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين، ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبر؛ بل يشفق، بل يفرق من ذلك ويحشد نفسه كلها لحرب الزهو في سريرته، قبل أن يحاربه في سرائر تابعيه. ولو أن هذا الرسول ﷺ بما أنعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيادي، وما استقام له من السلطان، اعتد بذلك كله واعتزّ، لما كان عليه جناح من أحد؛ لأنه إنما يعتد بقيمة ماثلة، ويعتز بمزية طائلة. يطريه أصحابه بالحق الذي يعلمون عنه، فيقول لهم: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله". ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيمًا له، فينهاهم عن ذلك قائلًا: "لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا. (٢)

٤-ماذا بقي من مزعم لزاعم؟ إيمان امتحنه البلاء طويلًا قبل أن يفاء عليه بالنصر وما كان النصر متوقعًا أو شبه متوقع لذلك الداعي إلى الله في عاصمة الأوثان والأزلام. . ونزاهة ترتفع فوق المنافع، وسمو يتعفف عن بهارج الحياة، وسماحة لا يداخلها زهو أو

---

(١) محمد الرسالة والرسول (٨٥، ٨٦).

(٢) محمد الرسالة والرسول (ص١٧٩، ١٨٠).

استطالة بسلطان مطاع. لم يفد. ولم يورث آله، ولم يجعل لذريته وعشيرته ميزة من ميزات الدنيا ونعيمها وسلطانها. وحرم على نفسه ما أحلّ لآحاد الناس من أتباعه، وألغى ما كان لقبيلته من تقدم على الناس في الجاهلية حتى جعل العبدان والأحابيش سواسية وملوك قريش. لم يمكن لنفسه ولا لذويه. وكانت لذويه بحكم الجاهلية صدارة غير مدفوعة، فسوّى ذلك كله بالأرض أي قولة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذا المجد الشاهق أو تدافع هذا الصدق الصادق؟ لا خيرة في الأمر، ما نطق هذا الرسول عن الهوى. . وما ضلّ وما غوى. . وما صدق بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين. (١)

٥-أي الناس أولى بنفي الكيد عن سيرته من "أبي القاسم" ﷺ الذي حول الملايين من عبادة الأصنام الموبقة إلى عبادة الله رب العالمين، ومن الضياع والانحلال إلى السموّ والإيمان، ولم يفد من جهاده لشخصه أو آله شيئًا مما يقتتل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام؟ ". (٢)

٦-كان محمد ﷺ يملك حيويته ولا تملكه حيويته. ويستخدم وظائفه ولا تستخدمه وظائفه. فهي قوة له تحسب في مزاياه، وليست ضعفًا يعد في نقائصه. لم يكن ﷺ معطل النوازع ولكنها لم تكن نوازع تعصف به. (٣)

* * *

---

(١) المرجع السابق (١٨٣ : ١٨٦).

(٢) محمد في حياته الخاصة (ص١٢).

(٣) محمد في حياته الخاصة (٣٩، ٤٠)، ويمكن للقارئ أن يرجع للكتاب نفسه "محمد في حياته الخاصة"، فهو بمجمله يمكن أن يعدّ شهادة قيّمة على حياة الرسول ﷺ العائلية الخاصة.

شبهات العقيدة

وفيها:

١-بطلان ألوهية المسيح

٢-شبهة: ثناء القرآن والسنة على التوراة والإنجيل

٣- الصلب والفداء

٤- إثبات التحريف في الكتاب المقدس.

٥- شبهات في صفات الذات

٦- شبهات صفات الفعل

٧- شبهات في حق الله

٨- شبهات عن القبر

٩- شبهات عن الجنة

١٠- شبهة: ادعاؤهم أن المسلم يخلد في النار.

١١- أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف

١٢- إثبات نبوة النبي ﷺ

١ـ بطلان ألوهية المسيح

نص الشبهة: ضل النصارى حينما وقعوا في عبادة المسيح عليه السلام؛ حيث زعموا أنه ابن الله، وهو أحد الأقانيم الثلاثة التي يعتقدون بها؛ ولذا كان لزامًا علينا أن نفند هذا المعتقد ونبين بطلانه؛ لنصل بإذن الله إلى الحق، وهو أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد، لا شريك معه ولا ولد - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا - وأن المسيح هو رسول الله، نبي من أنبيائه، عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم.

الجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: مقدمة وتشتمل على فصلين.

الأول: بيان عام للتوحيد عند المسلمين.

الثاني: حول شرح معنى ألوهية المسيح، وكيف تم انتزاع هذه العقيدة من نصوص العهدين، ومدى اتفاق النصارى على هذه العقيدة.

الوجه الثاني: الأدلة من القرآن على بطلان ألوهية المسيح.

الوجه الثالث: الأدلة من السنة على بطلان ألوهية المسيح.

الوجه الرابع: الأدلة من العهد القديم والأناجيل الأربعة على بطلان ألوهية المسيح.

الوجه الخامس: الأدلة من رسائل بولس على بطلان ألوهية المسيح.

الوجه السادس: بطلان أدلة النصارى على ألوهية المسيح.

الوجه السابع: استدلال النصارى بآيات من القرآن على ألوهية المسيح، والرد عليها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: مقدمة.

وتشمل على الآتي:

الفصل الأول: بيان عام للتوحيد عند المسلمين، وأهميته

أولا: تعريف التوحيد: التوحيد هو: إفراد الله تعالى بالربوبية والألوهية، وكمال الأسماء والصفات. وهو حق الله الواجب على العبيد، وهو أعظم أوامر الدين وأصل الأصول كلها، وأساس الأعمال. عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: " يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ الله عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله؟. قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "

فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى الله أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا" فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: " لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا ". (١)

والنصوص الدالة على وحدانية الله في القرآن الكريم كثيرة جدًا، بل إن القرآن كله ناطق بتوحيد الله ﷻ حق التوحيد وهذه جملة من الآيات الدالة على هذا الأصل:

١ - يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ (الإخلاص)، فهذه السورة الكريمة نص في أن الله واحد أحد، وأنه لم يلد ولم يولد فليس له ابن لا عيسى ﵇ ولا غيره، ولا يشاركه في وحدانيته أحد.

٢ - يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ (النحل: ٥١)، وهنا نهى الله - سبحانه وتعالى - عن اتخاذ إلهين وأبان - سبحانه على الحصر إنما هو إله واحد لا إله غيره.

٣ - يقول تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ١٩).

٤ - قال ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

٥ - ويقول ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٤٢).

٦ - ويقول ﷻ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١). هذه الآيات غيض من فيض، ذلك أن القرآن الكريم مليء بأدلة وحدانية الله - سبحانه وتعالى - وتوحيده حق التوحيد كما هو معلوم.

---

(١) البخاري (٢٠٧١).

ثانيًا: أنواع التوحيد: ثلاثة، وهي توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

١ـ **توحيد الربوبية**: وهو توحيد الله بأفعاله. بأن يعتقد اعتقادًا جازمًا أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربَّى جميع الخلق بالنعم وربَّى خواص خلقه- وهم الأنبياء وأتباعهم- بالعقائد الصحيحة، والأخلاق الجميلة، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، وهذه هي التربية النافعة للقلوب والأرواح المثمرة لسعادة الدارين، فلا خالق إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الزمر: من الآية٦٢). ولا رازق إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ (هود: ٦). ولا مدبِّر إلا الله، كما قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ (السجدة: ٥). ولا محيي ولا مميت إلا الله، كما قال تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يونس: ٥٦).

وقد قامت الأدلة الشرعية على وجوب الإيمان بربوبيته سبحانه وتعالى، كما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢)، وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤)، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وهذا النوع من التوحيد لم يخالف فيه كفار قريش، وأكثر أَصحاب الملل والدِيانات؛ فكلُهم يعتقدون أَن خالق العالم هو الله وحده، ومع ذلك لم يدخلهم في الإسلام.

قال الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩٠].

وذلك لأَن قلوبَ العباد مفطورةٌ على الإِقرار بربوبيته- سبحانه وتعالى- ولذا فلا يُصْبِحُ مُعْتَقِدُه مُوَحِّدا، حتى يوحد في العبادة كما سيأتي

٢ـ توحيد الأسماء والصفات: ومعناه الاعتقاد الجازم بأَنَّ الله ﷻ له الأَسماء الحسنى والصفات العُلى، وهو متَّصف بجميع صفات الكمال، ومنزَّهٌ عن جميع صفات النقص، متفرد بذلك عن جميع الكائنات، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله من غير نفي لشيء منها، ولا تعطيل، ولا تحريف، ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله.

وأسماء الله كثيرة، منها: الرحمن، والسميع، والبصير، والعزيز، والحكيم. فأهل السنة والجماعة: يعرفون ربهم بصفاته الواردة في القرآن والسنة، ويصفون ربهم بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ويثبتون لله ما أثبته لنفسه من غير تمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل، ولا تحريف، وقاعدتهم في كل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وأهل السنة والجماعة لا يحددون كيفية صفات الله- جل وعلا- لأنه تبارك وتعالى لم يخبر عن الكيفية، ولأنه لا أحد أعلم من الله سبحانه بنفسه، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤]. ولا أحد أعلم بالله بعد الله من رسوله ﷺ الذي قال الله تبارك وتعالى في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾، ويؤمنون أن الله- سبحانه وتعالى- هو الأول ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي

ليس دونه شيء، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣] وكما أن ذاته- سبحانه وتعالى- لا تشبه الذوات، فكذلك صفاته لا تشبه الصفات، لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفء له ولا ند له، ولا يقاس بخلقه؛ فيثبتون لله ما أثبته لنفسه إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل؛ فحين يثبتون لله ما أثبته لنفسه لا يمثلون، وإذا نزهوه لا يعطلون الصفات التي وصف نفسه بها، وأنه- تعالى- محيط بكل شيء، وخالق كل شيء، ورازق كل حي، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [المُلك: ١٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]. ويؤمنون بأن الله تعالى استوى على العرش فوق سبع سماوات، بائن من خلقه، أحاط بكل شيء علما، كما أخبر عن نفسه في كتابه العزيز في سبع آيات كريمات بلا تكييف. قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ [الملك: ١٦-١٧]، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

ويؤمنون بأن الكرسي والعرش حق. قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥] والعرش لا يقدر قدره إلا الله، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في فلاة وسع السموات والأرض، والله مستغن عن العرش والكرسي، ولم يستو على العرش لاحتياجه إليه؛ بل لحكمة يعلمها، وهو منزه عن أن يحتاج إلى العرش أو ما دونه، فشأن الله تبارك وتعالى أعظم من ذلك؛ بل العرش والكرسي محمولان بقدرته وسلطانه. وأن الله تعالى خلق آدم عليه السلام بيديه، وأن كلتا يديه يمين ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء كما وصف نفسه سبحانه، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال: ﴿مَا

مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]. ويثبتون لله سمعًا، وبصرًا، وعلمًا، وقدرةً، وقوةً، وعزًا، وكلامًا، وحياةً، وقدمًا وساقًا، ويدًا، ومعيةً، وغيرها من صفاته ﷻ التي وصف بها نفسه في كتابه العزيز، وعلى لسان نبيه ﷺ بكيفية يعلمها الله ولا نعلمها؛ لأنه تعالى لم يخبرنا عن الكيفية، قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿ﮨ ﮩ ﮪ﴾ [الزُّخرُف: ٥٥]، ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]، وغيرها من آيات الصفات.

وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم، ويزورونه، ويكلمهم ويكلمونه، قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. وسوف يرونه كما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته، وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل نزولًا حقيقيًا يليق بجلاله وعظمته قال النبي ﷺ: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر؛ فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له؟ " ويؤمنون بأنه تعالى يجيء يوم الميعاد للفصل بين العباد، مجيئًا حقيقيًا يليق بجلاله، قال سبحانه وتعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفجر: ٢١-٢٢]، وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، فمنهج أهل السنة والجماعة في كل ذلك الإيمان الكامل بما أخبر به الله تعالى، وأخبر به رسوله ﷺ والتسليم به؛ كما قال الإمام الزهري رحمه الله تعالى: (من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم).

وكما قال سفيان بن عيينة: كل ما وصف الله تعالى به نفسه في القرآن فقراءته؛ تفسيره لا كيف، ولا مثل. وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: آمنت بالله، وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله ﷺ.

وقال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس عن هذه الأحاديث في الصفات والرؤية، فقالوا: (أمرّوها كما جاءت بلا كيف).

وسأله رجل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالًا، وأمر به أن يخرج من المجلس. وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: (لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء؛ بل يصفه بما وصف به نفسه، ولا يقول فيه برأيه شيئًا؛ تبارك الله تعالى رب العالمين).

٣ـ **توحيد الألوهية ويقال له توحيد العبادة:** وهو توحيد الله بأفعال العباد التي أمرهم بها، وهو العلم والاعتراف والاعتقاد الجازم بأن الله هو الإلهُ الحق ولا إِلهَ غيره، وكل معبود سواه باطل، وإفراده تعالى بالعبادة والخضوع والطاعة المطلقة، وأَن لا يشرك به أَحد كائنا من كان، ولا يُصْرَف شيء من العبادة لغيره؛ كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والدعاء، والاستعانة، والنذر، والذبح، والتوكُّل، والخوف والرجاء، والحُبّ، وغيرها من أَنواع العبادة الظاهرة والباطنة، وأَن يُعْبَدَ الله بالحُبِّ والخوفِ والرجاءِ جميعًا، وعبادتُه ببعضها دون بعض ضلال.

قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وقال: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. وتوحيد الألوهية هو ما دعت إِليه جميع الرُسل، وإنكاره هو الذي أَورد الأُمم السابقة موارد الهلاك. وهو أَول الدّين وآخره وباطنه وظاهره، وهو أَول دعوة الرسل وآخرها ولأَجله أُرسلت الرسل، وأُنزلت الكُتب، وسُلَت سيوف الجهاد، وفرِقَ بين المؤمنين والكافرين، وبين أَهل الجنة وأَهل النَّار، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا

نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ومَن كان ربًا خالقًا، رازقًا، مالكًا، متصرفًا، محييًا، مميتًا، موصوفًا بكل صفات الكمال، ومنزهًا من كلّ نقص، بيده كل شيء، وَجَبَ أَن يكون إلهًا واحدًا لا شريك له، ولا تُصْرَف العبادة إلا إليه، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وتوحيد الربوبية من مقتضيات توحيد الأُلوهية؛ لأنَّ المشركين لم يَعبدوا إلهًا واحدًا، وإنَّما عَبَدُوا آلهة مُتَعَددَة، وزعموا أَنَّها تقرِّبهم إلى الله زلفى، وهم مع ذلك معترفون بأَنها لا تضر ولا تنفع، لذلك لم يجعلهم الله مؤمنين رغم اعترافهم بتوحيد الربوبية؛ بل جعلهم في عداد الكافرين بإشراكهم غيره في العبادة. ومن هنا يختلف مُعْتَقَدُ السَّلف- أَهل السُنَّة والجماعة- عن غيرهم في الألوهية؛ فلا يعنون كما يعني البعض أَنَ معنى التوحيد أَنَّه لا خالق إلا الله فحسب؛ بل إن توحيد الألوهية عندهم لاَ يتحقق إلا بوجود أَصلين:

الأول: أَن تُصرف جميع أَنواع العبادة له- سبحانه- دون ما سواه، ولا يُعْطى المخلوق شيئًا من حقوق الخالق وخصائصه. فلا يُعبد إلا الله، ولا يصلى لغير الله، ولا يُسْجَدُ لغير الله، ولا يُنْذَرُ لغير الله، ولا يُتَوكَّلُ على غير الله، وإن توحيد الأُلوهية يقتضي إفراد الله وحده بالعبادة.

والعبادة: إما قول القلب واللسان وإمَّا عمل القلب والجوارح.

قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣]، وقال سبحانه: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [الزُّمَر: ٣].

الثاني: أَنْ تكون العبادة موافقة لما أمر الله تعالى به، وأَمر رسوله ﷺ.

فتوحيد الله سبحانه بالعبادة والخضوع والطاعة هو تحقيق شهادة أَن لا إِلَهَ إِلَّا الله، ومتابعة رسول الله ﷺ والإذعان لما أَمر به ونهى عنه هو تحقيق أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦].

وعلى هذا فالقسم الأخير يستلزمه القسمين الأولين ويتضمنهما؛ لأن الألوهية التي

هي صفة تعم أوصاف الكمال وجميع أوصاف الربوبية والعظمة؛ فإنه المألوه المعبود لما له من أوصاف العظمة والجلال، ولما أسداه إلى خلقه من الفواضل والأفضال، فتوحده تعالى بصفات الكمال وتفرده بالربوبية يلزم منه أن لا يستحق العبادة أحد سواه.

ومقصود دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم: الدعوة إلى هذا التوحيد.

فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل دعوا إلى هذا التوحيد، ونهوا عن ضده من الشرك والتنديد، وخصوصا محمد ﷺ. وهذا القرآن الكريم، فإنه أمر به وفرضه وقرره أعظم تقرير، وبينه أعظم بيان، وأخبر أنه لا نجاة ولا فلاح ولا سعادة إلا بهذا التوحيد، وأن جميع الأدلة العقلية والنقلية والأفقية والنفسية أدلة وبراهين على هذا الأمر بهذا التوحيد ووجوبه. فتصرف جميع أنواع العبادة لله وحده لا شريك له، مثل الدعاء والخوف والتوكل والاستعانة والاستعاذة وغير ذلك.

فلا ندعو إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ولا نخاف إلا الله، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

ولا نتوكل إلا على الله، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

ولا نستعين إلا بالله، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ولا نستعيذ إلا بالله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١].

وهذا النوع من التوحيد هو من أعظم ما جاءت به الرسل عليهم السلام لأن الأول لم تكن فيه خصومة مع المشركين، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وهذا النوع من التوحيد هو الذي أنكره الكفار قديمًا وحديثًا، كما قال تعالى على لسانهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].(١)

---

(١) انظر: القول السديد شرح كتاب التوحيد تحت ترجمة كتاب التوحيد، والتوحيد للناشئة فصل أنواع

الفصل الثاني: شرح معنى ألوهية المسيح، ومدى اتفاق النصارى على هذه العقيدة.

أولًا: نبذة تاريخية عن عقيدة المسيح، وكيف تبدلت مع ذكر قانون الإيمان المسيحي، وكيف انتزع من النصوص وكيف تطور:

١- إن الذي جاء به عيسى ﷺ من عند ربه هو التوحيد الذي جاء به كل رسول والإقرار بالعبودية الخالصة لله شأن كل رسول، فقد نشأ الجيل الأول بعد المسيح مؤمنًا بتوحيد الله وعبودية المسيح، وأنه كان نبيًا رسولًا، ورأينا ذلك في ما سطره الإنجيليون والقديسون بما فيهم بولس من نصوص موحدة.

كما نستطيع القول بأن الجيل الأول من تاريخ النصرانية كان موحدًا بشهادة التاريخ حيث يقول بطرس قرماج في كتابه " مروج الأخبار في تراجم الأبرار " عن بطرس ومرقس: "كانا ينكران ألوهية المسيح"، فهذا معتقد تلاميذ المسيح المقربين. وجاء في دائرة المعارف الأمريكية: "لقد بدأت عقيدة التوحيد كحركة لاهوتية بداية مبكرة جدًا في التاريخ أو في حقيقة الأمر فإنها تسبق عقيدة التثليث بالكثير من عشرات السنين"، وذلك لأنها بدأت مع بدء النبوات، واستنارت وتلألأت ببعثة عيسى ﷺ وتعاليمه الموحدة لله.

وفي دائرة معارف لاوس الفرنسية: "عقيدة التثليث وإن لم تكن موجودة في كتب العهد الجديد ولا في عمل الآباء الرسوليين ولا عند تلاميذهم المقربين إلا أن الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستانتي يدعيان أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين في كل زمان، وكشف مؤخرًا عن وثيقة مسيحية قديمة نشرت في جريدة "التايمز" في ١٥ يوليو ١٩٦٦م وتقول: إن مؤرخي الكنيسة يسلمون أن أكثر أتباع المسيح في السنوات التالية لوفاته اعتبروه مجرد نبي آخر لبني إسرائيل. [١]

ولكن هذه العقيدة الناصعة أُدْخلت عليها التحريفات؛ بسبب دخول الوثنيين في النصرانية؛ وحرصهم على رواسب الوثنية التي جاءوا بها ومزجها بعقيدة التوحيد، حتى لم

التوحيد، ومعارج القبول ١/ ٩٧.

(١) الله واحد أم ثلاثة (١/ ١٣٧).

يعد هناك إمكان لفصلها وفرزها وتنقية جوهر العقيدة منها.

ولم تجئ هذه الانحرافات كلها دفعةٍ واحدة؛ ولكنها دخلت على فترات؛ وأضافتها المجامع واحدة بعد الأخرى؛ حتى انتهت إلى هذا الخليط العجيب من التصورات والأساطير، الذي تحار فيه العقول. حتى عقول الشارحين للعقيدة المحرفة من أهلها المؤمنين بها!

وقد عاشت عقيدة التوحيد بعد المسيح عليه السلام في تلامذته وفي أتباعهم. وأحد الأناجيل الكثيرة التي كتبت – وهو إنجيل برنابا – يتحدث عن عيسى عليه السلام بوصفه رسولًا من عند الله.

ثم وقعت بينهم الاختلافات. فمن قائل: إن المسيح رسول من عند الله كسائر الرسل. ومن قائل: إنه رسول نعم ولكن له بالله صلة خاصة. ومن قائل: إنه ابن الله لأنه خلق من غير أب، ولكنه على هذا مخلوق لله. ومن قائل: إنه ابن الله وليس مخلوقًا بل له صفة القدم كالأب، ولتصفية هذه الخلافات اجتمع في عام ٣٢٥ ميلادية « مجمع نيقية » الذي اجتمع فيه ثمانية وأربعون ألفًا من البطارقة والأساقفة. لصياغة قانون الإيمان فما هو الذي وصلوا إليه؟.

يقول نص قانون الإيمان: " المنبثق عن مجمع نيقية عام ٣٢٥ م. " نؤمن بإله واحد[١] آب[٢] ضابط الكل[٣] خالق السماوات والأرض ما يرى وما لا يرى[٤]. نؤمن برب واحد[٥] يسوع المسيح[٦] ابن الله الوحيد[٧] المولود من الآب قبل كل الدهور[٨]، نور من نور[٩]، إله حق[١] من إله حق[٢]، مولود غير مخلوق[٣]، مساو للأب في الجوهر[٤]، الذي به

---

(١) إنجيل (يوحنا ٣: ١٧).

(٢) من الرسالة الولى لأهل تسالونيكي (١١ : ٣).

(٣) من إنجيل متي من (١ : ٩- ٢٠).

(٤) متى (٢٥: ١١)، وسفر الخروج (١١: ٢٠).

(٥) من العبرانيين (١/ ٨)، والرؤيا (١٩/ ١٦).

(٦) العبرانيين (١٣/ ٨).

(٧) يوحنا (٣/ ١٦).

(٨) من ميخا (٥/ ٢).

(٩) من العبرانيين (١/ ٣).

كان كل شيء[٥]. هذا هو الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاص نفوسنا[٦]، نزل من السماء وتجسد[٧]من الروح القدس ومريم العذراء[٨] وتأنس[٩] وصلب عنا على عهد بيلاطس النبطي[١٠] وتألم[١١] وقُبر[١٢] وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب[١٣]، وصعد إلى السماوات[١٤]، وجلس عن يمين أبيه[١٥]، وأيضًا يأتي في مجده[١٦] ليدين الأحياء والأموات[١٧]. الذي ليس لملكه انقضاء[١٨]

هذا هو قانون الإيمان النصراني الأول قبل تطويره: وأود أن أنبه إلى أن هذا التخريج ليس من عندنا ولكنه كما خرج عليه المؤتمرون قرارهم وقدموا به محمولًا بين يدي هذه المذكرة الإيضاحية.

---

(١) من إنجيل يوحنا (١٧/ ٥).

(٢) يوحنا (١٧/ ٥).

(٣) من إنجيل يوحنا (٢٦/ ٥).

(٤) من إنجيل يوحنا (١٠/ ٣٠).

(٥) من إنجيل يوحنا (١/ ٣).

(٦) لايوجد في العهد الجديد، وإنما وضع بمعرفة المجمع.

(٧) يوحنا (١/ ١٤والعبرانيين ١٠/ ٥).

(٨) لوقا (١/ ٣٥).

(٩) يوحنا (٨/ ٤٠).

(١٠) يوحنا (١٩/ ١٩).

(١١) من الرسالة الأولى لبطرس (١/ ١١).

(١٢) أشعياء (٥٣/ ٩ ومن متى ٢٧/ ٦٠).

(١٣) من سفر الرؤيا (١٤/ ١٤) ومن الرسالة الأولى لكورنثوس (١٥/ ٢).

(١٤) من إنجيل لوقا (٢٤/ ٥١).

(١٥) من إنجيل مرقص (١٦/ ١٩).

(١٦) متي (٢٥/ ٣١)

(١٧) العبرانيين (١٠/ ٣٠)

(١٨) من إنجيل لوقا (١/ ٣٣).

وإذا جاوزت هذا التبرير وما فيه من تعسف وشطط بعيدين غريبين فإنك تجد أن الصورة التي رسمها القرار للألوهية ينقصها الوجه الثالث من وجوه التثليث وهو الروح القدس فالإيمان الذي يبشر به هذا القرار هو الإيمان بالآب والابن فقط، أما الروح القدس فهو ما دخل في تجسد الابن من مريم العذراء وهو في هذا الموضع قد يكون ملاك الرب أو جبريل أو كلمة الله أو الابن.

ونستطيع أن نتخذ من هذا القرار وثيقة تاريخية محققة للقول بأن التثليث المسيحي لم يكن معروفًا إلى سنة ٣٢٥ من ميلاد المسيح ولم يعترف المؤتمر المنعقد في هذا العام بغير الآب والابن.

كما نستطيع أن نقرر أيضًا أنه إلى ذلك الحين لم يكن المسيح قد دخل ببنوته في شركة مع الله على هذا النحو الذي يجعل منه الله مندمجًا في أقنومية الآب والروح القدسي. وغاية ما كان يتصور في هذه البنوة أنها فرع عن أصل وأنها إن دلت على الإله فلن تكون هي الإله. وفي هذا القرار إعلان صريح عن الله الآب أنه خالق للسماوات والأرض، أما الابن فلم يكن له في خلق السماوات والأرض أي دخل.

ولكن المسيحية بعد هذا تدين بأن الله الآب لم يخلق شيئًا وإنما المسيح الابن هو الذي خلق كل شيء. فأقنوم الابن هو القائم بعملية الخلق كما انتهى إلى ذلك معتقد المسيحية بيد أن المسيحية إلى ما بعد منتصف القرن الرابع لم تكن قد استكملت حقيقتها فما زال موقف المسيح متأرجحًا مضطربًا بين الإله والإنسان. وإن الأمر ليحتاج إلى خطوة أو خطوات أخرى لسد هذه الفجوة العميقة التي تتذبذب فيها شخصية المسيح متأرجحة مضطربة بين الإله والإنسان. وليس يقوم لهذا الأمر إلا مجمع مقدس يسوي ألوان هذه الصورة المهزوزة ويحدد ملامحها وهذا ما قد كان فعلًا؟. ثم سار خلاف جديد حول الروح القدس؛ فقال بعضهم: هو إله، وقال آخرون: ليس بإله! ففي سنة ٣٨١ م، أمر الملك تاودسيوس الكبير بعقد مجمع مقدس في مدينة القسطنطينية للنظر في مقولة مقدونيوس بطريرك القسطنظينية التي كان ينادي بها في محيط كنيسته ويذيعها في أتباعه وهي أن الروح

القدس مخلوق كسائر المخلوقات فعقد مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١ ليحسم الخلاف في هذا الأمر.

وواضح من هذا أن أمر الروح القدس لم يكن قد استقر بعد كوجه من وجوه الله وأقنومًا من أقانيمه متساويًا مع الآب والابن في الرتبة، وقد اجتمع في هذا المؤتمر مائة وخمسون أسقفًا يمثلون جميع الهيئات المسيحية. وكان من بينهم تيموثاوس بطريرك الإسكندرية الذي أسندت إليه رئاسة الجميع.

وقد نقل ابن البطريق ما تقرر في هذا المجمع، بناء على مقالة أسقف الإسكندرية:

قال تيموثاوس بطريك الإسكندرية: ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله. وليس روح الله شيئًا غير حياته فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق، فقد قلنا: إن روح الله مخلوق. وإذا قلنا: إن روح الله مخلوق، فقد قلنا: إن حياته مخلوقة. وإذا قلنا: إن حياته مخلوقة، فقد زعمنا أنه غير حي. وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به. ومن كفر به وجب عليه اللعن. وكذلك تقررت ألوهية روح القدس في هذا المجمع، كما تقررت ألوهية المسيح في مجمع نيقية. وتم الثالوث من الآب، والابن، وروح القدس. وقد انتهى المؤتمر بإدانة مقدونيوس ومن كان على رأيه من الأساقفة ثم خرج المجمع بالمصادقة على قرار نيقية ثم إضافة نص جديد كالآتي مع بيان تخريجه من الكتاب المقدس في الحاشية: " نعم نؤمن بالروح القدس[1] الرب[2] المحيي[3] المنبثق من الآب[4]، نسجد له ونمجده مع الآب والابن[5]، الناطق في الأنبياء[6]، وبكنيسة[1] واحدة[2] مقدسة[3] جامعة. [4] رسولية[5]،

---

(١) يوحنا (١٤/ ٢٦).

(٢) الرسالة الثانية إلى كورنثوس (٢/ ١٧و١٨).

(٣) رومية (٨/ ١١).

(٤) يوجنا (١٥/ ١٦)

(٥) إنجيل (متى ١٨ ١٩- ٢٠).

(٦) (الرسالة الأولى لبطرس ١/ ١١، ٢ بطرس ١/ ٢١).

ونعترف بمعمودية واحدة[٦] لمغفرة الخطايا[٧]، وننتظر قيامة الأموات[٨] وحياة الدهر الآتي. آمين[٩] ".

وقد جمع هذا النص كسابقه من أشتات ملفقة من الأناجيل والرسائل ومنتزعة من مواطنها انتزاعًا في غير رفق أو تلطف لتلتقي هنا على غير إلف أو تعارف وفي هذا النص يظهر الوجه الثالث للثالوث المقدس.

ثم تبدأ المسيحية النظر في الإله ذي الأقانيم الثلاثة نظرًا فلسفيا لاهوتيا تختلط فيه الفلسفة باللاهوت ويمتزج فيه الواقع بالخيال ويعمل العقل المسيحي في جد وبراعة في نسج ملحمة من أبرع الملاحم الأسطورية التي تصل السماء بالأرض وتخلط الله بالإنسان، ولكن القصة لم تتم فصولًا بعد فما زال هناك فجوات تنتظر من المجامع المقدسة أن تملأها بتلك الكلمات التي تلتقطها من شتيت الصفحات في الأناجيل والرسائل.

ولأجل هذه الفجوات ثار خلاف آخر حول اجتماع طبيعة المسيح الإلهية وطبيعته الإنسانية، حيث أعلن نسطور بطريك القسطنطينية قوله: إن العذراء لم تلد متأنسا بل ولدت إنسانًا عاديًا ساذجًا ثم حل فيه الإله بإرادته لا بالاتحاد، فهو لهذا ذو طبيعتين وأقنومين. وقد انقسم المسيحيون إزاء هذا الرأي فكان بعضهم في جانب نسطور وكان البعض الآخر في الجانب المخالف له على حين وقف كثيرون موقف الحياد بين الحيرة والتردد.

---

(١) " إنجيل (متى ١٦/ ١٨).

(٢) (رومية ١٣/ ٥).

(٣) (أفسس ٥/ ٢٥، ٢٦).

(٤) إنجيل (يوحنا ١١/ ٥٢).

(٥) (أفسس ٥/ ٣).

(٦) (أفسس ٤/ ٥).

(٧) (عبرانيين ٨/ ١٣، ٩/ ٢٢).

(٨) الرسالة الأولى لكورنثوس ١٥: ٢١).

(٩) إنجيل (لوقا ١٨: ٣٠).

ومن أجل هذا دعا الملك تاودوس الصغير ملك القسطنطينية إلى عقد المجمع المقدس فحضره نحو مائتي أسقف وبعد مناقشات طويلة انتهى الرأي إلى القول بتجسد الكلمة واتحاد الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية بدون اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة. والذي يلفت النظر في مقررات هذا المؤتمر أنها لم تخرج مخرج المقررات التي صدرت في المجمعين السابقين حيث لم تكن في صورة دعوة إلى إيمان بحقيقة جديدة وإنما جعلت هذه المقررات مقدمة لقانون الإيمان، وكأن المؤتمرين قدروا الخطر الناجم عن تبدل صورة العقيدة وما يدخل في قلوب الناس وعقولهم من هذه الإضافات التي تحدث كلما حدثت أحداث وبرزت آراء فذلك من شأنه أن يجعل الناس يتهمون المقولات التي تلقى إليهم من جهة الدين ويتشككون في إضافتها إلى السماء حيث لا تبديل لكلمات الله نقول إن المؤتمرين قدروا هذا كله فلم يجعلوا لمقرراتهم شيئًا جديدًا يدخل في مجال العقيدة، وإنما جعلوه مقدمة إلى العقيدة ومدخلًا إلى الإيمان. وقد حملت هذه المقدمة ثلاث مقولات عن العذراء والمسيح والثالوث، وها هي كما صدرت في المجمع مع تخريج نصوصها:

١ـ **تطويب العذراء**: " نعظمك[١] يا أم النور الحقيقي[٢] ونمجدك[٣] أيتها العذراء القديسة[٤] لأنك ولدت لنا مخلص العالم كله[٥] أتى وخلص نفوسنا[٦]".

٢ـ **تمجيد السيد المسيح**: " المجد لك يا سيدنا[٧] وملكنا المسيح[٨] فخر الرسل[٩] إكليل

(١) إنجيل (لوقا ١/ ٤٨).
(٢) من إنجيل (لوقا ١/ ٤٣) ومن إنجيل (يوحنا ١/ ٨-١٠)
(٣) من (المزمور ٩١/ ١٥).
(٤) من (أشعياء ٧/ ١٤ ولوقا ١/ ٣٧).
(٥) من (لوقا ٣/ ١١).
(٦) من (لوقا ١٩: ١٠).
(٧) من (أشعيا ٤٣/ ٨).
(٨) من (لوقا ١/ ٣٣).
(٩) من (غلاطية ٦/ ١٤)

الشهداء[١] تهليل الصديقين[٢] ثبات الكنائس[٣] غافر الخطايا[٤]".

٣ـ التبشير بالثالوث الأقدس: " نكرز ونبشر[٥] بالثالوث الأقدس[٦] لاهوت واحد[٧] نسجد له ونمجده[٨]. يا رب ارحم يا رب ارحم[٩] يا رب بارك. آمين "[١٠]. هذه هي قوانين الإيمان التي نريد أن نمر عليها لنعرف كيف لفقت هذه القوانين وكيف جمعت كلماتها من أسفارهم كما تجمع الكلمات المتقاطعة التي تنشر في الصحف.

ومن هنا نرى أنه فضلًا عن أن قانون الإيمان تطور عبر المجامع كما رأيتم فهو في الوقت نفسه ملفق من كلمات مفردة بعضها من أسفار العهد القديم وبعضها من أسفار العهد الجديد فهي كلها تلفيقات مأخوذة من أشتات متنافرة.[١١] قال سعد رستم في كتابه الأناجيل الأربعة ورسائل بولس ويوحنا تنفي ألوهية المسيح كما ينفيها القرآن بعد ذكره

---

(١) من (أشعياء ٣٨/ ٥).

(٢) من إنجيل (يوحنا ٨/ ٥٦)

(٣) من إنجيل (يوحنا ١٥ / ٣٤).

(٤) من إنجيل (متى ٩ / ٣).

(٥) من (الرسالة إلى العبرانيين ١٠ / ٤٣).

(٦) من (متى ٢٨ / ١٩).

(٧) من (يوحنا ٥ / ٧).

(٨) من (متى ٤ / ١٠).

(٩) من (المزمور ٣٣ / ١).

(١٠) من (لوقا ٥٣ / ٢٤).

(١١) انظر: مناظرة بين الإسلام والنصرانية تعقيب الدكتور محمد جميل غازي، وسوسنة سليمان لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصراني، وتاريخ الكتاب المقدس للدكتور بوست نقلًا عن ظلال القرآن سورة المائدة (آية ٧٣)، وهداية الحيارى من المجمع الأول إلى المجمع التاسع، وانظر المناظرة التقريرية واليهودية والمسيحية، محمد ضياء الرحمن الأعظمي صـ (٣٠٢-٣٠٦)، مسيحية بلا مسيح، كامل سعفان، صـ (١٠٦)، عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية، حسني الأطير، ص (٧٩-٨٢)، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، رؤوف شلبي، ص (٢١٢-٢١٦). وكتاب الله جل جلاله واحد أو ثلاثة (١/ ١٣٣)، وفي ظلال القرآن تفسير سورة المائدة (١٧).

لنص قانون الإيمان المسيحي:

تلك هي عبارة دستور إيمان النصارى بالمسيح بحروفها، وهي ـ كما نرى ـ صريحة في النص على إلهية المسيح وأنه إله حق غير مخلوق ـ أي أزلي بلا بداية ـ وأنه مساو للآب في جوهريته: أي في ألوهيته. وعليه فدستور الإيمان هذا، حسب ظاهره، يؤدي للقول بتعدد الآلهة، باعتباره يثبت الغيرية بين الآب (الله) والابن (المسيح) من جهة، مع تأكيده بنفس الوقت على إلهية كل منهما وتساويهما في الألوهية.

إذن صار عندنا إلهان اثنان! وهذا يتناقض بظاهره مع إيمان المسيحية القاطع بوحدانية الله، لذا لا بد من تفصيل تلك العقيدة المجملة، وبيان شرح مختلف فرق النصارى لها، لتتضح حقيقة ما يعتقده النصارى حول المسيح وعلاقته بالله ﷻحسبما جاء في كتب عقائدهم وتقريرات لاهوتييهم.

ثانيًا: شرح موجز لهذه العقيدة: يعتقد الجمهور الأعظم من النصارى أن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاث، والأقنوم لفظة يونانية تعني الشخص، و هذه الأقانيم أو الأشخاص الثلاث هي:

١- شخص الآب، وهو الخالق لكل شيء والمالك والضابط للكل.

٢- وشخص ابنه، المولود منه أزلًا المساوي لأبيه في الألوهية والربوبية لأنه منه.

٣- وشخص الروح القدس، وهذه الأقانيم الثلاثة متحدة في الجوهر والإرادة والمشيئة، إلا أن هذا لا يعني أنها شخص واحد بل هم أشخاص ثلاثة، كل واحد منهم إله كامل في ذاته غير الآخر، فالآب إله كامل، والابن إله كامل غير الآب، وروح القدس أيضًا إله كامل غير الآب والابن، ولكن مجموع الثلاثة لا يشكل ثلاث آلهة ـ كما هو مقتضى الحساب! ـ بل يشكل إلهًا واحدًا، ويعترفون أن هذا لا سبيل لفهمه وإدراكه بالعقل ويسمونه "سرّ التثليث".

ثم يعتقدون أن الأقنوم الثاني لله، أي أقنوم الابن، هو الذي تجسد وصار إنسانًا حقيقيًا،

بكل ما في الإنسانية من معنى، وهو المسيح المولود من مريم العذراء، فالمسيح في اعتقادهم إله إنسان، أي هو بشر حقيقي مثلنا تمامًا تعرض له جميع أعراض الضعف والاحتياج البشرية، وهو في عين الحال إله قادر كامل الألوهية، ويسمون هذا بسر التجسد.

وهكذا، فالمسيح، حسب تفسير قانون الإيمان المسيحي الذي تقرر في مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م. ، هو شخص واحد ذو طبيعتين، طبيعة إنسانية (ناسوت) وطبيعة إلهية (لاهوت) فهو إله بشر.

ونتيجة هذه العقيدة أن يكون عيسى المسيح عليه السلام في نظرهم ـ شخص واحد هو خالق وهو نفسه مخلوق، رازق ومرزوق، قديم وحادث! معبود وعابد، كامل العلم وناقصه، غني ومحتاج!. . . إلخ.

ولو كانت هذه الصفات المتناقضة لشخصين اثنين اتحدا بمظهر واحد لكان هناك مجال لفهم ما يقولون، لكن الذي يعسر على العقل فهمه بل يستحيل فهمه وقبوله عقلًا هو أن تكون هذه الصفات لشخص واحد وذات واحدة؛ لأن هذا بمثابة أن نقول أن هذا الشكل مربع ودائرة بنفس الوقت، أو موجود ومعدوم بنفس الوقت؟! لكن على أي حال الكنيسة الغربية تؤمن بذلك وتقر بأن هذا لا سبيل للعقل البشري القاصر أن يفهمه ويدركه ولذلك تعتبره سرًا من أسرار الله وتسميه، كما قلنا، بـ" سر التجسد ". [1]

---

(١) ما ذكر أعلى كان عقيدة جمهور المسيحيين أي: الروم الكاثوليك (اللاتين) أو الكنيسة الغربية التي رئاستها في روما، والروم الأرثوذكس، أي الكنيسة الشرقية اليونانية الأورثوذكسية التي رئاستها في القسطنطينية (والتي انفصلت عن الكنيسة الغربية عام ٨٧٩ م.)، والبروتستانت بفرقهم المختلفة من أنجليكان ولوثريين وإنجيليين وغيرهم. . . الذين خرجوا من بطن الكنيستين السابقتين في القرن السادس عشر الميلادي وما تلاه، لكن هناك طائفتين قديمتين من النصارى لم تعترفا أبدًا بقرار مجمع خلقيدونية المذكور، الذي نص على أن المسيح شخص واحد في طبيعتين، وهما: النساطرة أتباع نسطوريوس واليعاقبة أتباع يعقوب البرادعي.

أما النساطرة ـ وهم أقلية قليلة العدد تتوطن حاليًا شمال غرب إيران وجنوب شرق تركيا وشمال العراق وعدد من المناطق الأخرى ويسمون كذلك بالآشوريين ـ فهم يميزون في المسيح بين شخصين: شخص

وهذا هو مذهب جمهورهم خلافًا للنسطورية واليعقوبية كما هو مبين في الحاشية والحاصل أن جميع الفرق المسيحية تتفق على أن المسيح بشرٌ وإلهٌ بنفس الوقت! وإنما تختلف عن بعضها في مدى تأكيدها وإبرازها لأحد الجانبين الإلهية أو البشرية في المسيح، فاليعاقبة يؤكدون الجانب الإلهي أكثر، وعلى عكسهم النساطرة الذين يبرزون أكثر الجانب البشري في حين يطرح الجمهور الأعظم رؤية متوازية ومتعادلة للجانبين الإلهي والبشري

عيسى البشر المولود من مريم العذراء الذي هو إنسان بشر محض، وشخص الله الابن، أو ابن الله الذي هو إله كامل، المتحد بعيسى الإنسان، حسب زعمهم، فالذي ولد من مريم العذراء هو عيسى الإنسان وليس الله، ولذلك رفضوا قبول عبارة " مريم والدة الله "، كما أن الذي صُلِبَ ـ في اعتقادهم ـ وتألم ومات، لم يكن الله الابن، بل عيسى الإنسان البشر، والحاصل أن المسيح في اعتقادهم شخصيتان متمايزتان لكل شخصية طبيعتها الخاصة: البشرية المحضة لعيسى الناصري المولود من مريم العذراء، والإلهية المحضة لابن الله المتحد بعيسى في اعتقادهم. وعلى النقيض من ذلك تمامًا الطائفة الأخرى وهم اليعاقبة، الذين يرون أن عيسى المسيح شخص واحد فقط، لا شخصان، وليس هذا فحسب، بل هذا الشخص الواحد ذو طبيعة واحدة أيضا، ولذلك يُسمَّوْن أيضًا بالمونوفيزيين، أي القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح، فاعتقادهم هو أن: أقنوم الابن من الله تجسد من روح القدس ومريم العذراء فصيَّر هذا الجسد معه واحدًا وحدة ذاتية جوهرية، أي صار الله (الابن) المتجسد، طبيعة واحدة من أصل طبيعتين، ومشيئة واحدة وشخصًا واحدًا. وبعبارة أخرى: المركز المسيّر والطبيعة الحقيقية لعيسى المسيح الذي ولد من مريم هي الألوهية المحضة، فهو الله عينه، أما بشريته فهي مجرد لباس فانٍ في إلهيته. فلذلك الله تعالى عندهم هو بذاته الذي وُلِدَ من مريم العذراء، لذا فهي والدة الله، والله نفسه هو الذي عُذِّب وتألم وصلب ومات! ثم قام بعد ثلاثة أيام من قبره حيًا - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- و في هؤلاء جاء قوله تعالى: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الله هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ الله شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** (المائدة: ١٧)، وقوله سبحانه كذلك: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الله هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾** (المائدة: ٧٢).

وبهذا المذهب اليعقوبي تدين الكنيسة القبطية في مصر وكنيسة الحبشة التابعة لها، كما هو مذهب السريان الأرثوذكس في بلاد الشام، ومذهب الكنيسة الأرمنية الغريغورية. أما مذهب الجمهور الأعظم فهو الذي قال الله تعالى في شأنه: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** (المائدة: ٧٣).

دون ترجيح أي منهما على الآخر. وبهذا نكون قد عرفنا عقيدة مختلف الفرق النصرانية بإلهية المسيح وكيفية تفسيرهم لهذه العقيدة.[١]

---

(١) وبعد هذا العرض الموجز لعقيدتهم في المسيح يتوارد علينا سؤال مهم ألا وهو: هل آمن جميع المسيحيين دون خلاف بهذه العقيدة؟

إن ما سبق عرضه لا يعني أن الموحدين انتهوا تمامًا، بل إن التاريخ والوثائق تثبت أنه وجدت ولا تزال، في كل عصر من عصور تاريخ المسيحية وحتى يومنا هذا، أعداد غير قليلة من علماء النصارى وعامتهم ممن أنكر تأليه المسيح ورفض عقيدة التجسد والتثليث مؤكدًا تفرد الله الآب وحده بالألوهية والربوبية والأزلية، وأن المسيح مهما علا شأنه يبقى حادثًا مخلوقًا، هذا وقد حظي أولئك الأساقفة أو البطارقة الموحدون بآلاف بل عشرات آلاف الأتباع والمقلدين، وليس ههنا مجال لذكر واستقصاء أسماء كل من نقله التاريخ لنا من أولئك الموحدين الأعلام، ومن رام الاطلاع المفصَّل على ذلك فعليه بالكتاب القيِّم المسمى: " عيسى يبشِّر بالإسلام " للبروفيسور الهندي الدكتور محمد عطاء الرحيم، والذي ترجمه إلى العربية الدكتور (الأردني) فهمي الشما، فقد ذكر فيه مؤلفه الفرق النصرانية الموحدة القديمة وتحدث في فصل كامل عن أعلام الموحدين في النصرانية، كاد يستوعب فيها أسماءهم وتراجمهم وكتاباتهم ودلائلهم على التوحيد وأحوالهم وما لاقوه من اضطهاد ومحاربة في سبيل عقيدتهم، ونكتفي هنا بإشارة سريعة لأسماء أشهر الفرق والشخصيات النصرانية الموحدة البارزة عبر التاريخ: فقد ذكرت المراجع التاريخية النصرانية، التي تتحدث عن تاريخ الكنيسة، أسماء عدة فرق في القرون المسيحية الثلاثة الأولى كانت تنكر التثليث والتجسد وتأليه المسيح وهي: فرقة الأبيونيين، وفرقة الكارينثيانيين، وفرقة الباسيليديين وفرقة الكاربوقراطيين، فرقة الهيبسيستاريين، وفرقة الغنوصيين. وأما أشهر القساوسة والشخصيات المسيحية الموحدة القديمة التي تذكرها تلك المصادر فهي:

١-ديودوروس أسقف طرطوس.

٢-بولس الشمشاطي، وكان بطريركا في أنطاكية ووافقه على مذهبه التوحيدي الخالص كثيرون وعرفوا بالفرقة البوليقانية.

٣-الأسقف لوسيان الأنطاكي أستاذ آريوس (توفي سنة ٣١٢ م.)

٤-آريوس أسقف كنيسة بوكاليس في الإسكندرية (٢٥٠ ـ ٣٣٦ م

٥- يوزيبيوس النيقوميدي أسقف بيروت ثم نقل لنيقوميديا عاصمة الإمبراطورية الشرقية، وكان من أتباع لوسيان الأنطاكي ومن أصدقاء آريوس. أما أشهر الموحدين من رجال الدين والمفكرين المسيحيين المتأخرين فهم:

١- الطبيب الأسباني ميخائيل سيرفيتوس (١١٥١)

٢- القسيس الروماني فرانسيس ديفيد (١٥١٠ Francis David. ١٥٧٩

٣- اللاهوتي الإيطالي فاوستو باولو سوزيني ١٥٣٩) Fausto Paolo Sozini. ١٦٠٤)
٤- الأستاذ المحقق البريطاني جون بيدل ١٦١٥) John Biddle. ١٦٦٢).
٥- القسيس البريطاني توماس إيملين ١٦٦٣) Thomas Emlyn. ١٧٤١)
٦- القسيس البريطاني ثيوفيلوس ليندسي١٧٢٣) Theophilos Lindsy. ١٨٠٨)
٧- القسيس والعالم البريطاني جوزيف بريستلي ١٧٣٣) Joseph Priestly ١٨٠٤)
٨- القسيس الأمريكي ويليام إيليري تشانينغ ١٧٨٠) William Ellery Channing. ١٨٤٢)
٩-البروفيسور البريطاني المعاصر جون هيك John Hick أستاذ اللاهوت في جامعة برمنجهام وصاحب الكتاب الممتاز " The Myth of God Incarnate" أي: أسطورة الله المتجسد، الذي ترجم للعربية ولعدة لغات عالمية، ويضم مقالات له وللفيف من كبار الأساتذة والدكاترة في اللاهوت ومقارنة الأديان في جامعات بريطانيا، محورها جميعا ما أشار إليه البروفيسور هيك نفسه في مقدمة كتابه ذاك حيث قال ما نصه:

The writers of this book are convinced that another major theological development is called for in this last part of the Twentieth Century. The need arises from growing knowledge of Christian origins and involves a A man approved " (recognition that Jesus was (as he is presented in Acts ٢. ٢١ and that the later ،for a special role within the Divine purpose " by God The Second Person of the Holy Trinity ،conception of him as God Incarnate is a mythological or poetic way of expressing his ،living a human life .significance for us

وترجمته: [إن كُتَّاب هذا الكتاب مقتنعين بأن هناك، في هذا الجزء الأخير من القرن العشرين، حاجة ماسة لتطور عقائدي كبير آخر. هذه الحاجة أوجدتها المعرفة المتزايدة لأصول المسيحية، تلك المعرفة التي أصبحت تستلزم الاعتراف بعيسى أنه كان (كما يصفه سفر أعمال الرسل: ٢/ ٢١): " رجل أيده الله " لأداء دور خاص ضمن الهدف الإلهي، وأن المفهوم المتأخر عن عيسى والذي صار يعتبره " الله المتجسد والشخص الثاني من الثالوث المقدس الذي عاش حياة إنسانية " ليس في الواقع إلا طريقة تعبير أسطورية وشعرية عما يعنيه عيسى المسيح بالنسبة إلينا.

وأخيرًا فإن المتتبع لمؤلفات المحققين الغربيين المعاصرين حول تاريخ المسيحية وتاريخ الأديان والمطالع لما تذكره دوائر المعارف البريطانية والأمريكية الشهيرة حول المسيح وتاريخ تطور العقيدة النصرانية والأناجيل، يجد أن الغالبية العظمى من هؤلاء المفكرين والكتّاب العصريين لا تماري ولا ترتاب في كون غالب العقائد المعقدة للكنيسة النصرانية، لا سيما التثليث والتجسد والكفارة والأقانيم، ما هي إلا تعبيرات فلسفية بعدية

الوجه الثاني: الأدلة من القرآن على بطلان ألوهية المسيح سواء أكان هو الله، أو كان أحد الأقانيم الثلاثة.

الدليل الأول: القرآن ينفي ألوهية المسيح: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٧].

قال السعدي رحمه الله: لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين، وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه، ذكر أقوالهم الشنيعة؛ فذكر قول النصارى - القول الذي ما قاله أحد غيرهم- بأن الله هو المسيح ابن مريم، ووجه شبهتهم أنه ولد من غير أب، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل مع أن حواء نظيره، خُلِقَت بلا أم، وآدم أولى منه، خلق بلا أب ولا أم، فهلا ادعوا فيهما الإلهية كما ادعوها في المسيح؟ فدل على أن قولهم اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة؛ فرد الله عليهم بأدلة عقلية واضحة فقال: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ

عن رسالة المسيح التي لم تكن إلا رسالة توحيدية أخلاقية بسيطة. ولم يبق إلا القليل جدًا من المفكرين ودكاترة اللاهوت وأساتذة علم الأديان الغربيين ممن لا يزال يرى أن عقائد الكنيسة الرسمية تلك تمثل بالضبط نفس تعاليم المسيح وتعكس حقيقة رسالته.

و في الختام أشير إلى أن كثيرًا من الفرق النصرانية الجديدة، التي انشقت عن الكنيسة في قرننا هذا والذي سبقه، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، تتفق على إنكار إلهية المسيح وإنكار التثليث ورفض فكرة: الله. الإنسان، وتنظر لبنوَّة المسيح لله على معنى مجازي لا حرفي، ومن أشهر هذه الفرق الجديدة التي قالت بذلك:

١-فرقة الموحدين أو التوحيديين The Unitarians

٢- فرقة شهود يَهْوَه Witnesses' Jehovah

٣- فرقة الروحيين The Spiritualist

٤- فرقة العلم المسيحي The Christian Science

مع العلم أن لكل واحدة من هذه الفرق عشرات الكنائس، و عشرات آلاف الأتباع من مختلف الطبقات، لا سيما الطبقات المثقفة العصرية، في الولايات المتحدة الأمريكية وكثير من بلدان العالم الأخرى. " انظر فريد اشع ذلك في "كتاب الأناجيل الأربعة ورسائل بولس تنفي ألوهية المسيح " بتصرف.

شَيْـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾ [المائدة: ١٧]. فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم ولا قدرة لهم على ذلك - دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك. ومن الأدلة أن﴿ وَلِلَّهِ ﴾ وحده ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [آل عمران: ١٨٩] يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير، إلهًا معبودًا غنيًا من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال. ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب؛ فإن الله ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إن شاء من أب وأم، كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم، كحواء. وإن شاء من أم بلا أب، كعيسى. وإن شاء من غير أب ولا أم كآدم(١).

الدليل الثاني: يثبت أن المسيح عبد آتاه الله البينات وأيده بروح القدس: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (البقرة: ٢٥٣). ووجه الاستدلال: هو أنه تعالى وصف عيسى بهذين مع أن سائر الرسل أيدوا بالبينات وبروح القدس؛ للرد على اليهود الذين أنكروا رسالته ومعجزاته؛ وللرد على النصارى الذين غلوا فزعموا ألوهيته؛ ولأجل هذا ذكر معه اسم أمه مهما ذكر؛ للتنبيه على أن ابن الإنسان لا يكون إلهًا، وعلى أن مريم أمة الله تعالى لا صاحبة؛ لأن العرب لا تذكر أسماء نسائها وإنما تكنى، فيقولون ربة البيت، والأهل،

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٢٢٦.

ونحو ذلك، ولا يذكرون أسماء النساء إلا في الغزل، أو أسماء الإماء[١].

الدليل الثالث: يثبت أن المسيح لا يستنكف عن عبادة الله تعالى: قال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ (النساء: ١٧٢). **قال السعدي رحمه الله:** لما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها، لا هو﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ فنزههم عن الاستنكاف وتنزيههم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده، أي: فعيسى والملائكة المقربون قد رغبوا في عبادة ربهم، وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيدًا لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار. ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق فوق مرتبته التي أنزله الله فيها وترفعه عن العبادة كمالا، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ أي: فسيحشر الخلق كلهم إليه، المستنكفين والمستكبرين وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفصل[٢].

الدليل الرابع: يحكم بالكفر على من قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم: قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة: ٧٢).

قال ابن كثير رحمه الله: حكم الله تعالى بتكفير فرق النصارى، من الملكية واليعقوبية

---

(١) من التحرير والتنوير تفسير سورة البقرة آية ٢٥٣.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٢١٦.

والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله – تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علوًا كبيرًا–.

هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ولم يقل: أنا الله، ولا ابن الله. بل قال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (مريم: ٣٠-٣٦).

وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته، آمرًا لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ أي: فيعبد معه غيره﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ أي: فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: ٤٨، ١١٦)، وقال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٠). وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ بعث مناديًا ينادي في الناس: ((إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة "، وفي لفظ: "مؤمنة))[1].

الدليل الخامس: حكم القرآن بالكفر على من قالوا: إن الله هو ثالث ثلاثة: قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة ٧٣ – ٧٤]. **قال الرازي**: في تفسير قول النصارى ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ طريقان:

الأول: قول بعض المفسرين: وهو أنهم أرادوا بذلك أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة،

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١١١). والحديث أخرجه البخاري (٢٨٩٧).

والذي يؤكد ذلك قوله تعالى للمسيح ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ١١٦)، فقوله﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ أي أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة، والدليل على أن المراد ذلك قوله تعالى في الرد عليهم ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وعلى هذا التقدير ففي الآية إضمار، إلا أنه حذف ذكر الآلهة لأن ذلك معلوم من مذاهبهم، قال الواحدي ولا يكفر من يقول: إن الله ثالث ثلاثة إذا لم يرد به ثالث ثلاثة آلهة، فإنه ما من شيئين إلا والله ثالثهما بالعلم، لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ (المجادلة: ٧).

والطريق الثاني: أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد وثلاثة أقانيم - أب، وابن، وروح القدس - وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة، وعنوا بالأب الذات، وبالابن الكلمة، وبالروح الحياة، وأثبتوا الذات والكلمة والحياة، وقالوا: إن الكلمة - التي هي كلام الله - اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمر، واختلاط الماء باللبن، وزعموا أن الأب إله، والابن إله، والروح إله، والكل إله واحد. واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحدًا، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فسادًا وأظهر بطلانًا من مقالة النصارى.[1]

قلت: والقرص والشعاع والحرارة ثلاثة أوصاف لذات واحدة، ومن الممكن أن نعد للشمس أكثر من ثلاثة أوصاف؛ فنقول مثلًا: والبعد والغروب والشروق والجمال والروعة وحجمها كذا ووزنها حوالي كذا. . . إلخ، فهذه كلها أوصاف لذات واحدة، أما ما يذكره النصارى؛ فإنها ثلاثة ذوات مختلفة، يريدون أن يجعلوها ذاتا واحدة، وهذا باطل ببداهة العقل.

الدليل السادس: وفيه قصر دور المسيح على الرسالة والاستدلال على ذلك ببعض

---

(١) التفسير الكبير (١٢/ ٥١).

الأحوال مثل أكل الطعام الذي يلزم منه الإخراج في الدنيا، قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة: ٧٥).

قال الرازي: أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل، الذين خلوا من قبله، جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها؛ فإن كان الله أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى على يده؛ فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى، وفلق البحر على يد موسى، وإن كان خلقه من غير ذكر؛ فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى.

قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ وفي تفسير ذلك وجوه:

أحدها: أنها صدقت بآيات ربها وبكل ما أخبر عنه ولدها، قال تعالى في صفتها ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ (التحريم: ١٢).

وثانيها: أنه تعالى قال: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (مريم: ١٧)، فلما كلمها جبريل وصدقته وقع عليها اسم الصديقة.

وثالثها: أن المراد بكونها صديقة - غاية بعدها عن المعاصي وشدة جدها واجتهادها في إقامة مراسم العبودية؛ فإن الكامل في هذه الصفة يسمى صديقًا، قال تعالى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ (النساء: ٦٩). ثم قال تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ اعلم أن المقصود من ذلك: الاستدلال على فساد قول النصارى، وبيانه من وجوه:

الأول: أن كل من كان له أم؛ فقد حدث بعد أن لم يكن، وكل من كان كذلك، كان مخلوقًا لا إلهًا.

والثاني: أنهما كانا محتاجين؛ لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة، والإله هو الذي يكون غنيًا عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلهًا؟.

الثالث: قال بعضهم: إن قوله ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث، لأن من أكل الطعام فإنه لا بدّ وأن يحدث، وهذا عندي ضعيف من وجوه:

١- أنه ليس كل من أكل أحدث، فإن أهل الجنة يأكلون ولا يحدثون.

٢- أن الأكل عبارة عن الحاجة إلى الطعام، وهذه الحاجة من أقوى الدلائل على أنه ليس بإله، فأي حاجة بنا إلى جعله كناية عن شيء آخر؟

٣- أن الإله هو القادر على الخلق والإيجاد؛ فلو كان إلها لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب، فما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه، كيف يعقل أن يكون إلها للعالمين؟ وبالجملة ففساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل. "[١]

وقال البقاعي: وخص الأكل؛ لأنه مع كونه ضعفًا لازمًا ظاهرًا، هو أصل الحاجات المعترية للإنسان؛ فهو تنبيه على غيره. ومن الأمر الجلي أن الإله لا ينبغي أن يدنو إلى جنابه عجز أصلًا، وقد اشتمل قوله تعالى﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ ﴾، وقوله ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ (المائدة: ٧٥) على أشرف أحوال الإنسان وأخسها، فأشرفها عبادة الله، وأخسها الاشتغال عنها بالأكل الذي هو مبدأ الحاجات[٢].

الدليل السابع: يثبت أن عيسى عليه السلام صور في الرحم ومن كان كذلك لا يكون إلهًا، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٦).

وفي هذه الآية ذكر دليلًا آخر على بطلان ألوهية المسيح فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ وعيسى عليه السلام قد صور في رحم مريم؛ فهو قطعًا ممن صور الله تعالى، فكيف يكون إذا إلها مع الله أو ابنا لله كما يزعم النصارى؟. وهنا قرر الحقيقة فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ العزة التي لا ترام، والحكمة التي لا تخطيء هما مقتضيات أولوهيته

---

(١) التفسير الكبير (١٢ / ٥١ – ٥٢).

(٢) نظم الدرر (٢ / ٥١٦).

الحقة، التي لا يجادل فيها إلا مكابر، ولا يجاحد فيها إلا معاند، كوفد نصارى نجران ومن على شاكلتهم من أهل الكفر والعناد. (١)

الدليل الثامن: القرآن يثبت عبودية المسيح وبشريته: قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (الزخرف: ٥٨-٦١).

وموضع الشاهد من الآية ما يلي

١- قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة والحكمة والعلم والعمل، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب.

٢- قوله: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ أي: لجعلنا بدلكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة، فمن رحمة الله بكم، أن أرسل إليكم رسلًا من جنسكم، تتمكنون من الأخذ عنهم.

٣-﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: وإن عيسى عليه السلام، لدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم.

أو إن المعنى: وإن عيسى عليه السلام، سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تشكن في قيام الساعة، فإن الشك فيها كفر.

---

(١) أيسر التفاسير (المائدة: ٧٥).

﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ بامتثال ما أمرتكم، واجتناب ما نهيتكم ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الله ﷻ ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ عما أمركم الله به؛ فإن الشيطان ﴿لَكُمۡ عَدُوٌّ﴾ حريص على إغوائكم، باذل جهده في ذلك.

٤- وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات. ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: أبين لكم صوابه وجوابه؛ فيزول عنكم بذلك اللبس؛ فجاء عليه السلام مكملًا ومتمما لشريعة موسى عليه السلام، ولأحكام التوراة. وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وآمنوا بي وصدقوني وأطيعون.

٥- وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ فيه الإقرار بتوحيد الربوبية، بأن الله هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله، ليس كما قال فيه النصارى: "إنه ابن الله أو ثالث ثلاثة" والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم، موصل إلى الله وإلى جنته.

٦- فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ المتحزبون على التكذيب ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡ﴾ كل قال بعيسى عليه السلام مقالة باطلة، ورد ما جاء به، إلا من هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله، ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: ما أشد حزن الظالمين وما أعظم خسارهم في

ذلك اليوم"[١].

الدليل التاسع: وفيه أن عيسى عليه السلام ينطق في المهد؛ بأنه عبد جعله الله نبيًا، وأخبر- سبحانه وتعالى- أن أول كلمة نطق بها المسيح وهو في المهد - هي الإقرار بعبوديته لله-.

قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾، ثم قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (مريم ٢٩-٣٦).

قال الفخر الرازي: اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع: **الصفة الأولى**: قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وفيه فوائد: الفائدة الأولى: أن الكلام منه في ذلك الوقت كان سببًا للوهم الذي ذهبت إليه النصارى، فلا جرم أول ما تكلم إنما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وكان ذلك الكلام وإن كان موهمًا من حيث إنه صدر عنه في تلك الحالة، ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث إنه تنصيص على العبودية.

الفائدة الثانية: أنه لما أقر بالعبودية؛ فإن كان صادقًا في مقاله؛ فقد حصل الغرض، وإن كان كاذبًا لم تكن القوة قوة إلهية، بل قوة شيطانية فعلى التقديرين يبطل كونه إلهًا.

الفائدة الثالثة: أن الذي اشتدت الحاجة إليه في ذلك الوقت، إنما هو نفي تهمة الزنا عن مريم عليها السلام، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك، وإنما نص على إثبات عبودية نفسه، كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها.

الفائدة الرابعة: وهي أن التكلم بإزالة هذه التهمة عن الله تعالى، يفيد إزالة التهمة عن الأم؛ لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة.

---

(١) تفسير السعدي لسورة الزخرف آية (٥٨-٦١).

وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم، لا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى، فكان الاشتغال بذلك أولى، فهذا مجموع ما في هذا اللفظ من الفوائد.

واعلم أن مذهب النصارى متخبط جدًا، وقد اتفقوا على أنه سبحانه ليس بجسم ولا متحيز، ومع ذلك فإنا نذكر تقسيمًا حاصرًا يبطل مذهبهم على جميع الوجوه فنقول:

١- إما أن يعتقدوا كونه متحيزًا أو لا.

٢- فإن اعتقدوا كونه متحيزًا في مكان، أبطلنا قولهم بإقامة الدلالة على حدوث الأجسام المتحيزة في الأمكنة، وحينئذ يبطل كل ما فرعوا عليه.

٣- وإن اعتقدوا أنه ليس بمتحيز، يبطل ما يقوله بعضهم من أن الكلمة اختلطت بالناسوت اختلاط الماء بالخمر وامتزاج النار بالفحم؛ لأن ذلك لا يعقل إلا في الأجسام المتحيزة فإذا لم يكن جسمًا استحال ذلك.

ثم نقول للناس قولان في الإنسان:

١- منهم من قال: إنه هو هذه البنية أو جسم موجود في داخلها.

٢- ومنهم من يقول: إنه جوهر مجرد عن الجسمية والحلول في الأجسام

فنقول لهؤلاء النصارى:

١- إما أن يعتقدوا أن الله، أو صفة من صفاته اتحد ببدن المسيح أو بنفسه.

٢- أو يعتقدوا أن الله، أو صفة من صفاته حل في بدن المسيح أو في نفسه.

٣- أو يقولوا: لا نقول بالاتحاد ولا بالحلول، ولكن نقول: إنه تعالى أعطاه القدرة على خلق الأجسام والحياة والقدرة وكان لهذا السبب إلهًا.

٤- أو لا يقولوا بشيء من ذلك ولكن قالوا: إنه على سبيل التشريف اتخذه ابنًا كما اتخذ إبراهيم على سبيل التشريف خليلًا، فهذه هي الوجوه المعقولة في هذا الباب، والكل باطل.

أما القول الأول بالاتحاد فهو باطل قطعًا، لأن الشيئين إذا اتحدا فهما حال الاتحاد، إما أن يكونا موجودين أو معدومين أو يكون أحدهما موجودًا والآخر معدومًا.

١- فإن كانا موجودين فهما اثنان لا واحد فالاتحاد باطل.

٢-وإن عدما وحصل ثالث فهو أيضًا لا يكون اتحادًا بل يكون قولًا بعدم ذينك الشيئين، وحصول ثالث.

٣- وإن بقي أحدهما وعدم الآخر فالمعدوم يستحيل أن يتحد بالمجود لأنه يستحيل أن يقال المعدوم بعينه هو الموجود فظهر من هذا البرهان الباهر أن الاتحاد محال.

وأما الحلول فلنا فيه مقامان:

الأول: أن التصديق مسبوق بالتصور فلا بد من البحث عن ماهية الحلول حتى يمكننا أن نعلم أنه هل يصح على الله تعالى أو لا يصح وذكروا للحلول تفسيرات ثلاثة:

أحدها: كون الشيء في غيره ككون ماء الورد في الورد والدهن في السمسم والنار في الفحم، واعلم أن هذا باطل لأن هذا إنما يصح لو كان الله تعالى جسمًا متحيزًا وهم قائلون بأنه ليس بجسم.

وثانيها: حصوله في الشيء على مثال حصول اللون في الجسم فنقول: المعقول من هذه التبعية حصول اللون في ذلك الحيز تبعًا لحصول محله فيه، وهذا أيضًا إنما يعقل في حق الأجسام المتحيزة لا في حق الله تعالى.

وثالثها: حصوله في الشيء على مثال حصول الصفات الإضافية للذوات فنقول: هذا أيضًا باطل لأن المعقول من هذه التبعية الاحتياج فلو كان الله تعالى في شيء بهذا المعنى لكان محتاجًا فكان ممكنًا فكان مفتقرًا إلى المؤثر، وذلك محال، وإذا ثبت أنه لا يمكن تفسير هذا الحلول بمعنى ملخص يمكن إثباته في حق الله تعالى امتنع إثباته.

المقام الثاني: احتج الأصحاب على نفي الحلول مطلقًا بأن قالوا: لو حل لحل، إما مع وجوب أن يحل أو مع جواز أن يحل والقسمان باطلان، فالقول بالحلول باطل.

وإنما قلنا: إنه لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل:

١-لأن ذلك يقتضي إما حدوث الله تعالى أو قدم المحل وكلاهما باطلان، لأنا دللنا على أن الله قديم. وعلى أن الجسم محدث.

٢-ولأنه لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجًا إلى المحل والمحتاج إلى الغير ممكن

لذاته لا يكون واجبًا لذاته.[(١)]

ثم قال الرازي رحمه الله: ولنا في إبطال قول النصارى وجوه أخر.

أحدها: أنهم وافقونا على أن ذاته سبحانه وتعالى لم تحل في ناسوت عيسى عليه السلام بل قالوا الكلمة حلت فيه، والمراد من الكلمة العلم. فنقول: العلم لما حل في عيسى ففي تلك الحالة إما أن يقال إنه بقي في ذات الله تعالى أو ما بقي فيها

١-فإن كان الأول لزم حصول الصفة الواحدة في محلين. وذلك غير معقول، ولأنه لو جاز أن يقال العلم الحاصل في ذات عيسى عليه السلام هو العلم الحاصل في ذات الله تعالى بعينه، فلم لا يجوز في حق كل واحد ذلك حتى يكون العلم الحاصل لكل واحد هو العلم الحاصل لذات الله تعالى.

٢-وإن كان الثاني لزم أن يقال: إن الله تعالى لم يبق عالمًا بعد حلول علمه في عيسى عليه السلام وذلك مما لا يقوله عاقل.

وثانيها: أنا نقول دلالة أحوال عيسى على العبودية أقوى من دلالتها على الربوبية لأنه كان مجتهدًا في العبادة والعبادة لا تليق إلا بالعبيد فإنه كان في نهاية البعد عن الدنيا والاحتراز عن أهلها حتى قالت النصارى: إن اليهود قتلوه ومن كان في الضعف هكذا فكيف تليق به الربوبية.

وثالثها: المسيح إما أن يكون قديمًا أو محدثًا والقول بقدمه باطل لأنا نعلم بالضرورة أنه ولد وكان طفلًا ثم صار شابًا وكان يأكل ويشرب ويعرض له ما يعرض لسائر البشر، وإن كان محدثًا كان مخلوقًا ولا معنى للعبودية إلا ذلك، فإن قيل: المعنى بإلهيته أنه حلت صفة الآلهية فيه، قلنا: هب أنه كان كذلك لكن الحال هو صفة الإله والمسيح هو المحل والمحل محدث مخلوق فما هو المسيح ﴿إلا﴾ عبد محدث فكيف يمكن وصفه بالإلهية.

أما الاحتمال الثالث: وهو أن يقال معنى كونه إلهًا أنه سبحانه خص نفسه أو بدنه

---

(١) تفسير الرازي (مريم: ٣٠).

بالقدرة على خلق الأجسام والتصرف في هذا العالم فهذا أيضًا باطل لأن النصارى حكوا عنه الضعف والعجز وأن اليهود قتلوه ولو كان قادرًا على خلق الأجسام لما قدروا على قتله بل كان هو يقتلهم ويخلق لنفسه عسكرًا يذبون عنه.

وأما الاحتمال الرابع: وهو أنه اتخذه ابنًا لنفسه على سبيل التشريف فهذا قد قال به قوم من النصارى يقال لهم الأرميوسية وليس فيه كثير خطأ إلا في اللفظ فهذا جملة الكلام على النصارى وبه ثبت صدق ما حكاه الله تعالى عنه أنه قال: إني عبد الله. الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ أي جعلني برًا بوالدتي.

الصفة السابعة؛ قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

الصفة الثامنة: هي قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾

الدليل العاشر: إثبات بنوة عيسى لمريم رضي الله عنها.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (آل عمران: ٤٥). يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله -عبده ورسوله - عيسى ابن مريم، سمي كلمة الله لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ في جيب درعها فولجت فيها تلك النفخة الزكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانيا نشأ من مادة روحانية، فلهذا سمي روح الله ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي:

له الوجاهة العظيمة في الدنيا، جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين - أصحاب الشرائع الكبار والأتباع - ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب، وفي الآخرة وجيها عند الله يشفع أسوة إخوانه من النبيين والمرسلين، ويظهر فضله على أكثر العالمين، فلهذا كان من المقربين إلى الله، أقرب الخلق إلى ربهم، بل هو عليه السلام من سادات المقربين[1].

الدليل الحادي عشر: القرآن يذكر مقالة اليهود في قتل عيسى، ويثبت أنه رسول الله؛ ثم هو ينهى عن الغلو فيه: قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧)﴾ (النساء: ١٥٧).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)﴾ (١٧١).

قال السعدي رحمه الله: ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين؛ وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعه عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية؛ الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط من المنهيات، فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾. وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء:

أمرين منهي عنهما، وهما: قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ورسله، والثالث: مأمور به وهو قول الحق في هذه الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نصَّ على قول الحق فيه، المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ

---

(١) تفسير السعدي سورة آل عمران (٤٥).

ﵟٱللَّهِﵞ أي: غاية المسيح ﵊ ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة، التي هي أعلى الدرجات، وأجلّ المثوبات، وأنه ﵟوَكَلِمَتُهُۥﵞ التي ﵟأَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَﵞ أي: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم.

وكذلك قوله: ﵟوَرُوحٞ مِّنۡهُﵞ أي: من الأرواح التي خلقها، وكملها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل ﵊ فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله بعيسى ﵊.

فلما بيّن حقيقة عيسى ﵊، أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة: أحدهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى قبحهم الله.

فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذي يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزه نفسه عن الشريك والولد فقال: ﵟإِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞﵞ أي: هو المنفرد بالألوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﵟسُبۡحَٰنَهُۥٓﵞ أي: تنزه وتقدس ﵟأَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞﵞ لأن ﵟلَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِﵞ فالكل مملوكون له مفتقرون إليه؛ فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيهم عليها تعالى(١).

الدليل الثاني عشر: تكذيب الله لهم في قولهم: إن المسيح ابن الله: قال تعالى: ﵟٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَﵞ (التوبة: ٣٠). فقوله: ﵟوَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِﵞ قالوا

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٢١٦، وانظر تفسير ابن كثير في هذا الموضع.

هذا لما رأوا من إحيائه الموتى مع كونه من غير أب؛ فكان ذلك سببًا لهذه المقالة، والأولى أن يقال: إنهم قالوا هذه المقالة؛ لكون الإنجيل وصفه تارة بابن الله، وتارة بابن الإنسان، كما رأينا ذلك في مواضع متعددة من الإنجيل، ولم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف والتكريم، أو لم يظهر لهم أن ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة.

قيل: وهذه المقالة إنما هي لبعض النصارى لا لكلهم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ الإشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة. وأما قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ مع العلم بأن القول لا يكون إلا الفم.

ففيه وجهان: أحدهما: أن يراد أنه قول لا يعضده برهان، فما هو إلاّ لفظ يفوهون به، فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم لا تدلّ على معان. وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب. وما لا معنى له مقول بالفم لا غير، والمقصود من الإشارة تشهير القول وتمييزه، زيادة في تشنيعه عند المسلمين.

و﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ حال من القول، والمراد أنّه قول لا يعدو الوجودَ في اللسان وليس له ما يحقّقه في الواقع، وهذا كناية عن كونه كاذبا؛ ولذلك قال بعض أهل العلم: إن الله سبحانه لم يذكر قولًا مقرونًا بذكر الأفواه والألسن، إلا وكان قولًا زورًا كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٦٧)، وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ (الكهف: ٥)، وقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ (الفتح: ١١)، قوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ المضاهاة: المشابهة.

والثاني: أن يراد بالقول المذهب، كقولهم: قول أبي حنيفة، يريدون مذهبه وما يقول به كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له؛ لم تبق شبهة في انتفاء الولد﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء﴿قَٰتَلَهُمُ

ﵟٱللَّهُﵞ وقال ابن عباس: لعنهم الله ﵟأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَﵞ؟ أي: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟ [(١)]

الدليل الثالث عشر: فيه تنزيه الله تعالى عن مقالتهم: قال تعالى: ﵟٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَﵞ (التوبة: ٣١).

قال أبو السعود: اتخذوا زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى أحبارهم، وهم: علماء اليهود ورهبانهم وهم: علماء النصارى من أصحاب الصوامع؛ أي اتخذ كل واحد من الفريقين علماءهم أربابًا من دون الله؛ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحله الله تعالى وتحليل ما حرمه، أو بالسجود لهم، ونحوه تسمية اتباع الشيطان عبادة له في قوله تعالى: ﵟيَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَﵞ ﴿مريم: ٤٤﴾، وقوله تعالى: ﵟبَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّﵞ.

قال عدي بن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ، وفي عنقي صليب من ذهب، وكان إذ ذاك على دين يسمى الركوسية - فريق من النصارى - وهو يقرأ سورة براءة، فقال يا عدي! اطرح هذا الوثن فطرحته فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﵟٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِﵞ قلت يا رسول الله: لم يكونوا يعبدونهم فقال ﷺ أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ فقلت بلى.

قال: ذلك عبادتهم. قال الربيع قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟

قال: إنهم ربما وجدوا في كتاب الله تعالى ما يخالف أقوال الأحبار؛ فكانوا يأخذون بأقوالهم ويتركون حكم كتاب الله. والمسيح ابن مريم، عطف على رهبانهم؛ أي: اتخذه النصارى ربًا معبودًا بعد ما قالوا: إنه ابنه - تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا - وتخصيص الاتخاذ به، يشير إلى أن اليهود ما فعلوا ذلك بعزير، وتأخيره في الذكر، مع أن اتخاذهم له ﷺ ربًا

---

(١) تفسير ابن كثير سورة التوبة آية (٣٠).

معبودًا أقوى من مجرد الإطاعة في أمر التحليل والتحريم، كما هو المراد باتخاذهم الأحبار والرهبان أربابًا؛ لأنه مختص بالنصارى، ونسبته ﷺ إلى أمه من حيث دلالتها على مربوبيته المنافية للربوبية للإيذان بكمال ركاكة رأيهم والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة وما أمروا أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا في كتابيهم، إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا عظيم الشأن هو الله سبحانه وتعالى ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه؛ فإن ذلك مخل بعبادته تعالى؛ فإن جميع الكتب السماوية متفقة على ذلك قاطبة، وقد قال المسيح: عليه السلام إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، وأما طاعة الرسول ﷺ، وسائر من أمر الله تعالى بطاعته؛ فهي في الحقيقة طاعة لله ﷻ، أو وما أمر الذين اتخذهم الكفرة أربابا من المسيح والأحبار والرهبان إلا ليوحدوا الله.[١]

الدليل الرابع عشر: يثبت أنه رسول أيده الله بروح القدس. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (البقرة: ٨٧). ووجه الاستدلال: في هذه الآية يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل إليهم كليمه موسى، وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليه السلام، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: قواه الله بروح القدس. قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده. ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها، لما أتوكم ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بهم، ﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فقدمتم الهوى على الهدى، وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.[٢]

---

(١) تفسير أبي السعود سورة التوبة آية (٣١).

(٢) تفسير السعدي ١/ ٥٨.

الدليل الخامس عشر: يثبت أنه لا فرق بين عيسى وبين غيره من الأنبياء في نبوته:

قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة: ١٣٦)، ووجه الدلالة من الآية أن عيسى عليه السلام معدود ضمن الأنبياء الذين بعثهم الله للناس. فأما قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾، يعني: وآمنا أيضًا بالتوراة التي آتاها الله موسى، وبالإنجيل الذي آتاه الله عيسى، والكتب التي آتى النبيين كلهم، وأقرَرنا وصدَّقنا أن ذلك كله حَق وهُدى ونور من عند الله، وأن جَميع من ذكر الله من أنبيائه كانوا على حق وهدى، يُصدِّق بعضهم بعضًا، على منهاج واحد في الدعاء إلى توحيد الله، والعمل بطاعته. [1] ولكون أهل الكتاب زادوا ونقصوا وحرفوا فيهما وادعوا أنهما أنزلا كذلك، والمؤمنون ينكرونه؛ اهتم بشأنهما فأفردهما بالذكر، وبين طريق الإيمان بهما، ولم يدرجهما في الموصول السابق؛ ولأن أمرهما أيضًا بالنسبة إلى موسى وعيسى أنهما منزلان عليهما حقيقة، لا باعتبار التعبد فقط كما في المنزل على إسحق ويعقوب والأسباط، ولم يعد الموصول لذلك في عيسى لعدم مخالفة شريعته لشريعة موسى إلا في النزر، ولذلك الاهتمام عبر بالايتاء دون الانزال؛ لأنه أبلغ لكونه المقصود منه، ولما فيه من الدلالة على الإعطاء الذي فيه شبه التمليك والتفويض، ولهذا يقال: أنزلت الدلو في البئر، ولا تقول: آتيتها إياها، ولك أن تقول: المراد بالموصول هنا ما هو أعم من التوراة والإنجيل، وسائر المعجزات الظاهرة بأيدي هذين النبيين الجليلين حسبما فصل في التنزيل الجليل، وإيثار الإيتاء لهذا التعميم، وتخصيص النبيين بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى. [2]

وقوله: ﴿ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾ دلالة على أن عطية الدين، هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية. لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٦١٨.

(٢) تفسير الآلوسي ١/ ٣٩٥.

ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع. وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء. وفي قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده، أن ينزل عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته، تركهم سدى ولا هملًا. وإذا كان ما أوتي النبيون، إنما هو من ربهم، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا إلى الخير، ولا ينهون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم، يصدق الآخر، ويشهد له بالحق، من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾. وهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع، وعرف ما يدعون إليه.[1]

وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ فيه وجهان: الأول: أنا لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فإنا لو فعلنا ذلك كانت المناقضة لازمة على الدليل وذلك غير جائز.

الثاني: لا نفرق بين أحد منهم، أي لا نقول: إنهم متفرقون في أصول الديانات، بل هم مجتمعون على الأصول التي هي الإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، والوجه الأول: أليق بسياق الآية.[2]

فلما بيَّن تعالى جميع ما يؤمن به، عموما وخصوصا، وكان القول لا يغني عن العمل قال: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته، بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول، وهو ﴿لَهُۥ﴾ على العامل وهو ﴿مُسْلِمُونَ﴾. فقد

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٦٧.

(٢) تفسير الرازي (البقرة: ١٣٦).

اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وعلى التخصيص - الدال على الفضل - بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده، كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبيانًا لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون. [1]

الدليل السادس عشر: إذا كان إلها فكيف يطلب العون من الحواريين وفيه أن عيسى يقول من أنصاري إلى الله؟ فكيف يكون هو الله؟ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٥٢). وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ (الصف: ١٤).

أي إنه لما رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا هذا سحر مبين، وهموا بقتله وسعوا في ذلك ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله[2]. وقال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله، والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: "مَنْ رَجُل يُؤْوِيني عَلى أن أبلغ كلامَ رَبِّي، فإنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي"[3] حتى وجد الأنصار فآووه، ونصروه، وهاجر إليهم؛ فآسوه، ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا عيسى ابن مريم، انْتدَبَ له طائفة من بني إسرائيل؛ فآمنوا به،

(١) تفسير السعدي ١/ ٦٧.

(٢) تفسير السعدي ١/ ١٣١.

(٣) رواه أحمد في المسند (٣/ ٣٢٢) من حديث جابر ﷺ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٤٧).

وآزروه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه. ولهذا قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ الحواريون، قيل: كانوا قَصّارين وقيل: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل: صيادين. والصحيح أن الحواري الناصر، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما نَدبَ الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدَبَ الزبير (ثم ندبهم فانتدب الزبير) فقال ﷺ: "إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًا وَحَوَارِيي الزُّبَيْرُ". [(١)]

الدليل السابع عشر: وفيه أن الله يتوفى عيسى ويرفعه إليه. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (آل عمران: ٥٥).

وقد اختلف المفسرون في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾:

١- فقال قتادة وغيره: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: إني رافعك إلي ومتوفيك، يعني بعد ذلك.

٢- وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا: النوم، والأدلة على ذلك: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (الأنعام: ٦٠). وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٢). وكان رسول الله ﷺ يقول - إذا قام من النوم -: "الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وإِلَيْهِ النُّشُورُ". [(٢)] وقال الله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا

---

(١) تفسير ابن كثير سورة آل عمران آية (٥٢)، والحديث أخرجه البخاري (٣٧١٩) ومسلم (٢٤١٥) من حديث جابر ﷺ.

(٢) البخاري (٥٩٥٣).

قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ (النساء: ١٥٦ -١٥٩). والضمير في قوله: ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ عائد على عيسى عليه السلام أي: وإن من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى؛ وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلّهم؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام. وقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: برفعي إياك إلى السماء﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهكذا وقع؛ فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء تَفرَّقت أصحابه شيَعًا بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد ذكر الله مقالاتهم في القرآن، ورَد على كل فريق، فلما بعث الله محمدًا ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق - كانوا هم أتباع كُل نبي على وجه الأرض-إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي، خاتم الرسل، وسيد ولد آدم، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي من أمته، الذين يزعمون أنهم على ملّته وطريقته، مع ما قد حَرّفوا وبدلوا.

ثم لو لم يكن شيء من ذلك، لكان قد نسخ الله بشريعته شريعة جميع الرسل بما بعث به محمدًا ﷺ من الدين الحق، الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائما منصورًا ظاهرا على كل دين؛ فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميعُ الدول، وكسروا كسرى، وقَصروا قيصر، وسلبوهما كُنُوزَهما، وأنفقت في سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عز وجل في قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (النور: ٦٥).

ولهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقًا؛ سلبوا النصارى بلاد الشام، وأَجْلَوهم إلى الروم، فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أمّته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية، ويستفيؤون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مَقْتلة عظيمة جدا، لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ وكذلك فعل تعالى بمن كفر بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه وأطراه من النصارى، عَذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخْذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك، وفي الدار الآخرة عذابُهم أشد وأشق﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ (الرعد: ٣٤)، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي: هذا الذي قَصَصْناه عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره، هو مما قاله الله تعالى، وأوحاه إليك ونزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (مريم: ٣٤-٣٥)[١]

الدليل الثامن عشر: يثبت أن الله تعالى خلق عيسى عليه السلام بكن: قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩). يقول تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ في قدرة الله تعالى، حيث خلقه من غير أب﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾؛

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٨٧.

فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم، بل ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ والذي خلق آدم قادر على خلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى بكونه مخلوقًا من غير أب؛ فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها في عيسى أشد بطلانًا وأظهر فسادًا. ولكن الرب ﷻ أراد أن يظهر قدرته لخلقه، حين خَلَقَ آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ (مريم: ٢١). وقال هاهنا: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: هذا القول هو الحق في عيسى، الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال. ثم قال تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يُبَاهِلَ مَنْ عَانَدَ الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيانِ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: نحضرهم في حال المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: نلتعن ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: منا أو منكم.[1]

قال السعدي: يخبر تعالى محتجًا على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس له بحق، بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكا لله في الربوبية، وهذا ليس بشبهة فضلًا أن يكون حجة؛ لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير وأن جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته، فهو على نقيض قولهم أدل، وعلى أن أحدًا لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولى، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصارى في المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى وأحرى، فإن صح ادعاء البنوة والإلهية في المسيح، فادعاؤها في آدم من باب أولى وأحرى، فلهذا قال

---

(١) تفسير ابن كثير سورة آل عمران آية (٥٩).

تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح عليه السلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قص عليكم ما قص من أخبار الأنبياء عليهم السلام، ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أي: الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك، وفي هذه الآية وما بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ وبهذه القاعدة تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه.

الدليل التاسع عشر: يثبت أن عيسى من الأنبياء الذين أوحى الله إليهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ (النساء: ١٦٣). ووجه الاستدلال من الآية: أنه لما ذكر عيسى عليه السلام بين هؤلاء الرسل دل على أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعتبر بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم، وأخلاقهم متفقة، ومصدرهم واحد، وغايتهم واحدة. وهو كقوله تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الأنعام: ٨٥)وقوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ (الأحزاب: ٧). وقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (الشورى: ١٣).

الدليل العشرون: يذكر أن عيسى عليه السلام جاء على آثار من سبقه من الرسل: قال تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا

عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (المائدة: ٤٦). فقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي: أتبعنا، أي جعلنا عيسى ابن مريم يقفوا آثارهم، أي آثار النبيين الذين أسلموا من بني إسرائيل، يقال قفيته مثل عقبته إذا اتبعته ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ يعني: أنبياء بني إسرائيل ﴿بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي: مؤمنًا بها حاكمًا بما فيها﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ﴾ أي: هدى إلى الحق، ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات، ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي: متبعًا لها، غير مخالف لما فيها، إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخبارًا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ (آل عمران: ٥٠)؛ ولهذا كان المشهور من قولي العلماء أن الإنجيل نسخ بَعْض أحكام التوراة. وقوله: ﴿وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: وجعلنا الإنجيل﴿هُدٗى﴾ يهتدى به، ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أي: وزاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه.

وقوله: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ قُرِئ﴿ وَلِيَحْكُمَ﴾ بالنصب على أن اللام لام كي، أي: وآتيناه الإنجيل ﴿فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ﴾ ليحكم أهل ملته به في زمانهم. وقرئ: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ﴾ بالجزم اللام لام الأمر، أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ ولأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٨)، و قال هاهنا: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق.[١]

(١) تفسير ابن كثير٢/ ٩٠.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف: ٦).

الدليل الحادي والعشرون: وفيه المنة من الله تعالى على عيسى عليه السلام بما أعطاه من الآيات ردًا على اليهود الذين كذّبوه: قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ (المائدة: ١١٠). وتخصيص عيسى عليه السلام من بين الرسل؛ لاختلاف طائفتي اليهود والنصارى فيه إفراطًا وتفريطًا، هذه تجعله إلهًا، وهذه تجعله كاذبًا. (١)

الدليل الثاني والعشرون: وفيه اعتقاد أصحاب عيسى أنه رسول من ربه: قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (المائدة: ١١٢-١١٤). ففي هذه الآيات سؤال الحواريين عن ربه وقول عيسي: اللهم ربنا، وهذا واضح فيما نحن فيه، وجرى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ على طريقة عربية في العرض والدعاء، يقولون للمستطيع لأمر: هل تستطيع كذا، على معنى تطلّب العذر له إن لم يجبك إلى مطلوبك، وأنّ السائل لا يحبّ أن يكلّف المسؤول ما يشقّ عليه، وذلك كناية فلم يبق منظورًا فيه إلى صريح المعنى المقتضي أنّه يشكّ في استطاعة المسؤول، وإنّما يقول

---

(١) فتح القدير سورة المائدة آية ١١٠.

ذلك الأدنى للأعلى منه، وفي شيء يعلم أنه مستطاع للمسؤول، فقرينة الكناية تحقّقُ المسؤول أنّ السائل يعلم استطاعته.

ومنه ما جاء في حديث يحيى المازني «أنّ رجلًا قال لعبد الله بن زيد: أتستطيع أن تريني كيف كان رسول الله يتوضّأ». فإنّ السائل يعلم أنّ عبد الله بن زيد لا يشقّ عليه ذلك. فليس قول الحواريّين المحكي بهذا اللفظ في القرآن إلاّ لفظًا من لغتهم يدلّ على التلطّف والتأدّب في السؤال، كما هو مناسب أهل الإيمان الخالص. وليس شكًّا في قدرة الله تعالى ولكنّهم سألوا آية لزيادة اطمئنان قلوبهم بالإيمان بأن ينتقلوا من الدليل العقلي إلى الدليل المحسوس. فإنّ النفوس بالمحسوس آنس.(١)

الدليل الثالث والعشرون: وفيه الرد على النصارى في ادعاء الألوهية والتثليث صراحة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: ١١٦-١١٧).

وهذا مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾، وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد.

وهذا هو أحد الوجهين في الآية، والثاني أن هذا السؤال في الدنيا والأول أظهر.(٢)

وهذا التوبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فيقول الله هذا الكلام لعيسى. فيتبرأ عيسى ويقول: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعمّا لا يليق بك، ﴿مَا

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٢٣٣.

(٢) تفسير ابن كثير (المائدة: ١١٦) بتصرف.

﴿يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئًا ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون، ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه السلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: "لم أقل شيئًا من ذلك" وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجرئ على عظمتك، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أني عبد مربوب، فكما أنه ربكم فهو ربي.

﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر، ممن لم يقم به. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: المطلع على سرائرهم وضمائرهم. ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ علما وسمعا وبصرا، فعلمك قد أحاط بالمعلومات، وسمعك بالمسموعات، وبصرك بالمبصرات، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر. ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَ﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، فلولا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم. ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ حيث كان من مقتضى

حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.[(١)]

الدليل الرابع والعشرون: إثبات الأحدية والصمدية، وأن الله لم يلد ولم يولد.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ (الإخلاص: ١-٤). أي﴿قُلْ﴾ قولًا جازمًا به، معتقدًا له، عارفًا بمعناه، ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل. ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم؛ لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي كمل في رحمته الذي وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لكمال غناه﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى. فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.[(٢)]

الوجه الثالث: الأدلة من السنة على بطلان ألوهية المسيح.

الدليل الأول: يثبت أن الله تعالى لم يلد ولم يولد، وأن من قال هذا القول فقد شتم الله ﷻ:

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " قال الله ﷻ: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك. فأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد، ولم ألد، ولم أولد، ولم يكن لي كفوًا أحد. وأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ".[(٣)]

وإنما سماه شتمًا؛ لما فيه من التنقيص؛ لأن الولد إنما يكون عن والدة تحمله ثم تضعه،

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٢٤٩.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٩٣٧.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٩٠).

ويستلزم ذلك سبق النكاح، والنكاح يستدعي باعثًا له على ذلك. والله سبحانه منزه عن جميع ذلك[١]، واتخاذ الولد نقص لاستدعائه محالين:

أحدهما: مماثلته للولد، وتمام حقيقته فيلزم إمكانه وحدوثه.

وثانيهما: استخلافه لخلف يقوم بأمره من بعده؛ إذ الغرض من التوالد بقاء النوع فيلزم زواله وفناؤه سبحانه؛ ولذا قال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ (مريم: ٩٠)، والأحد: المنفرد المطلق ذاتًا وصفاتًا، وفرق بين الأحد والواحد؛ بأن الواحد لنفي مفتتح العدد، والأحد لنفي كل عدد، فالواحد ينبىء عن تفرد الذات عن المثل والنظير، والأحد ينبىء عن تفردها عن كل نقص واتصافها بكل كمال، فكيف مع ذلك يحتاج إلى الولد؟ والصمد هو الذي يحتاج إليه كل أحد وهو غني عنهم.[٢] فأي شتم لله تعالى أعظم من أن يقال: إن لله ولدًا؟ وأي شتم أعظم من أن يقال: إن رب السموات والأرض - تبارك وتعالى - نزل عن كرسي عظمته وعرشه، ودخل في فرج امرأة تأكل، وتشرب، وتبول، وتتغوط، وتحيض فالتحم ببطنها، وأقام هناك تسعة أشهر، يتلبط بين نجو، وبول، ودم طمث، ثم خرج إلى القماط والسري كلما بكي ألقمته أمه ثديها، ثم انتقل إلى المكتب بين الصبيان، ثم آل أمره إلى لطم اليهود خديه، وصفعهم قفاه، وبصقهم في وجهه، ووضعهم تاجا من الشوك على رأسه والقصبة في يده؛ استخفافًا به وانتهاكًا لحرمته. ثم قربوه من مركب خص بالبلاء راكبه، فشدوه عليه وربطوه بالحبال، وسمروا يديه ورجليه، وهو يصيح ويبكي ويستغيث من حر الحديد وألم الصلب؛ هذا وهو الذي خلق السموات والأرض، وقسم الأرزاق والآجال، ولكن اقتضت حكمته ورحمته أن يمكن أعداءه من نفسه لينالوا منه ما نالوا؛ فيستحقوا بذلك العذاب والسجن في الجحيم، ويفدى أنبياءه ورسله وأولياءه بنفسه؛ فيخرجهم من سجن إبليس؛ فإن روح

---

(١) فتح الباري (٨/ ١٦٨).

(٢) مرقاة المفاتيح كتاب الإيمان ١/ ٢٣٣.

آدم وإبراهيم ونوح وسائر النبيين عندهم، كانت في سجن إبليس في النار، حتى خلصها من سجنه بتمكينه أعداءه من صلبه. وأما قولهم في مريم؛ فإنهم يقولون: إنها أم المسيح ابن الله في الحقيقة، ووالدته في الحقيقة، لا أم لابن الله إلا هي، ولا والدة له غيرها، ولا أب لابنها إلا الله، ولا ولد له سواه، وأن الله اختارها لنفسه ولولادة ولده وابنه من بين سائر النساء، ولو كانت كسائر النساء لما ولدت إلا عن وطء الرجال لها، ولكن اختصت عن النساء بأنها حبلت بابن الله، وولدت ابنه الذي لا ابن له في الحقيقة غيره، ولا والد له سواه، وإنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها، وابنها عن يمينه. والنصارى يدعونها ويسألونها سعة الرزق، وصحة البدن، وطول العمر، ومغفرة الذنوب، وأن تكون لهم عند ابنها ووالده - الذي يعتقد عامتهم أنه زوجها، ولا ينكرون ذلك عليهم - سورًا وسندًا وذخرًا وشفيعًا وركنًا، ويقولون في دعائهم: يا والدة الإله اشفعي لنا، وهم يعظمونها، ويرفعونها على الملائكة، وعلى جميع النبيين والمرسلين، ويسألونها ما يسأل الإله من العافية، والرزق، والمغفرة، حتى إن اليعقوبية يقولون في مناجاتهم لها: يا مريم يا والدة الإله، كوني لنا سورًا، وسندًا، وذخرًا، وركنًا، والنسطورية يقولون: يا والدة المسيح كوني لنا كذلك! ويقولون لليعقوبية: لا تقولوا يا والدة الإله، وقولوا يا والدة المسيح، فقالت لهم اليعقوبية: المسيح عندنا، وعندكم إله في الحقيقة فأي فرق بيننا وبينكم في ذلك؟ ولكنكم أردتم مصالحة المسلمين ومقاربتهم في التوحيد. [١]

الدليل الثاني: **يثبت أن عيسى مؤمن بالله معظم له**: عن أبي هريرةﷺعن النبي ﷺ قال: رأى عيسى بن مريم رجلًا يسرق، فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو، فقال عيسى آمنت بالله وكذبت عيني [٢]

وهذا الحديث فيه وجهان: **أحدهما**: قال القرطبي: ظاهر قول عيسى عليه السلام للرجل:

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى تحت عنوان خرافة الفداء (١/ ١٤٠).
(٢) البخاري (٣٢٦٠).

سرقت، أنه خبر جازم؛ لكونه أخذ مالًا من حرز في خفية، وقول الرجل: كلا، نفي لذلك ثم أكده باليمين، وقول عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني، أي صدقت من حلف بالله، وكذبت ما ظهر لي من كون الأخذ سرقة؛ فإنه يحتمل أن يكون الرجل أخذ ماله فيه حق، أو ما أذن له صاحبه في أخذه أو أخذه؛ ليقلبه وينظر فيه، ولم يقصد الغصب والاستيلاء.

الثاني: ما قاله ابن القيم: إن الله تعالى كان في قلبه أجل من أن يحلف به أحد كاذبا، فدار الأمر بين تهمة الحالف، وتهمة بصره؛ فرد التهمة إلى بصره، كما ظن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له أنه ناصح، وهذا أحسن من الأول. (١)

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا يدل على سجية طاهرة، حيث قدم حلف ذلك الرجل؛ فظن أن أحدًا لا يحلف بعظمة الله كاذبًا على ما شاهده منه عيانًا؛ فقبل عذره ورجع على نفسه فقال: آمنت بالله أي صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك. (٢)

الدليل الثالث: وفيه لقاء النبي ﷺ بعيسى عليه السلام ليلة الإسراء وذكر صفته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال": قال رسول الله ﷺ ليلة أسري بي لقيت موسى، قال: فنعته فإذا رجل -حسبته قال- مضطرب، رجل الرأس، كأنه من رجال شنوءة، قال ولقيت عيسى - فنعته النبي ﷺ فقال - ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام - ورأيت إبراهيم، وأنا أشبه ولده به. قال وأتيت بإناءين: أحدهما لبن، والآخر فيه خمر، فقيل لي: خذ أيهما شئت؛ فأخذت اللبن فشربته، فقيل لي: هديت الفطرة، أو أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك". (٣)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ "رأيت عيسى وموسى وإبراهيم فأما عيسى، فأحمر

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٥٣٣) وانظر شرح مسلم للنووي (٢٣٦٨)، وفتح الباري (٦/ ٤٨٩)، وبدائع الفوائد (٣/ ٧١٨).

(٢) البداية والنهاية (٢/ ١١٦).

(٣) البخاري (٣٢٥٤).

جعد عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط". [١]

فالحديث فيه أمران:

الأول: ذكر لقاء النبي ﷺ بعيسى، عليه السلام وأن ذلك غير لقائه بالله تعالى، كما في القصة المطولة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺقَالَ: " أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ. . . ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام. فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ. قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمَا فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ ". [٢]

وفي رواية أبي ذر قال: "ثم مررت بعيسى عليه السلام فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح قلت من هذا؟ قال هذا عيسى بن مريم". [٣] وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: " لَقَدْ رَأَيْتُنِى فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَاىَ فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا. فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ قَالَ فَرَفَعَهُ الله لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شيء إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّى فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام قَائِمٌ يُصَلِّى أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلامقَائِمٌ يُصَلِّى أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ - يَعْنِى نَفْسَهُ - فَحَانَتِ الصَّلاَةُ فَأَمَمْتُهُمْ فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلاَةِ قَالَ قَائِلٌ يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلاَمِ". [٤]

ففي هذه الروايات أنه قال له: "مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح فهل يقول الرب للعبد: يا أخي؟ ".

وفيها: أنه دعا له بخير فمن يدعوا عيسى لو كان هو الإله.

---

(١)البخاري (٣٢٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٢)، ومسلم (٢٦٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٨).

وفيها: أنه لقيه في أثناء رحلة المعراج وليس في آخرها.

وفيها: أنه تردد في عودته بين موسى وربه، ولم يكن لعيسى عليه السلام شيء من هذا الحوار، فلو كان هو الرب لجرى معه هذا الحوار. وفيها: أنه قال فإذا أنا بابني الخالة، فإذا قلنا بأن مريم خالة يحيى عليه السلام فهل أم يحي خالة الرب؟ فإذا كانت كذلك فهلا توسل بها القوم كما توسلوا بأم الإله؟ وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يصلي وصلى كذلك خلف رسول الله ﷺ فلو كان هو الإله فلمن يصلى وكيف يصلي به رسول الله ﷺ؟!

الأمر الثاني: صفة عيسى عليه السلام، وليس فيها شيء من صفات الله تعالى، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فقال في وصفه له: " وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي؛ فإذا ربعة أحمر، جعد، عريض الصدر، مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، شابًا أبيضَ، جعد الرأس، حديد البصر، مبطن الخلق، كأنما خرج من ديماس، أقرب الناس به شبهًا، عروة بن مسعود الثقفي". [1]

وفي بعض الروايات: " بينما أنا نائم أطوف بالكعبة؛ فإذا رجل آدم، كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم، قد رجلها فهي تقطر ماء، متكئًا على رجلين، أو على عواتق رجلين، يطوف بالبيت، فسألت من هذا؟ فقيل: هذا المسيح بن مريم، سبط الشعر، يهادى بين رجلين، ينطف رأسه ماء، أو يهراق رأسه ماء؛ فقلت من هذا؟ قالوا ابن مريم". [2]

الدليل الرابع: وفيه إثبات أن عيسى من شباب أهل الجنة.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا". [3]

الدليل الخامس: وفيه أن المسيح يدعو الله ويتضرع إليه، ولو كان إلهًا لما احتاج أن يرغب إلى الله ويدعوه؛ كما في هذ ا الحديث. عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ

---

(١) مسلم حديث (٢٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٥٧)، والزيادة بين المعقوفين من صحيح مسلم (٢٧٣).

(٣) أخرجه الطبراني٣/ ٣٨، وابن حبان (٦٩٥٩). والحديث صححه الألباني في الصحيحة (٧٩٦).

الله ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ. . . فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ الله الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمْ الله مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى الله إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ وَيَبْعَثُ الله يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ وَيُحْصَرُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ الله عَلَيْهِمْ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الله فَيُرْسِلُ الله طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ الله ثُمَّ يُرْسِلُ الله مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنْ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنْ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنْ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنْ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنْ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنْ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنْ النَّاسِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ الله رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ". [1]

الدليل السادس: وهو متعلق بنزول عيسى في آخر الزمان، وما هي مهمته بعد قتل الدجال؟

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل

---

(١) مسلم (٢٩٣٧).

فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا؛ فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال؛ حتى لا يقبله أحد". [(١)]

زاد عند مسلم: وفي رواية ابن عيينة: " إمامًا مقسطًا، وحكمًا عدلًا ".

ووجه الدلالة من الحديث: قوله: ليوشكن بكسر المعجمة: أي ليقربن، أي لا بد من ذلك سريعًا.

وقوله: أن ينزل فيكم، أي في هذه الأمة؛ فإنه خطاب لبعض الأمة ممن لا يدرك نزوله.

وقوله: حكمًا أي حاكمًا، والمعنى أنه ينزل حاكمًا بهذه الشريعة؛ فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ، بل يكون عيسى حاكمًا من حكام هذه الأمة، وفي رواية الليث عن بن شهاب عند مسلم: حكمًا مقسطًا، وله من طريق بن عيينة عن بن شهاب إمامًا مقسطًا والمقسط العادل بخلاف القاسط فهو الجائر، وقوله فيكسر الصليب ويقتل الخنزير أي: يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب حقيقة، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه، ووقع في رواية عطاء بن ميناء عن أبي هريرة عند مسلم ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وقوله ويضع الحرب في رواية الكشميهني الجزية والمعنى أن الدين يصير واحدًا فلا يبقى أحد من أهل الذمة يؤدي الجزية وقيل معناه أن المال يكثر حتى لا يبقى من يمكن صرف مال الجزية له فتترك الجزية استغناء عنها وقال عياض يحتمل أن يكون المراد بوضع الجزية تقريرها على الكفار من غير محاباة ويكون كثرة المال بسبب ذلك وتعقبه النووي وقال الصواب أن عيسى لا يقبل إلا الإسلام قلت: ويؤيده أن عند أحمد من وجه آخر عن أبي هريرة وتكون الدعوى واحدة، قال النووي: ومعنى وضع عيسى الجزية مع أنها مشروعة في هذه الشريعة أن مشروعيتها مقيدة بنزول عيسى لما دل عليه هذا الخبر وليس عيسى بناسخ لحكم الجزية بل نبينا ﷺ هو المبين للنسخ بقوله هذا، وقوله: ويفيض المال بفتح أوله وكسر الفاء وبالضاد المعجمة أي يكثر، وفي رواية عطاء بن ميناء المذكورة وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد، وسبب كثرته نزول البركات،

---

(١) البخاري (١١٠٩و٢٣٤٤و٢٢٦٤)، ومسلم (١٥٥).

وتوالي الخيرات بسبب العدل، وعدم الظلم، وحينئذ تخرج الأرض كنوزها، وتقل الرغبات في اقتناء المال لعلمهم بقرب الساعة قوله: حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها أي: أنهم حينئذ لا يتقربون إلى الله إلا بالعبادة لا بالتصدق بالمال وقيل: معناه أن الناس يرغبون عن الدنيا حتى تكون السجدة الواحدة أحب إليهم من الدنيا، وما فيها، وقد روى ابن مردويه من طريق محمد بن أبي حفصة عن الزهري بهذا الإسناد في هذا الحديث حتى تكون السجدة واحدة لله رب العالمين، وقوله: ثم يقول أبو هريرة واقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ هو موصول بالإسناد المذكور قال ابن الجوزي: إنما تلا أبو هريرة هذه الآية للإشارة إلى مناسبتها لقوله: حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها، فإنه يشير بذلك إلى صلاح الناس، وشدة إيمانهم، وإقبالهم على الخير فهم لذلك يؤثرون الركعة الواحدة على جميع الدنيا، والسجدة تطلق ويراد بها الركعة، قال القرطبي: معنى الحديث أن الصلاة حينئذ تكون أفضل من الصدقة لكثرة المال إذ ذاك وعدم الانتفاع به حتى لا يقبله أحد، وقوله في الآية ﴿وَإِن﴾ بمعنى ما أي: لا يبقى أحد من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى إذا نزل عيسى إلا آمن به، وهذا مصير من أبي هريرة إلى أن الضمير في قوله: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ وكذلك في قوله قبل موته يعود على عيسى أي إلا ليؤمن بعيسى قبل موت عيسى وبهذا جزم ابن عباس فيما رواه ابن جرير من طريق سعيد بن جبير عنه بإسناد صحيح ومن طريق أبي رجاء عن الحسن قال قبل موت عيسى والله إنه الآن لحي ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون ونقله عن أكثر أهل العلم ورجحه ابن جرير وغيره ونقل أهل التفسير في ذلك أقوالًا أخر وأن الضمير في قوله به يعود لله أو لمحمد وفي موته يعود على الكتابي على القولين وقيل على عيسى وروى ابن جرير من طريق عكرمة عن ابن عباس لا يموت يهودي ولا نصراني حتى يؤمن بعيسى فقال له عكرمة أرأيت أن خر من بيت أو احترق أو أكله السبع قال لا يموت حتى يحرك شفتيه بالإيمان بعيسى وفي إسناده خصيف وفيه ضعف ورجح جماعة هذا المذهب بقراءة أبي بن كعب الا ليؤمنن به قبل موتهم أي أهل الكتاب قال النووي معنى

الآية على هذا ليس من أهل الكتاب أحد يحضره الموت إلا آمن عند المعاينة قبل خروج روحه بعيسى، وأنه عبد الله وابن أمته ولكن لا ينفعه هذا الإيمان في تلك الحالة كما قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ قال وهذا المذهب أظهر لأن الأول يخص الكتابي الذي يدرك نزول عيسى وظاهر القرآن عمومه في كل كتابي في زمن نزول عيسى وقبله.

قال العلماء: الحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه فبين الله تعالى كذبهم وأنه الذي يقتلهم أو نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها وقيل: إنه دعا الله لما رأى صفة محمد وأمته أن يجعله منهم فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجددًا لأمر الإسلام فيوافق خروج الدجال فيقتله والأول أوجه وروى مسلم من حديث ابن عمر في مدة إقامة عيسى بالأرض بعد نزوله أنها سبع سنين وروى نعيم بن حماد في كتاب الفتن من حديث ابن عباس أن عيسى إذ ذاك يتزوج في الأرض ويقيم بها تسع عشرة سنة، وروى أحمد وأبو داود بإسناد صحيح من طريق عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة مثله مرفوعًا وفي هذا الحديث ينزل عيسى عليه ثوبان ممصران فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام وتقع الآمنة في الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل وتلعب الصبيان بالحيات وقال في آخره ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون وروى أحمد ومسلم من طريق حنظلة بن علي الأسلمي عن أبي هريرة ليهلن ابن مريم بفج الروحاء بالحج والعمرة الحديث وفي رواية لأحمد من هذا الوجه ينزل عيسى فيقتل الخنزير ويمحي الصليب وتجمع له الصلاة ويعطي المال حتى لا يقبل ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما.[1] وعن أبي هريرة

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤٩٣).

ﷺقال: قال رسول الله ﷺ " كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ". [١]

وقد أخرجه مسلم، من طريق ابن أبي ذئب، عن ابن شهاب بلفظ: وأمكم منكم قال الوليد بن مسلم فقلت لابن أبي ذئب إن الأوزاعي حدثنا عن الزهري فقال وإمامكم منكم قال بن أبي ذئب أتدري ما أمكم منكم قلت تخبرني قال فأمكم بكتاب ربكم. [٢]

وعن جابر ﷺفي قصة الدجال. قال: " فينطلقون؛ فإذا هم بعيسى بن مريم ﷺ؛ فتقام الصلاة، فيقال له: تقدم يا روح الله! فيقول: ليتقدم إمامكم فليصل بكم؛ فإذا صلى صلاة الصبح؛ خرجوا إليه. قال: فحين يرى الكذاب؛ ينماث كما ينماث الملح في الماء، فيمشي إليه فيقتله؛ حتى إن الشجرة والحجر ينادي: يا روح الله! هذا يهودي، فلا يترك ممن كان يتبعه أحدًا إلا قتله". [٣]

وقال أبو الحسن الأبدي في مناقب الشافعي تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمة، وأن عيسى يصلي خلفه ذكر ذلك ردًا للحديث الذي أخرجه ابن ماجه عن أنس وفيه ولا مهدي إلا عيسى، وقال أبو ذر الهروي حدثنا الجوزقي عن بعض المتقدمين قال معنى قوله وإمامكم منكم يعني أنه يحكم بالقرآن لا بالإنجيل.

وقال ابن التين معنى قوله: "وإمامكم منكم" أن الشريعة المحمدية متصلة إلى يوم القيامة وأن في كل قرن طائفة من أهل العلم، وهذا والذي قبله لا يبين كون عيسى إذا نزل يكون إماما، أو مأمومًا وعلى تقدير أن يكون عيسى إمامًا فمعناه أنه يصير معكم بالجماعة من هذه الأمة قال الطيبي المعنى يؤمكم عيسى حال كونه في دينكم ويعكر عليه قوله في حديث آخر عند مسلم فيقال له صل لنا فيقول لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة لهذه الأمة. وقال ابن الجوزي: لو تقدم عيسى إماما لوقع في النفس إشكال ولقيل أتراه تقدم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)

(٢) أخرجه مسلم (١٥٥)

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٦٧) ثنا محمد بن سابق، ثنا إبراهيم بن طهمان، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله به. وهذا إسناد على شرط مسلم.

نائبًا، أو مبتدئا شرعا فصلى مأمومًا لئلا يتدنس بغبار الشبهة وجه قوله: لا نبي بعدي وفي صلاة عيسى خلف رجل من هذه الأمة مع كونه في آخر الزمان، وقرب قيام الساعة دلالة للصحيح من الأقوال أن الأرض لا تخلو عن قائم لله بحجة والله أعلم. (١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه رجلًا مربوعًا إلى الحمرة، والبياض عليه ثوبان ممصران كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل فيدق الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام فيهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، وتقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون"(٢).

فقول النبي ﷺ: "الأنبياء أولاد علات "، وفي لفظ إخوة من علات أمهاتهم شتى، ودينهم واحد: قال الجوهري: بنو العلات هم أولاد الرجل من نسوة شتى سميت بذلك لأن الذي تزوجها على أولى كانت قبلها ثم عل من الثانية العلل الشرب الثاني يقال له: علل بعد نهل، وعله يعله إذا سقاه السقية الثانية، وقال غيره سموا بذلك لأنهم أولاد ضرائر، والعلات الضرائر وهذا الثاني أظهر وأما وجه التسمية فقال جماعة منهم القاضي عياض وغيره معناه أن الأنبياء مختلفون في أزمانهم وبعضهم بعيد الوقت من بعض فهم أولاد علات إذ لم يجمعهم زمان واحد كما لم يجمع أولاد العلات بطن واحد وعيسى لما كان قريب الزمان من النبي، ولم يكن بينهما نبي كانا كأنهما في زمان واحد، فقال ﷺ " أنا أولى الناس بعيسى بن مريم عليه السلام قالوا كيف يا رسول الله فقال الأنبياء إخوة من علات" الحديث.

وفيه وجه آخر أحسن من هذا وهو أن النبي ﷺ شبه دين الأنبياء الذين اتفقوا عليه من

(١) فتح الباري (٦/ ٤٩٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٢٤)، وابن ماجة (٤٠٧٨)، وأحمد في مسنده (٩٢٧٠) واللفظ له.

التوحيد وهو عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ولقائه بالأب الواحد لاشتراك جميعهم فيه وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم فقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، وقال البخاري في صحيحه باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد وذكر هذا الحديث وهذا هو دين الإسلام الذي أخبر الله أنه دين أنبيائه، ورسله من أولهم نوح إلى خاتمهم محمد فهو بمنزلة الأب الواحد و أما شرائع الأعمال، والمأمورات فقد تختلف فهي بمنزلة الأمهات الشتى التي كان لقاح تلك الأمهات من أب واحد كما أن مادة تلك الشرائع المختلفة من دين واحد متفق عليه فهذا أولى المعنيين بالحديث، وليس في تباعد أزمنتهم ما يوجب أن يشبه زمانهم بأمهاتهم، ويجعلون مختلفي الأمهات لذلك، وكون الأم بمنزلة الشريعة، والأب بمنزله الدين، وأصالة هذا وتذكيره، وفرعية الأم، وتأنيثها، واتحاد الأب، وتعدد الأم ما يدل على أنه معنى الحديث والله أعلم. [(١)]

وقال ابن تيمية: ولما كان أصل الدين الذي هو دين الإسلام واحدًا، وإن تنوعت شرائعه قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، والأنبياء إخوة لعلات، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا فليس بيني، وبينه نبي فدينهم واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وهو يعبد في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت، وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت. [(٢)]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " ليس بيني وبينه نبي يعني عيسى وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة، والبياض بين ممصرتين كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال فيمكث في الأرض

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٧١٩).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٤٥٥).

أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون "[١].

الدليل السابع: وفيه أن الناس يذهبون إلى عيسى عليه السلام ليشفع لهم عند الله؛ فيحيل هذه الشفاعة إلى رسول الله ﷺ قائلًا: إن ربي غضب اليوم غضبًا -الخ ولم يقل أنا اليوم غضبت.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: " أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى عليه السلام إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا - نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. "[٢].

الدليل الثامن: وفيه أن عُبَّاد عيسى عليه السلام يلقون في النار يوم القيامة؛ لأنهم كذبوا.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "قلنا يا رسول الله: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في رؤية الشمس، والقمر إذا كانت صحوا؟. قلنا: لا قال: فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما. ثم قال: ينادي مناد ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم حتى يبقى من كان يعبد الله من بر، أو فاجر، وغبرات من أهل الكتاب، ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتم لم يكن لله صاحبة، ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم. ، ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ **فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال: كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد،** فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا فيقال: اشربوا، فيتساقطون حتى يبقى من كان يعبد الله من بر، أو فاجر ". [٣]

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٢٤)، وأحمد (٩٢٧٠)، وابن أبي شيبة (٣٧٥٢٦) بسند صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٣) من حديث أبي هريرة، وأخرج نحوه من حديث أنس.

(٣) البخاري (٤٣٠٥، ٧٠٠١)، ومسلم (١٨٣).

قال القرطبي رحمه الله: وقد جاءنا على لسان من دلت المعجزة بصدقه أن الله تعالى إذا حشر الخلائق في صعيد واحد يعني يوم القيامة فيقال للنصارى: ما كنتم تعبدون فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله فيقول لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبه ولا ولد، ثم يقال لهم: ألا تردون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا. فالله الله أدرك بقية نفسك قبل حلول رمسك، واستعمل سديد عقلك، ولا تعول على تقليد فاسد نقلك، واتبع الدين القويم دين الأب إبراهيم فما كان يهوديًا ولا نصرانيًا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين فالله يعلم أني أنظر إليك وإلى كافة خلق الله بعين الرحمة، وأسأله هداية من ضل من هذة الأمة وأتأسف على الأباطيل التي ينتحلون فإنا لله وإنا إليه راجعون. (١)

وإن ما ذكر عنهم في هذا الحديث، هو حال كل صاحب باطل؛ فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه فإن الباطل لا حقيقة له وهو كاسمه باطل فإذا كان الاعتقاد غير مطابق، ولا حق كان متعلقه باطلًا، وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة كالعمل لغير الله، أو على غير أمره بطل العمل ببطلان غايته وتضرر عامله ببطلانه وبحصول ضد ما كان يؤمله فلم يذهب عليه عمله واعتقاده لا له ولا عليه بل صار معذبًا بفوات نفعه وبحصول ضد النفع فلهذا قال تعالى ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى. (٢)

الدليل التاسع: وفيه بشرى لكل مسلم بصفة عامة، ولكل نصراني دخل في الإسلام بصفة خاصة، وفيه أن عيسى عبد الله ورسوله: عن عبادة ﷺعن النبي ﷺقال: **"من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمتة ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل من أي أبواب الجنة الثمانية شاء"**. (٣)

---

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام (١٠١).

(٢) التفسير القيم لابن القيم (٢/ ٦٠).

(٣) البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨).

قال النووي رحمه الله: هذا حديث عظيم الموقع، وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد؛ فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج عن جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدهم، فاختصر ﷺ في هذه الأحرف ما يباين به جميعهم وسمى عيسى عليه السلام كلمة لأنه كان بكلمة كن فحسب من غير أب، بخلاف غيره من بنى آدم. قال الهروي: سمى كلمة لأنه كان عن الكلمة فسمى بها كما يقال للمطر رحمة، قال الهروي: وقوله تعالى﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أي رحمة قال: وقال ابن عرفة: أي ليس من أب إنما نفخ في أمه الروح، وقال غيره: وروح منه أي مخلوقة من عنده، وعلى هذا يكون إضافتها إليه إضافة تشريف كناقة الله، وبيت الله وإلا فالعالم له ﷻ ومن عنده. [1]

وقال ابن حجر: قال القرطبي: مقصود هذا الحديث التنبيه على ما وقع للنصارى من الضلال في عيسى، وأمه ويستفاد منه ما يلقنه النصراني إذا أسلم. وقال غيره: في ذكر عيسى تعريض بالنصارى وإيذان بأن إيمانهم مع قولهم بالتثليث شرك محض، وكذا قوله: عبده، وفي ذكر رسوله تعريض باليهود في إنكارهم رسالته، وقذفه بما هو منزه عنه وكذا أمه وفي قوله وابن أمته تشريف له وكذا تسميته بالروح ووصفه بأنه منه كقوله تعالى وسخر لكم ما في الأرض جميعًا منه فالمعنى أنه كائن منه كما أن معنى الآية الأخرى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه أي أنه مكون كل ذلك وموجده بقدرته وحكمته، وقوله: وكلمته إشارة إلى أنه حجة الله على عباده أبدعه من غير أب، وأنطقه في غير أوانه، وأحيى الموتى على يده، وقيل: سمي كلمة الله لأنه أوجده بقوله: فلما كان بكلامه سمي به كما يقال سيف الله وأسد الله وقيل لما قال في صغره إني عبد الله، وأما تسميته بالروح فلما كان أقدره عليه من إحياء الموتى، وقيل: لكونه ذا روح وجد من غير جزء من ذي روح. [2] ومن فوائد هذا الحديث عدم الخلط بين الإسلام وغيره من الأديان، فقوله: " وأن عيسى عبد

---

(١) شرح مسلم للنووي (١/ ٢٣٦).

(٢) فتح الباري ٦/ ٤٧٥.

الله ورسوله " تعريض باليهود في التفريق بين رسله في إنكارهم رسالته، ثم رسالة محمد ﷺ وتعريض بالنصارى - أنفسهم - في قولهم بالإيمان به مع التثليث، وهو شرك محض؛ وبه تعرف السر في تخصيص ذكر عيسى عليه السلام في هذا الحديث العظيم الجامع، ألا وحدة بين مسلم يؤمن بجميع أنبياء الله ورسله، ويهودي، أو نصراني: لا يؤمن بمحمد ﷺ كما قال الله - سبحانه -: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ (البقرة: ١٣٧). [1]

الدليل العاشر: شهادة النجاشي لما جاء في القرآن من أن عيسى عبد، وقد كان على دينهم بل كان حاكمهم:

عن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا على أن يبعثوا إلى النجاشي هدايا مما يستظرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة المخرومي وعمرو بن العاص، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم. قالت فخرجا فقدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار وعند خير جوار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق أنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤا بدين مبتدع لانعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إليك فيهم أشارف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فإذا كلما الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم؛ فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا نعم، ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهم،

---

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين الأديان لبكر أبو زيد (١/ ٩٩).

ثم كلماه فقالا له أيها لاملك إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قوهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله صدقوا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما ليردوهم إلا بلادهم وقومهم، قالت فغضب النجاشي، ثم قال: لا ها الله أذن لا أسلمهم إليهما ولا أكاد أقوام جاوروني ونزلوا ببلادي واختاروني على من سواى حتى أدعوهم فأسئلهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني، قالت ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺفدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض ما تقولون للرجل إذا جئتموه قالوا نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺكائنًا في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤه - وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله - سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الأمم، قالت وكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له أيها الملك! كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة، قالت فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا

قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ﷻ وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك، قالت فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدرا من ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ قالت فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقوا فو الله لا أسلمهم إليكم أبدا ولا أكاد قالت أم سلمة فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاصي والله لآتينه غدا أعيبهم عنده بها استأصل به خضراءهم، قالت فقال عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا لا تفعل فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، قال والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، قالت ثم غدا عليه من الغد فقال له أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه، قالت فأرسل إليهم فسألهم عنه، قالت ولم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في عيسى إذا سألكم عنه، قالوا نقول والله فيه ما قال الله ﷻ وما جاء به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب نقول فيه الذي جاء به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه، فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عودا ثم قال ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم، وإن نخرتم والله اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي - " والسيوم " الآمنون - من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبر ذهب وإني آذيت رجلا منكم -"، وفيه أن النجاشي وافق الصحابة على اعتقاد المسلمين في عيسى عليه السلام.[1]

(١) حسن. أخرجه ابن إسحاق في السيرة، قال حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن

الدليل الحادي عشر: وفيه نهي النبي ﷺ أصحابه وأمته عن الغلو الذي وقع فيه النصارى.

فعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله". (١)

قال ابن حجر: والإطراء المدح بالباطل، تقول أطريت فلانًا مدحته فأفرطت في مدحه. وقوله: كما أطرت النصارى ابن مريم، أي في دعواهم فيه الإلهية، وغير ذلك. (٢)

الدليل الثاني عشر: وفيه إثبات كفر النصارى الذين لا يؤمنون برسول الله محمد ﷺ ومما جاء به نبوة عيسى لا إلاهيته: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ". (٣)

قال النووي: وأما الحديث ففيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ، وفي مفهومه دلالة على أن من لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور، وهذا جار على ما تقدم في الأصول؛ أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح والله أعلم. وقوله ﷺ: **"لا يسمع بي أحد من هذه الأمة"** أي ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته، وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيها على من سواهما وذلك لأن اليهود والنصارى لهم

هشام عن أم سلمة زوج النبي به، وعنه ابن هشام في السيرة (٢/ ١٧٧) ومن طريقه أخرجه أحمد (١/ ٢٠١) قال: حدَّثنا يَعْقُوب، قال: حدَّثنا أَبِي. و"ابن خزيمة" (٢٢٦٠) قال: حدَّثنا مُحَمَّد بن عِيسَى، حدَّثنا سَلَمَة، يَعْنِي ابن الفَضْل. كلاهما (إبراهيم بن سَعْد والد يَعْقُوب، وسَلَمَة بن الفَضْل) عن مُحَمَّد بن إِسْحَاق، به.

وهذا إسناد فيه: محمد بن إسحاق، وهو إمام المغازي صدوق يدلس وحديثه حسن إذا صرح بالتحديث، وانظر: التقريب (٥٧٢٥) والكاشف للذهبي (٤٧١٨) وهذا الحديث من أحاديث السيرة التي أسندها ابن إسحاق في السيرة وصرح فيها بالسماع فهو صحيح. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٤): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، وقال الألباني في الصحيحة (٣١٩٠): إسناده جيد وقد سكت عنه الحافظ في الفتح (٧/ ١٨٨)، وقال على هامش فقه السيرة للغزالي (١٢٤): إسناده صحيح.

(١) البخاري (٣٢٦١).

(٢) فتح الباري (٦/ ٤٩٠).

(٣) أخرجه مسلم (١٥٣).

كتاب فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابا فغيرهم ممن لا كتاب له أولى. والله أعلم[١].

الدليل الثالث عشر: يثبت أن عيسى مولودًا وقاه الله شر الشيطان عند الولادة، فلو كان إلهًا لوقى نفسه، وأيضًا قد سبق أن الإله لم يلد ولم يولد:

عن أبي هريرة ﷺأن النبي ﷺ قال: "ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد؛ فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه، إلا مريم وابنها ". ثم يقول أبو هريرة واقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران: ٣٦). [٢]

قال القرطبي: هذا الطعن من الشيطان، هو ابتداء التسليط فحفظ الله مريم وابنها منه ببركة دعوة أمها حيث قالت: إني أعيذها بك، وذريتها من الشيطان الرجيم، ولم يكن لمريم ذرية غير عيسى[٣]، وأيضًا هذه فضيلة ظاهرة، وظاهر الحديث اختصاصها بعيسى وأمه، واختار القاضي عياض أن جميع الأنبياء يتشاركون فيها. [٤]

الدليل الرابع عشر: وفيه أن عيسى يهتم بالتبليغ عن الله تعالى:

عن الحارث الأشعري ﷺ: أن النبي ﷺ قال: " إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها فقال عيسى عليه السلام إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أنا آمرهم فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي، أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ المسجد، وتعدوا على الشرف، فقال إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن أولهن أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب، أو ورق فقال: هذه داري، وهذا عملي فاعمل، وأد إلي، فكان يعمل، ويؤدي إلى غيره سيده فأيكم يرضي أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب

---

(١) شرح مسلم للنووي (١/ ٤٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٨).

(٣) فتح الباري (٦/ ٤٧٠)

(٤) شرح مسلم للنووي (١٥/ ١٢٠).

وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب، أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال أنا أفديه منكم بالقليل، والكثير ففدى نفسه منهم، وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله قال النبي ﷺ وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن السمع والطاعة والجهاد والهجرة، والجماعة فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية، فإنه من جثا جهنم فقال رجل يا رسول الله وإن صلى وصام؟ قال وإن صلى وصام فدعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله هذا". (١)

الدليل الخامس عشر: وفيه إثبات مرحلة المهد لعيسى عليه السلام وأن الله أنطقه في المهد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج، كان يصلي، جاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته؛ فتعرضت له امرأة وكلمته، فأبى فأتت راعيًا، فأمكنته من نفسها؛ فولدت غلامًا، فقالت: من جريج! فأتوه، فكسروا صومعته، وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام؛ فقال: من أبوك يا غلام؟ قال الراعي. قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال لا إلا من طين، وكانت امرأة ترضع ابنا لها من بني إسرائيل، فمر بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله! فترك ثديها، وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه - قال أبو هريرة كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعه - ثم مر بأمة، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، فقال اللهم اجعلني مثلها، فقالت لم ذاك؟ فقال الراكب

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٢٤).

جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون سرقت زنيت ولم تفعل". (١)

الدليل السادس عشر: وفيه أن عيسى ابن مريم عليه السلام يحج البيت الحرام: عن أبي هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده، ليهلن ابن مريم بفج الروحاء، حاجًا أو معتمرًا أو ليثنينهما". (٢)

فهذه جملة من الأحاديث في سنة النبي صلى الله عليه وسلم تثبت تارة أنه عبد، وتارة أنه مخلوق، وتارة أنه نبي... إلخ، وفي كل الأحوال هذه صفات لا تليق بالله تعالى؛ لأنها صفات المخلوقين، وقد ذكرنا في المقدمة بعض النصوص التي تدل على توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فهي في جملتها تضاف إلى الأدلة الدالة من القرآن والسنة على بطلان ألوهية المسيح عليه السلام.

الوجه الرابع: الأدلة من العهد القديم والأناجيل الأربعة على بطلان ألوهية المسيح. وهي على أقسام:

القسم الأول: الأدلة المؤكدة لوحدانية الله تعالى الذي في السماوات، وأنه رب واحد، وإله واحد، لا يشاركه في ربوبيته ولا ألوهيته أحد، ولا تجوز العبادة إلا له وحده فقط:

لقد تضافرت على إثبات تلك العقيدة: أي توحيد الذات وتوحيد الربوبية والألوهية، والتي هي أساس جميع الرسالات السماوية، نصوص العهد الجديد والعهد القديم، وفيما يلي بيان بعض هذه النصوص:

أولًا: من العهد الجديد: ١-جاء في إنجيل مرقس (١٢/ ٣١: ٢٨): فَجَاءَ وَاحِدٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَسَمِعَهُمْ يَتَحَاوَرُونَ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ أَجَابَهُمْ حَسَنًا، سَأَلَهُ: «أَيَّةُ وَصِيَّةٍ هِيَ أَوَّلُ الْكُلِّ؟ » ٢٩ فَأَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنَّ أَوَّلَ كُلِّ الْوَصَايَا هِيَ: اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ. الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. ٣٠ وَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ. هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى. ٣١ وَثَانِيَةٌ مِثْلُهَا هِيَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. لَيْسَ وَصِيَّةٌ أُخْرَى أَعْظَمَ مِنَ

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٥٢).

هَاتَيْنِ». ٣٢ فَقَالَ لَهُ الْكَاتِبُ: «جَيِّدًا يَا مُعَلِّمُ. بِالْحَقِّ قُلْتَ، لأَنَّهُ اللهُ وَاحِدٌ وَلَيْسَ آخَرُ سِوَاهُ)).

قلت: هكذا جاء النص في إنجيل مرقس كما في العهد القديم، أما متى ولوقا فقد قاما بحذف عبارة: **اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ. الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ**، وجاءت العبارة هكذا في إنجيل متى، حيث سأله الغربيين قائلًا في الفقرة: يا معلم أية وصية هي العظمى في الناموس؟ فقال له يسوع: **وَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى. وَثَانِيَةٌ مِثْلُهَا هِيَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. لَيْسَ وَصِيَّةٌ أُخْرَى أَعْظَمَ مِنْ هَاتَيْنِ. بِهَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ يَتَعَلَّقُ النَّامُوسُ كُلُّهُ وَالأَنْبِيَاءُ** (متى ٢٢/ ٣٦: ٤٠).

وفي إنجيل لوقا: فقال له ما هو مكتوب في الناموس كيف تقرأ؟

فأجاب وقال: **وَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ** قدرتك، **مِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَقَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ** (لوقا١٠/ ٢٦، ٢٧).

وهذا يؤكد أن توحيد الربوبية والألوهية أساس الشريعة وأساس دعوة جميع الأنبياء عليهم السلام، وهذا ما صدقه القرآن في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

ومما يجدر بالذكر، أن سيدنا عيسى عليه السلام بين أنه لا وصية أعظم من هاتين الوصيتين، وأنهما أساس الناموس وأساس جميع دعوات الأنبياء، وبناء عليه، فلو كانت ألوهية عيسى عليه السلام ومشاركة الابن لله في ألوهيته، عقيدة حقة، والإيمان بها شرط ضروري للنجاة والخلاص الأخروي ـ كما نص عليه دستور الإيمان الذي تقرر بمجمع نيقية ـ لبيَّن عيسى عليه السلام ضرورة الإيمان بذلك ولم يكتمه، خاصة في هذا المقام الذي سئل فيه عن أهم الوصايا، فلما لم يذكر ذلك في هذا المقام، علم أن ألوهية عيسى ليست من وصايا الله ﷻ أصلًا. [1]

---

(١) وهذه الوصيه في العهد القديم بنحو نصها في الجديد في سفر التثنية (٦/ ١٥: ٤): اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ. وَلْتَكُنْ هذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ عَلَى قَلْبِكَ، وَقُصَّهَا عَلَى أَوْلاَدِكَ، وَتَكَلَّمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ فِي بَيْتِكَ، وَحِينَ

(٢) وجاء في إنجيل يوحنا (١٧/ ١ ـ ٣): " تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهذَا وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّماءِ وَقَالَ: «أَيُّها الآبُ، قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ. مَجِّدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أيضًا، إِذْ أَعْطَيْتَهُ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ. وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ ".

وطبعًا هذا الكلام معناه باللغة العربية المتداولة: (لا إله إلا الله، المسيح رسول الله). [١]

وهي ما تعني بوضوح أن الجنة وحياتها الأبدية لا تنال إلا بالشهادة لله بالتوحيد، ولنبيه وصفيه المسيح عليه السلام بالرسالة، وهو ما يعتقده المسلمون فيه ﷺ[٢].

ففي هذه الآية بين عيسى عليه السلام أن النجاة الأخروية تكمن في: الإيمان بأن الآب هو الإله الحقيقي وحده، فلفظة وحدك صريحة قاطعة في انفراد الآب بالألوهية، وعدم مشاركة أي أحد آخر ـ ومنهم المسيح الابن ـ له فيها. ويؤكد هذه أكثر عطف المسيح، كرسولٍ لله تعالى، فيما يجب معرفته والإيمان به. وهذا هو عين ما قاله القرآن الكريم وهو وجوب الإيمان بالله وحده لا شريك له، وبأن المسيح رسول الله، على نبينا وعليه الصلاة والسلام. ثم كيف يقول المسيح للإله هذه هي الحياة الأبدية أيها الإله أن يعرفوك أنك أنت الإله الحقيقي ولاحظ قال كلمة ﴿وحدك﴾ ثم اعترف أن الله هو من أرسله؟ أليس المسيح هو الإله؟ لو كان هو الله حقًا كما تزعمون لقال ليعرفوك أني الإله الحقيقي وحدي أو

تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ، وَحِينَ تَنَامُ وَحِينَ تَقُومُ، وَارْبُطْهَا عَلاَمَةً عَلَى يَدِكَ، وَلْتَكُنْ عَصَائِبَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ، وَاكْتُبْهَا عَلَى قَوَائِمِ أَبْوَابِ بَيْتِكَ وَعَلَى أَبْوَابِكَ. «وَمَتَى أَتَى بِكَ الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي حَلَفَ لآبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أَنْ يُعْطِيَكَ، إِلَى مُدُنٍ عَظِيمَةٍ جَيِّدَةٍ لَمْ تَبْنِهَا، وَبُيُوتٍ مَمْلُوءَةٍ كُلَّ خَيْرٍ لَمْ تَمْلأْهَا، وَأَبَآرٍ مَحْفُورَةٍ لَمْ تَحْفِرْهَا، وَكُرُومٍ وَزَيْتُونٍ لَمْ تَغْرِسْهَا، وَأَكَلْتَ وَشَبِعْتَ، فَاحْتَرِزْ لِئَلاَّ تَنْسَى الرَّبَّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. الرَّبَّ إِلهَكَ تَتَّقِي، وَإِيَّاهُ تَعْبُدُ، وَبِاسْمِهِ تَحْلِفُ. لاَ تَسِيرُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنْ آلِهَةِ الأُمَمِ الَّتِي حَوْلَكُمْ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ إِلهٌ غَيُورٌ فِي وَسَطِكُمْ، لِئَلاَّ يَحْمَى غَضَبُ الرَّبِّ إِلهِكُمْ عَلَيْكُمْ فَيُبِيدَكُمْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ.

(١) مناظرة بين الإسلام والنصرانية (٥٩) والمناظرة التقريرية (١٦٨)، وإظهار الحق ٢/ ٢.

(٢) الله جل جلاله واحد أم ثلاثة (٩٣).

ليعرفوا أنك أنت الأب وأنا الابن وهناك الروح القدس، ونحن إله واحد؟ أليس هذا من الدجل؟ [١] وجاء في إنجيل متى (٤ / ٨ـ١٠) قصة امتحان الشيطان للمسيح: " ثُمَّ أَخَذَهُ أَيضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَل عَال جِدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدَهَا، ٩ وَقَالَ لَهُ: «أُعْطِيكَ هذِهِ جَمِيعَهَا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي». ١٠ حِينَئِذٍ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِلرَّبِّ إِلهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ " فهل كان الشيطان يعِد الرب العظيم - مالك كل شيء وواهبه - بالدنيا؟! !.

وينقل القمص تادرس يعقوب ملطي في تفسيره لإنجيل متى عن القديس جيروم قوله: "يقصد إبليس بكل هذه التجارب أن يعرف إن كان هو الحق ابن الله، ولكن المخلص كان موفقًا في إجاباته تاركًا إياه في شك"، فالشيطان كان وبقي جاهلًا بألوهية المسيح المدعاة. [٢]

فسيدنا المسيح عليه السلام يؤكد على ما هو منصوص في التوراة بأن الرب الإله وحده فقط، الذي ينبغي ويصح السجود له وعبادته، وبالتالي فلا تجوز العبادة ولا السجود لأي شيء آخر غيره، سواء كان المسيح الابن أو العذراء الأم أو الصليب أو أي كائن آخر سوى الله تعالى.

ثم إن نفس امتحان الشيطان لعيسى عليه السلام ووسوسته له ومحاولته إضلاله لأكبر دليل، في حد ذاته، على بشرية عيسى المحضة وعدم إلهيته، إذ ما معنى امتحان الشيطان لله خالقه وربه؟! ومتى وكيف يكون الله تعالى في حاجة للامتحان والاختبار؟! وفي إنجيل برنابا (الفصل الثالث والتسعون) "أَشهد أمام السماء، وأُشهد كل شيء على الأرض أني بريء من كل ما قد قلتم لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية وعرضة لحكم الله، مكابد شقاء الأكل والمنام وشقاء البرد والحر كسائر البشر ". [٣]

(٣) وفي إنجيل متى (١٩ / ١٦ ـ ١٧): " وَإِذَا وَاحِدٌ تَقَدَّمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيَّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ؟ » ١٧ فَقَالَ لَهُ: «لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟

---

(١) انظر: كتاب أسئلة تبحث عن أجوبة لخطاب المصري.

(٢) الله جل جلاله واحد أو ثلاثة (٩٣).

(٣) التحفة المقدسية في مختصر تاريخ النصرانية.

لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ الله. وَلكِنْ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ فَاحْفَظِ الْوَصَايَا». "

قلت: لقد نفى سيدنا عيسى ﷺ بكل صراحة عن نفسه الصلاح، ولعل المقصود به الصلاح الذاتي المطلق أي القداسة الذاتية المطلقة، وأثبته لله الواحد الأحد فقط. هذا القول يقلع أصل التثليث وما رضي تواضعًا أن يطلق عليه لفظ الصالح أيضًا، ولو كان إلهًا لما كان لقوله معنى، ولكان عليه أن يبين لا صالح إلا الأب وأنا وروح القدس، ولم يؤخر البيان عن وقت الحاجة، وإذا لم يرض بقوله الصالح فكيف يرضى بأقوال أهل التثليث التي يتفوهون بها في أوقات صلاتهم (يا ربنا وإلهنا يسوع لا تضيع من خلقت بيدك) حاشا جنابه أن يرضى بها.[1]

(٤) وفي إنجيل متى (٢٣ / ٨ ـ ١٠) يقول المسيح ﷺ لأتباعه: " وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلاَ تُدْعَوْا سَيِّدِي، لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ، وَأَنْتُمْ جَمِيعًا إِخْوَةٌ. وَلاَ تَدْعُوا لَكُمْ أَبًا عَلَى الأَرْضِ، لأَنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. ".

فالمعروف أنه في لغة الإنجيل، كثيرًا ما يعبر عن الله بالآب، وهنا كذلك، فقول عيسى ﷺ " لا تدعوا لكم أبًا على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السماوات " يعنى ليس لكم إله إلا الله وحده الذي في السماوات، وهذا صريح في نفي ألوهية كل أحد ممن هو على الأرض، ويدخل في هذا النفي المسيح كذلك لكونه على الأرض.

ويؤكد ذلك أيضًا، الاقتصار على وصف المسيح بالسيد والمعلم وعدم وصفه بالإله.

هذا وفيما يلي نورد عبارتين للقديس بولس، الذي يحتل مكانة عظيمة لدى النصارى؛ حيث تعتبر رسائله من إلهام الله تعالى، وبالتالي لها منزلة الوحي المعصوم عندهم، لذا ألحقت رسائله الأربعة عشر بالأناجيل واعتبرت جزءًا من كتاب العهد الجديد:

(٥) جاء في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (٨ / ٤ ـ ٦): " فَمِنْ جِهَةِ أَكْلِ مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ: نَعْلَمُ أَنْ لَيْسَ وَثَنٌ فِي الْعَالَمِ، وَأَنْ لَيْسَ إِلهٌ آخَرُ إِلاَّ وَاحِدًا. ٥ لأَنَّهُ وَإِنْ وُجِدَ مَا يُسَمَّى

(١) مناظرة بين الإسلام والنصرانية ١/ ٦٠، وإظهار الحق ٢/ ٦

آلِهَةً، سِوَاءٌ كَانَ فِي السَّمَاءِ أَوْ عَلَى الأَرْضِ، كَمَا يُوجَدُ آلِهَةٌ كَثِيرُونَ وَأَرْبَابٌ كَثِيرُونَ. ٦ لكِنْ لَنَا إِلهٌ وَاحِدٌ: الآبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ لَهُ. وَرَبٌّ وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بِهِ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ بِهِ". فقوله " ليس إله آخر إلا واحدًا " هو نفس الكلمة الطيبة وشعار التوحيد الخالد الذي بعث به جميع الأنبياء: " لا إله إلا الله ". وقوله " ولكن لنا إله واحد: الآب الذي منه جميع الأشياء " في غاية الصراحة والوضوح في إفراد الآب وحده بالإلهية وأن كل ما سواه - بما فيهم المسيح - مخلوق منه. ويزيد هذا الإفراد للآب بالألوهية تأكيدًا، ذكر يسوع المسيح بعده بصفة الرب فقط، ولا شك أنه لا يريد بالرب هنا الألوهية وإلا عاد مناقضا لنفسه؛ إذ يكون قد أثبت لنا إلهين اثنين بعد أن أكد أنه ليس لنا إلا إله واحد، لذلك لابد أن يكون مراده بالرب معنى غير الله، وهذا المعنى هو السيد المعلم، كما تدل عليه رسائله الأخرى وكما هو مصرح به في إنجيل يوحنا من أن لفظة الرب ـ عندما تطلق على المسيح ـ يقصد بها المعلم، ففي الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا (٣٨): " فقالا ربي! ـ الذي تفسيره: يا معلم! ـ أين تمكث؟ " و كذلك في إنجيل يوحنا (٢٠ / ١٦): " قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا مَرْيَمُ» فَالْتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ: «رَبُّونِي! » الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ. "

(٦) وفي رسالته إلى أهل أفسس (٤ / ٦): " إِلهٌ وَآبٌ وَاحِدٌ لِلْكُلِّ، الَّذِي عَلَى الْكُلِّ وَبِالْكُلِّ وَفِي كُلِّكُمْ ". (١)

ثانيًا: من العهد القديم: (١) أول وصية من الوصايا العشر التي أوحاها الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام، و كتبها له في الألواح، كما جاءت في سفر الخروج (٢٠ / ١ ـ ٤) من التوراة الحالية: " أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ ".

(٢) وفي سفر الخروج أيضًا (٢٣ / ١٣): " وَلاَ تَذْكُرُوا اسْمَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلاَ يُسْمَعْ مِنْ فَمِكَ. "

---

(١) الأناجيل الأربعة ١/ ٢٦.

(٣) وفي سفر التثنية من التوراة (٦ / ٤ ـ ٥ ثم ١٤ ـ ١٦) يوحي الله تعالى إلى موسى ﷺأن يقول لبني إسرائيل: " اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. ٥ فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ. . . . الرَّبَّ إِلهَكَ تَتَّقِي، وَإِيَّاهُ تَعْبُدُ، وَبِاسْمِهِ تَحْلِفُ. لاَ تَسِيرُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنْ آلِهَةِ الأُمَمِ الَّتِي حَوْلَكُمْ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ إِلهٌ غَيُورٌ فِي وَسَطِكُمْ، لِئَلاَّ يَحْمَى غَضَبُ الرَّبِّ إِلهِكُمْ عَلَيْكُمْ فَيُبِيدَكُمْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ".

(٤) وفي سفر التثنية (٤/ ٣٩) من التوراة أيضًا: " فَاعْلَمِ الْيَوْمَ وَرَدِّدْ فِي قَلْبِكَ أَنَّ الرَّبَّ هُوَ الإِلهُ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَعَلَى الأَرْضِ مِنْ أَسْفَلُ. لَيْسَ سِوَاهُ".

(٥) وفي سفر أخبار الأيام الأول (١٧ / ٢٠) قول داود ﷺ لله ﷻ: " يَا رَبُّ، لَيْسَ مِثْلُكَ وَلاَ إِلهَ غَيْرُكَ حَسَبَ كُلِّ مَا سَمِعْنَاهُ بِآذَانِنَا. ".

(٦) وفي سفر نحميا (٩ / ٥ ـ ٧) من العهد القديم: " قُومُوا بَارِكُوا الرَّبَّ إِلهَكُمْ مِنَ الأَزَلِ إِلَى الأَبَدِ، وَلْيَتَبَارَكِ اسْمُ جَلاَلِكَ الْمُتَعَالِي عَلَى كُلِّ بَرَكَةٍ وَتَسْبِيحٍ. ٦ أَنْتَ هُوَ الرَّبُّ وَحْدَكَ. أَنْتَ صَنَعْتَ السَّمَاوَاتِ وَسَمَاءَ السَّمَاوَاتِ وَكُلَّ جُنْدِهَا، وَالأَرْضَ وَكُلَّ مَا عَلَيْهَا، وَالْبِحَارَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، وَأَنْتَ تُحْيِيهَا كُلَّهَا. وَجُنْدُ السَّمَاءِ لَكَ يَسْجُدُ. ".

(٧) وفي زبور داود ﷺالمسمى بسفر المزامير (١٦ / ١ ـ ٢ ـ ٤): " اِحْفَظْنِي يَا الله لأَنِّي عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ. ٢ قُلْتُ لِلرَّبِّ: «أَنْتَ سَيِّدِي. خَيْرِي لاَ شَيْءَ غَيْرُكَ، تَكْثُرُ أَوْجَاعُهُمُ الَّذِينَ أَسْرَعُوا وَرَاءَ آخَرَ. لاَ أَسْكُبُ سَكَائِبَهُمْ مِنْ دَمٍ، وَلاَ أَذْكُرُ أَسْمَاءَهُمْ بِشَفَتَيَّ".

(٨) وفي المزامير لداود ﷺأيضًا (١٨ / ٣٠ ـ ٣١): " الله طَرِيقُهُ كَامِلٌ. قَوْلُ الرَّبِّ نَقِيٌّ. تُرْسٌ هُوَ لِجَمِيعِ الْمُحْتَمِينَ بِهِ. لأَنَّهُ مَنْ هُوَ إِلهٌ غَيْرُ الرَّبِّ؟ وَمَنْ هُوَ صَخْرَةٌ سِوَى إِلهِنا؟ ".

(٩) وفي سفر النبي إشعيا ﷺ (٤٤ / ٦): " هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ وَفَادِيهِ، رَبُّ الْجُنُودِ: «أَنَا الأَوَّلُ وَأَنَا الآخِرُ، وَلاَ إِلهَ غَيْرِي".

(١٠) وفي سفر النبي إشعيا أيضًا (٤٥ / ٧: ٥): " أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ آخَرُ. لاَ إِلهَ سِوَايَ. نَطَّقْتُكَ وَأَنْتَ لَمْ تَعْرِفْنِي. ٦ لِكَيْ يَعْلَمُوا مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ وَمِنْ مَغْرِبِهَا أَنْ لَيْسَ غَيْرِي. أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ

آخَرُ. ٧مُصَوِّرُ النُّورِ وَخَالِقُ الظُّلْمَةِ، صَانِعُ السَّلاَمِ وَخَالِقُ الشَّرِّ. أَنَا الرَّبُّ صَانِعُ كُلِّ هذِهِ".

القسم الثاني: نصوص يبين فيها المسيح بكل وضوح أن الله تعالى إلهه ومعبوده.

(١) في إنجيل يوحنا (٢٠ / ١٧): " قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «لاَ تَلْمِسِينِي لأَنِّي لَمْ أَصْعَدْ بَعْدُ إِلَى أَبِي. وَلكِنِ اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلهِي وَإِلهِكُمْ".

قلت: هذه الآية من أصرح العبارات في نفي عيسى الألوهية عن نفسه؛ إذ كيف يكون إلهًا وهو يعترف ويقر بأن الله تعالى إلهه؟! وهل الله يكون له إله؟ ؟ وهذا هو ما صدَّقه القرآن الكريم حين أكد أن عيسى عليه السلام كان يقول: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٢). ومثله أيضًا ما قاله تعالى عنه عليه السلام أنه سيقول يوم القيامة: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة: ١١٧).

(٢) وفي إنجيل متى (٢٧/ ٤٦)، وإنجيل مرقس (١٥ / ٣٤): " وَنَحْوَ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلًا: «إِيلِي، إِيلِي، لِمَا شَبَقْتَنِي؟ » أَيْ: إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ "

قلت: وهنا أيضًا يبين عيسى المسيح عليه السلام أن الله تعالى إلهه، ويستغيث بإلهه هذا بتكرار وتضرع، فأين هذا ممن يدعي أن عيسى المسيح نفسه كان هو الله تعالى؟!

(٣) وفي رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس (١ / ٣ و١٦ ـ ١٧): " مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ،. . . . . لاَ أَزَالُ شَاكِرًا لأَجْلِكُمْ، ذَاكِرًا إِيَّاكُمْ فِي صَلَوَاتِي، ١٧كَيْ يُعْطِيَكُمْ إِلهُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الْمَجْدِ، رُوحَ الْحِكْمَةِ وَالإِعْلاَنِ فِي مَعْرِفَتِهِ، " قلت: فوصف بولسُ الله تعالى بأنه أبو المسيح، ثم وصفه بإله المسيح، مما يفيد بكل وضوح أن يسوع المسيح عبدٌ لله وليس بإله، إذ لو كان المسيح إلها لما قال بولس أن الله تعالى إلهه، لأن " الإله " أزلي واجب الوجود لا خالق ولا إله له، وهذا من أوضح الواضحات! !

(٤) ومن ذلك ما جاء في متى في وصف المسيح "هو ذا عبدي" (متى ١٢/ ١٨)، وفي سفر أعمال الرسل "قد مجد عبده يسوع. . القدوس البار" (أعمال ٣/ ١٣-١٤)، "فإليكم أولا

أرسل الله عبده" (أعمال ٣/ ٢٦)، وفي موضع آخر: "عبدك القديس يسوع " (أعمال ٤/ ٣٠).

وقد استبدلت لفظة (عبد) في التراجم العربية الحديثة بكلمة "فتى" الموهمة للعبودية أو البنوة، وذلك في التراجم العربية المختلفة، فيما تستخدم التراجم الإنجليزية كلمة (servant)، والتي تعني خادم أو عبد.

وكتوضيح لهذا الصنيع الموهم ننقل قول متى: "لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل: هوذا فتاي الذي اخترته، حبيبي الذي سرت به نفسي، أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق" (متى ١٢/ ١٧-١٨)، فاستخدم كلمة (فتى)، فيما استخدم سفر إشعيا الذي نقل منه متى كلمة (عبد)، فيقول: "هوذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم" (إشعيا ٤٢/ ١).

القسم الثالث: نصوص تبين عبادة المسيح لله ﷻ، وإكثاره من الصلاة له تبارك وتعالى.

(١) في إنجيل متى (١٤ / ٢٣ ـ و٢٥) "و بعد ما صفَّ الجموع، صعَد (أي المسيح) إلى الجبل منفردًا ليصلي. ولما صار المساء كان هناك وحده. وفي الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشيا على البحر! ".

قلت: من هذا النص يتبين أمران: أولًا: أن سيدنا المسيح ﵇كان يحبِّذ الصلاة منفردًا؛ مما يفيد أن هذه الصلاة كانت فعلا لرغبته بعبادة الله تعالى، لا لمجرد تعليم التلاميذ.

ثانيًا: أنه ﵇ كان يقضي أحيانًا أكثر النهار وأكثر الليل في الصلاة، كما يفيده قوله: " ولما صار المساء "، وقوله: " وفي الهزيع الرابع من الليل " الذي يفيد أنه إلى ذلك الوقت كان لا يزال منفردًا لوحده مستيقظًا مشغولًا بالصلاة والمناجاة والعبادة. والنصوص الأخرى التالية تؤكد هذا المعنى:

(٢) في إنجيل مرقس (١/ ٣٥): " وَفِي الصُّبْحِ بَاكِرًا جِدًّا قَامَ وَخَرَجَ وَمَضَى إِلَى مَوْضِعٍ خَلاَءٍ، وَكَانَ يُصَلِّي هُنَاكَ.

(٣) وفي إنجيل لوقا (٥/ ١٦): " وأما هو (أي عيسى) فكان يعتزل في البراري ويصلي ".

(٤) وفي إنجيل لوقا (٦ / ١٢) في تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي وقضى الليل كله في الصلاة لله

(٥) وفي لوقا (٩/ ٢٦) أيضًا: " وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد على جبل ليصلي، وفيما هو يصلي صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضا لامعًا ".

(٦) وفي إنجيل لوقا أيضًا (٩ / ١٨): " وَفِيمَا هُوَ يُصَلِّي عَلَى انْفِرَادٍ كَانَ التَّلاَمِيذُ مَعَهُ".

(٧) وفي إنجيل لوقا كذلك (١١ / ١): " وَإِذْ كَانَ يُصَلِّي فِي مَوْضِعٍ، لَمَّا فَرَغَ، قَالَ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ: «يَارَبُّ، عَلِّمْنَا أَنْ نُصَلِّيَ كَمَا عَلَّمَ يُوحَنَّا أيضًا تَلاَمِيذَهُ"».

(٨) وفي إنجيل متى (٢٦ / ٣٦): " حِينَئِذٍ جَاءَ مَعَهُمْ يَسُوعُ إِلَى ضَيْعَةٍ يُقَالُ لَهَا جَثْسَيْمَانِي، فَقَالَ لِلتَّلاَمِيذِ: «اجْلِسُوا ههُنَا حَتَّى أَمْضِيَ وَأُصَلِّيَ هُنَاكَ»".

(٩) وفي إنجيل متى أيضًا (٢٦/ ٣٩ ـ ٤٤): " ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ، وَلكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ». ثُمَّ جَاءَ إِلَى التَّلاَمِيذِ فَوَجَدَهُمْ نِيَامًا، فَقَالَ لِبُطْرُسَ: «أَهكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا مَعِي سَاعَةً وَاحِدَةً؟ اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ. أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ وَأَمَّا الْجَسَدُ فَضَعِيفٌ». فَمَضَى أيضًا ثَانِيَةً وَصَلَّى قَائِلًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ إِلاَّ أَنْ أَشْرَبَهَا، فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ». ثُمَّ جَاءَ فَوَجَدَهُمْ أيضًا نِيَامًا، إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ثَقِيلَةً. فَتَرَكَهُمْ وَمَضَى أيضًا وَصَلَّى ثَالِثَةً قَائِلًا ذلِكَ الْكَلاَمَ بِعَيْنِهِ. "

(١٠) ويصور لوقا صلاته عليه السلام، فيقول: " جثا على ركبتيه وصلى" (لوقا ٢٢/ ٤١). وذات يوم وقبل اختياره للتلاميذ " خرج إلى الجبل ليصلي، وقضى الليل كله في الصلاة لله، ولما كان النهار دعا تلاميذه" (لوقا ٦/ ١٢) فلمن كان الإله يصلي طوال الليل منفردًا؟ وكان يصلي متواريًا، وصار عرقه كعبيط الدم، يقول لوقا: "وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض، ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه" (لوقا

٢٢/ ٤٤)، يقول يوحنا ذهبي الفم: "من ذا لا يتعجب عندما يرى الله جاثيًا ومصليًا"[١].

ومن تضرعه واستغاثته بربه، ما ذكره يوحنا عن حال المسيح عليه السلام عندما أحيا لعازر " ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها الآب أشكرك، لأنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت، ليؤمنوا أنك أرسلتني" (يوحنا ١١/ ٤٠-٤١).

والتضرع والعبادة نوع من دلائل العبودية لا يجوز نسبته إلى الله أو للمتحد معه؛ إذ الأناجيل شهدت بعبوديته والتزامه بناموس موسى عليه السلام في سائر أحواله.

ويتحدث بولس عن انتصار المسيح عليه السلام على الكل بما فيهم الموت، ثم يذكر خضوعه بعد ذلك لله، فيقول: "متى أخضع له الكل، فحينئذ الابن نفسه أيضًا سيخضع للذي أخضع له الكل (لله)، كي يكون الله الكل في الكل" (كورنثوس (١) ١٥/ ٢٨). قلت: من تلك النصوص يظهر مدى اهتمام عيسى بالصلاة لله عز وجلَّ، وأن الصلاة كانت عبادة محببة له ومفزع يلجأ إليه عند الملمات، وأنه كان في الغالب يصعد للهضاب؛ ليصلي لوحده منفردا، يقضي بذلك أحيانًا أكثر الليل وأكثر النهار أيضًا.

و نسأل القارىء المنصف: هل الله تعالى يصلي؟ ؟ وإن صلَّى فلمن يصلي؟ ألنفسه؟! وهل هذا يمكن أن يقول به مجنونٌ فضلا عن عاقل؟! إذن أليست تلك النصوص دلائل بينة وقاطعة على نفي إلهية عيسى وتأكيد عبوديته لله الواحد القهار؟ ؟

القسم الرابع: الله تعالى أعظم من المسيح: (١) في إنجيل يوحنا (١٤ / ٢٨) يقول السيد المسيح عليه السلام لتلاميذه: " سَمِعْتُمْ أَنِّي قُلْتُ لَكُمْ: أَنَا أَذْهَبُ ثُمَّ آتِي إِلَيْكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الآبِ، لأَنَّ أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي. " قلت: الجملة الأخيرة صريحة في نفي عيسى عليه السلام الألوهية عن نفسه؛ لأنه لو كان إلها ـ كما يدعون ـ لكان كاملًا مطلقًا، والكامل المطلق لا يوجد من هو أعظم منه، في حين أن المسيح عليه السلام

---

(١) الرأي الصريح في طبيعة ومشيئة المسيح، القمص غبريال عبد المسيح ص (٥٨).

يثبت أن الآب (أي الله تعالى) أعظم منه.

وهذا النص أيضًا يبين خطأ دستور الإيمان الذي أقره مجمع نيقية، والذي نص على التساوي بين الآب والابن. سبحان الله! رسول الله عيسى المسيح عليه السلام ينفي التساوي بينه وبين الله، ويبين أن الله تعالى أعظم منه، وآباء مجمع نيقية يصرون على تساويهما، فأيهما نصدق؟

(٢) وفي رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (١٥ / ٢٨): " وَمَتَى أُخْضِعَ لَهُ (أي الله) الْكُلُّ، فَحِينَئِذٍ الابْنُ نَفْسُهُ أيضًا سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ، كَيْ يَكُونَ اللهُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ. "

قلت: ففي هذا النص، يبين بولس أن المسيح سيخضع في النهاية لله، وهذا بحد ذاته من أوضح الأدلة على عدم إلهية المسيح لأن الإله لا يخضع لأحد، كما أن في قوله: " سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ "، دلالة أخرى على عدم إلهية المسيح لأن مفاد هذه الجملة أن الله تعالى هو الذي كان قد أخضع للمسيح كل شيء، مما يعني أن المسيح لم يكن يستطع، بذاته ومستقلًا عن الله، أن يسخر ويخضع الأشياء. فهل مثل هذا يكون إلهًا؟!!

القسم الخامس: نصوص يؤكد فيها المسيح محدودية علمه: (١) في إنجيل مرقس (١٣ / ٣٢) يقول المسيح عن يوم القيامة: " وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ، وَلاَ الابْنُ، إِلاَّ الآبُ. ".

(٢) وفي إنجيل متى (٢٤ / ٣٦)، قول عيسى أيضًا: " وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلاَ مَلاَئِكَةُ السَّمَاوَاتِ، إِلاَّ أَبِي وَحْدَهُ ". قلت: هذا النص من أوضح الأدلة على نفي إلهية المسيح عليه السلام؛ لأن المسيح حصر علم قيام الساعة بأبيه الله تعالى وحده فقط، ونفي هذا العلم عن نفسه وعن سائر عباد الله الآخرين من الملائكة وغيرهم، وسوى بين نفسه وبين سائر المخلوقات في انتفاء العلم بالساعة، وهذا ما صدقه القرآن الكريم أيضًا حين أكد انحصار علم الساعة بالله تعالى وحده كما جاء في قوله تعالى مثلًا: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى . . ﴾ (الأعراف: ١٨٧)، وهذا من أوضح الأدلة على بشرية عيسى عليه السلام المحضة، لأنه لو كان إلها؛ لكان علمه محيطًا بكل

شيء ومساويًا لعلم الآب في كل شيء. هذا، ولما لم يكن العلم من صفات الجسد، فلا يجري فيه عذر أساقفة النصارى المشهور بأنه " نفى العلم باعتبار جسميته وناسوته "! لأن العلم ليس من صفات الجسد بل من صفات الروح. فظهر من ذلك بشريته المحضة عدم وجود أي طبيعة إلهية في المسيح ﷺ إذ لو وجدت لما جهل هذه الأمور.

(٣) في إنجيل متى (٢١ / ١٨ ـ ١٩): " وَفِي الصُّبْحِ إِذْ كَانَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ جَاعَ، ١٩ فَنظَرَ شَجَرَةَ تِينٍ عَلَى الطَّرِيقِ، وَجَاءَ إِلَيْهَا فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا شَيْئًا إِلاَّ وَرَقًا فَقَطْ. فَقَالَ لَهَا: «لاَ يَكُنْ مِنْكِ ثَمَرٌ بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ! ".

وفي إنجيل مرقس (١١/ ١٢-١٤): (وفي الغد لما خرجوا من بيت عنيا جاع، فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق وجاء لعله يجد فيها شيئا فلما جاء إليها لم يجد شيئا إلا ورقا لأنه لم يكن وقت التين فأجاب يسوع وقال لها: لا يأكل أحد منك ثمرًا بعد إلى الأبد وكان تلاميذه يسمعون).

هذا النص يبين أن سيدنا عيسى ﷺلما رأى الشجرة من بعيد، لم يدر ولم يعلم أنها في الواقع غير مثمرة، بل توقع لأول وهلة أن تكون مثمرة، لذلك ذهب باتجاهها، لكن لما اقترب منها ظهر له أنها غير مثمرة فعند ذلك غضب عليها ولعنها!. وفي هذا عدة دلائل واضحة على نفي إلهية عيسى ﷺ:

أولًا: عدم علمه منذ البداية بخلو الشجرة من الثمر يؤكد بشريته المحضة؛ لأن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وثانيًا: كونه جاع تأكيد آخر أنه بشر محض، يحتاج للغذاء للإبقاء على حياته، فإن قالوا بأنه جاع بحسب ناسوته، قلنا أفلم يكن لاهوته قادرا على إمداد ذلك الناسوت (أي الجسد)؟! خاصة أنكم تدعون أن اللاهوت طبيعة دائمة له وحاضرة لا تنفك عنه! !.

وثالثًا: أنه لما وجد الشجرة غير مثمرة لعنها وبقي جائعا! ولو كان إلها لكان عوضا عن أن يلعنها ويبقى جائعا، يأمرها أمرا تكوينيا أن تخرج ثمرها على الفور؛ لأن الله لا

يعجزه شيء، بل يقول للشيء كن فيكون، فكيف يُصْرَفون عن هذه الدلائل الواضحات والآيات البينات! وهل بعد الحق إلا الضلال؟

ومنها عدم علم المسيح عليه السلام **بأشياء كثيرة**، أهمها جهله بيوم القيامة، فقد قال: "أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآب" (مرقس ١٣/ ٣٢)، فكيف تدعي النصارى بعد ذلك ألوهيته، فالجهل بالغيب مبطل لها. وليس ما يجهله المسيح هو موعد القيامة فحسب، بل كل ما غاب عنه فهو غيب يجهله إلا ما أطلعه الله عليه، ولذلك نجده عندما أراد إحياء لعازر يسأله " فانزعج بالروح واضطرب وقال: أين وضعتموه؟ " (يوحنا ١١/ ٣٣-٣٤). ولما جاءه رجل يريد منه شفاء ابنه من الجنون " فسأل أباه: كم من الزمان منذ أصابه هذا؟ فقال: منذ صباه" (مرقس ٩/ ١١).

القسم السادس: نصوص تفيد ابتداء بعثة المسيح بنزول الملائكة وروح القدس عليه عند اعتماده عن يد النبي يحيى (يوحنا) المعمدان عليه السلام

(١) جاء في إنجيل متى (٣/ ١٣ ـ ١٧): " حِينَئِذٍ جَاءَ يَسُوعُ مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى الأُرْدُنِّ إِلَى يُوحَنَّا لِيَعْتَمِدَ مِنْهُ. وَلكِنْ يُوحَنَّا مَنَعَهُ قَائِلًا: «أَنَا مُحْتَاجٌ أَنْ أَعْتَمِدَ مِنْكَ، وَأَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ! » فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «اسْمَحِ الآنَ، لأَنَّهُ هكَذَا يَلِيقُ بِنَا أَنْ نُكَمِّلَ كُلَّ بِرّ». حِينَئِذٍ سَمَحَ لَهُ. فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ، فَرَأَى رُوحَ الله نَازِلًا مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِيًا عَلَيْهِ، وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلًا: « هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ ". وأقول: من البديهي أنه لو كان المسيح عليه السلام هو الله تعالى نفسه الذي تجسد ونزل لعالم الدنيا ـ كما يدعون ـ لكانت رسالته مبتدئة منذ ولادته، ولكان روح القدس ملازما له باعتباره جزء اللاهوت الذي لا يتجزأ ـ كما يدعون ـ، ولما احتاج إلى من ينزل عليه بالوحي أو الرسالة، ولما كان هناك أي معنى أصلا لابتداء بعثته بهبوط روح القدس عليه، وابتداء هبوط الملائكة صاعدين نازلين بالوحي والرسائل عندما بلغ الثلاثين من العمر، واعتمد على يد يوحنا النبي عليه السلام! ، فهذا النص والنصوص التالية التي تبين كيفية بدء البعثة النبوية للمسيح، لأكبر وأوضح دليل ـ عند ذوي التجرد والإنصاف ـ على بشرية

المسيح المحضة وعدم إلهيته، وأنه ليس الله المتجسد بل عبدٌ رسولٌ ونبيٌّ مبعوثٌ برسالة من الله كسائر الأنبياء والرسل وحسب.

(٢) ولقد استشهد متى في إنجيله، ببشارة كانت قد وردت في سفر إشعيا من العهد القديم فاعتبرها بشارة عن المسيح، وهي تشير أيضًا لنزول روح الله (أي جبريل) على المبشَّر به، ليعلن الحق للأمم: " فَلَمَّا خَرَجَ الْفَرِّيسِيُّونَ تَشَاوَرُوا عَلَيْهِ لِكَيْ يُهْلِكُوهُ، [١٥] فَعَلِمَ يَسُوعُ وَانْصَرَفَ مِنْ هُنَاكَ. وَتَبِعَتْهُ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ فَشَفَاهُمْ جَمِيعًا. [١٦] وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لاَ يُظْهِرُوهُ، [١٧] لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ: [١٨] «هُوَذَا فَتَايَ الَّذِي اخْتَرْتُهُ، حَبِيبِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. أَضَعُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْبِرُ الأُمَمَ بِالْحَقِّ. " (متى: ١٢ / ١٧: ١٤).

والشاهد قوله: أضع روحي عليه، أي أنزل جبريل، روح الله عليه بالوحي؛ فيخبر الأمم بالحق.

(٣) وإلى هذا الشروع بالعمل الرسالي، أشار يوحنا في إنجيله فقال: " وَقَالَ لَهُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تَرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً، وَمَلاَئِكَةَ اللهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ». " يوحنا: ١/ ٥١.

(٤) هذا وقد نقل يوحنا الإنجيلي أيضًا عن النبي يحيى (يوحنا) المعمدان أنه قال لليهود لما تباحثوا معه عن ذاك (أي المسيح) الذي بدأ يعمد الناس، فقال النبي يحيى عليه السلام لهم: " إذًا فرحي قد كمُلَ. ينبغي أن ذلك يزيد وأنا أنقص " (يوحنا: ٣/ ٢٩ ـ ٣). مبينًا بدء رسالة المسيح وتواتر وحي الله تعالى إليه.

(٥) ولننظر ما ذكره لوقا عن بدء بعثة المسيح بنزول روح القدس عليه: " وَلَمَّا اعْتَمَدَ جَمِيعُ الشَّعْبِ اعْتَمَدَ يَسُوعُ أيضًا. وَإِذْ كَانَ يُصَلِّي انْفَتَحَتِ السَّمَاءُ، [٢٢] وَنَزَلَ عَلَيْهِ الرُّوحُ الْقُدُسُ بِهَيْئَةٍ جِسْمِيَّةٍ مِثْلِ حَمَامَةٍ. وَكَانَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ قَائِلًا: «أَنْتَ ابْنِي الْحَبِيبُ، بِكَ سُرِرْتُ وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلاَثِينَ سَنَةً. . . ورجع يسوع من الأردن وهو ممتلئ من الروح القدس " (لوقا: ٣/ ٢١ ـ ٢٣).

ونسأل أصحاب التثليث: أليس هذا النص أوضح دليل على نفي إلهية المسيح، ونفي التثليث؟

فأولًا: لو كان المسيح إلها متجسدًا؛ لما احتاج لروح القدس ليهبط عليه بالرسالة!

وثانيًا: لو كان التثليث حقًا؛ لكان المسيح متحدًا دائمًا وأزلًا مع روح القدس، فما احتاج أن يهبط عليه كحمامة! ولما قال الله تعالى عند اعتماده وابتداء بعثته: هذا ابني الحبيب؛ لأنه من المفروض أنه كان جزء اللاهوت بزعمهم من البداية؛ ولأن الله لا يمكن أن تنفصل عنه إحدى صفاته.

القسم السابع: المسيح يُعرِّف نفسه بأنه نبيٌ ورسولٌ لِلّه، ويؤكد أنه عبدٌ مأمورٌ لا يفعل إلا ما يأمره به الله تعالى، ولا يتكلم إلا بما يسمعه من الله تعالى: البديهي أن المسيح عليه السلام لو كان هو الله تعالى نفسه الذي تجسَّد وصار بشرًا وجاء لعالم الدنيا بنفسه ـ كما استقر عليه دستور الإيمان المسيحي ـ لما صح أن يطلق عليه لقب نبيّ؛ لأن " النبيّ " اسم لشخص منفصل عن الله يُنبيء عن الله تعالى، أي يخبر عنه، بما يسمعه من الله: إما بواسطة الكلام المباشر، أو الوحي الخفي، أو ملكٍ رسول، كذلك لا يصح أن يطلق عليه اسم " رسول "؛ لأن الرسول اسم لشخص منفصل عن الله، يبعثه الله تعالى لأداء مهمة ما، أما الله تعالى لو تجسد فعلًا وصار بنفسه إنسانًا ونزل لعالم الدنيا؛ ليعلن الدين الجديد بنفسه، فلا يكون عندئذٍ رسولًا، إذ ليس ثمة مرسلٍ له، بل في هذه الحالة يكون هو نفسه، وبدون واسطة، قد أخذ على عاتقه مهمة الاتصال بمخاطبيه. وحاصله: أنه لو صح أن المسيح كان الله نفسه متجسدًا، لما صح أن يسمى رسولًا ولا نبيًا. ولكن الحقيقة أن الأناجيل طافحة بالنصوص التي يعرِّفُ المسيح عليه السلام فيها نفسه بأنه " نبيّ " وبأنه " رسول " أرسله الله تعالى للناس، وأن ما يقوله للناس ليس من عند نفسه بل من عند الله الذي أرسله، فتعليمه ليس لنفسه بل للآب الذي أرسله، فهل هناك أصرح من هذا في بيان الغيرية بين عيسى والله تعالى؟ ، وأنهما اثنان: مُنبيء ونبي، ومُرسل ورسول؟!

و فيما يلي بعض ما جاء في هذا المعنى: (١) في إنجيل متى (١٣ / ٥٤ -٥٨): " وَلَمَّا جَاءَ إِلَى وَطَنِهِ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ فِي مَجْمَعِهِمْ حَتَّى بُهِتُوا وَقَالُوا: «مِنْ أَيْنَ لِهذَا هذِهِ الْحِكْمَةُ

وَالْقُوَّاتُ؟ ٥٥ أَلَيْسَ هذَا ابْنَ النَّجَّارِ؟ أَلَيْسَتْ أُمُّهُ تُدْعَى مَرْيَمَ، وَإِخْوَتُهُ يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَسِمْعَانَ وَيَهُوذَا؟ ٥٦ أَوَلَيْسَتْ أَخَوَاتُهُ جَمِيعُهُنَّ عِنْدَنَا؟ فَمِنْ أَيْنَ لِهذَا هذِهِ كُلُّهَا؟ » ٥٧ فَكَانُوا يَعْثُرُونَ بِهِ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ لَهُمْ: «لَيْسَ نَبِيٌّ بِلاَ كَرَامَةٍ إِلاَّ فِي وَطَنِهِ وَفِي بَيْتِهِ». ٥٨ وَلَمْ يَصْنَعْ هُنَاكَ قُوَّاتٍ كَثِيرَةً لِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ " والشاهد في قوله " ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه " حيث عبر عن نفسه بأنه نبي، وهذه الجملة وردت في الأناجيل الأربعة جميعًا.

(٢) وفي إنجيل متى كذلك (١٠ / ٤٠ ـ ٤١) في ذكره لما قاله السيد المسيح عليه السلام للحواريين الاثني عشر حين أرسلهم لدعوة بني إسرائيل وتبشيرهم بالإنجيل: "من يقبلكم يقبلني ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني ومن يقبل نبيًا باسم نبي فأجر نبيٍ يأخذ. "

(٣) في إنجيل لوقا (١٠/ ١٦) في آخر الخطبة التي قالها السيد المسيح عليه السلام للتلاميذ السبعين الذي أرسلهم اثنين اثنين للوعظ والبشارة بالإنجيل في قرى فلسطين، أنه قال لهم: " اَلَّذِي يَسْمَعُ مِنْكُمْ يَسْمَعُ مِنِّي، وَالَّذِي يُرْذِلُكُمْ يُرْذِلُنِي، وَالَّذِي يُرْذِلُنِي يُرْذِلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي ".

(٤) وفي إنجيل لوقا (٤ / ٤٢- ٤٣): " وَلَمَّا صَارَ النَّهَارُ خَرَجَ وَذَهَبَ إِلَى مَوْضِعٍ خَلاَءٍ، وَكَانَ الْجُمُوعُ يُفَتِّشُونَ عَلَيْهِ. فَجَاءُوا إِلَيْهِ وَأَمْسَكُوهُ لِئَلاَّ يَذْهَبَ عَنْهُمْ. ٤٣ فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُبَشِّرَ الْمُدُنَ الأُخَرَ أَيضًا بِمَلَكُوتِ الله، لأَنِّي لِهذَا قَدْ أُرْسِلْتُ ".

(٥) وفي إنجيل يوحنا (٧ / ٢٨- ٢٩): " فَنَادَى يَسُوعُ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ قِائِلًا: «تَعْرِفُونَنِي وَتَعْرِفُونَ مِنْ أَيْنَ أَنَا، وَمِنْ نَفْسِي لَمْ آتِ، بَلِ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَق، الَّذِي أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. ٢٩ أَنَا أَعْرِفُهُ لأَنِّي مِنْهُ، وَهُوَ أَرْسَلَنِي".

(٦) وفيه أيضًا (٨ / ١٦- ١٨): " وَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَدِينُ فَدَيْنُونَتِي حَق، لأَنِّي لَسْتُ وَحْدِي، بَلْ أَنَا وَالآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي. وَأَيضًا فِي نَامُوسِكُمْ مَكْتُوبٌ أَنَّ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ حَق: أَنَا هُوَ الشَّاهِدُ لِنَفْسِي، وَيَشْهَدُ لِي الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي" وفيه كذلك (١٢/ ٤٤-٤٩) فنادى يسوع، وقال الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني. والذي يراني يرى الذي أرسلني، أنا قد جئت نورًا إلى العالم حتى كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة، وإن

سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه لأني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم من رذلني ولم يقبل كلامي فله من يدينه الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير؛ لأني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا اتكلم.

قلت: استشهاد المسيح عليه السلام بحكم التوراة " شهادة رجلين حق " تصريح منه بالغيرية بينه وبين الله تعالى الذي يشهد له، فهما إذن اثنان: مرسِل ورسول، وهذا ينفي بوضوح قضية أن المسيح هو الله نفسه متجسدًا.

والآن إليكم هذه العبارة التي قد تفاجئكم بشدة وضوحها وصراحتها في نفي إلهية عيسى:

(٧) ففي إنجيل يوحنا (٨ / ٤٠): " وَلكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللهِ" أقول: لو لم يكن في الإنجيل سوى هذه الآية لكفى بها دلالة على نفي إلهية عيسى عليه السلام.

(٨) وفيه أيضًا (٨ / ٢٦- ٢٩): " لكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَق. وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ، فَهذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ». وَلَمْ يَفْهَمُوا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ عَنِ الآبِ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي، وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي، لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ".

(٩) وفيه أيضًا: (١٠/ ٣٦): " فَالَّذِي قَدَّسَهُ الآبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ، أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ، لأَنِّي قُلْتُ: إِنِّي ابْنُ اللهِ؟ "

(١٠) وفيه أيضًا: (٢٠/ ٢١): " فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أيضًا: «سَلاَمٌ لَكُمْ! كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ أُرْسِلُكُمْ أَنَا".

قلت: ففي العبارة الأخيرة يماثل سيدنا المسيح عليه السلام بين إرسال الآب له وإرساله هو لتلاميذه للدعوة والتبشير، وبالتالي فكما أن تلاميذه وحوارييه ليسوا عيسى بعينه! فبمقتضى التماثل لا يكون عيسى عليه السلام هو الله بعينه، بل يكون رسوله ومبعوثه.

(١١) **قوله**: " أنتم تدعونني معلّمًا وسيّدًا، وحسنًا تقولون، لأني أنا كذلك" (يوحنا

١٣/ ١٣)، فقد أكد المسيح صحة اعتقاد التلاميذ به، إنهم يرونه معلمًا وسيدًا لهم، وقد شاع تسميته عندهم بالمعلم، "وقال له: يا معلم " (مرقس ١٠/ ٢٠)، أفكان من حسن الأدب أن يترك التلاميذ نداءه بالألوهية وأن ينادوه بهذا النداء المتواضع: معلم.

(١٢) **وقد بدأت نبوته، وهو في سن الثلاثين** "ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة " (لوقا ٣/ ٢٣)، وقد كان ثمة وقت لم ينزل عليه الروح القدس " **لأَنَّ الرُّوحَ الْقُدُسَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِيَ بَعْدُ، لأَنَّ يَسُوعَ لَمْ يَكُنْ قَدْ مُجِّدَ بَعْدُ.** " (يوحنا ٧/ ٣٩).

(١٣) **وشهد المسيح** عليه السلام **لربه بالوحدانية، ولنفسه بالرسالة، فقال: " أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته " (يوحنا ٣/١٧)**:

(١٤) **ولما خوفه الفريسيون من هيرودس قال لهم: " يَنْبَغِي أَنْ أَسِيرَ الْيَوْمَ وَغَدًا وَمَا يَلِيهِ، لأَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَهْلِكَ نَبِيٌّ خَارِجًا عَنْ أُورُشَلِيمَ! ٣٤يَا أُورُشَلِيمُ، يَاأُورُشَلِيمُ! يَا قَاتِلَةَ الأَنْبِيَاءِ وَرَاجِمَةَ الْمُرْسَلِينَ** " (لوقا ١٣/ ٣٣-٣٤)، فشهد لنفسه بالنبوة، وخاف من مصرعه في أورشليم كما صرع فيها غيره من الأنبياء، فغادر أورشليم، وناداها: " **يَا قَاتِلَةَ الأَنْبِيَاءِ** " ولم يقل لها: يا قاتلة الإله.

ولما أظهر المعجزات لقومه قرنها بدعوى نبوته قائلًا وهو يناجي الله: " ولكن أسألك من أجل هذه الجماعة، ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتني " (يوحنا ١١/ ٢٦).

(١٥) **وهو في كل ما يقوله عن الله معصوم لأنه ينطق بالوحي**، فقد قال: " **وَالْكَلاَمُ الَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لِي بَلْ لِلآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي** " (يوحنا ١٤/ ٢٨)، وفي موضع آخر: " **تَعْلِيمِي لَيْسَ لِي بَلْ لِلَّذِي أَرْسَلَنِي**. (يوحنا ٧/ ١٦). وقال: " **وَلاَ رَسُولٌ أَعْظَمَ مِنْ مُرْسِلِهِ** " (يوحنا ١٣/ ١٦).

وفيما يلي بعض النصوص التي يبين فيها المسيح عليه السلام **أنه لا يتكلم من نفسه بل هو حامل لرسالة من الله مأمور بتبليغها للناس، وأنه لا يعلم إلا ما يوحى إليه:**

(١) في إنجيل يوحنا (١٤/ ٢٤): " اَلَّذِي لاَ يُحِبُّنِي لاَ يَحْفَظُ كَلاَمِي. وَالْكَلاَمُ الَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لِي بَلْ لِلآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي ".

(٢) وفيه أيضًا: (١٥/ ١٥) " لكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ لأَنِّي أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي ".

(٣) وفيه كذلك (١٢ / ٤٩- ٥٠): " لأَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ أَعْطَانِي وَصِيَّةً ".

(١٦) ومما يبطل قول النصارى بألوهية المسيح، النصوص التي جعلته رسولًا خاصًا إلى بني إسرائيل، والإله لا يكون خاصًا بأمة دون أمة:

أ- ومن ذلك قوله: " لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ " (متى١٠/ ٦). ومثله قصة المرأة الكنعانية التي رفض شفاء ابنتها أول مرة، لأنها ليست من شعبه. (انظر متى ١٥/ ٢١-٢٨).

ب- ومثله الوعد الذي وعده كما جاء في لوقا "وسيعطيه الرب الإله عرش داود أبيه، ويملك على آل يعقوب إلى الأبد" (لوقا ١/ ٣٢-٣٣)، فهل هو إله خاص ببني إسرائيل أم رسول خاص بهم؟ فلو كان إلهًا لما صح اختصاصه بشعب دون شعب، فهذا شأن الأنبياء.

(١٧) ونبوته عليه السلام **هي معتقد الناس عامة فيه**، وقد صرحوا بذلك أمامه فلم يخطئهم:

أ- فعندما أحيا المسيح ابن الأرملة في نايين " فَأَخَذَ الْجَمِيعَ خَوْفٌ، وَمَجَّدُوا اللهَ قَائِلِينَ: «**قَدْ قَامَ فِينَا نَبِيٌّ عَظِيمٌ**، وَافْتَقَدَ اللهُ شَعْبَهُ» " (لوقا ٧/ ١٦).

ب- ولما أطعم الخمسة آلاف إنسان من خمسة أرغفة قالوا: " **فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ الآيَةَ الَّتِي صَنَعَهَا يَسُوعُ قَالُوا: «إِنَّ هذَا هُوَ بِالْحَقِيقَةِ النَّبِيُّ الآتِي إِلَى الْعَالَمِ!** " (يوحنا ٦/ ١٤).

(١٨) وقد قال بولس معترفًا برسالته وبشريته: " **لأَنَّهُ يُوجَدُ إِلهٌ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ: الإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ** " (تيموثاوس (١) ٢/ ٥).

(١٩) وقد صدق السير آرثر فندلاي في قوله في كتابه "الكون المنشور": "لا يعتبر عيسى إلهًا أو مخلصًا، **إنما هو رسول من الله خدم في حياته القصيرة** في علاج المرضى وبشر بالحياة الأخرى، وعلم بأن الحياة الدنيا ما هي إلا إعداد للملكوت الإلهي بحياة أفضل لكل من عمل صالحًا".

القسم الثامن: نصوص تؤكد أن المسيح لم يكن يمتلك بذاته أي قدرة تشريعية أو تكوينية:

فالذي أوتيه، إنما دُفع إليه من قبل الله تعالى من البديهيات التي لا نقاش فيها أن من

صفات الله ﷻ الضرورية اللازمة: القدرة الكلية التامة، أي أن الله قادر على جميع الممكنات وأن قدرته نابعة من ذاته وغير مكتسبة، بمعنى أن الله تعالى قادر وفاعل بالذات وبالاستقلال المطلق، فلا يحتاج في قدرته وأفعاله لمساعدة أي قدرة أخرى ولا إلى مدد أي شيء آخر، فهل هكذا كان شأن المسيح عليه السلام؟ كلا، على الإطلاق.

إن الأناجيل الأربعة تنقل عن سيدنا المسيح عليه السلام نفسه تصريحات متكررة يعلن فيها بكل وضوح أنه كان لا يقدر أن يفعل من نفسه شيئًا، ولا يفعل إلا ما أقدره الله تعالى عليه وأمره به، وأن ما لديه من سلطان وما أوتيه من قوة، هو مما منحه الله تعالى ودفعه إليه. وفي كل هذا نفي صريح لإلهية المسيح عليه السلام وتأكيد واضح لعبوديته لله ﷻ وافتقاره إليه. وفيما يلي بعض النصوص في هذا المجال:

(١) جاء في إنجيل يوحنا: (٥/ ١٩): " فأجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم: لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئًا إلا ما ينظر الآب يعمل".

(٢) وفيه أيضًا في نفس الإصحاح (٥/ ٣٠): " أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئًا. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ، وَدَيْنُونَتِي عَادِلَةٌ، لأَنِّي لاَ أَطْلُبُ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي".

(٣) وفي نفس الإصحاح أيضًا (٥ / ٣٦): " **وَأَمَّا أَنَا فَلِي شَهَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا، لأَنَّ الأَعْمَالَ الَّتِي أَعْطَانِي الآبُ لأُكَمِّلَهَا، هذِهِ الأَعْمَالُ بِعَيْنِهَا الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا هِيَ تَشْهَدُ لِي أَنَّ الآبَ قَدْ أَرْسَلَنِي** ". ويؤكد هذا المعنى فيقول: " **قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. ٢٩وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي، وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي، لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ** " (يوحنا ٨/ ٢٨).

(٤) وفي إنجيل يوحنا (٣/ ٣٥): "**اَلآبُ يُحِبُّ الابْنَ وَقَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي يَدِهِ.** ".

(٥) و في إنجيل متى (٢٨ / ١٨): " فَتَقَدَّمَ يَسُوعُ وَكَلَّمَهُمْ قَائِلًا: «دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ ".

(٦) وفي إنجيل لوقا (١٠ / ٢١- ٢٢): والتفت (أي المسيح) إلى تلاميذه وقال: كل

شيء قد دُفِعَ إليَّ من أبي. [(١)]

القسم التاسع: نصوص تفيد أن المعجزات التي كان يصنعها المسيح عليه السلام لم يكن يفعلها بقوته الذاتية المستقلة بل كان يستمدها من الله، و يفعلها بقوة الله: أي أن الفاعل الحقيقي لها كان الله عز وجل، الذي أظهرها علي يدي المسيح عليه السلام لتكون شاهدًا له على صحة نبوته.

(١) من المعروف أن معجزة إحياء الموتى، كانت أحد أعظم معجزات السيد المسيح عليه السلام، فهل كان يفعلها بقوته الذاتية؟ أبدًا. فها هو إنجيل يوحنا يروي لنا معجزة إحياء المسيح لشخص مضى على وفاته أربعة أيام يدعى " عازر "، فيبين بوضوح أن هذه المعجزة ما حصلت إلا بعد أن تضرع المسيح لله عز وجل و طلب منه تحقيق هذه المعجزة؛ ليؤمن الناس به ويصدقوا أن الله تعالى أرسله، فسمعه الآب (الله) واستجاب له وأعطاه تلك المعجزة العظيمة. وإليك نص عبارته كما جاءت في يوحنا (١١/ ٤١ ـ ٤٤): " فَرَفَعُوا الْحَجَرَ حَيْثُ كَانَ الْمَيْتُ مَوْضُوعًا، وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ، وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ، لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي». وَلَمَّا قَالَ هذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «لِعَازَرُ، هَلُمَّ خَارِجًا! » فَخَرَجَ الْمَيْتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلاَهُ مَرْبُوطَاتٌ بِأَقْمِطَةٍ، وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيل. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ»". وكذلك روى متى ولوقا في إنجيليهما عن المسيح عليه السلام أنه إنما كان يخرج الشياطين من المصروعين والمجانين لا بقوته الذاتية ولكن بروح الله أو بإصبع الله. ففي إنجيل متى (١٢ / ٢٤– ٢٨): " أَمَّا الْفَرِّيسِيُّونَ فَلَمَّا سَمِعُوا قَالُوا: «هذَا لاَ يُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ إِلاَّ بِبَعْلَزَبُولَ رَئِيسِ الشَّيَاطِينِ». فَعَلِمَ يَسُوعُ أَفْكَارَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «كُلُّ مَمْلَكَةٍ مُنْقَسِمَةٍ عَلَى ذَاتِهَا تُخْرَبُ، وَكُلُّ مَدِينَةٍ أَوْ بَيْتٍ مُنْقَسِمٍ عَلَى ذَاتِهِ لاَ يَثْبُتُ. فَإِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ يُخْرِجُ الشَّيْطَانَ فَقَدِ انْقَسَمَ عَلَى ذَاتِهِ. فَكَيْفَ تَثْبُتُ مَمْلَكَتُهُ؟ وَإِنْ كُنْتُ أَنَا بِبَعْلَزَبُولَ أُخرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَأَبْنَاؤُكُمْ بِمَنْ يُخْرِجُونَ؟ لِذلِكَ هُمْ يَكُونُونَ قُضَاتَكُمْ! وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ أَنَا بِرُوحِ الله أُخْرِجُ

(١) انظر كتاب الله جل جلاله واحد أو ثلاثة ١/ ٨٢، والأناجيل والعقيدة لبهاء النحال ١/ ٩٧.

الشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ الله ".

وفي إنجيل لوقا: (١١/ ٢٠) " وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ بِأَصْبعِ الله أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ الله ".

(٣) في إنجيل يوحنا (٥/ ٣٦) قول عيسى ﵇: " وَأَمَّا أَنَا فَلِي شَهَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا، لأَنَّ الأَعْمَالَ الَّتِي أَعْطَانِي الآبُ لأُكَمِّلَهَا، هذِهِ الأَعْمَالُ بِعَيْنِهَا الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا هِيَ تَشْهَدُ لِي أَنَّ الآبَ قَدْ أَرْسَلَنِي".

قلت: والعبارة في غاية الدلالة والوضوح، ولا تحتاج لتعليق. كان هذا ما قاله المسيح عن معجزاته، وأما أصحاب عيسى فإنهم يؤكدون أن هذه المعجزات إنما هي من سلطان الله الذي أوتيه بالرسالة والوحي.

(أ) في سفر أعمال الرسل (٢ / ١٤: ٢٢): " فَوَقَفَ بُطْرُسُ مَعَ الأَحَدَ عَشَرَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ وَقَالَ لَهُمْ: «. . . أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ اسْمَعُوا هذِهِ الأَقْوَالَ: يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ رَجُلٌ قَدْ تَبَرْهَنَ لَكُمْ مِنْ قِبَلِ الله بِقُوَّاتٍ وَعَجَائِبَ وَآيَاتٍ صَنَعَهَا الله بِيَدِهِ فِي وَسْطِكُمْ، كَمَا أَنْتُمْ أيضًا تَعْلَمُونَ ".

(ب) وفي إنجيل متى (٩ / ٦– ٨): " حِينَئِذٍ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «قُمِ احْمِلْ فِرَاشَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ!» [٧] فَقَامَ وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ. [٨] فَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعُ تَعَجَّبُوا وَمَجَّدُوا الله الَّذِي أَعْطَى النَّاسَ سُلْطَانًا مِثْلَ هذَا ".

(ج) وفي إنجيل يوحنا (٣ / ١ ـ ٢): " كَانَ إِنْسَانٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ اسْمُهُ نِيقُودِيمُوسُ، رَئِيسٌ لِلْيَهُودِ. [٢] هذَا جَاءَ إِلَى يَسُوعَ لَيْلًا وَقَالَ لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنَ الله مُعَلِّمًا، لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ هذِهِ الآيَاتِ الَّتِي أَنْتَ تَعْمَلُ إِنْ لَمْ يَكُنِ الله مَعَهُ ".

(د) وفي إنجيل يوحنا أيضًا (٩ / ٣٠ ـ ٣٣) يقول الأعمى من الولادة (أي الأكمه)، الذي أبرأ عيسى ﵇ عينيه، لليهود الذين جاءوا إليه يجادلونه بسبب إيمانه بنبوّة عيسى ﵇: " أَجَابَ الرَّجُلُ وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ فِي هذَا عَجَبًا! إِنَّكُمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ هُوَ، وَقَدْ

فَتَحَ عَيْنَيَّ. ³¹وَنَعْلَمُ أَنَّ اللهَ لاَ يَسْمَعُ لِلْخُطَاةِ. وَلكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي اللهَ وَيَفْعَلُ مَشِيئَتَهُ، فَلِهذَا يَسْمَعُ ". قلت: فقول هذا المؤمن: " وَلكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي اللهَ وَيَفْعَلُ مَشِيئَتَهُ، فَلِهذَا يَسْمَعُ " يؤكد أن عقيدته هي: أن الله تعالى هو الذي سمع لدعاء عبده المتقي عيسى؛ فأيده بهذه المعجزة وغيرها.

(هـ) وفي إنجيل يوحنا (١١/ ٢٢: ٢١) تقول مرثا (أخت لِعَازَر) للمسيح عليه السلام بعد موت أخيها، وقبل أن يحييه المسيح بإذن الله: " فَقَالَتْ مَرْثَا لِيَسُوعَ: «يَا سَيِّدُ، لَوْ كُنْتَ ههُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي! لكِنِّي الآنَ أَيْضًا أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنَ اللهِ يُعْطِيكَ اللهُ إِيَّاهُ ". قلت: والجملة الأخيرة في غاية الوضوح في الدلالة على ما قلناه.

القسم العاشر: نصوص فيها استغاثة المسيح بالله عز وجل وطلبه من الله تعالى المدد والعون.

ودعاؤه الله تعالى لنفسه ولأجل تلاميذه؛ مما يبين افتقار عيسى عليه السلام لله تعالى وعدم استغنائه بنفسه.

(١) ففي إنجيل لوقا (٢٢ / ٣٩ ـ ٤٤): " وَخَرَجَ وَمَضَى كَالْعَادَةِ إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ، وَتَبِعَهُ أَيْضًا تَلاَمِيذُهُ. وَلَمَّا صَارَ إِلَى الْمَكَانِ قَالَ لَهُمْ: «صَلُّوا لِكَيْ لاَ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ». وَانْفَصَلَ عَنْهُمْ نَحْوَ رَمْيَةِ حَجَرٍ وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَصَلَّى قَائِلًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تُجِيزَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ. وَلكِنْ لِتَكُنْ لاَ إِرَادَتِي بَلْ إِرَادَتُكَ». وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُقَوِّيهِ. وَإِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ كَانَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ لَجَاجَةٍ، وَصَارَ عَرَقُهُ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ". ونقل مرقس في إنجيله (١٤ / ٣٣ ـ ٣٦)، تضرُّعَ عيسى عليه السلام بصورة أشد وضوحًا في الاستمداد والاعتراف بالعجز وكون الاستطاعة بيد الله تعالى فقط، فقال: " وَابْتَدَأَ يَدْهَشُ وَيَكْتَئِبُ. ³⁴فَقَالَ لَهُمْ: «نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ! اُمْكُثُوا هُنَا وَاسْهَرُوا». ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى الأَرْضِ، وَكَانَ يُصَلِّي لِكَيْ تَعْبُرَ عَنْهُ السَّاعَةُ إِنْ أَمْكَنَ. وَقَالَ: «يَا أَبَا الآبُ، كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَكَ، فَأَجِزْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ. وَلكِنْ لِيَكُنْ لاَ مَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ ".

أما يوحنا فنقل في إنجيله (١٢/ ١٧) عن عيسى عليه السلام قوله هنا: " **أَيُّهَا الآبُ نَجِّنِي مِنْ**

هٰذِهِ السَّاعَةِ؟ ".

فأقول: هل الله يحتاج لنجدة غيره؟ أو يضطر للاستعانة بغيره والتضرع إليه؟ ؟ أو ليس الله بنفسه على كل شيء قدير؟! فلو كان سيدنا عيسى عليه السلام إلهًا كما زُعِمَ فما معنى تضرعه إلى الله وسؤاله إياه أن يكشف عنه الكرب وينقذه من المصيبة المحيطة به؟!.

(٢) وفي إنجيل لوقا: (٢٣/ ٣٤): " فَقَالَ يَسُوعُ: «يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ ".

(٣) وفي إنجيل متى (٢٦ / ٥٠ ـ ٥٤): " حِينَئِذٍ تَقَدَّمُوا وَأَلْقَوْا الأَيَادِيَ عَلَى يَسُوعَ وَأَمْسَكُوهُ. وَإِذَا وَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَ يَسُوعَ مَدَّ يَدَهُ وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَقَطَعَ أُذْنَهُ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ! أَتَظُنُّ أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيُقَدِّمَ لِي أَكْثَرَ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ جَيْشًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؟ فَكَيْفَ تُكَمَّلُ الْكُتُبُ: أَنَّهُ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ؟ ".

قلت: الشاهد في قول المسيح عليه السلام: " أَتَظُنُّ أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيُقَدِّمَ لِي " الذي هو دليل واضح على نفي إلهية عيسى؛ لأن الإله لا يستعين بغيره ولا يطلب شيئا من سواه، ولو كان المسيح إلهًا لقال عوضًا عن ذلك: " أتظن أني لا أستطيع الآن أن أحضر أكثر من اثني عشر جيشا من الملائكة. . . " أو قال " أتظن أنني لا أستطيع أن أقضي عليهم جميعا بأمر كن فيكون؟!. . . " الخ. أما قوله: أستطيع أن أطلب من أبي فيدل على أنه عبدٌ لله تعالى محتاج دائمًا لنصره ومدده.

(٤) في إنجيل يوحنا (١٤ / ١٥ ـ ١٦): " إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ، وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ " والشاهد هو قوله: " وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ " مما يثبت احتياج عيسى عليه السلام لله تعالى، وأنه لا يقدر من نفسه على أن يفعل ما يريد بل يطلب ذلك من ربه سبحانه وتعالى.

(٥) يشتمل الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا على دعاء طويل لعيسى عليه السلام

يرفعه إلى ربه تعالى ضارعا له، سائلًا إياه أن ينجده وأن يحفظ تلاميذه ويقدسهم ويحفظهم من الشرير. . . الخ، وهذا الدعاء يُعْرَف بِاسم: الدعاء لأجل التلاميذ وبِاسم: صلاة يسوع الكهنوتية، وهذا نص الدعاء: تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهذَا وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ. مَجِّدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أَيضًا، ٢ إِذْ أَعْطَيْتَهُ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ. ٣ وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ. ٤ أَنَا مَجَّدْتُكَ عَلَى الأَرْضِ. الْعَمَلَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ. ٥ وَالآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ. ٦ «أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ الْعَالَمِ. كَانُوا لَكَ وَأَعْطَيْتَهُمْ لِي، وَقَدْ حَفِظُوا كَلاَمَكَ. ٧ وَالآنَ عَلِمُوا أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَيْتَنِي هُوَ مِنْ عِنْدِكَ، ٨ لأَنَّ الْكَلاَمَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ، وَهُمْ قَبِلُوا وَعَلِمُوا يَقِينًا أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ، وَآمَنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي. ٩ مِنْ أَجْلِهِمْ أَنَا أَسْأَلُ. لَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ الْعَالَمِ، بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لأَنَّهُمْ لَكَ. ١٠ وَكُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ، وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي، وَأَنَا مُمَجَّدٌ فِيهِمْ. ١١ وَلَسْتُ أَنَا بَعْدُ فِي الْعَالَمِ، وَأَمَّا هؤُلاَءِ فَهُمْ فِي الْعَالَمِ، وَأَنَا آتِي إِلَيْكَ. أَيُّهَا الآبُ الْقُدُّوسُ، احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ. ١٢ حِينَ كُنْتُ مَعَهُمْ فِي الْعَالَمِ كُنْتُ أَحْفَظُهُمْ فِي اسْمِكَ. الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي حَفِظْتُهُمْ، وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ ابْنُ الْهَلاَكِ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ. ١٣ أَمَّا الآنَ فَإِنِّي آتِي إِلَيْكَ. وَأَتَكَلَّمُ بِهذَا فِي الْعَالَمِ لِيَكُونَ لَهُمْ فَرَحِي كَامِلًا فِيهِمْ. ١٤ أَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ كَلاَمَكَ، وَالْعَالَمُ أَبْغَضَهُمْ لأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ، كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ، ١٥ لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ. ١٦ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ. ١٧ قَدِّسْهُمْ فِي حَقِّكَ. كَلاَمُكَ هُوَ حَق. ١٨ كَمَا أَرْسَلْتَنِي إِلَى الْعَالَمِ أَرْسَلْتُهُمْ أَنَا إِلَى الْعَالَمِ، ١٩ وَلأَجْلِهِمْ أُقَدِّسُ أَنَا ذَاتِي، لِيَكُونُوا هُمْ أَيضًا مُقَدَّسِينَ فِي الْحَقِّ. ٢٠ «وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هؤُلاَءِ فَقَطْ، بَلْ أَيضًا مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكَلاَمِهِمْ، ٢١ لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِدًا، كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ، لِيَكُونُوا هُمْ أَيضًا وَاحِدًا فِينَا،

لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي. ٢٢ وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ. ٢٣ أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ، وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي، وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي. ٢٤ أَيُّهَا الآبُ أُرِيدُ أَنَّ هؤُلاَءِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي يَكُونُونَ مَعِي حَيْثُ أَكُونُ أَنَا، لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ. ٢٥ أَيُّهَا الآبُ الْبَارُّ، إِنَّ الْعَالَمَ لَمْ يَعْرِفْكَ، أَمَّا أَنَا فَعَرَفْتُكَ، وَهؤُلاَءِ عَرَفُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي. ٢٦ وَعَرَّفْتُهُمُ اسْمَكَ وَسَأُعَرِّفُهُمْ، لِيَكُونَ فِيهِمُ الْحُبُّ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي بِهِ، وَأَكُونَ أَنَا فِيهِمْ».

قلت: وكل هذا لا يصح على القول بإلاهية عيسى ﷺ لأن الإله لا يطلب شيئًا من غيره ولا يحتاج للدعاء والسؤال، بل يفعل ما يشاء بنفسه وبقدرته الذاتية.

القسم الحادي عشر: المسيح ﷺ يصرِّح بأنه إنسان وابن إنسان، وكذلك حواريّوه الخُلّص كانوا يؤمنون بأن المسيح إنسان نبيٌّ ورجلٌ مؤيّدٌ من الله

(١) في إنجيل يوحنا (٨ / ٤٠) يقول سيدنا المسيح ﷺ لليهود: " وَلكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ الله ". فما أبعد النجعة بين ما عرَّف به المسيح ﷺ نفسه هنا من أنه: إنسان يتكلم بالحق الذي يسمعه من الله، وبين تعريف المسيح في دستور الإيمان النصراني الذي تقرر عقب مجمع نيقية، والذي أوردناه في بداية الكتاب! فأي القولين نختار: أقول المسيح المختار ﷺ، أم قول غلاة الأحبار؟!

(٢) أما النصوص التي يؤكد فيها المسيح أنه ابن الإنسان فهي كثيرة جدا وهذا اللقب أي: " ابن الإنسان " كان اللقب المحبب لعيسى ﷺ و قد تكرر في الأناجيل والرسائل الملحقة بها ٨٥ مرة. ونكتفي هنا بذكر بعضها:

أ ـ " وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ فِيكُمْ أَوَّلًا، يَكُونُ لِلْجَمِيعِ عَبْدًا. لأَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ أيضًا لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ " (مرقس: ١٠ / ٤٤ – ٤٥).

ب ـ " وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الإِنْسَانِ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ " (يوحنا: ٣ / ١٤ – ١٥).

(٣) وقد مرت معنا قريبًا عبارة الحواريَّيْن الاثنين اللذين كانا يتكلمان مع المسيح بعد

حادثة صلبه ـ أو بالأحرى بعد شائعة صلبه ـ دون أن يعرفاه، لأنه كان متنكرا، حيث لما سألهما عن سبب حزنهما؟ حدّثاه عما حدث لـ:

" يسوع الناصري الذي كان إنسانا نبيًّا مقتدرًا في القول والفعل أمام الله وجميع الشعب " (إنجيل لوقا: ٢٤ / ١٣ ـ ٢٠).

(٤) كذلك مرت معنا عبارة القديس بطرس التي جاءت في كلمته التي ألقاها في مجمع التلاميذ والمؤمنين بعد رفع المسيح فكان مما قاله: " **أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ اسْمَعُوا هذِهِ الأَقْوَالَ: يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ رَجُلٌ قَدْ تَبَرْهَنَ لَكُمْ مِنْ قِبَلِ اللهِ بِقُوَّاتٍ وَعَجَائِبَ وَآيَاتٍ صَنَعَهَا اللهُ بِيَدِهِ فِي وَسْطِكُمْ، كَمَا أَنْتُمْ أَيضًا تَعْلَمُونَ** " (أعمال الرسل: ٣/ ٢٢).

(٥) وفي إنجيل يوحنا قصة المرأة السامرية التي آمنت بالمسيح لما أخبرها بالغيب المتعلق بأزواجها السابقين الخمسة! فقالت مندهشةً: " قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ، أَرَى أَنَّكَ نَبِيٌّ!. . . . . . وَقَالَتْ لِلنَّاسِ: ٢٩ «هَلُمُّوا انْظُرُوا إِنْسَانًا قَالَ لِي كُلَّ مَا فَعَلْتُ. أَلَعَلَّ هذَا هُوَ الْمَسِيحُ؟ " (يوحنا: ٤ / ١٩ ثم ٢٩).

والحاصل أن المسيح عليه السلام نفسه كان يؤكد بشريته وإنسانيته، وأنه من نسل البشر، كما أن حوارييه والمؤمنين به من تلاميذه ومعاصريه، كانوا ينظرون إليه على أنه إنسان ابن إنسان، وما كان أحد يعتبره إلهًا ابن إله[1].

القسم الثاني عشر: الحواريون وكُتّاب الأناجيل يعتبرون المسيح عليه السلام عبداً لله اجتباه الله.

واختاره ويعتبرونه بشرًا نبيًا كموسى عليه السلام، يرى المسلمون ـ تبعًا لتعليم كلام الله تعالى في القرآن الكريم ـ أن عيسى المسيح عليه السلام كان عبدَ الله ورسولَه، ولعل بعض عوام النصارى يمجُّ وصف المسيح بـ " العبوديّة " ويرى فيه إنقاصا لقدر المسيح عليه السلام، لكن الحقيقة التي قد يندهش لها المسلم قبل النصراني العامي، أن هذا الوصف بعينه، أعني وصف المسيح بالعبودية لله، جاء في متن الأناجيل، بل في متن التوراة والزبور، أي في تلك

---

(١) وسيأتي مزيد بيان حول هذا الوجه وذلك تحت فصل الأدلة التي يتعلقون بها لإثبات ألوهية تحت الوجه الثالث.

البشارات التي كان كتَّاب الأناجيل والحواريون يستشهدون بها على أن المقصود بها المسيح ﷺ، وفيما يلي الشواهد على ذلك:

(١) يقول متَّى ـ وهو أحد الحواريين الاثني عشر ـ في إنجيله (١٢ / ١٤ ـ ٢٠):

" فَلَمَّا خَرَجَ الْفَرِّيسِيُّونَ تَشَاوَرُوا عَلَيْهِ لِكَيْ يُهْلِكُوهُ، فَعَلِمَ يَسُوعُ وَانْصَرَفَ مِنْ هُنَاكَ. وَتَبِعَتْهُ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ فَشَفَاهُمْ جَمِيعًا. وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لاَ يُظْهِرُوهُ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ: «هُوَذَا فَتَايَ الَّذِي اخْتَرْتُهُ، حَبِيبِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. أَضَعُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْبِرُ الأُمَمَ بِالْحَقِّ. لاَ يُخَاصِمُ وَلاَ يَصِيحُ، وَلاَ يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الشَّوَارِعِ صَوْتَهُ. قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لاَ يُطْفِئُ، حَتَّى يُخْرِجَ الْحَقَّ إِلَى النُّصْرَةِ. "

ففي هذا النص يستشهد كاتب الإنجيل الأول القديس متى الحواري، وهو من الحواريين الاثني عشر ومن أوائل المؤمنين بالمسيح ﷺ، ببشارة وردت في سفر إشعيا من العهد القديم، على أنها تتكلم عن المسيح ﷺ، وهذه البشارة تبتدأ بإعلان عبودية المسيح لله ﷻ، وذلك حين تقول: " هو ذا فتاي الذي اخترته "، إذ كلمة فتاي مرادف لكلمة عبدي أو غلامي، وللتأكد من ذلك ما علينا إلا أن نرجع إلى سفر إشعيا نفسه الذي وردت فيه تلك البشارة حيث نجد البشارة في الإصحاح الثاني والأربعين منه كما يلي: " هُوَذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ، مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ. ٢ لاَ يَصِيحُ وَلاَ يَرْفَعُ وَلاَ يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ. ٣ قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لاَ يُطْفِئُ. إِلَى الأَمَانِ يُخْرِجُ الْحَقَّ. ٤ لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَنْكَسِرُ حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ، وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ " (إشعيا: ٤٢ / ١ ـ ٤).

ولذلك في الترجمة الأخرى الجديدة للعهد الجديد التي قامت بها الرهبانية اليسوعية (الكاثوليكية) في بيروت (١٩٨٩ م) استُخْدِمَت لفظة "عبدي" عند ذكر كلام متى واستشهاده بالبشارة المذكورة.

والحاصل أن تطبيق متى الحواري تلك البشارة على عيسى ﷺ يبين أن متى كان يرى

في عيسى: " عبد الله، الذي اختاره الله تعالى واجتباه وأوحى إليه بواسطة جبريل وبعثه بالحق للأمم. . . " تماما كما هو التصور الإسلامي للمسيح ﷺ، أي لم يكن متى يرى في المسيح إلهًا متجسدًا ولا ربًا معبودا!.

(٢) يذكر القديس لوقا، كاتب الإنجيل الثالث ومؤلف سفر " أعمال الرسل" (١٢)، في أعمال الرسل: أن القديس فيليبس (أحد المعاونين السبعة الذين اختارهم الحواريون لمعاونتهم في خدمة المائدة وتقسيم الأرزاق اليومية، لأنهم وجدوهم مملوئين من الروح القدس والحكمة)، لما سأله العبد الحبشي الخصي عن الشخص المراد بالآيات التي كان يتلوها من سفر النبي إشعيا ﷺوالتي تقول: " كخروف سيق إلى الذبح. وكحملٍ صامتٍ بين يدي من يجزُّه. هكذا لا يفتح فاه. في ذلِّهِ ألغي الحكم عليه. ترى من يصف ذريته؟. لأن حياته أزيلت عن الأرض"، أجابه القديس فيليبس أن هذه الآيات تشير إلى يسوع وأخذ يشرح له ذلك، فآمن الرجل وطلب من فيليبس أن يعمده فعمده. من هذه القصة يتبين أن كلًا من لوقا كاتب أعمال الرسل والقديس فيليبس كانا يريان أن تلك البشارة في كلام إشعيا إنما تنطبق على المسيح وتشير إليه، وهو أمر أصبح فيما بعد من المسلمات لدى آباء الكنيسة. فإذا رجعنا إلى أصل هذه البشارة كما جاءت في سفر النبي إشعيا ﷺوجدناها بشارة مطولة تبدأ هكذا: " هو ذا عبدي يعقل، يتعالى، ويرتقي، ويتسامى جدا. . (إلى أن قال) ظُلِمَ أما هو فتذلل ولم يفتح فاه، كشاةٍ تُساق إلى الذبح. . . (إلى قوله) وعبدي البار بمعرفته يبرِّر كثيرين وآثامهم هو يحملها، لذلك أَقسم له بين الأعزاء، ومع العظماء يقسم غنيمة، من أجل أنه سكب للموت نفسه وأُحْصي مع أثمة وهو حَمَلَ خطيَّة كثيرين وشفع في المذنبين " (إشعيا: ٥٣ / ١ ثم ٧ ثم ١١ - ١٢). وعليه فإن لوقا وفيليبس اللذين طبقا هذه البشارة على المسيح، كانا يريان فيه: عبدًا للهِّ تعالى تسامى وارتقى بعظيم تضحيته، وعبد الله البار، الذي ﷺلأجل تضحيته فجعله مع أعزائه وقسم له مقاما بين عظمائه. لذا لا نعجب إذا رأينا لوقا ـ في كتابه أعمال الرسل ـ يطلِق على المسيح مرارا لقب

"عبد الله" (١٤) كما نجد ذلك في أعمال الرسل: ٣/ ١٣ و٢٦، و٤ / ٢٧ و٣٠. هذا ومن الجدير بالذكر أن لوقا وفيليبس ليسا الوحيدين اللذين ذكرا أن تلك البشارة تشير للمسيح، بل شاركهما في ذلك أيضًا متى في إنجيله (٨/ ١٧).

(٣) وفي سفر أعمال الرسل أيضًا (٣ / ١٢ ـ ٢٦) ينقل لوقا الخطبة التي ألقاها القديس والحواري بطرس أمام الشعب الإسرائيلي فيقول: " فَلَمَّا رَأَى بُطْرُسُ ذلِكَ أَجَابَ الشَّعْبَ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ، مَا بَالُكُمْ تَتَعَجَّبُونَ مِنْ هذَا؟ وَلِمَاذَا تَشْخَصُونَ إِلَيْنَا، كَأَنَّنَا بِقُوَّتِنَا أَوْ تَقْوَانَا قَدْ جَعَلْنَا هذَا يَمْشِي؟ إِنَّ إِلهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، إِلهَ آبَائِنَا، مَجَّدَ فَتَاهُ يَسُوعَ، الَّذِي أَسْلَمْتُمُوهُ أَنْتُمْ وَأَنْكَرْتُمُوهُ أَمَامَ وَجْهِ بِيلاَطُسَ، وَهُوَ حَاكِمٌ بِإِطْلاَقِهِ. وَلكِنْ أَنْتُمْ أَنْكَرْتُمُ الْقُدُّوسَ الْبَارَّ، وَطَلَبْتُمْ أَنْ يُوهَبَ لَكُمْ رَجُلٌ قَاتِلٌ. وَرَئِيسُ الْحَيَاةِ قَتَلْتُمُوهُ، الَّذِي أَقَامَهُ الله مِنَ الأَمْوَاتِ، وَنَحْنُ شُهُودٌ لِذلِكَ. وَبِالإِيمَانِ بِاسْمِهِ، شَدَّدَ اسْمُهُ هذَا الَّذِي تَنْظُرُونَهُ وَتَعْرِفُونَهُ، وَالإِيمَانُ الَّذِي بِوَاسِطَتِهِ أَعْطَاهُ هذِهِ الصِّحَّةَ أَمَامَ جَمِيعِكُمْ. وَالآنَ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكُمْ بِجَهَالَةٍ عَمِلْتُمْ، كَمَا رُؤَسَاؤُكُمْ أيضًا. وَأَمَّا الله فَمَا سَبَقَ وَأَنْبَأَ بِهِ بِأَفْوَاهِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ، أَنْ يَتَأَلَّمَ الْمَسِيحُ، قَدْ تَمَّمَهُ هكَذَا. فَتُوبُوا وَارْجِعُوا لِتُمْحَى خَطَايَاكُمْ، لِكَيْ تَأْتِيَ أَوْقَاتُ الْفَرَجِ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ. وَيُرْسِلَ يَسُوعَ الْمَسِيحَ الْمُبَشَّرَ بِهِ لَكُمْ قَبْلُ. الَّذِي يَنْبَغِي أَنَّ السَّمَاءَ تَقْبَلُهُ، إِلَى أَزْمِنَةِ رَدِّ كُلِّ شَيْءٍ، الَّتِي تكَلَّمَ عَنْهَا الله بِفَمِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ الْقِدِّيسِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ. فَإِنَّ مُوسَى قَالَ لِلآبَاءِ: إِنَّ نَبِيًّا مِثْلِي سَيُقِيمُ لَكُمُ الرَّبُّ إِلهُكُمْ مِنْ إِخْوَتِكُمْ. لَهُ تَسْمَعُونَ فِي كُلِّ مَا يُكَلِّمُكُمْ بِهِ. وَيَكُونُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ لاَ تَسْمَعُ لِذلِكَ النَّبِيِّ تُبَادُ مِنَ الشَّعْبِ. وَجَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ أيضًا مِنْ صَمُوئِيلَ فَمَا بَعْدَهُ، جَمِيعُ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا، سَبَقُوا وَأَنْبَأُوا بِهذِهِ الأَيَّامِ. أَنْتُمْ أَبْنَاءُ الأَنْبِيَاءِ، وَالْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدَ بِهِ الله آبَاءَنَا قَائِلًا لإِبْراهِيمَ: وَبِنَسْلِكَ تَتَبَارَكُ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ. إِلَيْكُمْ أَوَّلًا، إِذْ أَقَامَ الله فَتَاهُ يَسُوعَ، أَرْسَلَهُ يُبَارِكُكُمْ بِرَدِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَنْ شُرُورِهِ".

من هذا النص أيضًا يتبين أن عقيدة القديس بطرس ـ الذي كان من أقرب الحواريين

للمسيح ـ بالمسيح ﷺ لم تتجاوز كونه عبد الله، وكونه نبيا كموسى ﷺ، حيث استشهد بطرس ببشارة واردة في التوراة يقول فيها الله تعالى لموسى أن يقول لبني إسرائيل: " **إِنَّ نَبِيًّا مِثْلِي سَيُقِيمُ لَكُمُ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ مِنْ إِخْوَتِكُمْ** " فاعتبر البشارة متعلقة بالمسيح، مما يعني كون المسيح ﷺ في اعتقاده نبيًا مثل موسى ﷺ، والمثلية هذه تؤكد كون عيسى عبدًا رسولًا وبشرًا نبيًا كما كان موسى عبدًا رسولًا وبشرًا نبيًا.

القسم الثالث عشر وهو معضد لما سبق: نصوص تثبت أن أم عيسى وأصحابه لا يعلمون المعتقد، فكيف عرفه من لم يره؟!

مما يدل على أن الفكرة لا علاقة لها بالمسيح ولا أتباعه، بل هي من مخترعات لاحقة لذلك العهد، وذلك يكفي للإعلان عن بطلانها.

وفي ذلك نصوص كثيرة منها:

١ـ **عدم معرفة أمه العذراء البتول بألوهيته**: إذ لما كان المسيح راجعا مع والدته ويوسف النجار حصل ما يدل على جهل والدته بمقامه، فإن جهلت والدته الطاهرة ألوهيته، فمن ذا الذي يعلمها، فقد جاء في لوقا: " **وَبَعْدَمَا أَكْمَلُوا الأَيَّامَ بَقِيَ عِنْدَ رُجُوعِهِمَا الصَّبِيُّ يَسُوعُ فِي أُورُشَلِيمَ، وَيُوسُفُ وَأُمُّهُ لَمْ يَعْلَمَا. ٤٤وَإِذْ ظَنَّاهُ بَيْنَ الرُّفْقَةِ، ذَهَبَا مَسِيرَةَ يَوْمٍ، وَكَانَا يَطْلُبَانِهِ بَيْنَ الأَقْرِبَاءِ وَالْمَعَارِفِ. ٤٥وَلَمَّا لَمْ يَجِدَاهُ رَجَعَا إِلَى أُورُشَلِيمَ يَطْلُبَانِهِ. ٤٦وَبَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ وَجَدَاهُ فِي الْهَيْكَلِ، جَالِسًا فِي وَسْطِ الْمُعَلِّمِينَ، يَسْمَعُهُمْ وَيَسْأَلُهُمْ ... يَا بُنَيَّ، لِمَاذَا فَعَلْتَ بِنَا هكَذَا؟ هُوَذَا أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذَّبَيْنِ!** " (لوقا ٢/ ٤١-٤٨)، فلو كانت مريم تعلم أن ابنها هو الله أو ابنه لما كان لهذا الخوف على المسيح أي معنى.

٢- ويجيب المسيح سؤال أمه ويوسف النجار بقوله: " **لِمَاذَا كُنْتُمَا تَطْلُبَانِنِي؟ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي؟** "، فهل فهمت البتول وزوجها من جوابه بأنه يتحدث عن ألوهيته وبنوته الحقيقية للآب؟ بالطبع: لا فهما لا يعرفان شيئًا عن هذا المعتقد الغريب. يقول لوقا: " **فَلَمْ يَفْهَمَا الْكَلاَمَ الَّذِي قَالَهُ لَهُمَا** " (لوقا ٢/ ٥٠).

٣- وفي مرة أخرى سمعت مريم البتول ورأت فرح سمعان الأورشليمي وهو يحمل

وليدها، ويحمد الله على أن عينيه قد اكتحلتا برؤية المعزي المخلص، لكنها والنجار لم تفهمان ما يقوله، فاكتفيا بعلامات العجب وأمارات الاستغراب، يقول لوقا: " **وَكَانَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ يَتَعَجَّبَانِ مِمَّا قِيلَ فِيهِ** " (لوقا ٢/ ٣٣).

٤- ويذكر يوحنا أن المسيح لما صلب ذهبت والدته لتذرف عليه الدمع. (انظر يوحنا ١٩/ ٢٥)، أفلم تكن تعلم حين ذاك أن ولدها هو الله أو ابنه، وأن الموت لا يضيره؟

٥ـ وسمعان الصفا (بطرس)، أقرب التلاميذ إلى المسيح يقول وهو ممتلئ من الروح القدس: " **أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ اسْمَعُوا هذِهِ الأَقْوَالَ: يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ رَجُلٌ قَدْ تَبَرْهَنَ لَكُمْ مِنْ قِبَلِ الله بِقُوَّاتٍ وَعَجَائِبَ وَآيَاتٍ صَنَعَهَا اللهُ بِيَدِهِ فِي وَسْطِكُمْ، كَمَا أَنْتُمْ أَيضًا تَعْلَمُونَ. ٢٣هذَا أَخَذْتُمُوهُ مُسَلَّمًا بِمَشُورَةِ الله الْمَحْتُومَةِ وَعِلْمِهِ السَّابِقِ، وَبِأَيْدِي أَثَمَةٍ صَلَبْتُمُوهُ وَقَتَلْتُمُوهُ** " (أعمال الرسل ٢/ ٢٢)، فلم يشر في خطبته المهمة - التي كان فيها مؤيدا من الروح القدس - إلى شيء من الألوهية للمسيح، ولم يتحدث عن الناسوت المتأله ولا الإله المتجسد.

٦ـولما عرض المسيح ـ متنكرًا بعد الصلب المزعوم: لرجلين من أصحابه قد حزنا بسبب ما تردد عن صلبه، سألهما عن سبب حزنهما فقالا: " **يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ، الَّذِي كَانَ إِنْسَانًا نَبِيًّا مُقْتَدِرًا فِي الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ أَمَامَ الله وَجَمِيعِ الشَّعْبِ. ٢٠كَيْفَ أَسْلَمَهُ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَحُكَّامُنَا لِقَضَاءِ الْمَوْتِ وَصَلَبُوهُ. ٢١وَنَحْنُ كُنَّا نَرْجُو أَنَّهُ هُوَ الْمُزْمِعُ أَنْ يَفْدِيَ إِسْرَائِيلَ.** " (لوقا ٢٤/ ١٩-٢١)، فليس في قولهما حديث عن ناسوت مقتول، ولا عن لاهوت متجسد نجا من الموت، إن غاية ما كانوا يرقبونه فيه، أن يكون مخلص إسرائيل، أي المسيح المنتظر الذي بشرت به الأنبياء. يقول القس إبراهيم سعيد عن هذين التلميذين: "إلى الآن لم يؤمنا بلاهوته. . لكننا لا ننكر عليهما أنهما كانا مؤمنين بنبوته"[١].

٧ـ وأيضًا عجب منه تلاميذه لما رأوا بعض معجزاته، ولو كانوا يرونه إلها لما كان في

(١) شرح بشارة لوقا، د. إبراهيم سعيد، ص (٦٣٤).

معجزاته أي عجب، فقد مر يسوع عليه السلام بالشجرة وقد جاع، فقصدها، فلم يجد فيها سوى الورق. فقال: لا يخرج منك ثمرة إلى الأبد، فيبست الشجرة لوقتها، فتعجب التلاميذ " **فَقَالَ لَهَا: «لاَ يَكُنْ مِنْكِ ثَمَرٌ بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ!». فَيَبِسَتِ التِّينَةُ فِي الْحَالِ. فَلَمَّا رَأَى التَّلاَمِيذُ ذلِكَ تَعَجَّبُوا قَائِلِينَ: «كَيْفَ يَبِسَتِ التِّينَةُ فِي الْحَالِ؟** " (متى ٢١/ ١٨-٢٢). فدل عجبهم على أنهم كانوا لا يدركون شيئًا مما تعتقده النصارى اليوم من ألوهية المسيح، وإلا فإن إيباس الإله للشجرة ليس فيه ما يدعو لأي عجب.

٨ ـ **وهذا يوحنا المعمدان (يحيى)** عليه السلام الذي لم تقم النساء عن مثله. (انظر متى ١١/ ١١)، يرسل إلى المسيح رسلًا بعد أن عمده ليسألوه " **أَمَّا يُوحَنَّا فَلَمَّا سَمِعَ فِي السِّجْنِ بِأَعْمَالِ الْمَسِيحِ، أَرْسَلَ اثْنَيْنِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ، ٣وَقَالَ لَهُ: «أَنْتَ هُوَ الآتِي أَمْ نَنْتَظِرُ آخَرَ؟» ٤فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمَا: «اذْهَبَا وَأَخْبِرَا يُوحَنَّا بِمَا تَسْمَعَانِ وَتَنْظُرَانِ: ٥اَلْعُمْيُ يُبْصِرُونَ، وَالْعُرْجُ يَمْشُونَ، وَالْبُرْصُ يُطَهَّرُونَ، وَالصُّمُّ يَسْمَعُونَ، وَالْمَوْتَى يَقُومُونَ، وَالْمَسَاكِينُ يُبَشَّرُونَ. ٦وَطُوبَى لِمَنْ لاَ يَعْثُرُ فِيَّ».** " (متى ١١/ ٣-٦). فيحيى المعمداني عليه السلام مع جلالة أمره لم يظن في المسيح أنه أكثر من النبي المنتظر الذي كانت تنتظره بنو إسرائيل.

٩ـ **ولما جاءته المرأة السامرية ورأت قدراته وأعاجيبه**: "**قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ، أَرَى أَنَّكَ نَبِيٌّ!** " (يوحنا ٤/ ١٩)، وما زادت على ذلك، فما وبخها ولا صحح لها معتقدها، فكان هذا معتقدًا يعتقده عامة الناس كما اعتقده تلاميذ المسيح وحواريوه.

١٠ـ **وهو ما قاله عنه الأعمى الذي شفاه المسيح** ورأى برهان الله على نبوة هذا المبارك " **فَقَالُوا لَهُ: «كَيْفَ انْفَتَحَتْ عَيْنَاكَ؟» ١١أَجَابَ ذَاكَ وَقَالَ: إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ يَسُوعُ** " (يوحنا ٩/ ١٠-١١)، لكن النصارى اعتقدوا في هذه الحادثة ما لم يعتقده ذاك الذي شفاه المسيح، والذي شهد له بالإنسانية فحسب.

١١ـ **وكذا الجموع** التي رأته كثيرًا في أورشليم، وخرجت لاستقباله لما دخل أورشليم دخول الأبطال، هذه الجموع كانت تعتقد بشريته ونبوته " فقالت الجموع: هذا يسوع

النبي" (متى ٢١/ ١١).

١٢ـ وهاهم أعداؤه ﷺ من اليهود يلاحقونه، ويطلبون منه آية، فأخبرهم بأنه لن تأتيهم سوى آية يونان النبي (يونس) ﷺ" **حِينَئِذٍ أَجَابَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيَةً». ٣٩فَأَجابَ وَقَالَ لَهُمْ: «جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلاَ تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلاَّ آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ** " (متى ١٢/ ٣٨-٣٩). واليهود، لا ريب أنهم يبحثون عن آية تدل على نبوته التي يدعوهم إلى الإيمان بها، ولو كان ما يدعو إليه الألوهية لما رضوا منه بمثل آية يونان، بل ولطالبوه بآيات أعظم من آية يونان، وغيره من الأنبياء.

١٣ـ وفيما أحد الفريسيين يرقب المسيح متشككًا بنبوته تقدمت إليه امرأة **خاطئة** باكية تمسح رجليه بشعرها، تقبلهما وتدهنهما بالطيب، "فلما رأى الفريسي الذي دعاه ذلك، تكلم في نفسه قائلًا: لو كان هذا نبيًا لعلم من هذه المرأة التي تلمسه؟ وما هي؟ إنها خاطئة" (لوقا ٧/ ٣٩). لقد استنكر في نفسه نبوة - لا ألوهية – هذا الذي يجهل حال الخاطئة، مما يؤكد أن دعواه ﷺ بينهم إنما كانت النبوة فحسب.

١٤ـ ولما أراد اليهود قتله، كانت جريمته عندهم دعواه النبوة، لا الربوبية، فقد قالوا لنيقوديموس: "ألعلك أنت أيضًا من الجليل؟ فتّش وانظر. إنه لم يقم نبي من الجليل" (يوحنا ٧/ ٥٢)، إنهم يكذبونه في دعواه النبوة، وهو من الجليل التي لم يسبق أن أتى منها نبي.

١٥ـ والشيطان أيضًا لم ير في المسيح أكثر من كونه بشرًا، فاجترأ عليه محاولًا غوايته، لذلك فقد حصره في الجبل أربعين يومًا من غير طعام ولا شراب، وهو في ذلك يمتحنه ويمنيه بإعطائه الدنيا في مقابل سجدة واحدة له " ٨**ثُمَّ أَخَذَهُ أيضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَل عَال جِدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدَهَا، ٩وَقَالَ لَهُ: «أُعْطِيكَ هذِهِ جَمِيعَهَا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي». ١٠حِينَئِذٍ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِلرَّبِّ إِلهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ».** " (متى ٤/ ٩-١٠)، فهل كان الشيطان يعِد الرب العظيم – مالك كل شيء وواهبه – بالدنيا؟!!.

١٦ـ ثم إن كان المسيح إلهًا متجسدًا فكيف نفهم تبريرًا لخيانة يهوذا؟ وهل يخان الإله؟ وكيف نفهم بطرس إنكار بطرس له ثلاث مرات ولعنه في الليلة التي أراد اليهود القبض فيها على المسيح؟ بل إن كل ما قيل في سيرة المسيح يصعب فهمه مع القول بألوهيته، ويترك علامات استفهام لا إجابة عنها.

(١٧) **في إنجيل متى** (٢١ / ١٠ ـ ١١) قول المؤمنين بالمسيح ﷺ لدى استقبالهم له عند دخوله بيت المقدس: " مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ! أُوصَنَّا فِي الأَعَالِي! ». ١٠وَلَمَّا دَخَلَ أُورُشَلِيمَ ارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا قَائِلَةً: «مَنْ هذَا؟ » ١١فَقَالَتِ الْجُمُوعُ: «هذَا يَسُوعُ النَّبِيُّ الَّذِي مِنْ نَاصِرَةِ الْجَلِيلِ".

(١٨) وفي إنجيل يوحنا (٤/ ١٩): عن المرأة التي دهشت لما أخبرها المسيح، الذي لم يكن يعرفها من قبل، عن أزواجها الخمسة السابقين! أنها قالت: " يا سيّد! أرى أنك نبيّ. . ".

القسم الرابع عشر: نصوص تثبت الحمل بالمسيح ثم ولادته ثم نموه التدريجي جسمًا وعقلًا:

وتثبت له كل أعراض الطبيعة البشرية من الجوع والعطش والتعب والنوم والخوف والاضطراب والألم بل الموت مما يتنزه عنه الباري سبحانه وتعالى. ولقد درس المحققون سيرة المسيح ﷺ- كما عرضتها الأناجيل - منذ بشارة أمه إلى حمله، وولادته في المزود، ثم لفه بالخرق، ثم ختانه، ومن ثم نشأته، وتعليمه مع الصبيان، ثم تعميده على يد المعمدان إلى أن ذكروا نهايته المزعومة على الصليب بعد أن جزع، وتذلل لله ليصرف عنه هذا الأمر؛ فوجدوا أن المسيح لا يفرق في شيء عن سائر الناس، فقد ولد وكبر، وأكل وشرب، ومات. فما الذي يميزه بالألوهية عن غيره؟

(١) **فقد ولد من فرج** امرأة متلبطًا بدمها "وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد" (لوقا ٦/ ٢).

(٢) **ونشأ جنينًا** في رحم أمه مريم -عليها السلام -التي تحمل به مدة الحمل كاملًا ثم تضعه: " فَصَعِدَ يُوسُفُ أيضًا مِنَ الْجَلِيلِ مِنْ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، إِلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ الَّتِي تُدْعَى بَيْتَ لَحْم، لِكَوْنِهِ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ وَعَشِيرَتِهِ، لِيُكْتَتَبَ مَعَ مَرْيَمَ امْرَأَتِهِ الْمَخْطُوبَةِ وَهِيَ حُبْلَى. ٦وَبَيْنَمَا هُمَا هُنَاكَ تَمَّتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ. فَوَلَدَتِ ابْنَهَا الْبِكْرَ وَقَمَّطَتْهُ وَأَضْجَعَتْهُ فِي

الْمِذْوَدِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَوْضِعٌ فِي الْمَنْزِلِ. " (لوقا: ٢/ ٤- ٧).

(٣) **ورضع من ثدييها** "وفيما هو يتكلم بهذا رفعت امرأة صوتها من الجمع وقالت له: طوبى للبطن الذي حملك، والثديين اللذين رضعتهما" (لوقا ٢٧/ ١١).

(٤) **المسيح** عليه السلام **يُختن عندما يبلغ ثمانية أيام**: " وَلَمَّا تَمَّتْ ثَمَانِيَةُ أَيَّامٍ لِيَخْتِنُوا الصَّبِيَّ سُمِّيَ يَسُوعَ، كَمَا تَسَمَّى مِنَ الْمَلاَكِ قَبْلَ أَنْ حُبِلَ بِهِ فِي الْبَطْنِ " لوقا: ٢/ ٢١.

(٥) **وقد عمده يوحنا المعمدان** عليه السلام في نهر الأردن " جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه" (متى ١٣/ ٣)، أفجهل المعمدان أنه يعمد الإله؟ ومن المعلوم أن معمودية المعمدان غفران الذنوب، كما في متى: " واعتمدوا منه في الأردن معترفين بخطاياهم. . أنا أعمدكم بماء للتوبة. . . حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه" (متى ٣/ ٦-١٤)، فهل كان الإله مذنبًا يبحث عمن يغفر له ذنوبه؟!

(٦) **كما تعرض لمكايد أعدائه** فقد حاول الشيطان أن يغويه، فلم يقدر "قال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان" (متى ٤/ ٩-١٠).

(٧) **المسيح** عليه السلام **ينمو تدريجيًا جسمًا وعلمًا**: " وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ، عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ " (لوقا: ٢/ ٥٢). قلت: قوله " يتقدّم في الحكمة " دليل واضح على عدم ألوهية المسيح؛ إذ لو كان المسيح إلها متجسدًا لكان محيطا، قبل وبعد تجسده المزعوم في رحم العذراء، بكل المعلومات وبالحكمة المطلقة ولما احتاج أن يتقدم فيها! وثمة فائدة أخرى في هذا النص يجدر التنبيه إليها، وهي أن العلم ومعرفة الحكمة ليست من الأمور الجسدية حتى يُقال أن المسيح إنما تدرج فيهما بحسب ناسوته! بل من صفات الروح، مما يؤكد بشرية المسيح المحضة روحًا وجسدًا وقلبًا وقالبًا.

(٨) **المسيح** عليه السلام **يجوع**: " ثُمَّ أُصْعِدَ يَسُوعُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ مِنَ الرُّوحِ لِيُجَرَّبَ مِنْ إِبْلِيسَ. فَبَعْدَ مَا صَامَ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، جَاعَ أَخِيرًا " (متى: ٤/ ١ ـ ٢) ". وبحث عن طعام يأكله "وفي الصبح إذ كان راجعا إلى المدينة جاع" (متى ١٨/ ٢١). وقد أكل وشرب، فسد جوعته، وروى ظمأه " فناولوه

جزءًا من سمك مشوي وشيئا من شهد عسل، فأخذ وأكل قدامهم" (لوقا ٢٤/ ٤٢-٤٣)

" وَفِي الصُّبْحِ إِذْ كَانَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ جَاعَ، فَنَظَرَ شَجَرَةَ تِينٍ عَلَى الطَّرِيقِ، وَجَاءَ إِلَيْهَا فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا شَيْئًا إِلاَّ وَرَقًا فقط. فقَالَ لَهَا: «لاَ يَكُنْ مِنْكِ ثَمَرٌ بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ! " متى: ٢١/ ١٩: ١٨.

(٩) **المسيح** عليه السلام **يعطش**: " بَعْدَ هذَا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ، فَلِكَيْ يَتِمَّ الْكِتَابُ قَالَ: «أَنَا عَطْشَانُ». " (يوحنا: ١٩/ ٢٨).

(١٠) **المسيح** عليه السلام **يتعب**: " وَكَانَتْ هُنَاكَ بِئْرُ يَعْقُوبَ. فَإِذْ كَانَ يَسُوعُ قَدْ تَعِبَ مِنَ السَّفَرِ، جَلَسَ هكَذَا عَلَى الْبِئْرِ، وَكَانَ نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ. " (يوحنا: ٤/ ٦). واحتاج إلى حمار يركبه، فأرسل تلاميذه طالبًا منهم إحضار الحمار لأن "الرب محتاج إليه" (مرقس ١١/ ٣).

(١١) **المسيح** عليه السلام **ينام**: " وكان هو في المؤخر على وسادة نائمًا. فأيقظوه وقالوا له: يا معلم أما يهمك أننا نهلك؟ " (مرقس: ٤/ ٣). والنوم من أحوال، وعوارض البشرية " وكان هو نائما" (متى ٢٤/ ٨).

(١٢) **المسيح** عليه السلام **يكثر الأكل والشرب**: " جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، فَتَقُولُونَ: هُوَذَا إِنْسَانٌ أَكُولٌ وَشِرِّيبُ خَمْرٍ، مُحِبٌّ لِلْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ. " (لوقا: ٧/ ٣٤).

(١٣) **المسيح** عليه السلام **يبكي**: " قَالُوا لَهُ: «يَا سَيِّدُ، تَعَالَ وَانْظُرْ». ٣٥ بَكَى يَسُوعُ. ٣٦ فَقَالَ الْيَهُودُ: «انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ يُحِبُّهُ!» " يوحنا: ١١/ ٣٤ ـ ٣٦. واكتئب المسيح عليه السلام لما أصابه "وابتدأ يدهش ويكتئب" (مرقس ١٤/ ٣٣)، وأحيانا كان يجتمع عليه الحزن والاكتئاب "وابتدأ يحزن ويكتئب" (متى ٢٦/ ٣٧).

(١٤) **المسيح** عليه السلام **يضطرب ويرتعد نفسيًا**: " فَلَمَّا رَآهَا يَسُوعُ تَبْكِي، وَالْيَهُودُ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَهَا يَبْكُونَ، انْزَعَجَ بِالرُّوحِ وَاضْطَرَبَ، ٣٤ وَقَالَ: «أَيْنَ وَضَعْتُمُوهُ؟» " (يوحنا: ١١ / ٣٣ ـ ٣٤). " لَمَّا قَالَ يَسُوعُ هذَا اضْطَرَبَ بِالرُّوحِ، وَشَهِدَ وَقَالَ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ سَيُسَلِّمُنِي!» " (يوحنا: ١٣/ ٢١).

(١٥) و **المسيح** عليه السلام **يحزن بشدة ويكتئب حتى الموت**: " حِينَئِذٍ جَاءَ مَعَهُمْ يَسُوعُ إِلَى

ضَيْعَةٍ يُقَالُ لَهَا جَثْسَيْمَانِي، فَقَالَ لِلتَّلاَمِيذِ: «اجْلِسُوا ههُنَا حَتَّى أَمْضِيَ وَأُصَلِّيَ هُنَاكَ». ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَابْنَيْ زَبْدِي، وَابْتَدَأَ يَحْزَنُ وَيَكْتَئِبُ. فَقَالَ لَهُمْ: «نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ. اُمْكُثُوا ههُنَا وَاسْهَرُوا مَعِي " (متى: ٢٦ / ٣٦ ـ ٣٨).

(١٦) **المسيح ﷺ يكتم حقيقة أمره في أول الدعوة:** خوفًا من شر اليهود، ويأمر أتباعه أيضًا أن لا يُظهِروا أمره، بل يكتموا إيمانهم ويكتموا المعجزات التي يرونها اتقاءً من شر اليهود، كما أن المسيح نفسه يفر من اليهود ويتوارى عن أنظارهم هربا من شرّهم:

أ ـ " وَلَمَّا نَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ تَبِعَتْهُ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ. وَإِذَا أَبْرَصُ قَدْ جَاءَ وَسَجَدَ لَهُ قَائِلًا: «يَا سَيِّدُ، إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي». فَمَدَّ يَسُوعُ يَدَهُ وَلَمَسَهُ قَائِلًا: «أُرِيدُ، فَاطْهُرْ! ». وَلِلْوَقْتِ طَهُرَ بَرَصُهُ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «انْظُرْ أَنْ لاَ تَقُولَ لأَحَدٍ. بَلِ اذْهَبْ أَرِ نَفْسَكَ لِلْكَاهِنِ، وَقَدِّمِ الْقُرْبَانَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ مُوسَى شَهَادَةً لَهُمْ " (متى: ٨/ ١ ـ ٤)، و مثله في (مرقس: ١ / ٤٠ - ٤٤).

ب ـ " وَالأَرْوَاحُ النَّجِسَةُ حِينَمَا نَظَرَتْهُ خَرَّتْ لَهُ وَصَرَخَتْ قَائِلَةً: «إِنَّكَ أَنْتَ ابْنُ اللهِ! ». وَأَوْصَاهُمْ كَثِيرًا أَنْ لاَ يُظْهِرُوهُ. " (مرقس: ٣ / ١١ - ١٢).

ج ـ فَقَالَ (يسوع) لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ أَنِّي أَنَا؟ » فَأَجَابَ بُطْرُسُ وَقَالَ: «مَسِيحُ اللهِ! ». فَانْتَهَرَهُمْ وَأَوْصَى أَنْ لاَ يَقُولُوا ذلِكَ لأَحَدٍ " (لوقا: ٩ / ٢٠ ـ ٢١).

د ـ " وَكَانَ يَسُوعُ يَتَرَدَّدُ بَعْدَ هذَا فِي الْجَلِيلِ، لأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَتَرَدَّدَ فِي الْيَهُودِيَّةِ لأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُ. " (يوحنا: ٧/ ١). قلت: ومن البديهي أنه لو كان إلها؛ لما خاف من أحد ولوجَّه أبصار وأذهان اليهود بعيدًا عنه، ولما احتاج للتواري عن أنظارهم.

(١٧) **وتعرض للطم والشتم** "ولما قال هذا، لطم يسوع واحد من الخدام كان واقفا" (يوحنا ٢٢/ ١٨)، فلم يستطع أن يدفع عن نفسه إلا بالكلام، لأنه كان موثقا "قبضوا على يسوع وأوثقوه" (يوحنا ٨/ ١٢).

(١٨) **بل وتزعم الأناجيل أنه مات**، فهل الرب يموت؟ "فصرخ يسوع بصوت عظيم، وأسلم الروح" (مرقس ١٥/ ٣٧). ولا يجد الأسقف ترتليان (ق٣) ما يدفع به هذه

القاصمة إلا أن يقول: " لقد مات ابن الله! ذلك شيء غير معقول، لا لشيء، إلا لأنه مما لا يقبله العقل، وقد دفن من بين الموتى، وذلك أمر محقق، لأنه مستحيل[1]، ومع ذلك يؤمن به ترتليان والنصارى من بعده.

(١٩) **وأخيرًا**، فإن مما يؤكد بشرية المسيح ما أخبر من أنه عليه السلام سيدخل الجنة التي وعدها الله عباده المؤمنين، ومنهم المسيح وتلاميذه، وأنه سيشرب في اليوم الآخر ويأكل معهم، حيث قال: "في بيت أبي منازل كثيرة... أنا أمضي لأعد لكم مكانًا.... حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضًا " (يوحنا ١٤/ ٢ – ٣)، وقال: " إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم، حينما أشربه معكم جديدًا في ملكوت أبي" (متى ٢٦/ ٢٩). وجماع هذا كله قوله عليه السلام عن نفسه: "وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله " (يوحنا ٨/ ٤٠)، أفلا نقبل شهادته عليه السلام عن نفسه؟! فلو كان إلهًا لما صح منه أن يعمي علينا هذه الحقيقة بمثل هذا القول الصريح الدال على إنسانيته. وحين يصر النصارى على القول بألوهيته؛ فإنهم يضربون بعرض الحائط قول المسيح وتلاميذه، ويتنكرون بذلك لكل هذه النصوص التي لم تتحدث أبدا عن إله متجسد، ولا عن ناسوت حل به الله. وبذا يكون النصارى قد وقعوا فيما حذر منه مقدسهم بولس الذي تبرأ منهم ومن صنيعهم، حيث قال: " **لأَنَّهُمْ لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلهٍ، بَلْ حَمِقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ، وَأَظْلَمَ قَلْبُهُمُ الْغَبِيُّ. ٢٢وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاَءَ، ٢٣وَأَبْدَلُوا مَجْدَ اللهِ الَّذِي لاَ يَفْنَى بِشِبْهِ صُورَةِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَفْنَى، وَالطُّيُورِ، وَالدَّوَابِّ، وَالزَّحَّافَاتِ. ٢٤لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ أَيْضًا فِي شَهَوَاتِ قُلُوبِهِمْ إِلَى النَّجَاسَةِ، لإِهَانَةِ أَجْسَادِهِمْ بَيْنَ ذَوَاتِهِمِ. ٢٥الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا حَقَّ اللهِ بِالْكَذِبِ، وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ، الَّذِي هُوَ مُبَارَكٌ إِلَى الأَبَدِ.** " (رومية ١/ ٢١-٢٥).

الوجه الخامس: الأدلة على بطلان ألوهية المسيح عليه السلام من رسائل بولس.[2]

---

(١) انظر: المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل، عبد الكريم الخطيب، ص (٣٤٣).

(٢) **قال سعد رستم**: يرى كثير من المحققين الغربيين، الذين كتبوا عن المسيحية وعقائدها، في القرنين الأخيرين، ومثلهم كذلك عدد من الكتاب المسلمين، أن بولس ـ القديس الأكبر للنصرانية وصاحب ال ١٤

رسالة الملحقة بالأناجيل في كتاب العهد الجديد ـ هو واضع فكرة إلهية المسيح، ومبتدع عقيدة التجسد، وكنت أيضا من جملة من يعتقد أن بولس هو الذي أدخل هذه البدعة إلى النصرانية، إلى أن قيَّض الله تعالى لي اقتناء ومطالعة الترجمة العربية الحديثة للكتاب المقدس- حسب الرواية الكاثوليكية- التي نشرتها الرهبانية اليسوعية في بيروت عام ١٩٨٩، والمحلاة بالمقدمات لكل سفر، والحواشي الممتازة المتضمنة لشروح وإحالات مفيدة للغاية؛ إذ تساعد على إدراك معنى كثير من العبارات الغامضة، بالرجوع إلى ما يماثلها في المواضع الأخرى من الكتاب المقدس، فتبين لي لدى دراسة رسائل بولس والاستضاءة بتلك الحواشي، ومراجعة الترجمة الفرنسية العصرية المراجَعة المحققة للكتاب المقدس، وترجمته الإنجليزية العصرية المراجَعة المحققة أيضا، سيما للمواضع المتشابهة والحساسة في النص العربي، **تبين أن عبارات بولس التي يظن عادة أنها نص منه على تأليه المسيح، لا تخرج عن أحد ثلاثة أمور:**

١ ـ إما هي ترجمة احتمالية مرجوحة للنص اليوناني الأصلي، الذي يمكن ـ كما تشير الحواشي والترجمات المختلفة ـ أن يترجم بصورة أخرى، تبعا للتغُّير المحتمل للموضع، المشكوك به، للفاصلة أو النقطة في النص الأصلي، مما يجعل العبارة تتغير تغيرا تاما من نص على إلهية المسيح إلى كلام عن إلهية الله تعالى الآب!

٢ ـ أو هي عبارات مجازية، من الخطأ فهمها على معناها الحرفي الظاهر، وذلك بدلالة سياق الكلام، وبدلالة القرائن الأخرى، كملاحظة موارد استعمال بولس لنفس هذه الألفاظ في المواضع الأخرى من رسائله، مما يبين أن المراد الحقيقي لبولس من هذه الألفاظ هو معنى مجازي استعاري وليس المعنى الحرفي.

٣ ـ أو هي عبارة تتضمن وصف المسيح بلفظة مشتركة، مثل لفظة: " الربّ "، التي أحد معانيها هو الله، لكن لها معنى آخر هو: السيد، مع وجود قرائن تؤكد أن بولس يريد منها هذا المعنى الثاني غير التأليهي.

وبالتالي اتضح لي لدى التحقيق؛ أنه لا توجد في رسائل بولس، أي عبارة أو نص صريح قاطع في تأليهه للمسيح، بمعنى اعتباره الله تعالى نفسه الذي تجسد ونزل لعالم الدنيا، بل على العكس، نجد في رسائل بولس، نصوص واضحة ومحكمة لا تحتمل أي تأويل، تؤكد أن عقيدة الرجل كانت توحيدية محضة، حيث يؤكد على تفرّد الله تعالى (الآب) بالإلهية والربوبية والخالقية واستحقاق العبادة، وأنه وحده الإله الخالق الحكيم القدير بذاته، الذي لم يُرَ ولا يُرَى، الذي أبدع المخلوقات لوحده وأوجد جميع الكائنات بمن فيهم المسيح نفسه، الذي يعتبره بولس بكر كل خليقة، أي أول مخلوقات الله ﷻ، ويصرح بولس: **بأن الله تعالى إله المسيح وسيده.** نعم يعتقد بولس أن الله تعالى، خلق بالمسيح وفيه سائر الكائنات، أي ينظر للمسيح بمنظار اللوجوس في الفلسفة الأفلوطينية الحديثة التي ترى ـ حسب نظرية الفيض ـ أن اللوجوس (العقل الكلي) هو أول ما فاض عن المبدأ الأول (الله) وبه وفيه وجدت سائر الكائنات؛ فبولس يرى أن المسيح هو ذلك الكائن الروحي الوسيط الذي فاض عن الله وبه وفيه خلق الله سائر الكائنات، واتخذه الله ابنًا حبيبًا وجعله الواسطة بينه وبين خلقه، ثم صيره في آخر الزمن، في الميعاد المقرر أزلًا، إنسانًا بشرًا، وأرسله لخلاص بني

القسم الأول: أقاويل بولس الصريحة في نفي إلاهية المسيح، وإفراد الله تعالى وحده بالألوهية.

أولًا: أقوال بولس في توحيد الذات الإلهية، وإفراد الله تعالى بالإلهية والربوبية والخالقية والقدرة المستقلة: ١ ـ يقول بولس في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس (و في الطبعات البروتستانتية تسمى كورنثوس) (٨/ ٤ ـ ٦): " فَمِنْ جِهَةِ أَكْلِ مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ: نَعْلَمُ أَنْ لَيْسَ وَثَنٌ فِي الْعَالَمِ، وَأَنْ لَيْسَ إِلهٌ آخَرُ إِلاَّ وَاحِدًا. ٥ لأَنَّهُ وَإِنْ وُجِدَ مَا يُسَمَّى آلِهَةً، سِوَاءٌ كَانَ فِي السَّمَاءِ أَوْ عَلَى الأَرْضِ، كَمَا يُوجَدُ آلِهَةٌ كَثِيرُونَ وَأَرْبَابٌ كَثِيرُونَ. ٦ لكِنْ لَنَا إِلهٌ وَاحِدٌ: الآبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ لَهُ. وَرَبٌّ وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بِهِ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ بِهِ. ورب واحد وهو يسوع، به كل شيء وبه نحن أيضًا ".

قلت: فهذا النص صريح في انحصار الإلهية بالله الآب وحده.

٢ ـ ويقول بولس في رسالته إلى أهل أفسس (٤ / ٥ ـ ٦): " رَبٌّ وَاحِدٌ، إِيمَانٌ وَاحِدٌ، مَعْمُودِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، ٦ إِلهٌ وَآبٌ وَاحِدٌ لِلْكُلِّ، الَّذِي عَلَى الْكُلِّ وَبِالْكُلِّ وَفِي كُلِّكُمْ. "

الإنسان، بعمله التكفيري العظيم، الذي تجلى ـ حسب قول بولس ـ بآلامه وسفك دمه وموته على الصليب، تكفيرًا لخطايا البشر وفداء لهم بنفسه، فكرمه الله تعالى لأجل ذلك، ومجَّده ورفع قدره فوق كل الكائنات وأجلسه عن يمينه فوق عرشه (يتفق النصارى هنا على تنزيه الله تعالى عن حدود المكان والزمان ويفهمون هذه العبارات على نحو غير تجسيمي) وجعله شفيعا للمؤمنين وقاضيا وحاكما بينهم يوم الدين، ثم ليخضع في النهاية لأبيه الروحي وخالقه وإلهه: الله تعالى الذي هو ـ حسب تعبير بولس ـ الكل في الكل. تلك هي خلاصة عقيدة بولس في المسيح، كما تترشح من رسائله وتعاليمه، وهي عقيدة، وإن كانت لا تخلو من غلو وخلط بين الدين والفلسفة اليونانية، ومبالغة بحق المسيح لا دليل عليها في الإنجيل، إلا أنها مع ذلك حفظت الحد الفاصل بين الله تعالى (الآب) في وحدانيته وتفرده بالقدم والإلهية، وبين المسيح المخلوق والخاضع لأبيه وإلهه الله تعالى ـ على حد تعبير بولس ـ فلم تشرك المسيح مع الله في الذات واستحقاق العبادة، ولا ساوت بينه وبين الله تعالى في الإلهية ـ كما فعل ذلك للأسف دستور الإيمان النصراني الذي قرره مجمع نيقية ـ بل أبقته في دائرة الكائن المخلوق والعبد الخاضع لسلطان الله تعالى العابد له والمتبع لأمره، وبالتالي حافظت على وحدانية ذات الله تعالى.

وفيما ذكر أعلى الصفحة سنبين الشواهد على ما نقول، ثم نعقب ذلك بالرد على شبهاتهم من بعض أقوال بولس المشتبهة التي تحتاج لتوضيح.

هذا وسنعتمد في الغالب على الترجمة العربية الحديثة الكاثوليكية للرهبانية اليسوعية في بيروت للعهد الجديد.

٣- ويقول بولس في رسالته الأولى إلى طيموتاوس (٢ / ٥): " لأَنَّهُ يُوجَدُ إِلهٌ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ الله وَالنَّاسِ: الإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ ". قلت: وهذه الجملة غاية في الصراحة والوضوح في إفراد الله تعالى بالألوهية ونفيها عن المسيح؛ إذ هي تؤكد أولا أن الله واحد، وأن المسيح شيء آخر، حيث هو الواسطة بين الله والناس، وبديهي أن الواسطة غير الموسوط، علاوة على تأكيده أن المسيح، ككلٍّ إنسانٌ، وبهذا يتم الفصل بين الله والمسيح بكل وضوح، وتخصص الألوهية لله تعالى وحده فقط، فأنى يؤفكون! !

٤ ـ ثم يقول بولس في نفس الرسالة، بعد جملته تلك (٦ / ١٣ ـ ١٦): " وأوصيك في حضرة الله الذي يحيي كل شيء وفي حضرة يسوع المسيح الذي شهد شهادة حسنة في عهد بنطيوس بيلاطس، أن تحفظ هذه الوصية وأنت بريء من العيب واللوم إلى أن يظهر ربنا يسوع المسيح فسَيُظْهِرُه في الأوقات المحددة له:

المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الأرباب، الذي وحده له عدم الموت، ساكنًا في نور لا يدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه، الذي له الكرامة والقدرة الأبدية، آمين. " (حسب الترجمة البروتستانتية).

ذلك السعيد القدير وحده ملك الملوك ورب الأرباب، الذي له وحده الخلود ومسكنه نور لا يقترب منه، وهو الذي لم يره إنسان ولا يستطيع أن يراه، له الإكرام والعزة الأبدية. آمين. " (حسب الترجمة الكاثوليكية للرهبانية اليسوعية).

٥ ـ وفيما يلي نص خطبة خطبها بولس في أعيان مدينة أثينا، كما جاءت في أعمال الرسل (١٧ / ٢٢ ـ ٣٢): " فَوَقَفَ بُولُسُ فِي وَسْطِ أَرِيُوسَ بَاغُوسَ وَقَالَ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الأَثِينِوِيُّونَ! أَرَاكُمْ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ كَأَنَّكُمْ مُتَدَيِّنُونَ كَثِيرًا، لأَنَّنِي بَيْنَمَا كُنْتُ أَجْتَازُ وَأَنْظُرُ إِلَى مَعْبُودَاتِكُمْ، وَجَدْتُ أَيضًا مَذْبَحًا مَكْتُوبًا عَلَيْهِ: «لإِلهٍ مَجْهُول». فَالَّذِي تَتَّقُونَهُ وَأَنْتُمْ تَجْهَلُونَهُ، هذَا أَنَا أُنَادِي لَكُمْ بِهِ. الإِلهُ الَّذِي خَلَقَ الْعَالَمَ وَكُلَّ مَا فِيهِ، هذَا، إِذْ هُوَ رَبُّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، لاَ يَسْكُنُ فِي هَيَاكِلَ مَصْنُوعَةٍ بِالأَيَادِي، وَلاَ يُخْدَمُ بِأَيَادِي النَّاسِ كَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى شَيْءٍ، إِذْ هُوَ يُعْطِي الْجَمِيعَ

حَيَاةً وَنَفْسًا وَكُلَّ شَيْءٍ. وَصَنَعَ مِنْ دَمٍ وَاحِدٍ كُلَّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ عَلَى كُلِّ وَجْهِ الأَرْضِ، وَحَتَمَ بِالأَوْقَاتِ الْمُعَيَّنَةِ وَبِحُدُودِ مَسْكَنِهِمْ، لِكَيْ يَطْلُبُوا الله لَعَلَّهُمْ يَتَلَمَّسُونَهُ فَيَجِدُوهُ، مَعَ أَنَّهُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا لَيْسَ بَعِيدًا. لأَنَّنَا بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ. كَمَا قَالَ بَعْضُ شُعَرَائِكُمْ أَيضًا: لأَنَّنَا أيضًا ذُرِّيَّتُهُ. فَإِذْ نَحْنُ ذُرِّيَّةُ الله، لاَ يَنْبَغِي أَنْ نَظُنَّ أَنَّ اللاَّهُوتَ شَبِيهٌ بِذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ حَجَرِ نَقْشِ صِنَاعَةِ وَاخْتِرَاعِ إِنْسَانٍ. فَالله الآنَ يَأْمُرُ جَمِيعَ النَّاسِ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَنْ يَتُوبُوا، مُتَغَاضِيًا عَنْ أَزْمِنَةِ الْجَهْلِ. [٣١] لأَنَّهُ أَقَامَ يَوْمًا هُوَ فِيهِ مُزْمِعٌ أَنْ يَدِينَ الْمَسْكُونَةَ بِالْعَدْلِ، بِرَجُلٍ قَدْ عَيَّنَهُ، مُقَدِّمًا لِلْجَمِيعِ إِيمَانًا إِذْ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ".

قلت: فقد تكلم كلامًا جميلًا عن الله تعالى، ولم يأت بكلمة على أن المسيح كان هو ذاك الله الذي تكلم عنه، بل على العكس، قال: إن الله أقام رجلًا (أي إنسانًا) ليدين العالم عن طريقه، وأماته ثم بعثه ليجعله عَلَمًا ودليلا على يوم القيامة، وهكذا نلاحظ التمايز والفصل التام بين الله في وحدانيته والمسيح.

القسم الثاني: أقوال بولس الواضحة في توحيد الأفعال، وفي توحيد العبودية أي صرف كل مظاهر العبادة مثل الصلاة والدعاء والشكر والحمد والثناء والاستغاثة والالتجاء لله الآب وحده دون غيره:

١- يقول بولس في رسالته إلى أهل فيليبي (٤ / ٦ - ٧): " لاَ تَهْتَمُّوا بِشَيْءٍ، بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالصَّلاَةِ وَالدُّعَاءِ مَعَ الشُّكْرِ، لِتُعْلَمْ طِلْبَاتُكُمْ لَدَى الله. [٧] وَسَلاَمُ الله الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ عَقْلٍ، يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ".

قلت: فطلب الحوائج والصلاة والدعاء والشكر يجب رفعها لله تعالى،؛ لكي ينزل الله سكينته على المؤمنين بواسطة المسيح؛ ولكي يثبت قلوبهم - في المصاعب - على الإيمان، والثقة بالمسيح ومحبته.

٢ - ويقول في رسالته إلى أهل أفسس (٣ / ١٤ - ٢٠): " بِسَبَبِ هذَا أَحْنِي رُكْبَتَيَّ لَدَى أَبِي رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، [١٥] الَّذِي مِنْهُ تُسَمَّى كُلُّ عَشِيرَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَعَلَى الأَرْضِ. [١٦] لِكَيْ يُعْطِيَكُمْ بِحَسَبِ غِنَى مَجْدِهِ، أَنْ تَتَأَيَّدُوا بِالْقُوَّةِ بِرُوحِهِ فِي الإِنْسَانِ الْبَاطِنِ، [١٧] لِيَحِلَّ

الْمَسِيحُ بِالإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ، [١٨] وَأَنْتُمْ مُتَأَصِّلُونَ وَمُتَأَسِّسُونَ فِي الْمَحَبَّةِ، حَتَّى تَسْتَطِيعُوا أَنْ تُدْرِكُوا مَعَ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ، مَا هُوَ الْعَرْضُ وَالطُّولُ وَالْعُمْقُ وَالْعُلْوُ، [١٩] وَتَعْرِفُوا مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ الْفَائِقَةَ الْمَعْرِفَةِ، لِكَيْ تَمْتَلِئُوا إِلَى كُلِّ مِلْءِ اللهِ. [٢٠] وَالْقَادِرُ أَنْ يَفْعَلَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، أَكْثَرَ جِدًّا مِمَّا نَطْلُبُ أَوْ نَفْتَكِرُ، بِحَسَبِ الْقُوَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ فِينَا، [٢١] لَهُ الْمَجْدُ فِي الْكَنِيسَةِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ إِلَى جَمِيعِ أَجْيَالِ دَهْرِ الدُّهُورِ. آمِينَ. ".

قلت: فبولس يؤكد أن الصلاة (الجثو على الركبتين)، إنما هي للآب فقط، لأنه منه وحده يستمد كل شيء، اسمه ووجوده، كما أنه بيده تعالى قلوب العباد، ومنه تعالى الثبات والتوفيق والهداية التي ينزلها على من يشاء بواسطة الملائكة والمسيح، فالمسيح هو مَجرَى الفيض وواسطة المدد فحسب، لذا فالتسبيح والمجد لله تعالى المعطي والمفيض، ويا ليت النصارى يأخذون بهذا ويكفون عن عبادة المسيح، والجثو للصلبان والتماثيل!

٣ ـ ويقول في رسالته الثانية إلى أهل قورنتس (١/ ٣ ـ ٤ و٩ ـ ١٠): "تبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح، أبو الرأفة وإله كل عزاء، فهو الذي يعزينا في جميع شدائدنا لنستطيع، بما نتلقى نحن من عزاء من الله أن نعزي الذين هم في أية شدة كانت. . . لئلا نتكل على أنفسنا بل على الله الذي يقيم الأموات، فهو الذي أنقذنا من أمثال هذا الموت وسيُنقِذُنا منه: وعليه جعَلْنَا رجاءَنا بأنه سينقذنا منه أيضًا. "ثم يقول في نفس الرسالة أيضًا: " وإن الذي يثبتنا وإياكم للمسيح، والذي مسحنا، هو الله، وهو الذي ختمنا بختمه وجعل في قلوبنا عربون الروح. . الشكر لله الذي يستصحبنا دائما أبدا في نصرِهِ بالمسيح وينشر بأيدينا في كل مكان شذى معرفته. . "

القسم الثالثُ: أقوال بولس الصريحة الواضحة في أن الله تعالى إلهُ المسيحِ وخالقُهُ وسيدُهُ، وأن المسيحَ عبدٌ مخلوقٌ خاضعٌ لسلطان الله، وهذا في مسائل:

الأولى: أن المسيح عليه السلام مخلوق لله وقد جاء واضحا في رسالة بولس إلى أهل قولسي (أو كولوسي) (١/ ١٥) حيث قال يصف المسيح: "**الَّذِي هُوَ صُورَةُ الله الذي لا يرى بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ.** "

فها هو قد وصف المسيح بأنه " **بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ** " وهذا تصريح بأن المسيح هو باكورة

خليقة الله أي أول مخلوقات الله المتصدر لعالم الخلق، وبديهي أن المخلوق عبد لخالقه ولا يكون إلها أبدًا.

الثانية: أن الله تعالى إلهُ المسيح وقد جاء صريحًا في قول بولس في رسالته إلى أهل أفسس (١ / ١٦ ـ ١٧): " لاَ أَزَالُ شَاكِرًا لأَجْلِكُمْ، ذَاكِرًا إِيَّاكُمْ فِي صَلَوَاتِي، [١٧] كَيْ يُعْطِيَكُمْ إِلهُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الْمَجْدِ، رُوحَ الْحِكْمَةِ وَالإِعْلاَنِ فِي مَعْرِفَتِهِ " قلت: فهذا بيان صريح في أن الله تعالى، أبا المجد، هو إلهُ يسوع، وبالتالي يسوع عبده، وهذا نفي قاطع لإلهية المسيح لأن الإله لا يكون له إله!

الثالثة: أن المسيح يستمد قوته من الله ويخضع في النهاية، ككل المخلوقات، لله تعالى، وقد جاء صريحًا في كلام بولس، في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس (كورنثوس): (١٥ / ٢٤ ـ ٢٨): " وَبَعْدَ ذلِكَ النِّهَايَةُ، مَتَى سَلَّمَ الْمُلْكَ للهِ الآبِ، مَتَى أَبْطَلَ كُلَّ رِيَاسَةٍ وَكُلَّ سُلْطَانٍ وَكُلَّ قُوَّةٍ. لأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَمْلِكَ حَتَّى يَضَعَ جَمِيعَ الأَعْدَاءِ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. آخِرُ عَدُوٍّ يُبْطَلُ هُوَ الْمَوْتُ. لأَنَّهُ أَخْضَعَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. وَلكِنْ حِينَمَا يَقُولُ: «إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أُخْضِعَ» فَوَاضِحٌ أَنَّهُ غَيْرُ الَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ. وَمَتَى أُخْضِعَ لَهُ الْكُلُّ، فَحِينَئِذٍ الابْنُ نَفْسُهُ أيضًا سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ، كَيْ يَكُونَ اللهُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ. "

قلت: تظهر من هذا النص الحقائق التالية:

١- أن الْمُلْكَ الحقيقيَ الأصيلَ للهِّ الآبِ وحدَه، وأما السلطان والْمُلْكُ الذي أوتيه المسيح، فهو من عطاء الله وموهبته، وهو أمانة لأداء رسالة محددة وفق مشيئة الله، ثم يسلم المسيح فيها بعد الأمانة لصاحبها الحقيقي.

٢- أن المسيح لم يخضِع شيئًا من قوات الشر في العالم بقوته الذاتية، بل الله تعالى هو الذي أخضعها له.

٣- أن المسيح نفسَه، بعد أن ينصره الله على قوى الشر ويجعلها تحت قدميه، سيخضع بنفسه لله؛ ليكون الله تعالى وحده الكل في الكل. ويذكرنا هذا بقوله تعالى في قرآنه المجيد:

﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم: ٤٢).

وكل نقطة من هذه النقاط الثلاث تأكيد واضح على عدم إلهية المسيح.

القسم الرابع: تأكيد بولس الدائم، على الغيرية الكاملة بين الله تعالى والمسيح عليه السلام والتعبير عنهما دائما ككائنين اثنين وشخصين منفصلين: من أوضح الأدلة على عدم اعتقاد بولس إلهية المسيح؛ ما يظهر في كل عبارة من عبارات رسائله، من فصل وتمييز واضحين بين الله، والذي يعبر عنه غالبا بالآب أو أبينا، والمسيح، الذي يعبر عنه غالبا بالرب أو ربنا، واعتبارهما شخصين اثنين وكائنين منفصلين، و الشواهد على هذا الموضوع - أعني أن الله غير المسيح وأنهما اثنين - من كلام بولس، كثيرة جدًا، مر بعضها فيما سبق، ونضيف هنا بعض الشواهد الأخرى لمزيد من التوضيح:

١ - الديباجة الدائمة التي يفتتح بها بولس رسائله فيقول: " نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ أَبِينَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ".

٢ - في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس (٣ / ٢٢): " كُلُّ شَيْءٍ لَكُمْ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلِلْمَسِيحِ، وَالْمَسِيحُ للهِ "

٣ - وفي رسالته الثانية إلى أهل تسالونيقي (٢ / ١٦ - ١٧): " وَرَبُّنَا نَفْسُهُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ، وَاللهُ أَبُونَا الَّذِي أَحَبَّنَا وَأَعْطَانَا عَزَاءً أَبَدِيًّا وَرَجَاءً صَالِحًا بِالنِّعْمَةِ، يُعَزِّي قُلُوبَكُمْ وَيُثَبِّتُكُمْ فِي كُلِّ كَلاَمٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ. "

٤ - وفي رسالته إلى أهل أفسس (١ / ١٩ - ٢٢) يتحدث بولس عن عمل الله الذي عمله في المسيح فيقول: " إِذْ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، وَأَجْلَسَهُ عَنْ يَمِينِهِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ، [٢١] فَوْقَ كُلِّ رِيَاسَةٍ وَسُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ وَسِيَادَةٍ، وَكُلِّ اسْمٍ يُسَمَّى لَيْسَ فِي هذَا الدَّهْرِ فَقَطْ بَلْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيضًا، [٢٢] وَأَخْضَعَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وَإِيَّاهُ جَعَلَ رَأْسًا فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ لِلْكَنِيسَةِ. "

وهذا الموضوع نفسه تكرر مرارًا في رسائل بولس. انظر على سبيل المثال: (أعمال الرسل: ١٣ / ٣٠)، ورسالته إلى (أهل رومية: ٨ / ١١ و١٠/ ٩)، ورسالته الأولى إلى (أهل تسالونيقي: ١ / ١٠)، ورسالته إلى (أهل أفسس: ١ / ٢٠) و رسالته إلى (أهل

قورنتس: ٦ / ١٤). ففي كل هذا تأكيد واضح وضوح الشمس في رابعة النهار على التميز والفصل الكامل بين الله والمسيح وأنهما اثنان لا واحد.

القسم الخامس: بولس يصف المسيح بصفات ينفيها عن الله وينزِّه الله عنها:

١ ـ بين بولس مرارًا موت المسيح وأنه دفن وبقي في قبره ثلاثة أيام إلى أن بعثه الله تعالى حيا: انظر رسالته إلى (رومية: ٨ / ٣٤) وفيها يقول: من هو الذي يدين المسيح هو الذي مات بل بالحري قام أيضًا الذي هو أيضًا عن يمين الله الذي أيضًا يشفع فينا. وفيها أيضًا (١٤ / ٨و ٩)، " [٨]لأَنَّنَا إِنْ عِشْنَا فَلِلرَّبِّ نَعِيشُ، وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَمُوتُ. فَإِنْ عِشْنَا وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَحْنُ. [٩]لأَنَّهُ لِهذَا مَاتَ الْمَسِيحُ وَقَامَ وَعَاشَ، لِكَيْ يَسُودَ عَلَى الأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ. " (أهل غلاطية: ٢ / ٢١)، وقد قال فيها: لست أبطل نعمة الله لأنه ان كان بالناموس بر فالمسيح إذا مات بلا سبب.

ورسالته إلى (أهل فيليبي: ٢ / ٨). . وفيها يقول: " [٨]وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ. . . الخ ما قال بولس في هذا المعنى. هذا في حين يقول بولس واصفًا الله تبارك وتعالى: ". . . الْمُبَارَكُ الْعَزِيزُ الْوَحِيدُ: مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ، [١٦]الَّذِي وَحْدَهُ لَهُ عَدَمُ الْمَوْتِ، سَاكِنًا فِي نُورٍ لاَ يُدْنَى مِنْهُ، الَّذِي لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَاهُ، الَّذِي لَهُ الْكَرَامَةُ وَالْقُدْرَةُ الأَبَدِيَّةُ. آمِينَ. ".

٢ـ كما ذكر بولس في رسائله مرارا أن المسيح تألم وعانى الشدائد، فعلى سبيل المثال نجده يقول في رسالته إلى أهل كولوسي (١/ ٢٤): " الَّذِي الآنَ أَفْرَحُ فِي آلاَمِي لأَجْلِكُمْ، وَأُكَمِّلُ نَقَائِصَ شَدَائِدِ الْمَسِيحِ فِي جِسْمِي لأَجْلِ جَسَدِهِ، الَّذِي هُوَ الْكَنِيسَةُ، "، أو يقول في رسالته الثانية إلى أهل قورنتس (١ / ٥): " لأَنَّهُ كَمَا تَكْثُرُ آلاَمُ الْمَسِيحِ فِينَا، كَذلِكَ بِالْمَسِيحِ تَكْثُرُ تَعْزِيَتُنَا أيضًا ". هذا في حين أن بولس، لما كان يقوم بالتبشير مع برنابا، في منطقة إيقونية، وظهرت على أيديهما معجزات في مدينة لسترة حيث أقاما رجلًا مقعدًا خلقة فجعلاه يمشي ـ كما جاء في سفر أعمال الرسل ـ، وهجم وثنيو المدينة عليهما معتقدين أنهما إلهين نزلا من السماء! وأرادوا أن يقدموا لهما ذبائح! ! فصاحا (أي بولس وبرنابا) في

أولئك الوثنيين الجهلة قائلين: " ١٥«أَيُّهَا الرِّجَالُ، لِمَاذَا تَفْعَلُونَ هذَا؟ نَحْنُ أَيْضًا بَشَرٌ تَحْتَ آلاَمٍ مِثْلُكُمْ، نُبَشِّرُكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا مِنْ هذِهِ الأَبَاطِيلِ إِلَى الإِلهِ الْحَيِّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا. . . " (أعمال الرسل: ١٤ / ٨ ـ ١٥). **والآن؛ بعد أن ذكرنا النصوص الدالة على بطلان هذه العقيدة من القرآن، والسنة، والأناجيل الأربعة، ورسائل بولس؛ ننتقل إلى الأدلة التي استدل بها القوم على ألوهية المسيح، وهي في الحقيقة عبارة عن شبهات وليست أدلة، وسنسوق كل شبهة منها ونتبعها بالرد عليها.**

الوجه السادس: بطلان أدلة النصارى على ألوهية المسيح عليه السلام.

تمهيد:

وقبل أن نبدأ بمناقشة أدلة النصارى، فإنا نسجل ملاحظات هامة في هذا الباب:

١- أنه لا يوجد نص واحد في الكتاب المقدس يصرح فيه المسيح بألوهيته أو يطلب من الناس عبادته.

٢- كما لم يعبده أحد من معاصريه، ولم ينظر إليه هؤلاء إلا كمدع للنبوة، آمن به بعضهم، وكفر بنبوته الأكثرون من اليهود.

٣- لكن دعوى ألوهيته لا أساس لها في الكتاب المقدس، وفي هذا الصدد يتحدى ديدات، كبير قساوسة السويد في مناظرتها المتلفزة قائلًا: "أضع رأسي تحت مقصلة لو أطلعتموني على نص واحد قال فيه عيسى عن نفسه: أنا إله. أو قال: اعبدوني"، وهيهات أن يجدوه.

٤- أنه لم يكن أحد من تلاميذ المسيح يعتقد ألوهية المسيح، إذ لم يعبده واحد منهم، بل كلهم وجميع معاصري المسيح ما كانوا يعتقدون أكثر من نبوته، كما مر وسيأتي معنا تفصيله.

٥- ثم إن أقوى ما يتعلق به النصارى من الدليل، لا يوجد إلا في إنجيل يوحنا، ورسائل بولس، بينما تخلو الأناجيل الثلاثة من دليل واضح ينهض في إثبات ألوهية المسيح. بل إن خلو هذه الأناجيل عن الدليل المفقود هو الذي دفع يوحنا - أو كاتب يوحنا - لكتابة إنجيل عن لاهوت المسيح، فكتب ما لم يكتبه الآخرون، وجاءت كتابته مشبعة بالغموض والفلسفة الغريبة عن بيئة المسيح البسيطة التي صحبه بها العوام من أتباعه.

٦- عدم الدليل الصحيح الصريح على ألوهية المسيح، جعل النصارى يحرفون في طبعات الأناجيل الجديدة، ومن ذلك إضافتهم نص التثليث الصريح الوحيد في (يوحنا (١) ٥/ ٧). [١]

والأدلة التي يتعلق النصارى بها على ألوهية المسيح ﷺ على ستة ضروب، هي: [٢]

أولًا: نصوص نسبت إلى المسيح الألوهية والربوبية، والتي يسمونها (ألقاب الله).

ثانيًا: نصوص بنوة المسيح لله.

ثالثًا: نصوص الحلول الإلهي في المسيح.

رابعًا: نصوص نسبت صفات الله إلى المسيح.

خامسًا: نصوص نسبت أفعال الله إلى المسيح.

سادسًا: دلالة معجزات المسيح على ألوهيته.

أولًا: نصوص نسبت إلى المسيح الألوهية والربوبية

يستمسك النصارى بالألفاظ التي أطلقت على المسيح ﷺلفظ الألوهية والربوبية، ويرونها دالة على ألوهية المسيح، وفي أولها:

١- أنه سمي يسوع، وهي كلمة عبرانية أصلها: يهوه خلاص، ومعناها: الله خلاص.

٢- احتجاجهم وتمسكهم بما اعتبروه نبوءة عن المسيح في سفر إشعيا " لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْنًا، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا، مُشِيرًا، إِلهًا قَدِيرًا، أَبًا أَبَدِيًّا" (إشعيا ٩/ ٦).

٣- كذا يستمسكون بقول داود في وصفه للقادم المبشر به بالنبوات أنه ربه أو سيده: " قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: «اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ». يُرْسِلُ الرَّبُّ قَضِيبَ عِزِّكَ مِنْ صِهْيَوْنَ. تَسَلَّطْ فِي وَسَطِ أَعْدَائِكَ. شَعْبُكَ مُنْتَدَبٌ فِي يَوْمِ قُوَّتِكَ، فِي زِينَةِ

---

(١) ومثله وقع التحريف في قول بولس: " عظيم هو سر التقوى، الله ظهر في الجسد" (تيموثاوس (١) ٣/ ١٦) فالفقرة كما قال المحقق كريسباخ: محرفة، إذ ليس في الأصل كلمة "الله"، بل ضمير الغائب "هو" أو "الذي". أو هي بصيغة المبني للمجهول [أُظهر في الجسد] كما سبق بيانه.

(٢) نقل هذا الترتيب وكثير من كلام هذا الفصل من كتاب (الله جل جلاله واحد أو ثلاثة؟) للدكتور منقذ السقار (١٧) وما بعدها.

مُقَدَّسَةٍ مِنْ رَحِمِ الْفَجْرِ، لَكَ طَلُّ حَدَاثَتِكَ. أَقْسَمَ الرَّبُّ وَلَنْ يَنْدَمَ: «أَنْتَ كَاهِنٌ إِلَى الأَبَدِ عَلَى رُتْبَةِ مَلْكِي صَادَقَ " (المزمور ١١٠/ ١-٤)، فسماه داود عليه السلام ربًا. [١].

٤- كما يرى النصارى نبوءة أخرى دالة على ألوهية المسيح في قول إشعيا: " وَلكِنْ يُعْطِيكُمُ السَّيِّدُ نَفْسُهُ آيَةً: هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ «عِمَّانُوئِيلَ». " (إشعيا ٧/ ١٤)، فكلمة عمانويل تعني: الله معنا. ويرون تحقق النبوءة بالمسيح.

٥- كما بشر الملاك يوسف النجار خطيب مريم " فَسَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ. لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ». ٢٢ وَهذَا كُلُّهُ كَانَ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: ٢٣ «هُوَذَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا، وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: اللهُ مَعَنَا. " (متى ١/ ٢٣: ٢١).

فتسميته الله معنا دليل - عند النصارى - على ألوهيته.

٦- ومثله جاء في العهد الجديد قول بولس: " الْمَسِيحُ حَسَبَ الْجَسَدِ، الْكَائِنُ عَلَى الْكُلِّ إِلهًا مُبَارَكًا إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ. " (رومية ٩/ ٥).

٧- ومثله قول توما للمسيح: "ربي وإلهي" (يوحنا ٢٠/ ٢٨).

٨- كما قال بطرس له: "حاشاك يا رب" (متى ١٦/ ٢٢)، وقال أيضًا: "هذا هو رب الكل" (أعمال ١٠/ ٣٦).

٩- وجاء في سفر الرؤيا عن المسيح: " وَلَهُ عَلَى ثَوْبِهِ وَعَلَى فَخْذِهِ اسْمٌ مَكْتُوبٌ: «مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ " (الرؤيا ١٩/ ١٦)، وغير ذلك من النصوص مما أطلق على المسيح كلمة رب أو إله، فدل ذلك عندهم على ألوهيته وربوبيته.

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إن هذه الأسماء لا تفيد ألوهية أصحابها وبيان ذلك ما يلي:

١-لأن هذه الإطلاقات ما كان لها أن تجعل من المسيح ربًا وإلهًا؛ إذ كثير منها ورد في باب التسمية، وتسمية المخلوق إلهًا لا تجعله كذلك؛ فقد سمي بولس وبرنابا آلهة لما أتيا

---

(١) انظر: شرح بشارة لوقا، د. إبراهيم سعيد، ص (٥٠٤).

بعض المعجزات " فَالْجُمُوعُ لَمَّا رَأَوْا مَا فَعَلَ بُولُسُ، رَفَعُوا صَوْتَهُمْ بِلُغَةٍ لِيكَأُونِيَّةٍ قَائِلِينَ: «إِنَّ الآلِهَةَ تَشَبَّهُوا بِالنَّاسِ وَنَزَلُوا إِلَيْنَا" (أعمال الرسل ١٤/ ١١)، فقد كان من عادة الرومان تسمية من يفعل شيئًا فيه نفع للشعب: إلهًا، ولا تغير التسمية في الحقيقة شيئًا، ولا تجعل من المخلوق إلهًا، ولا من العبد الفاني ربًا وإلهًا.

٢- وقد سمي إسماعيل بهذا الاسم العبراني، ومعناه: "الله يسمع"، ومثله يهوياقيم أي: "الله يرفع"، ويهوشع "الرب خلص"، وغيرهم ... ولم تقتض أسماؤهم ألوهيتهم.

٣- وجاء في سفر الرؤيا: " مَنْ يَغْلِبُ فَسَأَجْعَلُهُ عَمُودًا فِي هَيْكَلِ إِلهِي، وَلاَ يَعُودُ يَخْرُجُ إِلَى خَارِجٍ، وَأَكْتُبُ عَلَيْهِ اسْمَ إِلهِي، وَاسْمَ مَدِينَةِ إِلهِي، أُورُشَلِيمَ الْجَدِيدَةِ النَّازِلَةِ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ إِلهِي، وَاسْمِي الْجَدِيدَ. " (الرؤيا ٣/ ١٢).

٤- وجاء في التوراة: " فَيَجْعَلُونَ اسْمِي عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ" (العدد ٦/ ٢٧)، ومع ذلك فليسوا آلهة. [1]

الوجه الثاني: هل سمي المسيح الرب والإله؟ وعلى فرض صدور التسمية، فهي لا تعني إلهًا معبودًا، وإنما تعني السيد المعلم:

فكلمة "الرب" التي ترد كثيرًا في التراجم العربية كلقب للمسيح هي في التراجم الأجنبية بمعنى: "السيد" أو "المعلم"، فالمقابل لها في الترجمة الإنجليزية هو كلمةlordومعناها: السيد، وفي الترجمة الفرنسية: monsier "، ومعناها: المعلم، وهكذا في سائر التراجم كالألمانية، والإيطالية، والأسبانية.

وما أتت به الترجمة العربية ليس بجديد، بل هو متفق مع طبيعة اللغة التي نطق بها المسيح ومعاصروه، فكلمة: "رب" عندهم تطلق على المعلم، وتفيد نوعًا من الاحترام والتقدير.

١- ففي إنجيل يوحنا أن المسيح كان يخاطبه تلاميذه: يا رب، ومقصودهم: يا معلم، فها هي مريم المجدلية" فَالْتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ: «رَبُّونِي! » الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ" وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب" (يوحنا ٢٠/ ١٦-١٧).

---

(١) وانظر دعوة الحق بين المسيحية والإسلام ١/ ٤٨٤.

٢- وخاطبه اثنان من تلاميذه: "رب الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ " (يوحنا ١/ ٣٨). ولم يخطر ببال أحد من التلاميذ المعنى الاصطلاحي لكلمة الرب حين أطلقوها على المسيح، فقد كانوا يريدون: المعلم والسيد، ولذلك شبهوه بيوحنا المعمدان حين قالوا له: " يَارَبُّ، عَلِّمْنَا أَنْ نُصَلِّيَ كَمَا عَلَّمَ يُوحَنَّا أيضًا تَلاَمِيذَهُ " (لوقا ١١/ ١).

٣- واستعمال لفظة الرب بمعنى: السيد، شائع في اللغة اليونانية، يقول ستيفن نيل: "إن الكلمة اليونانية الأصلية التي معناها: "رب" يمكن استعمالها كصيغة للتأدب في المخاطبة، فسجان فلبي يخاطب بولس وسيلة بكلمة: "سيدي" أو "رب"، يقول سفر الأعمال: " ثُمَّ أَخْرَجَهُمَا وَقَالَ: «يَا سَيِّدَيَّ، مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ أَفْعَلَ لِكَيْ أَخْلُصَ؟ » فَقَالاَ: «آمِنْ بِالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ فَتَخْلُصَ أَنْتَ وَأَهْلُ بَيْتِكَ " (أعمال الرسل ١٦/ ٣٠). . . وكانت اللفظة لقبًا من ألقاب الكرامة. . . ".

٤- ومما يؤكد صحة هذا التأويل قول بولس، وهو يصف المسيح بالرب، ولا يمنعه ذلك أن يجعله عبدا لله " كَيْ يُعْطِيَكُمْ إِلهُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الْمَجْدِ، رُوحَ الْحِكْمَةِ وَالإِعْلاَنِ فِي مَعْرِفَتِهِ " (أفسس ١/ ١٧).

٥- وأما قول توما للمسيح "ربي وإلهي" فهو لم يقع منه في مقام الخطاب للمسيح، بل لما رأى المسيح حيًا، وقد كان يظنه ميتا استغرب ذلك، فقال متعجبا: "ربي وإلهي" (يوحنا ٢٠/ ٢٨)، ومما يؤكد صحة هذا الفهم أن المسيح أخبر في نفس السياق بأنه سيصعد إلى إلهه. (انظر يوحنا ٢٠/ ١٧)، وعليه فالألوهية هنا لو أريد بها المسيح فهي مجازية غير حقيقية. وقد يشكل على البعض في قوله: " **أَجَابَ تُومَا وَقَالَ لَهُ: «رَبِّي وَإِلهِي! »**. " (يوحنا ٢٠/ ٢٨)، فيرى أن هذه الصيغة لم ترد في باب الاستغراب، بل في باب الخطاب المباشر للمسيح بلقب الألوهية، والحق أن (له) في النص إنما هي بمعنى لأجله أو لأجل ما رأى منه، ولها مثيل في الكتاب، في سفر صموئيل، حيث دعا النبي يوناثان الله من أجل داود، فيما يفهم من ظاهر السياق أن الحديث موجه إليه، وهو في الحقيقة دعاء لله من أجل داود،

يقول سفر صموئيل: " **وَقَالَ يُونَاثَانُ لِدَاوُدَ: «يَا رَبُّ إِلهَ إِسْرَائِيلَ، مَتَى اخْتَبَرْتُ أَبِي مِثْلَ الآنَ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ، فَإِنْ كَانَ خَيْرٌ لِدَاوُدَ وَلَمْ أُرْسِلْ حِينَئِذٍ فَأُخْبِرَهُ** " (صموئيل الأول ٢٠/ ١٢)، فهو نداء لله، والسياق يقول: "وقال يوناثان لداود "، أي لأجله.

ثم لو فهم المسيح من كلام توما أنه أراد ألوهيته لما سكت عليه السلام، فقد رفض عليه السلام حتى أن يدعى صالحا، إذ لما ناداه بعض تلاميذه: " أيها المعلم الصالح. . . لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ. " (متى ١٩/ ١٧) فكيف يقبل أن يدعى ربا وإلها على الحقيقة؟.

٦- وبخصوص الاستدلال بالمزمور " قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: «اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ " (المزمور ١١٠/ ١)، فهو لا يُراد به المسيح بحال من الأحوال، بل المراد منه المسيح المنتظر، الذي وعد به بنو إسرائيل، وهو محمد ﷺ. وقد أخطأ بطرس حين فهم أن النص يراد به المسيح، فقال: " لأَنَّ دَاوُدَ لَمْ يَصْعَدْ إِلَى السَّمَاوَاتِ. وَهُوَ نَفْسُهُ يَقُولُ: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي [٣٥] حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ. [٣٦] فَلْيَعْلَمْ يَقِينًا جَمِيعُ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ يَسُوعَ هذَا، الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمْ، رَبًّا وَمَسِيحًا. فَلَمَّا سَمِعُوا نُخِسُوا فِي قُلُوبِهِمْ" (أعمال الرسل٢/ ٣٤-٣٧). ودليل الخطأ في فهم بطرس، وكذا فهم النصارى؛ أن المسيح أنكر أن يكون هو المسيح الموعود على لسان داود، " وَفِيمَا كَانَ الْفَرِّيسِيُّونَ مُجْتَمِعِينَ سَأَلَهُمْ يَسُوعُ [٤٢] قَائِلاً: «مَاذَا تَظُنُّونَ فِي الْمَسِيحِ؟ ابْنُ مَنْ هُوَ؟ » قَالُوا لَهُ: «ابْنُ دَاوُدَ». [٤٣] قَالَ لَهُمْ: «فَكَيْفَ يَدْعُوهُ دَاوُدُ بِالرُّوحِ رَبًّا؟ قَائِلاً: [٤٤] قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ. [٤٥] فَإِنْ كَانَ دَاوُدُ يَدْعُوهُ رَبًّا، فَكَيْفَ يَكُونُ ابْنَهُ؟ » [٤٦] فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يُجِيبَهُ بِكَلِمَةٍ. وَمِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ لَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ أَنْ يَسْأَلَهُ بَتَّةً. " (متى ٢٢/ ٤١-٤٦). فالمسيح سأل اليهود عن المسيح المنتظر الذي بشر به داود وغيره من الأنبياء، "ماذا تظنون في المسيح، ابن من هو؟ " فأجابوه: "ابن داود"، فخطأهم، وقال: " فإن كان داود يدعوه ربا فكيف يكون ابنه! ".

٧- وفي مرقس: " كَيْفَ يَقُولُ الْكَتَبَةُ إِنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ دَاوُدَ؟ [٣٦] لأَنَّ دَاوُدَ نَفْسَهُ قَالَ بِالرُّوحِ

الْقُدُسِ: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي، حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ. ٣٧ فَدَاوُدُ نَفْسُهُ يَدْعُوهُ رَبًّا. فَمِنْ أَيْنَ هُوَ ابْنُهُ؟ " (مرقس ١٢/ ٣٧). وهو ما ذكره لوقا أيضًا " وَقَالَ لَهُمْ: «كَيْفَ يَقُولُونَ إِنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ دَاوُدَ؟ ٤٢ وَدَاوُدُ نَفْسُهُ يَقُولُ فِي كِتَابِ الْمَزَامِيرِ: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي ٤٣ حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ. ٤٤ فَإِذًا دَاوُدُ يَدْعُوهُ رَبًّا. فَكَيْفَ يَكُونُ ابْنَهُ؟ " (لوقا ٢٠/ ٤٠-٤٤)، فالمبشر به ليس من ذرية داود الذي سماه ربًا له أو سيدًا، فيما لا يختلف النصارى في أن المسيح كان من ذرية داود كما جاء في نسبيه في متى ولوقا.

٨- وأما ما جاء في إشعيا من التنبؤ بقدوم عمانوئيل، فهي ليست عن المسيح، الذي لم يتسم بهذا الاسم أبدًا، ولم يناد به إطلاقًا. والقصة في سفر إشعيا تتحدث عن قصة قد حصلت قبل المسيح بقرون، حين تآمر " راصين " ملك أدوم مع ملك مملكة إسرائيل الشمالية " فقح بن رمليا " على مملكة يهوذا الجنوبية وملكها آحاز، وقد جعل الله من ميلاد الطفل عمانوئيل علامة على زوال الشر عن مملكة يهوذا، وإيذانا بخراب مملكة راصين وفقح على يد الآشوريين، وموت الملكين المتآمرين، يقول إشعيا: " ثم عاد الرب فكلم آحاز قائلا:. . ولكن يعطيكم السيد نفسه آية. ها العذراء تحبل وتلد ابنا، وتدعو اسمه عمانوئيل. زبدا وعسلا يأكل.

متى عرف أن يرفض الشر ويختار الخير، لأنه قبل أن يعرف الصبي أن يرفض الشر ويختار الخير، تخلى الأرض التي أنت خاش من ملكيها (راصين وفقح)، يجلب الرب عليك وعلى شعبك وعلى بيت أبيك أياما لم تأت منذ يوم اعتزال أفرايم عن يهوذا أي ملك أشور.

ويكون في ذلك اليوم أن الرب يصفر للذباب الذي في أقصى ترع مصر وللنحل الذي في أرض أشور. . . لأنه قبل أن يعرف الصبي أن يدعو: يا أبي ويا أمي تحمل ثروة دمشق وغنيمة السامرة قدام ملك أشور" (إشعياء ٧/ ١- ٨/ ٤)، فالنص يتعلق بأحداث حصلت قبل المسيح بقرون، وذلك إبان الغزو الآشوري لفلسطين. وهذا النص الذي ذكره لوقا، وكذا النص الذي في إشعيا، قد تم تحريفهما عن الأصل ليصبحا نبوءة عن

المسيح وأمه العذراء، وكانت الترجمات القديمة للتوراة مثل ترجمة أيكوئلا، وترجمة تهيودوشن، وترجمة سميكس والتي تعود للقرن الثاني الميلادي، قد وضعت بدلا من العذراء: المرأة الشابة، وهو يشمل المرأة العذراء وغيرها، وذلك أن اللفظ المستخدم بالعبرانية هو (علما)، بمعنى: الصبية أو الشابة، وليس (بتولا)، التي تعني: العذراء.

ويذكر العلامة أحمد ديدات أن النسخة المنقحة (R. S. V) والصادرة عام ١٩٥٢م قد استبدلت كلمة العذراء في إشعيا بـ " الصبية "، ولكن هذا التنقيح لا يسري سوى على الترجمة الإنجليزية. (١)

٩- وبخصوص نبوءة النبي إشعيا " لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْنًا، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا، مُشِيرًا، إِلهًا قَدِيرًا، أَبًا أَبَدِيًّا، رَئِيسَ السَّلاَمِ. ٧لِنُمُوِّ رِيَاسَتِهِ، وَلِلسَّلاَمِ لاَ نِهَايَةَ عَلَى كُرْسِيِّ دَاوُدَ وَعَلَى مَمْلَكَتِهِ، لِيُثَبِّتَهَا وَيَعْضُدَهَا بِالْحَقِّ وَالْبِرِّ، مِنَ الآنَ إِلَى الأَبَدِ. " (إشعيا ٩/ ٦)، فإن أيًا من هذه الأسماء لم يتسم به المسيح عليه السلام وبيان ذلك فيما يلي:

أ- أين سمي عجيبًا أو مشيرًا أو قديرًا أو أبًا أو رئيس السلام؟ فليس في الكتاب المقدس نص يذكر أنه سمي بأي من هذه الأسماء.

ب- فإن قالوا: المراد أن هذه صفات هذا الابن الموعود، فهي أيضًا لا تنطبق على المسيح بحال، فهي تتحدث عن نبي غالب منتصر يملك على قومه، ويكون وارثًا لملك داود، وكل هذا ممتنع في حق المسيح، ممتنع بدليل الواقع والنصوص.

فالمسيح عليه السلام لم يملك على قومه يومًا واحدًا، بل كان فارًا من بني إسرائيل، خائفا من بطشهم، كما هرب من قومه حين أرادوه أن يملك عليهم. " وَأَمَّا يَسُوعُ فَإِذْ عَلِمَ أَنَّهُمْ مُزْمِعُونَ أَنْ يَأْتُوا وَيَخْتَطِفُوهُ لِيَجْعَلُوهُ مَلِكًا، انْصَرَفَ أيضًا إِلَى الْجَبَلِ وَحْدَهُ. " (يوحنا ٦/ ١٥).

لقد هرب منهم، وذلك لأن مملكته ليست دنيوية زمانية، ليست على كرسي داود، بل هي مملكة روحية في الآخرة " أَجَابَ يَسُوعُ: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ

(١) انظر: هل الكتاب المقدس كلمة الله؟ أحمد ديدات، ص (٢٤-٢٥).

مَمْلَكَتِي مِنْ هذَا الْعَالَمِ، لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لِكَيْ لاَ أُسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِ. وَلكِنِ الآنَ لَيْسَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا " (يوحنا ١٨/ ٣٦).

ج- كما أن إشعيا يتحدث عن رئيس السلام، وهو لا ينطبق على الذي نسبت إليه الأناجيل أنه قال: " لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا. [٣٥]فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا. [٣٦]وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ. " (متى ١٠/ ٣٤ - ٣٦)، فهل يسمى المسيح الإنجيلي بعد ذلك رئيس السلام؟

د- ثم إن إشعيا يتحدث عن شخص قدير، وليس عن بشر محدود لا يقدر أن يصنع من نفسه شيئا كما قال عن نفسه: " أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئًا. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ " (يوحنا ٥/ ٣٠)، وفي نص آخر يقول لليهود: " الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ يَقْدِرُ الابْنُ أَنْ يَعْمَلَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا إِلاَّ مَا يَنْظُرُ الآبَ يَعْمَلُ. لأَنْ مَهْمَا عَمِلَ ذَاكَ فَهذَا يَعْمَلُهُ الابْنُ كَذلِكَ. " (يوحنا ٥/ ١٩).

هـ- ثم إن الكتاب المقدس يمنع أن يكون المسيح ملكًا على بني إسرائيل، فقد حرم الله الملك على ذرية الملك الفاسق يهوياقيم بن يوشيا أحد أجداد المسيح، فقد ملك على مملكة يهوذا، فأفسد، فقال الله فيه: " هكَذَا قَالَ الرَّبُّ عَنْ يَهُويَاقِيمَ مَلِكِ يَهُوذَا: لاَ يَكُونُ لَهُ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ دَاوُدَ، وَتَكُونُ جُثَّتُهُ مَطْرُوحَةً لِلْحَرِّ نَهَارًا، وَلِلْبَرْدِ لَيْلًا. وَأُعَاقِبُهُ وَنَسْلَهُ وَعَبِيدَهُ عَلَى إِثْمِهِمْ، " (إرميا ٣٦/ ٣٠ - ٣١).

والمسيح - حسب الأناجيل - من ذرية هذا الملك الفاسق، يقول متى في سياق نسب المسيح: " وَآمُونُ وَلَدَ يُوشِيَّا. وَيُوشِيَّا وَلَدَ يَكُنْيَا وَإِخْوَتَهُ عِنْدَ سَبْيِ بَابِلَ. " (متى ١/ ١٠-١١)، وقد أسقط متعمدًا اسم يهوياقيم، فذكر أباه يوشيا، وابنه يكينيا. وبيان ذلك في سفر الأيام الأول " وَبَنُو يُوشِيَّا: الْبِكْرُ يُوحَانَانُ، الثَّانِي يَهُويَاقِيمُ، الثَّالِثُ صِدْقِيَّا، الرَّابعُ شَلُّومُ. وَابْنَا يَهُويَاقِيمَ: يَكُنْيَا ابْنُهُ وَصِدْقِيَّا ابْنُهُ. " (الأيام (١) ٣/ ١٤-١٥)، فيهوياقيم أحد أجداد المسيح، وهذا يمنع تحقق نبوءة إشعيا في المسيح، فالملك القادم لن يكون من ذرية المحروم يهوياقيم.

الوجه الثالث: إطلاقات لفظ الألوهية والربوبية في الكتاب المقدس لا يدل على ألوهية المسيح لأنها أطلقت على غيره من المخلوقات وإليك البيان.

أ- إطلاقها على الملائكة فقد جاء في سفر القضاة، وهو يحكي عن ظهور ملاك الرب لمنوح وزوجه: " وَلَمْ يَعُدْ مَلاَكُ الرَّبِّ يَتَرَاءَى لِمَنُوحَ وَامْرَأَتِهِ. حِينَئِذٍ عَرَفَ مَنُوحُ أَنَّهُ مَلاَكُ الرَّبِّ. ٢٢ فَقَالَ مَنُوحُ لاِمْرَأَتِهِ: «نَمُوتُ مَوْتًا لأَنَّنَا قَدْ رَأَيْنَا الله " (القضاة ١٣/ ٢١-٢٢)، ومراده ملاك الله. وظهر ملاك الله لسارة وبشرها بإسحاق " وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكِ. ١٢ وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا، يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ، وَأَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ " (التكوين ١٦/ ١١-١٣) فأطلقت على الملاك اسم الرب.

ومثله تسمية الملاك الذي صحب بني إسرائيل في رحلة الخروج بالرب "وكان الرب يسير أمامهم نهارًا في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلًا في عمود نار ليضيء لهم. . . فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر إسرائيل وسار وراءهم " (الخروج ١٣/ ٢١-١٤/ ١٩)، فسمى الملاك ربًا.

ب ـ ومن ذلك إطلاق كلمة الرب على الأنبياء، من غير إرادة معناها الحقيقي، فقد قال الله لموسى عن هارون: " وَهُوَ يَكُونُ لَكَ فَمًا، وَأَنْتَ تَكُونُ لَهُ إِلهًا. " (الخروج ٤/ ١٦). ومثله في قول الله لموسى: " فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «انْظُرْ! أَنَا جَعَلْتُكَ إِلهًا لِفِرْعَوْنَ. وَهَارُونُ أَخُوكَ يَكُونُ نَبِيَّكَ. " (الخروج ٧/ ١) أي: مسلطا عليه. وقد عهد تسمية الأنبياء (الله) مجازًا أي رسل الله، فقد " كَانَ يَقُولُ الرَّجُلُ عِنْدَ ذَهَابِهِ لِيَسْأَلَ الله: «هَلُمَّ نَذْهَبْ إِلَى الرَّائِي». لأَنَّ النَّبِيَّ الْيَوْمَ كَانَ يُدْعَى سَابِقًا الرَّائِيَ. " (صموئيل (١) ٩/ ٩).

ج ـ وأطلقت لفظة "الله" وأريد منها القضاة، لأنهم يحكمون بشرع الله، ففي سفر الخروج "إن قال العبد. . يقدمه سيده إلى الله، ويقربه إلى الباب. . . " (الخروج ٢٠/ ٥-٦). وفي السفر الذي يليه: "وإن لم يوجد السارق يقدم صاحب البيت إلى الله ليحكم هل لم يمد يده إلى ملك صاحبه. . . فالذي يحكم الله بذنبه يعوض صاحبه" (الخروج ٢٢/ ٨-٩). وفي سفر التثنية " يقف الرجلان اللذان بينهما الخصومة أمام الرب أمام الكهنة" (التثنية ١٩/ ١٧).

ومثله " اللهُ قَائِمٌ فِي مَجْمَعِ اللهِ. فِي وَسْطِ الآلِهَةِ يَقْضِي: ٢ «حَتَّى مَتَى تَقْضُونَ جَوْرًا وَتَرْفَعُونَ وُجُوهَ الأَشْرَارِ؟ " (المزمور ٨٢/ ٢: ١)، والحديث كما هو ظاهر من السياق عن أشراف بني إسرائيل وقضاتهم. بل يمتد هذا الإطلاق ليشمل كل بني إسرائيل كما في قول داود في مزاميره: " أَنَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ آلِهَةٌ وَبَنُو الْعَلِيِّ كُلُّكُمْ. ٧ لكِنْ مِثْلَ النَّاسِ تَمُوتُونَ " (المزمور ٨٢/ ٦)، وهذا الذي استشهد به عيسى عليه السلام عندما قال: " أَلَيْسَ مَكْتُوبًا فِي نَامُوسِكُمْ: أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؟ ٣٥ إِنْ قَالَ آلِهَةٌ لأُولئِكَ الَّذِينَ صَارَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ، وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يُنْقَضَ الْمَكْتُوبُ، ٣٦ فَالَّذِي قَدَّسَهُ الآبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ، أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ، لأَنِّي قُلْتُ: إِنِّي ابْنُ اللهِ؟ " (يوحنا ١٠/ ٣٦: ٣٤).

هـ- وأطلقت على الشياطين، والآلهة الباطلة للأمم، فقد سمى بولس الشيطان إلهًا، كما سمى البطن إلها، وأراد المعنى المجازي، فقال عن الشيطان: "إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين، لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح" (كورنثوس (٢) ٤/ ٥)، وقال عن الذين يتبعون شهواتهم ونزواتهم: "الذين إلههم بطنهم، ومجدهم في خزيهم. . " (فيلبي ٣/ ١٩). ومثله ما جاء في المزامير " لأَنِّي أَنَا قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ الرَّبَّ عَظِيمٌ، وَرَبَّنَا فَوْقَ جَمِيعِ الآلِهَةِ. " (المزمور ١٣٥/ ٥)، وألوهية البطن وسواها ألوهية مجازية غير حقيقية.

وجاء في " شرح أصول الإيمان ": " موسى تسمى (إلهًا) من الله ذاته، دلالة على نيابته عن الباري لدى فرعون، وليس لكونه اتصف بصفات إلهية، وكذلك القضاة تسموا (آلهة) لكونهم ينفذون مقاصد الله، وأما الأصنام والبطن والمال، فقد سميت بذلك لاتخاذ بعض الناس إياها آلهة، والشيطان تسمى (إلها) لتسلطه على العالم الحاضر "[1]

١١- كما أن المسيح عليه السلام وهو يسمع بمثل هذه الاستعارات والآلهة المجازية أوضح بأن ثمة إلهًا حقيقيًا واحدًا، هو الله، فقال: " وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ. " (يوحنا ١٧/ ٣)، وهي ما تعني بوضوح

---

(١) شرح أصول الإيمان، الدكتور القس أندرواس واطسون، والدكتور إبراهيم سعيد، ص (٤٤).

أن الجنة وحياتها الأبدية لا تنال إلا بالشهادة لله بالتوحيد، ولنبيه وصفيه المسيح عليه السلام بالرسالة، وهو ما يعتقده المسلمون فيه عليه السلام.

فهذه لغة الكتاب المقدس في التعبير، والتي يخطئ من يصر على فهم ألفاظها حرفيًا كما يخطئ أولئك الذين يفرقون بين المتشابهات، فألوهية هؤلاء جميعا مجازية، وكذا ألوهية المسيح، سواء بسواء. [1]

ثانيًا: نصوص بنوة المسيح لله

وتتحدث نصوص إنجيلية عن المسيح عليه السلام، وتذكر أنه ابن الله، ويراها النصارى أدلة صريحة على ألوهية المسيح، فهل يصح هذا الاستدلال منهم؟ وما هو معنى البنوة لله؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: معنى البنوة الصحيح.

١- إن المعنى المقصود للبنوة في كل ما قيل عن المسيح عليه السلام وغيره إنما هو معنى مجازي بمعنى حبيب الله أو مطيع الله، أو المؤمن بالله. لذلك قال مرقس وهو يحكي عبارة قائد المائة الذي شاهد المصلوب وهو يموت فقال: "حقًا كان هذا الإنسان ابن الله " (مرقس ١٥/ ٣٩). ولما حكى لوقا القصة نفسها أبدل العبارة بمرادفها فقال: "بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًا" (لوقا ٢٣/ ٤٧).

٢- ومثل هذا الاستخدام وقع من يوحنا حين تحدث عن أولاد الله المؤمنين، فقال: "وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله. أي المؤمنين باسمه" ٣- (يوحنا ١/ ١٢)، ونحوه في قول بولس: "كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله" (غلاطية ٨/ ١٤).

٤- ومثل هذا الإطلاق المجازي للبنوة معهود في الكتب المقدسة التي تحدثت عن أبناء الشيطان، وأبناء الدهر (الدنيا) (انظر يوحنا ٨/ ٤٤، لوقا ١٦/ ٨).

(١) وفي كتاب "مرشد الطالبين": وأما اصطلاح الكتاب المقدس؛ فإنه ذو استعارات وافرة غامضة خاصة العهد العتيق. واصطلاح العهد الجديد أيضا هو استعاري جدا، وخاصة مسامرات مخلصنا، وقد اشتهرت آراء كثيرة فاسدة لكون بعض معلمي النصارى شرحوها شرحا حرفيا. . ." وانظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (٣/ ٧٠٢).

وأما المعنى الحقيقي للبنوة فقد نطقت به الشياطين، فانتهرها المسيح، ففي إنجيل لوقا " وَكَانَتْ شَيَاطِينُ أيضًا تَخْرُجُ مِنْ كَثِيرِينَ وَهِيَ تَصْرُخُ وَتَقُولُ: «أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ! » فَانْتَهَرَهُمْ وَلَمْ يَدَعْهُمْ يَتَكَلَّمُونَ، لأَنَّهُمْ عَرَفُوهُ أَنَّهُ الْمَسِيحُ. " (لوقا ٤/ ٤١)، فهو المسيح فحسب، وليس ابن الله على الحقيقة.

٥- وبناء على هذا المعنى يرى البعض أن المقصود في العهد القديم والجديد بابن الله هو محمد ﷺ وهي كلها بشارات بالنبي ﷺ وببعثته ولكن اليهود ومن بعدهم النصارى قاموا بعمليات تحريف في كتابهم حتى يصرفوا هذه البشارات عن النبي ﷺ وحتى يجعلوها في ولد إسحاق لافي ولد إسماعيل[١].

الوجه الثاني: هل سمى المسيح نفسه ابن الله؟

أول ما يلفت المحققون النظر إليه أنه لم يرد عن المسيح عليه السلام في الأناجيل- تسميته لنفسه بابن الله سوى مرة واحدة في يوحنا (١٠/ ٣٦)، وفيما سوى ذلك فإن الأناجيل تذكر أن معاصريه، وتلاميذه كانوا يقولون بأنه ابن الله.

لذا فإن المحققين يشككون في صدور هذه الكلمات من المسيح عليه السلام أو تلاميذه، يقول سنجر في كتابه "قاموس الإنجيل": ليس من المتيقن أن عيسى نفسه قد استخدم ذلك التعبير". ويقول شارل جنيبر: " والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين، هي: أن المسيح لم يدع قط أنه هو المسيح المنتظر، ولم يقل عن نفسه إنه ابن الله. . . فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية". [٢]

وقد قال العالم كولمن بخصوص هذا اللقب: "إن الحواريين الذين تحدث عنهم أعمال الرسل تأسوا بمعلمهم الذي تحفظ على استخدام هذا اللقب ولم يرغب به، فاستنوا بسنته".

ويرى جنيبر أن المفهوم الخاطئ وصل إلى الإنجيل عبر الفهم غير الدقيق من المتنصرين الوثنيين فيقول: "مفهوم "ابن الله" نبع من عالم الفكر اليوناني".

---

(١) وانظر: في هذا كتاب أقانيم النصارى الثلاثة لأحمد حجازى السقا من ٥٥-٧٤.

(٢) انظر: المسيحية، نشأتها وتطورها صـ (٥٠).

ويرى القس السابق سليمان مفسر - ويوافقه الدكتور شارل جنيبر - أن بولس هو أول من استعمل الكلمة، وكانت حسب لغة المسيح (عبد الله) وترجمتها اليونانية servant، فأبدلها بالكلمة اليونانية pais بمعنى طفل أو خادم تقربا إلى المتنصرين الجدد من الوثنيين(١).

الوجه الثالث: هذه النصوص مقابلة بنصوص أخرى تصف المسيح بأنه ابن الإنسان

ثم هذه النصوص التي تصف المسيح عليه السلام أنه ابن الله معارضة بثلاثة وثمانين نصًا من النصوص التي أطلقت على المسيح لقب " ابن الإنسان "، فلئن كانت تلك التي أسمته ابن الله دالة على ألوهيته فإن هذه مؤكدة لبشريته، صارفة تلك الأخرى إلى المعنى المجازي، ومنها ما يلي:

١ـ **قول متى**: " فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لِلثَّعَالِبِ أَوْجِرَةٌ وَلِطُيُورِ السَّمَاءِ أَوْكَارٌ، وَأَمَّا ابْنُ الإِنْسَانِ فَلَيْسَ لَهُ أَيْنَ يُسْنِدُ رَأْسَهُ " (متى ٨/ ٢٠)، وأيضًا قوله: " إِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ مَاضٍ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ، " (مرقس ١٤/ ٢١).

٢ـ **وقد جاء في التوراة**: "ليس الله إنسانًا فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم" (العدد ٢٣/ ٩). فالمسيح ليس الله.

٣ـ **وقال متى** (٩/ ٨: ٢) "وَإِذَا مَفْلُوجٌ يُقَدِّمُونَهُ إِلَيْهِ مَطْرُوحًا عَلَى فِرَاشٍ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ إِيمَانَهُمْ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «ثِقْ يَا بُنَيَّ. مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ». وَإِذَا قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ قَدْ قَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: «هذَا يُجَدِّفُ! » فَعَلِمَ يَسُوعُ أَفْكَارَهُمْ، فَقَالَ: «لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِالشَّرِّ فِي قُلُوبِكُمْ؟ أَيُّمَا أَيْسَرُ، أَنْ يُقَالَ: مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ، أَمْ أَنْ يُقَالَ: قُمْ وَامْشِ؟ وَلكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لابْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَانًا عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا». حِينَئِذٍ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «قُمِ احْمِلْ فِرَاشَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ! » فَقَامَ وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ. فَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعُ تَعَجَّبُوا وَمَجَّدُوا اللهَ الَّذِي أَعْطَى النَّاسَ سُلْطَانًا مِثْلَ هذَا".

٤ـ **وفي متى أيضًا قول عيسى لحوارييه**: (١٠/ ٢٣: ١٦) "هَا أَنَا أُرْسِلُكُمْ كَغَنَمٍ فِي وَسْطِ

---

(١) انظر: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، رؤوف شلبي صـ (٢٦٣-٢٦٤)، عيسى رسول الإسلام، سليمان مفسر، ص (٤٤-٤٧)، المسيحية، نشأتها وتطورها، ص (٥٠).

ذِئَابٍ، فَكُونُوا حُكَمَاءَ كَالْحَيَّاتِ وَبُسَطَاءَ كَالْحَمَامِ. وَلكِنِ احْذَرُوا مِنَ النَّاسِ، لأَنَّهُمْ سَيُسْلِمُونكُمْ إِلَى مجَالِسَ، وَفِي مجَامِعِهِمْ يجْلِدُونكُمْ. وَتُسَاقُونَ أَمَامَ وُلاَةٍ وَمُلُوكٍ مِنْ أَجْلِي شَهَادَةً لَهُمْ وَلِلأُمَمِ. فَمَتَى أَسْلَمُوكُمْ فَلاَ تَهْتَمُّوا كَيْفَ أَوْ بِمَا تَتَكَلَّمُونَ، لأَنَّكُمْ تُعْطَوْنَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا تَتَكَلَّمُونَ بِهِ، لأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمُ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلْ رُوحُ أَبِيكُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ. وَسَيُسْلِمُ الأَخُ أَخَاهُ إِلَى الْمَوْتِ، وَالأَبُ وَلَدَهُ، وَيَقُومُ الأَوْلاَدُ عَلَى وَالِدِيهِمْ وَيَقْتُلُونَهُمْ، وَتَكُونُونَ مُبْغَضِينَ مِنَ الْجَمِيعِ مِنْ أَجْلِ اسْمِي. وَلكِنِ الَّذِي يَصْبِرُ إِلَى الْمُنْتَهَى فَهذَا يَخْلُصُ. وَمَتَى طَرَدُوكُمْ فِي هذِهِ الْمَدِينَةِ فَاهْرُبُوا إِلَى الأُخْرَى. فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُكَمِّلُونَ مُدُنَ إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَأْتِيَ ابْنُ الإِنْسَانِ"

٥- **قال متى كذلك:** (١١/ ١٩: ١٨) " لأَنَّهُ جَاءَ يُوحَنَّا لاَ يَأْكُلُ وَلاَ يَشْرَبُ، فَيَقُولُونَ: فِيهِ شَيْطَانٌ. جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، فَيَقُولُونَ: هُوَذَا إِنْسَانٌ أَكُولٌ وَشِرِّيبُ خَمْرٍ، مُحِبٌّ لِلْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ. وَالْحِكْمَةُ تَبَرَّرَتْ مِنْ بَنِيهَا".

٦ـ **متى** (١٢ : ٨) " فَإِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ هُوَ رَبُّ السَّبْتِ أَيْضًا".

٧ـ **متى** (١٢: ٣٢) " وَمَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ يُغْفَرُ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ، لاَ فِي هذَا الْعَالَمِ وَلاَ فِي الآتِي".

٨ـ **متى** (١٦/ ٢٤: ١٣): " وَلَمَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى نَوَاحِي قَيْصَرِيَّةِ فِيلُبُّسَ سَأَلَ تَلاَمِيذَهُ قِائِلاً: «مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا ابْنُ الإِنْسَانِ؟ » فَقَالُوا: «قَوْمٌ: يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ، وَآخَرُونَ: إِيلِيَّا، وَآخَرُونَ: إِرْمِيَا أَوْ وَاحِدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ». قَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟ » فَأَجَابَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَقَالَ: «أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ! ». فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لكِنَّ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيْضًا: أَنْتَ بُطْرُسُ، وَعَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا. وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاوَاتِ. وَكُلُّ مَا تَحُلُّهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولًا فِي السَّمَاوَاتِ». حِينَئِذٍ أَوْصَى تَلاَمِيذَهُ أَنْ لاَ يَقُولُوا لأَحَدٍ إِنَّهُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ. مِنْ ذلِكَ الْوَقْتِ ابْتَدَأَ يَسُوعُ يُظْهِرُ لِتَلاَمِيذِهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَذْهَبَ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَتَأَلَّمَ

كَثِيرًا مِنَ الشُّيُوخِ وَرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ، وَيُقْتَلَ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومَ. فَأَخَذَهُ بُطْرُسُ إِلَيْهِ وَابْتَدَأَ يَنْتَهِرُهُ قَائِلًا: «حَاشَاكَ يَارَبُّ! لاَ يَكُونُ لَكَ هذَا!» فَالْتَفَتَ وَقَالَ لِبُطْرُسَ: «اذْهَبْ عَنِّي يَاشَيْطَانُ! أَنْتَ مَعْثَرَةٌ لِي، لأَنَّكَ لاَ تَهْتَمُّ بِمَا للهِ لكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ». حِينَئِذٍ قَالَ يَسُوعُ لِتَلاَمِيذِهِ: «إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي ".

وفي هذا النص أن الذي وصفه بأنه ابن الله هو بطرس مخالفًا بذلك أصحابه ثم وصفه عيسى في آخر النص بأن شيطان وفي نفس السياق والقصة صرح المسيح بأنه ابن الإنسان كما في:

٩ـ متى (١٦/٢٨: ٢٧) " فَإِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ سَوْفَ يَأْتِي فِي مَجْدِ أَبِيهِ مَعَ مَلاَئِكَتِهِ، وَحِينَئِذٍ يُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ عَمَلِهِ. [٢٨] اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ ههُنَا قَوْمًا لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوُا ابْنَ الإِنْسَانِ آتِيًا فِي مَلَكُوتِهِ"

١٠ـ متى (١٨: ١١) " لأَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ قَدْ جَاءَ لِكَيْ يُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ".

١١ـ متى (٢٠: ٢٨) " كَمَا أَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ، وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ ".

١٢ـ متى (٢٦: ٢) " تَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَعْدَ يَوْمَيْنِ يَكُونُ الْفِصْحُ، وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ لِيُصْلَبَ".

١٣ـ متى (٢٦: ٤٥) " ثُمَّ جَاءَ إِلَى تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ لَهُمْ: «نَامُوا الآنَ وَاسْتَرِيحُوا! هُوَذَا السَّاعَةُ قَدِ اقْتَرَبَتْ، وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي الْخُطَاةِ".

الوجه الرابع: لقد ذكر الكتاب المقدس أبناء كُثر لله، فهل هم أيضًا آلهة؟

ولفظ البنوة الذي أطلق على المسيح أطلق على كثيرين غيره، ولم يقتض ذلك ألوهيتهم، بل حملت بنوتهم على المعنى المجازي، أي المؤمنين والصالحين، منهم:

١ - آدم الذي قيل فيه: "آدم ابن الله" (لوقا ٣/ ٣٨).

٢- ومثله قوله لداود: " أنت ابني، أنا اليوم ولدتك " (المزمور ٢/ ٧).

٣- وسليمان أيضًا قيل أنه ابن الله، فقد جاء في سفر الأيام عنه: "هو يبني لي بيتًا ...أنا أكون له أبًا، وهو يكون لي ابنًا" (الأيام (١) ١٧/ ١٢-١٣).

٤- كما سمى لوقا الملائكة أبناء الله لشيوع مثل هذه الاستخدام في الصدر الأول

للمسيحية "مثل الملائكة وهم أبناء الله " (لوقا ٢٠/ ٣٦).

٥- وسمت النصوص أيضًا آخرين أبناء الله، أو ذكرت أن الله أبوهم، ومع ذلك لا يقول النصارى بألوهيتهم. فالحواريون أبناء الله، كما قال المسيح عنهم: " وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلهِي وَإِلهِكُمْ " (يوحنا ٢٠/ ١٧).

٦- وقال للتلاميذ أيضًا: " فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ" (متى ٥/ ٤٨).

٧- وعلمهم المسيح أن يقولوا: "فَصَلُّوا أَنْتُمْ هكَذَا: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ. . . " (متى ٦/ ٩)، وقوله: " أبوكم الذي في السماوات يهب خيرات للذين يسألونه" (متى ٦/ ١١)، فكان يوحنا يقول: " انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى نُدعى أولاد الله" (يوحنا (١) ٣/ ١).

٨- بل واليهود أيضًا كلهم أبناء الله، كما يوضحه قول المسيح لليهود: "أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ أَبِيكُمْ». فَقَالُوا لَهُ: «إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِنًا. لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ الله" (يوحنا ٨/ ٤١).

٩- وفي سفر هوشع "لكِنْ يَكُونُ عَدَدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَرَمْلِ الْبَحْرِ الَّذِي لاَ يُكَالُ وَلاَ يُعَدُّ، وَيَكُونُ عِوَضًا عَنْ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: لَسْتُمْ شَعْبِي، يُقَالُ لَهُمْ: أَبْنَاءُ الله الْحَيِّ" (هوشع ١/ ١٠).

١٠- ونحوه قال عنهم: "لَمَّا كَانَ إِسْرَائِيلُ غُلاَمًا أَحْبَبْتُهُ، وَمِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي. " (هوشع ١١/ ١).

١١- ومن ذلك أيضًا ما جاء في سفر الخروج عن جميع شعب " فَتَقُولُ لِفِرْعَوْنَ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: إِسْرَائِيلُ ابْنِي الْبِكْرُ. ٢٣ فَقُلْتُ لَكَ: أَطْلِقِ ابْنِي لِيَعْبُدَنِي، فأبيت" (الخروج ٤/ ٢٢).

١٢- وخاطبهم داود قائلًا: "قَدِّمُوا لِلرَّبِّ يَا أَبْنَاءَ الله، قَدِّمُوا لِلرَّبِّ مَجْدًا وَعِزًّا" (المزمور ٢٩/ ١).

١٣- ومثله قوله: "لأَنَّهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يُعَادِلُ الرَّبَّ. مَنْ يُشْبِهُ الرَّبَّ بَيْنَ أَبْنَاءِ الله؟ " (المزمور ٨٩/ ٦).

١٤- وفي سفر أيوب: "وَكَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّهُ جَاءَ بَنُو الله لِيَمْثُلُوا أَمَامَ الرَّبِّ" (أيوب ١/ ٦).

كما نرى في التوراة هذا الإطلاق على الشرفاء من غير أن يفهم منه النصارى أو غيرهم الألوهية الحقيقية.

١٥- فقد جاء فيها: "أَنَّ أَبْنَاءَ الله رَأَوْا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ. فَاتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا. " (التكوين ٦/ ٢). وعليه فلا يمكن النصارى أن يجعلوا من النصوص المتحدثة عن بنوة المسيح لله أدلة على ألوهيته ثم يمنعوا إطلاق حقيقة ذات اللفظ على غيره ممن وصف بذلك وتخصيصهم المسيح بالمعنى الحقيقي يحتاج إلى مرجح لا يملكونه ولا يقدرون عليه.

الوجه الخامس: بكورية المسيح بين الأبناء: لكن النصارى يرون تميزًا مستحقًا للمسيح في بنوته عن سائر الأبناء، فهم لا ينازعون في صحة الإطلاق المجازي عندما ترد لفظ البنوة بحق سائر المخلوقات.

لكن النزاع إنما يكمن في تلك الأوصاف التي أطلقت على المسيح ويثبتها النصارى على الحقيقة محتجين بأمور:

١ـ **منها:** أنه قد جاء وصف المسيح بأنه الابن البكر أو الوحيد لله. (انظر عبرانيين ١/ ٦، يوحنا ٣/ ١٨)

٢ـ **أو أنه سمي ابن الله العلي** (انظر لوقا ١/ ٣٢، ٧٦).

٣-**أو أنه ابن ليس مولودا من هذا العالم كسائر** الأبناء، بل هو مولود من السماء، أو من فوق. (انظر يوحنا ١/ ١٨).

ولكن ذلك كله تثبت النصوص أمثاله لأبناء آخرين:

١- فالبكورية وصف بها إسرائيل" فَتَقُولُ لِفِرْعَوْنَ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: إِسْرَائِيلُ ابْنِي

الْبِكْرُ. ٢٣ فَقُلْتُ لَكَ: أَطْلِقِ ابْنِي لِيَعْبُدَنِي، فَأَبَيْتَ أَنْ تُطْلِقَهُ. هَا أَنَا أَقْتُلُ ابْنَكَ الْبِكْرَ (الخروج ٤/ ٢٢-٢٣).

٢- وكذا إفرايم " لأَنِّي صِرْتُ لإِسْرَائِيلَ أَبًا، وَأَفْرَايِمُ هُوَ بِكْرِي" (إرميا ٣١/ ٩). وكذا داود " هُوَ يَدْعُونِي: أَبِي أَنْتَ، إِلهِي وَصَخْرَةُ خَلاَصِي. ٢٧ أَنَا أَيْضًا أَجْعَلُهُ بِكْرًا، أَعْلَى مِنْ مُلُوكِ الأَرْضِ. " (المزمور ٨٩/ ٢٦-٢٧).

٣- ولئن قيل في المسيح أنه ابن الله العلي، فكذلك سائر بني إسرائيل "وبنو العلي كلكم" (المزمور ٨٢/ ٦).

الوجه السادس: الابن النازل من السماء: وتعلق مؤلهوا المسيح بما ذكرته الأناجيل عن المسيح الذي أتى من فوق أو من السماء، و" اَلَّذِي يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ هُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ" (يوحنا ٣/ ٣١)، وهم يرون صورة ألوهيته مشرقة في قوله: " أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ، أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ. أَنْتُمْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هذَا الْعَالَمِ. " (يوحنا ٨/ ٢٣)، فدل ذلك - وفق رأي النصارى - على أنه كائن إلهي فريد، وهو ابن لا كسائر الأبناء.

والجواب على هذا من وجوه:

١ - أن المقصود من المجيء السماوي، هو إتيان المواهب والشريعة لا إتيان الذات، وهو أمر يستوي به مع سائر الأنبياء، ومنهم يوحنا المعمدان فقد سأل المسيح اليهود: " مَعْمُودِيَّةُ يُوحَنَّا: مِنْ أَيْنَ كَانَتْ؟ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ مِنَ النَّاسِ؟ » فَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ قَائِلِينَ: «إِنْ قُلْنَا: مِنَ السَّمَاءِ، يَقُولُ لَنَا: فَلِمَاذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ؟ ٢٦ وَإِنْ قُلْنَا: مِنَ النَّاسِ، نَخَافُ مِنَ الشَّعْبِ. (متى ٢١/ ٢٥-٢٦).

٢- ومن قرأ النص كاملًا؛ تبين له ذلك، حيث جاء النص هكذا: " ثُمَّ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ أيضًا قَائِلًا: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ». ١٣ فَقَالَ لَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ: «أَنْتَ تَشْهَدُ لِنَفْسِكَ. شَهَادَتُكَ لَيْسَتْ حَقًّا». ١٤ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «وَإِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي حَق، لأَنِّي أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتُ وَإِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ آتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ. ١٥ أَنْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ تَدِينُونَ، أَمَّا أَنَا

فَلَسْتُ أَدِينُ أَحَدًا. ١٦ وَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَدِينُ فَدَيْنُونَتِي حَق، لأَنِّي لَسْتُ وَحْدِي، بَلْ أَنَا وَالآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي. ١٧ وَأيضًا فِي نَامُوسِكُمْ مَكْتُوبٌ أَنَّ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ حَق: ١٨ أَنَا هُوَ الشَّاهِدُ لِنَفْسِي، وَيَشْهَدُ لِي الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي». ١٩ فَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ هُوَ أَبُوكَ؟ » أَجاب يَسُوعُ: «لَسْتُمْ تَعْرِفُونَنِي أَنَا وَلاَ أَبِي. لَوْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أيضًا». هذَا الْكَلاَمُ قَالَهُ يَسُوعُ فِي الْخِزَانَةِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ. وَلَمْ يُمْسِكْهُ أَحَدٌ، لأَنَّ سَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ بَعْدُ. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أيضًا: «أَنَا أَمْضِي وَسَتَطْلُبُونَنِي، وَتَمُوتُونَ فِي خَطِيَّتِكُمْ. حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا» ٢٢ فَقَالَ الْيَهُودُ: «أَلَعَلَّهُ يَقْتُلُ نَفْسَهُ حَتَّى يَقُولُ: حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا؟ ». ٢٣ فَقَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ، أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ. أَنْتُمْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هذَا الْعَالَمِ. ٢٤ فَقُلْتُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ، لأَنَّكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا أَنِّي أَنَا هُوَ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ». ٢٥ فَقَالُوا لَهُ: «مَنْ أَنْتَ؟ » فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا مِنَ الْبَدْءِ مَا أُكَلِّمُكُمْ أيضًا بِهِ. ٢٦ إِنَّ لِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةً أَتَكَلَّمُ وَأَحْكُمُ بِهَا مِنْ نَحْوِكُمْ، لكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَق. وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ، فَهذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ». ٢٧ وَلَمْ يَفْهَمُوا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ عَنِ الآبِ. ٢٨ فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. ٢٩ وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي، وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي، لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ». وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ بِهذَا آمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ. ٣١ فَقَالَ يَسُوعُ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ: «إِنَّكُمْ إِنْ ثَبَتُّمْ فِي كَلاَمِي فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ تَلاَمِيذِي، ٣٢ وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ». ٣٣ أَجَابُوهُ: «إِنَّنَا ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ نُسْتَعْبَدْ لأَحَدٍ قَطُّ! كَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ: إِنَّكُمْ تَصِيرُونَ أَحْرَارًا؟ » ٣٤ أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ الْخَطِيَّةَ هُوَ عَبْدٌ لِلْخَطِيَّةِ. ٣٥ وَالْعَبْدُ لاَ يَبْقَى فِي الْبَيْتِ إِلَى الأَبَدِ، أَمَّا الابْنُ فَيَبْقَى إِلَى الأَبَدِ. ٣٦ فَإِنْ حَرَّرَكُمُ الابْنُ فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ أَحْرَارًا. ٣٧ أَنَا عَالِمٌ أَنَّكُمْ ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ. لكِنَّكُمْ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي لأَنَّ كَلاَمِي لاَ مَوْضِعَ لَهُ فِيكُمْ. ٣٨ أَنَا أَتَكَلَّمُ بِمَا رَأَيْتُ عِنْدَ أَبِي، وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مَا رَأَيْتُمْ عِنْدَ أَبِيكُمْ». ٣٩ أَجَابُوا وَقَالُوا لَهُ: «أَبُونَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ

كُنْتُمْ أَوْلاَدَ إِبْرَاهِيمَ، لَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ إِبْرَاهِيمَ! ٤٠ وَلكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللهِ. هذَا لَمْ يَعْمَلْهُ إِبْرَاهِيمُ. ٤١ أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ أَبِيكُمْ». فَقَالُوا لَهُ: «إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِنًا. لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ». فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كَانَ اللهُ أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي، لأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ اللهِ وَأَتَيْتُ. لأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي، بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي. ٤٣ لِمَاذَا لاَ تَفْهَمُونَ كَلاَمِي؟ لأَنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي. ٤٤ أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ، وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا. ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَق. مَتَى تَكَلَّمَ بِالْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ، لأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو الْكَذَّابِ. ٤٥ وَأَمَّا أَنَا فَلأَنِّي أَقُولُ الْحَقَّ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي. ٤٦ مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خَطِيَّةٍ؟ فَإِنْ كُنْتُ أَقُولُ الْحَقَّ، فَلِمَاذَا لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي؟ ٤٧ اَلَّذِي مِنَ اللهِ يَسْمَعُ كَلاَمَ اللهِ. لِذلِكَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَسْمَعُونَ، لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ اللهِ». فَأَجَاب الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ: «أَلَسْنَا نَقُولُ حَسَنًا: إِنَّكَ سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ؟ » ٤٩ أَجَابَ يَسُوعُ: «أَنَا لَيْسَ بِي شَيْطَانٌ، لكِنِّي أُكْرِمُ أَبِي وَأَنْتُمْ تُهِينُونَنِي. ٥٠ أَنَا لَسْتُ أَطْلُبُ مَجْدِي. يُوجَدُ مَنْ يَطْلُبُ وَيَدِينُ. ٥١ اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلاَمِي فَلَنْ يَرَى الْمَوْتَ إِلَى الأَبَدِ». ٥٢ فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: الآنَ عَلِمْنَا أَنَّ بِكَ شَيْطَانًا. قَدْ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ وَالأَنْبِيَاءُ، وَأَنْتَ تَقُولُ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلاَمِي فَلَنْ يَذُوقَ الْمَوْتَ إِلَى الأَبَدِ. ٥٣ أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي مَاتَ؟ وَالأَنْبِيَاءُ مَاتُوا. مَنْ تَجْعَلُ نَفْسَكَ؟ » ٥٤ أَجَابَ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ أُمَجِّدُ نَفْسِي فَلَيْسَ مَجْدِي شَيْئًا. أَبِي هُوَ الَّذِي يُمَجِّدُنِي، الَّذِي تَقُولُونَ أَنْتُمْ إِنَّهُ إِلهُكُمْ، ٥٥ وَلَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. وَأَمَّا أَنَا فَأَعْرِفُهُ. وَإِنْ قُلْتُ إِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُهُ أَكُونُ مِثْلَكُمْ كَاذِبًا، لكِنِّي أَعْرِفُهُ وَأَحْفَظُ قَوْلَهُ. ٥٦ أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ». ٥٧ فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «لَيْسَ لَكَ خَمْسُونَ سَنَةً بَعْدُ، أَفَرَأَيْتَ إِبْرَاهِيمَ؟ » ٥٨ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ». ٥٩ فَرَفَعُوا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ. أَمَّا يَسُوعُ فَاخْتَفَى وَخَرَجَ مِنَ الْهَيْكَلِ مُجْتَازًا فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى هكَذَا" (يوحنا ٨/ ٥٩: ١٢). " وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى إِنْسَانًا أَعْمَى مُنْذُ وِلاَدَتِهِ، ٢ فَسَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، مَنْ

أَخطَأَ: هذَا أَمْ أَبوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى؟ ». ٣ أَجَابَ يَسُوعُ: «لاَ هذَا أَخْطَأَ وَلاَ أَبوَاهُ، لكِنْ لِتَظْهَرَ أَعْمَالُ الله فِيهِ. ٤ يَنْبَغِي أَنْ أَعْمَلَ أَعْمَالَ الَّذِي أَرْسَلَنِي مَا دَامَ نَهَارٌ. يَأْتِي لَيْلٌ حِينَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ. ٥ مَا دُمْتُ فِي الْعَالَمِ فَأَنَا نُورُ الْعَالَمِ». قَالَ هذَا وَتَفَلَ عَلَى الأَرْضِ وَصَنَعَ مِنَ التُّفْلِ طِينًا وَطَلَى بِالطِّينِ عَيْنَيِ الأَعْمَى. ٧ وَقَالَ لَهُ: «اذْهَبِ اغْتَسِلْ فِي بِرْكَةِ سِلْوَامَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: مُرْسَلٌ، فَمَضَى وَاغْتَسَلَ وَأَتَى بَصِيرًا. فَالْجِيرَانُ وَالَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَهُ قَبْلًا أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى، قَالُوا: «أَلَيْسَ هذَا هُوَ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ وَيَسْتَعْطِي؟ » ٩ آخَرُونَ قَالُوا: «هذَا هُوَ». وَآخَرُونَ: «إِنَّهُ يُشْبِهُهُ». وَأَمَّا هُوَ فَقَالَ: «إِنِّي أَنَا هُوَ». ١٠ فَقَالُوا لَهُ: «كَيْفَ انْفَتَحَتْ عَيْنَاكَ؟ » ١١ أَجَابَ ذَاكَ وقَالَ: «إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ يَسُوعُ صَنَعَ طِينًا وَطَلَى عَيْنَيَّ، وَقَالَ لِي: اذْهَبْ إِلَى بِرْكَةِ سِلْوَامَ وَاغْتَسِلْ. فَمَضَيْتُ وَاغْتَسَلْتُ فَأَبْصَرْتُ». ١٢ فَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ ذَاكَ؟ » قَالَ: «لاَ أَعْلَمُ». فَأَتَوْا إِلَى الْفَرِّيسِيِّينَ بِالَّذِي كَانَ قَبْلًا أَعْمَى. ١٤ وَكَانَ سَبْتٌ حِينَ صَنَعَ يَسُوعُ الطِّينَ وَفتَحَ عَيْنَيْهِ. ١٥ فَسَأَلَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ أيضًا كَيْفَ أَبْصَرَ، فَقَالَ لَهُمْ: «وَضَعَ طِينًا عَلَى عَيْنَيَّ وَاغْتَسَلْتُ، فَأَنَا أُبْصِرُ». ١٦ فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ: «هذَا الإِنْسَانُ لَيْسَ مِنَ الله، لأَنَّهُ لاَ يَحْفَظُ السَّبْتَ». آخَرُونَ قَالُوا: «كَيْفَ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ خَاطِئٌ أَنْ يَعْمَلَ مِثْلَ هذِهِ الآيَاتِ؟ » وَكَانَ بَيْنَهُمُ انْشِقَاقٌ. ١٧ قَالُوا أيضًا لِلأَعْمَى: «مَاذَا تَقُولُ أَنْتَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فَتَحَ عَيْنَيْكَ؟ » فَقَالَ: «إِنَّهُ نَبِيٌّ! ». ١٨ فَلَمْ يُصَدِّقِ الْيَهُودُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى فَأَبْصَرَ حَتَّى دَعَوْا أَبَوَيِ الَّذِي أَبْصَرَ. ١٩ فَسَأَلُوهُمَا قَائِلِينَ: «أَهذَا ابْنُكُمَا الَّذِي تَقُولاَنِ إِنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى؟ فَكَيْفَ يُبْصِرُ الآنَ؟ » ٢٠ أَجَابَهُمْ أَبَوَاهُ وَقَالاَ: «نَعْلَمُ أَنَّ هذَا ابْنُنَا، وَأَنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى. ٢١ وَأَمَّا كَيْفَ يُبْصِرُ الآنَ فَلاَ نَعْلَمُ. أَوْ مَنْ فتَحَ عَيْنَيْهِ فَلاَ نَعْلَمُ. هُوَ كَامِلُ السِّنِّ. اسْأَلُوهُ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ». ٢٢ قَالَ أَبَوَاهُ هذَا لأَنَّهُمَا كَانَا يَخَافَانِ مِنَ الْيَهُودِ، لأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا قَدْ تَعَاهَدُوا أَنَّهُ إِنِ اعْتَرَفَ أَحَدٌ بِأَنَّهُ الْمَسِيحُ يُخْرَجُ مِنَ الْمَجْمَعِ. ٢٣ لِذلِكَ قَالَ أَبَوَاهُ: «إِنَّهُ كَامِلُ السِّنِّ، اسْأَلُوهُ». فَدَعَوْا ثَانِيَةً الإِنْسَانَ الَّذِي كَانَ أَعْمَى، وَقَالُوا لَهُ: «أَعْطِ مَجْدًا لله. نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ هذَا الإِنْسَانَ خَاطِئٌ». ٢٥ فَأَجَابَ ذَاكَ وَقَالَ: «أَخَاطِئٌ هُوَ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ. إِنَّمَا أَعْلَمُ شَيْئًا

وَاحِدًا: أَنِّي كُنْتُ أَعْمَى وَالآنَ أُبْصِرُ». [٢٦] فَقَالُوا لَهُ أَيضًا: «مَاذَا صَنَعَ بِكَ؟ كَيْفَ فَتَحَ عَيْنَيْكَ؟ » [٢٧] أَجَابَهُمْ: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ وَلَمْ تَسْمَعُوا. لِمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تَسْمَعُوا أيضًا؟ أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَصِيرُوا لَهُ تَلاَمِيذَ؟ » [٢٨] فَشَتَمُوهُ وَقَالُوا: «أَنْتَ تِلْمِيذُ ذَاكَ، وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّنَا تَلاَمِيذُ مُوسَى. [٢٩] نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مُوسَى كَلَّمَهُ اللهُ، وَأَمَّا هذَا فَمَا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هُوَ». [٣٠] أَجَابَ الرَّجُلُ وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ فِي هذَا عَجَبًا! إِنَّكُمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ هُوَ، وَقَدْ فَتَحَ عَيْنَيَّ. [٣١] وَنَعْلَمُ أَنَّ اللهَ لاَ يَسْمَعُ لِلْخُطَاةِ. وَلكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي اللهَ وَيَفْعَلُ مَشِيئَتَهُ، فَلِهذَا يَسْمَعُ. [٣٢] مُنْذُ الدَّهْرِ لَمْ يُسْمَعْ أَنَّ أَحَدًا فَتَحَ عَيْنَيْ مَوْلُودٍ أَعْمَى. [٣٣] لَوْ لَمْ يَكُنْ هذَا مِنَ اللهِ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا" (يوحنا ٩/ ٣٣: ١).

النص وهو عبارة عن مناظره بين المسيح وبين اليهود، وهو يدعوهم إلى الإيمان به، وفيه أكثر من موضع صريح وواضح في كونه إنسان وبشر، وليس إله ومن ذلك ما يلي:

١- قوله في ٨-١٦: "، بَلْ أَنَا وَالآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي "فهذا صريح في كونه مرسل وأنه غير الآب (الإله)

٢- قوله: "وَأَيضًا فِي نَامُوسِكُمْ مَكْتُوبٌ أَنَّ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ حَق: [١٨] أَنَا هُوَ الشَّاهِدُ لِنَفْسِي، وَيَشْهَدُ لِي الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي ". ففي هذا أنهم طلبوا منه شهادة، فقال لهم إن في ناموسكم: إن شهادة رجلين حق، فجعل نفسه شاهدًا، والآب الذي أرسله شاهدا آخر، وهذا صريح في أن مرسل أو أنه غير الآب.

٣- قوله في (٨-٢٦): " لكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَق. وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ، فَهذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ "فهذا أيضًا صريح في كونه مرسل ولايقول لهم إلا ما سمعه.

٤- قوله في (٨: ٢٨): " فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. ". وهذا صريح في أنه ابن الإنسان، وأنه مرسل، ولا يتكلم بشي من عند نفسه.

٥- قوله في (٨: ٤٠): " وَلكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ

بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللهِ". وهذا واضح وصريح في قوله وأنا إنسان!

٦- قوله (٨: ٥٤): " أَجَابَ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ أُمَجِّدُ نَفْسِي فَلَيْسَ مَجْدِي شَيْئًا. أَبِي هُوَ الَّذِي يُمَجِّدُنِي، الَّذِي تَقُولُونَ أَنْتُمْ إِنَّهُ إِلهُكُمْ". فلو كان إلها فلم لا يمجد نفسه؟

٧- قوله (٨: ٥٩): " فَرَفَعُوا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ. أَمَّا يَسُوعُ فَاخْتَفَى وَخَرَجَ مِنَ الْهَيْكَلِ مُجْتَازًا فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى هكَذَا ". فلو كان إلهًا لماذا هرب منهم واختفى؟

٨- ولما طلى عين الأعمى بالطين وأمره بالاغتسال، ففعل وانفتحت عيناه وسأله اليهود عن عيسى فقال كما جاء في إنجيل يوحنا (٩: ١٧) "قالوا أيضًا للأعمى ماذا تقول أنت عنه من حيث أنه فتح عينيك فقال أنه نبي ".

فها هو الأعمى قد صرح بأنه نبي، كل هذا في سياق هذه المناظرة التي اجتزؤا منها قوله؛ إنه ليس من هذا العالم لأنه من فوق، وليس فيها تصريح بأنه إله، وفي هذه النصوص التصريح بأنه نبي إنسان مرسل.

٣- وأما النازلون على الحقيقة من السماء فهم كثر، ولا تعتبر النصارى أيا منهم آلهة، منهم الملائكة، "لأن ملاك الرب نزل من السماء" (متى ٢٨/ ٢). وكذا صعد أخنوخ إلى السماء " وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ. " (التكوين ٥/ ٢٤)، ومن المعلوم أن " وَلَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلاَّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، ابْنُ الإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ. " (يوحنا ٣/ ١٣)، فأخنوخ مثله، ولا يقولون بألوهيته. وكذا إيليا صعد إلى السماء " **فَصَلَتْ بَيْنَهُمَا، فَصَعِدَ إِيلِيَّا فِي الْعَاصِفَةِ إِلَى السَّمَاءِ.** " (الملوك (٢) ٢/ ١١). كما تذكر الأناجيل أن التلاميذ، هم أيضًا مولودون من فوق أو من الله، أي هم مؤمنون به، ففي يوحنا: " وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللهِ، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ " (يوحنا ١/ ١٢). فالمقصود بالولاد، الولاد الروحي، بحيث يتغير قلب الإنسان الخاطئ تغيرًا عظيمًا كاملًا مستمرًا، كأنه ولد ثانية، ويحدث ذلك عند توبته وإيمانه. والمؤمنون بالمسيح عليه السلام مولودون من فوق بما أعطاهم الله من الإيمان، فهم كسائر المؤمنين كما قال

المسيح: " الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ الله " (يوحنا ٣/ ٣).

قال: " كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح، فقد ولد من الله" (يوحنا (١) ١/٥). وقال: " كل من يصنع البر مولود منه" (يوحنا (١) ٢٩/٢).

وقول المسيح عليه السلام: " أما أنا فلست من هذا العالم " ليس دليلًا على الألوهية بحال، فمراده اختلافه عن سائر البشر باستعلائه على العالم المادي، بل هو من فوق ذلك الحطام الذي يلهث وراءه سائر الناس. وقد قال مثل هذا القول في حق تلاميذه أيضًا بعد أن لمس فيهم حب الآخرة والإعراض عن الدنيا، فقال: " **لَوْ كُنْتُمْ مِنَ الْعَالَمِ لَكَانَ الْعَالَمُ يُحِبُّ خَاصَّتَهُ. وَلكِنْ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ الْعَالَمِ، بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ مِنَ الْعَالَمِ، لِذلِكَ يُبْغِضُكُمُ الْعَالَمُ.** " (يوحنا ١٥/ ١٩). وفي موضع آخر قال عنهم: " **أَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ كَلاَمَكَ، وَالْعَالَمُ أَبْغَضَهُمْ لأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ، كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ** " (١٧/ ١٤-١٥)، فقال في حق تلاميذه ما قاله في حق نفسه من كونهم جميعًا ليسوا من هذا العالم، فلو كان هذا على ظاهره، وكان مستلزمًا الألوهية، للزم أن يكون التلاميذ كلهم آلهة، لكن تعبيره في ذلك كله نوع من المجاز، كما يقال: فلان ليس من هذا العالم، يعني: هو لا يعيش للدنيا ولا يهتم بها، بل همه دوما رضا الله والدار الآخرة.

ثالثا: نصوص الحلول الإلهي في المسيح

ويرى النصارى أن بعض النصوص المقدسة تفيد حلولًا إلهيًا في عيسى عليه السلام، منها قوله: "لِكَيْ تَعْرِفُوا وَتُؤْمِنُوا أَنَّ الآبَ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ" (يوحنا ١٠/ ٣٨)، وفي موضع آخر " الذي رآني فقد رأى الآب. . . الآب الحال في " (يوحنا ١٤/ ٩-١٠)، ويبقى أقوى أدلة النصارى على ألوهية المسيح قوله: "أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠/ ٣٠).

فهذه النصوص أفادت - حسب قول النصارى - أن المسيح هو الله، أو أن حلولًا إلهيًا حقيقيًا لله فيه.

والجواب من وجوه:

١ـ الله تعالى يحل فيمن آمن بيسوع ولهذا فحلول الله على مخلوقاته كما في

كتابهم المقدس لابد أن يكون مجازيًا:

وقد تتبع المحققون هذه النصوص، فأبطلوا استدلال النصارى بها، وبينوا سوء فهمهم لها. فأما ما جاء من ألفاظ دلت على أن المسيح قد حل فيه الله - على ما فهمه النصارى- فإن فهمهم لها مغلوط؛ ذلك أن المراد بالحلول حلول مجازي كما جاء في حق غيره بلا خلاف، ونقول مثله في مسألة الحلول في المسيح.

فالله - حسب الكتاب المقدس- يحل في كثيرين، أي حلول المواهب الإلهية، لا حلول ذاته العلية التي تتنزه عن الحلول في المخلوقات المحدودة، فقد جاء في رسالة يوحنا " **مَنِ اعْتَرَفَ أَنَّ يَسُوعَ هُوَ ابْنُ الله، فَاللهُ يَثْبُتُ فِيهِ وَهُوَ فِي الله. ١٦وَنَحْنُ قَدْ عَرَفْنَا وَصَدَّقْنَا الْمَحَبَّةَ الَّتِي لله فِينَا. اَللهُ مَحَبَّةٌ، وَمَنْ يَثْبُتْ فِي الْمَحَبَّةِ، يَثْبُتْ فِي الله وَاللهُ فِيهِ.** " (يوحنا ٤/ ١٥-١٦)، فحلول الله في الذين اعترفوا بالمسيح ليس بحلول ذوات، وإلا كانوا جميعًا آلهة.

ومثله؛ فإن الله يحل مجازًا في كل من يحفظ الوصايا ولا يعني ذلك ألوهيتهم، ففي رسالة يوحنا: "ومن يحفظ وصاياه يثبت فيه، وهو فيه، وبهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا" (يوحنا (١) ٣/ ٢٤)، فليس المقصود تقمص الذات الإلهية لهؤلاء الصالحين، بل حلول هداية الله وتأييده عليهم.

وكذا الذين يحبون بعضهم لله؛ فإن الله يحل فيهم برحمته، لا بذاته "إن أحب بعضنا بعضًا فالله يثبت فينا، ومحبته قد تكملت فينا، بهذا نعرف أننا نثبت فيه، وهو فينا" (يوحنا (١) ٤/ ١٢-١٣).

وكما في قوله عن التلاميذ: " أنا فيهم، وأنت في" (يوحنا ١٧/ ٢٢). ومثله يقول بولس عن المؤمنين: "فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ هَيْكَلُ الله الْحَيِّ، كَمَا قَالَ الله: «إِنِّي سَأَسْكُنُ فِيهِمْ وَأَسِيرُ بَيْنَهُمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهًا، وَهُمْ يَكُونُونَ لِي شَعْبًا. " (كورنثوس (٢) ٦/ ١٦)، ويقول: "وأما أنتم فجسد المسيح" (كورنثوس (١) ١٢/ ٢٧)، فالحلول في كل ذلك مجازي. فقد أفادت هذه النصوص – بحسب زعمهم - حلولًا إلهيًا في كل المؤمنين، وهذا الحلول هو حلول

مجازي بلا خلاف، أي حلول هدايته ومواهبه وتوفيقه، ومثله الحلول في المسيح، ومن زعم الفرق وجب عليه إحضار الدليل.

٢ـ كما تذكر التوراة حلول الله ـ وحاشاه ـ في بعض مخلوقاته على الحقيقة.

ولا تقول النصارى بألوهية هذه الأشياء، ومن ذلك ما جاء في سفر الخروج "المكان الذي صنعته يا رب لسكنك" (الخروج ١٥/ ١٧)، فقد حل وسكن في جبل الهيكل، ولا يعبد أحد ذلك الجبل.

وفي المزامير: "لِمَاذَا أَيَّتُهَا الْجِبَالُ الْمُسَنَّمَةُ تَرْصُدْنَ الْجَبَلَ الَّذِي اشْتَهَاهُ الله لِسَكَنِهِ؟ بَلِ الرَّبُّ يَسْكُنُ فِيهِ إِلَى الأَبَدِ. " (المزمور ٦٨/ ١٦).

٣ـ ولعل من أهم نصوص الحلول المزعوم قول المسيح: "أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠/ ٣٠)، وقوله: "من رآني فقد رأى الآب" (يوحنا ١٤/ ٩)،

١. قول المسيح: "أنا والآب واحد". القول المنسوب إلى المسيح: "أنا والآب واحد" أهم ما يتعلق فيه أولئك الذين يقولون بألوهية المسيح، وقد فهموا منه وحدة حقيقية جهر بها المسيح أمام اليهود، وفهموا منه أنه يعني الألوهية لذاته. ولفهم النص؛ نعود فنقرأ السياق من أوله، فنرى بأن المسيح ﷺ كان يتمشى في رواق سليمان في عيد التجديد"فَاحْتَاطَ بِهِ الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ: «إِلَى مَتَى تُعَلِّقُ أَنْفُسَنَا؟ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ فَقُلْ لَنَا جَهْرًا». ٢٥ أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ. اَلأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا بِاسْمِ أَبِي هِيَ تَشْهَدُ لِي. ٢٦ وَلكِنَّكُمْ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي، كَمَا قُلْتُ لَكُمْ. ٢٧ خِرَافِي تَسْمَعُ صَوْتِي، وَأَنَا أَعْرِفُهَا فَتَتْبَعُنِي. ٢٨ وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً، وَلَنْ تَهْلِكَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَخْطَفُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي. ٢٩ أَبِي الَّذِي أَعْطَانِي إِيَّاهَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْكُلِّ، وَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْطَفَ مِنْ يَدِ أَبِي. ٣٠ أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ" (يوحنا١٠/ ٢٤-٣٠).

فالنص من أوله يتحدث عن قضية معنوية مجازية[1] فخراف المسيح أي تلاميذه

(١) يرى القس جيمس أنس أنه ينبغي أن تفسر النصوص تفسيرًا مجازيًا إذا كان في سفر مملوء بالاستعارات

يتبعونه، فيعطيهم الحياة الأبدية، أي الجنة، ولن يستطيع أحد أن يخطفها منه (أي يبعدها عن طريقه وهدايته) لأنها هبة الله التي أعطاه إياها، ولا يستطيع أحد أن يسلبها من الله الذي هو أعظم من الكل، فالله والمسيح يريدان لها الخير، فالوحدة وحدة الهدف لا الجوهر. لكن اليهود في رواق سليمان، كان فهمهم لكلام المسيح سقيما - أشبه ما يكون بفهم النصارى له - لذا " تناول اليهود أيضًا حجارة ليرجموه. . لسنا نرجمك لأجل عمل حسن، بل لأجل تجديف، فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهًا". فعرف المسيح عليه السلام خطأ فهمهم لكلامه، واستغرب منهم، كيف فهموا هذا الفهم وهم يهود يعرفون لغة الكتب المقدسة في التعبير المجازي فأجابهم: " أليس مكتوبا في ناموسكم: أَنَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؟ " ومقصده ما جاء في مزامير داود: "أَنَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ آلِهَةٌ وَبَنُو الْعَلِيِّ كُلُّكُمْ. " (المزمور ٨٢/ ٦). أي: فكيف تستغربون بعد ذلك مثل هذه الاستعارات، وهي معهودة في كتابكم الذي جعل بني إسرائيل آلهة بالمعنى المجازي للكلمة؟! فالمسيح أولى بهذه الألوهية المجازية من سائر بني إسرائيل" فَالَّذِي قَدَّسَهُ الآبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ، أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ، لأَنِّي قُلْتُ: إِنِّي ابْنُ اللهِ؟ [٣٧] إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أَعْمَلُ أَعْمَالَ أَبِي فَلاَ تُؤْمِنُوا بِي. (يوحنا١٠/ ٣٧: ٣٦).

والنص في نسخة الرهبانية اليسوعية أكثر وضوحا، وفيه: "أجابهم يسوع: ألم يكتب في شريعتكم: قلت: إنكم آلهة؟ فإذا كانت الشريعة تدعو آلهة من ألقيت إليهم كلمة الله. . فكيف تقولون للذي قدسه الآب وأرسله إلى العالم: أنت تجدف، لأني قلت: إني ابن الله". يقول الأب متى المسكين تعليقًا على هذه الفقرة: "المسيح يستشهد بالمزمور الثاني والثمانين: (الله قائم في مجمع الله، في وسط الآلهة يقضي. . أنا قلت إنكم آلهة، وبنو العلي كلكم)، فالوحي الإلهي هنا يعطي صفة الآلهة للمجمع الذي يجتمع على الحكم على أساس الحكم

التي لا تصح فيها التفسيرات الحرفية، فكيف الحال والإصحاح بين أيدينا يتحدث عن معان مجازية. انظر: علم اللاهوت النظامي، جيمس أنس، ص (٧١٣).

بكلمة الله. . يأتي ردا على ادعائهم أن كون المسيح إلها يعتبر تجديفا، في حين أن كل الذين صارت إليهم كلمة الله يدعون في الناموس آلهة"(١). وهكذا وبهذا الشاهد من المزامير صحح المسيح ﷺ لليهود ثم للنصارى الفهم السيئ والحرفي لوحدته مع الآب.

وهذا الأسلوب في التعبير عن وحدة الهدف والمشيئة معهود في النصوص خاصة في إنجيل يوحنا.

١- فهو يقول عن التلاميذ على لسان المسيح: " لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِدًا، كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضًا وَاحِدًا فِينَا، لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي. ٢٢ وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ. أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ، وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي، وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي. " (يوحنا ١٧/ ٢٠-٢٣)، فالحلول في المسيح والتلاميذ حلول معنوي فحسب، وإلا لزم تأليه التلاميذ، فكما المسيح والآب واحد، فإن التلاميذ والمسيح والآب أيضًا واحد، أي وحدة الهدف والطريق، لا وحدة الذوات، فإن أحدا لا يقول باتحاد التلاميذ ببعضهم أو باتحاد المسيح فيهم بذاته.

٢- وفي موضع آخر ذكر نفس المعنى فقال عن التلاميذ: " أَيُّهَا الآبُ الْقُدُّوسُ، احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ. " (يوحنا ١٧/ ١١)، أي كما وحدتنا هي وحدة هدف لتكن وحدتهم بنا كذلك.

٣- ومثله قوله: " تَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا فِي أَبِي، وَأَنْتُمْ فِيَّ، وَأَنَا فِيكُمْ. " (يوحنا ١٤/ ٢٠).

٤- ومثله يقول بولس: " فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ هَيْكَلُ اللهِ الْحَيِّ، كَمَا قَالَ اللهُ: «إِنِّي سَأَسْكُنُ فِيهِمْ وَأَسِيرُ بَيْنَهُمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهًا، وَهُمْ يَكُونُونَ لِي شَعْبًا. ١٧ لِذلِكَ اخْرُجُوا مِنْ وَسْطِهِمْ وَاعْتَزِلُوا، يَقُولُ الرَّبُّ. وَلاَ تَمَسُّوا نَجِسًا فَأَقْبَلَكُمْ، " (كورنثوس (٢) ٦/ ١٦-١٧).

٥- ومثله قوله: " إِلهٌ وَآبٌ وَاحِدٌ لِلْكُلِّ، الَّذِي عَلَى الْكُلِّ وَبِالْكُلِّ وَفِي كُلِّكُمْ. "

---

(١) شرح إنجيل القديس يوحنا، الأب متى المسكين (١/ ٦٤٣-٦٤٤).

(أفسس ٤/ ٦).

٦- ومثله قول المسيح عليه السلام لتلاميذه: " أَنَا الْكَرْمَةُ وَأَنْتُمُ الأَغْصَانُ. الَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ هذَا يَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ. " (يوحنا ١٥/ ٥)، أي من يحبني ويطيعني ويؤمن بي فهذا يأتي بثمر كثير.

٧- والمعنى الصحيح لقوله: "لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب في، وأنا فيه" (يوحنا ١٠/ ٣٨) أي أن الله يكون في المسيح، أي بمحبته وقداسته وإرشاده وتسديده، لا بذاته المقدسة التي لا تحل في الهياكل "العلي لا يسكن في هياكل مصنوعات الأيادي" (أعمال ٧/ ٤٨).

٨- وقد تكرر هذا الأسلوب في التعبير عن وحدة الهدف والمشيئة في نصوص كثيرة، منها قول بولس: " أَنَا غَرَسْتُ وَأَبُلُّوسُ سَقَى، لكِنَّ اللهَ كَانَ يُنْمِي. ٧ إِذًا لَيْسَ الْغَارِسُ شَيْئًا وَلاَ السَّاقِي، بَلِ اللهُ الَّذِي يُنْمِي. ٨ وَالْغَارِسُ وَالسَّاقِي هُمَا وَاحِدٌ، وَلكِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ سَيَأْخُذُ أُجْرَتَهُ بِحَسَبِ تَعَبِهِ. ٩ فَإِنَّنَا نَحْنُ عَامِلاَنِ مَعَ اللهِ، وَأَنْتُمْ فَلاَحَةُ اللهِ، بِنَاءُ اللهِ. " (كورنثوس (١) ٣/ ٦-٩)، فوحدة بولس مع أبلوس وحدة الهدف المشترك، لا الجوهر والذات.

٩- ومثله جاء في التوراة في وصف الزوجين " يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا " (التكوين ٢/ ٢٤) أي الجسد الواحد، لا أن ذاتهما قد أضحت واحدة، وعليه لا يصح الفهم الظاهري السطحي لقوله: " وَقَالَ: مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. " (متى ١٩/ ٥)، ومثله سواء بسواء قول المسيح: "أنا والآب واحد".

١٠- ومثله أيضًا قول لابان ليعقوب ابن أخته " فَقَالَ لَهُ لاَبَانُ: «إِنَّمَا أَنْتَ عَظْمِي وَلَحْمِي». فَأَقَامَ عِنْدَهُ شَهْرًا مِنَ الزَّمَانِ. " (التكوين ٢٩/ ١٤).

١١- ومثله الرمز لوحدة الهدف والغاية بين التلاميذ باستعارة لفظ يدل ظاهره على وحدة الجسد، وليس مقصودًا، وذلك في قوله: " هكَذَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ: جَسَدٌ وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ، وَأَعْضَاءٌ بَعْضًا لِبَعْضٍ. " (رومية ١٢/ ٥)، ونحوه في قوله: " أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ

أَجْسَادَكُمْ هِيَ أَعْضَاءُ الْمَسِيحِ؟ " (كورنثوس (١) ٦/ ١٥)، (وانظر صموئيل (٢) ١٩/ ١٢، كورنثوس (١) ١٢/ ٢٧)، (أفسس ٢/ ١٤). وغير ذلك من أمثلة وحدة المشيئة والهدف والمحبة، لا الذات.

١٢- ومثل هذا الاستخدام للوحدة المجازية، وحدة الهدف والمشيئة ورد في القرآن من غير أن يفهم منه أحد من المسلمين الوحدة الحقيقية، وحدة الذات، وذلك في قوله تعالى، وهو يخاطب نبيه: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ) (الفتح: ١٠)، فلم يقل أحد من المسلمين أن الله ونبيه ذات واحدة كما صنع النصارى في قول المسيح: "أنا والآب واحد".

٢. قول المسيح: "الذي رآني فقد رأى الآب" ومن أهم ما يستدل به النصارى على ألوهية المسيح عليه السلام قوله: "الذي رآني فقد رأى الآب" (يوحنا ١٤/ ٩)، إذ فهموا منه أن الله الآب هو المسيح، وأن رؤية المسيح هي بالحقيقة رؤية لله عز وجل. ولفهم النص الفهم الصحيح نعود إلى سياقه، فالسياق من أوله يخبر أن المسيح عليه السلام قال لتلاميذه: "أنا أمضي لأعد لكم مكانا، وإن مضيت وأعددت لكم مكانا آتي أيضًا وآخذكم " وقصده بالمكان الملكوت. فلم يفهم عليه توما فقال: " يَا سَيِّدُ، لَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ، فَكَيْفَ نَقْدِرُ أَنْ نَعْرِفَ الطَّرِيقَ؟ "، لقد فهم أنه يتحدث عن طريق حقيقي وعن رحلة حقيقية، فقال له المسيح مصححًا ومبينًا أن الرحلة معنوية وليست حقيقية مكانية: " أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. " (يوحنا١٤/ ١- ٦)، أي أن اتباع شرعه ودينه هو وحده الموصل إلى رضوان الله وجنته.

ثم طلب منه فيلبس أن يريهم الله، فنهره المسيح وقال له: " أَلَسْتَ تُؤْمِنُ أَنِّي أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ؟ الْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ. " (يوحنا ١٤/ ١٠) أي كيف تسأل ذلك يا فيلبس، وأنت يهودي تعلم أن الله لا يرى، فالذي رآني رأى الآب، حين رأى أعمال الله (المعجزات) التي أجراها على يد المسيح.

١- يشبه هذا النص تمامًا ما جاء متى " ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ. ٣٥ لأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي.

عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيبًا فَآوَيْتُمُونِي. ٣٦ عُرْيَانًا فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضًا فَزُرْتُمُونِي. مَحْبُوسًا فَأَتَيْتُمْ إِلَيَّ. ٣٧ فَيُجِيبُهُ الأَبْرَارُ حِينَئِذٍ قَائِلِينَ: يَارَبُّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعًا فَأَطْعَمْنَاكَ، أَوْ عَطْشَانًا فَسَقَيْنَاكَ؟ ٣٨ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ غَرِيبًا فَآوَيْنَاكَ، أَوْ عُرْيَانًا فَكَسَوْنَاكَ؟ ٣٩ وَمَتَى رَأَيْنَاكَ مَرِيضًا أَوْ مَحْبُوسًا فَأَتَيْنَا إِلَيْكَ؟ ٤٠ فَيُجِيبُ الْمَلِكُ وَيَقُولُ لَهُمْ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ. " (متى ٢٥/ ٣٤-٤٠)، ومن المعلوم أن أحدا في الدنيا لا يقول بأن الجائع المطعم هو الملك رغم قوله: "فبي فعلتم"، إذ هذا على سبيل تقريب المعاني، لا الحلول والتماهي بين الذوات.

ويشبهه ما جاء في إنجيل مرقس " فَأَخَذَ وَلَدًا وَأَقَامَهُ فِي وَسْطِهِمْ ثُمَّ احْتَضَنَهُ وَقَالَ لَهُمْ: ٣٧ «مَنْ قَبِلَ وَاحِدًا مِنْ أَوْلاَدٍ مِثْلَ هذَا بِاسْمِي يَقْبَلُنِي، وَمَنْ قَبِلَنِي فَلَيْسَ يَقْبَلُنِي أَنَا بَلِ الَّذِي أَرْسَلَنِي " (مرقس ٩/ ٣٧: ٣٦)، فالنص لا يعني أن الطفل الذي رفعه المسيح هو ذات المسيح، ولا أن المسيح عليه السلام هو ذات الله، ولكنه يخبر - عليه الصلاة والسلام - أن الذي يصنع برا بحق هذا الطفل، فإنما يصنعه طاعة ومحبة للمسيح، لا بل طاعةً لله وامتثالًا لأمره.

وكما أن من يرى المسيح فكأنه يرى الله، فإنه من قبل المسيح وتلاميذه فكأنما قبل الله عز وجل، ومن كفر بهم ورفض دعوتهم فإنما رفض في الحقيقة دعوة الله، لذا يقول المسيح: " اَلَّذِي يَسْمَعُ مِنْكُمْ يَسْمَعُ مِنِّي، وَالَّذِي يُرْذِلُكُمْ يُرْذِلُنِي، وَالَّذِي يُرْذِلُنِي يُرْذِلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي " (لوقا ١٠/ ١٦).

٢- ويؤكده مرة أخرى فيقول: " مَنْ يَقْبَلُكُمْ يَقْبَلُنِي، وَمَنْ يَقْبَلُنِي يَقْبَلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي. " (متى ١٠/ ٤٠)، وكذا من رأى المسيح فكأنه رأى الآب الذي أرسله، لأن " الْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ (يوحنا ١٤/ ١٠). والرؤية في قوله: "الذي رآني فقد رأى الآب" معنوية مجازية، أي رؤية البصيرة، لا البصر، وهذه الرؤية متحققة لكل المؤمنين الذين هم من الله كما قال المسيح عليه السلام: "ليس أن أحدًا رأى الآب إلا الذي من الله، هذا قد رأى الآب" (يوحنا ٦/ ٤٦)، ومن المعلوم أن كل

المؤمنين هم من الله " كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح، فقد ولد من الله" (يوحنا (١) ٥/ ١)، فكلهم رأى الله رؤية المعرفة والإيمان. ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلا أن عيسى لم يدع قط أنه الآب، ولا يقول بمثل هذا من النصارى أحد سوى الأرثوذكس، الذين هم أيضًا لا يقولون بأن المسيح هو الآب، لكنهم يقولون: الآب هو الابن، فالمعنى الحقيقي القريب للرؤية مرفوض.

٣- ومما يؤكد أن الرؤيا معنوية أنه قال بعد قليل: " بعد قليل لا يراني العالم أيضًا، أما أنتم فترونني" (يوحنا ١٤ / ١٩)، فهو لا يتحدث عن رؤية حقيقية، إذ يتحدث عن رفعه للسماء، فحينذاك لن يراه العالم ولا التلاميذ، لكنه يتحدث عن رؤية معرفية إيمانية يراها التلاميذ، وتعشى عنها وجوه العالم الكافر.

ويشهد له ما جاء في متى: " وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الابْنَ إِلاَّ الآبُ، وَلاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إِلاَّ الابْنُ وَمَنْ أَرَادَ الابْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ. " (متى ١١/ ٢٧)، فهو المقصود من الرؤية المذكورة في النصوص السابقة.

٤- ونحوه قوله: " فَنَادَى يَسُوعُ وَقَالَ: «الَّذِي يُؤْمِنُ بِي، لَيْسَ يُؤْمِنُ بِي بَلْ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي. ٤٥ وَالَّذِي يَرَانِي يَرَى الَّذِي أَرْسَلَنِي. ٤٦ أَنَا قَدْ جِئْتُ نُورًا إِلَى الْعَالَمِ، حَتَّى كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِي لاَ يَمْكُثُ فِي الظُّلْمَةِ. ٤٧ وَإِنْ سَمِعَ أَحَدٌ كَلاَمِي وَلَمْ يُؤْمِنْ فَأَنَا لاَ أَدِينُهُ، لأَنِّي لَمْ آتِ لأَدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لأُخَلِّصَ الْعَالَمَ. ٤٨ مَنْ رَذَلَنِي وَلَمْ يَقْبَلْ كَلاَمِي فَلَهُ مَنْ يَدِينُهُ. اَلْكَلاَمُ الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ هُوَ يَدِينُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ، ٤٩ لأَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ أَعْطَانِي وَصِيَّةً: مَاذَا أَقُولُ وَبِمَاذَا أَتَكَلَّمُ. ٥٠ وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ وَصِيَّتَهُ هِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. فَمَا أَتَكَلَّمُ أَنَا بِهِ، فَكَمَا قَالَ لِي الآبُ هكَذَا أَتَكَلَّمُ " (يوحنا ١٢/ ٤٤-٥١)، فالمقصود بكل ذلك رؤية المعرفة.

وقوله: " وَالَّذِي يَرَانِي يَرَى الَّذِي أَرْسَلَنِي. " ولا يمكن أن يراد منه، أن الذي رأى الآب المرسل قد رأى الابن المرسل، إلا إذا كان المرسل هو المرسل، وهو محال للمغايرة التي بينهما كما قال المسيح: "أبي أعظم مني" (يوحنا ١٤/ ٢٨)، وقال: "أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل" (يوحنا ١٠/ ٢٩).

ومثل هذا السياق الوارد في يوحنا (١٤/ ٩) والذي يفيد الاشتراك في الحكم بين المسيح والله، والذي عبر عنه هنا بالرؤية، مثل هذا معهود في العهد القديم والجديد:

١- ففي العهد القديم لما رفض بنو إسرائيل صموئيل " فَاجْتَمَعَ كُلُّ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ وَجَاءُوا إِلَى صَمُوئِيلَ إِلَى الرَّامَةِ ٥وَقَالُوا لَهُ: «هُوَذَا أَنْتَ قَدْ شِخْتَ، وَابْنَاكَ لَمْ يَسِيرَا فِي طَرِيقِكَ. فَالآنَ اجْعَلْ لَنَا مَلِكًا يَقْضِي لَنَا كَسَائِرِ الشُّعُوبِ». ٦فَسَاءَ الأَمْرُ فِي عَيْنَيْ صَمُوئِيلَ إِذْ قَالُوا: «أَعْطِنَا مَلِكًا يَقْضِي لَنَا». وَصَلَّى صَمُوئِيلُ إِلَى الرَّبِّ. ٧فَقَالَ الرَّبُّ لِصَمُوئِيلَ: «اسْمَعْ لِصَوْتِ الشَّعْبِ فِي كُلِّ مَا يَقُولُونَ لَكَ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَرْفُضُوكَ أَنْتَ بَلْ إِيَّايَ رَفَضُوا حَتَّى لاَ أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ. " (صموئيل (١) ٨/ ٤-٧)، إذ رفضهم طاعة صموئيل هو عصيان لله في الحقيقة.

٢- وكذا في العهد الجديد، فقد قال بطرس لحنانيا الكاهن مبكتا إياه على أكل ثمن الحقل: " أَلَيْسَ وَهُوَ بَاق كَانَ يَبْقَى لَكَ؟ وَلَمَّا بِيعَ، أَلَمْ يَكُنْ فِي سُلْطَانِكَ؟ فَمَا بَالُكَ وَضَعْتَ فِي قَلْبِكَ هذَا الأَمْرَ؟ أَنْتَ لَمْ تَكْذِبْ عَلَى النَّاسِ بَلْ عَلَى اللهِ». " (أعمال الرسل٥/ ٤)، فالكذب على الناس هنا كذب على الله في الحقيقة، ولا يعني أن الناس والله ذات واحدة.

٣- وقوله: "أنا هو الطريق والحق والحياة" يقصد فيه المسيح الالتزام بتعليمه ودينه الذي أنزله الله عليه، فذلك فقط يدخل الجنة دار الخلود، كما قال في موطن آخر: " لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَارَبُّ، يَارَبُّ! يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. " (متى ٧ / ٢١)، فالخلاص بالعمل الصالح والبر " فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ إِنْ لَمْ يَزِدْ بِرُّكُمْ عَلَى الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ لَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. «قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَقْتُلْ، وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ. ٢٢وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلًا يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ. " (متى ٥/ ٢٠-٢٢).

٤- ويتأكد ضعف الاستدلال بهذا الدليل للنصارى "الذي رآني فقد رأى الآب" إذا آمنا أن رؤية الله ممتنعة في الدنيا، كما قال يوحنا: " الله لم يره أحد قط" (يوحنا ١/ ١٨)،

وكما قال بولس: " الَّذِي لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَاهُ، الَّذِي لَهُ الْكَرَامَةُ وَالْقُدْرَةُ الأَبَدِيَّةُ. آمِينَ. " (تيموثاوس (١) ٦/ ١٦)، فيصير النص لزاما إلى رؤية المعرفة والبصيرة.

٣. المسيح صورة الله: ومن أدلة النصارى على ألوهية المسيح ما قاله بولس عنه: "مجد المسيح الذي هو صورة الله" (كورنثوس ٤/ ٤). وفي فيلبي يقول: " الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا للهِ. [٧] لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. " (فيلبي ٢/ ٦-٧)، ويقول عنه أيضًا: " الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللهِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ، بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ. " (كولوسي ١/ ١٥).

والجواب من وجوه:

الأول: قبل تفنيد هذه الشبهة، يجدر بنا أن نذكر الفقرات التي جاء تعبير بولس هذا ضمنها. فالأول جاء في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس (٤ / ٣ـ ٤) كما يلي:

" فإذا كانت بشارتنا محجوبة، فهي محجوبة عن السائرين في طريق الهلاك. (محجوبة) عن غير المؤمنين، الذين أعمى أبصارهم إله هذه الدنيا لئلا يبصروا نور بشارة مجد المسيح وهو صورة الله ".

والموضع الثاني جاء في رسالته إلى أهل فيليبي (٢ / ٥ ـ ٨): " فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيضًا: [٦] الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا للهِ. [٧] لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. [٨] وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ "، و مثل ذلك جاء في رسالة بولس إلى أهل قولوسي (١/ ١٥)، حيث قال عن المسيح " هو صورة الله الذي لا يُرى. "

والآن نقول: إن وصف بولس للمسيح بأنه " صورة الله "، ليس فيه أي تأليه للمسيح؛ لأن هذه الصفة تكررت بعينها مرات عديدة في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ووصف بها الإنسان، بشكل عام والرجل بشكل عام أيضًا، ويفهم من تتبع موارد استعمالها في الكتاب المقدس أنها تعني نوع من التشابه العام أو العلاقة والترابط بين الإنسان ككل والله. فقد جاء في سفر التكوين من التوراة الحالية: " وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ،

وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ، فَخَلَقَ الله الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ الله خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى. . . " (تكوين: ١ / ٢٦ ـ ٢٧). يقول مفسرو التوراة: إن المقصود بكون الإنسان خلق على صورة الله، هو ما يتميز به الإنسان عن الجمادات والنباتات والحيوانات بالعقل الكامل، والقدرة على النطق، والتعبير عما يريد، وبالإرادة والاختيار الحر وبالاستطاعة والقدرة، فضلا عن السمع والبصر والحياة والإدراك والعلم. . . الخ، أي أن هناك تشابه عام بين صورة الله في صفاته والإنسان، لذا قال سبحانه: إنه خلق الإنسان على صورته، وبتعبير آخر إن الله شاء أن يخلق مخلوقا تنعكس وتتجلى فيه ومضة من صفاته تعالى، من العقل والإرادة والاختيار والحياة والعلم والمعرفة والكلام والقدرة والسمع والبصر. . . الخ. ولما كانت صفات الكمال، من قوة وقدرة وعقل وحكمة، موجودة في الرجل أكثر من المرأة، لذا نجد بولس يعبر عن الرجل ـ كل رجل ـ بأنه " صورة الله " فيقول مثلًا في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس (١١ / ٧): " وأما الرجل فما عليه أن يغطي رأسه لأنه صورة الله ومجده ". أما قول بولس عن المسيح في الشاهد الثاني: " فمع أنه في صورة الله، لم يعد مساواته لله غنيمة، بل تجرد من ذاته متخذا صورة العبد وصار على مثال البشر وظهر في هيئة إنسان. . . الخ "، فقد يظن البعض أن فيه تصريحًا بألوهيته؛ لأنه صرح بمساواته لله، وبأنه تجسّد وأخذ صورة العبد ولبس لباس البشر، فصرح بالتجسّد.

فنقول: إن قوله " مساواته لله " ليست إلا تعبيرا آخر عن عبارته " أنه في صورة الله " والتي عرفنا أن المقصود منها: أنه لما كان الإنسان الكامل مجلى وصورة تنعكس فيها صفات الحق جلَّ وعلا، من عقل كامل وعلم وإرادة واختيار وقدرة وعدل وحكمة، وطهر وقداسة، وحب ورحمة ورأفة. . . . الخ؛ لذا عبر عنه بأنه صورة الله، ومماثل لله، فيقول بولس: إن المسيح لم يستغل هذا التناظر والتساوي (الصفاتي الصوري) مع الله، لكي يفتخر ويتكبر ولا يخضع لله ويرى أنه صار على مستوى الله، كلا وحاشا، ولعله في هذا يلمِّح إلى آدم الذي ـ

حسبما تنقل التوراة التي تشكل خلفية فكر بولس باعتباره كان من أحبار اليهود ـ حاول أن يستغل قدرته وإرادته الحرة للأكل من الشجرة المحرمة؛ ليكون مساويًا لله في علمه وأبديته، حيث إن الشجرة ـ حسب نقل تلك التوراة ـ كانت شجرة معرفة الخير والشر وشجرة الخلد والملك الذي لا يبلى ولا يفنى، أما المسيح فعلى العكس اختار التواضع والطاعة لمشيئة أبيه ووضع نفسه واستسلم للموت ـ على حد قول بولس ـ.

وأما قوله عن المسيح: إنه صار على مثال البشر وظهر بهيئة إنسان، فيعود لفكرة بولس عن المسيح التي سبق وشرحناها، وهي أنه يرى في المسيح أول (أو بتعبيره: بكر) خليقة الله، فكان كائنًا روحيًا قبل خلق العالم وبه وفيه خلق الله سائر الأشياء، فليس في تجسده أي إشارة للألوهية أو دلالة عليها.

ولا يختلف تجسده عن تجسد جبريل الأمين لما ظهر لمريم أو تجسد الملائكة الثلاثة الذين زاروا إبراهيم عليه السلام؛ إذ من البديهي أن التجسد بحد ذاته، لا يعني أكثر من ظهور كائن روحي بمظهر جسدي إنساني، أما أن هذا الكائن الروحي كان قبل تجسده إلهًا أو غير إله، فهذا يحتاج لدليل آخر.

الثاني: وإذا نظرنا إلى تتمة كلام بولس؛ ظهر لنا بكل وضوح انتفاء قصد إلهية المسيح واستحالة كون المسيح هو الله في نظر بولس، حيث قال: " فوضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب، لذلك رفعه الله إلى العلى ووهب له الاسم الذي يفوق جميع الأسماء. . . " (فيليبي: ٢ / ٨ ـ ٩).

فعبارات: أنه مات ثم رفعه الله إلى العلا ووهب له الاسم. . . تصيح بأعلى صوتها أن المسيح ليس الله، بل عبد لله، محتاج له، وليس بإله؛ لأن الإله لا يموت ولا يحتاج لمن يرفعه للعلا، ولا لمن يهبه أي شيء!

الثالث: أنه يظهر لنا من خلال ما سبق ما يلي:

١ - هذه الأقوال صدرت عن بولس، الذي لم يتشرف برؤية المسيح عليه السلام، ولا التلمذة على يديه، ولا نرى مثل هذه العبارات عند أحد من تلاميذ المسيح وحوارييه، وهذا كاف

لإضفاء ظلال الشك والارتياب عليها.

٢- ثم إن الصورة تغاير الذات، وصورة الله هنا تعني " نائبه في إبلاغ شريعته ".

٣- كما قال بولس في موضع آخر عن الرجل: " فَإِنَّ الرَّجُلَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغَطِّيَ رَأْسَهُ لِكَوْنِهِ صُورَةَ اللهِ وَمَجْدَهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ مَجْدُ الرَّجُلِ. " (كورنثوس ١١/ ٧)، ومعناه أن الله أناب الرجل في سلطانه على المرأة.

٤- كما أن كون المسيح على صورة الله لا يمكن أن يستدل به على ألوهيته، فإن آدم – وفق الكتاب المقدس – يشارك الله في هذه الصورة، فقد جاء في سفر التكوين عن خلقه: " وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، ... فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. " (التكوين ١/ ٢٦-٢٧).

٥- فإن أصر النصارى على الجمع بين الصورة وألوهية المسيح؛ فإن في الأسفار ما يخطئهم، فقد جاء في إشعيا " اِجْتَمِعُوا يَا كُلَّ الأُمَمِ مَعًا ... لِكَيْ تَعْرِفُوا وَتُؤْمِنُوا بِي... قَبْلِي لَمْ يُصَوَّرْ إِلهٌ وَبَعْدِي لاَ يَكُونُ. أَنَا أَنَا الرَّبُّ، وَلَيْسَ غَيْرِي مُخَلِّصٌ. " (إشعيا ٤٣/ ٩-١١).

٤. **السجود للمسيح:** وتتحدث الأناجيل عن سجود بعض معاصري المسيح له، ويرون في سجودهم له دليل ألوهيته واستحقاقه للعبادة. فقد سجد له أب الفتاة النازفة " وَفِيمَا هُوَ يُكَلِّمُهُمْ بِهذَا، إِذَا رَئِيسٌ قَدْ جَاءَ فَسَجَدَ لَهُ " (متى ٩/ ١٨). كما سجد له الأبرص "إذا أبرص قد جاء وسجد له " (متى ٨/ ٢)، وسجد له المجوس في طفولته " فخروا وسجدوا له، ثم فتحوا كنوزهم " (متى ٢/ ١١).

فيما رفض بطرس سجود كرنيليوس له، وقال له: "قم أنا أيضًا إنسان" (أعمال ١٠/ ٢٥)، فقد اعتبر السجود نوعًا من العبادة لا ينبغي إلا لله، وعليه يرى النصارى في رضا المسيح بالسجود له دليلًا على أنه كان إلهًا.

ولا ريب أن السجود مظهر من مظاهر العبادة.

والجواب من وجوه:

١- أن السجود لا يعني بالضرورة: أن كل سجود عبادة، فمن السجود ما هو

للتبجيل والتعظيم فحسب، كما سجد إبراهيم إكراما لبني حث " فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ وَسَجَدَ لِشَعْبِ الأَرْضِ، لِبَنِي حِثَّ" (التكوين ٢٣/ ٧).

٢- كما سجد يعقوب عليه السلام وأزواجه وبنيه لعيسو بن إسحاق حين لقائه " وَأَمَّا هُوَ فَاجْتَازَ قُدَّامَهُمْ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ سَبْعَ مَرَّاتٍ حَتَّى اقْتَرَبَ إِلَى أَخِيهِ. ٤ فَرَكَضَ عِيسُو لِلِقَائِهِ وَعَانَقَهُ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ، وَبَكَيَا. ثُمَّ رَفَعَ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ النِّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ وَقَالَ: «مَا هؤُلاَءِ مِنْكَ؟ » فَقَالَ: «الأَوْلاَدُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ بِهِمْ عَلَى عَبْدِكَ». ٦ فَاقْتَرَبَتِ الْجَارِيَتَانِ هُمَا وَأَوْلاَدُهُمَا وَسَجَدَتَا. ٧ ثُمَّ اقْتَرَبَتْ لَيْئَةُ أَيضًا وَأَوْلاَدُهَا وَسَجَدُوا. وَبَعْدَ ذلِكَ اقْتَرَبَ يُوسُفُ وَرَاحِيلُ وَسَجَدَا. " (التكوين ٣٣/ ٣-٧).

٣- كما سجد موسى عليه السلام لحماه حين جاء من مديان لزيارته "فخرج موسى لاستقبال حميه، وسجد، وقبله" (الخروج ١٨/ ٧).

٤- وسجد إخوة يوسف عليه السلام تبجيلًا، لا عبادة لأخيهم يوسف "أتى إخوة يوسف، وسجدوا له بوجوههم إلى الأرض" (التكوين ٤٢/ ٦)، واستمرت هذه العادة عند بني إسرائيل " وبعد موت يهويا داع جاء رؤساء يهوذا، وسجدوا للملك " (الأيام (٢) ٢٤/ ٧). وكل هذه الصور وغيرها كثير، لا تفيد أكثر من الاحترام، وعليه يحمل سجود من سجد للمسيح عليه السلام.

وأما رفض بولس وبطرس لسجود الوثنيين لهما؛ فكان بسبب أن مثل هؤلاء، قد يكون سجودهم من باب العبادة، لا التعظيم، خاصة أنهم يرون معجزات التلاميذ، فقد يظنونهم آلهة لما يرونه من أعاجيبهم.

رابعًا: نصوص نسبت صفات الله إلى المسيح.

١. أزلية المسيح. ويتحدث النصارى عن المسيح الإله الذي كان موجودًا في الأزل قبل الخليقة، ويستدلون لذلك بأمور، منها ما أورده يوحنا على لسان المسيح أنه قال: " أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ». ٥٧ فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «لَيْسَ لَكَ خَمْسُونَ سَنَةً بَعْدُ، أَفَرَأَيْتَ إِبْرَاهِيمَ؟ » ٥٨ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ»"

(يوحنا ٨/ ٥٦-٥٨)، ففهموا منه - باطلًا - أن للمسيح عليه السلام وجودا قبل إبراهيم، مما يعني - وفق فهمهم - أنه كائن أزلي. وأيدوا استشهادهم بما ذكره يوحنا عن المسيح: " هُوَذَا يَأْتِي مَعَ السَّحَابِ، وَسَتَنْظُرُهُ كُلُّ عَيْنٍ، وَالَّذِينَ طَعَنُوهُ، وَيَنُوحُ عَلَيْهِ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ. نَعَمْ آمِينَ. ٨«أَنَا هُوَ الأَلِفُ وَالْيَاءُ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ. " (الرؤيا ١/ ٧-٨) أي الأول والآخر. كما جاء في مقدمة يوحنا ما يفيد وجودًا أزليًا للمسيح قبل خلق العالم " فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. ٢ هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ. " (يوحنا ١/ ١-٢). فهذه النصوص مصرحة - حسب رأي النصارى - بأزلية المسيح وأبديته، وعليه فهي دليل ألوهيته.

ويخالف المحققون في النتيجة التي توصل إليها النصارى:

١- إذ ليس المقصود من الوجود قبل إبراهيم الوجود الحقيقي للمسيح كشخص، بل المقصود الوجود القدري والاصطفائي، أي أن اختيار الله واصطفاءه له قديم، كما في قول بولس عنه - حسب الرهبانية اليسوعية -: "وكان قبل اصطفي قبل إنشاء العالم" (بطرس (١) ١/ ٢٠)، ومثله قال بولس عن نفسه وأتباعه: " كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ" (أفسس ١/ ٤) أي اختارنا بقدره القديم كما اختار المسيح واصطفاه، ولا يفيد أنهم وجدوا أو أنه وجد حينذاك.

٢- وهذا الوجود القديم للمسيح عليه السلام أي الاصطفاء الإلهي والمحبة الإلهية له هو المجد الذي منحه الله المسيح، كما في قوله: " وَالآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ. " (يوحنا ١٧/ ٥).

٣- وهو المجد الذي أعطاه لتلاميذه حين اصطفاهم واختارهم للتلمذة كما الله اختاره للرسالة " أَيُّهَا الآبُ أُرِيدُ أَنَّ هؤُلاَءِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي يَكُونُونَ مَعِي حَيْثُ أَكُونُ أَنَا، لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ. " (يوحنا ١٧/ ٢٤)، ومحبة الشيء لا تستلزم وجوده، فقد يحب المرء المعدوم أو المستحيل، الذي لم ولن يوجد.

٤- ومعرفة إبراهيم للمسيح - عليهما السلام - قبل خلقه ووجوده الأرضي، ليست معرفة لشخصه طبعا، لأنه لم يره قطعا، لذا فقوله: " فقد رآني وابتهج بي"، هو رؤية

مجازية، وهي رؤية المعرفة، وإلا لزم النصارى أن يذكروا دليلا على رؤية إبراهيم للابن الذي هو الأقنوم الثاني، أو أن يثبتوا لجسد المسيح وجودا زمن إبراهيم ﷺ، وقول المسيح: "من قبل أن يكون إبراهيم كنت أنا " (يوحنا ٨/ ٥٦-٥٨)، لا يدل على وجوده في الأزل، وغاية ما يفيده النص - إذا أخذ على ظاهره - أن للمسيح ﷺوجودًا أرضيًا يعود إلى زمن إبراهيم، وزمن إبراهيم لا يعني الأزل.

٥ -ثم لو كان المسيح أقدم من إبراهيم وسائر المخلوقات، فإن له من يشاركه في هذه الأقدمية، وهو النبي إرمياء، والذي عرفه الله منذ القدم وقدسه قبل أن يخرج من رحم أمه، إذ يقول عن نفسه: " فَكَانَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ إِلَيَّ قَائِلًا: ٥«قَبْلَمَا صَوَّرْتُكَ فِي الْبَطْنِ عَرَفْتُكَ، وَقَبْلَمَا خَرَجْتَ مِنَ الرَّحِمِ قَدَّسْتُكَ. جَعَلْتُكَ نَبِيًّا لِلشُّعُوبِ" (إرمياء ١/ ٤-٥)، وقال عنه ابن سيراخ في حكمته: "وهو الذي قدس في جوف أمه" (ابن سيراخ ٤٩/ ٧)، وهذه المعرفة الإلهية لإرمياء بلا ريب أشرف من معرفة إبراهيم للمسيح وأقدم، ولا تستلزم وجودًا حقيقيًا له على الأرض.

٦- وممن شارك المسيح في هذه الأزلية المدعاة، ملكي صادق كاهن ساليم في عهد إبراهيم، فإن بولس يزعم أن لا أب له ولا أم، ويزعم أن لا بداية له ولا نهاية، أي هو أزلي أبدي، يقول بولس: " لأَنَّ مَلْكِي صَادَقَ هذَا، مَلِكَ سَالِيمَ، كَاهِنَ اللهِ الْعَلِيِّ، الَّذِي اسْتَقْبَلَ إِبْرَاهِيمَ رَاجِعًا مِنْ كَسْرَةِ الْمُلُوكِ وَبَارَكَهُ، ٢الَّذِي قَسَمَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ عُشْرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. الْمُتَرْجَمَ أَوَّلًا «مَلِكَ الْبِرِّ» ثُمَّ أَيضًا «مَلِكَ سَالِيمَ» أَيْ «مَلِكَ السَّلاَمِ» بِلاَ أَبٍ، بِلاَ أُمٍّ، بِلاَ نَسَبٍ. لاَ بَدَاءَةَ أَيَّامٍ لَهُ وَلاَ نِهَايَةَ حَيَاةٍ. بَلْ هُوَ مُشَبَّهٌ بِابْنِ اللهِ. هذَا يَبْقَى كَاهِنًا إِلَى الأَبَدِ. " (عبرانيين ٧/ ١-٣)، فلم لا يقول النصارى بألوهية ملكي صادق الذي يشبه بابن الله، لكثرة صور التشابه بينهما، بل هو متفوق على المسيح الذي يذكر النصارى أنه صلب ومات، وله أم بل وأب – حسب ما أورده متى ولوقا –، في حين أن ملكي صادق قد تنزه عن ذلك كله!

٧- ومن هؤلاء الذين كانوا قبل إبراهيم ويستحقون الأزلية - لو فهمت النصوص

على ظاهرها - حكمة البشر أو النبي سليمان الحكيم حين قال عن نفسه وعن حكمة الله التي تجسدت فيه وفي غيره من البشر: "أنا الحكمة أسكن الذكاء، وأجد معرفة التدابير. . . الرب قناني أول طريقه، من قبل أعماله منذ القديم، منذ الأزل مسحت، منذ البدء، منذ أوائل الأرض، إذ لم يكن ينابيع كثيرة المياه، ومن قبل أن تقرر الجبال أبدئت، قبل التلال أبدئت " (الأمثال ٨/ ١٢-٢٥)، فقد أضحى سليمان أو الحكمة البشرية - وفقا للفهم الظاهري الحرفي - مسيحًا للرب منذ الأزل، وقول بعض النصارى: إن سفر الأمثال كان يتحدث عن المسيح ﷺ، لا دليل عليه، فسفر الأمثال قد كتبه سليمان كما في مقدمته "أمثال سليمان بن داود" (الأمثال ١/ ١)، وقد تكرر في مواضع متفرقة منه استمرار سليمان الحكيم في الحديث، وهو يقول: "يا ابني أصغ إلى حكمتي" (الأمثال ٥/ ١)، وانظر (الأمثال ١/ ٨، ٣/ ١، ٣/ ٢١، ٥/ ١، ٧/ ١ وغيرها)، فالمتحدث في السفر هو سليمان ﷺ والحكمة المتجسدة فيه. وسليمان هو الموصوف بالحكمة في الكتاب المقدس، وأي حكمة؟ حكمة الله، فقد رأى معاصروه فيه حكمة الله " وَلَمَّا سَمِعَ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ بِالْحُكْمِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ الْمَلِكُ خَافُوا الْمَلِكَ، لأَنَّهُمْ رَأَوْا حِكْمَةَ الله فِيهِ لإِجْرَاءِ الْحُكْمِ" (الملوك (١) ٣/ ٢٨). ويمضي السفر ليبين لنا عظم حكمة الله، التي حلت وتجسدت فيه، فيقول: " وأعطى الله سليمان حكمة وفهمًا كثيرًا جدًا. . . وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر، وكان أحكم من جميع الناس. . . وكان صيته في جميع الأمم حواليه. . . وكانوا يأتون من جميع الشعوب؛ ليسمعوا حكمة سليمان، من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته" (الملوك (١) ٤/ ٢٩-٣٤).

وفي سفر الأيام " مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ الَّذِي صَنَعَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ، الَّذِي أَعْطَى دَاوُدَ الْمَلِكَ ابْنًا حَكِيمًا صَاحِبَ مَعْرِفَةٍ وَفَهْمٍ، الَّذِي يَبْنِي بَيْتًا لِلرَّبِّ وَبَيْتًا لِمُلْكِهِ" (الأيام (٢) ٢/ ١٢)، فالحكيم هو سليمان الذي شرفه الله ببناء بيته.

٨- وكلمة "منذ الأزل مسحت" لا تدل على المسيح عيسى ابن مريم؛ إذ "المسيح"

لقب أطلق على كثيرين غير المسيح عيسى، ممن مسحهم الله ببركته من الأنبياء كداود وإشعيا. (انظر المزمور ٤٥/ ٧، وإشعيا ٦١/ ١)، فلا وجه لتخصيص المسيح بالمسح دون غيره ممن الممسوحين. وأمام الحرج الذي يسببه نص سفر الأمثال؛ فإن البعض من النصارى يقولون: إن المتحدث في سفر الأمثال، هو حكمة الله، التي هي صفته الذاتية القائمة به في الأزل، وليس فعله الذي منحه لنبي الله سليمان، وهذا المعنى مرفوض بدلالة النص الذي يتحدث عن نبي ممسوح بزيت البركة "منذ الأزل مسحت"، وصفة الله القائمة به لا يمكن أن تمسح، ولماذا تمسح؟

كما أن النص يتحدث عن حكمة مخلوقة، وإن كانت قديمة، فقد قالت الحكمة: "الرب قناني أول طريقه. . ومن قبل أن تقرر الجبال أبدئت، قبل التلال أبدئت "، وفي الترجمة الإنجليزية المسماة (THE GOOD NEWS BIBLE): ، والصادرة عام ١٩٧٨ - ١٩٩٧، تستخدم كلمة (خلقني)، فتقول: The lord created me " بدلًا من قوله: (الرب قناني). وهو ذات الصنيع الذي صنعته نسخة الرهبانية اليسوعية، ففيها: "الرب خلقني أول طرقه، قبل أعماله"، وهكذا فهذه الحكمة مخلوقة قديما، وهي مبدأة من قبل الجبال والتلال.

وفي حكمة ابن سيراخ "قبل كل شيء خلقت الحكمة" (ابن سيراخ ١/ ٤)، وتحديدًا "قبل الدهور، ومنذ البدء خلقني، وإلى الدهور لا أزول" (سيراخ ٢٤/ ٩)، فهي ليست حكمة الله الأزلية، بل حكمته التي أعطاها الحكماء فتجسدت فيهم، وفي مقدمتهم سليمان الحكيم، والذي "رأوا حكمة الله فيه " (الملوك (١) ٣/ ٣٨).

والمتأمل بتجرد للنص؛ لن يجد صعوبة لفهم نوع الحكمة التي تتحدث في النص السالف، فهي ثمينة " لأَنَّ الْحِكْمَةَ خَيْرٌ مِنَ اللَّآلِئِ، وَكُلُّ الْجَوَاهِرِ لاَ تُسَاوِيهَا. " (الأمثال ٨/ ١١)، وهي بشرية "فم الصديق ينبت الحكمة" (الأمثال ١٠/ ٣١)، وأول درجات هذه الحكمة البشرية مخافة الله "بدء الحكمة مخافة الله" (الأمثال ٩/ ١٠).

وأيضًا هذه الحكمة هبة الله للإنسان "الرب يعطي حكمة من فمه: المعرفة والفم" (الأمثال ٢/ ٦)، هي حكمة مقترنة بالفهم دائما، ويوصي كاتب السفر فيقول: "قل للحكمة أنت أختي، وادع الفهم ذا قرابة، لتحفظك من المرأة الأجنبية. . " (الأمثال ٧/ ٤-٥). وبهذه الحكمة ساد السادة من الملوك والقضاة والأغنياء على غيرهم "أنا الحكمة أسكن الذكاء. . لي المشورة والرأي، أنا الفهم لي القدرة، بي تملك الملوك، وتقضي العظماء عدلا، بي تترأس الرؤساء والشرفاء، كل قضاة الأرض، أنا أحب الذين يحبونني، والذين يبكرون إلي يجدونني، عندي الغنى والكرامة، قنية فاخرة فاخرة وحظ، ثمري خير من الذهب ومن الإبريز، وغلتي خير من الفضة المختارة، في طريق العدل أتمشى، في وسط سبل الحق، فأورث محبي رزقا، وأملأ خزائنهم، الرب قناني أول طريقه. . . " (الأمثال ٨/ ١٢-٢٢). فالمتأمل لهذا وغيره - لا ريب - يجزم بأن هذه الحكمة، ليست صفة الله الأزلية القائمة به؛ إذ تلك لا تثمن بالجواهر واللآلئ، ولا تثمر الغنى والمال والملك والسلطان، كما لا تنبت من فم البشر، ولا تشمل بالطبع مخافة الله لأنها صفة الله. [1]

٢. مقدمة إنجيل يوحنا: وأما الاستدلال على ألوهية المسيح بمقدمة يوحنا: " **فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ الله، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ الله. كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ** " (يوحنا ١/ ١-٣) فقد كان للمحققين معه وقفات عديدة ومهمة، منها:

١- هذا النص ليس من كلام المسيح ﷺ، ولا من كلام أي حواري أو تلميذ مباشر

---

(١) ولربما أشكل على القارئ الكريم وصف سفر الأمثال للحكمة، بأنها صانعة أو خالقة في قوله: "كنت عنده صانعًا، وكنت كل يوم لذته فرحة دائمًا قدامه، فرحة في مسكونة أرضه " (الأمثال ٨/ ٣٠-٣١)، لكنه في الحقيقة تحريف مقصود بغرض الإلباس والتدليس، فالنص في الرهبانية اليسوعية مختلف تماما؛ إذ يقول: "وكنت عنده طفلًا، وكنت في نعيم يومًا فيومًا، ألعب أمامه في كل حين، ألعب على وجه أرضه"، وهو كما ترى لا يتحدث عن الحكمة الصانعة، بل عن الحكمة الطفولية التي تنشأ في الإنسان من سني لعبه وطفولته، وتترعرع وتنضج في قابل عمره.

من تلاميذه، بل كلام مسيحي تابعي ـ إن صح التعبير ـ وفيلسوف عاش في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني فلا يحمل في طياته أية حجة إلهية ملزمة. أما دعوى أنه كتب إنجيله بإلهام ووحي من الله فلا دليل علها إلا مجرد الظن.

٢ـ ما هو اعتقاد يوحنا كاتب هذا الإنجيل كما جاء في إنجيله ورسائله؟

هناك عبارات صريحة واضحة ليوحنا نفسه، تؤكد عبودية المسيح لله تعالى، وأن الله تعالى إله المسيح وخالقه:

(١) أما نصه على أن الله تعالى إله المسيح وبالتالي فالمسيح عبد مربوب لله، فقد جاء في رؤيا يوحنا الكشفية (١ / ٦) حين قال: ". . . ومن لدن يسوع المسيح الشاهد الأمين والبكر من بين الأموات وسيد ملوك الأرض، ذاك الذي أحبنا فحلنا من خطايانا بدمه، وجعل منا مملكة من الكهنة لإلهه وأبيه. . . "

(٢) وأما نصه على أن المسيح مخلوق لله سبحانه وتعالى، فجاء واضحا في رسالته الأولى (٢/ ١) في قوله: " أكتب إليك ما يقول الأمين (المسيح)، الشاهد الأمين الصادق، بدء خليقة الله. . . "

(٣) وأما أن المسيح يستمد من الله، وبالتالي لا يمكن أن يكون إلهًا لأن الله غني بذاته، فقد جاء ذلك مثلًا في رؤياه الكشفية أيضًا (١ / ١) حين يقول: " هذا ما كشفه يسوع المسيح بعطاء من الله ".

(٤) وأما عن الغيرية الكاملة والتمايز والاثنينية بين الله: الآب والمسيح عليه السلام، فالأمثلة عليه كثيرة من كلام يوحنا، نكتفي بهذا الشاهد من رسالته الأولى (٢/ ١): " وإن خطئ أحد فهناك شفيع لنا عند الآب وهو يسوع المسيح البار. "

(٥) ثم إن نفس النصوص الإنجيلية، التي سقناها قبل من إنجيل يوحنا، النافية لإلهية عيسى والمثبتة لعبوديته، تصلح كذلك للكشف عن عقيدة يوحنا مؤلف ذلك الإنجيل حول عدم إلهية المسيح؛ إذ من البديهي أن الرجل دوَّن في إنجيله ما يعتقده أو أنه كان يعتقد بما دونه، ونكتفي هنا بإشارة سريعة لثلاث نصوص قاطعة من إنجيل يوحنا:

١- " قال لها يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي. ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم " (إنجيل يوحنا: ٢٠ / ١٧).

٢- " تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الآب، قد أتت الساعة. . . وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته. . . " (إنجيل يوحنا: ١٧ / ١ ـ ٣).

٣- " فقال لهم يسوع: لو كنتم أبناء إبراهيم لعملتم أعمال إبراهيم، ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله " إنجيل (يوحنا: ٨/ ٤٠).

ومن خلال هذه النصوص تبدو عقيدة يوحنا، وأنه لم يعلِّم التثليث، ولا أن الله هو المسيح، بل أفرد الله تعالى وحده بالإلهية، فينبغي أن يبقى هذا بالبال عند مناقشتنا التالية لما جاء في مقدمة الإنجيل التي استندوا إليها من كلام يوحنا؛ لأنه ما دام قد ثبت معنا بالدلائل السابقة أن يوحنا هذا يؤمن بأن الله الآب هو الإله الحقيقي وحده وإله المسيح وخالقه ومرسله؛ فلكي يكون كلام يوحنا منسجمًا مع بعضه، لا بد أن يُفهَم هذا النص أو يُفسَّر على نحو يتسق وينسجم مع عقيدته التوحيدية تلك، وهناك تفسيران محتملان لهذا النص:

التفسير المعقول الأول: هذه الافتتاحية قرأها كثير من القدماء على نحو فيه اختلاف بسيط في اللفظ، لكن مهم جدا، وقد أورد الغزالي في كتابه " الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل " اللفظ القديم الذي يمثل الترجمة الحرفية للمتن اليوناني الأصلي على النحو التالي: " في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، **وإله هو الكلمة**، كان هذا قديمًا عند الله، كلٌّ به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان "

فالفرق بين الترجمتين هو في الجملة الثالثة، ففي حين تقول الترجمات الحديثة: " وكان الكلمةَ الله "، تقول الترجمة الحرفية القديمة: " وإلهٌ هو الكلمة " بتنكير إله. وتذكر الكتب التي تتحدث عن تاريخ العقيدة النصرانية، أن آريوس ومنكري ألوهية المسيح كانوا يؤكدون على أن الترجمة الحرفية الصحيحة للأصل اليوناني هي: " وإلهٌ هو الكلمة " والمسألة هي أن

كلمة " إله " في اصطلاح الإنجيل - واصطلاح الكتاب المقدس بشكل عام - لا تعني بالضرورة الله، بل تأتي أحيانا على معنى السيد والرئيس المطاع، مثل كلمة الرب، أو على معنى الملاك العظيم ونذكر مثالين على ما نقول: (١) جاء في سفر الخروج من التوراة قول الله تعالى لموسى عليه السلام: " قد جعلناك إلهًا لفرعون وأخاك هارون رسولك " (الخروج: ٧/ ١).

(٢) وفي المزمور الثاني والثمانين من سفر المزامير قول الله تعالى لداود عليه السلام: " الله قائم في مجمع الله، في وسط الآلهة يقضي. . (إلى قوله): أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون " (المزامير: ٨٢ / ١، ٦ - ٧). حيث يتفق مفسرو العهد القديم أن المقصود بالآلهة وببني العلي هنا: الرؤساء والقضاة والملائكة الذين هم أعضاء البلاط الإلهي - إذا صح التعبير -، وأن لقب آلهة وأبناء الله لهم ليس إلا لقبًا تشريفيًا لا أكثر، ولا يعني أبدًا أنهم شركاء الله تعالى في ذاته وإلهيته، كيف ومن تعاليم التوراة الأساسية وحدانية الله تعالى! وبناءً عليه، فعبارة " وإله هو الكلمة " معناها: وكائنٌ روحيٌّ عظيم بل رئيسٌ للكائنات وعظيمٌ مقرب من الله هو الكلمة.

هذا ومما يرجح هذه القراءة ويوجب المصير إلى هذا التفسير، أن الترجمات الحديثة التي تذكر " وكان الكلمة الله " تجعل افتتاحية يوحنا نصًا مختل المبنى غير مستقيم المعنى، بل لا معنى له ولا يصح لأن معناها يصبح هكذا:

"في البدء كان الله، وكان الله عند الله! وكان الله هو الله، الله كان في البدء عند الله! ".

ومن البديهي أن الشيء لا يكون عند نفسه، فلا يصح أن نقول كان زيد عند زيد! ! أما على التفسير الذي ذكرناه، فإذا صار الإله المُنكَّر بمعنى الكائن الروحي العظيم الذي هو غير الله، صح أن نعتبره كان عند الله. وقد نبه العلامة ديدات على هذا التلاعب في الترجمة الإنجليزية، وهي الأصل الذي عنه ترجم الكتاب المقدس إلى لغات العالم. فعاد بنا إلى الأصل اليوناني. فالنص في الترجمة اليونانية تعريبه هكذا "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله"، وهنا يستخدم النص اليوناني بدلا من كلمة (الله) كلمة هثيوس (hotheos)، وفي الترجمة الإنجليزية تترجم (God) للدلالة على أن الألوهية حقيقة. ثم

يمضي النص اليوناني، فيقول "وكان الكلمة (الله) " (وهنا يستخدم النص اليوناني كلمة تنتيوس بمعنى إله (tontheos)، وكان ينبغي أن يستخدم في الترجمة الإنجليزية كلمة (god) بحرف صغير للدلالة على أن الألوهية مجازية، كما وقع في نص سفر الخروج "جعلتك إلهًا لفرعون" (الخروج ٧/ ١)، ومثله في حديثه عن الشيطان، والذي أسماه بولس إله الدهر، الذي أعمى أذهان غير المؤمنين (انظر كورنثوس (٢) ٤/ ٤) فاستخدم النص اليوناني لرسالة بولس كلمة (tontheos)، وترجمت في النص الإنجليزي (god) مع وضع أداة التنكير (a). لكن الترجمة الإنجليزية حرفت النص اليوناني لمقدمة يوحنا، فاستخدمت لفظة (God) التي تفيد ألوهية حقيقة بدلا من (god) التي تفيد ألوهية معنوية أو مجازية، فوقع اللبس في النص، وهذا ولا ريب نوع من التحريف[1].

وقد استدركت بعض الترجمات العربية والعالمية الخطأ، فغيرت النص، منها نسخة ترجمة العالم الجديد في ترجماتها العالمية المختلفة، وقد جاء في نسختها العربية: "وكان الكلمة إلهًا". [2]

---

(١) انظر: مناظرتان في استكهولم، أحمد ديدات، صـ(١٣٥-١٣٧)، المسيح في الإسلام، أحمد ديدات، صـ(٨٤-٨٧).

(٢) قال الدكتور منقذ السقار: وقد أفردت ملحقًا خاصًا بتبيان التحريف الذي وقعت فيه النسخ المخالفة في قراءة هذه الكلمة، ومما جاء فيه: "إن عبارة يوحنا أن الكلمة أولوغوس كان (إلها) أو (إلهيا) أو (كإله)، لا تعني أنه كان الله الذي كان هو معه، إنها تعبر فقط عن صفة معينة للكلمة أولوغوس، ولكنها لا تحدد هويته أنه الله نفسه".

ونقلت عن فيليب هارنر الكاتب في مجلة أدب الكتاب المقدس (المجلد ٩٢/ ٨٧) قوله: "أنا أرى أن القوة الوصفية للمسند في يوحنا ١: ١ بارزة جدا بحيث إنه لا يمكن اعتبار الاسم معرفة".

يقول الأب متى المسكين في شرحه لإنجيل يوحنا: "هنا كلمة (الله) جاءت في الأصل اليوناني غير معرفة بـ (الـ). . . ، وحيث (الله) المعرف بـ (الـ) يحمل معنى الذات الكلية، أما الجملة الثانية فالقصد من قوله: "وكان الكلمة الله" هو تعيين الجوهر أي طبيعة (الكلمة)، أنها إلهية، ولا يقصد تعريف الكلمة أنه هو الله من جهة الذات. وهنا يحذر أن تقرأ (الله) معرفًا بـ (الـ) في "وكان الكلمة الله"، وإلا لا يكون فرق بين الكلمة والله، وبالتالي لا فرق بين الآب والابن، وهذه هي بدعة سابيليوس الذي قال أنها مجرد أسماء، في حين أن الإيمان المسيحي يقول: إن الأقانيم في الله متميزة، فالآب ليس هو الابن، ولا الابن هو الآب، وكل أقنوم له

التفسير الممكن الثاني: يرى البعض أن الكلمة هي الأمر الإلهي " كن فيكون "، الذي به يخلق الله ما يشاء من الكائنات، كما جاء في سفر المزامير: " بكلمة الرب صنعت السماوات. . . إنه قال فكان، وأمر فوجد " (المزمور: ٣٣/ ٦، ٩). وتصديق ذلك أننا نجد، في سفر التكوين من التوراة، أن الخلق تم بأوامر وكلمات إلهية: " وقال الله: ليكن نور، فكان نور. . . . . وقال الله: ليكن في وسط المياه. . . . فكان كذلك. . . . الخ " التكوين (١/ ٣، ٦).

وقالوا: إن الترجمة القديمة الصحيحة لعبارة " والكلمة صار جسدًا " هي: "والكلمة صنع جسدًا " أي أنه بالأمر الإلهي تم خلق إنسان بشر. فالكلمة هي الله ولكن الإنسان الذي خلق بها ليس الكلمة؛ وبالتالي فالمسيح مخلوق بالكلمة، وليس الكلمة ذاتها. ومنهم من يرى أن هناك محذوف تقديره: "و أثر الكلمة صار جسدًا".

وعلى كل حال، فهذه تفسيرات ممكنة ومعقولة لهذه الافتتاحية، ولا ندعي أنها صحيحة قطعا، لكن نرى أن المصير لفهم توحيدي للنص واجب، بعد أن عرفنا من عبارات يوحنا السابقة نفيه كون المسيح الله، وذلك عندما اعتبره مخلوقا خاضعا لله مستمدًا منه، وبين أن الله تعالى إلهُ المسيح، وأن الله هو الإله الحقيقي وحده. [1]

يقول الدكتور منقذ السقار: وإذا غض المحققون طرفهم عن ذلك كله، فإن في النص أمورًا ملبسة تمنع استدلال النصارى به على ألوهية المسيح:

اختصاصه الإلهي، كذلك فالله ليس هو الكلمة، والكلمة ليس هو الله الكلي"[2]. ونوافق الأب المسكين في كثير مما قاله عن تنكير الكلمة المستخدمة، ولا نوافقه على قوله: "وهنا يقابلنا قصور مكشوف في اللغة العربية فلا توجد كلمة (الله) بدون تعريف (الـ). . " إذ كلامه يوهم القارئ اضطرارهم إلى استخدام اللفظة المعرفة (الله) في غير معناها بسبب قصور اللغة العربية، وهو غير صحيح، فذكرها إلباس وتحريف، بدليل وقوعه في سائر التراجم العالمية، وفي مقدمتها الترجمة الإنجليزية التي تعرض عن استخدام اللفظ النكرة (god a)، وتصر على تعريف الكلمة (God). . . انظر: الله جل جلاله واحد أو ثلاثة، وانظر تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ١/ ٣٠٩، و (اختلافات في تراجم الكتاب المقدس ص ٤٢-٤٤.

(١) انظر: الأناجيل الأربعة ورسائل بولس تنفي ألوهية المسيح (ص ١٥٢)، ومناظرة بين الإسلام والنصرانية (٢/ ١٥٨).

أولها: ما معنى كلمة "البدء"؟ وأي بدء تعني؟ ما حده الزمني؟ وإذا كان له حد زمني فهل يكون له متعلق بالله؟ وهل ذلك مما يليق بكمال الله الذي لا يحصره شيء. . زمانًا. . . ومكانًا؟ فالله سبحانه أول بلا ابتداء ويجيب النصارى: أي الأزل. لكن ذلك لا يسلم لهم، فإن الكلمة وردت في الدلالة على معان منها:

١- وقت بداية الخلق والتكوين كما جاء في " في البدء خلق الله السموات والأرض" (التكوين ١/ ١)، ومثله قول المسيح عن إبليس أنه كان منذ البدء: " **أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ، وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا. ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَق** " (يوحنا ٨/ ٤٤).

٢- ومثله قاله متى على لسان المسيح، وهو يحاجج اليهود " **قَالُوا لَهُ: «فَلِمَاذَا أَوْصَى مُوسَى أَنْ يُعْطَى كِتَابُ طَلاَق فَتُطَلَّقُ؟ »** ٨**قَالَ لَهُمْ: «إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ. وَلكِنْ مِنَ الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هكَذَا.** " (متى ١٩/ ٧-٨)، ومعناه أن ذلك لم يكن مأذونًا به عند بداية الخليقة، وبداية الخلق لحظة مخلوقة، وليست الأزل الذي يسبق كل زمان.

٣- وترد كلمة البدء أيضًا، ويراد منها فترة معهودة من الزمن كما في قول لوقا: "كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء" (لوقا ١/ ٢)، أي في أول رسالة المسيح.

٤- ومثله قول يوحنا: " **أَيُّهَا الإِخْوَةُ، لَسْتُ أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ وَصِيَّةً جَدِيدَةً، بَلْ وَصِيَّةً قَدِيمَةً كَانَتْ عِنْدَكُمْ مِنَ الْبَدْءِ. الْوَصِيَّةُ الْقَدِيمَةُ هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي سَمِعْتُمُوهَا مِنَ الْبَدْءِ.** " (يوحنا ١: ٢/ ٧).

٥- ومثله أيضًا قول يوحنا: " **وَلكِنْ مِنْكُمْ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ». لأَنَّ يَسُوعَ مِنَ الْبَدْءِ عَلِمَ مَنْ هُمُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ، وَمَنْ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُهُ.** " (يوحنا ٦/ ٦٤).

٦- ومثله قوله في جواب اليهود لما سألوه: "فقالوا له: من أنت؟ فقال لهم يسوع: أنا من البدء ما أكلمكم أيضًا به" (يوحنا ٨/ ٢٥)، فكل هذه الاستعمالات لكلمة البدء لا

يراد منها الأزل، بل أوقات معينة حادثة.

وعليه فلا يجوز قول النصارى، بأن المراد بالبدء هنا الأزل إلا بدليل مرجح.

ويرجح الشيخ العلمي في كتابه الفريد "سلاسل المناظرات" بأن المعنى هنا هو بدء تنزل الوحي على الأنبياء، أي أنه كان بشارة صالحة عرفها الأنبياء كما في (إرميا ٣٣/ ١٤). [(١)]

ثانيها: ما المقصود بالكلمة؟ هل هو المسيح ؟ أم أن اللفظ يحتمل أمورًا أخرى، وهو الصحيح. فلفظة "الكلمة" لها إطلاقات في الكتاب المقدس، منها:

١- كتاب الله أو وحيه "وكانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا" (لوقا ٣/ ٢)، " أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها" (لوقا ٨/ ٢١) "لكن ليس هكذا حتى إن كلمة الله قد سقطت، لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون" (رومية ٩/ ٦).

٢- ومنها: الأمر الإلهي الذي به صنعت المخلوقات، كما جاء في المزامير "بكلمة الرب صنعت السموات، وبنسمة فيه كل جنودها. . لأنه قال فكان، هو أمر فصار" (المزمور ٣٣/ ٦-٩)، ولهذا المعنى سمي المسيح كلمة، لأنه خلق بأمر الله، من غير سبب بشري قريب (أي من غير أب)، أو لأنه - حسب المعنى الأول - أظهر كلمة الله.

٣- كما قد يسمى وعد الله كلمته؛ كما حكى النبي إرمياء استعجال بني إسرائيل ليوم البلاء والعذاب الذي أوعدهم الله إياه: " **هَا هُمْ يَقُولُونَ لِي: «أَيْنَ هِيَ كَلِمَةُ الرَّبِّ؟ لِتَأْتِ! »** ١٦ **أَمَّا أَنَا فَلَمْ أَعْتَزِلْ عَنْ أَنْ أَكُونَ رَاعِيًا وَرَاءَكَ، وَلاَ اشْتَهَيْتُ يَوْمَ الْبَلِيَّةِ.** "

(إرمياء ١٧/ ١٥-١٦)، والمسيح وفق هذا المعنى كلمة الله؛ أي أنه الكلمة الموعودة المبشر بها على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وأما المعنى الذي يزعمه النصارى للكلمة (اللوغس)، وأنها الأقنوم الثاني للثالوث الأقدس، فلم يرد في كتب الأنبياء البتة.

ثالثها: "وكان الكلمة الله" غاية ما يستدل بها أن المسيح أطلق عليه: (الله)، كما أطلق على القضاة في التوراة " **اَللهُ قَائِمٌ فِي مَجْمَعِ اللهِ. فِي وَسْطِ الآلِهَةِ يَقْضِي:** ٢ **«حَتَّى مَتَى**

---

(١) انظر: سلاسل المناظرة الإسلامية النصرانية بين شيخ وقسيس، عبد الله العلمي، ص (٢٥٩-٢٦٢).

تَقْضُونَ جَوْرًا وَتَرْفَعُونَ وُجُوهَ الأَشْرَارِ؟ " (المزمور ٨٢/ ١)، وكما سمي به أشراف اليهود في قول داود: " أحمدك من كل قلبي، قدام الآلهة أرنم لك" (المزمور ١٣٨/ ١)، وقد قال الله لموسى عن هارون: " وهو يكون لك فما، وأنت تكون له إلهًا " (الخروج ٤ / ١٦). وغيرهم كما سبق بيانه.

رابعها: **قوله**: "**والكلمة كان عند الله**"، والعندية لا تعني المثلية، ولا المساواة. إنما تعني أن الكلمة خلقت من الله كما في قول حواء: "اقتنيت رجلًا من عند الرب" (التكوين ٤/ ١)، فقايين ليس مساويًا للرب، ولا مثله، وإن جاءها من عنده، وجاء في موضع آخر " وأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الرب" (التكوين ١٩/ ٢٤). [1] وما نبه عليه العلامة ديدات إلى أن هذا النص، قد انتحله كاتب الإنجيل من فيلون الإسكندراني (ت٤٠م)، وأنه بتركيباته الفلسفية غريب عن بيئة المسيح وبساطة أقواله وعامية تلاميذه، وخاصة يوحنا الذي يصفه سفر أعمال الرسل بأنه عامي عديم العلم، فيقول: " فلما رأوا مجاهرة بطرس ويوحنا، ووجدوا أنهما إنسانان عديمًا العلم وعاميان تعجبوا " (أعمال ٤/ ١٣). [2]

خامسًا: نصوص نسبت أفعال الله إلى المسيح

أ. إسناد الخالقية لله بالمسيح:

كما أسندت بعض النصوص الخالقية لله بالمسيح، فتعلق النصارى بها، ورأوها دالة على ألوهيته ومنها قول بولس عن المسيح: " **فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشًا أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ**" (كولوسي ١/ ١٦-١٧)، وفي موضع آخر يقول: "الله خالق الجميع بيسوع المسيح" (أفسس ٣/ ٩)، ومثله ما جاء في مقدمة يوحنا "كان في العالم، وكون العالم به، ولم يعرفه العالم" (يوحنا ١/ ١٠)، ومثله في (عبرانيين ١/ ٢) وغيرها.

---

(١) الله جل جلاله واحد أو ثلاثة ١ / ٥٥.

(٢) نقلًا عن كتاب الله جل جلاله واحد أو ثلاثة ٥٣، وانظر كتاب الأناجيل والعقيدة ١/ ١٧، ١٨.

والجواب من وجوه: ١- أننا نلحظ ابتداء أن الخلق في كافة النصوص الكتابية مسند لله تعالى فقط، فقد قال سفر التكوين "في البدء خلق الله السماوات والأرض" (التكوين ١/ ١)، ولم يذكر خالقا شارك الله بالخلق أو كان واسطة تم الخلق من خلاله، وفي سفر إشعياء "هكذا يقول الله الرب خالق السموات" (إشعيا ٤٢/ ٥)، كما وقد قال بولس وبرنابا لأهل مدينة لسترة: "نبشركم أن ترجعوا من هذه الأباطيل إلى الإله الحي الذي خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها" (أعمال ١٤/ ١٥)، فلم يذكر الكتاب خالقا سوى الله العظيم.

وما بين أيدينا من أقوال بولس ويوحنا؛ فإنها إنما تتحدث عن الله الذي خلق بيسوع كما صنع المعجزات بيد يسوع (انظر أعمال ٢/ ٢٢)، ولا تذكر أنه هو الخالق أبدا، فغاية ما تحتمله هذه النصوص - لو سلم بصحتها - أن يقال بأن الله خلق بالمسيح ما خلق من الكائنات والمخلوقات. يقول القس جيمس أنس متحدثًا عن الأقانيم وأعمالها المختلفة: "ومن أمثلة التميز في الأعمال أن الآب خلق العالم بواسطة الابن"[(١)].

وهذا المعنى جد غريب لم تنطق به أنبياء العهد القديم، ولا ذكره المسيح ﷺ، إنما ورد من كلام بولس ومقدمة يوحنا الفلسفية، المستمدة من الفكر الأفلوطيني والفلسفات الغنوصية؛ التي ترى أن الله أشرف من يخلق بنفسه، لذا ينيط هذا الفعل بالعقل الكلي أو الملائكة.

٢- ولا يمكن أن يكون المسيح ﷺ خالقًا للسماوات والأرض وما بينهما؛ إذ هو ذاته مخلوق، وإن زعمت النصارى أنه أول المخلوقين، لكنه على كل حال مخلوق، والمخلوق غير الخالق " الذي هو صورة الله غير المنظور، بكر كل خليقة" (كولوسي ١/ ١٥).

٣- ثم إن الذي عجز عن رد الحياة لنفسه عندما مات؛ لهو أعجز من أن يكون خالقًا للسماوات والأرض، أو أن تخلق به "فيسوع هذا أقامه الله" (أعمال ٢/ ٣٢)، ولو لم يقمه الله لما عاد من الموتى، وفي موضع آخر: "ورئيس الحياة قتلتموه الذي أقامه الله من الأموات "

---

(١) علم اللاهوت النظامي، القس الدكتور جيمس أنس، ص (١٧٨).

(أعمال ٣/ ١٥)، ومثله قول بولس: "والله الآب الذي أقامه من الأموات" (غلاطية ١/ ١).

٤- ويرى المحققون أن المقصود من هذه النصوص؛ أن المسيح خلقت به الخلائق خلقة الهداية والإرشاد، لا الإيجاد والتكوين، فتلك خلقة الله فحسب، والخلقة التي خلقها الله بالمسيح ﷺ هي الخلقة الجديدة، خلقة الهداية، التي تحدث عنها داود، وهو يدعو الله بقوله: "قلبًا نقيًا اخلق في يا الله، وروحًا مستقيمًا جدد في داخلي" (المزمور ٥١/ ١٠). ومثله قال بولس عن المؤمنين بالمسيح: "إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة" (كورنثوس (٢) ٥/ ١٧). وقال: " **لَيْسَ الْخِتَانُ يَنْفَعُ شَيْئًا وَلاَ الْغُرْلَةُ، بَلِ الْخَلِيقَةُ الْجَدِيدَةُ.** " (غلاطية ٦/ ١٥). وفي موضع آخر يقول: "تلبسوا الإنسان المخلوق الجديد بحسب الله في البر" (أفسس ٤/ ٢٤). وعلى هذا الأساس؛ اعتبر يعقوب التلاميذ باكورة المخلوقات فقال: "شاء فولدنا بكلمة الحق، لكي نكون باكورة من خلائقه" (يعقوب ١/ ١٨) أي أوائل المهتدين الذين تلبسوا بالخليقة الجديدة. وعليه؛ فإن المقصود من خلق المسيح للبشر هو الخلق الروحي، إذ جعله الله محييا لموات القلوب وقاسيها.

٥- لكن قائلًا قد يرد استدلالنا وتأولنا للنصوص بما يقرأه فيها من حديث عن خلق السماوات والأرض وما فيهما بالمسيح، فيرى أن النصوص التي يتعلق بها النصارى لا تتعلق بالبشر فقط؛ إذ فيها أن الله خلق به ما في السماوات والأرض، وهذا قد يراه البعض - ممن لم يعتد طريقة الأسفار في التعبير - مانعًا من صرف النص إلى الخليقة الجديدة.

أما الذين اعتادوا على طريقة الأسفار في التعبير، فإنهم يرون في هذه النصوص مبالغة معهودة، حملتها مرارا الأسفار التوراتية والإنجيلية، ومن ذلك وصف العهد الجديد المسيح ﷺ والتلاميذ أنهم نور العالم، يقول يوحنا: " **ثُمَّ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ أَيْضًا قَائِلاً: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ** " (يوحنا ٨/ ١٢)، وقال لتلاميذه: "أنتم نور العالم" (يوحنا ٥/ ١٤). ومن المعلوم أنهم جميعًا كانوا نورًا استنار به المؤمنون، وأعرض عنه غيرهم، فأظلمت قلوبهم، ولا يمكن أن يدعى ظهور النور في الجماد والحيوان

الموجودين في العالم، فكما وصف النص يوحنا الإنجيلي المسيح وتلاميذه بنور العالم من غير أن يكون لهم أثر في إنارة غير قلوب المؤمنين من الكافرين أو الجمادات، فإنه وصف المسيح بأنه كان واسطة الخليقة الجديدة للعالم، والمقصود المؤمنون في العالم فحسب.

ومثله أيضًا، قول بولس عن المصالحة التي تمت بدم المسيح فإنه يقول: " **وَأَنْ يُصَالِحَ بِهِ الْكُلَّ لِنَفْسِهِ، عَامِلاً الصُّلْحَ بِدَمِ صَلِيبِهِ، بِوَاسِطَتِهِ، سَوَاءٌ كَانَ: مَا عَلَى الأَرْضِ، أَمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ.** " (كولوسي ١/ ٢٠)، مع أن المصالحة كما يجزم القس جيمس أنس خاصة بشعبه المفديين دون الجمادات والكائنات الكافرة التي في السماوات والأرض، فهؤلاء لا حظ لهم في المصالحة، التي قد يفهم من النص شمولها إياهم، كما قد يفهم من نصوص الخلق شموله غير المؤمنين. وقال بولس أيضًا عن الذين أرسل الله المسيح لفدائهم: " **لِتَدْبِيرِ مِلْءِ الأَزْمِنَةِ، لِيَجْمَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ**" (أفسس ١/ ١٠).

يقول القس جيمس أنس: " لا يمكن أن يكون معنى (كل شيء) العالمين، حيها وجمادها، كالشمس والقمر والنجوم؛ لأنها ليست قابلة للمصالحة مع الله؛ ولهذا السبب عينه لا يمكن أن يقصد بها كل الحيوان، ولا يمكن أن يقصد بها كل الخلائق العاقلة الساقطة؛ لأن المسيح لم يأت ليفتدي الملائكة الساقطين (عبرانيين ٢/ ١٦) ولايقصد بها جميع البشر، لأن الكتاب يعلم أن ليس كل البشر يتصالحون مع الله"[(١)].

ومثله أيضًا قوله: "لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيحيا الجميع" (كورنثوس (١) ١٥/ ٢٢)، فلئن كان الموت يشمل جميع البشر بسبب خطية آدم؛ فإن الذين يحيون جميع المؤمنين فحسب، لا جميع البشر الأموات الذين ماتوا بسبب خطيئة آدم. لكن النص كما رأينا يفهم من ظاهره ما لا يقصد، يفهم منه العموم ويراد به الخصوص، ومثل هذه المبالغات في التعبير - كما أسلفنا - معهودة ومألوفة في الكتاب، إذ يقول موسى لبني إسرائيل: "هوذا أنتم اليوم كنجوم السماء في الكثرة، الرب إلهكم يزيد عليكم مثلكم

---

(١) علم اللاهوت النظامي، جيمس أنس، ص (٧٢٤).

ألف مرة" (التثنية ١/ ١٠-١١). ومثله في قوله: " **وَكَانَ الْمِدْيَانِيُّونَ وَالْعَمَالِقَةُ وَكُلُّ بَنِي الْمَشْرِقِ حَالِّينَ فِي الْوَادِي كَالْجَرَادِ فِي الْكَثْرَةِ، وَجِمَالُهُمْ لاَ عَدَدَ لَهَا كَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فِي الْكَثْرَةِ** " (القضاة ٧/ ١٢). وتصل المبالغة عند يوحنا أقصاها حين قال: " **وَأَشْيَاءُ أُخَرُ كَثِيرَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ، إِنْ كُتِبَتْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، فَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَالَمَ نَفْسَهُ يَسَعُ الْكُتُبَ الْمَكْتُوبَةَ** " (يوحنا ٢١/ ٢٥)، فهذه المبالغة في الحديث عن خلقة الكون بالمسيح إنما هي بعض ما تعودناه من كتاب الكتاب المقدس. [1]

ب. إسناد الدينونة إلى المسيح: وتتحدث الأسفار عن المسيح ﷺوأنه ديان الخلائق يوم القيامة، يقول بولس: " **أَنَا أُنَاشِدُكَ إِذًا أَمَامَ اللهِ وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الْعَتِيدِ أَنْ يَدِينَ الأَحْيَاءَ وَالأَمْوَاتَ، عِنْدَ ظُهُورِهِ وَمَلَكُوتِهِ** " (تيموثاوس (٢) ٤/ ١)، فيرون في ذلك دليلا على ألوهيته، لأن التوراة تقول: "الله هو الديان" (المزامير ٥٠/ ٦).

والجواب من وجوه: ١- توجد نصوص تمنع أن يكون المسيح ﷺهو الديان "لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلص به العالم، الذي يؤمن به لا يدان، والذي لا يؤمن قد دين، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد" (يوحنا ٣/ ١٧)، فالمسيح لن يدين أحدا. وهو ما أكده يوحنا بقوله: "وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه، لأني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم، من رذلني ولم يقبل كلامي فله من يدينه (أي الله وشرعه). الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير" (يوحنا ١٢/ ٤٧-٤٨). وقال لهم أيضًا: أما أنا فلست ادين أحدا وإن كنت أدين فدينونتي حق لأنني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني (يوحنا ٨-٥).

٢- والمسيح ﷺ لم يستطع أن يضمن الجنة لابني خالته وتلميذيه، ابني زبدي، لأن الله لم يأذن له بذلك، ومن كان هذا حاله فإنه عن الدينونة المطلقة أعجز، فقد جاءته أم ابني زبدي وكانا من تلاميذه "فسألها ما تريدين؟ قالت: أن يجلس ابناي هذان، واحد عن

---

(١) الله جل جلاله واحد او ثلاثة (٥٨) وانظر تحجيل من حرف التوراة والإنجيل.

يمينك، والآخر عن اليسار في ملكوتك. فأجاب يسوع، وأما الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه إلا للذين أعد لهم من أبي" (متى ٢٠/ ٢٠-٢٢).

٣- وإن أصر النصارى على أن الدينونة من أعمال المسيح ﷺ فإن آخرين يشاركونه فيها، وهم تلاميذه الاثنا عشر، بما فيهم الخائن يهوذا الأسخريوطي " فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم: إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده؛ تجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر كرسيًا، تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر" (متى ١٩/ ٢٨)، (وانظر لوقا ٢٢/ ٣٠).

٤- وبولس أيضًا وغيره من القديسين سيمارسون الدينونة حتى للملائكة، حيث يقول: "ألستم تعلمون أن القديسين سيدينون العالم؟. . . ألستم تعلمون أننا سندين ملائكة" (كورنثوس (١) ٦/ ٢-٣). فهو وغيره من القديسين سيدينون الملائكة والعالم، وليسوا آلهة.

٥- ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن دينونة المسيح للبشر - إن صحت - قد دفعها الله للمسيح الإنسان، فهو يصنعها بمقتضى إنسانيته " وأعطاه سلطانا أن يدين أيضًا، لأنه ابن الإنسان " (يوحنا ٥/ ٢٧).

ج. **غفران المسيح الذنوب.** ومما يستدل به النصارى على ألوهية المسيح ﷺما نقلته الأناجيل من غفران ذنب المفلوج والخاطئة على يديه، والمغفرة - كما يرون - من خصائص الألوهية، وعليه فالمسيح إله يغفر الذنوب، فقد قال للخاطئة مريم المجدلية: "مغفورة لك خطاياك " (لوقا ٧/ ٤٨)، كما قال للمفلوج: " ثق يا بني، مغفورة لك خطاياك "، وقد اتهمه اليهود لما سمعوا ذلك منه بالتجديف فقالوا: " قالوا في أنفسهم: هذا يجدف " (متى ٩/ ٣)، أي أنه يدعي الإلهية حين يغفر للناس.

والجواب ما يلي:

١- إذا رجعنا إلى قصتي الخاطئة والمفلوج؛ فإنا سنرى وبوضوح أن المسيح ﷺ ليس هو من غفر ذنبيهما، ففي قصة المرأة لما شك الناس بالمسيح وكيف قال لها: "مغفورة خطاياك"، وهو مجرد بشر، أزال المسيح ﷺاللبس، وأخبر المرأة أن إيمانها هو الذي

خلصها، ويجدر أن ننبه إلى أن المسيح لم يدع أنه هو الذي غفر ذنبها، بل أخبر أن ذنبها قد غفر، والذي غفره بالطبع هو الله تعالى.

والقصة بتمامها كما أوردها لوقا: " **وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ دَهَنَتْ بِالطِّيبِ رِجْلَيَّ. ٤٧مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَقُولُ لَكَ: قَدْ غُفِرَتْ خَطَايَاهَا الْكَثِيرَةُ، لأَنَّهَا أَحَبَّتْ كَثِيرًا. وَالَّذِي يُغْفَرُ لَهُ قَلِيلٌ يُحِبُّ قَلِيلاً». ٤٨ثُمَّ قَالَ لَهَا: «مَغْفُورَةٌ لَكِ خَطَايَاكِ». ٤٩فَابْتَدَأَ الْمُتَّكِئُونَ مَعَهُ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: «مَنْ هذَا الَّذِي يَغْفِرُ خَطَايَا أَيْضًا؟ ». ٥٠فَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «إِيمَانُكِ قَدْ خَلَّصَكِ، اِذْهَبِي بِسَلاَمٍ** " (لوقا ٧/ ٤٦-٥٠)، فقد غفر الله لها بإيمانها، والمسيح أخبرها برحمة الله التي وسعتها، وأفهم الحاضرين بوضوح أنه لم يجدف ولم يدع لنفسه مغفرة الخطايا. وإذا كان يغفر الخطايا فلم لم يغفر الله خطيئة آدم لأن الإنسان يقدر أن يغفر والله لا يقدر وأيضًا لماذا لم يغفرها المسيح من غير قتل او صلب يزيد الخطيئة ولا يمحوها؟. (١)

٢- وكذا في قصة المفلوج لم يدع المسيح أنه الذي يغفر الذنوب، فقد قال للمفلوج: "ثق يا بني، مغفورة لك خطاياك" فأخبر بتحقق الغفران، ولم يقل: إنه هو الغافر لذنوب المفلوج.

٣- ولما أخطأ اليهود، ودار في خلدهم أنه يجدف، وبخهم المسيح على الشر الذي في أفكارهم، وصحح لهم الأمر، وشرح لهم أن هذا الغفران ليس من فعل نفسه، بل هو من سلطان الله، لكن الله أذن له بذلك، كما سائر المعجزات والعجائب التي كان يصنعها، وقد فهموا منه المراد، وزال اللبس من صدورهم، "فلما رأى الجموع تعجبوا، ومجدوا الله الذي أعطى الناس سلطانا مثل هذا ". (متى ٩/ ٨). والقصة بتمامها كما أوردها متى تقول: " **قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «ثِقْ يَا بُنَيَّ. مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ». ٣وَإِذَا قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ قَدْ قَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: «هذَا يُجَدِّفُ! » ٤فَعَلِمَ يَسُوعُ أَفْكَارَهُمْ، فَقَالَ: «لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِالشَّرِّ فِي قُلُوبِكُمْ؟ ٥أَيُّمَا أَيْسَرُ، أَنْ يُقَالَ: مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ، أَمْ أَنْ يُقَالَ: قُمْ وَامْشِ؟ ٦وَلكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لابْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَانًا عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا». حِينَئِذٍ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «قُمِ احْمِلْ**

---

(١) وانظر مناظرة بين الإسلام والنصرانية ١٩٣ و٢٧٤.

فِرَاشَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ! » ٧فَقَامَ وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ. ٨فَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعُ تَعَجَّبُوا وَمَجَّدُوا اللهَ الَّذِي أَعْطَى النَّاسَ سُلْطَانًا مِثْلَ هذَا. " (متى ٩/ ٣-٨).

فاتضح من هذا النص أمران: الأول: أن المسيح لم يقل للمفلوج: ثق يا بني لقد غفرتُ لك خطاياك! بل أنبأه قائلًا: مغفورة لك خطاياك. والفرق واضح بين الجملتين، فالجملة الثانية لا تفيد أكثر من إعلام المفلوج؛ بأن الله تعالى قد غفر ذنوبه، وليس في هذا الإعلام أي دليل على ألوهية المسيح؛ لأن الأنبياء والرسل المؤيدين بالوحي والمتصلين بجبريل الأمين، يطلعون بإطلاع الله تعالى لهم، على كثير من المغيبات والشؤون الأخروية ومنها العاقبة الأخروية لبعض الناس، كما أخبر نبينا محمد ﷺ عن بعض صحابته فبشرهم أنهم من أهل الجنة وعن آخرين فبشرهم أنهم من أهل النار.

ثانيًا: قد يشكل على ما قلناه قول المسيح فيما بعد، ولكن لتعلموا أن لابن الإنسان سلطانا على الأرض أن يغفر الخطايا، فنسب غفران الخطايا لنفسه.

قلنا: آخر النص يجعلنا نحمل هذه النسبة على النسبة المجازية، أي على معنى أن ابن الإنسان (المسيح) خوله الله أن يعلن غفران خطايا، وذلك لأن الجملة الأخيرة في النص السابق تقول: " فلما رأى الجموع ذلك تعجبوا ومجدوا الله الذي أعطى الناس سلطانا مثل هذا "، فالغافر بالأصل والأساس هو الله تعالى، ثم هو الذي منح هذا الحق للمسيح وأقدره عليه؛ لأن المسيح فنى في الله تعالى وكان على أعلى مقام من الصلة بالله والكشف الروحي ولا يتحرك إلا ضمن حكمه وإرادته فلا يبشر بالغفران إلا من استحق ذلك.

ومما يؤكد أن غفران المسيح للذنوب هو تخويل إجمالي من الله تعالى له بذلك، وليس بقدرة ذاتيه له عليه السلام، هو أن المسيح، في بعض الحالات كان يطلب المغفرة للبعض من الله تعالى فقد جاء في إنجيل لوقا (٢٣ / ٣٤): " فقال يسوع: يا أبتاه! اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون ". فانظر كيف طلب من الله غفران ذنبهم ولو كان إلهًا يغفر الذنوب

بذاته ومستقلًا، كما ادعوا، لغفر ذنوبهم بنفسه. [١]

٤- وهذا السلطان دفع إليه، كما دفع كثير غيره من الله تبارك وتعالى: "التفت إلى تلاميذه وقال: كل شيء قد دفع إلي من أبي" (لوقا ١٠/ ٢٢)، وإلا فهو لا حول له ولا قوة، قد قال في موضع آخر: " دفع إلي كل سلطان في السماء وعلى الأرض" (متى ٢٨/ ١٨)، لكنه ليس سلطانه الشخصي، بل هو قد دفع إليه من الله، ولو كان إلهًا لكان هذا من خصائصه وقدراته الذاتية، لكنه يعجز عنه ﷺ، لأنه عبد الله، وكما يقول عن نفسه: " أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا" (يوحنا ٥/ ٣٠)، فلولا دفع الله بهذا السلطان إليه لما قدر على غفران ذنب أو خطيئة.

٥- وسأل اليهود المسيح ﷺ"وكلموه قائلين: قل لنا: بأي سلطان تفعل هذا؟ أو من هو الذي أعطاك هذا السلطان؟ " فلم يزعم المسيح أنه سلطان ذاتي امتلكه بموجب لاهوته الأزلي، بل سألهم عن السلطان الذي كان ليوحنا المعمدان في معمودية غفران الذنوب من أين هو؟ فقال: "وأنا أيضًا أسألكم كلمة واحدة، فقولوا لي: معمودية يوحنا المعمدان، من السماء كانت أم من الناس؟ " (لوقا ٢٠/ ٢-٤)، أي أنه يصنع الغفران وغيره بذات السلطان الذي كان للمعمدان، إنه سلطان النبوة فحسب.

٦- وسلطان غفران الخطايا دفع أيضًا إلى غير المسيح ﷺ، فقد دفع إلى التلاميذ، وأصبح بمقدورهم غفران الذنوب التي تتعلق بحقوقهم الشخصية، بل وكل الذنوب والخطايا، ومغفرتهم للذنوب الشخصية بحقهم يقول عنه المسيح: "إن غفرتم للناس زلاتهم؛ يغفر لكم أيضًا أبوكم السماوي، وإن لم تغفروا للناس زلاتهم، لا يغفر لكم أبوكم أيضًا زلاتكم" (متى ٦/ ١٤-١٥). فيما يعطيهم يوحنا صكًا مفتوحًا في غفران أي ذنب وخطيئة، فيقول: "من غفرتم خطاياه تغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت " (يوحنا ٢٠/ ٢٣)، فهم كالمسيح ﷺ، ومع ذلك فإن أحدًا من النصارى لا يقول بألوهيتهم!

---

(١) الأناجيل الأربعة ورسائل بولس ويوحنا تنفي ألوهية المسيح كما ينفيها القرآن (١٠٥).

٧- وقد ورثت الكنيسة عن بطرس والتلاميذ هذا المجد وهذا السلطان؛ فأصبح القسس يغفرون للخاطئين عن طريق الاعتراف أو صكوك الغفران، واعتمدوا في إقرار ذلك على وراثتهم للسلطان الذي دفع لبطرس "أنت بطرس وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السماوات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا في السماوات. . " (متى ١٦/ ١٩)، فلو غفر بطرس أو البابا - وارث كرسيه ومجده - لإنسان غفرت خطيئته من غير أن يقتضي ذلك ألوهية بطرس أو البابا أو القسيس.

٨- وهذا السلطان ليس خاصًا ببطرس وورثته، بل دفع لكل التلاميذ " **اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَرْبِطُونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاءِ، وَكُلُّ مَا تَحُلُّونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولاً فِي السَّمَاءِ. ١٩وَأَقُولُ لَكُمْ أَيْضًا: إِنِ اتَّفَقَ اثْنَانِ مِنْكُمْ عَلَى الأَرْضِ فِي أَيِّ شَيْءٍ يَطْلُبَانِهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ لَهُمَا مِنْ قِبَلِ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ** " (متى ١٨/ ١٨-٢٠)، لكنه كما لا يخفى لا يعني ألوهيتهم، لأنه ليس حقًا شخصيًا لهم، بل هبة إلهية وهبت لهم ولمعلمهم المسيح. هذا ما يذكره الكتاب المقدس.

٩- ولما كان المسيح عليه السلام لا يملكه من تلقاء نفسه؛ فقد طلب من الله أن يغفر لليهود، ولو كان يملكه لغفر لهم ولم يطلبه من الله كما في لوقا " فقال يسوع: يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لوقا ٢٣/ ٣٤). [1]

سادسًا: دلالة معجزات المسيح على ألوهيته

وتذكر الأناجيل الكثير من معجزات المسيح عليه السلام، وتستدل بها على ألوهيته كولادته من غير أب وإحيائه للموتى وشفائه للمرضى وإخباره بالغيوب.

والجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: كل الأنبياء أيده الله بالمعجزة فليست خاصة بعيسى عليه السلام

وبناء عليه لاحظ المحققون - من قراء الكتاب المقدس - أن الكثير مما صنعه المسيح عليه السلام من عجائب ومعجزات قد شاركه فيه غيره من الأنبياء، وسواهم، ولم يقل

---

(١) المصدر السابق وانظر تخجيل من حرف التوراة والانجيل ١/ ٤١٩

أحد من النصارى بألوهيتهم، فدل ذلك على أن غاية ما تدل عليه المعجزات نبوة أصحابها، وإلا لزم القول بألوهية كل من شارك المسيح في الأعاجيب التي صنعها الله على يديه. وإليك شيء من هذه المعجزات التي شاركه فيها غيره.

أ. الميلاد العذراوي: لقد كانت ولادة المسيح عليه السلام من غير أب بشري إحدى أعظم معجزاته عليه السلام، وقد تعلق بها القائلون بألوهيته، يقول ياسين منصور: "لو لم يولد المسيح من عذراء لكان مجرد إنسان ". [(١)]

وهو بحق كذلك، بدليل أن بعض المخلوقات شارك المسيح في صورة هذه المعجزة الباهرة، أي ولادته من عذراء، من غير أب. فأصول سائر المخلوقات ومنهم البشر لا أب لهم ولا أم، ووجود آدم خلقًا سويًا أكبر وأكمل من خلقة المسيح الذي خلق جنينا في بطن أمه، ثم كبر بعد ذلك ونما. والميلاد من غير أب أعجوبة ولا ريب، لكنها لا تقتضي الألوهية بحال، ولو اقتضاها لاقتضى ألوهية أصول جميع الحيوانات، وألوهية أبوينا آدم وحواء، فقد ولد آدم من غير أب ولا أم، وولدت حواء من آدم، ولا أم لها. وذلك المعنى هو ما أرشدنا إليه الله بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩).

ورغم المثلية القائمة بين آدم وعيسى من جهة ميلادهما من غير أب، إلا أن آدم يتميز عن عيسى بأمور، منها أن آدم عليه السلام لم يخرج من بين نجو وطمث، وأيضًا فإن الله أسجد له ملائكته، وعلمه الأسماء من علمه، كما كانت الجنة منزله، وقد تولى الله مناجاته بنفسه دون أن يرسل إليه رسولًا، إلى غير ذلك مما لم يكن لعيسى ولا غيره. فما دام آدم مميزًا بكل هذه المميزات، فلم لا تقول النصارى بألوهيته؟!

وممن فاق المسيح في هذه المعجزة - حسب الكتاب المقدس - ملكي صادق كاهن ساليم في عهد إبراهيم، فإن بولس يزعم أن لا أب له ولا أم ولا بداية ولا نهاية، يقول:

---

(١) مسيحية بلا مسيح، كامل سعفان (٦٢)، المسيحية الحقة التي جاء بها المسيح، علاء أبو بكر (١٨٦).

"ملكي صادق هذا ملك ساليم كاهن الله العلي ... بلا أب، بلا أم، بلا نسب، لا بداءة أيام له، ولا نهاية حياة، بل هو مشبه بابن الله، هذا يبقى كاهنا إلى الأبد" (عبرانيين ٧/ ١-٣)، فلم لا يقول النصارى بألوهية ملكي صادق، وهو الذي لا أب له ولا أم؟ ومثل هذا أيضًا يلزم النصارى بحق الملائكة، فهم أيضًا خلقوا من غير أب ولا أم، بل ولا طين، لكن النصارى لا تعتبرهم آلهة. وهكذا فالميلاد العذراوي لا يصلح دليلًا على الألوهية، وإن كان حدثًا فريدًا – نسبيًا – في تاريخ البشرية.

ب. معجزة إحياء الموتى: لا ريب أن معجزة إحياء الموتى معجزة عظيمة من معجزات المسيح ﷺ، وقد أثبتها القرآن له، وأخبر بأنها من عند الله﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٩)، وهو ما يتفق أيضًا مع الإنجيل، فقد قال عيسى للذين شاهدوه وعاصروه: "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا" (يوحنا ٥/ ٣٠).

لكن النصارى يصرون على أن إحياء الموتى يدل على ربوبية المسيح وألوهيته، ويتجاهلون نصوصًا كتابية أسندت ذات الفعل لغير المسيح. فلم لا تقول النصارى بألوهيتهم؟!.

إن إعراض النصارى عن القول بألوهية هؤلاء، إنما هو دليل على بطلان الاستدلال لألوهية المسيح بمعجزة الخلق.

١- فلئن كان المسيح أحيا لعازر (انظر يوحنا ١١/ ٤١-٤٤)، فإن النبي إلياس أحيا ابن الأرملة "وقال: أيها الرب إلهي، أيضًا إلى الأرملة التي أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها - وحاشا لله أن يسيء -، فتمدد على الولد ثلاث مرات، وصرخ إلى الرب وقال: يا رب إلهي لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه. فسمع الرب لصوت إيليا، فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش" (الملوك (١) ١٧/ ١٩-٢٤)، لذا خاطبه يشوع بن سيراخ: "أنت الذي أقمت ميتا من الموت" (ابن سيراخ ٤٨/ ٥).

٢- واليسع أيضًا أحيا ـ بإذن الله ـ ميتين أحدهما أحياه حال حياته، والآخر بعد وفاته، فقد أحيا ابن الإسرائيلية التي جاءته "دخل أليشع البيت، وإذا بالصبي ميت ومضطجع

على سريره، فدخل وأغلق الباب على نفسيهما كليهما، وصلى إلى الرب، ثم صعد واضطجع فوق الصبي، ووضع فمه على فمه، وعينيه على عينيه، ويديه على يديه، وتمدد عليه، فسخن جسد الولد، ثم عاد وتمشى في البيت تارة إلى هنا وتارة إلى هناك، وصعد وتمدد عليه، فعطس الصبي سبع مرات، ثم فتح الصبي عينيه" (الملوك (٢) ٤/ ٣٢-٣٦).

٣- كما أحيا اليسع بقدرة الله بعد موته ميتًا وضعه أهله على قبر اليسع، فعاد حيا " **وَفِيمَا كَانُوا يَدْفِنُونَ رَجُلاً إِذَا بِهِمْ قَدْ رَأَوْا الْغُزَاةَ، فَطَرَحُوا الرَّجُلَ فِي قَبْرِ أَلِيشَعَ، فَلَمَّا نَزَلَ الرَّجُلُ وَمَسَّ عِظَامَ أَلِيشَعَ عَاشَ وَقَامَ عَلَى رِجْلَيْهِ.** " (الملوك (٢) ١٣/ ٢١).

٤- والعجب من استدلال النصارى بإحياء الموتى لإثبات ألوهية المسيح عليه السلام مع أنهم أثبتوا هذه القدرة للحواريين، والمقصود ما جاء قصة إحياء بطرس لطابيثا. فقد جاء في أعمال الرسل أن بطرس أحيا طابيثا بعد أن ماتت وغسلها أهلها "وكان في يافا تلميذة اسمها طابيثا الذي ترجمته غزالة. . . . وحدث في تلك الأيام أنها مرضت وماتت، فغسلوها ووضعوها في علية. . . . فأخرج بطرس الجميع خارجا وجثا على ركبتيه وصلى، ثم التفت إلى الجسد وقال: يا طابيثا قومي، ففتحت عينيها، ولما أبصرت بطرس جلست" (أعمال ٩/ ٣٦-٤١)، فأي فرق بين ما فعله المسيح وما فعله بطرس، فكل ذلك بإذن الله وقدرته.

وكل التلاميذ – حسب الكتاب المقدس – يقدرون على إحياء الموتى، فقد قال لهم المسيح: " **وَفِيمَا أَنْتُمْ ذَاهِبُونَ اكْرِزُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ. ٨اِشْفُوا مَرْضَى. طَهِّرُوا بُرْصًا. أَقِيمُوا مَوْتَى. أَخْرِجُوا شَيَاطِينَ.** " (متى ١٠/ ٧-٨)، فهل كل هؤلاء آلهة؟

٥- كما يغفل النصارى المتحدثون عن ألوهية المسيح الذي أحيا الموتى، يغفلون عن تلك النصوص التي تتحدث عن موت المسيح، وعجزه عن دفع الموت عن نفسه، كما عجز عن ردها إلى الحياة من جديد، حتى أعاده الله وأقامه من الأموات، وقد تكاثرت النصوص على إيراد هذه الحقيقة حتى بلغت خمسة عشر نصا، منها "فيسوع هذا أقامه الله" (أعمال ٢/ ٣٢)، ومنها "ورئيس الحياة قتلتموه الذي أقامه الله من الأموات " (أعمال

٣/ ١٥)، وكذا "المسيح الناصري الذي صلبتموه أنتم، الذي أقامه الله" (أعمال ٤/ ١٠).

وهكذا بطل الاستدلال بهذه العجيبة على ألوهية المسيح، ولكنها بحق أعجوبة عظيمة دفعها الله للمسيح ليقيم بها الحجة على نبوة هذا النبي العظيم ﷺ.

ج. معجزة شفاء المرضى: ويستدل النصارى على ألوهية المسيح ؈بقدرته على شفاء المرضى، ولئن كان عيسى ؈قد شفى الأبرص (انظر متى ٨/ ٣) فإن اليسع شفى أبرصًا، وأمرض آخر وذريته من بعده بالبرص "فأرسل إليه أليشع رسولًا يقول: اذهب واغتسل سبع مرات في الأردن، فيرجع لحمك إليك، وتطهر. . . فبرص نعمان يلصق بك وبنسلك إلى الأبد، وخرج من أمامه أبرص كالثلج" (الملوك (٢) ٥/ ١٠-٢٧).

د. التنبؤ بالغيوب: وقد تنبأ المسيح ؈بكثير من الغيوب، فكانت كما قال، فقد أخبر التلميذان اللذان أرسلهما لذبح فصح العيد بما سيكون لهما (انظر مرقس ١٤/ ١٢-١٦)، وقد قال له بطرس: "يا رب أنت تعلم كل شيء" (يوحنا ٢١/ ٧١)، كما علم بأن الجحش المربوط في قرية بيت فاجي لم يركب عليه أحد، وهو كما يقول القس إبراهيم سعيد: "دليل جديد على أن المسيح يعلم بالغيب علمًا دقيقًا مفصلًا، لا يقبل شكًا ولا تأويلًا، وفي هذا برهان آخر على المجد الوضيع (هكذا) الذي كان يحف بالمسيح"[1].

١- لكن ليس المسيح وحده من قد تنبأ بالمغيبات، فقد تنبأ قبله يعقوب ؈ فقال لأبنائه: "اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم في آخر الأيام..." (التكوين ٤٩/ ١-٢٧).

٢- ومثله تنبأ صموئيل وإيليا (انظر صموئيل (١) ١٠/ ٢-٩، الملوك (١) ٢١/ ٢١-٢٤)، وقد تحققت نبوءتهما في (الملوك (٢) ١٠/ ١-١٧، ٩/ ٣٠-٣٧). ومثل هذا كثير في الأسفار المقدسة. (انظر صموئيل (١) ١٩/ ٢٣-٢٤، الملوك (٢) ٤/ ٨-١٨، ٨/ ١٢-١٣، يوحنا ١١/ ٤٩-٥٢).

٣- وقد جاء في وصف بلعام بن بعور المتنبئ الكافر الذي قتله موسى ؈بأنه " الذي

---

(١) شرح بشارة لوقا، (ص٤٧٥).

يسمع أقوال الله، ويعرف معرفة العلي، الذي يرى رؤيا القدير" (العدد ٢٤/ ١٦) وذكرت الأسفار التوراتية عددًا من تنبؤاته التي تحققت.

٤- ثم إن المسيح عليه السلام كما تنبأ بالغيوب فإنه عجز عن أخر، وجهلها، إذ لم يعرف بالخبز وعدده (انظر متى ١٥/ ٣٤)، كما جهل موعد الساعة (انظر مرقس ١٣/ ٣٢-٣٣).

٥- وينبه العلامة ديدات أنه لا يجوز للنصارى أن يذكروا شيئًا عن مغيبات أخبر عنها المسيح وهم ينسبون إليه الكذب - وحاشاه - عندما تنبأ بعودته السريعة قبل انقضاء جيله. (انظر مرقس ١٣/ ٢٦، ٣٠، متى ١٠/ ٢٣) وهو ما لم يحدث حتى يومنا هذا.

هـ. التسلط على الشياطين: وكذلك أوتي المسيح عليه السلام سلطانًا على الشياطين (انظر متى ١٢/ ٢٧-٢٨)، ولكنها معجزة قام بها غيره.

١- فعندما اتهمه اليهود بأنه يخرج الشياطين بمعونة رئيسهم قال: "إن كنت أنا أخرج الشياطين ببعزبول، فأبناؤكم بمن يخرجونهم؟ " (متى ١٢/ ٢٧)، فأثبت لأبناء اليهود مثل قدرته.

٢- كما وقد حذر عليه السلام من الكذبة الذين سينجحون في إخراج الشياطين فقال: " كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب، يا رب، أليس باسمك تنبأنا؟ وباسمك أخرجنا شياطين؟ وباسمك صنعنا قوات كثيرة؟ " (متى ٧/ ٥-٢٣)، فالأنبياء الكذبة يخرجون الشياطين، من غير أن يدل ذلك على نبوتهم أو صلاحهم، فضلا عن القول بألوهيتهم.

وعجائب مختلفة: وتذكر الأناجيل عجائب متفرقة للمسيح عليه السلام، كتحويله الماء إلى خمر (انظر يوحنا ٢٢/ ٧-٩)، وإطعامه الجمع كبير من خمسة أرغفة (متى ١٤/ ١٩-٢١)، ويباس شجرة التين بقوله. (انظر متى ٢١/ ١٨-١٩). كما لا يفوتهم التنبيه إلى الظلمة العظيمة التي أعتمت الأرض عند موته المزعوم على الصليب (متى ٢٧/ ٤٥)، فدلت هذه العجائب المختلفة على ألوهيته وأنه ابن الله. وأيضًا يستدل القائلون بألوهيته عليه السلام بإطاعة الرياح والبحر له، فقد أوتي سلطانًا على العناصر الطبيعية، فالرياح والبحر يطيعه " **وَإِذَا اضْطِرَابٌ عَظِيمٌ قَدْ حَدَثَ فِي الْبَحْرِ حَتَّى غَطَّتِ الأَمْوَاجُ السَّفِينَةَ، وَكَانَ هُوَ نَائِمًا. ٢٥فَتَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَأَيْقَظُوهُ**

قَائِلِينَ: «يَا سَيِّدُ، نَجِّنَا فَإِنَّنَا نَهْلِكُ! » ٢٦فَقَالَ لَهُمْ: «مَا بَالُكُمْ خَائِفِينَ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟ » ثُمَّ قَامَ وَانْتَهَرَ الرِّيَاحَ وَالْبَحْرَ، فَصَارَ هُدُوءٌ عَظِيمٌ. ٢٧فَتَعَجَّبَ النَّاسُ قَائِلِينَ: «أَيُّ إِنْسَانٍ هذَا؟ فَإِنَّ الرِّيَاحَ وَالْبَحْرَ جَمِيعًا تُطِيعُهُ! ». " (متى ٨/ ٢٣-٢٨)، فمن ذا الذي تطيعه الرياح والبحار، ولا يجدون - حسب فهمهم البسيط - من إجابة إلا أن يقولوا: إنه الله المسيح.

وكذا فإن المسيح صام أربعين يومًا لم يجع خلالها، وهو ما لا يطيقه بشر، فدل ذلك على أنه الله. (انظر متى ٤/ ١-٢). كما صعد المسيح إلى السماء، وجلس عن يمين الله. (مرقس ١٦/ ١٩)، وهو كما يرى النصارى منزل لم يصل إليه أحد من العالمين إلا المسيح بما له من خواص الألوهية.

ولكن أمثال هذه المعجزات بل وأعظم منها جرت على يدي غيره، ولم تقتض ألوهيتهم.

١- فلئن كان المسيح عليه السلام قد حول الماء إلى خمر (انظر يوحنا ٢/ ٧-٩)، فإن موسى عليه السلام حول الماء إلى دم كما في سفر الخروج " تَأْخُذُ مِنْ مَاءِ النَّهْرِ وَتَسْكُبُ عَلَى الْيَابِسَةِ، فَيَصِيرُ الْمَاءُ الَّذِي تَأْخُذُهُ مِنَ النَّهْرِ دَمًا عَلَى الْيَابِسَةِ " (الخروج ٤/ ٩).

٢-وأما اليشع فقد صنع أعظم من ذلك، إذ ملأ قدور العجوز الفارغة زيتًا، من غير أن يكون فيها شيء " فَقَالَ: «اذْهَبِي اسْتَعِيرِي لِنَفْسِكِ أَوْعِيَةً مِنْ خَارِجٍ، مِنْ عِنْدِ جَمِيعِ جِيرَانِكِ، أَوْعِيَةً فَارِغَةً. لاَ تُقَلِّلِي. ٤ثُمَّ ادْخُلِي وَأَغْلِقِي الْبَابَ عَلَى نَفْسِكِ وَعَلَى بَنِيكِ، وَصُبِّي فِي جَمِيعِ هذِهِ الأَوْعِيَةِ، وَمَا امْتَلأَ انْقُلِيهِ». ٥فَذَهَبَتْ مِنْ عِنْدِهِ وَأَغْلَقَتِ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهَا وَعَلَى بَنِيهَا. فَكَانُوا هُمْ يُقَدِّمُونَ لَهَا الأَوْعِيَةَ وَهِيَ تَصُبُّ. ٦وَلَمَّا امْتَلأَتِ الأَوْعِيَةُ قَالَتْ لابْنِهَا: «قَدِّمْ لِي أَيْضًا وِعَاءً». فَقَالَ لَهَا: «لاَ يُوجَدُ بَعْدُ وِعَاءٌ». فَوَقَفَ الزَّيْتُ. ٧فَأَتَتْ وَأَخْبَرَتْ رَجُلَ اللهِ فَقَالَ: «اذْهَبِي بِيعِي الزَّيْتَ وَأَوْفِي دَيْنَكِ، وَعِيشِي أَنْتِ وَبَنُوكِ بِمَا بَقِيَ». " (الملوك (٢) ٤/ ٣-٧).

٣- وإن طعم ببركة المسيح عليه السلام خمسمائة شخص من خمسة أرغفة (انظر متى ١٤/ ١٩-٢١)، فقد أطعم الله عز وجل بني إسرائيل - وهم زهاء ستمائة ألف - المن والسلوى أربعين سنة، وكل ذلك ببركة موسى عليه السلام. (انظر الخروج ١٦/ ٣٥-٣٦).

٤- ولئن كان المسيح ﷺ قد حول شجرة التين إلى يابس. (انظر متى ٢١/ ١٨-١٩)، فإن موسى ﷺ حول العصا اليابسة إلى حية. (انظر الخروج ٧/ ٩)، وهو أعظم، إذ قد يدخل يبس الشجرة في قانون الطبيعة، لكن تحويل العصا إلى حية معجز بكل حال.

٥- وأما الظلمة التي يدعي النصارى حصولها عند صلب المسيح، فهي ليست - بأي حال - بأكبر من الظلمة التي استمرت على أرض مصر ثلاثة أيام بسبب كفرهم بموسى، " **فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ فَكَانَ ظَلاَمٌ دَامِسٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ** " (الخروج ١٠/ ٢٢-٢٣).

٦- وأيضًا فإن يشوع لما حارب الأموريين، وكادت ليلة السبت أن تدخل، ناجى ربه فقال: "أمام عيون إسرائيل: يا شمس دومي على جبعون، ويا قمر دوم على وادي أيلون، فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب ... فوقفت الشمس في كبد السماء، ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل" (يشوع ١٠/ ١٢-١٣)، وهذا الذي حصل ليشوع لا يقتضي ألوهيته، وهو أعظم من غياب الشمس ثلاث ساعات، فإنها قد تغيب بالغيوم، وهو داخل في السنن المعهودة، أما توقف دوران الكرة الأرضية فهو أعظم من ذلك بكثير.

٧- وأعظم منهما، ما صنعه النبي إشعيا، فقد أعاد الله بدعائه الشمس إلى الوراء، ليبرهن للملك حزقيا على صدق مواعيد الرب. (انظر: الملوك (٢) ٢٠/ ١٠-١١)، وقال عنه ابن سيراخ: "في أيامه رجعت الشمس إلى الوراء" (ابن سيراخ ٤٨/ ٢٣)، ورغم هذا كله فإن أحدًا لا يقول بألوهية النبي إشعيا.

٨- ثم لئن كانت الطبيعة تطيع المسيح؛ فإن ذلك قد حصل مع الأنبياء أيضًا، فإيليا أطاعته النار حتى قال: " إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء تأكلك أنت والخمسين الذين لك، فنزلت نار الله من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له" (الملوك (٢) ١/ ٩-١١).

٩- وكذا أطاع البحر إيليا "و أخذ إيليا رداءه، ولفه، وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك، فعبر كلاهما (أليشع وإيليا) في اليبس" (الملوك (٢) ٢/ ٧-٨)، وقد رأينا كيف

أطاعت الشمس والقمر يشوع.

١٠- وأما صيام المسيح عليه السلام أربعين يومًا فلا يدل على ألوهيته؛ إذ إنه "جاع أخيرًا" (متى ٤/ ٢)، فلئن كان صومه وصبره يدل على ألوهيته، فإن جوعه يكذب هذه الدعوى، ويدل على بشريته.

١١- ولموسى عليه السلام "أقمت في الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة لا آكل خبزا ولا أشرب ماء" (التثنية ٩/ ٩).

١٢- وإيليا حين أكل ثم "سار بقوة تلك الأكلة أربعين نهارًا وأربعين ليلة إلى جبل الله" (الملوك ١٩/ ٧-٨).

١٣-ولئن قال النصارى برفع المسيح للسماء وجلوسه عن يمين الله، فإن مثل ذلك حصل مع إيليا الذي رفع من غير أن يصلب أو أن يصفع أو أن يصاب بسوء. (انظر الملوك (٢) ٢/ ١١-١٢)، ومثله حصل مع أخنوخ. (انظر التكوين ٥/ ٢٤).

١٤- وأما الجلوس عن يمين الله؛ فقد ألحقته الكنيسة بإنجيل مرقس (انظر مرقس ١٦/ ١٩)، ولا يمكن حمله على الحقيقة، بل غايته أن يقال: بأنه جلوس معنوي أي برفع مكانته، كما جاء في كلام ميخا "لقد رأيت الرب جالسا على كرسيه، وكل جند السماء وقوف عن يمينه ويساره" (الأيام (٢) ١٨/ ١٨). [(١)]

الوجه الثاني: جميع الأنبياء معترفون بأن المعجزة من الله تعالى ومنهم عيسى عليه السلام، وبهذا نعلم أن المعجزات هبة إلهية ليست من صنع المسيح عليه السلام في شيء وإليك هذا البيان.

الوجه الأول: ذكر القرآن وأكد صدور المعجزات العظيمة عن المسيح عليه السلام، وأخبر أنه يصنعها بتأييد من الله، فقال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (آل عمران: ٤٩).

---

(١) انظر مناظرة بين الإسلام والنصرانية (٢٦٩) وما بعدها والأناجيل الأربعة ورسائل بولس تنفي ألوهية المسيح (١٠٩) وما بعدها.

الوجه الثاني: وهو ما أكدته النصوص الإنجيلية، ونقلته عن المسيح، فعندما أتى المسيح بما أتى به من المعجزات كان يؤكد أنها من الله ﷻ، ولم ينسبها إلى نفسه فقال:

١- " **أَنَا بِرُوحِ اللهِ أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ** " (متى ١٢/ ٢٨).

٢- وقال: " **كُنْتُ بِأَصْبعِ اللهِ أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ** " (لوقا ١١/ ٢٠).

٣- وعندما جاء لإحياء لعازر " **وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ، وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، ٤٢وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ، لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي** " (يوحنا ١١/ ٤٠-٤١)، لقد شكر الله أن قبل منه تضرعه ودعاءه حين رفع عينيه إليه متوسلا ضارعا، فاستجاب الله له، وأحيا على يديه لعازر.

٤- وأيضًا استلهم من الله القدير العون لما أراد إطعام الجمع من الأرغفة الخمس "رفع نظره نحو السماء، وبارك وكسر" (متى ١٤/ ١٩).

٥- ولما جيء له بالأصم "رفع نظره نحو السماء وأنّ، وقال: افثأ، أي انفتح، وللوقت انفتحت أذناه، وانحل رباط لسانه، وتكلم مستقيمًا" (مرقس ٧/ ٣٤-٣٥)، فأنينه تضرع واستغاثة بالله لم يخيبه الله فيهما.

٦- وقال متحدثًا عن سائر معجزاته وأعاجيبه: "دفع إلي (أي من الله) كل سلطان في السماء وعلى الأرض" (متى ٢٨/ ١٨)، فكل ما يؤتاه هبة الله، ولو كان إلهًا لكانت معجزاته ذاتية تنبع من طبيعته الإلهية، ولا يحتاج إلى من يهبها له أو يمنعه إياها.

٧- وأكد المسيح ؈ أيضًا أنه لا حول له ولا قوة بغير تأييد الله له، فقال: "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا" (يوحنا ٥/ ٣٠).

٨- ويقول: "الأعمال التي أعملها باسم أبي هي تشهد لي" (يوحنا ١٠/ ٢٥).

٩- وأما الذين رأوا معجزات المسيح فقد عرفوا أنما يصنعه إنما هو من المعجزات التي يعطيها الله لأنبيائه، ولم يفهم أحد منهم ألوهية صاحب هذه المعجزات، فعندما شفي الصبي من الروح النجس "بهت الجميع من عظمة الله" (لوقا ٩/ ٣٤).

١٠- ولما شفى المرأة المقوسة الظهر " استقامت (أي المرأة بظهرها) ومجدت الله" (لوقا ١٣/ ١٣). ولما أقام المفلوج ورأت الجموع ذلك "تعجبوا ومجدوا الله الذي أعطى الناس سلطانا مثل هذا" (متى ٩/ ٨).

١١- وهو ما قاله عنه الأعمى الذي شفاه " فقالوا له: كيف انفتحت عيناك؟ أجاب ذاك وقال: إنسان يقال له يسوع" (يوحنا ٩/ ١٠-١١).

١٢- وحين انتهر البحر والرياح وأطاعته لم يفهم الراؤون لهذا ألوهيته رغم عظم هذه المعجزة، بل عجبوا لقدرة المسيح الإنسان، يقول متى: " فتعجب الناس قائلين: أي إنسان هذا؟ فإن الرياح والبحر جميعا تطيعه" (متى ٨/ ٢٧).

١٣- ولما أرادت مرثا أخت لعازر أن يُحييَ أخاها أكدت معرفتها بأن هذه المعجزات هي من الله، وأنه يؤيد بها المسيح، فقالت له: " أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه" (يوحنا ١١/ ٢٢).

١٤- وهذا تلميذه بطرس كبير الحواريين يقول مخاطبًا الجموع مؤكدًا هذا المفهوم: "يسوع الناصري رجل قد تبرهن من قبل الله بقوات وعجائب صنعها الله بيده" (أعمال ٢/ ٢٢).

١٥- وأيضًا نيقوديموس معلم الناموس، أدرك سر هذه المعجزات العظيمة التي يصنعها المسيح، وأنها من قبل الله، وبسبب عونه وتأييده، فقال للمسيح عليه السلام: " يا معلم، نعلم أنك قد أتيت من الله معلمًا، لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل، إن لم يكن الله معه" (يوحنا ٣/ ٢).

١٦- وتحكي الأناجيل ما يؤكد أن هذه المعجزات لم تكن إلا هبة من الله، وكان المسيح يحذر أن لا يؤتاها في بعض المواطن، لذلك لما تقدم إلى لعازر الميت خاف أن لا يتمكن من صنع معجزة "قال بعض منهم: ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضًا لا يموت؟ فانزعج يسوع أيضًا في نفسه" (يوحنا ١١/ ٣٧-٣٨).

١٧- وفي مرات أخر طلب منه الفريسيون آيات، فلم يقدر على صنعها، أو لم يصنعها " فتنهد بروحه، وقال: لماذا يطلب هذا الجيل آية؟ الحق أقول لكم: لن يعطى هذا الجيل آية، ثم تركهم ودخل السفينة ومضى" (مرقس ٨/ ١١-١٣).

ولما تكاثرت جموع اليهود عليه تطلب آية لم يجبهم إلى طلبهم، بل قال: "جيل شرير وفاسق يطلب آية، ولا تعطى له آية" (متى ١٢/ ٣٨-٣٩).

١٨- ثم لو كان ما يصدر من المسيح من آيات تدل على ألوهيته فلم يأمر بإخفائها، وهي السبيل الذي يدل الناس على حقيقته؟ فقد قال المسيح للأبرص لما شفاه "انظر، لا تقل لأحد شيئا" (مرقس١/ ٤٤). ولما شفى الأعميان قال: "انظرا، لا يعلم أحد" (متى ٩/ ٣١).

وقال للأعمى الثالث لما شفاه: "لا تدخل القرية، ولا تقل لأحد في القرية" (مرقس ٨/ ٢٦).

وتكرر منه ذلك "فعلم يسوع وانصرف من هناك، وتبعته جموع كثيرة فشفاهم جميعا، وأوصاهم أن لا يظهروه" (متى ١٢/ ١٥-١٦)، فالمسيح عليه السلام بإخفائه للمعجزات يريد أن لا ينشغل الناس بالمعجزات عن دعوته وجوهرها، ولو كانت دليل ألوهيته لوجب أن ينبههم إلى ذلك.

١٩- المعجزات لا تدل - حسب الكتاب المقدس- على النبوة فضلًا عن الألوهية، والعجب - كل العجب - أن يعتبر النصارى معجزات المسيح عليه السلام دالة على ألوهيته، والكتاب مصرح بقدرة غيره من البشر على صنع مثل هذه المعجزات العظيمة، من غير أن يكون ذلك دالا على ألوهية هؤلاء.

فقد أثبت الكتاب هذه المعجزات وما هو أعظم منها لكل المؤمنين بالمسيح، فقال: "الحق أقول لكم: من يؤمن بي، فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضًا، ويعمل أعظم منها" (يوحنا ١٤/ ١٢)، أي يستطيع المؤمنون شفاء المرضى بل وإحياء الموتى، بل ويستطيعون صنع أعظم من ذلك، وعليه لا تصلح في الدلالة على الألوهية.

٢٠- وفعل العجائب - حسب الكتاب المقدس - لا يصح للدلالة على صدق أو صحة إيمان أصحابها، فضلا عن النبوة أو الألوهية، فإن المسيح عليه السلام ذكر بأن كذبة

سيفعلون المعجزات، ويزعمون أنهم يصنعونها باسم المسيح. فقد ذكر متى أن المسيح قال: "ليس كل من يقول لي: يا رب يا رب، يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماوات، كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يا رب يا رب أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة، فحينئذ أصرح لهم: إني لم أعرفكم قط، اذهبوا عني يا فاعلي الإثم" (متى ٧/ ٢١-٢٣)، فهؤلاء المنافقون الكذبة قدروا على فعل المعجزات، ولم تدل على صلاحهم وإيمانهم، فضلًا عن نبوتهم وألوهيتهم.

وأيضًا إنسان الخطيئة يصنع الكثير من المعجزات والعجائب، من غير أن يعني ذلك صدقه أو ألوهيته، إذ يصنعها بعون الشيطان وقوته، يقول عنه بولس: "الذي مجيئه بعمل الشيطان، بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة" (تسالونيكي (٢) ٢/ ٩).

الوجه السابع: استدلال النصارى بآيات من القرآن على ألوهية المسيح

وهي عبارة عن دعاوى وشبهات يرون فيها أن القرآن يشهد لألوهية المسيح:

فالادعاء الأول، هو: أن ضمائر الجمع التي تكلم الله بها عن نفسه في القرآن؛ تدل على ألوهية المسيح عليه السلام؛ لأنها - بزعمهم - تدل على أن الإله ثلاثة أشخاص منهم: المسيح عليه السلام (فقد كان نصارى نجران يقولون عن عيسى عليه السلام: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، ويحتجون بأنه ثالث ثلاثة بقول الله: فعلنا، وأمرنا، وخلقنا وقضينا فيقولون: لو كان الله واحدا ما قال إلا فعلت، وقضيت وأمرت وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم)[1]، كما احتجوا على الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿إنا نحن﴾ (الحجر: ٩). قالوا: وهذا يدل على أنهم ثلاثة)[2].

كذلك ردد عبد المسيح الكندي هذا الزعم حيث يقول - مخاطبًا عبد الله الهاشمي: " وفي كتابك أيضًا شبيه بما ذكرنا من قول موسى، ودانيال عن الله تعالى: فعلنا، وخلقنا،

---

(١) ابن هشام: « السيرة النبوية » ١/ ٥٧٥.

(٢) انظر: ابن تيمية « الجواب الصحيح » ٣/ ٤٤٨.

وأمرنا، وأوحينا، وأهلكنا، ودمرنا، مع نظائر لهذه كثيرة"[١] فحجتهم أن الله تكلم عن نفسه في القرآن بصيغة الجمع ومن ثم زعموا أن ذلك دليل على أن عيسى عليه السلام واحد من الذين تدل عليهم الضمائر المذكورة، وأن هذا الجمع إنما هو ثلاثة، وزعموا بذلك أن القرآن يدل على ألوهية المسيح عليه السلام.

أما الادعاء الثاني، فهو: أن المسيح عليه السلام روح من الله بجعل (من) للتبعيض؛ إذ يرونه إلهًا من إله، وكلمة الله التي تجسدت - بزعمهم - وصارت إنسانًا أي أن كلمة الله هي عيسى عليه السلام، إلى غير ذلك مما يتعلق بهذا الزعم. يقول عبد المسيح الكندي - مخاطبا عبد الله الهاشمي: (فافهم كيف أوجب (يقصد الرسول ﷺ وقد كذب عليه في ذلك) أن الله تبارك وتعالى ذو كلمة وروح، وصرح بأن المسيح كلمة الله تجسدت وصارت إنسانًا)[٢].

أما الادعاء الثالث، فهو زعمهم أن المعجزات التي أيد الله بها عيسى عليه السلام التي ذكرت في القرآن تدل على ألوهية عيسى عليه السلام ولا سيما إحياء الموتى. وقد كان وفد نصارى نجران الذين وفدوا على الرسول ﷺ (يحتجون في قولهم (عن عيسى بأنه) هو الله بأنه كان يحي الموتى، ويبرئ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا) أي بالمعجزات التي أيد الله بها عيسى عليه السلام والتي ذكرت في القرآن.

الرد على هذه الشبهات

يدور الرد في محورين: الأول مجمل، والثاني مفصل.

الأول: المجمل، ويتكون من وجهين:

الأول: أن هذه العقيدة خالفت أصول الأنبياء في تقديس الله ووصفه بصفات الكمال، فكيف يدل عليها القرآن؟ وإليك التفصيل:

الأول: إن الله سبحانه وتعالى، هو الأول الواحد الأحد، لا شريك له في ملكه، ولا ند ولا ضد ولا وزير ولا مشير ولا ظهير ولا شافع إلا من بعد إذنه.

الثاني: أنه غني بذاته فلا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه خلقه بوجه من الوجوه.

---

(١) « رسالة عبد المسيح الكندي إلى الهاشمي يرد بها عليه ويدعوه إلى النصرانية » صـ(٣٨).

(٢) « رسالة عبد المسيح إلى الهاشمي يرد بها عليه ويدعوه إلى النصرانية » ص (٤٢)

الثالث: أنه لا يتغير ولا تعرض له الآفات، من الهرم والمرض والسنة والنوم والنسيان والندم والخوف والهم والحزن ونحو ذلك.

الرابع: أنه لا يماثل شيئًا من مخلوقاته، بل ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. ومما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (سورة الإخلاص). فهذه السورة متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال، التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد، الذي هو من لوازم الصمدية وغناه وأحديته، ونفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير. فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفى إثبات شبيه أو مثيل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه. وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك؛ ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن؛ فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمر ونهي وإباحة، والخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وخبر عن خلقه فأخلصت سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ الخبر عنه، وعن أسمائه وصفاته؛ فعدلت ثلث القرآن، وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي، كما خلصت سورة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ من الشرك العملي الإرادي القصدي.[١]

الخامس: أنه لا يحل في شيء من مخلوقاته، ولا يحل في ذاته منها، بل هو بائن عن خلقه بذاته، والخلق بائنون عنه.

السادس: أنه أعظم من كل شيء منها، بل هو بائن عن خلقه بذاته، والخلق بائنون عنه.

السابع: أنه أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وفوق كل شيء وعال على كل شيء وليس فوقه شيء البتة.

(١) زاد المعاد (١/ ٢٩٨).

فنحن نتبع طريقة المتبعين للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، فما اعتقدوه اعتقدناه، فما اعتقدوه أن الأحاديث التي تثبت عن النبي ﷺ في العرش واستواء الله عليه يقولون بها ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه وأن الله بائن عن خلقه والخلق بائنون منه لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم وهو مستو على عرشه في سماواته من دون أرضه. وقال أبو أحمد الكرخي: (كان ربنا وحده ولا شيء معه ولا مكان يحويه فخلق كل شيء بقدرته وخلق العرش لا لحاجته إليه فاستوى على استواء استقرار كيف شاء وأراد لا استقرار راحة كما يستريح الخلق وهو يدبر السماوات والأرض ويدبر ما فيهما ومن في البر والبحر لا مدبر غيره ولا حافظ سواه يرزقهم ويمرضهم ويعافيهم ويميتهم والخلق كلهم عاجزون: الملائكة والنبيون والمرسلون وسائر الخلق أجمعين وهو القادر بقدرة والعلم بعلم أزلي غير مستفاد وهو السميع بسمع والبصير ببصر تعرف صفتهما من نفسه لا يبلغ كنهها أحد من خلقه متكلم بكلام يخرج منه لا بآلة مخلوق كآلة المخلوقين لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم وكل صفة وصف بها نفسه أو وصف بها نبيه فهي صفة حقيقية لا صفة مجاز). [1]

الثامن: أنه قادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء يريده، بل هو الفعال لما يريد.

التاسع: أنه عالم بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ويعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن، لو كان كيف كان يكون، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ (الأنعام: ٥٩) ولا متحرك إلا وهو يعلمه على حقيقته.

العاشر: أنه سميع بصير، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فقد أحاط سمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات، وقدرته بجميع المقدورات، ونفذت مشيئته في جميع البريات، وعمت رحمته جميع المخلوقات،

---

(١) درء التعارض بين العقل والنقل ٣/ ٢٢٨.

ووسع كرسيه الأرض والسموات.

الحادي عشر: أنه الشاهد الذي لا يغيب، ولا يستخلف أحدًا على تدبير ملكه، ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوائج عباده، أو يعاونه عليها، أو يستعطفه عليهم ويسترحمه لهم.

الثاني عشر: أنه المتكلم الآمر الناهي، قائل الحق، وهادي السبيل، ومرسل الرسل ومنزل الكتب والقائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر، ومجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

الثالث عشر: أنه الصادق في وعده وخبره، فلا أصدق منه قيلًا، ولا أصدق منه حديثًا، وهو لا يخلف الميعاد.

الرابع عشر: أنه تعالى صمد بجميع الصمدية، فيستحيل عليه ما يناقض صمديته.

الخامس عشر: أنه قدوس سلام، فهو المبرأ من كل عيب وآفة ونقص.

السادس عشر: أنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه.

السابع عشر: أنه العدل الذي لا يجور ولا يظلم، ولا يخاف عباده منه ظلمًا.

فهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل، وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه، ولا يخبر نبي بخلافه أصلًا، فترك المثلثة عباد الصليب هذا كله، وتمسكوا بالمتشابهة من المعاني والمجمل من الألفاظ، وأقوال من ضلوا من قبل، وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل.

وأصول المثلثة ومقالتهم في رب العالمين تخالف هذا كله أشد المخالفة وتباينه أعظم المباينة[1].

والأدلة على هذا الفصل قد سبقت في هذا البحث؛ فلا نطيل بذكرها ثانية، والسؤال الآن هل في المسيح شيء من هذه الصفات في ضوء ما سبق بيانه في هذا البحث؟ والجواب: لا. فقل ما شئت في طائفة أصل عقيدتها أن الله ثالث ثلاثة، وأن مريم صاحبته، وأن المسيح ابنه، وأنه نزل عن كرسي عظمته، والتحم ببطن الصاحبة، وجرى له ما جرى

---

(١) هداية الحيارى (١٥٩).

إلى أن قتل ومات ودفن، فدينها عبادة الصلبان، ودعاء الصور المنقوشة بالأحمر والأصفر في الحيطان. يقولون في دعائهم: يا والدة الإله ارزقينا، واغفري لنا، وارحمينا، فدينهم شرب الخمور، وأكل الخنزير، وترك الختان والتعبد بالنجاسات، واستباحة كل خبيث من الفيل إلى البعوضة، والحلال ما حلله القس، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، وهو الذي يغفر لهم الذنوب، وينجيهم من عذاب السعير[1].

الوجه المجمل الثاني: إثبات نبوة عيسى عليه السلام، ورسالته من خلال القرآن، والأناجيل.

وينقسم هذا الوجه إلى مبحثين: -

المبحث الأول: نبوته ورسالته عليه السلام من خلال القرآن:

وتقدمت أدلة هذا المبحث في أول هذا المجلد تحت الوجه الثاني: الأدلة من القرآن على بطلان ألوهية المسيح.

المبحث الثاني: نبوته ورسالته عليه السلام من خلال الأناجيل:

كذلك تدل الأناجيل الموجودة اليوم على نبوة عيسى ورسالته؛ فقد جاء في الأناجيل نصوص عدة، ونذكر منها إضافة إلى ما سبق ما يلي:

١ - " **وَأَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ لَهُمْ: لَيْسَ نَبِيٌّ بِلاَ كَرَامَةٍ إِلاَّ فِي وَطَنِهِ وَفِي بَيْتِهِ** " (متى (١٣: ٥٧) ولوقا (٤: ٢٤) و (١٣: ٣٣)، فهذا مما ينسب إليه من أقوال يشير بها إلى نفسه. ولفظ (مرقس ٦/ ٤)، إلا في وطنه وبين أقربائه وفي بيته.

٢ - ومما يوضح ذلك نظرة بعض المدعويين من بني إسرائيل له، وأنه نبي قوله: " **وَلَمَّا سَمِعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ أَمْثَالَهُ، عَرَفُوا أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ. ٤٦وَإِذْ كَانُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يُمْسِكُوهُ، خَافُوا مِنَ الْجُمُوعِ، لأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ مِثْلَ نَبِيٍّ.** " (متى (٢١: ٤٥).

٣ - وقوله " **وَلَمَّا دَخَلَ أُورُشَلِيمَ ارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا قَائِلَةً: «مَنْ هذَا؟ » ١١فَقَالَتِ الْجُمُوعُ: «هذَا يَسُوعُ النَّبِيُّ الَّذِي مِنْ نَاصِرَةِ الْجَلِيلِ** " (متى (٢١: ١١) وانظر سوى ما مر يوحنا (٦: ١٤) و (٧: ٤٠) و (٩: ١٧) ولوقا (٧: ١٩) ومرقس (٦: ١٥) ويوحنا (٩: ١٧).

---

(١) هداية الحيارى (٨).

٤ - مر بنا قول عيسى عليه السلام" وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع الذي أرسلته ".

٥ - وقوله: " فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلا: تعرفونني وتعرفون من أين أنا ومن نفسي لم آت بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني ".

فهذا من أقواله التي يوضح فيها أنه رسول من رسل الله.

إن ما سبق من نصوص تدل على نبوة عيسى عليه السلام ورسالته من خلال الأناجيل، على أن هناك نصوصًا أخرى تضيف إلى ما سبق بيان مهمة عيسى عليه السلام ووظيفته التي أرسله الله من أجلها؛ ألا وهي الدعوة إلى الله، وإلى عبادته وطاعته، وإبلاغ ما أمره الله أن يبلغه لبني إسرائيل من دين الله الذي أنزل على يديه آنذاك وهو النصرانية الصحيحة الموحدة، التي نسخها الله بالإسلام ولذا يسمى عيسى في الأناجيل معلم (يوحنا (٧: ٢٨ - ٢٩) و (١٦ - ١٧) و (٨: ١٦، ١٨، ٢٦، ٢٩، ٤٢) و (١٧: ٨و٢٥)، وهي وظيفة الرسل حيث يعلمون الناس الخير ويبلغونهم دين الله سبحانه وتعالى.

وهاهي النصوص الدالة على ذلك:

١ - قول الإنجيل " وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز (يدعو) ببشارة ملكوت الله ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل (مرقس (١: ١٤ - ١٥) " فها هو عيسى يدعو بني إسرائيل إلى التوبة والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى والإيمان بالإنجيل كتاب الله الذي أنزله عليه.

٢ - قوله " فقال لهم إنه ينبغي لي أن أبشر المدن الأخر أيضًا بملكوت الله لأني لهذا قد أرسلت فكان يكرز في مجامع الجليل " (لوقا (٤: ٤٣ - ٤٤).

٣ - قوله " فقال لهم لنذهب إلى القرى المجاورة لأكرز هناك أيضًا لأني لهذا خرجت " (مرقس (١: ٣٨).

٤ - وجاء في الإنجيل قوله: " كان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت " (متى (٤: ٢٣ - ٢٥).

٥ - كما جاء قوله " حينئذ ابتدأ يوبخ المدن التي صنعت فيها أكثر قواته (المعجزات التي أظهر الله على يديه) لأنها لم تتب: ويل لك يا كورزين، ويل لك يا بيت صيدا. . . وأنت يا كفرنا حوم " (متى (١١: ٢٠ - ٢٣).

٦ - جاء قوله ". . . ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني مادام نهار، يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل " (يوحنا (٩: ٤)، وانظر يوحنا (٤: ٣١).

٧ - قوله ". . . لأني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية فما أتكلم أنا به فكما قال لي الآب هكذا أتكلم " (يوحنا (١٢: ٤٩ - ٥٠) وأنظر يوحنا (٤: ٣١) و (٨: ٢٦و٢٨) ويوحنا (١٧: ٧ - ٨)، يصدق هذا ما جاء في القرآن على لسان عيسى (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به) (المائدة: ١١٧).

فعيسى عليه السلام كما تدل عليه الأناجيل، نبي رسول، جاء لإبلاغ بني إسرائيل رسالة ربه؛ ليتوبوا من معاصيهم وآثامهم، ويتبعوا كتاب الله الذي أنزله الله عليهم آنذاك على يد عيسى وهو الإنجيل.

وبذلك نكون قد انتهينا من الرد المجمل، والآن مع الرد التفصيلي على هذه الشبهة:

الوجه الأول: خروج ضمائر الجمع عن الظاهر (الجمع) إلى غيره ولا سيما المفرد. ويتكون من مبحثين:

الأول: ما يقوله بعض علماء اللغة عن هذا الأسلوب والشواهد اللغوية المستخرجة من القرآن الكريم، والشعر الجاهلي.

الثاني: النصوص اللغوية التوراتية والإنجيلية في الموضوع نفسه.

أما عن الوجه الأول:

١ - أن هذا أسلوب سائغ لغة، قال ابن قتيبة " ومنه (أي من خروج ضمير الجمع عن

ظاهره إلى ما يخالف الظاهر) أن يخاطب الواحد بلفظ الجمع كقوله سبحانه: ﴿قال رب ارجعون﴾ (المؤمنون: ٩٩). وأكثر من يخاطب بهذا الملوك لأن مذاهبهم أن يقولوا: نحن فعلنا، يقوله منهم، يعني نفسه فخوطبوا بمثل ألفاظهم "[١]

كما قال ابن فارس ـ رحمه الله: " ومن سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجمع فيقال للرجل العظيم: انظروا في أمري، وكان بعض أصحابنا يقول: إنما يقال هذا لأن الرجل العظيم يقول: نحن فعلنا: فعلى هذه الابتداء خوطبوا في الجواب[٢].

فهل هناك من هو أعظم من مالك الملك وأولى منه بمثل هذا الأسلوب؟

ويقول ابن تيمية: إن ضمير الجمع يقع " على من كان له شركاء وأمثال، وعلى الواحد المطاع العظيم، الذي له أعوان يطيعونه وإن لم يكونوا شركاء ولا نظراء، والله تعالى خلق كل ما سواه، فيمتنع أن يكون له شريك أو مثيل والملائكة وسائر العالمين جنوده تعالى؛ فإذا كان الواحد من الملوك يقول: إنا ونحن ولا يريدون أنهم ثلاثة ملوك فمالك الملك رب العالمين، ورب كل شيء ومليكه هو أحق بأن يقول: إنا ونحن مع أنه ليس له شريك، ولا مثيل بل له جنود السماوات والأرض "[٣]

٢ - اللغة العربية مليئة بالشواهد على خروج ضمائر الجمع عن ظاهرها للدلالة على المفرد، ومن ذلك ما في الشعر الجاهلي:

١ - يقول امرؤ القيس - حين رأى قبر امرأة في سفح جبل عسيب الذي مات عنده-

أجارتنا إن الخطوب تنوب ... وإني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ههنا ... وكل غريب للغريب نسيب

فإن تصلينا فالقرابة بيننا ... وإن تصرمينا فالغريب غريب

---

(١) ابن قتيبة « تأويل مشكل القرآن » (ص٢٩٣).

(٢) « الصاحبي » (٣٥٣)

(٣) الجواب الصحيح (٣ / ٤٤٨).

أجارتنا ما فات ليس يؤوب   وما هو أت في الزمان قريب[١]

٢- ويقول عمرو بن كلثوم متغزلًا:

قفي قبل التفرق يا ظعينا   نخبرك اليقين وتخبرينا

قفي نسألك هل أحدثت صرما   لوشك البين أم خنت الأمينا[٢]

٣- ويقول زهير بن أبي سلمى مخاطبا هرم بن سنان والحارث بن عوف:

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم   ومن أكثر التسآل يوما سيحرم. [٣]

٣ - من الشواهد اللغوية في القرآن التي استخدمت فيها ضمائر الجمع للدلالة على الواحد مع أن الضمائر فيها تعود إلى غير الله غير الجمع سبحانه وتعالى ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٨).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١١). فالضمير في قوله (لحكمهم) ضمير جمع يدل على المثنى وليس على الثلاثة فأكثر، ولا على الواحد، وكذلك ياء الجماعة في (طائعين) ومثل ذلك قوله (أتينا) هذه بعض أمثلة استخدام ضمائر الجمع للدلالة على المثنى.

أما استخدام ضمائر الجمع في القرآن للدلالة على المفرد فشواهدها:

قوله تعالى عن الخضر: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ (الكهف: ٨ - ٨١)

وقال تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ

---

(١) ديوان امرئ القيس (٧٩).

(٢) شرح المعلقات العشر (٢٠٢).

(٣) المرجع السابق ص (١٥٥).

مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ (الكهف: ٨٦ - ٨٨)، وقال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ (النمل: ١٦).

فالضمائر في: (فخشينا) و (فأردنا) و (نعذبه) و (سنقول) و (أمرنا) و (علمنا) و (أوتينا) ضمائر جمع تدل على واحد وليس على اثنين أو ثلاثة أو أكثر.

٤ - من العجيب أن عبد المسيح الكندي نفسه استخدم ضمير الجمع للدلالة على المفرد على نفسه هو في أثناء عرض شبهته نفسها حيث قال: " وشبيه بما ذكرنا " وهذا في رسالته كثير، فهل هو ثالث ثلاثة؟ وهكذا القسيس فندر حيث قال: " وإنما أوردنا ذلك إشعارًا بأننا لا نخطئ ". إن هذا دليل على أن هذا الأسلوب شائع مستخدم بكثرة، ولا سيما في الكتب وعند الكتاب، ويجري في سليقة العرب وسنن العربية قديمًا وحديثًا، وليس فيه أدنى غرابة أو شبهة لكن النصارى قوم مُلبسون.

الوجه الثاني: نصوص لغوية من خلال التوراة والأناجيل، تدل على المفرد أو المثنى وهي في صورة الجمع:

أولًا: شواهد توراتية وهي إما أن تدل: على المفرد أو على المثنى:

أ) شواهد تدل على المفرد منها:

(١) جاء في سفر التكوين " وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا " (التكوين ١: ٢٦).

(٢) وجاء فيه: " وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحدٍ منا " التكوين (٣: ٢٢).

(٣) وجاء فيه " هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم" (التكوين (١١: ٧).

فهذه ضمائر جمع تدل على المفرد، وعلى الرغم من أن النصارى قد يحرفونها كما حاولوا ذلك في القرآن، إلا أن مما يوضح دلالتها على المفرد؛ النصوص التوراتية التي تدل على الوحدانية - كما مر سابقًا - كما يؤيد ذلك أن اليهود الذين نزلت التوراة بلغتهم على مختلف عصورهم وتعدد أنبيائهم ما فهموا من ضمائر الجمع هذه إلا دلالتها على المفرد؛ إذ إن ذلك هو معتقد الدين اليهودي كما هو معروف.

جاء في نشيد الإنشاد " ارجعي ارجعي ياشولميت ارجعي ارجعي فننظر إليك " (نشيد

الإنشاد: ٦ - ١٣).

وسياق هذا النص تشبيب من حبيب بمحبوبته، ودلالة هذا النص على الواحد واضحة جدًا؛ إذ يقوله محب - بزعمهم - في محبوبته، وسياق هذا السفر كله غزلي.

ب) شواهد تدل على المثنى: جاء في العهد القديم قوله " تعال يا حبيبي لنخرج إلى الحقل ولنبث في القرى لنبكرن إلى الكروم لننظر هل أزهر الكرم " (نشيد الإنشاد ٧: ١١). وقوله " اجذبني وراءك فنجري " (نشيد الإنشاد ١ : ٤) فهذه ضمائر جمع أريد بها المثنى كما هو واضح من السياق.

ثانيًا: شواهد إنجيلية: من الشواهد الإنجيلية لاستخدام ضمائر المتكلمين التي تدل على الفرد:

١- قول بولس: " كما هو مكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسى فماذا نقول ألعل عند الله ظلمًا حاشا " رومية (٩: ١٣ - ١٤).

٢- ويقول أيضًا: " إذًا نحسب أن الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس. . أفنبطل الناموس بالإيمان حاشا بل نثبت الناموس " رومية (٣: ٢٨ - ٣١).

٣- ويقول أيضًا: " فماذا نقول إن أبانا إبراهيم قد وجد حسب الجسد " رومية (٤: ١).

٤- ويقول: " فماذا نقول إن الأمم الذين لم يسعوا في أثر البر أدركوا البر الذي بالإيمان المصدر نفسه (٩: ٣٠).

٥- بل قال بولس: " لذلك أردنا أن نأتي إليكم أنا بولس مرة ومرتين وإنما عاقنا الشيطان " تسالونيكي (٢: ١٨).

فقوله: (فماذا نقول) و (نحسب) و (أفنبطل) و (نثبت) و (أردنا) و (نأتي) و (عاقنا) تشتمل على ضمائر جمع مستترة وجوبًا، أو ضمائر ظاهرة أسندت إلى أفعال، وهي تدل على مفرد، هو بولس وحده وليس ثلاثة هو ثالثهم. وهكذا نرى أن من الأساليب المعهودة في اللغة العربية التي نزل بها القرآن وترجمت إليها التوراة والإنجيل، استخدام ضمائر الجمع للدلالة على المثنى أو على المفرد فقط، وقد استخدمت لتعود إلى غير الله، مما يبين فساد دعوى النصارى

والمنصرين، في أن ضمائر الجمع المسندة لله سبحانه وتعالى في القرآن تدل على ألوهية عيسى عليه السلام بزعم دلالتها على التثليث، وإنما هو أسلوب من أساليب التعظيم أولى به الخالق سبحانه وتعالى من كل مخلوق، واستخدامه جرى على لسان العرب كثيرًا حتى النصارى - كما مر - وهو إلى اليوم معهود غير مستغرب سواء في مخاطبات الملوك أو غيرهم.

الوجه الثالث: قولهم بأن عيسى روح من الله؛ بجعل من للتبعيض، كما سبق بيانه في عرض شبهتم. والنصوص في هذا على قسمين:

القسم الأول: فالجواب على شبهتم فيه من وجوه:

أولًا: زعم الكندي أن القرآن " صرح بأن المسيح كلمة الله تجسدت وصارت إنسانًا ". فهو يشير إلى معتقد النصارى المعروف، وهو أن عيسى هو الكلمة، والكلمة هي الله فعيسى هو الله - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا - وهذا صريح في إنجيل يوحنا كما مر سابقًا، ونسبة هذا الكفر إلى القرآن بهتان عظيم وكذب صريح على القرآن المحفوظ كما أنزل، فليأت النصارى بنص يدل على هذا المعنى الباطل. إنما الذي في القرآن﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران: ٥٩). فمن الواضح أن عيسى مخلوق ليس هو الكلمة (كن) وإنما بها كان، وسمي بكلمة الله؛ لأنه بها خُلق وليس له أب.

ثانيًا: أن قوله كلمة الله؛ المراد بها عيسى نفسه، فلا ريب أن المصدر يعبر به عن المفعول به في لغة العرب، كقولهم: هذا درهم ضرب الأمير، ومنه قوله: هذا خلق الله، ومنه تسمية المأمور به أمرا، والمقدور قدرة، والمرحوم به رحمة، والمخلوق بالكلمة كلمة، لكن هذا اللفظ إنما يستعمل مع ما يقترن به مما يبين المراد كقوله: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (آل عمران: ٤٥) فبين أن الكلمة هو المسيح، ومعلوم أن المسيح نفسه، ليس هو الكلام. ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ (آل عمران: ٤٧)، فبين لما تعجبت من الولد، أنه سبحانه يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول

له كن فيكون؛ فدل ذلك على أن هذا الولد مما يخلقه الله بقوله كن فيكون[١]

ثالثا: آية سورة النساء - السابق ذكرها (١٧١) - تكفي وحدها للرد على ادعاءات النصارى واستنتاجاتهم المزعومة من خلال قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أو﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أو ما يشاكل ذلك من الآيات.

فالآية تدل على أمور منها:

(١) نهي النصارى عن الغلو في دينهم وتحذيرهم؛ بأن لا يقولوا على الله - سبحانه وتعالى - إلا الحق ومن أول ذلك: عدم الغلو في المسيح فهو ليس إلا رسول الله - سبحانه وتعالى - وعبد من عبيده.

(٢) نسبت الآية عيسى نسبًا بشريًا بينًا إلى أمه مريم ابنة عمران عليهما السلام.

(٣) حذر الله النصارى عن أن يقولوا بالتثليث، ومنه إدخال عيسى واحدًا من الثلاثة المزعومين باعتباره أنه إله منهم.

(٤) أوضحت الآية على سبيل الحصر أن الله - سبحانه وتعالى - ليس إلا إلهًا واحدًا منزهًا عن أن يكون له ولد، وهذا يرد على ادعائهم أن عيسى ابن الله.

(٥) هذه الآية حجة برهانية قاطعة تثبت بلغة الأرقام أن الله واحد أحد وحدانية لا يشوبها أدنى احتمال للشراكة معه؛ وذلك من خلال نفيها للثلاثة والتثليث وإثباتها في الوقت نفسه أن الله واحد أحد صمد لم يلد ولم يولد، وليس واحدًا في ثلاثة أو ثلاثة في واحد، مع تحذير النصارى عن القول بالتثليث وتوعدهم على القول به.

(٦) أبانت الآية أن عيسى عليه السلام كلمة الله ألقاها إلى مريم، فما المقصود بأنه كلمة الله؟ أو كلمة منه؟

رابعا: وإليك بعض كلام العلماء في هذا المعنى:

١ـ قال الإمام أحمد ـ رحمه الله: " المعنى في قوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٩٣).

مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ (النساء: ١٧١). فالكلمة التي ألقاها إلى مريم: حين قال له كن، فكان عيسى بكن وليس عيسى هو كن، ولكن بكن كان. فالكن من الله قول، وليس الكن مخلوقًا. وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى. . . وقلنا نحن إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة "[1]

٢- قال أبو عبيد القاسم بن سلام: " وأما المسيح فالمراد أن الله خلقه بكلمة لا أنه هو الكلمة لقوله ﴿ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ ولم يقل ألقاه ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾.

٣- **قال شاذان بن يحيى:** " ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى "[2].

٤- **كما يقول ابن كثير** - في قوله تعالى -﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ "أي إنما هو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه قال له كن فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم، أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله عز وجل؛ ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان والروح التي أرسل بها جبريل "

كما يقول ابن كثير: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ (آل عمران: ٤٥). : " أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله أي يقول له كن فيكون وهذا تفسير قوله ﴿ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ كما ذكر الجمهور " ويقول ابن جرير: " قال آخرون:

---

(١) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل: « الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله » ويليه: كتاب السنة « صححه وعلق عليه إسماعيل الأنصاري، نشر وتوزيع: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ص (٤٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٩٠).

بل هي (أي قوله كلمة منه) اسم لعيسى سماه الله بها كما سمى سائر خلقه بما شاء من الأسماء ". ويروي بإسناده عن قتادة أنه قال: " قوله﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ قال: قوله﴿كُن﴾ فسماه الله ﷻكلمته؛ لأنه كان عن كلمته ". وقال أبو عبيد: " كلمته: كن فكان". وكلمة الله التي قيلت لعيسى في القرآن وسمي بها، هي مضافة إلى الله سبحانه وتعالى، وقد قسم ابن تيمية رحمه الله المضاف إلى الله تعالى إلى قسمين:

إضافة صفات، وإضافة أعيان: " فالصفات إذا أضيفت إليه تعالى، كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب ونحو ذلك؛ دلت الإضافة على أنها إضافة وصف له قائم به، ليست مخلوقة؛ لأن الصفة لا تقوم بنفسها، ولابد لها من موصوف تقوم به، فإذا أضيفت إليه، علم أنها صفة له، لكن قد يعبر باسم الصفة عن المفعول بها، فيسمى المقدور قدرة، والمخلوق بالكلمة كلامًا، والمعلوم علمًا، والمرحوم به رحمة". فعيسى عليه السلام ليس هو عين الكلمة، وإنما قيل له كلمة الله؛ لأنه خلق بالكلمة ولم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشئ ومخلوق عن الكلمة: كن.

فالأعيان التي خلقها الله قائمة بأنفسها، وصفاتها القائمة بها تمتنع أن تكون صفات لله، فإضافتها إليه تتضمن كونها مخلوقة مملوكة، لكن أضيفت لنوع من الاختصاص المقتضي للإضافة، لا لكونها صفة، والروح الذي هو جبريل من هذا الباب، كما أن الكعبة والناقة من هذا الباب، ومال الله من هذا الباب، وروح بنى آدم من هذا، وذلك كقوله ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، وقوله ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾، وقوله ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ وقوله ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾.[1]

خامسًا: أن الإضافة من حيث اللغة " نسبة بين اسمين ". ويشترط فيها أن " لا يضاف الاسم إلى مرادفه فلا يقال: ليث أسدٍ ". بينما يزعم النصارى أن: عيسى هو الكلمة، وأن الكلمة هي الله؛ مما يعني تبعا لذلك: أن اسم عيسى ولفظ الجلالة (الله)

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ١٥١) والجواب الصحيح (٢/ ١٥٨).

اسمان ومسميان مترادفان عند النصارى - والعياذ بالله - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، مما يبطل هذه الإضافة لغة وعقلًا؛ لأنها حينئذ - حسب اعتقاد النصارى - تصبح مكونة من اسمين مترادفين ولا تصح هذه الإضافة، إلا إذا كانت تدل على اسمين وذاتين، يختلف كل منهما عن الأخرى.

ثم من جهة أخرى؛ فإن هذا التركيب المكون من المضاف والمضاف إليه، يدل لغة على معنى يختلف عن المقصود بالمضاف إليه وحده فقط، أو بالمضاف فقط، فإذا قلنا: محمد رسول الله ﷺ؛ فإن المراد بالتركيب الإضافي في هذه الجملة - وهو قولنا (رسول الله) - المكون من المضاف (رسول) ومن المضاف إليه لفظ الجلالة (الله) هو رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ الإنسان المخلوق، أما المضاف إليه وحده؛ فإنه لفظ الجلالة اسم الله سبحانه وتعالى وشتان ما بين الرسول المخلوق، والمرسِل الخالق سبحانه وتعالى، فالمضاف إليه يدل على مسمى معين، والتركيب من المضاف والمضاف إليه يدل على مسمى آخر مختلف كليًّا عن ما يدل عليه المضاف إليه.

وهذا يعني من حيث اللغة أن: كلمة الله (المضافُ والمضاف إليه) التي قيلت لعيسى والتي هي اسم له عليه السلام ليست هي المضاف إليه هنا، وهو لفظ الجلالة (الله) فهذان اسمان يدلان على ذاتين مختلفتين: ذات عيسى المخلوقة التي تليق ببشريته، وذات الخالق - سبحانه وتعالى - التي تليق بجلاله وعظمته، وشتان ما بين ذات الخالق وذات المخلوق، فكل ما في الأمر أن (كلمة الله) قيلت لعيسى عليه السلام اسمًا له؛ لأنه مخلوق بالكلمة، كما مر، فادعاء النصارى أن الكلمة تجسدت وصارت عيسى أمر مكذوب على القرآن؛ لأنه يدل على أن عيسى بها صار ولم يكن هو الكلمة. فعيسى عليه السلام مخلوق وكلمة الله: كن ليست مخلوقة.

القسم الثاني وهو: ما يتعلق بكون عيسى عليه السلام روح من الله أو روح الله:

فالجواب عنه منه وجوه

الأول: ما معنى قوله تعالى (وَرُوحٌ مِنهُ)؟

١ـ يقول الإمام أحمد: وأما قوله تعالى﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ يقول من أمره كان الروح فيه

كقوله: ﴿لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ يقول من أمره، وتفسير روح الله إنما معناه أنها روح بكلمة الله خلقها كما يقال: عبد الله وسماء الله وأرض الله[1].

٢- ويقول ابن جرير: وأما قوله﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾؛ فإن أهل العلم اختلفوا في تأويله فقال بعضهم: معنى قوله " وروح منه " ونفخة منه لأنه حدث عن نفخة جبريل عليه السلام في درع مريم بأمر الله إياه بذلك، فنسب إلى أنه روح من الله لأنه بأمره كان.[2]

٣ـ **ويقول ابن كثير**: في تفسير قوله ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي عيسى (إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه قال له كن فكان ورسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم أي خلقه بالكلمة التي أُرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم، والجميع مخلوق لله عز وجل ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب يولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان والروح التي أرسل بها جبريل)

٤ـ **قال الرازي**: أما قوله ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ففيه وجوه:

الأول: أنه جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئًا بغاية الطهارة والنظافة قالوا: إنه روح، فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من نفخة جبريل عليه السلام لا جرم وصف بأنه روح، والمراد من قوله (مِنْه) التشريف والتفضيل كما يقال: هذه نعمة من الله، والمراد كون تلك النعمة كاملة شريفة.

الثاني: أنه كان سببًا لحياة الخلق في أديانهم، ومن كان كذلك وصف بأنه روح. قال تعالى في صفة القرآن﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى: ٥٢).

(١) الرد على الجهمية صـ(٤٣).

(٢) تفسير ابن جرير (٦ / ٣٥ - ٣٦).

الثالث: روح منه أي رحمة منه، قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (المجادلة: ٢٢) أي برحمة منه، وقال ﷺ: "إنما أنا رحمة مهداة " فلما كان عيسى رحمة من الله على الخلق من حيث أنه كان يرشدهم إلى مصالحهم في دينهم ودنياهم، لا جرم سمي روحًا منه.

الرابع: أن الروح هو النفخ في كلام العرب؛ فإن الروح والريح متقاربان، فالروح عبارة عن نفخة جبريل وقوله: (مِنْهُ) يعني أن ذلك النفخ من جبريل كان بأمر الله وإذنه فهو منه، وهذا كقوله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ (الأنبياء: ٩١).

الخامس: قوله (رُوحُ) أدخل التنكير في لفظ (رُوحُ) وذلك يفيد التعظيم، فكان المعنى: وروح من الأرواح الشريفة القدسية العالية، وقوله (مِنْهُ) إضافة لذلك الروح إلى نفسه لأجل التشريف والتعظيم. [1]

الثاني: أن (مِنْ) في قوله (وروح منه) لابتداء الغاية، وليست للتبعيض يقول ابن كثير: ((وليست (من) للتبعيض كما تقول النصارى، بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣). وقد قال مجاهد في قوله (وَرُوحٌ مِنْهُ) أي رسول منه، وقال غيره: ومحبة منه والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله))[2].

ويقول الشنقيطي: ولكن من هنا لابتداء الغاية، يعني: أن مبدأ ذلك الروح الذي ولد به عيسى حيًّا من الله تعالى؛ لأنه هو الذي أحياه به، ويدل لما ذكرنا ما روي عن أبي بن كعب أنه قال خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ عليهم الميثاق، ثم ردها إلى صلب آدم وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام فلما أراد خلقه أرسل ذلك الروح إلى مريم فكان منه عيسى عليه السلام"[3].

الثالث: ولو فرض أن (مِنْ) هنا للتبعيض لفسد المعنى نصرانيًا كما سبق بيانه في قوله

---

(١) تفسير الرازي سورة النساء آية (١٧١).

(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٥٩٠).

(٣) « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١ / ٤٩٤ – ٤٩٥).

تعالى﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ فلو قلنا على سبيل الفرض: وروح بعض منه باعتبار أن الروح هو عيسى عينه لكان المعنى فاسدًا من وجوه:

١- منها: أن عيسى يصبح جزءًا وبعضًا من الإله. والبعض ليس مساويًا للكل عقلًا، والنصارى يعتقدون أن المسيح (الابن) بزعمهم إله مساوٍ للأب في الجوهر وليس جزءًا منه بل يعتقدون أن الكلمة كما مر آنفًا - وهي عيسى - هي الله فعيسى ليس بعضًا من الله، سواء كان هو الروح أو هو الكلمة بحسب اعتقادهم. وهذا مبطل لكون (مِنْ) للتبعيض، فضلًا عما مر سابقًا من استخدام (مِنْ) لابتداء الغاية في كتبهم على نحو يمنع من خلال السياق أن تكون للتبعيض وهو ما يماثل ما ههنا.

وأما قوله تعالى (رُوحَنا) في مثل قوله (فَأَرْسَلْنا إِلَيْهَا رُوحَنا):

فيقول ابن كثير: " يعني جبريل ﷺ". وكذلك روح القدس في مثل قوله تعالى﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ (النحل: ١٠٢). . يذكر ابن كثير أنه جبريل.

ويقول ابن تيمية ": إن المضاف في الثاني (أي القسم الثاني) من أقسام المضاف إلى الله مملوك لله، مخلوق له، بائن عنه، لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى، كما خص ناقة صالح من بين النوق وكما خص بيته بمكة من بين البيوت، وكما خص عباده الصالحين من بين الخلق. ومن هذا الباب قوله تعالى﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ فإنه وصف هذا الروح بأنه تمثل لها بشرًا سويًا وأنها استعاذت بالله منه إن كان تقيًا، وأنه قال: إنما أنا رسول ربك. . . وهذا كله يدل على أنها عين قائمة بنفسها "[١].

كما يقول رحمه الله عن الموضوع نفسه " فأخبر هذا الروح الذي تمثل لها بشرًا سويًا أنه رسول ربها؛ فدل الكلام على أن هذا الروح عين قائمة بنفسها، ليست صفة لغيرها، وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله؛ ولهذا قال جماهير العلماء: إنه جبريل ﷺ فإن الله

---

(١) الجواب الصحيح (٢/ ١٥٦ - ١٥٧).

سماه الروح الأمين، وسماه روح القدس، وسماه جبريل"(١) وهذا يوضح أنه ليس لهم أدنى شبهة في هذا؛ إذ المقصود بالروح القدس (وروحنا): جبريل عليه السلام وليس المسيح، بل إن البعض جعل معنى الروح في قوله تعالى (وَرُوحٌ مِنْهُ) أيضًا جبريل عليه السلام، يقول ابن جرير " وقال آخرون معنى الروح ههنا: جبريل عليه السلام قالوا: ومعنى الكلام: وكلمته ألقاها إلى مريم وألقاها أيضًا إليها روح من الله قالوا: فالروح معطوف به على ما في قوله " ألقاها " من ذكر الله بمعنى أن إلقاء الكلمة إلى مريم كان من الله ثم من جبريل عليه السلام".

رابعًا: الروح أو الروح القدس أو روح الله عند النصارى، هو الأقنوم الثالث في ثالوثهم الوثني(٢)، وهذا مبطل لادعاء النصارى على القرآن فيما يتعلق بقوله وروح منه، أو روحنا من أساسه؛ لأن القرآن قال عن عيسى عليه السلام: إنه روح من الله سبحانه وتعالى أو سماه بذلك بينما المسيح عند النصارى هو الابن أو " الأقنوم الثاني " بزعمهم، وليس هو روح الله؛ لأن روح الله، أو الروح، أو الروح القدس عندهم ليس عيسى عليه السلام وإنما هو الأقنوم الثالث، ولكل أقنوم بحسب اعتقاداتهم وظائف وأعمال ومهمات لا يقوم بها الأقنوم الآخر فجعلهما أقنومًا واحدًا لا شك أنه مبطل للتثليث النصراني جملة وتفصيلًا

وقد جاء في الأناجيل ما يوضح أن عيسى عليه السلام كان يخرج الشياطين بروح الله، مما يعني أن عيسى شيء، والمقصود بروح الله شيء آخر؛ إذ ينسب إلى عيسى قوله " ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله " متى (١٢: ٢٨)، وفي نص آخر يقول: " وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس ومن قال كلمة على ابن الإنسان (أي عيسى عليه السلامبزعم النصارى) يغفر له وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي " متى (١٢: ١٣ - ٣٢)، وفي نص آخر " لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس " متى (١: ٢٠)، وفي غيره " فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا

(١) المرجع السابق (١ / ٢٤٠).

(٢) انظر: « القاموس الموجز للكتاب المقدس » (١ / ٣٠٤ - ٣٠٥).

السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلًا مثل حمامة وآتيا عليه" متى (٣: ١٦).

فروح الله أو الروح أو الروح القدس الواردة في النصوص السابقة لاشك أن المقصود بها غير عيسى، والمقصود بذلك عند النصارى: الأقنوم الثالث (الروح القدس). والذي هو غير عيسى؛ مما يبطل كل شبههم التي يحاولون من خلالها تأليه عيسى استنادًا إلى كتاب الله القرآن العظيم منطلقين من إنزال بعض معتقداتهم الفاسدة على قوله تعالى: (وَرُوحٌ مِنْهُ) أو " روحنا " ومخفين بعضًا.

ثالثا: معجزات عيسى ﷺ التي ذكرت في القرآن والتي استدلو بها على أن في القرآن ما يدل على ألوهية المسيح.

وبداية قد سبق الجواب عن شبهة الاستدلال بالمعجزات على الألوهية عمومًا وحسبنا هنا أن نشير إلى ما يدفع الاستدلال بالقرآن على هذا.

أولًا: إحياء الموتى: ذكر القرآن الكريم معجزات عدة لإحياء الموتى إنعامًا من الله على بعض رسله وإجابة لدعواتهم وتأييدًا لهم وتحديًا لأعدائهم من ذلك:

١ - أَخْذ إبراهيم ﷺللطيور الأربعة بأمر الله له بعد دعائه الله أن يريه كيف يحيى الموتى، وتمزيقه لهن وتفريقه لأجزائهن على كل جبل منهن جزءا، ثم دعوته لهن أن يأتينه، فأتينه سعيًا، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ (البقرة: ٢٦٠).

فهل حدوث هذه المعجزة على يد إبراهيم ﷺ الذي هو أب لعيسى - من خلال القرآن ومن خلال الأناجيل - مسوغ لاتخاذ إبراهيم إلهًا؟

٢ـ إلقاء موسى لعصاه الجماد التي لا روح فيها، ثم تحولها إلى ثعبان عظيم عند فرعون والملأ من قومه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾

(الأعراف: ١٠٤ - ١٠٧). وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ (الأعراف: ١١٧).

فهذه معجزة عظيمة أنعم الله بها على موسى عليه السلام إذ أحيا الله هذه القطعة الصغيرة من الخشب الجماد التي لا حياة فيها وجعلها حية عظيمة تسعى وتبتلع بفيها ما وضعه السحرة من عصي وحبال.. إلخ.

٣ـ إحياء الميت الذي قُتل في بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام بإذن الله بعد أمر الله لهم أن يضربوا الميت ببعض البقرة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (البقرة: ٧٢ - ٧٣).

فهؤلاء الذين ضربوا الميت ببعض لحم البقرة فقام حيًّا بإذن الله ليسوا من الرسل - على ما يظهر - وعلى الرغم من هذا حدثت على أيديهم هذه المعجزة بإذن الله فهل كان هذا مدعاة لتأليه أحد منهم؟ أو تأليه موسى عليه السلام؟ إن النصارى زعموا أن علة تأليه عيسى عليه السلام هي إحياؤه للموتى، ولو فرض أنها علة لتأليه أحد ما من البشر؛ لكان العقل موجبًا أن يؤله كل من اشترك في هذه العلة فقام بمثل هذه المعجزات، أو الأمور الخارقة للعادة. وقد شارك عيسى غيره في معجزة الإحياء كما مر آنفًا، مما يبطل ادعاء النصارى في تأليه عيسى عليه السلام لإحيائه الموتى على نحو عام.

ويبطل نسبة هذا التأليه إلى القرآن على نحو خاص؛ لأن القرآن أوضح أن كل ذلك بإذن الله وأن هناك من أنعم الله عليه بمثل معجزات عيسى عليه السلام **في إحياء الموتى، ولم يجعل ذلك منهم آلهة.**

ثانيًا: الإخبار بالغيب: أخبرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن العظيم عن بعض من أنعم عليهم: باطلاعهم - من لدنه - على بعض الغيوب من ذلك:

(أ) ما أنزل على سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ من الغيوب سواء في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، وهو شيء كثير لا يتسع المقام لذكره، مثل الإخبار عن الأقوام السابقين له صلوات الله وسلامه عليه، وعن رسلهم وما جرى لهم مع أقوامهم، ومثل الإخبار عن قصة سليمان والهدهد

وملكة سبأ إلى غير ذلك من أمور غيبية ماضية بل وأمور غيبية مستقبلية[١].

ولما كانت الدعوى (دعوى الألوهية وما يرتبط بها) مدعاة من النصارى والمنصرين على القرآن، ولأن بعض أهل الكتاب كما يقول ابن تيمية يقول " لا نصدق إلا بما في القرآن "[٢]. أي من معجزات الرسول ﷺ فإنه يحسن ذكر بعض ما أنزله الله سبحانه وتعالى على عبده ورسوله ﷺ في القرآن من الأخبار الغيبية، ولا سيما بعض ما يرتبط بعيسى عليه السلام وأمه مما انفرد به القرآن الكريم ومن ذلك:

إخباره عن أحوال الرسل الماضين، وإخباره عن أمور مستقبلة جاءت كما أخبر ﷺ.

ولا شك أن هذا من باب الجدل فقط، وعلى زعم محاولة إلزام المسلم من خلال مسلماته، فيما يعتقدون أنه حجة لهم مثل: معجزات عيسى عليه السلام أو غيرها وإليك ما يلي:

(١) أن مريم حملت بعيسى عليه السلام: ﴿فَأَنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ (مريم: ٢٢ - ٢٥).

(٢) أن عيسى عليه السلام تكلم في المهد و﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٠ - ٣٣).

(٣) أن عيسى عليه السلام خلق من الطين كهيئة الطير؛ فنفخ فيه فصار طيرًا بإذن الله.

(٤) أن عيسى عليه السلام كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

كل هذه الأخبار الغيبية لا يعلمها حتى النصارى أنفسهم وفق أناجيلهم الحالية، كما مر؛ فإنما أنزلها الله على يد عبده ورسوله ﷺ في القرآن.

---

(١) انظر رحمت الله الهندي « إظهار الحق » (٢ / ٨١) فما بعد، وعبد العزيز السلمان « من معجزات النبي ﷺ» ومحمود مهدي الإستانبولي « إعجاز القرآن العلمي » الطبعة الثانية، مكتبة السوادي للتوزيع، جدة.

(٢) ابن تيمية في الجواب الصحيح (٦ / ٦٨).

(ب) ما جاء في القرآن من إخبار نبي من أنبياء بني إسرائيل لهم عن آية ملك طالوت عليهم. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾ (البقرة: ٢٤٨) فهذا نبي من بني إسرائيل يخبرهم عن أمور غيبية مستقبلية، لم تحدث بعد آنذاك فما جعل ذلك منه إلهًا.

(ج) ما أعطاه الله سبحانه وتعالى - للخضر من العلم الغيبي الذي لم يُعطَه رسول من أولي العزم من الرسل وهو موسى صلوات الله وسلامه عليهم؛ فإن الخضر خرق سفينة المساكين الذين يعملون في البحر حفاظًا عليها؛ لأن الله أعلمه أن وراءهم ملكًا يأخذ كل سفينة غصبًا، وقتل الغلام خشية أن يرهق أبويه طغيانًا وكفرًا، وأقام الجدار الذي كان يريد أن ينقض؛ إذ كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة منه، كل ذلك من الإنباء بالغيب الذي منحه الله تعالى للخضر مما لم أطلع على أن عيسى عليه السلام أعطي مثله لا في القرآن ولا في الأناجيل.

هذا فيما يتعلق بمعجزات مشابهة لمعجزات عيسى من خلال القرآن.

وأما عن المعجزات المشابهة من خلال التوراة والأناجيل فقد سبق بيانها بحمد الله تعالى، ولكن نشير هنا فقط إلى أن معجزات المسيح عليه السلام التي وردت في الأناجيل إنما هي - بنص الأناجيل - بإذن الله تعالى يدل على ذلك من الأناجيل ما يلي:

(١) قوله: " **فَرَفَعُوا الْحَجَرَ حَيْثُ كَانَ الْمَيْتُ مَوْضُوعًا، وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ، وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، ٤٢وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ، لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي». ٤٣وَلَمَّا قَالَ هذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «لِعَازَرُ، هَلُمَّ خَارِجًا!» فَخَرَجَ الْمَيْتُ.** " (يوحنا (١١: ٤١ - ٤٣) فانظر كيف رفع عيسى بصره إلى السماء ودعا الله ومجده، وأوضح النص أن هذه المعجزة إنما هي من أجل أن يُصدقوا به رسولًا من عند الله، وقد استجاب الله دعاءه فخرج الميت حيًّا بإذن الله.

(٢) قوله " فأجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئًا إلا ما ينظر الآب " (يوحنا (٥: ١٩)، وينسب إلى عيسى عليه السلام أنه قال: " والآن علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك " (يوحنا (١٧: ٧)، فكل ما أوتيه المسيح عليه السلام من إحياء للموتى، ومن إنباء بالغيب إلى غير ذلك من معجزات إنما هو بنص أقوال المسيح عليه السلام من عند الله وبإذن الله سبحانه وتعالى، وهذا مثبت أنه ليس له من الأمر شيء، ومبطل لدعوى ألوهية المسيح من خلال الأناجيل كما بطلت هذه الدعوى قبل من خلال القرآن.

(٣) جاء في نص آخر: " فقالت مرثا ليسوع: يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخي لكن الآن أعلم أن كل ما تطلبه من الله يعطيك إياه " (يوحنا (١١: ٢١ - ٢٢).

فهذه المرأة تعلم أن الأمر ليس بيده، وإنما إذا دعا الله أعطاه الله سؤله، فإحياء الموتى الذي حدث على يد المسيح، إنما هو بإذن الله سبحانه وتعالى.

(٤) وفي نص آخر: " أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجل، قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم تعلمون " (أعمال الرسل (٢: ٢٢)، وانظر: أعمال الرسل (١٠: ٣٨)، فالأمر بدهي عند المؤمنين بعيسى آنذاك من بني إسرائيل: أن المعجزات التي جاء بها إنما أوجدها وصنعها الله، وليس عيسى عليه السلام وإنما حصلت على يد عيسى فهي من (قبل الله) أو من عند الله وبإذن الله، وأوجدها الله سبحانه وتعالى وما عيسى إلا (رجل) أو عبد من عبيد الله، ورسول من رسله، ثبت صدقه بما أنزله الله على يديه من المعجزات (القوات والعجائب).

ولذا على الرغم من إحياء عيسى للموتى بإذن الله، لم يجعل ذلك منه عند الجموع التي قام بالمعجزات في وسطها إلا أنه نبي فقط فلم يتجاوزوا به طور البشرية.

جاء في الأناجيل " فقال (أي عيسى) أيها الشاب لك أقول قم؛ فجلس الميت وابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمه؛ فأخذ الجمع خوف ومجدوا الله قائلين قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه " (لوقا (٧: ١٤ - ١٦).

وفي النص الذي قبل هذا قالوا عن عيسى إنه (رجل تبرهن لكم من قبل الله)، ولم يقولوا: إله، أو ابن إله. وهذا مما يوضح حقيقة عيسى، وأنه عند بني إسرائيل الذين أرسل إليهم وآمنوا به، إنما هو رسول نبي وعبد من عباد الله؛ لأن المعجزات التي جاء بها، إنما كانت بإذن الله سبحانه وتعالى، ومن عنده وليست من عند المسيح ابتداءً.

وقد جاء في الأناجيل أن عيسى قال للحواريين " اشفوا مرضى طهروا برصًا أقيموا موتى أخرجوا شياطين مجانا " (متى (١٠ : ٨). وهذا دليل على أن إحياء الموتى، ليس علة ولا مبررًا لتأليه أحد من البشر؛ مما يسقط دعوى النصارى في ألوهية عيسى؛ استنادًا إلى إحيائه للموتى، فعلى فرض صحة هذا النص وافتراض تحققه من قبل الحواريين، يوضح بجلاء أن إحياءهم للموتى لم ولن يجعل منهم آلهة، وليس هذا مسوغًا لتأليه أحد من البشر؛ فإن زعم النصارى أن ذلك بسلطة أو بإذن من الله سبحانه وتعالى؛ فإن هذا الكلام هو عين الرد عليهم في حالة إحياء عيسى للموتى؛ إذ أحيا عيسى الموتى بإذن الله، كما أوضحت ذلك آيات القرآن ونصوص الأناجيل الآنفة الذكر.

* * *

٢ـ شبهة: ثناء القرآن والسنة على التوراة والإنجيل

نص الشبهة:

جاء في القرآن والسنة النبوية ما يشير إلى تصديق القرآن للتوراة والإنجيل، والحديث عنهما والثناء عليهما وعلى موسى وعيسى عليهما السلام، والحديث عن بني إسرائيل، مثل قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾، وغير ذلك من الآيات.

ويحتجون بأن النبيﷺ أمسك التوراة في يده وقال: آمنت بك وبمن أنزلك.

فأخذوا من ذلك أن الكتاب الذي بأيديهم هو الذي أثنى عليه القرآن والسنة، وأنه لم يصبه زيف ولا تحريف، وإذا كان هذا الكتاب أثنى عليه القرآن والسنة، فلماذا هذا الاضطهاد؟

والجواب عن هذه الشبهة في مبحثين:

المبحث الأول: الرد الإجمالي على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الإيمان بجميع الرسل والكتب المنزلة عليهم هي عقيدة المسلمين.

الوجه الثاني: الثناء والمدح كان للكتاب الذي نزل على موسى و عيسى.

الوجه الثالث: مدح التوراة والإنجيل لا يعني مدح اليهود والنصارى.

الوجه الرابع: القرآن ناسخ للكتب السابقة، وشريعة النبي ﷺ ناسخة لجميع الشرائع؛ فوجب العمل بما في القرآن وبشريعة النبي ﷺ.

الوجه الخامس: هذا الثناء لا ينافي وجوب اتباع محمد ﷺ.

الوجه السادس: القرآن بيّن أنهم خالفوا أحكام التوراة.

الوجه السابع: ذم أهل الكتاب لا يقدح في أنبيائهم.

المبحث الثاني: الرد التفصيلي على بعض الشبهات التي أثارها أهل الكتاب في إثبات صدق كتابهم من خلال ثناء القرآن على التوراة والإنجيل، وهي:

الشبهة الأولى: قالوا: إننا نجد في (القرآن الكريم) آيات تشهد بصدق التوراة والإنجيل -كما هما اليوم- وتؤكد أن الكتابين لم يحرفا.

الشبهة الثانية: قالوا: بأن القرآن أثنى على أهل الكتاب.

الشبهة الثالثة: قالوا: إن القرآن رفع قدرنا وأعلى منزلتنا، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ (آل عمران: ٥٥).

الشبهة الرابعة: يقولون: بأن النبي ﷺ أثنى على كتابنا، وفي هذا دليل على أنها لم تحرف.

الشبهة الخامسة: يقولون: بأن القرآن يعظمنا بتقديم البيع والكنائس، على المساجد.

الشبهة السادسة: يقولون: بأننا وجدنا في القرآن تعظيم المسيح وأمه.

الشبة السابعة: يقولون: إن القرآن لما جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتب فثبت بهذا ما معنا، ونفى عن كتبنا التي في أيدينا التهم والتبديل والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

الشبهة الثامنة: يقولون: بأن القرآن شهد لهم أنهم أنصار الله.

الشبهة التاسعة: الرد على تأويلهم لقول الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾.

المبحث الثالث: وماذا عن البشارات التي توجد في الكتاب المقدس بنبوة رسول الإسلام محمدﷺ.

واليك التفصيل

المبحث الأول: الرد الإجمالي على هذه الشبهة

الوجه الأول: الإيمان بجميع الرسل والكتب المنزلة عليهم هي عقيدة المسلمين.

قال ابن تيمية: وقد أوجب الله على عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله، وحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض فقال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ (البقرة: ١٣٦، ١٣٧).

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ (النساء: ١٥٠-١٥٢)، فذم المفرق بينهم بأن يؤمن ببعض دون بعض وبين أنه فضل بعضهم على بعض فقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، فبين أنه فضل بعضهم على بعض، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (الإسراء: ٥٥).

وقد اتفق المسلمون على ما هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وبجميع ما أنزله الله من الكتب، فمن كفر بنبي واحد تعلم نبوته مثل إبراهيم، ولوط، وموسى، وداود، وسليمان، ويونس، وعيسى، فهو كافر عند جميع المسلمين حكمه حكم الكفار، وإن كان مرتدًا استتيب فإن تاب وإلا قتل، ومن سب نبيًا واحدًا من الأنبياء قتل أيضًا باتفاق المسلمين، وما علم المسلمون أن نبيًا من الأنبياء أخبر به فعليهم التصديق به كما يصدقون بما أخبر به محمد ﷺ وهم يعلمون أن أخبار الأنبياء لا تتناقض ولا تختلف، وما لم يعلموا أن النبي ﷺ أخبر به فهو كما لم يعلموا أن محمدًا أخبر به صلى الله عليهم أجمعين ولكن لا يكذبون إلا بما علموا أنه كذب، كما لا يجوز أن يصدقوا إلا بما علموا أنه صدق، وما لم يعلموا أنه كذب ولا صدق لم يصدقوا به ولم يكذبوا به كما أمرهم نبيهم محمد ﷺ وبهذا أمرهم.

وكان دينه الذي ارتضاه الله لنفسه هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، ولا يقبل من أحد دينًا غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو دين الأنبياء وأتباعهم كما أخبر الله تعالى بذلك عن نوح ومن بعده إلى الحواريين، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

(يونس: ٧١، ٧٢)، وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٠-١٣٢)، وقال تعالى عن يوسف الصديق: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (يوسف: ١٠١)، وقال تعالى عن موسى أنه قال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (يونس: ٨٤).

وأخبر تعالى عن السحرة أنهم قالوا لفرعون: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٦)، وقال تعالى عن بلقيس ملكة اليمن: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (النمل: ٤٤)، وقال تعالى عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ (المائدة: ٤٤)، وقال تعالى عن المسيح: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (آل عمران: ٥٢: ٥٣). وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (المائدة: ١١١).

فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم، هو دين الإسلام وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وعبادته تعالى في كل زمان ومكان بطاعة رسله عليهم السلام، فلا يكون عابدا له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله كالذين قال فيهم: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (الشورى: ٢١).

فلا يكون مؤمنًا به إلا من عبده بطاعة رسله، ولا يكون مؤمنا به ولا عابدا له إلا من آمن بجميع رسله، وأطاع من أرسل إليه فيطاع كل رسول إلى أن يأتي الذي بعده فتكون الطاعة للرسول الثاني، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ٦٤).

ومن فرق بين رسله فآمن ببعض وكفر ببعض كان كافرا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ (النساء: ١٥٠-١٥٢).[1]

الوجه الثاني: الثناء والمدح كان للكتاب الذي نزل على موسى و عيسى.

أولًا: توراة موسى عليه السلام أم التوراة المحرفة؟

يُقصد بتوراة موسى ذلك الكتاب الذي أوحاه الله إلى عبده موسى، والذي قرأه على بني إسرائيل في حياته، وحكم به وأخوه هارون فيهم، ثم تركه بينهم وانتقل إلى رحمة الله، يقول الله في القرآن عن توراة موسى الأصلية هذه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (المائدة: ٤٤).

أ- ولقد كان في توراة موسى: لا إله إلا الله، الإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، مخاطبة الناس -غير الإسرائيليين- بالحسنى وعدم الاستكبار.

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٩٩.

فهذا ما يقوله القرآن: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (البقرة: ٨٣).

١- لكن التوراة المحرفة[١] -باعتراف علمائها - والتي يتداولها الناس منذ قرون عديدة، وتجمع بين دفتيها هذا وذاك، ونسميها (توراة اليهود)، نجدها تقر عبادة الشيطان، "و قال الرب لموسى كلم هارون أخاك. . . يأخذ تيسين من المعز لذبيحة خطية. . . ويأخذ التيسين ويوقفهما أمام الرب. . . و يلقي هارون على التيسين قرعتين قرعة للرب و قرعة لعزازيل. . . و يقرب هارون التيس الذي خرجت عليه القرعة للرب و يعمله ذبيحة خطية. . . وأما التيس الذي خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقف حيا أمام الرب ليكفر عنه ليرسله إلى عزازيل إلى البرية"(سفر اللاويين١٦/ ٢: ١٠).

ويقول علماء الترجمة الفرنسية المسكونية تعليقًا على هذه الفقرة(يبدو أن عزازيل – بحسب الترجمة السريانية – هو اسم شيطان كان العبرانيون والكنعانيون القدامى يعتقدون أنه يسكن البرية، والبرية أرض عقيمة لا يمارس فيها الله عمله المخصب).

سبحان الله، هل البرية أو الصحراء بعيدة عن سلطان الله؟ ، وحتى ولو لم يكن عزازيل شيطانًا؛ بل كان ملكًا أو كبير الملائكة، فإن اختصاصه بتقديم قربان إنما يعني عبادته. . . يعني الشرك بالله.

٢- كذلك تقر توراة اليهود، الناس من غير بني إسرائيل على عبادتهم الأجرام السماوية باعتبار ذلك قدرًا إلهيًا قسمه الرب لتلك الشعوب، بينما يتفرد الإسرائيليون بعبادة الله فلا يشاركهم فيه أحد: "لئلا ترفع عينيك إلى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم كل جند السماء التي قسمها الرب إلهك لجميع الشعوب التي تحت كل السماء فتغتر و تسجد لها و تعبدها" (تثنية٤: ١٩).

---

(١) انظر: شبهة تحريف الكتاب المقدس.

٣- كذلك تقر توراة اليهود استعباد غير الإسرائيليين ليكونوا عبيدًا لبني إسرائيل أبد الدهر: "وإذا افتقر أخوك عندك و بيع لك فلا تستعبده استعباد عبد. كأجير نزيل يكون عندك إلى سنة اليوبيل يخدم عندك. ثم يخرج من عندك هو و بنوه معه و يعود إلى عشيرته. . . وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم منهم تقتنون عبيدا وإماء. وأيضًا من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون، ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكا لكم. وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك تستعبدونهم إلى الدهر"(لاويين٢٥/ ٣٩: ٤٦).

٤- كذلك تفرض توراة اليهود على بني إسرائيل أن يقرضوا غيرهم بربا، بينما تحرم ذلك عندما يكون المقترض من الإسرائيليين: "لا تقرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يقرض بربا. للأجنبي تقرض بربا و لكن لأخيك لا تقرض بربا لكي يباركك الرب إلهك في كل ما تمتد إليه يدك"(تثنية٢٣/ ١٩: ٢٠).

ب – ولقد كان في توراة موسى نبوءات صريحة عن خاتم النبيين الذي يبعثه الله رسولًا إلى العالمين من غير بني إسرائيل؛ بل ومن أبناء إسماعيل بن إبراهيم على وجه التحديد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ (البقرة: ١٤٦)، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الأنعام: ٢٠)، ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ (البقرة: ٨٩: ٩٠).

قال ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

ولا يزال في توراة اليهود بقايا من بشارات خاتم النبيين مثل قول الرب لموسى: "أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك و أجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به.

ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه (انتقم منه)"(تثنية١٨/ ١٨: ١٩).

القرآن يقرر إذن أن توراة موسى، أي التوراة الأصلية هي هدى ونور، وهذا حق لا مرية فيه، وأما توراة اليهود فهي توراة محرفة، فلا شك في ذلك على الإطلاق.

فكيف يثني القرآن على توراة حرفها أهلوها؟. [1]

ثانيًا: إنجيل عيسى عليه السلام أم الإنجيل المحرف؟

يقصد بإنجيل المسيح ذلك الكتاب الذي أوحاه الله إلى عبده المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام والذي ألقاه مواعظ وحكمًا على حوارييه، ومن سار خلفه من بني إسرائيل، وأكد فيه على التزامه بتوراة موسى أولًا وأخيرًا، يقول الله في القرآن عن إنجيل المسيح الحق: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (المائدة ٤٦: ٤٧).

أ- ولقد كان مما في إنجيل المسيح: المسيح عبد الله ورسوله إلى بني إسرائيل، التخفيف على الإسرائيليين من شدة الشريعة، والتخفيف على المرضى والضعفاء، صنع المعجزات بإذن الله، والتنبؤ بالغيب القريب الذي يمكن التحقق من صدقه ليكون دليلًا على صدق تنبؤ المسيح بالغيب البعيد، فالقرآن قال في شأن المسيح وإنجيله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم٢٧: ٣١).

---

(١) القرآن لا يشهد لتوراة اليهود (٤٣: ٣٧) بتصرف، وانظر: حديث القرآن عن التوراة (١٥٦: ١٦٦).

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران ٤٩: ٥١).

لكن الأناجيل. . . لا، بل مجموعة الأناجيل التي يتداولها الناس الآن قد حُرفت نصوصها مما دفع علماء المسيحية إلى تقرير الحقيقة الخطيرة الآتية: "القارئ في عصرنا وهو حريص على الدّقة، لا ينفكّ يبحث عن الأحداث التي تم إثباتها والتحقّق منها، يقع في حيرة أمام تلك المؤلفات التي تبدو له مفكّكة يخلو تصميمها من التنسيق، ويستحيل التغلب على تناقضاتها، ولا يُمكنها أن تردّ على الأسئلة التي تُطرح عليها. . . لقد جمع الإنجيليون ودونوا وفقًا لنظراتهم الخاصة ما أتاهم من التقاليد الشفوية".

١- فهذه الأناجيل التي نسميها (أناجيل النصارى)أو (أناجيل المسيحيين) جعلت المسيح ابنًا لله، فها هو كاتب إنجيل مرقس يبدأ بقوله: "بدأ إنجيل يسوع المسيح ابن الله"(مرقس١ : ١).

ويقول كاتب إنجيل يوحنا: "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد"(يوحنا٣: ١٦)، "و آيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب. و أما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله" (يوحنا ٢٠ / ٣٠: ٣١).

وذلك على الرغم مما هو باق في سفر أعمال الرسل إلى اليوم من شهادة تلاميذ المسيح أنه عبد الله تمامًا كما كان داود عبدًا لله: " رفعوا أصواتهم إلى الله بقلب واحد فقالوا: ياسيد أنت صنعت السماء والأرض والبحر وكل شئ فيها، أنت قلت على لسان أبينا داود عبدك بوحي الروح القدس، تحالف حقًا في هذه المدينة هيرودس وبنطيوس بيلاطس والوثنيون وشعوب إسرائيل على عبدك القدوس الذي مسحته" (أعمال الرسل٤ / ٢٧: ٢٥).

ولقد اختارت ترجمة البرتستانت العربية كلمة (فتى) بدلًا من (عبد) كنوع من التشويش على فكر القارئ العادي، وإن كان ذلك لا يغير من حقيقة الأمر شيئًا، فالمسيح في عقيدة تلاميذه المقربين هو عبد الله ورسوله.

٢- بل إن إنجيل يوحنا كان هو الوحيد بين الأناجيل الذي تحدث عن حلول الإله في المسيح فقال: "لكن الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال" (يوحنا١٤: ١٠).

إن عقيدة حلول الإله في الإنسان هي من العقائد الوثنية القديمة، فقد كانت معروفة لدى الهنود والمصريين واليونان وغيرهم؛ بل إن قدماء المصريين توسعوا فيها حتى جعلوا روح الإله تحل في الحيوان، فكان ذلك مدعاة لعبادة الحيوان، بزعمهم.

٣- وحسبما يقول القرآن جاء المسيح ليخفف عن بني إسرائيل بعض قيود الشريعة، لكن هذه الأناجيل تجعل المسيح يشدد عليهم في أمور تتصل بحياتهم المعتادة مما يوقعهم في العنت أو الخطيئة، إن توراة موسى تسمح بالطلاق وتعدد الزوجات بلا حدود لكن المسيح شدد في موضوع الطلاق وجعله أقرب إلى المستحيلات مما تسبب عنه-إلى اليوم- مآسي وخطايا وانفلات اجتماعي.

يقول إنجيل النصارى على لسان المسيح: "قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن. و أما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها و ألقها عنك؛ لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك و لا يلقى جسدك كله في جهنم. و قيل: من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق. و أما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزني و من يتزوج مطلقة فإنه يزني"(متى٥/ ٢٧: ٣٢).

ويذكر هذا الإنجيل قول المسيح في بدء رسالته"لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لانقض بل لأكمل"(متى٥: ١٧)، ولما كان الناموس يسمح بالطلاق بلا قيود، فإن علماء المسيحية يقولون: إن هذا يعتبر أكبر نقض صريح للناموس.

٤- ولم يذكر أي من الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى المسيحيين شيئًا عن معجزات المسيح في طفولته مثل التي ذكرها القرآن، ولقد وجدت هذه المعجزات في كتب مسيحية أخرى نشرت تحت اسم (الكتب المفقودة) وقد جاء فيها" عندما كان الرب يسوع في السابعة من عمره، كان يلعب مع بعض رفاقه الذين نحو سنة. . . وقد صنع أشكالًا من الطيور والعصافير، وعندما أمرها بالطيران فإنها طارت، وعندما أمرها بالتوقف فإنها توقفت ".

٥- بل إن أناجيل النصارى هذه تنسب للمسيح تنبؤات باطلة، من أخطرها أن نهاية العالم وانهيار النظام الكوني سوف تحدث قبل نهاية القرن الميلادي الذي عاش فيه المسيح وتلاميذه: " وفيما هو جالس على جبل الزيتون تقدم إليه التلاميذ على انفراد قائلين قل لنا متى يكون هذا و ما هي علامة مجيئك و انقضاء الدهر؟ فأجاب يسوع. . . للوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس و القمر لا يعطي ضوءه و النجوم تسقط من السماء و قوات السماوات تتزعزع وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء. . . و يبصرون ابن الإنسان آتيا على سحاب السماء بقوة و مجد كثير. . . الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله" (متى٢٤/ ٣٠: ٣٤).

نهاية العالم-حسب هذه النبوءة- تحدث قبل أن يهلك الجيل الذي عاصر المسيح، ولقد هلكت عشرات الأجيال بعد المسيح ولا يزال النظام الكوني قائمًا ولا تزال الحياة مستمرة.

ب – ولقد كان في إنجيل المسيح الحق نبوءات صريحة عن خاتم النبيين الذي يبعثه الله مباشرة بعد المسيح: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦)﴾ (الصف: ٦).

ولا تزال إلى الآن بقية من هذه النبوءات مثلما نجده في إنجيل يوحنا، فعندما ظهر يوحنا المعمدان(يحيى بن زكريا) كان اليهود يعلمون يقينًا من نبوءات كتبهم أنه لا يزال هناك في عالم الأنبياء ثلاثة لم يظهروا بعد، ولذلك أرسلوا يسألونه: "و هذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة و لاويين ليسألوه من أنت؟ فاعترف و لم ينكر و أقر: إني لست أنا

المسيح. فسألوه إذًا ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال: لست أنا، أنبي أنت؟ فأجاب لا. فقالوا له: ماذا تقول عن نفسك؟ قال: أنا صوت صارخ في البرية. . . فسألوه و قالوا له: فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح و لا إيليا و لا النبي؟ " (يوحنا ١/ ٢٥: ١٩).

من الواضح تمامًا أن لكل واحد من الثلاثة الذين كان ينتظرهم اليهود اسمًا يُعرف به، وأن أسمائهم وترتيب ظهورهم هكذا: إيليا ثم المسيح ثم النبي، وأن ذلك النبي المرتقب يأتي بعد المسيح، ولما كان اليهود قد اشتهروا بظهور الأنبياء فيهم، فإن تسمية هذا المرتقب الأخير باسم (النبي) يعني ولا شك أنه نبي، ولكنه ليس ككل الأنبياء، إنه نبي أمره جلل وشأنه عظيم، إنه نبي الزمان.

وحتى بعد ظهور المسيح، استمر اليهود يخلطون بينه وبين النبي المرتقب، فقد حدث " في اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع و نادى قائلًا إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب. . . فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقيقة هو النبي. وآخرون قالوا هذا هو المسيح. . . فحدث انشقاق في الجمع لسببه"(يوحنا٧/ ٢٤: ٣٤).

النبي المرتقب إذن يأتي بعد المسيح، هذا حق لا مرية فيه، ولم يأت بعد المسيح إلا محمد رسول الله إلى العالمين، هذا ولقد بين المسيح أن إيليا المنتظر الأول من أولئك الثلاثة قد جاء في شخص يوحنا المعمدان، فقد "ابتدأ يسوع يقول للجموع عن يوحنا: ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا؟ أنبيًّا؟ نعم أقول لكم و أفضل من نبي. . . إن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي" (متى١١/ ١٤: ٧).

ومرة أخرى"سأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتبة: إن إيليا ينبغي أن يأتي أولًا(قبل المسيح)، فأجاب يسوع و قال لهم: إن إيليا قد جاء و لم يعرفوه؛ بل عملوا به كل ما أرادوا(أي قتلوه). . . حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان" (متى١٧/ ١٠: ١٣).

لقد ظهر النبي إيليا(إلياس) في بني إسرائيل في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، وانتهت حياته برفعه إلى السماء حيًا، وكأنها تمهيد لرفع المسيح حيًا إلى السماء دون أن يذوق

الموت في تراب الأرض، ولقد كانت البشارة للنبي زكريا أنه سيُرزق بابن اسمه يحيى(يوحنا) يتقدم في بني إسرائيل بروح إيليا: "وخمرًا ومسكرًا لا يشرب ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس. . . ويتقدم أمامه بروح إيليا" (لوقا١/ ١٣: ١٧).

لقد جاء يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) تقوده روح إيليا النبي الذي ظهر قبله بقرون، ومن هنا قال المسيح عن يحيى هذا"إن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي".

القرآن يقرر أن إنجيل المسيح، أي الإنجيل الأصلي هو هدى ونور، وهذا حق لا مرية فيه، أما أناجيل النصارى، فلم يعد هناك شك بين علمائها، وأنها تعرضت للتحريف عبر القرون؛ بل ولا تزال تُحرف حتى وقتنا هذا. [1]

ونحن نطلب الآن من كل الطوائف النصرانية أن يظهروا لنا إنجيل عيسى الذي كان يكرز به بين الناس، فالذي بين أيدينا هي أناجيل بعض التلاميذ وتلاميذ التلاميذ، فالقرآن أثنى على إنجيل عيسى وأنتم تفتقدونه اليوم، فبأي وجه تعترضون؟.

الوجه الثالث: مدح التوراة والإنجيل لا يعني مدح اليهود والنصارى.

فقد مدح الله التوراة (توراة موسى ﷺ)، والإنجيل (إنجيل عيسى ﷺ)، ومع ذلك فقد بين صفات اليهود والنصارى (أهل الكتاب) من الغدر والكذب والخيانة، وقد حكم الله عليهم بالكفر لما فعلوه أو قالوه عن الله وبين أنهم من أصحاب النار بهذه الأفعال وغيرها.

قال ابن تيمية: وإذا كان ما ذكره من مدح موسى والتوراة لم يوجب ذلك مدح اليهود الذين كذبوا المسيح ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم تسليمًا، وليس فيه ثناء على دين اليهود المبدل المنسوخ باتفاق المسلمين والنصارى، فكذلك أيضًا ما ذكره من مدح المسيح والإنجيل، ليس فيه مدح النصارى الذين كذبوا محمدًا ﷺوبدلوا أحكام التوراة والإنجيل، واتبعوا المبدل المنسوخ، واليهود توافق المسلمين على أنه ليس فيها ذكر مدح للنصارى، والنصارى توافق المسلمين على أنه ليس فيها ذكر مدح لليهود بعد النسخ والتبديل. فعلم

---

(١) القرآن لا يشهد لتوراة اليهود (٤٤: ٥٥)، وانظر مبحث التحريف في هذه الموسوعة.

اتفاق أهل الملل كلها المسلمون واليهود والنصارى على أنه ليس فيما ذكر في القرآن من ذكر التوراة، والإنجيل، وموسى، وعيسى مدح لأهل الكتاب الذين كذبوا محمداﷺ، ولا مدح لدينهم المبدل قبل مبعثه، فليس في ذلك مدح لمن تمسك بدين مبدل، ولا بدين منسوخ، فكيف بمن تمسك بدين مبدل منسوخ؟. (١)

الوجه الرابع: القرآن ناسخ للكتب السابقة، وشريعة النبي ﷺ ناسخة لجميع الشرائع فوجب العمل بما في القرآن وبشريعة النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ (آل عمران: ٨١-٨٣)

قال ابن تيمية: فقد بين أن من اتخذ الملائكة، والنبيين أربابًا فهو كافر، فمن اتخذ من دونهم أربابًا كان أولى بالكفر، وقد ذكر أن النصارى اتخذوا من هو دونهم أربابًا بقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ (التوبة: ٣١).

ثم قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٨١).

قال ابن عباس وغيره من السلف: ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٧٠.

ليؤمنن به ولينصرنه، والآية تدل على ما قالوا فإن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يتناول جميع النبيين ثم قال: وقوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ هي ما الشرطية والتقدير: أي شيء أعطيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، ولا تكتفوا بما عندكم عما جاء به، ولا يحملنكم ما آتيتكم من كتاب وحكمة على أن تتركوا متابعته؛ بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه وإن كان معكم من قبله من كتاب وحكمة فلا تستغنوا بما آتيتكم عما جاء به، فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله.

فدل ذلك على أنه من أدرك محمدًا من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره كما قال: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾، وقد أقر الأنبياء بهذا الميثاق وشهد الله عليهم به كما قال تعالى: ﴿ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (آل عمران: ٨٢).[(١)]

قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لَمَهْمَا آتى الله أحدَهم من كتاب وحكمة، وبلغ أيّ مبلَغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمنَنَّ به ولينصرَنَّه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته؛ ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي: لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾.

قال علي بن أبي طالب، وابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بَعَث محمدًا وهو حَيّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمَرَه أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه.

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ١٩٩: ٢٠٠.

فالرسول محمد ﷺ خاتم الأنبياء دائمًا إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدَّم على الأنبياء كلهم؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في يوم الحشر في إتيان الرب لِفَصْل القضاء، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهي النوبة إليه، فيكونَ هو المخصوص به. (١)

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ " والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يهوديٌّ وَلاَ نصرانيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ". (٢)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَكِتَابُكُمُ الذي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَحْدَثُ الأَخْبَارِ بِالله، تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمُ الله أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ الله وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ، فَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ الله، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَفَلاَ يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ؟ وَلاَ وَالله مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الذي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ. (٣)

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ " لاَ تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شيء، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ أَوْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ؛ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلاَّ أَنْ يتبعني ". (٤)

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٠: ١٠١ مختصرًا.

(٢) مسلم (١٥٣).

(٣) البخاري (٢٦٨٥).

(٤) حسن. أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٦٤٢١)، ومن طريقه ابن أبي عاصم في السنة (٥٠)، وأخرجه الدار مي في السنن (٤٣٥)، وأحمد في المسند٣: ٣٨٧، والبزار في كشف الأستار (١٢٤)، البيهقي في الشعب (١٧٩) من طرق عن مُجَالِدٍ عَنْ عَامِرٍ الشَّعْبِيِّ عَنْ جَابِرٍ به.

قال الألباني: وهذا سند فيه ضعف من أجل مجالد وهو ابن سعيد الهمداني قال الحافظ في " التقريب ": " ليس بالقوي وقد تغير في آخر عمره ".

الوجه الخامس: هذا الثناء لا ينافي وجوب اتباع محمد ﷺ.

قال ابن تيمية: وأما ثناء الله ورسوله على المسيح وأمه وعلى من اتبعه وكان على دينه الذي لم يبدل فهذا حق، وهو لا ينافي وجوب اتباع محمد ﷺ على من بعث إليه، فلو قدر أن شريعة المسيح لم تبدل، وأن محمدًا أثنى على كل من اتبعها وقال مع ذلك: إن الله أرسلني إليكم؛ لم يكن ذلك متناقضا وإذا كفر من لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذبوه، فكيف وهو إنما مدح من اتبع دينا لم يبدل؟ وأما الذين بدلوا دين المسيح فلم يمدحهم؛ بل ذمهم كما قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ (المائدة: ١٤).

وقد قدمنا أن النصارى كفروا كما كفرت اليهود، كفروا بتبديلهم ما في الكتاب الأول، وكفروا بتكذيبهم بالكتاب الثاني، وأما من لم يبدل الكتاب أو أدرك محمدًا فآمن به فهؤلاء مؤمنون، ومما يبين ذلك أن تعظيم المسيح للتوراة واتباعه لها وعمله بشرائعها أعظم من تعظيم محمد للإنجيل، ومع هذا فلم يكن ذلك مسقطًا عن اليهود وجوب اتباعهم للمسيح، فكيف يكون تعظيم محمد للإنجيل مسقطًا عن النصارى وجوب اتباعه؟ (١)

الوجه السادس: القرآن بيّن أنهم خالفوا أحكام التوراة.

لقد جاء القرآن واضحًا في موقفه تجاه هذه الأسفار وحفظتها من الأحبار والعلماء، سنذكر عددًا من الأساسيات منها:

وقال الحافظ في " الفتح " (١٣: ٢٨٤): " رواه أحمد، وابن أبي شيبة، والبزار، ورجاله موثقون إلا أن في مجالد ضعفا ". قلت – أي الألباني– لكن الحديث قوي فإن له شواهد كثيرة. وذكر– الشيخ– بعضها.

ثم قال: وجملة القول: أن مجيء الحديث في هذه الطرق المتباينة، والألفاظ المتقاربة لما يدل على أن مجالد بن سعيد قد حفظ الحديث فهو على أقل تقدير حديث حسن. والله أعلم إرواء الغليل ٦/ ٣٤: ٣٨.

(١) الجواب الصحيح ٢/ ١٤٢: ١٤٣.

١- تعرضت الأسفار اليهودية والمسيحية للفقد والضياع بسبب التفريط في التحفظ عليها وحفظ ما فيها، فصارت تلك المفقودات نسيًا منسيًا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة١٢: ١٤).

٢- قام على أمر هذه الكتب طائفة من الأحبار والكهنة والكتبة وُجد بينهم:

أ- الذين يحرفون كلام الله بتغييره وتبديله وعدم الحفاظ على صورته الأصلية: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ (النساء: ٤٦).

ب- الذين يضيفون إلى كلام الله وينقصون منه ما شاءت لهم أهواءهم، ثم يدعون أن ذلك وحي الله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (آل عمران: ٧٨: ٨٠)، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ (النساء: ٥٠)، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا

قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (البقرة: ٧٩)، ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ (البقرة: ٧٨)، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ (المائدة: ٧٧).

ج- ولقد درج كثير منهم ممن عهد إليهم بالحفاظ على كتب الله من الكتبة والرؤساء الدينيين على كتمان الحق الذي لا يتفق وأهواءهم مثل نبوة محمد الذي جاء من العرب الأميين وكانت بشارته - ولا تزال بقيتها - في كتبهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ (آل عمران: ١٨٧)، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ (آل عمران: ٧١)، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ (المائدة: ١٥: ١٦).

ونستطيع الآن تقرير ما يمكن استخلاصه من موقف القرآن من الأسفار اليهودية والمسيحية -أي الكتاب المقدس - فنقول: إن هذه الأسفار بها بقية مما أنزله الله، كما أنها فقدت قدرًا من الحقائق عندما ضاع منها حظ من التنزيل الإلهي، وهي تضم بين جنباتها اختلافًا كثيرًا بسبب ما صنعته بها أيدي البشر الذين استحفظوا عليها وقاموا على أمرها، ولقد جمع ذلك سيدنا محمدﷺ خاتم النبيين -الذي أُوتي بحق جوامع الكلم- في عبارة موجزة فقال: (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله)[1].

---

(١) البخاري (٤٤٨٥).

إن من معجزات هذا النبي الأمي أن هذا هو عين ما قاله علماء الكتاب المقدس في دائرة المعارف البريطانية: (لقد أصبح من الواضح أن هذه الأسفار لا تحتوي كل الصدق، وأن ليس كل ما تحتويه هذه الأسفار بصادق).

أليس هذا هو مجمل حديث خاتم النبيين: لا تصدقوهم ولا تكذبوهم.[١]

الوجه السابع: ذم أهل الكتاب لا يقدح في أنبيائهم.

قال ابن القيم: ماذا على الرسل الكرام من معاصي أممهم وأتباعهم؟ وهل يقدح ذلك شيئًا في نبوتهم أو يغير وجه رسالتهم؟ وهل سلم من الذنوب على اختلاف أنواعها وأجناسها إلا الرسل صلوات الله وسلامه عليهم؟ وهل يجوز رد رسالتهم وتكذيبهم بمعصية بعض أتباعهم لهم؟ وهل هذا إلا من أقبح التعنت؟ وهو بمنزلة رجل مريض دعاه طبيب ناصح إلى سبب ينال به غاية عافيته، فقال: لو كنت طبيبًا لم يكن فلان وفلان وفلان مرضى، وهل يلزم الرسل أن يشفوا جميع المرضى بحيث لا يبقى في العالم مريض؟ هل تعنت أحد من الناس للرسل بمثل هذا التعنت؟[٢]

المبحث الثاني الرد التفصيلي على بعض الشبهات التي أثارها أهل الكتاب في إثبات صدق كتابهم من خلال ثناء القرآن على التوراة والإنجيل.

وقبل عرض هذا المبحث نقرر مسألتين:

الأولى ـ إن كل شبهة سنعرضها يدخل تحتها آيات كثر سنكتفي بذكر آية منها[٣].

الثانية ـ يدخل في ثنايا الرد على كل شبهة من هذه الشبه – الآتي ذكرها-بعض من الردود الإجمالية التي مضت.

الشبهة الأولى: قالوا: إننا نجد في (القرآن الكريم) آيات تشهد بصدق التوراة والإنجيل ـ كما هما اليوم ـ وتؤكد أن الكتابين لم يصابا بتحريف، ولا تزييف.

---

(١) القرآن لا يشهد لتوراة اليهود؛ أحمد عبد الوهاب (٦٠) صلاح عبد الفتاح الخالدي (٩٦: ٩٧).

(٢) هداية الحيارى (٢١٦).

(٣) ذكرنا ذلك حتى لايظن القاريء أننا تركنا آيات لم يرد عليها.

من مثل قول الله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة: ٤٣)وقوله: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ (المائدة: ٤٧).

والجواب عن هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: بيان سبب نزول الآيات.

١ـ نزلت عامة:

قال ابن كثير: نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ﷻ: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ أعداء الإسلام وأهله. وهؤلاء كلهم ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أي: يستجيبون له، منفعلون عنه ﴿ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ أي: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد. وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، ويُنْهُونه إلى أقوام آخرين ممن لا يحضر عندك، من أعدائك ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ﴾.[1]

٢ـ نزلت في قضية القتل التي حدثت في اليهود:

قيل: نزلت في أقوام من اليهود، قتلوا قتيلا وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: إِنَّ الله ﷻ أَنْزَلَ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وَ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنْزَلَهَا الله فِي الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ الْيَهُودِ، وَكَانَتْ إِحْدَاهُمَا قَدْ قَهَرَتِ الأُخْرَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى ارْتَضَوْا وَاصْطَلَحُوا عَلَى أَنَّ كُلَّ قَتِيلٍ قَتَلَتْهُ الْعَزِيزَةُ مِنَ الذَّلِيلَةِ فَدِيَتُهُ خَمْسُونَ وَسْقًا، وَكُلَّ

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢١٩.

قَتِيلٍ قَتَلَتْهُ الذَّلِيلَةُ مِنَ الْعَزِيزَةِ فَدِيَتُهُ مِائَةُ وَسْقٍ، فَكَانُوا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَدِمَ النبي ﷺ الْمَدِينَةَ فَذَلَّتِ الطَّائِفَتَانِ كِلْتَاهُمَا لِمَقْدَمِ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَئِذٍ لَمْ يَظْهَرْ وَلَمْ يُوطِئْهُمَا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الصُّلْحِ، فَقَتَلَتِ الذَّلِيلَةُ مِنَ الْعَزِيزَةِ قَتِيلًا فَأَرْسَلَتِ الْعَزِيزَةُ إِلَى الذَّلِيلَةِ أَنِ ابْعَثُوا إِلَيْنَا بِمِائَةِ وَسْقٍ. فَقَالَتِ الذَّلِيلَةُ: وَهَلْ كَانَ هَذَا فِي حَيَّيْنِ قَطُّ دِينُهُمَا وَاحِدٌ وَنَسَبُهُمَا وَاحِدٌ وَبَلَدُهُمَا وَاحِدٌ دِيَةُ بَعْضِهِمْ نِصْفُ دِيَةِ بَعْضٍ؟ إِنَّا إِنَّمَا أَعْطَيْنَاكُمْ هَذَا ضَيْمًا مِنْكُمْ لَنَا، وَفَرَقًا مِنْكُمْ فَأَمَّا إِذْ قَدِمَ مُحَمَّدٌ فَلاَ نُعْطِيكُمْ ذَلِكَ. فَكَادَتِ الْحَرْبُ تَهِيجُ بَيْنَهُمَا ثُمَّ ارْتَضَوْا عَلَى أَنْ يَجْعَلُوا رَسُولَ الله ﷺ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَتِ الْعَزِيزَةُ فَقَالَتْ: وَالله مَا مُحَمَّدٌ بِمُعْطِيكُمْ مِنْهُمْ ضِعْفَ مَا يُعْطِيهِمْ مِنْكُمْ، وَلَقَدْ صَدَقُوا مَا أَعْطَوْنَا هَذَا إِلاَّ ضَيْمًا مِنَّا وَقَهْرًا لَهُمْ، فَدُسُّوا إِلَى مُحَمَّدٍ مَنْ يَخْبُرُ لَكُمْ رَأْيَهُ إِنْ أَعْطَاكُمْ مَا تُرِيدُونَ حَكَّمْتُمُوهُ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِكُمْ حَذِرْتُمْ فَلَمْ تُحَكِّمُوهُ، فَدَسُّوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ نَاسًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ لِيَخْبُرُوا لَهُمْ رَأْيَ رَسُولِ الله ﷺ فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ أَخْبَرَ الله رَسُولَهُ بِأَمْرِهِمْ كُلِّهِ، وَمَا أَرَادُوا فَأَنْزَلَ الله ﷻ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ: فِيهِمَا وَالله نَزَلَتْ وَإِيَّاهُمَا عَنَى الله ﷻ.[1]

٣ـ **نزلت في اليهوديَّيْن اللذين زنيا**، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحْصن منهم، فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين. فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

---

(١) حسن. أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٤٦، أبو داود (٣٥٧٦) من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة. وأخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٦٣، أبو داود (٣٥٩١، ٤٤٩٤)، النسائي ٨/ ١٩ وابن أبي حاتم في التفسير (٦٣٩١) من طرق عن عكرمة. كلاهما (عبيد الله، عكرمة) عن ابن عباس به. وإسناده حسن، حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٠٥٣).

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: جَاءَتِ الْيَهُودُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟ ». فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ رضي الله عنه: كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ. فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا. فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ. ثُمَّ قَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ رضي الله عنه: ارْفَعْ يَدَكَ. فَرَفَعَ يَدَهُ؛ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرُجِمَا. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَحْنِي عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا الْحِجَارَةَ. (١)

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ مُرَّ عَلَى النبي ﷺ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا فَدَعَاهُمْ ﷺ فَقَالَ: " هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟ ". قَالُوا: نَعَمْ. فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ فَقَالَ: «أَنْشُدُكَ بِاللهِ الذي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى! أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟ ». قَالَ: لَا. وَلَوْلَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ. نَجِدُهُ الرَّجْمَ. وَلَكِنَّهُ كَثُرَ في أَشْرَافِنَا فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ. وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ. قُلْنَا: تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شيء نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "اللهمَّ إني أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ ". فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ. فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يَقُولُ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ، فَخُذُوهُ وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ في الْكُفَّارِ كُلُّهَا. (٢)

وهذا القول رجحه أكثر أهل العلم. (٣)

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٢٩، ٦٨١٩)، مسلم (١٦٩٩).

(٢) مسلم (١٧٠٠).

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٨، تفسير القرطبي ٦/ ١٧٢، تفسير ابن كثير٥/ ٢٢٠.

قال ابن كثير: وقد يكون اجتمع هذان السببان – الثاني والثالث – في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم. (١)

قال ابن كثير: فهذه أحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا بوحي خاص من الله ﷻ إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم، مما تراضوا على كتمانه وجحده، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة فلما اعترفوا به مع عَملهم على خلافه، بان زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به لهذا قالوا: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ أي: الجلد والتحميم ﴿فَخُذُوهُ﴾ أي: اقبلوه ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي: من قبوله واتباعه(٢).

الوجه الثاني: هذا التحكيم فيما يتفق مع القرآن لا فيما يناقضه أو يخالفه.

فقد أمر أهل (التوراة) أن يحكموا بما أنزل الله في كتابهم! وأمر أهل (الإنجيل) أن يحكموا بما أنزل الله في كتابهم! والله أنزل في التوراة وأنزل في الإنجيل الأمر باتباع محمدﷺ فإذا لم يحكموه، فكأنهم لم يحكموا التوراة والإنجيل. وإذا لم يؤمنوا به، فكأنهم لم يؤمنوا بما في التوراة والإنجيل. يتضح لنا أن المقصود تحكيم هذه الكتب، فيما يتفق مع القرآن لا فيما يناقضه أو يخالفه. (٣)

قال ابن كثير: وقوله: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ قُرئ ﴿ وَلِيَحْكُمْ﴾ بالنصب على أن اللام لام كي، أي: وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به في زمانهم. وقرئ: ﴿ وَلْيَحْكُمْ﴾ بالجزم اللام لام الأمر، أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٢٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٢٥: ٢٢٦.

(٣) مناظرة بين الإسلام والنصرانية ٢/ ٨٨.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الآية (المائدة: ٦٨) وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (الأعراف: ١٥٧)؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق. وقد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى، وهو ظاهر السياق. [1]

ولهذا قال الله تعالى بعدها: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ (المائدة: ٤٨).

الوجه الثالث: الآية فيها رد عليهم حيث جاء في آخرها (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ)

قال محمد رشيد رضا: ومما يجب التنبيه له هنا أن دعاة النصرانية يحتجون بهذه الآية وما في معناها على كون التوراة التي في أيديهم وأيدي اليهود هي ما أنزله الله تعالى على موسى، لم يعرض لها تغيير ولا تحريف، وذلك أنهم كأولئك اليهود الذين يأخذون من القرآن أهوائهم ويردون ما يخالفها جدلاً، والمؤمنون يؤمنون بالكتاب كله، فالكتاب بيّن لنا أن عندهم التوراة أي الشريعة، وأن فيها حكم الله في القضية التي تحاكموا فيها إلى النبيﷺ، وقد صدق الله تعالى وهو أصدق القائلين، وبيّن لنا أيضًا أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه، وأنهم نسوا حظًا مما ذُكروا به، وإنما أوتوا نصيبًا من الكتاب إذ نسوا نصيبًا آخر وأضاعوه، وقد صدق الله تعالى في ذلك أيضًا، ولما خرجت أمة القرآن

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٢٤.

بالقرآن من الأمية وعرفوا تاريخ أهل الكتاب وغيرهم كالبابليين ظهر لهم أن إخبار القرآن بذلك كان من معجزاته الدالة على أنه من عند الله؛ إذ ظهر لهم أن اليهود قد فقدوا التوراة التي كتبها موسى ثم لم يجدوها، وإنما كتب لهم بعض علمائهم ما حفظوه منها ممزوجًا بما ليس منها، والتوراة التي في أيديهم تثبت ذلك كما بيناه في غير هذا الموضع. . . وهذه الآيات (المائدة٤٥: ٤٧) من سياق التي قبلها والتي بعدها، والغرض منها بيان كون التوراة كانت هداية لبني إسرائيل فأعرضوا عن العمل بها لما عرض لهم من الفساد، وبيان مثل ذلك في الإنجيل وأهله، ثم الانتقال من ذلك إلى ما سيأتي من ذكر إنزال القرآن ومزيته وحكمة ذلك، ومنه يُعلم أن العبرة بالاهتداء بالدين وأنه لا ينفع أهل الانتماء إليه إذا لم يقيموه؛ إذ لا يستفيدون من هدايته ونوره إلا بإقامته والعمل به، وأن إيثار أهل الكتاب أهوائهم على هداية دينهم، هو الذي أعماهم عن نور القرآن والاهتداء به[1]

الوجه الرابع: الآية فيها تعجب من صنعهم حيث عدلوا عن الحق إلى الباطل؛ فظهر جهلهم وعنادهم.

قال الرازي: هذا تعجيب من الله تعالى لنبيّه ﷺ بتحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما في التوراة من حد الزاني، ثم تركهم قبول ذلك الحكم، فعدلوا عما يعتقدونه حكمًا حقًا إلى ما يعتقدونه باطلًا طلبًا للرخصة، فلا جرم ظهر جهلهم وعنادهم في هذه الواقعة من وجوه:

أحدها: عدولهم عن حكم كتابهم، والثاني: رجوعهم إلى حكم من كانوا يعتقدون فيه أنه مبطل، والثالث: إعراضهم عن حكمه بعد أن حكموه، فبيّن الله تعالى حال جهلهم وعنادهم لئلا يغتر بهم مغتر أنهم أهل كتاب الله ومن المحافظين على أمر الله[2].

قال محمد رشيد رضا: هذا تعجيب من الله لنبيه ببيان حال من أغرب أحوال هؤلاء القوم، وهو أنهم أصحاب شريعة يرغبون عنها ويتحاكمون إلى نبي جاء بشريعة أخرى وهم لم يؤمنوا به، أي: وكيف يحكمونك في قضية كقضية الزانيين أو قضية الدية، والحال

(١) تفسير المنار ٦/ ٣٣٦: ٣٣٧.

(٢) تفسير الرازي ١١/ ٢٣٦.

أن عندهم التوراة التي هي شريعتهم فيها حكم الله فيما يحكمونك فيه، ثم يتولون عن حكمك بعد أن رضوا به وآثروه على شريعتهم لموافقته لها، أي: إذا فكرت في هذا رأيته من عجيب أمرهم، وسببه أنهم ليسوا بالمؤمنين إيمانًا صحيحًا بالتوراة ولا بك، وإنما هم ممن جاء فيهم ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، فإن المؤمن الصادق بشرع لا يرغب عنه إلى غيره إلا إذا آمن بأن ما رغب إليه شرع من الله أيضًا أيد به الأول، أو نسخه لحكمة اقتضت ذلك باختلاف أحوال عباده، وهؤلاء تركوا حكم التوراة التي يدّعون الإيمان بها واتباعها؛ لأنه لم يوافق هواهم، وجاؤوك يطلبون حكمك رجاء أن يوافق هواهم ثم يتولون ويعرضون عنه إذا لم يوافق هواهم، فما هم بالمؤمنين بالتوراة ولا بك ولا بمن أنزل على موسى التوراة وأنزل عليك القرآن. (١)

الشبهة الثانية: قالوا: بأن القرآن أثنى على أهل الكتاب.

قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: ٨٢)، فذكر القسيسين والرهبان لئلا يقال: إن هذا قيل عن غيرنا، ودل بهذا على أفعالنا وحسن نياتنا ونفى عنا اسم الشرك بقوله: اليهود والذين أشركوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا والذين قالوا إنا نصارى أقربهم مودة.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: ما هو وجه(نوعية) هذا المدح أو الثناء؟

قال الطبري: والصواب في ذلك من القول عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن النفر الذين أثنى عليهم من النصارى بقرب مودتهم لأهل الإيمان بالله ورسوله، أن ذلك إنما كان منهم لأن منهم أهل اجتهاد في العبادة، وترهب في الديارات والصوامع، وأن

---

(١) تفسير المنار ٦/ ٣٩٥.

منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها، فهم لا يبعدون من المؤمنين لتواضعهم للحق إذا عرفوه، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبينوه؛ لأنهم أهل دين واجتهاد فيه ونصيحة لأنفسهم في ذات الله، وليسوا كاليهود الذين قد دربوا بقتل الأنبياء والرسل، ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه.[1]

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم؛ إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ (الحديد: ٢٧)، وفي كتابهم: (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر).

وليس القتال مشروعًا في ملتهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يوجد فيهم القسيسون -وهم خطباؤهم وعلماؤهم، فقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به.

وقوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ

---

(١) تفسير الطبري ٧/ ٤.

ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩﴾ (آل عمران: ١٩٩)، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥﴾ (القصص: ٥٢-٥٥).

ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ساكنين فيها أبدًا، لا يحولون ولا يزولون، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان، وأين كان، ومع من كان[1].

الوجه الثاني: تتمة الآية حجة عليهم.

قال ابن تيمية: والجواب أن يقال تمام الكلام ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٥﴾ (المائدة: ٨٣-٨٥)، فهو سبحانه لم يعد بالثواب في الآخرة إلا هؤلاء الذين آمنوا بمحمد ﷺ الذين قال فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، والشاهدون هم الذين شهدوا له بالرسالة فشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وهم الشهداء الذين قال فيهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ (البقرة: ١٤٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٣١٢: ٣١٥ مختصرًا.

ولهذا قال ابن عباس وغيره: في قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، قال: مع محمد ﷺ وأمته، وكل من شهد للرسل بالتصديق فهو من الشاهدين كما قال الحواريون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)﴾ (آل عمران: ٥٣).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾ (الحج: ٧٧، ٧٨)[1]

الوجه الثالث: العلة من هذا المدح في الآية.

وأما قوله في أول الآية: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾، فهو كما أخبر سبحانه وتعالى فإن عداوة المشركين واليهود للمؤمنين أشد من عداوة النصارى، والنصارى أقرب مودة لهم وهذا معروف من أخلاق اليهود؛ فإن اليهود فيهم من البغض والحسد والعداوة ما ليس في النصارى، وفي النصارى من الرحمة والمودة ما ليس في اليهود، والعداوة أصلها البغض، فاليهود كانوا يبغضون أنبياءهم فكيف ببغضهم للمؤمنين؟.

وأما النصارى فليس في الدين الذي يدينون به عداوة ولا بغض لأعداء الله الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فسادا، فكيف بعداوتهم وبغضهم للمؤمنين المعتدلين أهل ملة إبراهيم المؤمنين بجميع الكتب والرسل؟.

وليس في هذا مدح للنصارى بالإيمان بالله ولا وعد لهم بالنجاة من العذاب واستحقاق الثواب، وإنما فيه أنهم أقرب مودة وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ

(١) الجواب الصحيح ٢/ ٤٦: ٤٨.

﴿قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: بسبب هؤلاء وسبب ترك الاستكبار يصير فيهم من المودة ما يصيرهم بذلك خيرا من المشركين وأقرب مودة من اليهود والمشركين، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾.

فهؤلاء الذين مدحهم بالإيمان ووعدهم بثواب الآخرة، والضمير وإن عاد إلى المتقدمين فالمراد جنس المتقدمين لا كل واحد منهم كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ (آل عمران: ١٧٣)، وكأن جنس الناس قالوا لهم: إن جنس الناس قد جمعوا، ويمتنع العموم فإن القائل من الناس والمقول له من الناس والمقول عنه من الناس ويمتنع أن يكون جميع الناس قال لجميع الناس إنه قد جمع لكم جميع الناس ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾، أي: جنس اليهود قال هذا، لم يقل هذا كل يهودي، ومن هذا أن في النصارى من رقة القلوب التي توجب لهم الإيمان ما ليس في اليهود وهذا حق[1].

الوجه الرابع: مدح النصارى بأنهم أقرب مودة لا يمنع أن يكونوا كفرة.

قال القرافي: وأما مدح النصارى بأنهم أقرب مودة، وأنهم متواضعون فمسلَّم، لكن هذا لا يمنع أن يكونوا كفرة مخلدين في النار وغضب الجبار؛ لأن السجايا الجليلة والآداب الكسبية تجتمع مع الكفر والإيمان، كالأمان والشجاعة، والظرف واللطف وجودة العقل. فليس فيه دليل على صحة دينهم[2].

الشبهة الثالثة: قالوا: إن القرآن رفع قدرنا وأعلى منزلتنا، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ **(آل عمران: ٥٥).**

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: من هم الذين اتبعوه؟

---

(١) الجواب الصحيح ٢/ ٤٦: ٤٨.

(٢) الأجوبة الفاخرة (١١١).

قال القرافي: إن الذين اتبعوه ليسوا النصارى الذين اعتقدوا فيه بأنه ابن الله، وسلكوا مسلك المتأخرين، فإن اتباع الإنسان موافقته فيما جاء به، وكون هؤلاء المتأخرين اتبعوه محل نزاع؛ بل متبعوه هم الحواريون، ومن تابعهم قبل ظهور القول بالتثليث، وأولئك هم الذين رفعهم الله في الدنيا والآخرة، ونحن منهم وهم منا، ونحن إنما نطالب هؤلاء بالرجوع إلى ما كان أولئك عليه، فإن قدس الله أرواحهم آمنوا بعيسى وبجملة النبيين صلوات الله عليهم أجمعين.

وكان عيسى عليه السلام بشَّرهم بمحمد ﷺ، فكانوا ينتظرون ظهوره ليؤمنوا به عليه السلام، وكذلك لما ظهر النبي ﷺ جاءه أربعون راهبًا من نجران، فوجدوه هو الموعود به فآمنوا به في ساعة واحدة بمجرد النظر والتأمل لعلاماته، فهؤلاء هم الذين اتبعوه، وهم المرفوعون المعظَّمون، وأما هؤلاء النصارى فهم الذين كفروا به مع من كفر، وجعلوه سببًا لانتهاك حرمة الربوبية، بنسبة واجب الوجود المقدس عن صفات البشر إلى الصاحبة والولد الذي ينفر منها أقل رهبانهم، حتى إنه قد ورد أن الله تعالى إذا قال لعيسى عليه السلام يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ١١٦) يسكت أربعين سنة خجلاً من الله تعالى حيث جعل سببًا للكفر به وانتهاك حرمة جلاله.

فخواص الله تعالى يألمون ويخجلون من اطلاعهم على انتهاك حرمة الله تعالى، وإن لم يكن لهم فيها مدخل ولا لهم فيها تعلق، فكيف إذا كان لهم فيها تعلق من حيث الجملة؟ ومن عاشر أماثل الناس ورؤساءهم، وله عقل قويم، وطبع مستقيم غير طبع النصارى أدرك هذا، فما آذى أحد عيسى عليه السلام ما آذته هؤلاء النصارى، نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه.[1]

الوجه الثاني: بيان المعنى الصحيح للآية.

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: وجاعل الذين اتبعوك على منهاجِك وملَّتك من الإسلام وفطرته، فوق الذين جحدوا نبوّتك وخالفوا سبيلهم من جميع أهل الملل، فكذّبوا بما جئت به وصدّوا عن الإقرار به، فمصيِّرهم فوقهم ظاهرين عليهم[2].

---

(١) الأجوبة الفاخرة (٨٢: ٨٥).

(٢) تفسير الطبري ٣/ ٢٩٢.

قال الشوكاني: قوله: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: الذين اتبعوا ما جئت به، وهم خلص أصحابه الذين لم يبلغوا في الغلوّ فيه إلى ما بلغ من جعله إلهًا، ومنهم المسلمون، فإنهم اتبعوا ما جاء به عيسى عليه السلام ووصفوه بما يستحقه من دون غلوّ، فلم يفرّطوا في وصفه، كما فرطت اليهود، ولا أفرطوا كما أفرطت النصارى. وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم. وقيل: المراد بالآية: أن النصارى الذين هم أتباع عيسى لا يزالون ظاهرين على اليهود غالبين لهم قاهرين لمن وجد منهم، فيكون المراد بالذين كفروا هم اليهود خاصة؛ وقيل: هم الروم لا يزالون ظاهرين على من خالفهم من الكافرين، وقيل: هم الحواريون لا يزالون ظاهرين على من كفر بالمسيح، وعلى كل حال فغلبة النصارى لطائفة من الكفار، أو لكل طوائف الكفار لا ينافي كونهم مقهورين مغلوبين بطوائف المسلمين، كما تفيده الآيات الكثيرة، بأن هذه الملة الإسلامية ظاهرة على كل الملل قاهرة لها مستعلية عليها[1].

الشبهة الرابعة: يقولون: بأن النبي ﷺ أثنى على كتابنا، وفي هذا دليل على أنها لم تحرف.

ويستندون إلى أن النبي ﷺ أمسك التوراة وقال: (آمنت بكِ وبمن أنزلك).

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: قوله (آمنت بك وبمن أنزلك) زيادة شاذة في الحديث الصحيح لا يحتج بها.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: أَتَى نَفَرٌ مِنْ يَهودَ فَدَعَوْا رَسُولَ الله ﷺ إِلَى الْقُفِّ، فَأَتَاهُمْ فِى بَيْتِ الْمِدْرَاسِ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! إِنَّ رَجُلًا مِنَّا زَنَى بِامْرَأَةٍ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ. فَوَضَعُوا لِرَسُولِ الله ﷺ وِسَادَةً فَجَلَسَ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ " ائْتُونِى بِالتَّوْرَاةِ ". فَأُتِىَ بِهَا فَنَزَعَ الْوِسَادَةَ مِنْ تَحْتِهِ،

---

(١) فتح القدير ١/ ٥١٤.

فَوَضَعَ التَّوْرَاةَ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ: " آمَنْتُ بِكِ وَبِمَنْ أَنْزَلَكِ". ثُمَّ قَالَ " ائْتُونِى بِأَعْلَمِكُمْ ". فَأُتِىَ بِفَتًى شَابٍّ ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ الرَّجْمِ نَحْوَ حَدِيثِ مَالِكٍ عَنْ نَافِعٍ(١).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٤٩) من طريق هِشَام بْن سَعْدٍ أَنَّ زَيْدَ بْنَ أَسْلَمَ حَدَّثَهُ عَنِ ابْنِ عُمَر به، بهذه الزيادة. وقد خالف هشام بن سعد في روايته عن زيد بن أسلم عن ابن عمر، نافع وعبد الله بن دينار كلاهما عن ابن عمر بدون الزيادة.

أما طريق نافع عن ابن عمر فأخرجه مالك في الموطأ في كتاب الحدود، باب مَا جَاءَ فِى الرَّجْمِ، وأخرجه البخاري (١٣٢٩)، مسلم (١٦٩٩) من طريق موسى بن عقبة، وأخرجه أحمد في المسند ٦: ١، والبخاري (٧٥٤٣) من طريق أيوب، وأخرجه مسلم (١٦٩٩) من طريق عبيد الله، كلهم (مالك، موسى، أيوب، عبيد الله) عن نافع عن ابن عمر. بدون هذه الزيادة ولفظه: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَتِ الْيَهُودُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلاً مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟ ". فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ: كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ. فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ ثُمَّ قَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ ﷺ: ارْفَعْ يَدَكَ. فَرَفَعَ يَدَهُ. فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَا. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ﷺ: فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَحْنِى عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا الْحِجَارَةَ.

أما طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر فأخرجه البخاري (٦٨١٩) من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر. بدون هذه الزيادة ولفظه. عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أُتِىَ رَسُولُ الله ﷺ بِيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةٍ قَدْ أَحْدَثَا جَمِيعًا. فَقَالَ لَهُمْ: " مَا تَجِدُونَ فِي كِتَابِكُمْ؟ ". قَالُوا: إِنَّ أَحْبَارَنَا أَحْدَثُوا تَحْمِيمَ الْوَجْهِ وَالتَّجْبِيَةَ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ ﷺ: ادْعُهُمْ يَا رَسُولَ اللهِّ بِالتَّوْرَاةِ. فَأُتِىَ بِهَا فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، وَجَعَلَ يَقْرَأُ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا. فَقَالَ لَهُ ابْنُ سَلاَمٍ ﷺ: ارْفَعْ يَدَكَ. فَإِذَا آيَةُ الرَّجْمِ تَحْتَ يَدِهِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ الله ﷺ فَرُجِمَا. قَالَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ: فَرُجِمَا عِنْدَ الْبَلاَطِ، فَرَأَيْتُ الْيَهُودِىَّ أَجْنَأَ عَلَيْهَا.

فتبين من خلال ذلك أن هشام بن سعد في روايته عن ابن عمر قد تفرد بهذه الزيادة.

وهشام بن سعد تكلم فيه أهل العلم بالجرح والتعديل كالآتي:

من جرحه:

١ - أحمد بن حنبل قال: لم يكن هشام بن سعد بالحافظ. وقال أيضا: هشام بن سعد كذا وكذا، كان يحيى بن سعيد لا يروي عنه. وقال أيضا: ليس هو محكم الحديث.

٢ - وقال عباس الدوري عن يحيى بن معين: هشام بن سعد ضعيف. وقال معاوية بن صالح، عن يحيى بن معين: ليس بذاك القوي.

٣- يحيى بن سعيد القطان نقل عنه يحيى بن معين و أحمد بن حنبل أنه كان لا يحدث عنه.

الوجه الثاني: على القول بتحسينها فلا شبهة في ذلك؛ لأن المقصود التوراة الأصلية التي نزلت على موسى‏ عليه السلام.

قال ابن حجر: وقد استدل به – أي: حديث ابن عمر رضي الله عنه- بعضهم على أنهم لم يسقطوا شيئًا من ألفاظها. . . . والاستدلال به لذلك غير واضح؛ لاحتمال خصوص ذلك بهذه الواقعة فلا يدل على التعميم. وكذا من استدل به على أن التوراة التي أحضرت حينئذ كانت كلها صحيحة سالمة من التبديل؛ لأنه يطرقه هذا الاحتمال بعينه ولا يرده قوله: (آمنت بك وبمن أنزلك) لأن المراد أصل التوراة[1].

الشبهة الخامسة: يقولون: بأن القرآن يعظمنا بتقديم البيع والكنائس، على المساجد.

٤- وقال النسائي: ضعيف. وقال في موضع آخر: ليس بالقوي.

٥- وقال البرذعي: سمعت أبا زرعة يقول: هشام بن سعد واهي الحديث.

٦- ابن حبان قال: كان ممن يقلب الأسانيد وهو لا يفهم، ويسند الموقوفات من حيث لا يعلم، فلما كثر مخالفته الأثبات فيما يروي عن الثقات بطل الاحتجاج به، وإن اعتبر بها وافق الثقات من حديثه فلا ضير.

٧- قال ابن سعد: كان كثير الحديث يستضعف، و كان متشيعا.

٨- قال ابن أبى شيبة عن على ابن المدينى: صالح، و ليس بالقوى.

ومن عدله:

وقال العجلي: جائز الحديث، حسن الحديث. قلت: والعجلي معروف بتساهله.

وقال أبو زرعة: شيخ محله الصدق، قلت: وهذا ليس من مراتب العدالة القوية.

وقال أبو حاتم: يكتب حديثه، ولا يحتج به. قلت: وهذا يدل على أنه لو خالف الأوثق فإن حديثه مردود.

وقال الساجى: صدوق.

استشهد به البخارى فى الصحيح، وقال الحاكم: أخرج له مسلم فى الشواهد. أي أن ذلك ليس في الأصول.

تهذيب الكمال ٣٠/ ٢٠٤، تهذيب التهذيب ٩/ ٤٨، الطبقات الكبرى ٥/ ٤٧٠، الكامل في الضعفاء ٧/ ١٠٨، الجرح والتعديل ٩/ ٦١، أبو زرعة الرازي وجهوده في السنة ٢/ ٣٩١. المجروحين ٣/ ٨٩.

وبالتالي فهذه الزياة لا تصح. ومما يدل على ذلك أيضا أن الحديث جاء عن غير ابن عمر بدون هذه الزياد ة، منهم: البراء بن عازب كما عند مسلم (١٧٠٠)، وجابر بن عبد الله كما عند مسلم (١٧٠١).

وأبي هريرة كما عند أبي داود (٤٤٥٠، ٤٤٥١)، والطبراني ٦/ ٢٣٢: ٢٣٣.

(١) فتح الباري لابن حجر ١٢/ ١٨٧.

قالوا: ثم وجدناه يعظم إنجيلنا ويقدم صوامعنا ويشرف مساجدنا ويشهد بأن اسم الله يذكر فيها كثيرًا وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠).

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (الحديد: ٢٧).

وذلك يدل على أن النصارى -في زعمهم- على الحق، فلا ينبغي لهم العدول عما هم عليه؛ لأن العدول عن الحق إنما يكون للباطل.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: ذكر الله يكون في المسجد، وإذا ذكر في الصوامع والبيع فهي على العهد الأول قبل التبديل والتحريف.

قال ابن تيمية: إن فيها - الآية - ذكر الصوامع والبيع، وأما قوله: (ويذكر فيها اسم الله كثيرًا فإنما ذكره عقب ذكره المساجد، والمساجد للمسلمين، وليس المراد بها كنائس النصارى، فإنها هي البيع ثم قوله تعالى: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، إما أن يكون مختصًا بالمساجد فلا يكون في ذلك إخبار بأن اسم الله يذكر كثيرًا في البيع والصوامع، وإما أن يكون ذكر اسم الله في الجميع فلا ريب أن الصوامع والبيع قبل أن يبعث الله محمدًا كان فيها من يتبع دين المسيح الذي لم يبدل ويذكر فيها اسم الله كثيرًا، وقد قيل: إنها بعد النسخ والتبديل يذكر فيها اسم الله كثيرًا وإن الله يحب أن يذكر اسمه.

وأهل الكتاب خير من المشركين، وقد ذكرنا أنه لما اقتتل فارس والروم وانتصرت الفرس ساء ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وكرهوا انتصار الفرس على النصارى؛ لأن النصارى أقرب إلى دين الله ﷻ من المجوس، والرسل بعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد

وتقليلها، وتقديم خير الخيرين على أدناهما حسب الإمكان، ودفع شر الشرين بخيرهما. فهدم صوامع النصارى وبيعهم فساد إذا هدمها المجوس والمشركون، وأما إذا هدمها المسلمون وجعلوا أماكنها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا فهذا خير وصلاح.

وهذه الآية ذكرت في سياق الإذن للمسلمين بالجهاد بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (الحج: ٣٩)، وهذه الآية أول آية نزلت في الجهاد ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ فيدفع بالمؤمنين الكفار، ويدفع شر الطائفتين بخيرهما كما دفع المجوس بالروم النصارى، ثم دفع النصارى بالمؤمنين أمة محمد ﷺ وهذا كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١)(١).

الوجه الثاني: التقديم في اللفظ فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى الأعلى

قال القرافي: إن هذه الآية تقتضي أن المساجد أفضل بيت عند الله تعالى، على عكس ما قالوه وتقريره أن الصنف القليل المنزلة عند الله تعالى أقرب إلى الهلاك من العظيم المنزلة، والقاعدة العربية أن الترقي في الخطاب إلى الأعلى فالأعلى أبدًا في المدح والذم، والتفخيم والامتنان، فيقال في المدح: الشجاع البطل، ولا يقال: البطل الشجاع؛ لأنك تعد راجعًا عن الأول، وفي الذم: العاصي الفاسق، ولا يقال: الفاسق العاصي، وفي التفخيم: فلان يغلب المائة والألف، ولايقال: فلان يغلب الألف والمائة، والسر في الجميع أنك تعد راجعًا عن الأول، كقهقرتك عما كنت فيه إلى ما هو أدنى منه، إذا تقرر ذلك ظهرت فضيلة المساجد ومزيد شرفها على غيرها، وأن هدمها أعظم من هدم غيرها، لا يوصل إليه إلا بعد تجاوز ما يقتضي هدم غيرها، كما نقول: لولا السلطان لهلك الصبيان والرجال

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٣٩: ٢٤٠، وانظر: تفسير الرازي ٢٣/ ٤٠.

والأمراء، فترتقي أبدًا للأعلى لتفخيم أمر عدم السلطان، وأن وجوده سبب عصمة هذه الطوائف، أما لو قلت: لولا السلطان لهلك الأبطال والصبيان لعُد كلامك متهافتًا.(١)

قال ابن تيمية: وأما التقديم في اللفظ فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى الأعلى كقوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأعراف: ٣٣)، وقوله: ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ (عبس: ٣٤-٣٦)، وقوله: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴿١﴾ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴾ (الذاريات: ١-٤)، ونظائره متعددة، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴾ (الحج: ٤٠).

فبين سبحانه أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت مواضع العبادات، وهدمها فساد إذا هدمها من لا يبدلها بخير منها، وأدناها هي الصوامع فإن الصومعة تكون لواحد أو لطائفة قليلة فبدأ بأدنى المعابد وختم بأشرفها وهي المساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيرًا، ففي الجملة حكم هذه المعابد حكم أهلها، وأهلها قبل النسخ والتبديل مؤمنون مسلمون، وهدم معابد المؤمنين المسلمين فساد، وبعد النسخ والتبديل إذا غلب أهل الكتاب من هو شر منهم كالمجوس والمشركين وهدموا معابدهم كان ذلك فسادا، وإذا هدمها من هو خير منهم كأمة محمد وأبدلوها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولا يشرك به ويذكر فيها الإيمان بجميع كتبه ورسله كان ذلك صلاحا لا فسادا، ولهذا أمر النبي أن يتخذ المساجد مواضع معابد الكفار كما كان لثقيف أهل الطائف معبد يعبدون فيه اللات التي قال الله فيها: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ (النجم: ١٩).

فأمر النبي ﷺ أن يهدم ذلك المعبد ويتخذ مكانه المسجد الذي يعبد الله وحده فيه؛ فإن المساجد هي بيوت الله في الأرض قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ

---

(١) الأجوبة الفاخرة (٨٧: ٨٨).

كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (الأعراف: ٢٩)، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ الآية إلى قول: ﴿ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (التوبة: ١٧، ١٨)، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الآية إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

ثم لما ذكر المؤمنين ذكر الكفار من أهل الكتاب والمشركين فذكر أهل الجهل المركب والبسيط فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ (النور: ٣٩، ٤٠).

فقد تبين أنه ليس لهم حجة في شيء مما جاء به محمد؛ بل ما جاء به حجة عليهم من وجوه متعددة[1].

الوجه الثالث: أن هذا عام في كل زمن.

قال القرافي: إن المراد بهذه الآية أن الله تعالى يدفع المكاره عن الأشرار بوجود الأخيار في كل عصر، فما من زمان إلا وفيه أهله من الأخيار، فيكون وجود الأخيار سببًا لسلامة الأشرار من الفتن والمحن، فزمان موسى ﷺ سلم فيه أهل الأرض من بلاء يعمهم بسبب من فيه من أهل الاستقامة على الشريعة الموسوية، وزمان عيسى ﷺ سلم فيه أهل الأرض من بلاء يعمهم بسبب من فيه من أهل الاستقامة على الشريعة العيسوية، وزمان محمد ﷺ سلم فيه أهل الأرض من بلاء يعمهم بسبب من فيه من أهل الاستقامة على الشريعة المحمدية، وكذلك سائر الأزمان الكائنة، بعد الأنبياء عليهم السلام كل من كان مستقيمًا

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٤٠: ٢٤١.

على الشريعة الماضية هو سبب لسلامة البقية، فلولا أهل الاستقامة في زمن موسى عليه السلام لم تبق صوامع يُعبد الله فيها على الدين الصحيح لعموم الهلاك فينقطع الخير بالكلية، وكذلك سائر الأزمان، فلولا أهل الخير في زماننا لم يبق مسجد يُعبد الله فيه على الدين الصحيح، ولغضب الله تعالى على أهل الأرض.

والصوامع أمكنة الرهبان في زمن الاستقامة حيث يُعبد الله تعالى فيها على دين صحيح، وكذلك البيعة والمسجد، وليس المراد هذه المواطن إذا كفر بالله تعالى فيها وبُدلت شرائعه، وكانت محل العصيان والطغيان، لا محل التوحيد والإيمان، وهذه المواطن في زمن الاستقامة لا نزاع فيها، إنما النزاع لما تغيرت أحوالها وذهب التوحيد وجاء التثليث، وكُذبت الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وصار ذلك يُتلى في الصباح والمساء، فحينئذ هي أقبح بقعة على وجه الأرض وألعن مكان يوجد، فلا تجعل هذه الآية دليلًا على تفضيلها[١].

قال الزجاج: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شرع كل نبي المكان الذي يصلي فيه، فلولا ذلك الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كانوا يصلون فيها في شرعه، وفي زمن عيسى الصوامع، وفي زمن نبينا محمد ﷺ المساجد فعلى هذا إنما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ[٢].

الوجه الرابع: الضمير يعود على أقرب مذكور.

قال القرافي: والآية تدل على أن المساجد أفضل بيت وُضع على وجه الأرض للعابدين من وجه آخر، وذلك أن القاعدة العربية أن الضمائر إنما يحكم بعودها على أقرب مذكور، فإذا قلت: جاء زيد وخالد وأكرمته، فالإكرام خاص بخالد؛ لأنه الأقرب، فقوله تعالى: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ يختص بالأخير الذي هو المساجد؛ لأن قوله فيها

(١) الأجوبة الفاخرة (٨٦: ٨٧).

(٢) تفسير الرازي٢٣/ ٤٠.

ضمير يختص بالقريب، وهذا قول المفسرين – فتكون المساجد قد اختصت – بكثرة ذكر الله تعالى، وهو يقتضي أن غيرها لم يساوها في كثرة الذكر فتكون أفضل وهو المطلوب. [١]

الوجه الخامس: بيان الحكمة في هذا الترتيب، وتأخير المساجد على من ذكر.

١- لأن الترتيب الوجودي كذلك، فهي – البيع والكنائس- أقدم بناء وهذا ليس للتشريف[٢].

٢- لتقع المساجد في جوار مدح أهلها، فلما كان رسول الله ﷺ خير الرسل، وأمته خير الأمم لا جرم كانوا آخرهم ولذلك قال ﷺ: " نحن الآخرون السابقون "[٣].

٣- وقيل: لقربها من الهدم، وقرب المساجد من الذكر كما أخر السابق في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ (فاطر: ٣٢). [٤]

٤ – للانتقال من شريف إلى أشرف؛ فإن البيع أشرف من الصوامع لكثرة العباد فيها فإنها معبد للرهبان وغيرهم، والصوامع معبد للرهبان فقط، وكنائس اليهود أشرف من البيع؛ لأن حدوثها أقدم، وزمان العبادة فيها أطول، والمساجد أشرف من الجميع؛ لأن الله تعالى قد عبد فيها بما لم يعبد به في غيرها[٥].

٥- وتأخير المساجد؛ لأنها أعم، وشأن العموم أن يعقب به الخصوص إكمالًا للفائدة[٦].

الوجه السادس: ليس في ذلك مدح للرهبانية ولا لمن بدل دين المسيح، وإنما فيه مدح لمن اتبعه.

فهو حق كما قال تعالى، وليس في ذلك مدح للرهبانية، ولا لمن بدل دين المسيح وإنما فيه مدح لمن اتبعه بما جعل الله في قلوبهم من الرحمة والرأفة حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، ثم قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي:

---

(١) الأجوبة الفاخرة (٨٨).

(٢) تفسير الرازي٢٣/ ٤٠، تفسير القرطبي ١٢: ٧٧، تفسير الألوسي ١٧/ ١٦٤.

(٣) تفسير الرازي٢٣/ ٤٠، تفسير الألوسي ١٧/ ١٦٤، والحديث أخرجه البخاري (٢٣٨)، مسلم (٨٥٥).

(٤) تفسير القرطبي ١٢: ٧٧، تفسير الألوسي ١٧/ ١٦٤.

(٥) تفسير الألوسي ١٧/ ١٦٤.

(٦) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٩٧.

وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم، وهذه الرهبانية لم يشرعها الله ولم يجعلها مشروعة لهم؛ بل نفى جعله عنها كما نفى ذلك عما ابتدعه المشركون بقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ (المائدة: ١٠٣).

وهذا الجعل المنفي عن البدع هو الجعل الذي أثبته للمشروع بقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨)، وقوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ (الحج: ٦٧)، فالرهبانية ابتدعوها لم يشرعها الله.

وللناس في قوله (رهبانية) قولان:

أحدهما: أنها منصوبة يعني: ابتدعوها إما بفعل مضمر يفسره ما بعده، أو يقال: هذا الفعل عمل في المضمر والمظهر كما هو قول الكوفيين حكاه عنهم ابن جرير وثعلب وغيرهما ونظيره قوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ (الإنسان: ٣١)، وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ (الأعراف: ٣٠) وعلى هذا القول فلا تكون الرهبانية معطوفة على الرأفة والرحمة.

والقول الثاني: إنها معطوفة عليها فيكون الله قد جعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والرهبانية المبتدعة ويكون هذا جعلًا خلقيًا كونيًا، والجعل الكوني يتناول الخير والشر كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ (القصص: ٤١).

وعلى هذا القول فلا مدح للرهبانية؛ لأنها في القلوب فثبت أنه على التقديرين ليس في القرآن مدح للرهبانية. ثم قال: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء رضوان الله بفعل ما أمر به لا بما يبتدع. وهذا يسمى استثناء منقطعا كما في قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ (النساء: ١٥٧)، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ (النساء: ٢٩)، وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾

(الدخان: ٥٦)، وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ (الانشقاق: ٢٠-٢٥)، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ (الواقعة: ٢٥، ٢٦)، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ (النساء: ٩٢). وهذا أصح الأقوال في هذه الآية.

ولا يجوز أن يكون المعنى أن الله كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله؛ فإن الله لا يفعل شيئًا ابتغاء رضوان نفسه، ولا أن المعنى أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانه كما يظن هذا وهذا بعض الغالطين كما قد بسط في موضع آخر وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية وما رعوها حق رعايتها وليس في ذلك مدح لهم؛ بل هو ذم ثم قال تعالى: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ وكثير منهم فاسقون، ولو أريد الذين آمنوا بالمسيح أيضًا فالمراد من اتبعه على دينه الذي لم يبدل، وإلا فكلهم يقولون: إنهم مؤمنون بالمسيح، وبكل حال فلم يمدح سبحانه إلا من اتبع المسيح على دينه الذي لم يبدل ومن آمن بمحمد ﷺ، لم يمدح النصارى الذين بدلوا دين المسيح ولا الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

فإن قيل: قد قال بعض الناس إن قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ عطف على رأفة ورحمة وإن المعنى: أن الله جعل في قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانيةً أيضًا ابتدعوها، وجعلوا الجعل شرعيًا ممدوحًا. قيل: هذا غلط لوجوه:

منها: أن الرهبانية لم تكن في كل من اتبعه؛ بل الذين صحبوه كالحواريين لم يكن فيهم راهب، وإنما ابتدعت الرهبانية بعد ذلك بخلاف الرأفة والرحمة فإنها جعلت في قلب كل من اتبعه.

ومنها: أنه أخبر أنهم ابتدعوا الرهبانية بخلاف الرأفة والرحمة فإنهم لم يبتدعوها، وإذا كانوا ابتدعوها لم يكن قد شرعها لهم فإن كان المراد هو الجعل الشرعي الديني لا الجعل

الكوني القدري فلم تدخل الرهبانية في ذلك، وإن كان المراد الجعل الخلقي الكوني فلا مدح للرهبانية في ذلك.

ومنها: أن الرأفة والرحمة جعلها في القلوب، والرهبانية لا تختص بالقلوب؛ بل الرهبانية ترك المباحات من النكاح واللحم وغير ذلك، وقد كان طائفة من الصحابة رضوان الله عليهم هموا بالرهبانية فأنزل الله تعالى نهيهم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ (المائدة: ٨٧).

وثبت في الصحيحين أن نفرًا من أصحاب النبيﷺ قال أحدهم: أما أنا فأصوم لا أفطر، وقال آخر: أما أنا فأقوم لا أنام، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال آخر: أما أنا فلا آكل اللحم، فقام النبي خطيبًا فقال: " ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام/ وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني.

وفي صحيح البخاري، أن النبي رأى رجلًا قائمًا في الشمس فقال: " ما هذا؟ "قالوا هذا أبو إسرائيل. نذر أن يقوم في الشمس، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم فقال: " مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه".

وثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته: " خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة".

وفي السنن عن العرباض بن سارية أن النبي ﷺ قال: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة".

وقد بينت النصوص الصحيحة أن الرهبانية بدعة وضلالة، وما كان بدعة وضلالة لم يكن هدى ولم يكن الله جعلها بمعنى أنه شرعها كما لم يجعل الله ما شرعه المشركون من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فإن قيل: قد قال طائفة: معناها ما فعلوها إلا ابتغاء

رضوان الله، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وقالت طائفة: ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله.

قيل: كلا القولين خطأ والأول أظهر خطأ؛ فإن الرهبانية لم يكتبها الله عليهم؛ بل لم يشرعها لا إيجابًا ولا استحبابًا، ولكن ذهبت طائفة إلى أنهم لما ابتدعوها كتب عليهم إتمامها وليس في الآية ما يدل على ذلك فإنه قال: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، فلم يذكر أنه كتب عليهم نفس الرهبانية ولا إتمامها ولا رعايتها؛ بل أخبر أنهم ابتدعوا بدعة، وأن تلك البدعة لم يرعوها حق رعايتها.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يدل على أنهم لو رعوها حق رعايتها لكانوا ممدوحين، قيل: ليس في الكلام ما يدل على ذلك؛ بل يدل على أنهم مع عدم الرعاية يستحقون من الذم ما لا يستحقونه بدون ذلك، فيكون ذم من ابتدع البدعة ولم يرعها حق رعايتها أعظم من ذم من رعاها وإن لم يكن واحد منهما محمودًا؛ بل مذمومًا مثل نصارى بني تغلب ونحوهم ممن دخل في النصرانية ولم يقوموا بواجباتها؛ بل أخذوا منها ما وافق أهواءهم فكان كفرهم وذمهم أغلظ ممن هو أقل شرا منهم، والنار دركات كما أن الجنة درجات، وأيضًا فالله تعالى إذا كتب شيئًا على عباده لم يكتب ابتغاء رضوانه؛ بل العباد يفعلون ما يفعلون ابتغاء رضوان الله، وأيضًا فتخصيص الرهبانية بأنه كتبها ابتغاء رضوان الله دون غيرها تخصيص بغير موجب فإن ما كتبه ابتداء لم يذكر أنه كتبه ابتغاء رضوانه فكيف بالرهبانية؟

وأما قول من قال: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله فهذا المعنى لو دل عليه الكلام لم يكن في ذلك مدح للرهبانية؛ فإن من فعل ما لم يأمر الله به؛ بل نهاه عنه مع حسن مقصده غايته أن يثاب على قصده لا يثاب على ما نهى عنه، ولا على ما ليس بواجب ولا مستحب فكيف والكلام لا يدل عليه فإن الله قال: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾؟

ولم يقل: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله. ولا قال: ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله، ولو كان المراد ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله لكان منصوبًا على المفعولية، ولم يتقدم لفظ الفعل ليعمل فيه ولا نفي الابتداع؛ بل أثبته لهم، وإنما تقدم لفظ الكتابة فعلم أن القول الذي ذكرناه هو الصواب وأنه استثناء منقطع، فتقديره وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله؛ فإن إرضاء الله واجب مكتوب على الخلق، وذلك يكون بفعل المأمور وبترك المحظور لا بفعل ما لم يأمر بفعله وبترك ما لم ينه عن تركه، والرهبانية فيها فعل ما لم يؤمر به وترك ما لم ينه عنه[1].

الشبهة السادسة: يقولون: بأننا وجدنا في القرآن من تعظيم المسيح وأمه.

حيث يقول تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ (الأنبياء: ٩١)، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢﴾ (آل عمران: ٤٢)، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ (البقرة: ٨٧).

جوابًا على ما سبق ذكره نقول:

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ حق، وهذا ليس خاصا فقط بعيسى عليه السلام

قال ابن تيمية: وأما قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ (البقرة: ٨٧)، فهو حق كما أخبر الله به، وقد ذكر تعالى تأييد عيسى بن مريم بروح القدس في عدة مواضع فقال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، وقال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٢٨: ٢٣٢.

مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة: ١١٠)، وقال تعالى في القرآن: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ (النحل: ١٠١، ١٠٢)، وقال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ (الشعراء: ١٩٣، ١٩٤)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٩٧).

فروح القدس الذي نزل بالقرآن من الله هو الروح الأمين وهو جبريل. وثبت في الصحيح عن أبي هريرة أنه سمع النبيﷺ يقول لحسان بن ثابت: " أجب عني، اللهم أيده بروح القدس "[١]

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: " اهجهم أو هاجهم وجبريل معك "[٢].

فهذا حسان بن ثابت واحد من المؤمنين لما نافح عن الله ورسوله، وهجا المشركين الذين يكذبون الرسول أيده الله بروح القدس وهو جبريل ﷺ، وأهل الأرض يعلمون أن محمدًا ﷺ لم يكن يجعل اللاهوت متحدًا بناسوت حسان بن ثابت، فعلم أن إخباره بأن الله أيده بروح القدس لا يقتضي اتحاد اللاهوت بالناسوت، فعلم أن التأييد بروح القدس ليس من خصائص المسيح، وأهل الكتاب يقرون بذلك، وأن غيره من الأنبياء كان مؤيدًا بروح القدس كداود وغيره؛ بل يقولون: إن الحواريين كانت فيهم روح القدس، وقد ثبت باتفاق المسلمين واليهود والنصارى أن روح القدس يكون في غير المسيح؛ بل في غير الأنبياء[٣].

---

(١) البخاري (٣٢١٢)، مسلم (٢٤٨٥).

(٢) البخاري (٣٢١٣)، مسلم (٢٤٨٦).

(٣) الجواب الصحيح ٢/ ١٢٥: ١٢٦، وراجع شبهة ألوهية المسيح.

الشبهة السابعة: يقولون: إن القرآن لما جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتب، فثبت بهذا ما معنا، ونفى عن كتبنا التي في أيدينا التهم والتبديل والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (المائدة: ٤٨)، ومثل قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (آل عمران: ٣).

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: تصديق النبي ﷺ للأنبياء من قبله، وبما أنزله الله عليهم من كتب حق.

قال ابن تيمية: أما تصديق خاتم الرسل محمد ﷺ لما أنزل الله قبله من الكتب، ولمن جاء قبله من الأنبياء فهذا معلوم بالاضطرار من دينه، متواترٌ تواترا ظاهرا كتواتر إرساله إلى الخلق كلهم، وهذا من أصول الإيمان[1].

قال تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٣٦، ١٣٧)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٤، ٨٥)[2].

الوجه الثاني: الآيات نفسها حجة عليهم.

فقد تمسكوا بأول الآية وتركوا آخرها لما فيها من الجواب عليهم قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨).

فبيَّن أنه أنزل هذا القرآن مهيمنًا على ما بين يديه من الكتب، والمهيمن: الشاهد المؤتمن الحاكم، يشهد بما فيها من الحق، وينفي ما حرف فيها، ويحكم بإقرار ما أقره الله من

---

(١) وقد بينا ذلك في الوجه الأول من الردود الإجمالية.

(٢) الجواب الصحيح ١/ ٢٦١.

أحكامها، وينسخ ما نسخه الله منها، وهو مؤتمن في ذلك عليها، وأخبر أنه أحسن الحديث وأحسن القصص، وهذا يتضمن أنه كل من كان متمسكًا بالتوراة قبل النسخ من غير تبديل شيء من أحكامها؛ فإنه من أهل الإيمان والهدى، وكذلك من كان متمسكًا بالإنجيل من غير تبديل شيء من أحكامه قبل النسخ فهو من أهل الإيمان والهدى، وليس في ذلك مدح لمن تمسك بشرع مبدل؛ فضلًا عمن تمسك بشرع منسوخ؛ ولم يؤمن بما أرسل الله إليه من الرسل، وما أنزل إليه من الكتب؛ بل قد بين كفر اليهود والنصارى بتبديل الكتاب الأول، وبترك الإيمان بمحمد ﷺ في غير موضع(١).

وأيضًا: فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ (المائدة ٤٨). وهذا أمر من الله ـ تعالى ذكره ـ لنبيه محمد ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهلِ الملل، بكتابه الذي أنزله إليه، وهو القرآن الذي خصّه بشريعته. يقول تعالى ذكره: احكم، يا محمد، بين أهل الكتاب والمشركين، بما أُنزل إليك من كتابي وأحكامي، في كل ما احتكموا فيه إليك، من الحدود والجُرُوح والقَوَد والنفوس، فارجم الزاني المحصَن، واقتل النفسَ القاتلةَ بالنفس المقتولة ظلمًا، وافقأ العين بالعين، واجدع الأنف بالأنف، فإني أنزلت إليك القرآن مصدِّقًا في ذلك ما بين يديه من الكتب، ومهيمنًا عليه رقيبًا، يقضي على ما قبله من سائر الكتب قبلَه، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود الذين يقولون: إن أوتيتم الجلدَ في الزاني المحصن دون الرجم، وقتلَ الوضيع بالشريف إذا قتله، وتركَ قتل الشريف بالوضيع إذا قتله، فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا عن الذي جاءك من عند الله من الحق، وهو كتاب الله الذي أنزله إليك. يقول له: اعمل بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاخترتَ الحكم عليهم، ولا تتركنَّ العمل بذلك اتباعًا منك أهواءَهم، وإيثارًا لها على الحق الذي أنزلته إليك في كتابي(٢).

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٦٢.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٢٦٨: ٢٦٩.

الشبهة الثامنة: يقولون: بأن القرآن شهد لهم أنهم أنصار الله.

حيث يقول كما قال عيسى ابن مريم: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ (الصف: ١٤).

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الحواريون مؤمنون مسلمون، لكن ليس في هذا أنهم رسل الله.

فيقال هذا حق، والحواريون مؤمنون مسلمون وهم أنصار الله لكن ليس في هذا أنهم رسل الله، ولا في هذا أن كل ما أنتم عليه من الدين مأخوذ عنهم، ولا في هذا أن الواحد من الحواريين معصوم من الغلط؛ بل أمر الله المؤمنين من أمة محمد أن يكونوا أنصار الله كما طلب المسيح ذلك بقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1].

الوجه الثاني: أن هذا الوصف ليس خاصًا بهم.

فقد وصف الله المؤمنين أصحاب النبيﷺ من أهل المدينة النبوية بأنهم أنصار الله بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠)، والمهاجرون أفضل من الأنصار، وهم أيضًا من أنصار الله نصروه كما نصره الأنصار لكن لما كان لهم اسم يخصهم وهو المهاجرون وهو أفضل الاسمين خص الأنصار بهذا الاسم. والمهاجرون والأنصار أفضل ممن آمن بموسى ومن آمن بعيسى عند المسلمين ومع هذا فليس فيهم عندهم نبي ولا رسول لله ولكن فيهم رسل رسول الله ﷺ تسليمًا[2].

كذلك فإن أول الآية يرد عليهم، فإن الله سبحانه وتعالى أمر عباده أن يكونوا أنصارًا له.

قال ابن كثير: يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله، كما استجاب الحواريون

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق.

لعيسى حين قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ أي: معيني في الدعوة إلى الله ﷻ: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾.

وهم أتباع عيسى عليه السلام: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به ومُوَازِروك على ذلك؛ ولهذا بعثهم دعاةً إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين. وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: "من رجل يُؤويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي" حتى قيَّض الله ﷻ له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه ووازروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وَفَوا له بما عاهدوا الله عليه؛ ولهذا سماهم الله ورسوله: الأنصار، وصار ذلك عَلَمًا عليهم ﷺ، وأرضاهم[1].

الشبهة التاسعة: الرد على تأويلهم لقول الله تعالى.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ٢-٥)، حيث قالوا: فمعنى بالكتاب: الإنجيل، والذين يؤمنون بالغيب نحن النصارى الذين آمنا بالمسيح وما رأيناه، ثم أتبع بالقول "والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك" فأعني بهم المسلمين الذين آمنوا بما أتى به وما أتى من قبله.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: هذا التأويل من تحريف الكلم عن مواضعه وتبديل كلام الله ﷻ.

وأما تأويلهم قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ إنه الإنجيل، ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾عنى بهم النصارى، فهو من تحريف الكلم عن مواضعه وتبديل كلام الله؛ كما فعلوه في قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ (آل عمران: ٨٥)، وفي قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ أي باللاهوت، وفي قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾، وفي غير ذلك مما ذكروه وتأولوه من القرآن على غير

(١) تفسير ابن كثير ١٣/ ٥٥٠.

المعنى الذي أراد الله به، وهذا مما يؤيد أنهم فعلوا كذلك بالتوراة والإنجيل فإنه إذا كان القرآن الذي قد عرف تفسيره، والمراد به العام والخاص، ونقل ذلك عن الرسول نقلًا متواترًا حتى عرف معناه علما يقينًا اضطراريًا فيبدلون معناه ويحرفون الكلم عن مواضعه، فماذا يصنعون بالتوراة والإنجيل ولم ينقل لفظ ذلك ومعناه كما نقل القرآن وليس في أهل تلك الكتب من يذب عن لفظها ومعناها كما يذب المسلمون عن لفظ القرآن ومعناه؟ (١).

الوجه الثاني: " ذلك " تستخدم للإشارة إلى الغائب و الحاضر.

وهؤلاء غرهم قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ فظنوا أن لفظ ﴿ ذَٰلِكَ﴾لما كان يشار بها إلى الغائب أشير بها إلى الإنجيل. فيقال لهم: هذا كقوله: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ (آل عمران: ٥٨)، وأشار بذلك إلى ما تلاه قبل هذه الآية، وقوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ (الممتحنة: ١٠)، وقوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (الطلاق: ٢)، ومثله قوله تعالى بعد أن ذكر خبر يوسف الصديق: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ (يوسف: ١٠٢).

وقال أيضًا لما ذكر خبر مريم: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ ﴾ (آل عمران: ٤٤)، كما قال لما ذكر آيات يخبر فيها عن نوح: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ﴾ (هود: ٤٩)، وقال: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف: ١، ٢).

و(تلك) في المؤنث مثل (ذلك) في المذكر، ومع هذا فأشار إلى القرآن ومنه قوله: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (الحجر: ١)، وقوله: ﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل: ١)، ومنه قوله: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (القصص: ١، ٢).

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٦٣.

ومثل هذا كثير، وذلك أنه لما أنزل قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٢)، ونحو ذلك، لم يكن الكتاب المشار إليه قد أنزل تلك الساعة، وإنما كان قد أنزل قبل ذلك فصار كالغائب الذي يشار إليه كما يشار إلى الغائب وهو باعتبار حضوره عند النبي يشار إليه كما يشار إلى الحاضر كما قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ (الأنبياء: ٥٠)(١).

الوجه الثالث: الآية نفسها ترد عليهم.

وقد قال تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة: ٢-٤).

قال ابن تيمية: وقد وصف النصارى بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وأنهم كافرون ظالمون، فكيف يجعلهم المتقين الذين يؤمنون بالغيب؟.

قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (التوبة: ٢٩)، وأول التقوى تقوى الشرك وقد وصف النصارى بالشرك في قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (التوبة: ٣١)، وقال تعالى لما ذكر المسيح: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ (مريم: ٣٧، ٣٨).

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة: ٧٢).

وقد أخبر أن الله ولي المتقين فقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٦٣: ٢٦٤.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ (الجاثية: ١٨، ١٩)، فلو كانوا من المتقين فضلًا عن أن يكونوا هم المتقين؛ لكان الله وليهم ولكانت موالاتهم واجبة على المؤمنين، وهو قد نهى عن موالاتهم وجعل من يتولاهم ظالمًا وجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض والكفار بعضهم أولياء بعض، وأيضًا فإن الله ﷻ قال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ (البقرة: ٣)، وهي الصلاة التي أمر بها في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ (الإسراء: ٧٨)، وقد قال ﷺ: "لا يقبل الله صلاة بغير طهور"، والنصارى يصلون بغير طهور، وقال ﷺ: " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب" وهم لا يقرؤونها، والصلاة التي فرضها وأثنى عليها مشتملة على استقبال الكعبة وعلى ركوع وسجدتين في كل ركعة، وغير ذلك مما لا يفعله النصارى، فكيف يمدحهم بإقامة الصلاة وهم لا يقيمون الصلاة التي أمر بإقامتها؟.

ثم لو قال اليهودي المراد بقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ التوراة ﴿بِالْمُتَّقِينَ﴾ اليهود. لكان هذا -مع بطلانه- أقرب من قول القائل: إن المراد بالكتاب الإنجيل؛ لأن التوراة أحق بذلك من الإنجيل فإنها الأصل والله تعالى يقرن بينها وبين القرآن في غير موضع كقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ (هود: ١٧)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ (الأحقاف: ١٠)، وأما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (البقرة: ٤).

فهي صفة ثانية للذين يؤمنون بالغيب مجملا ثم وصفهم بإيمان مفصلًا بما أنزل إليك وما أنزل من قبله، والعطف بالواو يكون لتغاير الذوات ويكون لتغاير الصفات كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾﴾ (الأعلى: ١-٥)، والذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى وهو

الذي أخرج المرعى. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (الزخرف ٩: ١٢).

ومثله قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (المؤمنون١-١١)، فهم صنف واحد وصفهم بهذه الصفات بحرف الواو.

وقد فسر قبل قوله: يؤمنون بالغيب صفة المؤمنين من غير أهل الكتاب كمشركي العرب، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك صفة من آمن به من أهل الكتاب، وعلى هذا القول هؤلاء غير هؤلاء لكن هذا ضعيف؛ فإنه لا بد في المؤمنين من غير أهل الكتاب أن يؤمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله، ولا بد في مؤمن أهل الكتاب أن يؤمن بالغيب فكل من الإيمانين واجب على كل واحد، ولا يكون أحد على هدًى من ربه مفلحا إلا بهذا وهذا.

وأما قول النصارى: نحن الذين آمنا بالسيد المسيح وما رأيناه، فهكذا اليهود آمنوا بموسى عليه السلام وما رأوه، والمسلمون آمنوا بمحمد وما رأوه؛ بل المسلمون آمنوا بموسى وعيسى وسائر النبيين وما رأوهم بخلاف اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، ثم الغيب ليس المراد به صورة النبي ﷺ؛ فإن صورة النبي ليست من الغيب فإن الناس يرونها وليس في رؤيتها ما يوجب إيمانًا ولا كفرًا، ولكن الغيب ما غاب عن مشاهدة الخلق وهو ما أخبرت به الأنبياء من الغيب فيدخل فيه الإيمان بالله وملائكته

وكتبه ورسله وهو الإيمان بأنهم رسل الله، وسواء رؤيت أبدانهم أو لم تر فقد يراهم من لم يؤمن برسالتهم وقد يؤمن برسالتهم من لم يرهم.

والمقصود الإيمان برسالتهم لا بنفس صورهم حتى يقول القائل: آمنا بنبي ولم نره وقد يعلم من دلائل نبوته وأعلام رسالته من لم يره أكثر مما يعلمها من رآه(١).

الوجه الرابع: شهادة الكتاب المقدس على نفسه بالتحريف.

إليك أيها القارئ الشهادة بتحريف الكتاب المقدس من الكتاب المقدس نفسه:

أولًا: أن كاتب المزمور (٥٦: ٤) ينسب إلى داود ﷺ بأن أعداءه طوال اليوم يحرفون كلامه: مَاذَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَ بِي الْبَشَرُ؟ يُحَرِّفُ أَعْدَائِي طَوَالَ الْيَوْمِ كَلاَمِي.

ثانيًا: لقد اعترف كاتب سفر إرميا (٢٣: ١٣، ١٥، ١٦) بأن أنبياء أورشليم وأنبياء السامرة الكذبة حرفوا كلام الله عمدًا: فِي أَوْسَاطِ أَنْبِيَا ءِ السَّامِرَةِ شَهِدْتُ أُمُورًا كَرِيهَةً، إِذْ تَنَبَّأُوا بِاسْمِ الْبَعْلِ، وَأَضَلُّوا شَعْبِي إِسْرَائِيلَ. وَفِي أَوْسَاطِ أَنْبِيَاءِ أُورُشَلِيمَ رَأَيْتُ أُمُورًا مَهُولَةً: يَرْتَكِبُونَ الْفِسْقَ، وَيَسْلُكُونَ فِي الأَكَاذِيبِ، يُشَدِّدُونَ أَيْدِي فَاعِلِي الإِثْمِ لِئَلاَّ يَتُوبَ أَحَدٌ عَنْ شَرِّهِ. . . لأَنَّهُ مِنْ أَنْبِيَاءِ أُورُشَلِيمَ شَاعَ الْكُفْرُ فِي كُلِّ أَرْجَاءِ الأَرْضِ.

ثالثًا: لقد اعترف كاتب سفر إرميا بأن اليهود حرفوا كلمة الله؛ لذلك فهو ينسب لإرميا في (٢٣: ٣٦) توبيخ النبي إرميا لليهود: أما وحي الرب فلا تذكروه بعد؛ لأن كلمة كل إنسان تكون وحيه؛ إِذْ قَدْ حَرَّفْتُمْ كَلاَمَ الإِلَهِ الْحَيِّ، الرَّبِّ الْقَدِيرِ، إِلَهِنَا.

رابعًا: وكاتب سفر الملوك الأول (١٩: ٩) ينسب لإليا النبي حين هرب من سيف اليهود فيقول: وَقَالَ الرَّبُّ لإِيلِيَّا: «مَاذَا تَفْعَلُ هُنَا يَاإِيلِيَّا؟ » فَأَجَابَ: «غِرْتُ غَيْرَةً لِلرَّبِّ الإِلَهِ الْقَدِيرِ، لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَنَكَّرُوا لِعَهْدِكَ وَهَدَمُوا مَذَابِحَكَ وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَكَ بِالسَّيْفِ، وَبَقِيتُ وَحْدِي. وَهَا هُمْ يَبْغُونَ قَتْلِي أيضًا.

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٦٤: ٢٦٨.

ويتسائل بعضهم الذين يتجاهلون الشواهد والأدلة الدالة على تحريف كتابهم المقدس قائلين: عندما يعطى الله الإنسان كتابا من عنده، فهل تظن أنه لا يستطيع المحافظة عليه من عبث البشر؟

نقول لهؤلاء الذين يتجاهلون الأدلة والشواهد الدالة على تحريف كتابهم المقدس: نعم، إن الله قادر على أن يحفظ كلمته ولكنه سبحانه وتعالى اختار أن يوكل حفظ كلمته إلى علماء وأحبار اليهود، ولم يتكفل هو بحفظها فقد ترك حفظ كلمته بيدهم فكان حفظ الكتاب أمرًا تكليفيًا، وحيث إنه أمرٌ تكليفيٌ فهو قابلٌ للطاعة والعصيان من قبل المكلفين، فالرب استحفظهم على كتابه ولم يتكفل هو بحفظه، وإليكم الأدلة من كتابكم المقدس على هذا:

جاء في سفر التثنية (٤: ٢) قول الرب: وَالآنَ أَصْغُوا يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الشَّرَائِعِ وَالأَحْكَامِ الَّتِي أُعَلِّمُهَا لَكُمْ لِتَعْمَلُوا بِهَا، فَتَحْيَوْا وَتَدْخُلُوا لِامْتِلاَكِ الأَرْضِ الَّتِي يُورِّثُهَا لَكُمُ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ لاَ تزيدوا عَلَى الكلام الذي أنا أوصيكم به، وَلاَ تُنَقِّصُوا مِنْهُ، لتحفظوا وصايا الرب إلهكم التي أنا أوصيكم بها.

وجاء في سفر الأمثال (٣٠: ٥-٦): كل كلمة من الله نقية. ترس هو للمحتمين به. لا تزد على كلماته لئلا يوبخك فتكذّب.

وقد جاء في سفر الرؤيا (٢٢: ١٨) قول الكاتب: وَإِنَّنِي أَشْهَدُ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ النُّبُوءَةِ هَذَا: إِنْ زَادَ أَحَدٌ شيئًا عَلَى مَا كُتِبَ فِيهِ، يَزِيدُ الله عليه الضربات، وَإِنْ حذف أَحَدٌ شيئًا مِنْ أَقْوَالِ كِتَابِ النُّبُوءَةِ هَذَا، يُسْقِطُ الله نَصِيبَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ.

إن هذا النص تعبير واضح من الكاتب بأن الله لم يتكفل بحفظ هذا الكتاب؛ لأنه جعل عقوبة من زاد شيئًا كذا ... وعقوبة من حذف شيئًا كذا. . . فهذا دليل واضح بأن الله لم يتكفل بحفظ الكتاب.

وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى عن التوراة التي كانت شريعة موسى ﷺ، وشريعة الأنبياء من بعده حتى عيسى ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا

ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (المائدة: ٤٤).

ومعنى ﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾: أي أمروا بحفظه، فهناك حفظ، وهنا استحفاظ.

وإذا كان الأحبار والرهبان ممن جاء بعد لم يحفظوا؛ بل بدلوا وحرفوا، فليس معنى ذلك أن الله لم يقدر على حفظ كتابه ـ حاشا وكلا ـ ولكن المعنى: أن الله لم يتكفل بحفظه؛ بل جعل اليهود أمناء عليه.

ومن المعلوم أن هناك المئات من الرسل والانبياء جاؤوا بعد نوح عليه السلام ولم يتكفل الرب بحفظ رسائلهم سواء كانت شفوية أو مكتوبة وإلا فأين هي؟ مثال ذلك: صحف ابراهيم التي ذكرت في القرآن الكريم فلا وجود لها اليوم.

وأخيرًا: فهل هناك أعظم من شهادة الكتاب المقدس على نفسه بالتحريف؟

فقل لي بربك أيكون الثناء والمدح على هذا المحرف؟ [1].

المبحث الثالث: وماذا عن البشارات التي توجد في الكتاب المقدس بنبوة رسول الإسلام محمد ﷺ؟

البشارة الأولى: (أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ).

بشارة بمحمد والوحي إليه.

في (التثنية١٨/ ١٨: ٢١): قَالَ لِيَ الرَّبُّ: قَدْ أَحْسَنُوا فِي مَا تَكَلَّمُوا. ١٨ أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ. ١٩ وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لاَ يَسْمَعُ لِكَلاَمِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ. ٢٠ وَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي يُطْغِي، فَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي كَلاَمًا لَمْ أُوصِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، أَوِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ آلِهَةٍ أُخْرَى، فَيَمُوتُ ذلِكَ النَّبِيُّ.

ومعنى النص أن موسى لما جمع بني إسرائيل ناحية الطور ليسمعوا صوت الله وهو يتحدث معه في جبل الطور (حوريب) حدث من هيبة الله وجلاله رعد وبرق ونار ودخان،

---

(١) يراجع تفصيلًا بحث: تحريف الكتاب المقدس في هذه الموسوعة.

فخاف بنو إسرائيل، وقالوا لموسى: إذا أراد الله أن يكلمنا فيها بعد فليكن عن طريق نبي ونحن نسمع لهذا النبي ونطيع، فاستحسن الله منهم ووعدهم بنبي له يسمعون ويطيعون.

ولاحظ أن هذا النص هو الذي تشير إليه آية سورة الأعراف﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ . . . ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

البشارة الثانية: (فَأَنا أغيرُهُمْ بِمَا لَيْسَ شَعْبًا).

وهي بشارة بأمة محمد، ففي (التثنية٣٢/ ٢٢): هُمْ أَغَارُونِي بِمَا لَيْسَ إِلهًا، أَغَاظُونِي بِأَبَاطِيلِهِمْ. فَأَنَا أُغِيرُهُمْ بِمَا لَيْسَ شَعْبًا، بِأُمَّةٍ غَبِيَّةٍ أُغِيظُهُمْ.

والمقصود من الفقرة: أن بني إسرائيل أغضبوا الله تعالى بانحرافهم عن التوحيد وعبادتهم الأوثان، وأن الله سيغيظهم باصطفاء العرب الذين هم عندهم محقرون وجاهلون.

البشارة الثالثة: (الاستعلان من جبال فاران).

وهي بشارة بنبوة محمد وبما يُوحى إليه: ففي (التثنية٣٣/ ٢): جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ.

البشارة الرابعة: (البركة بإسماعيل).

وهي بشارة بمحمد. ففي (التكوين١٧/ ٢٠): وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً.

وفي الطبعات القديمة(. . . وَأُكَثِّرُهُ جِدًّا جِدًّا. . .)، وقد وردت هذه البشارة في عدة مواضع من سفر التكوين مما يقوي الاستدلال بها على نبوة محمد ويبعد الوهم عنها[1].

* * *

(١) للمزيد: يُراجع بحث (إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ) من هذه الموسوعة.

الفهرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة